



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ والآثار

جامعة باتنة -1-
الحاج لخضر

النشاط الاقتصادي لشغور الشام والجزيرة خلال القرنين 2-4هـ/8-10م

أطروحة مقدّمة لنيل درجة دكتوراه علوم في التاريخ الوسيط

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:
كمال بن مارس

إعداد الطالبة:
صونية بن سخرية

أعضاء لجنة المناقشة

الجامعة الأصلية	الصفة	الرتبة	الاسم واللقب	الرقم
جامعة باتنة 1	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	أد/ رشيد باقة	01
جامعة 8 ماي 1945 قالمة	مشرفا ومقررا	أستاذ التعليم العالي	أد/ كمال بن مارس	02
جامعة باتنة 1	عضوا	أستاذ محاضر أ	د/ علي عشي	03
جامعة باتنة 1	عضوا	أستاذ محاضر أ	د/ عاشور منصورية	04
جامعة 8 ماي 1945 قالمة	عضوا	أستاذ محاضر أ	د/ رابح أولاد ضيف	05
جامعة سطيف 2	عضوا	أستاذ محاضر أ	د/ عبد المالك بكاي	06

السنة الجامعية: 1441-1442هـ/2020-2021م



﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ
فِي الْأَرْضِ ۗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

صدق الله العظيم

الرعد 17



شكر وتقدير

﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ لقمان 12

أحمد الله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا ملئ السماوات والأرض على ما أكرمنا به

من توفيق في إتمام هذه الدراسة التي أرجو أن تنال رضاه

ثم أرفع جزيل شكري ووافر امتناني إلى كل من:

أستاذي ومشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور "كمال بن مارس" حفظه الله تعالى وأطال في عمره

لتفضله الكريم إشرافا ونصحا وتوجيها على هذه الرسالة، والذي له الفضل - بعد الله تعالى -

على البحث والباحث مذ كان الموضوع عنوانا وفكرة إلى أن قام على سوقه واستوى،

فله مني كل الشكر والتقدير والعرفان.

أساتذتي الموقرين أعضاء لجنة المناقشة الكرام رئاسة وأعضاء لتفضلهم عليّ بقبول مناقشة

هذه الرسالة وصبرهم على قراءتها، وتوضيح الصواب لي وجعل الرسالة أفضل بتوجيهاتهم

الجليلة، وإثرائها من علمهم وتوجيهاتهم التي من شأنها أن ترفع قيمة هذا العمل فلهم الشكر

والعرفان، سائلا الله الكريم أن يشيهم عني خيرا.

بعدها فالشكر موصول لكل أساتذتي الذين تتلمذت على أيديهم في كل مراحل دراستي حتى

أتشرف بوقوفي أمام حضاراتكم اليوم.

وجميع الزملاء الذين قدموا لنا المساعدة مهما كان طبيعتها وإلى كل من قدم لنا تشجيعا

مهما بلغت درجته



الإهداء

إلى الذين عاشوا من أجل أن أحيا من أجل أن أصير، معترفا بفضلهما وداعيا الله
أن يمد لي في عمرهما أمي وأبي وإلى جميع أفراد أسرتي

إلى من تمنيت أن يرى هذا النجاح ويقاسمني فرحتي وشاء القدر ألا يراه،
دعواتي بأن يسكنك الله جنات الخلود أهدي إلى روحك الطاهرة ثمرة هذه الدراسة أخي

إلى من كان سندا لي، إلى من وقف معي منذ بدايه المشوار، إلى الذي لم يدخر جهدا
لإتمام هذا العمل زوجي الحبيب حفظه الله

إلى من كان وجودهم في حياتي من أعظم نعم الله عليّ، إلى أعلى ما أملك أبنائي
لينة، أمانى، وساجد حفظكم الله

إليكم جميعا أهدي ثمرة هذا العمل



الرموز والمختصرات المعتمدة في البحث

الرمز	المعنى المقصود
Op. cit	المرجع السابق
Ibid	المرجع نفسه
تح	تحقيق
تص	تصحيح
تر	ترجمة
مر	مراجعة
هـ	هجري
م	ميلادي
/	حد فاصل بين التاريخ الهجري والميلادي
د،د،ن	دون دار نشر
ط	طبعة
د،ط	دون طبعة
د،م	دون مكان
د،ت	دون تاريخ
د،س	دون سنة
ج	جزء
مج	مجلد
﴿﴾	لحصر الآيات القرآنية
{}	لحصر الأحاديث الشريفة
«»	لحصر أقوال العلماء والفقهاء

مقدمة

إنّ نشأة أي نظام وتطوره، لا بد أن يتركز على أسس ومبادئ وقواعد تعطيه زخماً من القوة والارتكاز، وتدفعه إلى الاستمرارية عبر المراحل التاريخية، والحديث عن أي نظام في الدولة الإسلامية، وفي أي عصر من عصورها المختلفة التي امتدت قروناً من الزمن لم يكن وليد اللحظة، بل هو وليد امتدادات تاريخية طبعته بمظاهر القوة والاستمرار.

ومن المؤكد أن نظام حماية الحدود لم يكن من مبتكرات العصر الإسلامي؛ لأنّ الدول والأمم عبر مراحلها التاريخية، كان لا بد لها أن تنشئ نظاماً ووسائل دفاعية على حدودها، محاولة بذلك تحقيق ديمومة لاستقرارها، وحماية نفسها من الأخطار الخارجية، ومما لا شك فيه أن هذه النظم والوسائل تطورت تبعاً لنوع الخطر ونوع العدو، ولهذا يمكن القول أنّ الدولة اتبعت نظاماً يتماشى مع خصوصيتها والأخطار المحيطة بها، فضلاً عن إفادتها من النظم القديمة.

وقد راعى المسلمون منذ فتوحاتهم الأولى أن تحقق الحدود لدولتهم تأميناً كافياً، تماشياً مع الخطر الماثل أمامهم خاصة من البيزنطيين، فجاء نظام المرابطة على الحدود مع ما أمر به الإسلام من وجوب التصدي لخطر العدو، فوجدت المسالح والرباطات التي حلت محل القلاع والحصون البيزنطية على الحدود الشمالية والغربية بعد عمليات الفتوح في بلاد الشام، وما بعدها في العهد الراشدي، ومن ثمّ العهود التي تلتهم، فضلاً عن إنشاء حصون وقلاع جديدة عبثت بالمقاتلين، وحشدت بالمؤن والذخائر، وبنيت فيها المساجد، لتكون أشبه بالمدن العسكرية حفاظاً على حدود الدولة.

وضمن سياق هذه الخطة التي اعتمدها المسلمون في حماية حدود الدولة، عملوا على إنزال القبائل العربية بمناطق الحدود، والسماح لهم بزراعة الأرض التي لا مالك لها، وبذلك كانت هذه البداية مهمة لسياسة الدولة الدفاعية على حدودها، وعملت تلك الحصون والقلاع على تثبيت خط الحدود وتأمينها في أوقات الضعف، فكانت مراكز للوثوب، أو قواعد للهجوم إلى ما وراء الحدود في زمن القوة، وتضمنت الغارات الموسمية التي عرفت باسم الصوائف والشواتي لخدمة هذا الغرض منذ بدء الحروب عبر سلسلة جبال طوروس، فضلاً عن أنّ هذه الغارات كانت وسيلة لجمع المعلومات عن العدو، وتدريباً متواصلًا للجنود على القتال تحت ظروف تختلف عمّ ألفه الجنود في الجزيرة العربية.

وقد نتج عن ذلك تنظيم إداري حربي إسلامي أطلق عليه المسلمون اسم الثغور، يعد ظهوره حلقة من حلقات تطور مر بها هذا النظام منذ فتح تلك الجهات، وكانت الثغور خطا طويلا من القلاع يحمي هذه الحدود، التي كانت مسرحا لأكبر وأطول احتكاك حربي وحضاري في تاريخ العصور الوسطى، وذلك بحكم التوسعات الخارجية لكلا الدولتين العظيمة اللتين فصلت بينهما تلك القلاع الثغرية الهامة، سواء من ناحية الشمال حيث الدولة البيزنطية، أو من ناحية الجنوب حيث الدولة الإسلامية.

ولم يكن اختيار المواقع الثغرية اختيارا عشوائيا؛ لأنّ اختيار هذه الأماكن حكمته ظروف كثيرة، لعب العامل الاقتصادي فيها دورا كبيرا، فغالبية القلاع كانت تتمتع بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة مياهها سواء من الأنهار أو الأمطار أو البحيرات، وتنوع تضاريسها ومناخاتها، بالإضافة إلى توفر الكثير من المواد الخام اللازمة للصناعة، سواء من المنتجات الزراعية أو الطبيعية، كما أنّ موقعها المميز جعل منها ملتقى تجاريا يربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب. فرغم أن حياة الناس بالمنطقة كانت حربية أكثر منها اقتصادية، وعماد ثروتها القوة لا الصناعة، إلا أنّ إقامة قوات ثابتة تدافع عن تلك المناطق، كان لابد لها من توفر موارد ثابتة للإعاشة، سواء من ناحية المأكل أو المشرب أو التسلح، أو بعبارة أخرى امتلاكها لمصادر الثروة؛ من خلال كسب المال الذي يقوم أساسا على الزراعة والصناعة والتجارة، وقد تأثرت الأوضاع الاقتصادية بالوضع العام للمنطقة التي كان يغلب عليها الطابع العسكري، فقد كانت تدين في بقائها إلى موقعها في تلك المنطقة الوعرة من الحدود، ولعلّ أنّ هذه المناطق قد أثرت في الحياة الاقتصادية بشكل واضح.

إشكالية الدراسة:

تنحصر إشكالية الموضوع في الحاجة إلى دراسة اقتصادية تحليلية وافية، تلقي الضوء على مناطق الثغور الشامية والجزرية بنوعيتها البرية والبحرية، والمهمة التي قامت بها في الدفاع عن حدود الدولة أمام الأطماع الخارجية المتواصلة، بالإضافة إلى إسهامها بنصيب وافر في الحركة الاقتصادية خلال العصور الإسلامية الأولى، رغم الصراعات الحربية والعسكرية التي شهدتها المنطقة، فكانت الإشكالية الرئيسية كالآتي:

كيف كان واقع النشاط الاقتصادي لثغور الشام والجزيرة خلال القرنين 2-4هـ/8-10م

ومن خلال هذا التساؤل تتفرع إشكاليات عديدة يتركز حولها البحث، ولعل أهمها:

- كيف نشأت الثغور، وكيف تطورت، وما أسباب قيامها؟
- ماهي تقسيمات الثغور، وما تأثير جغرافيتها على النواحي الاقتصادية بشكل عام؟
- هل أثرت الأوضاع الحربية للمنطقة على أوضاعها الاقتصادية؟
- ما هي أهم العوامل التي تحكمت بالنشاط الاقتصادي لمناطق الثغور، وأثرت فيه؟
- هل شجعت جغرافية المنطقة وإمكاناتها على إقامة زراعة؟ وهل اهتم خلفاء الدولة الإسلامية بنشرها في تلك الأقاليم؟ وهل وفرت موارد ثابتة لسكان تلك المناطق، وخففت العبء عن كاهل الخلافة الإسلامية وبيت المال أم العكس؟
- هل اعتبرت المبادرات المالية التي أقدم عليها خلفاء الدولة الإسلامية نقلة نوعيه في مجال تطور نظام الأرض والضرائب وخاصة في مناطق الثغور، وهل اعتمد فقهاء المالية على مصادر التشريع الإسلامي فقط، أم كانت لهم اجتهادات انسجمت مع مبادئ التشريع الإسلامي؟
- كيف كانت حالة الزراعة بأهم الثغور البرية والبحرية الشامية والجزرية؟ وما هي أهم العوامل المساعدة على قيامها وانتشارها؟ وما هي أشهر المحاصيل التي أنتجتها؟
- هل عدت الزراعة بمناطق الثغور من الموارد الاقتصادية للخلافة الإسلامية؟ وهل أسهمت بدور مباشر في استمرارية حركه الجهاد لمواجهة العدو؟
- هل اشتملت مدن الثغور على نشاط صناعي؟ وهل ساعدت إمكاناتها على قيامه؟
- هل أسهمت الصناعة في تطوير اقتصاد الثغور؟ وهل اهتم خلفاء الدولة الإسلامية في هذه الفترة بالصناعات وشجعوها؟
- ما هي أهم الصناعات والحرف التي اشتهرت بها المنطقة، وكيف كانت أوضاع الصناع والحرفيين بها؟
- إلى أي مدى نشطت التجارة واتسعت في تلك المدن، وهل تمت على أساس تنظيمي؟
- كيف أثر الموقع الجغرافي للثغور في حركة التجارة العالمية؟

- ما هي أهم المسالك والطرق التجارية لإقليم الثغور، وما عوامل قيامها ومخاطرها، وما هو دورها في اتساع الحركة التجارية؟
 - ما هي مختلف الوسائط التجارية التي تعامل بها سكان المنطقة في نشاطاتهم مع غيرهم؟
 - ما هي أنواع السلع المتبادلة تصديرا واستيرادا لمدن الثغور، وما هي الأقاليم التي تعاملت معها؟
 - ما هي أهم المراكز التجارية بالمنطقة، وهل ازدهرت لتصبح نماذج لمدن تجارية في العصور الوسطى؟
 - من أين يأتي دخل الثغور؟ وأين تكمن أهم إيراداتها؟
 - فيما تكون نفقات وأوجه صرف الثغور؟ وهل هناك توازن بين مداخلها ونفقاتها؟
 - إلى أي مدى كانت التنظيمات المالية والرقابية قادرة على تحقيق النمو والازدهار الاقتصادي؟ وماهي إجراءات الدولة لمعالجة الأزمات الاقتصادية بالمنطقة؟
- حدود الدراسة:

إنّ تحديد السياق الزمني ومقارنته مجاليا، يساهم بقدر كبير في بلورة العمل المنجز، والوقوف عند ثنايا الموضوع، وتوظيف حيثياته، ومنه كانت حدود الدراسة كالاتي:

الحدود المكانية: تربعت الدراسة على حيز مكاني تمثل في مناطق الثغور شمال بلاد الشام والجزيرة، والساحل الشرقي لبحر الشام.

الحدود الزمنية: تمتد حدود الدراسة زمنيا بين فترة انتقالية فاصلة في التاريخ الإسلامي، امتدت بين القرنين 2-4هـ/8-10م، من عالم بحري يهتم بالنظر إلى الغرب نحو عالم بري اهتم بالنظر إلى الشرق، يوافق نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي الأول ثم الثاني.

المنهج العلمي:

إنّ خصوصية البحث في هذه المجالات المعرفية والدراسة القائمة عليه تجعل الباحث ملزما بتوظيف المنهج التاريخي، القائم على ثلاثة مناهج رئيسية، والتي نوردتها على النحو الآتي:

المنهج الوصفي: وهو الذي يقودنا إلى البحث والتقصي عن المادة الخبرية التي تخدم موضوع الدراسة من مصادرها المتنوعة، ثم ربط الأحداث من مختلف الأصول، للوصول إلى المعطيات والمعايير التاريخية والمعرفية التي تشكل تصورا عاما للبحث.

المنهج الإحصائي: حيث تمت الاستعانة به لأنَّ إشكالية البحث اقتصادية أكثر منها سياسية أو عسكرية، فهنا وجب إعداد جداول، وتقديم معطيات إحصائية بلغة الأرقام؛ حول اليد العاملة بمناطق الثغور، ومداخيلها ونفقاتها، والحالة المالية، والعلاقات التجارية، والسلع المصدرة والمستوردة، والأفدية، وميزانية بناء الثغور وتحسينها، والصلات العسكرية، والعطاء إلى غيره.

المنهج التحليلي: حيث كان لزاما علينا تحليل ما تم جمعه من مادة خبرية، ومناقشتها، ومقارنتها، واستنباط النتائج منها، وذلك بغية الوصول إلى تقديم صورة واقعية وحقيقية قدر الإمكان عن هذا التنظيم الإداري، الذي عكس صورة مشرقة وراقية عن حضارة وإدارة إسلامية في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي.

دوافع اختيار الموضوع:

بدأت الدراسات الأكاديمية منذ فترة تنحو منحى مغايرا للمسار الذي اتخذته الدراسات التقليدية، حيث أنّ الباحثين بدأوا يعيرون اهتماما كبيرا لجوانب ظلت منسية من التاريخ، وأهمها الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي هذا الإطار ارتأينا أن يكون التركيز في دراستنا على الجانب الاقتصادي، ووقع اختيارنا على منطقة مهمة لعبت دورا كبيرا في ربط العلاقات بين الدولة الإسلامية وجيرانها من كل الجهات، وخاصة شمالا أين توجد الدولة البيزنطية، وهي منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية التي كانت بين مد وجزر بين الطرفين خلال القرنين 2-4هـ/8-10م.

ومن أهم الدوافع التي قادتنا لاختيار هذا الموضوع نذكر:

- الرغبة في استكمال ما كُنّا قد بدأناه من دراسة وبحث في مرحلة الماجستير، ومحاولة التخصص أكثر في حبايا هذه المنطقة المهمة من العالم الإسلامي والتعمق في دراستها.

- الرغبة الجامحة للكتابة في التاريخ الاقتصادي، كانت عاملا من عوامل انجذابنا لهذا الموضوع لاسيما في هذه الفترة.

- القصور الواضح في الدراسات الاقتصادية لهذه المنطقة بالذات.

- تلخيص الجوانب الحضارية لمناطق الثغور والاتصال بالعالم الخارجي، رغم احتكاكها الحربي بأعدائها من كل الجهات، وخاصة في العصور الإسلامية الأولى.

- إبراز العلاقة بين الدولة والثغور وعلاقتها بقوة وضعف الدولة، وكشف مدى تأثير مكانة الأمة بالتزامها بنظام الثغور أو ابتعادها عنه.

- محاولة إحياء الثغور والرباط في النفوس لما لها من أهمية كبيرة في تاريخ الأمم والحضارات منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا.

- إنَّ هذا الموضوع لم يكن وليد فترة زمنية قصيرة، لكن الحق يقال أنه لازمنا التفكير فيه أثناء كتابة رسالة الماجستير، وعندما وفقنا في إتمامها عرضنا على الأستاذ المشرف الدكتور كمال بن مارس الرغبة في الكتابة عن موضوع التجارة بمناطق الثغور الإسلامية، لكن سيادته أشار بتناول موضوع النشاط الاقتصادي للمنطقة بأكمله، وذلك لصعوبة الموضوع.

أهداف الدراسة:

تأتي الأهمية الاقتصادية لمنطقة الثغور الإسلامية خلال هذه الفترة، من خلال موقعها الدفاعي والاستراتيجي ذو الأهمية الاقتصادية، والذي ساهم في الحركة التجارية، ولكونها لعبت دور الوسيط بين الشرق والغرب، فقد كانت المستقبل لتجارات الشرق لتعيد تصديرها إلى أسواق الغرب البيزنطية، أو المدن الإيطالية التجارية التي نمت خلال العصور الوسطى، وكذلك إلى شمال أوروبا، علاوة على قيام علاقات تجارية بينها وبين الأقطار المجاورة، فالعلاقات والصلات التجارية لم تنقطع بين العالم الإسلامي والغرب الأوروبي بالرغم من حالات العداء والصراع الحربي الدائم بينهما.

وقد لعب إقليم الثغور الشامية والجزرية دورا بارزا في تلك العلاقات، ولعل الرباطات الحربية كانت ذات تأثير على هذه الصلات، ومن هنا تبدو أهمية البحث الذي يهدف إلى محاولة:

- التعرف على أسباب نشأة الثغور وتطورها.
- تحديد أهم العوامل المؤثرة في طبيعة النشاط الاقتصادي بالمنطقة.
- تشخيص وضع الأرض الزراعية بمناطق الثغور، ومعرفة أحكامها، والمواقف المختلفة منها، وإبراز حالة الزراعة في مدن الثغور، ومختلف التنظيمات المؤدية إلى اتساعها.
- إبراز ما للمنطقة من ثراء في المادة الأولية المعدنية، وعلاقتها بازدهار الصناعة، والتعرف على أهمية صناعاتها.

- الوقوف على أهمية الموقع الجغرافي تجارياً، ودوره في اتساع الحركة التجارية، من خلال؛ إبراز واقع الطرق التجارية، والمنشآت، والمحطات، والمراكز التجارية، وواقع العلاقات الاقتصادية، وطبيعة السلع المصدرة والمستوردة، وطبيعة التبادل التجاري.

- إجراء مقارنة بين مداخل الثغور ونفقاتها، ومدى استقلالية المنطقة في تسيير شؤونها عن الخلافة.
الدراسات السابقة:

رغم أنّ الموضوع لم تفرز له دراسة متخصصة فيما اطلعنا عليه، ما عدا رسالة ماجستير بعنوان: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الثغور والعواصم الإسلامية على الحدود البيزنطية من 132-566هـ/ 749-1258م، للباحثة نهلة أنيس محمد، جامعه الأزهر، 1991، وهي دراسة غير منشورة، لم تتمكن الباحثة من الحصول عليها، ولكن يستشف من عنوان الرسالة أنّها تركز على جانبين من جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كما أنّها غطت فترة كل الحكم العباسي.

وبعد البحث والتقصي تبين أنّ بعض المؤرخين قد تطرقوا لموضوع الثغور بصيغة أو بأخرى، وفيما يلي سنستعرض أبرز الدراسات العلمية التي تطرقت لهذا الموضوع، وما هي الجوانب التي أحاطت بها، وفي الوقت نفسه سنوضح مدى الاستفادة من تلك الدراسات، وما أضافته رسالة الباحث في هذا المجال:

- رسالة دكتوراه بعنوان: قنسرين في العصر العباسي حتى قيام الدولة الحمدانية 132-323هـ/749-944م، للباحث المهدي عيد الرواضية الجامعة الأردنية، 2012، والدراسة خصصت لإقليم قنسرين فقط، والذي يضم عدداً محدوداً من الثغور، وقد استفاد البحث منها في التعرف على بعض المصادر واقتباس بعض الآراء للكاتب حول بعض الموضوعات.

- رسالة ماجستير بعنوان: الجزيرة الفراتية منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية خلافه المأمون 132-218هـ/750-833م، للباحثة شيرين سليم حمودي، كلية الآداب، جامعة دمشق، 2008، وقد تحدثت فيها عن الجزيرة الفراتية بشكل عام، وتطرقت من خلالها للحديث عن بعض الثغور الجزرية التي تقع على حدود الجزيرة، كما أنّ الباحثة اقتصرت في دراستها على فترة زمنية انتهت بانتهاج خلافة المأمون، فوُقت استفادتنا في التعرف كذلك على مصادر البحث، واقتباس بعض الآراء حول

بعض الموضوعات.

كتاب الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، تأليف الدكتور فتحي عثمان، 1966، في ثلاثة أجزاء، وقد أفاد البحث كثيرا في مختلف مراحلها، وهو دراسة بحثية كبيرة يقدمها الكاتب من خلال تحليله لحقبة من التاريخ الإسلامي البيزنطي، حيث ركز في الكتاب الأول منها على الناحية الجغرافية دراسة موسعة، ثم تتبع تاريخ المنطقة حتى تهيأت حدودها واكتملت نظمها في ثلاثة فصول، أما الكتاب الثاني فخصصه لدراسة التاريخ العسكري والسياسي الخارجي للدولة الإسلامية في علاقاتها مع الدولة البيزنطية والشعوب الآسيوية المتاخمة لها، وهي ناحية النظم الخاصة بمناطق الثغور والحياة السائدة فيها في فصلين، وخصص الكتاب الثالث للجانب الإنساني من البحث، من ناحية التبادل التجاري، والفكري، وأدب الحدود سواء كان عربيا أو بيزنطيا، ثم ختمه بفصل عن مجتمع الثغور، وقد أفادت هاته الدراسة البحث ولازمته طيلة إنجاز الرسالة، سواء من حيث التعرف على مصادر البحث، أو تحليل الكاتب وآرائه المختلفة حول الموضوع.

- كتاب الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، للدكتورة عليه عبد السميع الجنزوري، جامعه عين شمس، 1979، والذي اهتمت فيه الباحثة بدراسة القلاع الثغرية الهامة، دراسة رأسية واسعة من الناحية السياسية أو الحضارية.

- رسالة ماجستير بعنوان: الثغور الشامية في العهد العباسي الأول 132-232هـ/750-847م، للباحث توفيق سلمان فريح حشيش، كلية الآداب، جامعه غزة، 2016، والدراسة تتحدث عن الثغور الشامية دون الجزرية والبحرية، وخلال فترة زمنية قصيرة مقارنة بالفترة التي تهتم بها دراستنا وقد استفاد منها البحث في استنتاج أهم العوامل المؤثرة في حياة الثغور، وفي التعرف على بعض مصادر البحث.

- رسالة ماجستير بعنوان: الثغور الشامية في العهد الأموي، للباحثة أفرح أحمد القططي، كلية الآداب، جامعه غزة، 2016، فهي لا تكاد تختلف عن سابقتها إلا فيما يخص الفترة التي تناولت فيها الباحثة الثغور، وهي الفترة الأموية.

- رسالة ماجستير بعنوان: الدور السياسي والحضاري لإقليم الثغور والعواصم وأثرها على العلاقات العباسية البيزنطية 132-334هـ/750-945م، للباحثة عبير عبد الحميد نجم، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، وهي دراسة غير منشورة، ولم تتمكن الباحثة من الحصول عليها.

خطة البحث:

حسب المادة الخبرية التي تمكنا من جمعها، ووفقاً للمنهج المتبع، تمت معالجة موضوع الدراسة في خطة بحثية تتكون من بابين وثلاثة فصول رئيسية في كل باب وخاتمة، حيث جاءت هذه الخطة متضمنة لعناصر الموضوع على النحو الآتي:

الباب الأول بعنوان: جغرافية ثغور الشام والجزيرة والعوامل المؤثرة في نشاطها الاقتصادي، وقد اشتمل على ثلاثة فصول، الفصل الأول بعنوان: جغرافية ثغور الشام والجزيرة، وضم خمسة مباحث أساسية؛ تناول الأول القصد من الثغور والمصطلحات المرتبطة بها، أمّا الثاني فكان حول فضائل الثغور والرباط في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ثم في أقوال العلماء والفقهاء، وخصص الثالث لنشأة نظام الثغور وتطوره من خلال معرفة أسباب نشأتها وتطورها فنضج فكرتها في العصرين الأموي والعباسي، وتناول الرابع منها تقسيمات الثغور في الفترة، وكيف أنّها قسمت إلى برية شامية، وبرية جزرية، وثغور شامية بحرية، ثم تمّ التطرق إلى إقليم العواصم والذي كانت بعض مدنه محسوبة من الثغور حتى عهد الخليفة الرشيد، أمّا الخامس فتطرق إلى جغرافية الثغور والمنطقة المحيطة بها.

وجاء الفصل الثاني بعنوان: عوامل نمو النشاط الاقتصادي بإقليم الثغور، وضم هو الآخر خمسة مباحث رئيسية؛ كان الحديث فيه عن مختلف العوامل التي أثرت على الجانب الاقتصادي للمنطقة، وهي على التوالي: الظروف الطبيعية من؛ موقع، ومناخ، وتساقط، وحرارة، ورياح، ومصادر مياه، وكوارث طبيعية، ثم إدارة الثغور؛ وتضمنت أولاً: طبيعة العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين، من خلال الاتصالات الحربية؛ كالحملات البرية والبحرية، ومحاولات فتح القسطنطينية، ومعارك داخلية، واتصالات دبلوماسية تضمنت: المراسلات المكتوبة، والسفارات الشخصية، ثم عمليات الفداء، وكيف نظم كل طرف عمليات تخليص الأسرى من الطرف الآخر، يليها ثانياً: التنظيم الإداري العسكري لمناطق الثغور، من خلال؛ اهتمام الخلفاء بمناطق الثغور، وسياساتهم بها، ففي العنصر الأول

أشرنا إلى بناء الثغور وتحصينها ثم تعميرها، أما الثاني فتطرق إلى الصوائف والشواتي، وسياسة النقل والتهجير، ثم تمصير الثغور، والاهتمام بالأسطول لحماية الثغور البحرية، وأخيرا إنشاء القواعد البحرية المتقدمة.

أما المبحث الثالث من هذا الفصل فخصص للسياسة الإسلامية- البيزنطية، وتضمن أربعة عناصر، تمثلت في: تبادل السيطرة على الثغور، وكيف أُنّما كانت ساحة للصراع الأموي العباسي، وساحة للثورات الأموية، ومواطن لثورات الطامعين في الخلافة والخارجين عنها، أما الرابع فخصص للعوامل الأمنية المؤثرة في الحياة العامة بالثغور، والاقتصادية خاصة، وكيف كان يستفاد من سكان الثغور في العمل الأمني، ثم توظيف التجار كذلك لنفس الغرض، ودور العيون والجواسيس لمعرفة أخبار العدو، وكيف أُنّما كانت نقاط للاستطلاع المتقدم، ومكافحة الجاسوسية، وكذلك منفي لمناوئي الحكم، وأحيانا استيعاب ودعم الثائرين على العدو، وعالج المبحث الخامس تأثير العوامل العسكرية في الحياة الاقتصادية، التي تمثلت في: التعبئة العسكرية والتدريب، ثم طريقة تحريك الجيوش من الثغور، يليها حماية الجبهة الداخلية في الثغور، ليختتم بالحروب النفسية المؤثرة في نفسيات العدو، حيث حرص المسلمون أن تبقى تلك المدن في حالة من الاستنفار الدائم والجهاد الحقيقي، كما أنّ المناسبات فيها توحى بذلك من منطلق إرعاب العدو.

أما الفصل الثالث والذي جاء بعنوان: الزراعة والنشاط الرعوي بإقليم الثغور، فقد شمل أربعة مباحث؛ الأول الأراضي الزراعية بمناطق الثغور: من اهتمام بالأرض، ثم أصناف الأرض وأحكامها؛ من أرض خراج، وأرض عشرية، وصوافي، وأرض موات، وتناول المبحث الثاني ملكية الأرض، وركزنا فيه على مناطق الثغور، حيث شمل نوعين منها: الاقطاع وتطوره، ثم أراضي الوقف والأقباس، وشملت هي الأخرى الأوقاف الخاصة والرسمية، أما المبحث الثالث فخصص لتنظيم الري ووسائله بمناطق الثغور، وشمل المصادر المختلفة للري، ثم أدواته ووسائله، ثم كاري الأنهار وتنظيم الري، أما المبحث الرابع من هذا الفصل فتناول الإنتاج الزراعي: من محاصيل زراعية مختلفة، ثم حالة الزراعة في مدن الثغور، وخصص المبحث الأخير للرعي وتربية الماشية في تلك المناطق.

أما الباب الثاني والذي وجاء بعنوان: وسائل الإنتاج بثغور الشام والجزيرة فقد اشتمل هو الآخر ثلاثة فصول، الأول كان بعنوان: أهم الصناعات والحرف، واشتمل على أربعة مباحث، خصص الأول منها للصناعات والحرف، وعوامل قيامها، وللتمييز بين المصطلحين كان لابد من إيراد مفهوم الحرفة والصناعة ثم المهنة والعلاقة بين الثلاث، ثم أنواع الحرف والصناعات، وعوامل قيام الصناعة، أما الثاني والذي كان عنوانه الصناعات الرئيسية فقد تعرضنا فيه بالدراسة والتحليل إلى عنصرين أساسيين هما: الصناعات القائمة على الإنتاج النباتي والحيواني، والثاني الصناعات القائمة على التعدين، أما المبحث الثالث فخصصناه لأهم الحرف، وجاء الرابع والأخير للتعريف بأوضاع الصناع والحرفيين، من خلال تبيان المقصود بالتنظيم الحرفي، ثم تطور التنظيمات الحرفية، ثم التنظيم الهيكلي للأصناف الحرفية، والأوضاع الاجتماعية لأرباب الحرف والصناعات، ومعرفة علاقة الدولة بأصحاب الحرف والصناعات، وأخيرا واجبات وصلاحيات متولي الحسبة.

وتناول الفصل الثاني من هذه الباب النشاط التجاري بإقليم الثغور، وضم خمسة مباحث؛ شمل الأول والذي عنوانه بأهمية التجارة في مناطق الثغور: الموقع الجغرافي، والأهمية التجارية، ثم المسالك والطرق التجارية، وكيف اهتمت الدولة بطرق المواصلات والتجارة، وأهميه تلك الطرق، وعوامل قيامها، ومخاطرها، ثم أنواعها من برية وبحرية، وكان المبحث الثاني خاصا للتعريف بأهم المنشآت التجارية في تلك المناطق، وحددناها بالأسواق، والخانات، والقيساريات، والفنادق، والوكالات، ثم أفردنا مبحثا ثالثا خاصا بأهم المحطات والمراكز التجارية بإقليم الثغور، وتطرق الرابع إلى السلع التجارية، وأشهر صادراتها و وارداتها، وخصص الأخير للتجار والعلاقات التجارية مع مختلف المناطق.

وجاء الفصل الثالث والأخير ليدرس النظم المالية في الثغور الإسلامية، وقد قسم إلى خمسة مباحث؛ حدد الأول لدراسة إيرادات الثغور من متغيرة، شاملة: الغنائم، والصدقات، والهبات، والموارد الاقتصادية، وموارد عامة؛ كضريبة الحرب، والتركات التي لا وارث لها، وضرائب المستغلات، وقروض عامة، ثم إيرادات اعتيادية، شاملة موارد رئيسية من: خراج، وجزية، وموارد شرعية؛ من زكاة وعشور.

أما الثاني، فقد بين أهم مصاريف ونفقات الثغور والتي شملت: عطاء الجند، وأرزاقهم، والصلات العسكرية، وبناء مدن الثغور، وتحصينها، وتموين الجيش والحملات العسكرية، ونفقات الفداء، وتبادل

الأسرى، وأعطيات الأدلاء، إضافة إلى نفقات أخرى، وخصص المبحث الثالث إلى أنواع العمولات التي تعامل بها تجار المنطقة، أما الرابع فتناول الأوزان والمكاييل والمقاييس المعتمدة في المناطق الثغرية، وعالج الخامس منها والأخير الأسعار بتلك المناطق ومستوى المعيشة، من خلال توضيح أهم العوامل المؤثرة في الأسعار؛ كسياسة الخلافة، والاضطرابات السياسية، والفتن، والحروب، وعوارض الطبيعة، ثم الأسعار بين الرخص والغلاء، واختتمت الدراسة بإجراءات الدولة لمعالجة الأزمات الاقتصادية بالمنطقة.

وجاءت الخاتمة تحصيلاً منطقياً لما توصلت إليه الدراسة، حيث اشتملت على عصارة البحث من نتائج واستنتاجات، كانت كحوصلة للإجابات التي وضعت كإشكاليات وأسئلة أساسية وفرعية بقدر كبير من الموضوعية العلمية، ومن بينها:

- للثغور أهمية وشأن عظيم، فهي من الأعمال الجليلة التي يختار لها من يشغلها بعناية، ومن أولى أولويات الأئمة، ومن تصدر لقيادة الناس، هذا بالإضافة إلى الأجر العظيم لمن رابط في الله، وحرس ثغور المسلمين ضد الأعداء، ورابط بها بنية الجهاد، كيف وإن كانت منطقة الثغور في بلاد الشام، فالأحاديث والآيات في فضائل البلاد والمرابطة بها كثيرة.

- مدى اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، وعنايتهم بأمر حدود وثغور الدولة الإسلامية، لحمايتها والحفاظ عليها، بإقامة وسائل دفاعية متعددة؛ من تحصينات، ومنشآت معمارية، وشحنها بالجند النظامي والمطوعة للمرابطة بها، وإقامة المسالخ، والمراصد، والقواعد العسكرية المتعددة، إضافة إلى خروج حملات الصوائف والشواتي كخطوة أخرى من التنظيمات العسكرية، حتى أصبحت الثغور بالإضافة إلى كونها مدناً عسكرية البناء والطابع، مجتمعات عسكرية ذات طابع خاص ومميز.

- لم تكن علاقات المسلمين بجيرانهم حروباً متصلة الحلقات، بل أنّ هذه الحروب نفسها كانت تستلزم اتصالات تتعلق بشؤون الحرب في محاولة منهم لإنهائها، أو الإبقاء على فترات السلم، أو تبادل الأسرى.

- سارت الخلافة الإسلامية في جبهة الثغور والعواصم، على حدودها المواجهة للإمبراطورية البيزنطية على سياسة واضحة، استندت إلى الرد على تحديات الروم المتكررة، وتمثل ذلك بتزويد المنطقة

بالعناصر السكانية، وتشجيعهم على الاستقرار على أساس زيادة العطاء، واقطاع الأراضي للجند، وزيادة حماسهم في الدفاع عنها.

- إذا كان للخلفاء الأمويين سياسة واضحة في الحفاظ على الثغور، وإنجازات عظيمة في المنطقة، وأن سياستهم ارتكزت على إرسال من يتولى حماية الثغور لفترة زمنية محدودة وهي فترة الغزو، ثم تنتقل إلى مكان آخر، فإن هذه الظاهرة لم تستمر خلال العصر العباسي، حيث أن الإدارة العباسية قصدت بإرسال حاميات إلى تلك الثغور أن تجعلها تستوطن هناك بصفة دائمة، فاستبدل العباسيون سياسة تدمير الحصون وحرق المحاصيل، بسياسة إنشاء المعقل، والحصون ووضع الحاميات في مدن الثغور بل أخذوا يطورون ثغورهم لتكون حصونا تؤدي دورا دفاعيا في المقام الأول لحماية دولتهم، ولتكون قواعد تنطلق منها حملات الصوائف والشواتي.

- اهتمام الخلفاء بالزراعة، وعنايتهم بالأرض، وبإعمارها، وزراعتها، وإقامة مشاريع الري، وحفر الأنهار، والقنوات، وإقامة القناطر والجسور، واستصلاح الأراضي، ساهم في ازدهار الزراعة وزيادة العمل في هذا المجال، وإنتاج محاصيل زراعية متنوعة، كانت المصدر الأساسي والرئيسي لمعيشتهم، وخففت عبء تلك المناطق عن كاهل الخلافة الإسلامية وبيت مال المسلمين إلى حد ما، كما أسهمت بدور مباشر في استمرارية حركة الجهاد في هذه المنطقة لمواجهة العدو، وتوفير المواد الأولية للصناعات المحلية.

- اشتملت مدن الثغور على نشاط صناعي مميز، يرجع ازدهاره إلى مجموعة من العوامل كتوفر المواد الخام اللازمة والتي تعج بها مدن الثغور، وكذلك الأيدي العاملة الماهرة نتيجة الاحتكاك المتواصل مع الروم، يضاف إلى ذلك اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية بالصناعة وخاصة الحربية، وتوفر رؤوس الأموال، ونظرة المجتمع الثغري للعمل، واحتياجات الجيش والأسطول.

- الوضع الجغرافي لإقليم شمال الشام والجزيرة حيث تتواجد الثغور، ذو تأثير إيجابي في النشاط التجاري سواء كان داخليا أو خارجيا، خاصة أن الثغور تقع في موقع متميز حيث تعدّ حلقة وصل بين الطرق التجارية.

- رغم أنّ قيمة المنطقة في تلك الفترة لم تكن اقتصادية كبيرة، ذلك أن نفقات الثغور كانت عبئا على كاهل المال المركزي، ودخلها القليل لا يمكن أن يقارن بمقادير الإنفاق الطائلة التي تصرف عليها، إلا أنّها كانت قيمة سياسية ودينية معا تتصل بأمر الجهاد والرغبة في الاستشهاد به، كيف لا وهي تستعد لمواجهة العدو في أي لحظة.

- فالثغور الإسلامية كانت مركزا زاخرا بصور النشاط الحربي، سواء في بناء التحصينات والمعسكرات أو تنظيم الجيوش، أو في تحركات الأساطيل، وقد واجه المسلمون أعباء حماية حدودهم، في عهد قوتهم بدأب ومقدرة، واستفادوا من السوابق التي تقدمت بين أيديهم ومن تجاربهم التي مارسوها، فكانت منطقة الثغور جبهة دائمة للجهاد المقدس، وغدت مجالا طيبا لنضوج كثير من النظم الحربية الإسلامية.

صعوبات الدراسة:

واجهنا أثناء إعدادنا لهذه الدراسة بعض الصعوبات والمعوقات، كان من أبرزها:

- صعوبة الوصول إلى المادة الخبرية، مما يعيق البحث ويستهلك الوقت الكثير والجهد الكبير من أجل تجميع المعلومة.

- غياب دراسات متخصصة، وما تم تناوله في هذا الصقع كان عسكريا وسياسيا أكثر منه اقتصاديا، حيث أن طبيعة الموضوع المدروس أشكل الشيء الكثير، باعتباره من الدراسات الحديثة التي لم يتم التطرق إليها بالقدر الكافي.

- صعوبة تحديد المنطقة تحديدا دقيقا، وكذلك الاختلاف بين الجغرافيين والرحالة في محاولتهم لتصنيف مدن الثغور تصنيفا جغرافيا دقيقا، وهو ما أرهقنا كثيرا.

- محاوله الإحاطة بكل جوانب الموضوع، فرض علينا تقسيم البحث إلى ستة فصول، شملت مختلف النواحي المتعلقة بالدراسة من؛ جغرافية، وعسكرية، وسياسية، وأمنية، ودينية، واقتصادية، واجتماعية، وحضارية.

- البعد الفقهي لبعض عناصر البحث، مما يستوجب معرفه بعض الأحكام الشرعية، ومواقف الفقهاء منها.

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث ومراجعته:

إنّ الباحث في النواحي الاقتصادية لمناطق الثغور بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية خلال العصور الإسلامية الأولى، يجد نفسه أمام الكثير من المصادر المتنوعة بين؛ تاريخية سياسية، استفيد منها في تخريج المادة الخبرية للبحث، والمقارنة بين الحوادث التاريخية، وتطورات الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في مناطق الثغور، وكتب الجغرافيا وأخرى للرحلة، استفيد منها في الحصول على المعلومات الهامة عن مدن الثغور، ومواقعها، وجغرافيتها، وتقسيماتها، وطرقها، ومسافاتها، وإمكاناتها، وأخرى تخص السياسة الشرعية، تكشف الجانب التطبيقي في الأحكام، وتعالج السياسة المالية، وتجمع بين الدراسة الفقهية والوقائع التاريخية، بالإضافة إلى عدد من المراجع والدراسات التي تعددت فوائدها بحسب استعمالها، وسنحاول قدر الإمكان عرض وتحليل أهم المصادر والمراجع التي أفادت البحث في جوانبه المختلفة:

أولاً: المصادر

1- كتب التاريخ العام والتراجم:

فتوح الشام للواقدي (ت 207هـ/823م):

هو محمد بن عمر واقد السهمي الأسلمي بالولاء المدني، أبو عبد الله، وهو من أقدم المؤرخين في الإسلام ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث، وهذا الكتاب ذكر فيه مصنفه تاريخ فتوح الشام بلداً بلداً، تناول كل بلد منها مبيناً ما تم في فتحها، وأسماء قوادها، وما حدث في المدن بعد فتحها، ويلاحظ أنّ المصنف لم يكتف ببلدان الشام، وإتّما ذكر فتح العراق، وبعض بلدان مصر، كما أنّه قدم خير وصف لمنطقة الثغور، وذكر أول من غزا الدرب باعتباره عاصر الفترة العباسية.

التاريخ لخليفة بن خياط (ت 240هـ/854م):

هو أبو عمرو بن خليفة الشيباني العصفوري البصري، وكتابه من أقدم ما ألف في الحوليات، تكمن أهميته في أنّ ابن خياط اتبع منهج الإسناد والتوثيق، وكان يعد من المشهود لهم بالصلاح والصدق والنزاهة، وقد روت له كتب الحديث العديد من الأحاديث وعلى رأسها صحيح البخاري، وفي تاريخه يذكر أحداث كل سنة على حدى، ويعدّ شاهد عيان على الفترة التي نحن بصدد البحث فيها،

وأفادنا في معرفة مدى اهتمام الخلفاء بمناطق الثغور، وترجمة بعض الشخصيات التي ذكرت خلال البحث.

الأخبار الطوال للدينوري (ت 276هـ/889م):

هو أبي حذيفة أحمد بن داود، والكتاب يدوّن تاريخ الأنبياء والإسلام حتى ولاية المعتصم، ولا غنى عنه لأي باحث يبحث في العصر الأول من تاريخ الدولة العباسية.

فتوح البلدان وأنساب الأشراف للبلاذري (ت 279هـ/892م):

وهو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، ذكر في مؤلفه تاريخ الفتوح الإسلامية، بداية من دخول النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة، وقصة بناء المسجد، ثم الحقبة التاريخية للخلفاء الراشدين مستعرضاً أهم الأحداث التاريخية، ولعلّ أهم ما يميز الكتاب؛ ذكره لبلدان الثغور، وأهم الأحداث التي وقعت فيها، وأهم ما يميز كل بلد عن الآخر، وبعض الأبحاث العمرانية والسياسية التي لم يتم التطرق إليها في كتب التاريخ، وأحكام الخراج، والعطاء، والنقود، وغيرها، حيث أفادنا في تحصيل المعلومات خلال فترة الدراسة كونه من بين المؤرخين الذين انفردوا في تحديد خبايا المنطقة بذكر حصونها وقلاعها ومدنها. أمّا كتابه الثاني المسمى بأنساب الأشراف فهو موسوعة ضخمة جاءت رواياته في إطار الأنساب، توسعت حتى احتوت الأخبار والشعر والتراجم، وكانت مصادره فيه تعتمد على المؤلفات المكتوبة وعلى الرواية الشفهية، وهو يتكون من أجزاء، فبدأ الكتاب بنسب نوح عليه السلام، ثم موارد السيرة النبوية، ومادة كتب الاخباريين والنسابة، ووصل إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثم تكلم عن القبائل.

تاريخ اليعقوبي، والبلدان لليعقوبي (ت 284هـ/897م):

هو أحمد أبو يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب ابن واضح الإخباري، لقب بالمصري والأصبهاني، نشأ في بغداد، وترعرع في كنف عائلة كانت ذات شأن في المجال السياسي والإداري، وكان أفرادها من المقربين للأسرة العباسية، له كتاب تاريخ اليعقوبي، وهو أول كتاب اتصف بالعمل الموسوعي من كتب التاريخ الإسلامي، وليست له شهرة عند القدماء، ولا ترجمة معتبرة لصاحبه، وصلنا كما هو مطبوع بلا مقدمة ولا خاتمة، وقد سقطت ورقات من أوله، بناه اليعقوبي على قسمين تناول في الأوّل تاريخ

العالم منذ بدء الخليقة، وجعل الثاني خاصا بالتاريخ الإسلامي حتى أيام المعتمد على الله العباسي حوادث سنة 259هـ/872م، أهمل في الجزء الثاني ذكر الأسانيد للروايات، وأفاد البحث بمعلومات مباشرة

كما عرف اليعقوبي بحبه للجغرافيا، جاب العديد من البلدان الإسلامية وألف كتابه البلدان التي تحدث فيه عن كبريات المدن في بلاد الإسلام سنة 287هـ/891م، وأرفقت الطبعة الأخيرة لكتاب البلدان ملحقا ذكر فيه اليعقوبي شعرا نظمته بعد سقوط الطولونيين في مصر، مما جعل بعض المؤرخين يذكرون أنه توفي في عام 292هـ/905م، واستفدنا منه في التعرف على المواقع الثغرية على الحدود. تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت 310هـ/922م):

المسمى تاريخ الطبري، أو تاريخ الأمم والملوك، للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر، كان إماما مفسرا محدثا ومؤرخا وظل يملي كتابه لمدة إثنى عشر سنة 290-302هـ/903-914م كما ذكر المؤرخون في ترجمته، وتميز كغيره ممن جاءوا في تلك الفترة أنهم رووا التاريخ بالأسانيد وبالتحديث والرواية عمن سمعوا منه إلى منتهى أسانيدهم، وأنه كان يجمع كل الروايات في الحادثة الواحدة وإن اختلفت، وقد نقل عن تاريخه من جاء بعده كالذهبي، وابن كثير. ويعد تاريخ الرسل والملوك أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، الذي اعتمد على طريقة الحوليات، وبلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمانة، ترجع قيمته إلى أنه استطاع أن يجمع بين دفتيه جميع المواد المودعة في كتب الحديث، والتفسير، واللغة، والأدب، والسيرة، والمغازي، وتاريخ الأحداث والرجال، والنصوص، والشعر، والخطب، والعهود، ويحتل مكانه عالية في نظر المؤرخين المحدثين، وباعتباره كان قريبا جدا من الأحداث في هذه الحقبة فقد أفاد الدراسة في جميع فصولها.

التنبيه والاشراف ومروج الذهب للمسعودي (ت 346هـ/957م):

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، وقد اكتسب لقبه هذا لكونه من ذرية عبد الله ابن مسعود (رضي الله عنه)، ولد ببغداد، وقد حاول المسعودي أن يقدم فلسفة للتاريخ والكون في كتابه التنبيه والاشراف أشهر مؤلفاته، فذكر ملوك الفرس على طبقاتهم، والروم وأخبارهم، وجوامع وتواريخ العالم والأنبياء، وسيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) وظهور الإسلام، وسيره الخلفاء وأعمالهم

ومناقبتهم إلى سنة 345هـ/956م، كما ألفت العديد من الكتب أهمها، مروج الذهب ومعادن الجوهر حول تاريخ العالم، ويبدأ بالحديث عن خلق العالم، والتاريخ اليهودي، ونجد في الفصول التالية وصفا للتاريخ، والجغرافيا، والحياة الاجتماعية، والعادات الدينية للأراضي غير الإسلامية وغيرها وذلك في جزئين، وصف في الأول منهما قصص الأنبياء وصفا مختصرا، يدخل في ذلك تواريخ الأمم القديمة من الفرس، والسريان، واليونان، والرومان، والافرنج، والعرب القدماء، ثم عطف على تاريخ الرسالة الإسلامية من ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى مقتل عثمان (رضي الله عنه)، وذكر في الجزء الثاني تاريخ الإسلام من خلافة علي (رضي الله عنه) إلى أيام الخليفة المطيع لله.

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت 463هـ/1070م):

هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، وهو مؤرخ عربي مسلم ألفت الكثير من المؤرخين بعده كتبا مشابهة لهذا الكتاب، مثل تاريخ دمشق لابن عساكر، وقد تضمن أكثر من 7831 ترجمة لحياة العلماء، والمفكرين، وأعيان البلد، ورجال الدولة، وتكمن أهميته لبحثنا أنه يؤرخ لمدينة بغداد وهي عاصمة الخلافة العباسية، والتي من خلال معلوماته التاريخية نستطيع أن نصل إلى الكثير من الحقائق عن الثغور والسرايا والصوائف، وأحوال المناطق المحيطة بها.

تاريخ دمشق لابن عساكر (ت 571هـ/1175م):

هو أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، وكتابه يضاها تاريخ بغداد الذي صار نموذجا للتأليف في تاريخ المدن يحتضنه المؤلفون في المنهج والتنظيم، وقد استغرق تأليف الكتاب وقتا طويلا من حياة المؤلف، وكان عملا ضخما يحتاج إنجازا إلى أعمار كثيرة، وكاد مؤلفه أن ينصرف عن إتمامه لولا أنّ الخبر تناهى إلى أسمع نور الدين محمود حاكم دمشق وحلب، فبعث إلى الحافظ ابن عساكر يشحذ همته ويقوي من عزيمته، فعاد إلى الكتابة وأتمه سنة 559هـ/1164م، ثم قام ولده القاسم بتنقيحه وترتيبه في صورته النهائية تحت عناية أبيه، حتى إذا فرغ منه سنة 565هـ/1169م قرأه علي أبيه قراءة أخيرة، فكان يضيف شيئا، أو يستدرك أمرا فاته، أو يصبو خطأ، أو يحذف ما يراه غير مناسب، أو يقدم موضعا، أو يؤخر مسألة، حتى أصبح على الصورة التي نراها الآن، تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه احتوى على جميع الأحداث العسكرية والسياسية في دمشق وبلاد الشام وثغورها.

المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي (ت 597هـ/1200م):

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، أبو الفرج الإمام الحافظ المؤرخ الواعظ الكبير، ولد سنة 511هـ/1117م، شرع في طلب العلم وهو صغير، فأخذه عن جمهرة من أفاضل العلماء في عصره، صاحب كتاب المنتظم في تاريخ الأمم، وزاد المسير في علم التفسير، وأخبار الأذكياء، وغير ذلك من المصنفات ذات النفع العظيم، وقد أفاد كتاب المنتظم في تاريخ الأمم البحث وأثره من خلال معرفة أهمية المواقع الثغرية للدولة الإسلامية.

الكامل في التاريخ لابن الاثير (ت 630هـ/1233م):

هو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، كان عالماً بالحديث وبأنساب العرب، يعرف بالجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر في أعلى نهر دجلة، والتي تنسب إلى يوسف بن عمر الثقفي والي الأمويين على العراق، سمع عن جماعة من الشيوخ، واعتمد على ما سمعه ونقله من الحوادث الواقعة قبل سنة 584هـ/1188م، له العديد من التصنيفات أهمها كتاب الكامل في التاريخ الذي بدأه من بدء الخليقة وانتهى عند سنة 628هـ/1230م، والذي تميز بسهولة اطلاعه على السجلات والوثائق، كما أنه يذكر في آخر كل سنة من توفي فيها من المشهورين من علماء وفقهاء معتمداً طريقة الحوليات، أمّا عن درجة الاستفادة منه فهي كبيرة خاصة في تفصي الأخبار الخاصة بالثغور، والتي ساهمت في إثراء موضوع الدراسة كحملات الشواتي والصوائف، وموارد بيت المال، وعطاء الجند وأرزاقه، ونفقات تموين الجيش، وشحن الثغور، وتبادل الأسرى، بالإضافة إلى تراجم الأعلام، كما كانت الاستفادة من مصدر آخر لنفس المؤلف وهو أسد الغابة في معرفة الصحابة في تراجم حياة شخصيات عاشت ورابطت بمناطق الثغور، وكان لها دور فعال فيها.

بغية الطلب، وزبدة الحلب في تاريخ حلب لابن العديم (ت 660هـ/1261م):

هو كمال الدين أبي القاسم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم الحلبي الحنفي، والمصنفان يتحدثان عن تاريخ مدينته حلب، والمناطق المحيطة بها منذ ما قبل الإسلام إلى وفاته، فلم يقتصر المؤرخ فيهما على تاريخ حلب فقط، بل سجل تاريخ الشام والعراق ومصر من خلال الحوادث والعلاقات التي كانت للمدينة مع تلك البلاد، والمناطق المحيطة بها، والحصون، والمدن، والقرى، والقلاع الحدودية،

وصور في تاريخه الواقع الزراعي والاجتماعي والصناعي لتلك المناطق، وقد استفدنا منه كثيرا خاصة في تقسيمات الثغور، وتشخيص الأوضاع الاقتصادية بها.

وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلّكان (ت 681هـ/1282م):

هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان البرمكي الإربلي، أبو العباس الإمام المؤرخ الأديب الحجة صاحب وفيات الأعيان وأبناء الزمان، والكتاب من أشهر كتب التراجم، ومن أحسنها ضبطا وإحكاما، يشتمل الكتاب على ثمانية مجلدات، وقد استفدنا من معظمها لترجمة بعض الرجال والقادة في مناطق الثغور في الفترة مرحلة الدراسة.

تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي (ت 748هـ/1347م):

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، وهو من أهم الكتب الموسوعية الضخمة التي صنفها المؤرخون المسلمون، يجمع بين التاريخ والتراجم معا، منذ بدء الإسلام حتى نهاية عصر المؤلف في منتصف القرن الثامن، وهو من أشهر ما ألفه الإمام الذهبي وأكبرها، وكما يظهر من عنوانه فهو رصد للتاريخ الإسلامي بداية من الهجرة النبوية وحتى سنة 700هـ/1300م، فكان مبنيا على سبعين طبقة، تلك الفترة التي نشأت فيها حضارة جديدة، اتسعت جغرافيا شرقا وغربا، وشهدت أحداثا كثيرة، وثقها الذهبي مع تراجم للمشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة.

البداية والنهاية لابن كثير (ت 774هـ/1372م):

هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري الدمشقي، اجتهد كثيرا في طلب العلم، وسمع من العديد من العلماء حتى برع في علوم الحديث والتفسير والتاريخ، له العديد من التصانيف المهمة، منها كتاب البداية والنهاية، وهو مصدر مهم لأنّ ابن كثير اعتمد في عرض المادة التاريخية على التلخيص والاختصار، والنقل بالمعنى من المصادر، وجرّد تاريخه من كثير من الروايات الضعيفة، واستوعب في تاريخه ما جاء في الحوادث عند المؤرخين قبله، ثم سردها ملخصا على لسانه في سياق واحد متماسك، مع الإشارة والإحالة على مصادره التي استقى منها معلوماته، واهتم بذكر جميع الأحداث التاريخية التي تخص الدراسة: مثل فضائل الجهاد، وأماكن الرباط، والتعرف على حملات الصوائف والشواتي في الثغور.

تاريخ ابن خلدون (ت 808هـ/1405م):

لعبد الرحمن بن محمد، ولي الدين أبو زيد الحضري الإشبيلي، ترجع جذوره إلى الأصول الأندلسية الإشبيلية، تلقى العلوم والمعارف والقرآن، وتفقه بالقراءات السبع، ودرس التفسير والحديث والفقه، والنحو واللغة، مات وهو قاض، أورد الأحداث التاريخية التي استفاد منها البحث وبتفصيل كبير.

2- كتب الجغرافيا والبلدان والرحلة:

المسالك والممالك لابن خردذابة (ت 300هـ/912م):

هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، من كبار علماء الجغرافيا عاصر الدولة العباسية، وكان أقرب الناس إلى الخليفة المعتمد، يعد كتابه موسوعة موثقة في علم الجغرافيا، ذكر فيها: مسالك الأرض، وممالكها، وصفتها، وبعدها، وقربها، وعامرها، وغامرها، والمسير بين ذلك منها، من مفاوزها، وأقاصيها، ورسوم طرقها على ما رسمه المتقدمون منها، وقد تمت الاستفادة منه في تحديد أماكن الثغور، وحدودها، والحصون التي بناها خلفاء بني العباس، أو أعادوا تجديدها، وما أنفقوه من أموال في ذلك، وما ورد من تقديرات رقمية حول جباية الخراج عن كل إقليم من أقاليم الدولة، إلى جانب ما ورد فيه من معطيات حول مقادير الجزية، والصدقات، والمستغلات، حيث اعتمد عليه في منهجه الجغرافي الكثير من علماء الجغرافيا التاليين له أمثال: ابن الفقيه، ابن رسته، ابن حوقل، المقدسي، المسعودي، وغيرهم.

مسالك الممالك للاصطخري (ت 346هـ/957م):

هو أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، المعروف بالكرخي، وهو من مؤسسي علم الجغرافيا في العالم الإسلامي، يتحدث كتابه عن أقاليم وممالك بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيماتها، حيث تمت الاستفادة منه في تحديد أماكن الثغور وحدودها ومسافاتها وسككها.

صورة الأرض لابن حوقل (ت 367هـ/977م):

هو أبو القاسم محمد البغدادي الموصلبي، والذي تحدث في كتابه عن مشاهداته في أرجاء العالم الإسلامي شرقا وغربا، من نهر السند حتى المحيط الأطلسي، وعن الأقاليم التي لم يذكرها أحد، وذكر

مدنها، وجبالها، وأنهارها، وبحارها، والمسافات بينها، وقد استفدنا منها في تحصيل المعلومات المختلفة عن مناطق الثغور، خاصة الجغرافية منها.

المسالك والممالك للمهلي (ت 380هـ/990م):

هو الحسين بن أحمد المشهور بالعزيزي، رحالة وصل إلى أقاليم لم يسبقه إليها أحد، نقل عنه ابن العديم مقاطع مهمة تتعلق بحلب والثغور الشمالية قبل سقوطها في يد البيزنطيين أواسط القرن الرابع، كما نقل عنه ياقوت الحمودي في معجم البلدان أكثر من 53 مرة، ونقل عنه أبو الفداء في تقويم البلدان 21 مرة، وتتصف معلومات الكتاب بالدقة بالنسبة للمسافات بين المدن والأقاليم، ومن خلال وصفه للمدن، والأقاليم، والمواضع، التي زارها ومصادر المياه، وعادات الناس، وأحوالهم، ومحاصيلهم، نستطيع أن نكوّن فكرة شبه كاملة عن التاريخ الاجتماعي، والتركيبية السكانية للثغور، كما أنّه يحفل بمعلومات حول دمشق، وبيت المقدس، وحلب، وأنطاكية، وغيرها من المدن، ما يشير إلى سعة معلوماته.

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (ت 380هـ/990م):

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد، المعروف بالبشاري، ذكر في مصنفه الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وذكر المشاهد، والمرصد، والخصائص، والرسوم، والممالك، والصنائع، والعلوم.

معجم ما استعجم من أسماء المواضع والبلاد، والمسالك والممالك للبكري (ت 487هـ/1094م):

هو أبو عبيدة الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي، وكتابه الأول معجم لغوي جغرافي يصف جزيرة العرب، ويصف ما بها من المعالم، والمشاهد، والبلدان، والمعاهد، والآثار، والمناهل، والموارد، وهجرة القبائل العربية من أوطانها، أمّا الثاني فيصف فيه مواقع المدن، وطرقها، وأماكنها، وهما لا غنى عنهما لأي باحث يبحث في المواقع والأمكنة.

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي (ت 560هـ/1164م):

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، المعروف بالشريف الإدريسي، أمضى في جمع مصنفه وترتيب مادته قرابة 15 سنة، رسم فيه خريطة كروية شاملة للعالم، وقد اشتملت مقدمته على ذكر

هيئة الأرض وقسمتها بأقاليمها، وذكر البحار بمبادئها وانتهائها وأحوالها، وما يلي سواحلها من البلاد والأمم.

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لابن شداد (ت 613هـ/1216م):

هو عز الدين أبي عبد الله محمد، والكتاب يتناول تاريخ دمشق وخططها وجغرافية إقليم الشام، واستفدنا منه في عدة مواضع من البحث.

تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار لابن جبير (ت 614هـ/1217م):

هو أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسي الشاطبي، جاءت رحلته بمثابة مدونة وافية لجميع ما شاهده، وصفحة واضحة لبعض تاريخ البلاد الإسلامية والمسيحية التي مر بها، وقاموسا لمصطلح عصره في بناء السفن والملاحة البحرية، وترجمة لأسماء البارزين من علماء المسلمين وملوكهم في أواخر القرن السادس الهجري/القرن الحادي عشر الميلادي، وهي من أهم الرحلات الإسلامية في العالم العربي، وتتجلى أهميتها في وصفه الدقيق لمشاهداته، وتدويناته للآثار، والملاحظات الجغرافية، والاجتماعية، والتاريخية، وقد استفاد منها البحث في وصف مناطق الثغور الشامية والجزيرة التي زارها ابن جبير .

معجم البلدان لياقوت الحموي (ت 626هـ/1228م):

شهاب الدين أبو عبد الله، والكتاب معجم جغرافي فريد من نوعه، زاخر بالمعارف الجغرافية والتاريخية، وهو من أهم المصادر التي تحدثت عن الأماكن والتعريف بها، وعلى الرغم من كونه متأخرا عن فترة الدراسة، فقد أفادنا كثيرا في التعريف بأغلب المواقع والمدن وأماكن الثغور الواردة في رسالة البحث، وقد اختصره صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت 739هـ/1338م) في كتاب أسماء مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري (ت 749هـ/1348م):

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين تاريخ، وهو كتاب موسوعي في جميع المجالات يتناول الممالك الإسلامية في مملكة الهند، وبلاد المغول، وإيران، وبلاد الروم، ومصر، والشام، والحجاز، والمناطق الحدودية، والطرق والمسالك، ومواقع المدن.

3- كتب الأموال والخراج:

الخراج للقاضي أبي يوسف (ت 182هـ/798م):

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الحنفي، ويعد كتابه من أهم المصادر التي تعالج السياسة المالية للدولة الإسلامية خلال العصر العباسي الأول، وقد جاء تأليفه استجابة لطلب الخليفة هارون الرشيد من قاضي القضاة أبي يوسف، أن يضع له كتابا جامعاً لأصول الجباية والنفقات، وقد جمع فيه المؤلف بين الدراسة الفقهية والوقائع التاريخية، مقترحا على الخليفة الطرق المثلى لتحصيل موارد بين المال من خراج، وعشور، وصدقات، وغنائم، وغير ذلك من الجوانب المتصلة بأوجه الإنفاق، وتضمن كذلك نصائح مهمة في كيفية إدارة الدولة، ومحاسبة العمال والموظفين خاصة فيما له علاقة ببيت مال المسلمين، وهو مصدر مهم للدراسة خاصة فيما تعلق بالأحكام الفقهية.

الخراج، ليحيى بن آدم القرشي (ت 203هـ/818م):

أبو زكريا الذي عاصر الخليفة المأمون، ويعد كتابه من الكتب المهمة التي أفادت الدراسة في موضوع الخراج بعد كتاب أبي يوسف، حيث تناول فيه القضايا المتعلقة بأحكام الأراضي وأنواعها، وموارد بيت المال خلال العصر العباسي الأول، إلى جانب أصناف المعاملات المالية.

الأموال لابن سلام (ت 224هـ/838م):

هو أبو عبيد القاسم، ويعد كتابه هذا من أحسن ما صنف في فقه الأموال، حيث جمع فيه بين النص وسنده من القرآن، والحديث، وأخبار السلف، مما له علاقة بشؤون المال، فيتعرض لذكر صنوف الأموال التي يليها الخلفاء للرعية وأصولها، كما ذكر أحكام الأرض.

الخراج وصناعة الكتابة لقدامية بن جعفر (ت 329هـ/941م):

هو أبو الفرج بن قدامة بن زياد، الذي تحدث في كتابه الخراج عن دواوين الدولة، والبريد، والسكك والطرق، ونواحي المشرق والمغرب، ودراسة جغرافية الأرض، ووجوه الأموال، وشؤون المجتمع، وأسباب قوته، وعوامل ضعفه، وتدهوره وانحطاطه، ونظم الحكم في البلاد، وما ينبغي للحكام وما يجب عليهم، وهو مصدر مهم للدراسة تمت الاستفادة منه في تحديد أماكن الثغور وحدودها، وحملات الصوائف والشواتي، ومداحيل الثغور ونفقاتها.

4- كتب النظم والأحكام:

الوزراء والكتاب للجَهْشِيَّارِي (ت 331هـ/942م):

هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس بن عبد الله الكوفي، مؤرخ وأديب من أهل الكوفة، أتت نسبته من أن أباه كان يخدم أبا الحسن علي بن جَهْشِيَّار، عمل في دواوين بغداد، وخدم الوزير علي بن عيسى والخليفة المقتدر (ت 295-320هـ/908-932م)، اشتملت مادة الكتابة التاريخية على عرض الأحوال السياسية خلال العصر العباسي الأول حتى سنة 202هـ/817م موضحاً أمور الخلافة، شارحاً سياسة الخلفاء في إدارة البلاد، ذاكراً وزراءهم وكتابهم، كما تعرض لأحوال الدولة الاقتصادية عند حديثه عن البرامكة، فأعطى بذلك دلالة على إمكانية الدولة المالية العامة، ثم ضمّن كتابه بعض الوثائق المالية كوثيقة الخراج القادم إلى بيت المال عن الأقاليم في عهد هارون الرشيد، كما أظهر الأحوال الاجتماعية في تلك الفترة في مختلف الجوانب، وأورد جملة أخبار أظهر منها الحياة الثقافية. وقد جاء كتابه الحافل بأخبار الكتاب والوزراء من أيام ملوك الفرس إلى غاية العصر العباسي، ليضيف للدراسة ما اقتبسه المسلمون من نظم الحضارة الفارسية لاسيما في تنظيم الإدارة، وجباية الخراج، وتدوين الدواوين، ومجالات الإنفاق، ومختلف دروب السياسة التي أخذ بها خلفاء الدولة الإسلامية وساهموا في تطويرها.

الأحكام السلطانية للماوردي (ت 450هـ/1058م):

هو أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، يشتهر كتابه بأنه أول عمل شامل حول كيفية حكم الدولة الإسلامية، فهو يجمع بين تأملات نظرية حول طبيعة الدولة، ومؤهلات الخليفة ومسؤوليه، وبين إرشادات عملية حول تطبيق القضاة لمبادئ الشريعة، يغطي الماوردي مؤهلات الإمامة ومتطلبات المناصب التنفيذية والقضائية العليا، وتحديد الأحقية بين الخلفاء المتنافسين، أو الأنظمة العسكرية المتنافسة، بأسلوب ثري صريح غير مزين.

وكان هذا الموضوع الأخير في الواقع هو الحافز الذي دفعه لتأليف الكتاب، حيث عاش الماوردي في بغداد في الفترة التي كان يصارع فيها الخلفاء العباسيون لاستعادة أحقّيتهم في مواجهة العديد من المنافسين، من بينهم البويهيون والسلاجقة، يُنظَر الماوردي وهو سني ملتزم، لطريقة واقعية في الحكم

والإدارة تستند إلى مبادئ استنبطها من القرآن والسنة، ويبدو أن الماوردي قد وُلد في ظروف معيشية متواضعة في البصرة، وقد أرسلته أسرته إلى بغداد لطلب العلم، وترقى إلى منصب هام في البلاط العباسي من خلال كتاباته عن السلطة.

وقد أفادنا في الجانب المتعلق بموارد بيت المال وأحكامها الفقهية، إلى جانب النظم الإدارية التي يتعرض لها المؤلف بنوع من الدقة والتفصيل، لا سيما نظام الوزارة، القضاء، والحسبة وغيرها، وعلاقته كل ذلك بوظيفة الرقابة والمحاسبة الإدارية، مع تشخيص نظم استغلال الأرض وأحكامها.

الأحكام السلطانية لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء (ت 458هـ/1066م):

تولى منصب قاضي القضاة في حاضرة الدولة العباسية بغداد على عهد القائم بأمر الله 422-467هـ/1031-1075م لا يختلف كثيرا في مضامينه الفقهية والسياسية والإدارية عن كتاب الأحكام السلطانية للماوردي، كان مختصرا لكل ما ذكره الماوردي وأفاض فيه.

نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري (ت 589هـ/1193م):

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر، وقد رتب مؤلفه على الأبواب، وكل باب يشمل موضوعا معيناً لم يرتبط بالذي قبله، وقد اشتمل على بيان ما يجب على المحتسب من شروط الحسبة ولزوم مستحباتها، وبيّن في كتابه أحوال السوق في معاملاتهم، وغير ذلك من أبواب الحسبة التي بلغت 118 باباً، ولم يتعرض المؤلف لذكر آراء المذاهب الفقهية الأخرى، بل اقتصر الحكم على مذهبه، وتتجلى أهميته للدراسة في تشخيص الأوضاع الاجتماعية للصناع والحرفيين، وكذلك واجبات وصلاحيات متولي الحسبة.

5- كتب الأدب:

مجموع رسائل الجاحظ (ت 255هـ/868م):

لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها، والكتاب مجموعة من الرسائل النادرة كل منها تبحث في موضوع واحد، بدراسة معمقة مستفيضة تثير الإعجاب والتقدير في: الأدب، والدين، والسياسة، عمل على تحقيقها مجموعة من المحققين العرب والمستشرقين، إلا أنّ أكبر سلسلة وأدقها هي التي

حققها الدكتور عبد السلام هارون، كما له كتب أخرى استفدنا منها في مواضع عديدة من البحث، نذكر منها: كتاب البلدان الذي نشر للمرة الأولى في مجلة كلية الآداب سنة 1970م، وكتاب التبصر بالتجارة الذي وصف فيه ما كانت تتميز به كل دولة في إنتاجها فتصدره، وما كانت كل دولة تستورده، وقد أفاد البحث في الفصل الخاص بالتجارة.

العقد الفريد لابن عبد ربه (ت 328هـ/940م):

هو أبو عمر أحمد بن محمد، شاعر أندلسي صاحب كتاب العقد الفريد، وهو موسوعة أدبية، يعدّ من أمهات كتب الأدب العربي، يجمع بين المختارات الشعرية والنثرية، ولحات من التاريخ والأخبار، مع الأخذ بنظرات في البلاغة والنقد، مع شيء من العروض والموسيقى، وإشارات للأخلاق والعبادات، تشمل قصص العرب وأخبارهم، يحتوي على النصوص الشعرية، والنسبية، والرسائل، والوصايا، وعلى المعارف في الحديث، والفقه، والتاريخ، واللغة، وقد سُمي بـ «العقد» لأن ابن عبد ربه قسّمه إلى أبواب أو كتب حمل كل منها اسم حجر كريم كالزبرجدة، والمرجانة، والياقوتة، والجمانة، واللؤلؤة، وغير ذلك مما تناول عقود الحسان الحقيقية والتي أفادتنا في بحثنا هذا.

الأغاني للأصفهاني (ت 356هـ/967م):

هو أبو الفرج علي بن الحسين، وكتابه من الموسوعات الأدبية التي ضمت أخباراً عدة في الأدب والشعر والغناء في الجاهلية والإسلام، وبشكل خاص خلال العصر العباسي الأول، حيث استعرض فيه أخبار الكتاب، والعلماء، والأدباء، والخلفاء، والأمراء، والوزراء، وأخبار النساء، والطوائف، فكان لتنوع مضامينه الإفادة الكبرى في مواضع مختلفة من الدراسة.

نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (ت 733هـ/1333م):

هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين، والكتاب موسوعة شاملة في جميع المجالات يقع في ثلاثة وثلاثين جزء.

صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (ت 820هـ/1417م):

هو أبو العباس أحمد بن علي، الذي كان يتولى منصب ديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر بربوق، ويعدّ الكتاب موسوعة شاملة لجميع العلوم الشرعية، والأدبية، والجغرافية، والتاريخية، والتي تعد

أحد المصادر العربية الواسعة التي تتناول موضوعات منذ الفترات الأولى في الإسلام عن: أنظمة الحكم، والإدارة، والسياسة، والاقتصاد، والمكتبات، والولايات، والعهود، والعادات، والتقاليد، والملابس في الشرق العربي، ويتكون من 14 جزء.

ويتناول القلقشندي في الكتاب صفات كاتب الإنشاء، ومؤهلاته، وأدوات الكتابة، وتاريخ الديوان الذي يعرف حالياً بالوزارات، وأيضاً يتناول الإنشاء في البلاد العربية، وفنون الكتابة وأساليبها، ويصف الكتاب أشكال ملابس الجنود، والأسلحة، ومواكب تنصيب الخلفاء والسلطين، وعن مناسبات استطلاع هلال رمضان، وموائد الإفطار، وملاعب السباق، والألعاب الرياضية، ويصف أشكال العمائم، والملابس، ومراكب الدواب، ومظاهر المجتمع العربي، وتقاليده، وأعرافه، وظواهره الاجتماعية.

ثانياً: المراجع

تمت الاستعانة ببعض المراجع الحديثة والمهمة، والتي كان لها أهمية كبيرة في إمداد البحث بمعلومات قيمة عن الثغور بشكل خاص، سنحاول أن نتطرق لما له من أثر واضح في موضوع الدراسة، دون أن ننقص من أهمية ما لم يرد ذكره من المراجع والدراسات، ومن أبرزها:

الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري لفتحي عثمان:

وهو دراسة بحثية كبيرة في ثلاثة أجزاء يقدمها الكاتب من خلال تحليله لحقبة من التاريخ الإسلامي البيزنطي، وقد أفاد البحث كثيراً في مختلف مراحلها، سواء فيما تعلق بالناحية الجغرافية، أو العسكرية والسياسية، أو النظم الخاصة بمناطق الثغور، وحتى الجانب الإنساني والحضاري.

الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى لعلية عبد السميع الجنزوري:

والذي كان مهماً في دراسة القلاع الثغورية الهامة من الناحية السياسية والحضارية، وقد أفادنا كثيراً خاصة في تقسيمات الثغور وفي الدراسة الاقتصادية.

بلدان الخلافة الشرقية لكي لسترنج:

تحدث فيه عن كل البلدان التي تتكون منها الخلافة الإسلامية بما فيها الثغور، وقد تمت الاستفادة منه في تحديد أماكن وماهية بعض الثغور.

الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى لمحمد ضيف البطينة:

والذي تطرق فيه صاحبه إلى الحياة الاقتصادية بجميع جوانبها في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والخلفاء الراشدين، مروراً بدولة بني أمية، وانتهاءً عند العصر العباسي الأول، تحدث فيه بنوع من الاختصار عن موارد بيت المال، كما وقف عند القوائم المالية والعينية للخراج، وتقديم نماذج من النفقات المالية للدولة العباسية.

النفقات وإدارتها في الدولة العباسية لضيف الله الزهراني:

الذي يتناول وجوه إنفاق الموارد المالية في الدولة العباسية خلال الفترة الممتدة بين 132-334هـ/

749-945م، وقد استفدنا منه في الفصل الخاص بالنظم المالية.

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري لعبد العزيز الدوري:

والذي تطرق فيه للجوانب الاقتصادية للدولة العباسية في القرن الرابع، فقد خصص فصلاً كاملاً للحديث عن النظام الضريبي، موضحاً أهم الضرائب الشرعية وأحكامها ومقاديرها حسب ما ورد في كتب الفقه المالي، ثم تناول بالتفصيل واقع هذه الضرائب خلال العصر العباسي، وما فرضه خلفاء الدولة من رسوم وضرائب إضافية في ظروف معينة، أما عن الإنفاق فقد جاء حديثه مقتصرًا على القرن الرابع الهجري، إلا أنه يقدم للدراسة صورة تقريبية عن سياسة الدولة في الإنفاق ومجالات ذلك. وللمؤلف عدة كتب عدنا إليها طيلة إعداد البحث، واستفدنا منها في مختلف جوانبه، أهمها: تاريخ من صدر الإسلام، العصر العباسي الأول، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي.

وسيجد القارئ لهذه الرسالة الكثير من المصادر والمراجع غير التي ذكرناها، جمعت منها المعلومات وأفاد منها البحث.

الباب الأول:

جغرافية ثغور الشام والجزيرة والعوامل
المؤثرة في نشاطها الاقتصادي

الفصل الأول

جغرافية ثغور الشام والجزيرة

المبحث الأول: القصد من الثغور والمصطلحات المرتبطة بها

المبحث الثاني: فضائل الثغور والرباط

المبحث الثالث: نشأة الثغور وتطورها

المبحث الرابع: تقسيمات الثغور

المبحث الخامس: جغرافية الثغور والمنطقة المحيطة بها

المبحث الأول: القصد من الثغور والمصطلحات المرتبطة بها

1- المقصود بالثغور: يقصد بالثغور⁽¹⁾ في هذا البحث، منطقة الحصون والقلاع التي أقيمت على تخوم الشام والجزيرة سواء كانت برية أم بحرية⁽²⁾، وهي على هيئة خطوط دفاعية للتصدي لغارات الروم المتكررة على دار الإسلام، طيلة مدة الصراع بين الطرفين، وهي مراكز لحشد الجيوش وتنظيمها، والانطلاق منها للجهاد صوب بلاد الروم صيفا وشتاءً.

وتعتبر الثغور منطقة محفوفة بالمخاطر بين الدولتين، بسبب تعرضها الدائم للإغارة، واحتوائها على المنافذ والمضايق التي تسلكها الجيوش المحاربة من الطرفين، وقد اهتم الخليفة معاوية بن أبي سفيان 41-60هـ/661-680م منذ توليه إمارة الشام بتحسين المنطقة؛ بوضع حاميات عسكرية دائمة في المعازل الأمامية والممرات الجبلية على الحدود⁽³⁾.

فالثغور مراكز لإقامة الجيوش على تخوم العدو، ومهامها الحراسة وطلب العون من السلطات الرسمية وليس القتال، ولذلك فهي مكان لإقامة الجنود لفترة من الزمن، ثم يسمح لهم بالانصراف والعودة

(1) الثَّغْرُ بفتح الثاء واسكان الغين، لفظة لها حقلها الدلالي والاصطلاحي، فقد جاءت بمعنى إنبات الأسنان أو سقوطها، أنظر: الزنجشيري، أساس البلاغة، مكتبة لبنان، ط1، لبنان، 1996، ص45، ودُكرت بمعنى الفم، أو اسم للأسنان كلها، أنظر: ابن عباد، المعجم المحيط في اللغة، تح: الشيخ محمد حسن، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1994، ج2، ص99 - المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، تح: إبراهيم الأبياري، (د،د،ن)، ط1، (د،م)، 1971، ج5، ص285- ويفصل ابن سيده في الكلمة، عند وصفه لأعراض الأسنان من قبل نبتها، فيقول: الرِّثْلُ هو اتساق الأسنان واستواؤها، أنظر: المخصص، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج1، ص149

وعند اشتقاق كلمة الثَّغْرَة من الثغر، فهي الثلثة والفرجة في الجبل أو الحدار، وسميت المدينة على شاطئ البحر ثغراً، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، م4، ص103، 104- ابن الأثير مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، (د،ط)، بيروت، 1979، ج2، ص213- المعجم الكبير: إشراف شوقي ضيف، مؤسسة روز اليوسف، ط1، مصر، 1992، ج3، ص272- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، ط1، القاهرة، 1960، ص97

أما اصطلاحاً فهي كل موقع قريب من أرض العدو، وتكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار، أنظر: ياقوت الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعا، عالم الكتب، ط2، بيروت، 1986، ص87- نشوان الحميري، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، 1999، ج1، ص849- ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، ط1، بيروت، 1982، ص297- أنظر الملحق رقم1، ص414-

(2) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج6، ص203

(3) سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط1، بيروت، (د،ت)، ص30

إلى ذويهم⁽¹⁾.

2- مصطلحات مرتبطة بالثغور: ارتبط بمفهوم الثغور العديد من المصطلحات، والتي كانت معروفة زمن الدراسة، ولعلّ من أبرزها:

1- الكور: ج كورة، وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بدّ لتلك القرى من قسبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها، وأما المصر فيجاء في قولهم: «مصرت مدينة كذا، والمصر في الأصل الحد بين الشيئين»⁽²⁾، ويذكر المقدسي⁽³⁾: «أما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلدت منه الأعمال، وأضيف إليه مدن الاقليم؛ مثل: دمشق، والقيروان، وشيراز وغيرها، وربما كان للمصر أو للقسبة نواح لها مدن؛ كالبطائح لواسط، والزاب لإفريقية».

2- الأربطة: ج رباط، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، حتى صار لزوم الثغر رباط، وربما سميت الخيل نفسها رباطاً، وخلف المعنى الديني أثره على الكلمة فعدت اصطلاحاً للجهاد المقدس⁽⁴⁾.

ومن ثم اعتمد فقهاء المسلمين المعنى اللغوي، وقالوا: المرابطة هي الإرصاء والإقامة لحفظ الثغور من هجوم المشركين، ومراقبة تحركات العدو، والتعريف يشمل أنواع الرصد الحدودي: كالربض في الخندق،

(1) حدد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مدة ذلك؛ فقد جاء عنه أنه كان يحرس الناس، فمرّ بامرأة في بيتها تقول:

تَطَاوَلْ هَذَا اللَّيْلُ وَأَسْوَدَ جَانِبُهُ
وَطَالَ عَلَيَّ أَلَا خَلِيلُ الْأَعْيَبِ

فَوَ اللَّهُ لَوْلَا خَشْيَةُ اللَّهِ وَخَدَهُ
لَحَرَّكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبُهُ

فلما أصبح عمر (رضه) سأل عن المرأة، فقيل فلانة بنت فلان وزوجها غاز في سبيل الله، فأرسل إليها امرأة تكون معها، وكتب إليه فأقفله، ثم ذهب إلى ابنته حفصة فقال لها: يا بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت له: يا أبا! يغفر الله لك، أمثلك يسأل مثلي عن هذا؟ فقال لها: أنه لولا شيء أريد أن أنظر فيه للرعية ما سألتك عن هذا، فقالت أربعة أشهر، أو خمسة أشهر، أو ستة، فقال عمر: يغزو الناس يسيرون شهراً ذاهبين، ويكونون في غزوهم أربعة أشهر، ويقفلون شهراً، فوقف ذلك للناس في سنتهم، أنظر: الجوزجاني، التفسير، تح: سعد بن عبد الله آل حميد، دار الصميعي، ط1، (د،م)، 1997، ج2، ص420، 421

(2) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية، (د،ط)، مدريد، 1966، ج1، ص332

(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ط2، ليدن، 1902، ص47

(4) لغة من الرباط، المواظبة على الأمر، وهو شأن من لزوم الثغر؛ كأثم ربطوا هناك فثبتوا به ولازموه، ولزوم الثغر شأن رباط الخيل، أنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، مصر، 1981، ج2، ص478- أحمد زباني، النظام العسكري في الإسلام، الدار الإسلامية، ط1، بيروت، 1991، ص69- ابن منظور، المصدر السابق، م7، ص302- فتحي عثمان، دولة الإسلام على الحدود بين دولتين وحضارتين، مجلة الأزهر، مصر، ع6، 1964، ص(731-733)

واليقظة والرصد، والاستفادة من أجهزة التجسس وغيرها⁽¹⁾.

أما اصطلاحاً فهي المواقع الحصينة والمدن التي يربط بها المجاهدون، وتُشخَّنُ بالمؤن والميرة، وتشبه مراكز المراقبة والنقاط الحدودية، وهي تقع غالباً على السواحل البحرية بخلاف الثغور البرية⁽²⁾، وعلى هذا فهي المدن العسكرية المشحونة بالمتطوعين الذين يتناوبون على مراقبة تحركات العدو في البحر، وكان على شواطئ بحر الروم⁽³⁾ من زاويته الشمالية الشرقية ألف رباط بمعدل رباط كل 6 كلم⁽⁴⁾.

3- الجند: وردت كلمة جند، وجمعها أجناد بعدة معانٍ، فهي بمعنى الأعوان والأنصار والجند والعسكر، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾⁽⁵⁾، وكذلك الجيش والحزب والمدينة، وخصّ أبو عبيدة مدن وأجناد الشام خمس كور: دمشق، وحمص، وقنسرين⁽⁶⁾، والأردن، وفلسطين؛ يقال لكل مدينة منها جند، قال الفرزدق:

فَقُلْتُ فَهُوَ إِلَّا الشَّامُ نَزَكِبُهُ كَأَنَّمَا المَوْتُ فِي أَجْنَادِهِ البَعْرُ⁽⁷⁾.

أما ياقوت⁽⁸⁾ فيذكر: «أنه اختلف في الأجناد، ف قيل سمى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كورا»، والتجند: التجمع، وقيل سميت كل ناحية بجند، لأنهم كانوا يقبضون أعطيائهم فيه، وذكروا أنّ الجزيرة

(1) السيوري جمال الدين، كنز العرفان في فقه القرآن، المكتبة المرتضوية، (د، ط)، شيراز، 1384هـ، ج 1، ص 388

(2) إحسان الهندي، الحياة العسكرية عند العرب، وزارة الثقافة، (د، ط)، دمشق، 1964، ص 224

(3) سمي بحر الروم لأنّ الرومان كانوا يسمونه Nostrum Mare أي بحرنا، فترجم إلى بحر الروم

(4) شوقي أبو خليل الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، ط 1، دمشق، 1994، ص 556

(5) سورة الأحزاب، الآية 9

(6) قنسرين: سميت برجل من قيس، يقال له ميسرة نزلها فمر به رجل فقال: «ما أشبه هذا الموضع بقن سيرين»، فبنى منه اسماً للمكان فقبل قنسرين، وقيل: دعا أبو عبيدة ميسرة بن مسروق فوجهه في ألف فارس في أثر العدو، فمر عليها وجعل ينظر إليها، فقال ما هذه؟ فسميت له بالرومية، فقال والله كأثما قنسرين، قال وهذا ما يدل على أنّ قنسرين اسم مكان آخر عرفه ميسرة فشبه به هذا فسميت به، ويذكر ياقوت أنّها سميت برجل من عبس، أنظر: المعجم، م 4، ص 403- وذكر أنّها كورة بالشام، بينها وبين حلب مرحلة (المسافة التي يقطعها المسافر في يوم واحد، تقدر بنحو 35 كلم)، وأنّ البعض يدخلها في العواصم، أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المطبعة الأميرية، القاهرة، (د، ط)، 1914، ج 4، ص 89، 90- هناك من ذكر أنّ معاوية حين تولى الخلافة وقصده أهل العراق وقتلوا علياً، أنزلهم قنسرين والعواصم والثغور، وصيرها جنداً وأفردها عن حمص، أنظر: عبد الله الأنصاري، نخبه الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، ط 1، بيروت، 1988، ص 282

(7) البغر: العطش الذي يصيب الإبل فلا تروى، وهي تموت عنه، أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، م 3، ص 214

(8) معجم البلدان، دار صادر، (د، ط)، بيروت، 1987، م 1، ص 103

كانت مع قنّسرين جندا واحدا، فأفردها عبد الملك بن مروان 66-86هـ/685-705م، ولم تزل كورها مضمومة إلى حمص حتى كان ليزيد بن معاوية، الذي جعل قنّسرين ومنبج وأنطاكية⁽¹⁾ جندا يرأسه، فلما استخلف الرشيد سنة 170هـ/786م جعلها جندا وأفرد العواصم⁽²⁾.

4- الفروج: استعملت كلمة الفروج للدلالة على الثغور أيضا⁽³⁾.

5- المنارات والمناظر والمراقب: يكون فيها أقوام يراقبون العدو لئلا يطوقهم على غفلة، فإذا رأوه أعلموا من بها ليتأهبوا⁽⁴⁾، والمنارات تركز جهودها في السواحل، أما المناظر (ج منظره ونظيره ونظورة)

(1) قسبة إقليم العواصم، ذكر ابن الشحنة أن الكور التي كانت مضافة لأنطاكية هي: تيزين، والجومة، وجند أراس، وأرتاح، والسويدية، والقرشية، وقد أراد الخليفة هارون الرشيد أن يسكنها فقبل له ما فيها من ترادف الصدى على ساحلها، وزوال ريح الطيب منها فامتنع عن ذلك، والنصارى يدعون أنطاكية مدينة الله ومدينة الملك وأم المدائن لأنها أول بلد ظهرت فيه النصرانية، أنظر: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، (د،ط)، دمشق، 1984، ص202، صار للمدينة أهمية كبيرة في العهد السلوقي عندما أعاد بناءها سلوقس نيكاتور وأسماها على اسم أبيه أنتياخوس، وجعلها حسب المخطط المعروف برقعة الشطرنج، وظلت تعتبر أكبر مركز في الإقليم السوري من الناحية الدينية والعلمية، أنظر: الزمخشري، الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المطبعة العامرة، (د،ط)، مصر، 1864، ج1، ص479

(2) ابن شداد، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحي زكريا عبادة، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، 1991، ج1، ق2، ص240- والعواصم جمع عاصم هو المانع الحامي، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4م، ص165 وجاء في التنزيل في سورة هود الآية 43 قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَأَوِّى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ ومعنى الآية: أنه لا مانع اليوم من أمر الله الذي قد نزل بالخلق من الغرق والهلاك إلا من رحمنا فأنقذنا منه، أنظر: الطبري، تفسيره، تح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، (د،ط)، مصر، (د،ت)، ص332، 333- وجاءت بنفس المعنى عند الفيروز أبادي: عَصَمٌ، يَعْصِمُ، اكتسب ومنع ووقى، وإليه اعتصم أي لجأ، أنظر: القاموس المحيط والقابوس الوسيط في اللغة، دار العلم، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ص1149، فالعواصم حصون وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية، بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء وأكثرها في الجبال، وزعم بعضهم أن حلب ليست منها ودليلهم أنها من أعمال قنسرين، وهم يقولون: قنسرين والعواصم والشيء لا يعطف على نفسه، أنظر: الرازي، مختار الصحاح، دار عمار، ط9، الأردن، 2005، ص218- أما اصطلاحا فالمقصود بها سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية، وسميت كذلك لأنها تحمي أو تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم، وهي الخط الثاني للدفاع عن الثغور، ولذلك تتميز عن الحصون الشمالية كونها تقع خلفها، فهي تعصمها وتحميها وتمدها في أوقات النفير، أنظر: قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، (د،ط)، (د،م)، 1981، ص186- الحموي، المعجم، م1، ص103

(3) «فلما فرغ خالد من أمر اليمامة، كتب إليه أبو بكر أن سر إلى العراق حتى تدخلها، وابدأ بفرج الهند وهي الأبله... وهو أعظم فروج فارس شأنا وأشدّها شوكة، وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر»، وخطب عمر بن الخطاب (رضه) عند زيارته للشام، فقال: «فجنودنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج»، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص333

(4) ابن منظور، المصدر السابق، ج2، ص487

- والمراقب (ج مرقب) تقام في رؤوس الجبال، ويوضع فيها الناظرون والرقباء لمراقبة العدو والإشراف على الطرق⁽¹⁾، مهمتهم مناظرة العدو وحراسته فإذا أراد الغارة أرسلت المنظرة رسالة تحذير لصد العدو⁽²⁾.
- 6- الدروب: هي المضائق والممرات التي تمر بين الجبال التي تربط شمال الشام ببلاد الروم، أو هي المنافذ إلى آسيا الصغرى⁽³⁾ من أوروبا إلى الشام عن طريق البر⁽⁴⁾، وأطلق على الإقليم الواقع جنوب شرق آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر اسم الدرب أي الطريق بين طوروس وبلاد الروم⁽⁵⁾.
- 7- المطامير: (ج مطمورة)، هي عبارة عن كهوف أرضية انتشرت في منطقة الثغور، يلجأ الناس إليها هرباً من ويلات الحرب، وكانت تستخدم للحفاظ على الأسرى، وقد اشتهرت في العصر العباسي حتى أُطلق على تلك المنطقة اسم المطامير، أو ذات المطامير⁽⁶⁾.
- 8- الضواحي: مناطق حدودية يتركها الطرفان خالية، وينقل منها السكان لتبقى عازلة⁽⁷⁾.
- 9- المسالحي: الواحد مسلحي، وسموا بذلك لأنهم كانوا ذو سلاح، أو لأنهم يرابطون في مسلحة، وكان يجمع بها السلاح والرجال الذين يحفظون المواضع، ويكون عددهم ما بين المائتين إلى الألفين، يوكل إليهم مراقبة العدو وتحسس أخباره لئلا يغزوهم على غفلة منهم، وإذا أحسوا بشيء أُنذروا المسلمين بذلك، وقد كانت كنفقات تعبوية دفاعية، اتخذتها القوات الإسلامية بسبب سعة حدودها وانكشافها، تتبدل مواضعها وقوتها حسب مصادر الأخطار، والخطط التي تضعها القيادة⁽⁸⁾.

(1) مصطفى شاکر، دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1973، ج2، ص299

(2) جواد علي، المرجع السابق، ج9، ص323

(3) اسم أطلق على شبه الجزيرة المكونة للطرف الغربي لآسيا، والذي يحده البحر الأسود وبحر مرمرة من الشمال، وبحر إيجه من الغرب، وبحر الروم من الجنوب، أما مضائق الدردنيل والبوسفور فتفصل شبه الجزيرة هذه عن الأناضول وعن البلقان، وأما الاسم باليونانية ميكرا أزيا فيعود إلى القرن العاشر البيزنطي، وكانت قبل ذلك (القرن الخامس) تدعى أناضولية، وتشكل جغرافياً الموقع الآسيوي ذي الكثافة السكانية المرتفعة والأكثر تجاوراً لأوروبا، وقد شكلت نقطة تجمع وعبور للهجرات الهندو أوروبية، ونقطة التقاء الحضارات، وقد تنازعت جميع الإمبراطوريات القديمة والمتوسطة عليها إلى أن آلت في النهاية إلى الأتراك أواسط القرن 15،

أنظر: مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية، الشركة العالمية للموسوعات، (د،ط)، بيروت، ج2، 2002، ص24

(4) السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419، ج2، ص83

(5) علية الجنزوري، الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية، مكتبة الانجلو المصرية، (د،ط)، القاهرة، 1979، ص21

(6) الواقدي، فتوح الشام، دار الجيل، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج2، ص246

(7) مصطفى شاکر، المرجع السابق، ج2، ص299

(8) نفسه، م5، ص128

10-التخوم⁽¹⁾: هي الفصل بين الأرضين من الحدود، وتوصف بأنها الواجهة المتقدمة لحضارة ما، وفي ظل الإمبراطوريات الكبرى تقع ما بين إمبراطورية وأخرى، أو مناطق تجاور مع كيانات خارجية، وهي الجبهة الأمامية للدولة عند مقابلتها لدولة أخرى، قديمة تكونت عندما بدأت الدولة تكتسب الصفة القانونية والسياسية، وعندما بدأت الدول تتطور وتشرف على كل أراضيها، بدأت تتجه إلى هذه المناطق وتحدها وتخطط فيها الحدود، فتطورت إلى مفهوم الحدود المعترف بها دولياً، فاصطلاح التخوم شاع في الماضي، وهي ظاهرة تاريخية اختفت في وقتنا الحاضر، واستبدلت بالحدود السياسية التي توصف بأطراف الأراضي، فهي تقوم في اتجاه الخارج بينما الحدود⁽²⁾ في اتجاه الداخل.

أمّا اصطلاحاً: فالحدود منطقة جغرافية ذات بعد واحد، تفصل بين إقليم دولة وأخرى مجاورة لها، وهي خطوط واضحة المعالم ومحددة في الفصل بين دولتين، وهي في مفهوم الجغرافيا حافة الإقليم السياسي للدولة، وفي المفهوم التاريخي هي انعكاس لتعامل الدولة وتوسعها وانكماشها، وتعبر عن فلسفتها ودرجة قوتها أو ضعفها خلال مراحل زمنية متتابعة⁽³⁾.

وإذا أردنا أن نفرق بين استخدام كلمة تخوم *frontière* والتي تعني منطقة، وبين كلمة حدود *bornes* والتي يقصد بها خطأً، فالتخوم ظهرت بهذا المعنى في كل العصور، بينما الحدود التي لا بد أن تبين على خرائط وتوضع علاماتها على سطح الأرض تعد شيئاً جديداً⁽⁴⁾، ويفرق السماك⁽⁵⁾ بين الحدود والتخوم فيقول: «أمّا التخوم، فهي مناطق تمتد بين دولتين أو أكثر، تمثل عامل فصل بين

(1) جمع تخم، وتخوم الأرض حدودها، وهي منتهى كل قرية أو أرض، ويقال فلان على تخم من الأرض، وقيل تخومها حدودها، روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «ملعون من غير تخوم الأرض»، أي حدود الحرم التي حدّها إبراهيم الخليل هذا في المعنى الأول، أما الثاني فأن يدخل الرجل في ملك غيره من الأرض فيقتطعه ظلماً، أنظر: أشرف حسن محمد شقفة، الجغرافية السياسية، بحث حول مفاهيم خاصة بالجغرافيا السياسية، جامعة غزة، قسم الجغرافيا، 2010، ص(1-25).

(2) الحد في اللغة الفصل بين الشيئين، وجمعه حدود، وفصل ما بين شيئين حد بينهما ومنتهى كل شيء حدّه، ومنه أحد حدود الأرض، ولكل منتهى نهاية، ومنتهى كل شيء حدّه، وحدود الله تعالى الأشياء التي يبين تحريمها ويتجاوز إلى غير ما أمر منها أو نهي عنه منها، أنظر: الشيخ الرضا، معجم متن اللغة، مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، 1958، ج2، ص41- عز الدين دياب، دراسة في الحدود السياسية والثقافية والهوية، موقع أرنتروبوس، [http://www.aranthropos]، دمشق، (9أفريل 2009)

(3) محمد زاهر سعيد السماك، الجغرافيا السياسية المعاصرة، دار الأمل، ط1، الأردن، 1998، ص107، 108

(4) جوردن ايست، الجغرافيا توجه التاريخ، تر: جمال الدين الدناصوري، دار الحداثة، ط2، بيروت، 1982، ص105

(5) المرجع السابق، ص108

سيادتها، وهي في الوقت نفسه نقطة وصل جغرافية، لأنها تمثل منطقة انتقالية بين شخص الوجدتين السياسيتين، والتخوم بيئة انتقالية لها أبعادها الجغرافية في الطول كما في الاتساع، أمّا الحدود فهي خطوط لا أبعاد لها».

المبحث الثاني: فضائل الثغور والرباط

اهتمت الإدارة العسكرية الإسلامية بالثغور، وأمرت بالرباط بها والقيام عليها منذ نشأتها على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولحماية الثغور والمقام بها أي المرابطة⁽¹⁾ فضائل كبيرة وردت في الكتاب والسنة النبوية وفي أقوال العلماء والفقهاء، أهمها:

1- في القرآن الكريم: تضمن القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الجهاد والرباط في سبيل الله عموماً، وحماية الثغور والمرابطة فيها بشكل خاص، وتجعل لهؤلاء المرابطين أجراً عظيماً في الدنيا والآخرة، فقد ورد في قوله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تَجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَعْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾⁽²⁾.

ويؤكد الحق تبارك وتعالى دعوته للمؤمنين بالصبر، والمصابرة، والمرابطة في القتال ضد الأعداء بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ ءَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾⁽³⁾ وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁴⁾.

ويقول (صلى الله عليه وسلم) داعياً المؤمنين لمقاتلة أعداء الله من المشركين في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَءَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾⁽⁵⁾.

ويكرر دعوته لهم بأن يهبوا للنفير والجهاد: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾⁽⁶⁾.

(1) النيسابوري أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الشافعي، التفسير البسيط، تح: لجنة علمية، جامعة بن سعود، ط1، الرياض، 1430، ج7، ص274

(2) سورة الصف، الآية 10-12

(3) سورة الأنفال، الآية 60

(4) سورة آل عمران، الآية 200

(5) سورة التوبة، الآية 36

(6) سورة التوبة، الآية 41

ويفاضل الله (عزوجل) بين المجاهدين والقاعدين فيقول: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٩٦) (١).

والمرابطة في سبيل الله تعني ملازمة الثغر واليقظة والانتباه لكل محاولة قد يقوم بها الأعداء لمهاجمة حدود المسلمين، وهي تنزل من الجهاد والقتال منزلة الاعتكاف في المساجد من الصلاة بل تفضلها؛ لأنّ المرابط يقيم في وجه العدو متأهباً مستعداً حتى إذا أحسّ من العدو بحركة نهض، كما أنّ المعتكف يكون في موضع الصلاة مستعداً فإذا دخل الوقت وحضر الإمام قام إلى الصلاة (٢).

2- في السنة النبوية: إذا كان القرآن الكريم قد حثّ على الجهاد والبذل والتضحية في سبيل الله في الكثير من آياته، وكانت حماية الثغور والمرابطة بها من أجل وأعظم صور الجهاد، وبيّن أن من يفعل ذلك له أجر عظيم في الدنيا والآخرة، فإنّ السنة النبوية قد اشتملت على الكثير من الأحاديث التي تحث على الجهاد والرباط، والسهر على حماية الثغور من الأعداء، ومن هذه الأحاديث:

عن سهل بن سعد (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: {رباطٌ يؤمُّ في سبيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سَوِّطٌ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، أَوْ الرُّوحَةُ يَرْوِحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْعَدُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا} (٣).

وعن سلمان (رضه) قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: {رباطٌ يؤمُّ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأُمنَ الْفَتَانُ} (٤).

وعن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: {كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي

(1) سورة النساء، الآية 95-96

(2) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، (د، ط)، القاهرة، 1423، ج6، ص199

(3) أبو القاسم سليمان الطبراني، مسند الشاميين، تح: حمدي بن عبد الحميد السلفي، ط1، بيروت، 1984، ج4، ص350، رقم الحديث 3528

(4) أنظر: النيسابوري، الجامع الصحيح، دار الجيل، (د، ط)، بيروت، ج3، حديث رقم 163- ابن ماجه، سنن، دار إحياء الكتب العربية، (د، ط)، حلب، (د، ت)، ج4، ص61، رقم الحديث 2767

سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنَمِّي لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ {⁽¹⁾.

وعن أنس بن مالك قال: سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن أجر الرباط فقال: {مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً حَارِسًا مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَلَفَهُ مِمَّنْ صَامَ وَصَلَّى {⁽²⁾.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال: {رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُوَافِقَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي أَحَدِ الْمَسْجِدَيْنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَمَنْ رَابَطَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ رَابَطَ، وَمَنْ رَابَطَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الرِّبَاطَ {⁽³⁾.

ويقول العزيز الحكيم في كتابه: {يَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقْوَامًا يَمْزُونَ عَلَى الصِّرَاطِ كَهَيْئَةِ الرِّيحِ، لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَقْوَامٌ يُدْرِكُهُمْ مَوْتُهُمْ فِي الرِّبَاطِ {.

وقال: {مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا يُخِيفُ فِيهِ الْمَشْرِكِينَ، وَيُخِيفُونَهُ حَتَّى يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ كُتِبَ لَهُ كَأَجْرِ سَاجِدٍ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَجْرُ قَائِمٍ لَا يَقْعُدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَجْرُ صَائِمٍ لَا يَفْطِرُ {⁽⁴⁾.

وعن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: {مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُجِرِيَ عَلَيْهِ عَمَلُ الصَّائِمِ وَأُجِرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْقَتْلانَ وَيَبْعَثُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَرْعِ الْأَكْبَرِ {⁽⁵⁾.

وفي الصحيحين عن النبي (صلى الله عليه وسلم): {أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ، قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا، قَالَ: ثُمَّ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا، قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ {، وروي: {غَزْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ حَجَّةً، وَرِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ {، ولهذا كان

(1) أنظر: الترميذي، سنن الترميذي، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، مصر، 1975، ج4، ص165، حديث رقم 1621- أحمد بن حنبل بن أسد الشيباني، مسند الإمام بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001، ج28، ص589، حديث رقم 17359

(2) أبو القاسم الطبراني، المعجم الأوسط، تح: طارق بن عوض، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، (د،ط)، القاهرة، دار الحرمين، (د،ت)، ج8، ص90، رقم الحديث 8059

(3) سعيد بن منصور، السنن، الدار السلفية، ط1، الهند، 1982، ج2، ص192، حديث رقم 2410

(4) ابن مبارك عبد الله، الجهاد، الدار التونسية، (د،ط)، تونس، 1971، ص145

(5) أبو بكر أحمد بن عمرو البزاز، مسند البزاز (منشور باسم البحر الزخار)، تح: محفوظ الرحمن زين الله وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، ط1، المدينة، 2009، ص8361

الرباط في الثغور أفضل من المجاورة بمكة والمدينة، والعمل بالرمح والقوس بالثغور أفضل من صلاة التطوع⁽¹⁾.

وأدرك المسلمون منذ البداية أهمية المدينة، من خلال الأحاديث المنسوبة إلى النبي(صلى الله عليه وسلم)، فقد قال شعبي عن تميم الداري: {قلت يا رسول ما رأيت بالروم مدينة مثل مدينة يقال لها أنطاكية، وما رأيت أكثر مطراً منها، فقال: نعم وذلك أن فيها التوراة، وعصا موسى، ورضراض الألواح، ومائدة سليمان في غار من غيراتها، ما من سحابة تشرف عليها من وجه من الوجوه إلا أفرغت ما فيها من البركة من ذلك الوادي، ولا تذهب الأيام والليالي، حتى يسكنها رجل من خلقي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً}⁽²⁾.

في أقوال العلماء والفقهاء: حث علماء المسلمين على حماية الثغور والمرابطة بها، وأولوها اهتماماً خاصاً، فذكرها لا يكاد يخلو من أي مصنف عن الجهاد، ولا تكاد تنظر في فقه الجهاد إلا وتجد الثغور وحمايتها والمرابطة، ففي فصل مهام الخليفة ومسؤولياته جعلوها من واجبات الإمام؛ عن طريق تحصينها بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا يظهر الأعداء بقوتهم على المسلمين فينتهكون حرمتهم ويسفكون دماءهم⁽³⁾، وفي فصل اختيار الأصلاح من الولاية، يقرر الإمام: أن الأشجع أحق، وخاصة إن كانت الحاجة إلى فضل الشجاعة أدعى لانتشار الثغور وحمايتها⁽⁴⁾.

قال أبو يوسف⁽⁵⁾ ت(182هـ/798م): «ينبغي للإمام أن تكون له مسالح على المواضع من الطرق التي تنفذ إلى بلاد الشرك، فيفتشون من يمر بهممن التجار، فمن كان معه سلاح أخذ منه، وردوا من كان معه من الرقيق، ومن كانت معه كتب فُرِّتْ كتبه، فما كان من خبر من أخبار المسلمين قد كتب أخذ الذي أصيب معه الكتاب، وُبُعث به إلى الإمام ليرى في رأيه».

(1) أحمد بن تيمية، الفتاوى، مكتبة المعارف، (د،ط)، الرباط، (د،ت)، م 28، ص6-12

(2) أحمد بن علي بن محمد الشوكاني، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، المكتب الإسلامي، ط، بيروت، 1986، ص432

(3) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الحديث، (د،ط)، القاهرة، (د،ت)، ص22

(4) نفسه، ص26

(5) يعقوب بن إبراهيم، الخراج، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، القاهرة، (د،ت)، ص207

وينبغي على الإمام أن يتدبّر بترتيب قوم في أطراف البلاد، يكفون من هم أمامهم من المشركين، ويقيمون الحصون ويحفرون الخنادق وجميع مصالحهم، ويؤمّر في كل ناحية أميراً يقلده أمر الحرب وتديير الجهاد، ويكون ذو رأي، وعقل ونجدة، وصبر بالحرب ومكايمة للعدو، ويكون فيه أمانة ونصح للمسلمين، لأنّه لا يؤمن عليها من المشركين⁽¹⁾.

فكان ابن عمر (رضي الله عنهما) يُقدّم الرباط على الجهاد، فقال: «فرض الله الجهاد لسفك دماء المشركين، وفرض الرباط لحقن دماء المسلمين، وحقن دماء المسلمين أحبُّ إلي من سفك دماء المشركين»⁽²⁾.

وسئل شيخ الإسلام أحمد بن تيمية⁽³⁾ عن الحديث: {حِرْسُ لَيْلَةٍ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ رَجُلٍ فِي أَهْلِهِ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَنْ سَكْنَى مَكَّةَ وَبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَالْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ عَلَى نِيَةِ الْعِبَادَةِ وَالانْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالسَّكْنِ بِدَمِيَاطَ، وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَطَرَابُلُسَ، عَلَى نِيَةِ الرِّبَاطِ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ؟} فأجاب: «الحمد لله، بل المقام في ثغور المسلمين كالثغور الشامية والمصرية أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة، وما أعلم في هذا نزاعاً بين أهل العلم»، وقد نص على ذلك غير واحد من الأئمة، ذلك أن الرباط من جنس الجهاد، والمجاورة غايتها أن تكون من جنس الحج، قال تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾⁽⁴⁾.

فعن أبي الدرداء قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {أَهْلُ الشَّامِ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُرِّيَاتُهُمْ وَعَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ إِلَى مُنْتَهَى الْجَزِيرَةِ مُرَابِطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَنْ إِحْتَلَّ مَدِينَةً مِنْ الْمَدَائِنِ فَهُوَ فِي رِبَاطٍ وَمَنْ إِحْتَلَّ مِنْهَا ثَغْرًا مِنْ الثُّغُورِ فَهُوَ فِي جِهَادٍ}⁽⁵⁾.

(1) المقدسي ابن قدامة عبد الله، المغني، مكتبة القاهرة، (د، ط)، القاهرة، 1968، ج 9، ص 166

(2) الباجي الأندلسي، المنتقى من شرح الموطأ، مطبعة السعادة، ط 1، مصر، 1915، ج 3، ص 162

(3) المصدر السابق، م 28، ص 5

(4) سورة التوبة، الآية 19

(5) أبو الحسن نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2001،

ج 10، ص 60

للثغور أهمية وشأن عظيم، فهي من الأعمال الجليلة التي يختار لها من يشغلها بعناية، وأتّما من أولى أولويات الأئمة ومن تصدر لقيادة الناس، هذا بالإضافة إلى الأجر العظيم لمن رابط في الله وحرس ثغور المسلمين ضد الأعداء، ورابط بها بنية الجهاد، كيف وإن كانت منطقة الثغور في بلاد الشام، فالأحاديث والآيات في فضائل البلاد والمرابطة بها كثيرة.

المبحث الثالث: نشأة الثغور وتطورها

إنّ نشأة أي نظام وتطوره، لا بد أن يتركز على أسس ومبادئ وقواعد تعطيه زخماً من القوة والارتكاز، وتدفعه إلى الاستمرارية عبر المراحل التاريخية، والحديث عن أي نظام في الدولة الإسلامية، وفي أي عصر من عصورها المختلفة التي امتدت قروناً من الزمن، لم يكن وليد اللحظة بل هو وليد امتدادات تاريخية طبعته بمظاهر القوة والاستمرار.

فالنظم الإسلامية، ترجع في كثير من أصولها إلى النظم العربية قبل الإسلام، والتي سادت الجزيرة العربية وأطرافها في الممالك العربية كالمناذرة⁽¹⁾ والغساسنة⁽²⁾، وما ساد في مملكة تدمر، أو التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة شرقاً وغرباً، لاسيما الساسانية والبيزنطية، إذ أقرت وما ينسجم مع قيم ومبادئ الإسلام، واعتبرتها مظهراً لشخصية الأمة من حيث تقدمها وعوامل تطورها ومدى تأثيرها في مجرى التاريخ الإنساني⁽³⁾.

ومن المؤكد أنّ نظام حماية الحدود لم يكن من مبتكرات العصر الأموي، لأنّ الدول والأمم وعبر مراحلها التاريخية، وفي محاولة لديمومة استقرارها، وحماية نفسها من الأخطار كان لا بد لها من إنشاء نظم ووسائل دفاعية على حدودها، تطورت تبعاً لنوع الخطر والعدو، ولهذا يمكن القول أنّ الدولة الإسلامية اتبعت نظاماً يتماشى مع خصوصية الدولة والأخطار المحيطة بها من كل جانب، فضلاً عن إفادتها من النظم القديمة عند الساسانيين والبيزنطيين، فالمتتبع لتطور هذا النظام يجد أنّ للإمبراطوريات السابقة؛ الفارسية والبيزنطية دور مهم في بلورة فكرة الثغور، فقد وضعت لها إدارات وأنظمة وأولتها

(1) فرع من قبيلة لخم بن عدي، وهي قبيلة عربية من كهلان من القحطانية أحت جذام، رحل بعضهم إلى شمالي الجزيرة العربية، وسورية، وفلسطين، والعراق، أسس عمرو بن عدي دولة اللخمين بني نصر، أو المناذرة في الحيرة نحو القرن 3م، فكانوا في حروب متواصلة مع الغساسنة، اعتنقوا المسيحية وتحالفوا مع الفرس، تلاشت دولتهم بوفاة النعمان الثالث 602م، دخلوا الإسلام بعد الفتح، أنظر: لويس معلوف، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط 40، بيروت، 2003، ص 493

(2) أو آل جفنة، سلالة عربية يمنية الأصل، هجرت بلادها عند انفجار سد مأرب القرن 3م، استوطنت بلاد حوران قرب دمشق، وشرقي الأردن، وفينيقيا اللبنانية، وفلسطين، اعتنقوا المسيحية وعملوا في الجيش البيزنطي وحوا الحدود السورية، أشهر ملوكهم، الحارث بن جبلة (529-581م) الذي انتصر على المنذر بن ماء السماء اللخمي في يوم حليلة، والمنذر بن الحارث (569-581م) الذي حارب اللخمين وأحرق الحيرة عاصمتهم، نفاه البيزنطيون إلى صقلية، أنظر: لويس معلوف، المرجع السابق، ص 392

(3) عاصم إسماعيل كنعان، نظام حماية الحدود في العصر الأموي، مجلة الفتح، ع 32، مصر، 2008، ص (1-13)

اهتماما كبيرا (1).

1- أسباب قيام الثغور:

انطلاقاً من فهم المسلمين بأن لا يؤتى الإسلام من قبلهم، من أي جهة من الجهات أو ناحية من النواحي، لأن كل واحد على ثغر من ثغور الإسلام فقد حرصوا على المراقبة، ولذلك كان للثغور

(1) برزت الفكرة عند الفرس منذ قيام الدولة في عهد أردشير بن بابك سنة 212م، إذ قام بتقسيم الدولة إلى أربعة ولايات كان يلي كل ولاية منها حاكم، اختلفت تسميته عبر العصور، فكان البدشنج وهو لقب للولاة المرازية الأربعة، وقد أُلحق بهذه الوظيفة اقطاعات كبيرة في كل ولاية تمنح لواليتها، وهناك لقب سترز الذي أخذ يسري على هؤلاء الحكام لقب المرازية، والكلمة في حد ذاتها تشير إلى حماية الحدود، وكان المرازية يأتون بالمرتبة السلطوية بعد الملك، ويُعرفون بملوك الأطراف ويحملون لقب شاه، أنظر: آرثر كريسين، إيران في عهد الساسانيين، تر: يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، (د،ت)، ص11- وأجرى الإمبراطور كسرى 531-579م تغييرات جذرية للنظام راعى فيها الطابع العسكري للولايات الحدودية الأربع، وهي المشرق وخراسان وما والاها، والعراق حتى الحدود البيزنطية، واليمن، وبلاد الخزر وهي أذربيجان وما والاها، وعيّن على كل ولاية شخص لقب بالأصبهيد، وله نائب اسمه المزيان، مهمته قيادة الجيوش تحت رايته، أنظر: المقدسي، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، (د،ط)، مصر، (د،ت)، ج3، ص169- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، ط2، القاهرة، (د،ت)، ج2، ص44.

أما الدولة البيزنطية التي كانت محاطة بالأخطار، ولها أعداء كثر تتلقى ضرباتهم وتستدعي صد غاراتهم على الحدود كالوندال والسلاف والفرس والبلغار والقوط الشرقيين فقد اهتمت بالشؤون العسكرية، فأقامت سلسلة الحصون والقلاع على أطراف الإمبراطورية، وطورت من وسائل تنظيم الجيوش والفنون الاستراتيجية، فوضعت نظاماً حربيًا للدفاع عن حدودها ظهر الاهتمام الحقيقي به منذ عهد هرقل الذي اتبع نظام إداري يحقق له الصمود ويسد الطرق الرئيسية بآسيا الصغرى المؤدية إلى القسطنطينية، ونتج عنه التخلص من أسس النظام الإداري القسري الذي سارت عليه الإمبراطورية منذ عهد دقلديانوس أواخر القرن 3م وقسطنطين وكان يهدف إلى الفصل بين السلطتين في الأقاليم الرومانية، وقد ظل متبعاً حتى أبطله جستنيان الذي أيقن أنه لا سبيل للمحافظة على الأقاليم التابعة له إلا من خلال صبغها بصبغة حربية تمكنها من الدفاع عن نفسها، فمنح القائد العام لجيش ولاية أرمينية سلطات مدنية إلى جانب مهامه الحربية، اعتمد هذا النظام على توزيع فيالق من الجيش على جهات منها تعسكر فيها بصفة دائمة، ثم منح الأباطرة قائد الفيلق استراتيجوس (*Strategos*) في الإقليم سلطات مدنية واسعة، وأصبحت آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية، يقيم في كل منها فيلق من فيالق الجيش، يجمع قائده بين مهام الإشراف على الجند وأعباء الحكم المدني، عرف باسم نظام الثيمات *Themes* أو البنود كما عرف عند المسلمين، وهي إنزال فرق خاصة من الكنائس للدفاع عن نواحي ثابتة معينة، ثم تعيين قائد لتلك الفرق رئيساً للحكومة المدنية أيضاً، أنظر: فاطمة قدورة الشامي، الحضارة البيزنطية، دار النهضة العربية، (د،ط)، بيروت، 2002، ص46- السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، (د،ط)، بيروت، 1982، ص160، 161- نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، تر: حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، مطبعة التأليف والترجمة، ط1، القاهرة، 1950- أنظر: الملحق رقم2، ص415- عفاف سيد صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شلمان، دار النهضة، (د،ط)، القاهرة، 1982، ص147-

Marsha E, Achermann, Encyclopedia of world history -600 to1450 ce- fact of file, New York, 2008, v2, p96 PP 62, 63- Oman, Oman, M A, F S A, The Byzantine Empire, GP Putnan's Sons, New York, 1908, P65

أهمية استراتيجية في حياتهم، لما تتميز به من موقع حصين ودفاعات قوية، فهي خط الدفاع الأول عن حدود الدولة الإسلامية ضد هجمات الأعداء، وهي قواعد لطلائع الفتح الإسلامي تتجمع فيها الجيوش، وتنطلق منها للغزو ثم تعود إليها، وتتحصن بها عند الخطر.

وقد سار الفتح الإسلامي وفق خطة راشدة مستنيرة، اتضحت معالمها على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، سار عليها الخلفاء الراشدون وخلفاء بني أمية وبني العباس، تهدف إلى تثبيت الدعوة في الداخل وتبليغها ومدّها في أقطار الأرض، وتعتمد المحافظة على شخصية الفرد المسلم ودمه، فلا مجازفة ولا امتداد بالفتح إلا بعد إقامة قواعد ثابتة للمسلمين تتولى إقامة حياة إسلامية تنطلق منها الدعوة إلى غيرها، وتبعاً لذلك فقد كانت بلاد الإسلام كلها ثغور، وكل مسلم على ثغرة من ثغور الإسلام، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {أَنْتَ عَلَى نَعْرَةٍ مِنْ نَعْرِ الْإِسْلَامِ فَلَا يُؤْتِيَنَّ مِنْ قَبْلِكَ} (1).

فقيام الدولة الإسلامية أدرك خلفاؤها أنّ خصوم الدولة الجديدة يتحفزون للثأر والهجوم المعاكس، لذلك كان لزاماً أن يتخذوا نظاماً دفاعياً عن طريق الهجوم، فكانت سلسلة من الغزوات والسرايا (2) المتلاحقة (3) والتي جاءت بحد ذاتها إشعاراً للأعداء بقوة المسلمين، فضلاً عن حماية حدود الدولة الناشئة، قبل أن تتسع بفعل عمليات الفتح شرقاً وغرباً (4).

فقد قضت الجيوش الإسلامية على الدولة الفارسية في بلاد العراق (5)، ثم دخلت في حروب متتالية مع البيزنطيين، واستطاعت خلال جولات عديدة إعادة الاستحواذ على معظم الأراضي التي

-
- (1) المروزي، السنة، تح: سالم أحمد السلفي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت، 1987، ج1، ص240
- (2) اتفق أصحاب السير والرواة أنّ الغزوة هي الحرب التي يحصرها رسول الله بنفسه ويقاوم فيها، وأما البعث أو السرية فيكلف فيها أحد أصحابه أو طائفة منهم، وقد اختلف في عدد غزواته وسراياه، والأقرب للصحة أنّه خرج في سبع وعشرين غزوة، قاتل في تسع منها، وبلغ عدد بعثته وسراياه سبعا وأربعين، أنظر: ابن كثير، البداية والنهاية، تح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، (د،م)، 1988، ج3، ص296
- (3) الواقدي، المغازي، تح: مارسدن جونس، دار الأعلمي، ط3، بيروت، 1989، ج1، ص179
- (4) الحميري، السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا وآخرون، مكتبة ومطبعة الحلبي، ط2، مصر، 1955، ج2، ص373
- (5) كان انتصار المسلمين يوم القادسية 16هـ/637م بشارة خير لهم ونقطة استدارة في التاريخ، فقد عجلت بنهاية الإمبراطورية الساسانية في تلك المنطقة، واعتبرت ثغراً من ثغور العراق، وجاء بعد ذلك الفتح الكبير، أنظر: أحمد عادل كمال، القادسية، دار النفائس، ط1، بيروت، 1973، ص10

استعادتها بيزنطة⁽¹⁾ من الفرس، فتوالى سقوط بلاد الشام وفلسطين ومصر، وانكشمت حدود الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى وبلاد البلقان وأجزاء من إفريقيا⁽²⁾.

وظلت الحرب مستمرة بين المسلمين والبيزنطيين والعلاقات عدائية، والنزاع قائم بين الطرفين تذكیه عوامل مختلفة، فالحدود المشتركة والتي تتكون من سلسلي جبال طوروس بمعقلها وحصونها، كانت ذات مكانة حربية واستراتيجية ممتازة، لوقوعها على الممرات التي تخترق جبال طوروس، وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين السيطرة على تلك الحصون والممرات للدفاع عن أرضهم، والهجوم على الطرف الآخر؛ فالمسلمون يدفعهم الجهاد تحقيقاً لعالمية الإسلام، وإلى محاولة إسقاط القسطنطينية⁽³⁾، والبيزنطيون يطمعون في استرداد الشام، ناهيك عن الرغبة في السيطرة على الطرق التجارية التي تصل بين شرق العالم وغربه، كل ذلك جعل العلاقات تقوم على العداء المتبادل⁽⁴⁾.

والسؤال الذي يُطرح هل كان المسلمون ينوون فعلاً استكمال العمليات الحربية بعد فتح الجزيرة وشمال الشام حينها، أو بمعنى آخر هل كانوا مهيين نفسياً لاستكمال الحرب؟ خصوصاً وأن الفتوحات وصلت إلى مناطق صعبة الاجتياز، وارتياها كان ضرباً من ضروب المغامرة غير المأمونة⁽⁵⁾.

(1) مدينة يونانية شهيرة على شاطئ البوسفور على قسم من موقع القسطنطينية الآن، وتسمى بوزنطية وبوزنطيم *Byzantium* ومرجع الكلمة أن الإمبراطور قسطنطين (280-337م) عندما بنى عاصمة القسطنطينية، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطية أسسها بيزاس *Byzas* قائد المجموعة اليونانية التي هاجرت إلى هذا الموضع في القرن 7 ق.م، وعرفت بذلك نسبة إلى هذا القائد، أنظر: محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة، (د،ط)، بيروت، 2000، ص13

(2) العريني، المرجع السابق، ص135

(3) يبدأ تاريخ القسطنطينية سنة 330م عندما جعل منها قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية وأراد لها أن تصبح روما جديدة، وقد سماها القسطنطينية ومعناها مدينة قسطنطين، وسرعان ما تضاعف حجمها، وفي عام 395م كانت الإمبراطورية الرومانية تنقسم إلى قسمين، الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية أو البيزنطية وكانت القسطنطينية عاصمة لها، وهي مدينة كبيرة بالغة التحصين تقع على مضيق البوسفور، وتشغل جانبا من شبه جزيرة في بحر مرمرة، وهي من أشهر المراكز التجارية في العالم، ومنذ سقوطها 857هـ/1453م أصبح اسمها إسطنبول، وصفها ابن بطوطة في رحلته خلال القرن 8هـ/14م، أنظر: فؤاد إبراهيم وغيره، موسوعة المعرفة، دار أوراق شرقية، ط1، بيروت، 2000، ص8، ص46- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، ط1، مصر، 1928، ج1، ص350، 351

(4) نادية صقر، السلم في العلاقات العباسية البيزنطية، المكتبة الفيصلية، ط1، بيروت، 1985، ص11

(5) كان عمر (رضه) يردد دائماً كلما ذكر الروم: «والله لوددت أن الدرب حمرة بيننا وبينهم، لنا ما دونه وللروم ما وراءه»، وهو قول يحمل في طياته بعد نظر عمر وتفهمه لطبيعة هذه الحرب التي كانت حرباً مريعة طويلة المدى، وكأنه كان يقرأ المجهول ويعلم تفاصيل ما ذكره المؤرخون لاحقاً، أنظر: اليعقوبي، تاريخه، ج3، مطبعة الغرى، (د،ط)، النجف، 1939م، ج2، ص176

والحقيقة أنه ما إن تم للمسلمين فتح شمال الشام والجزيرة⁽¹⁾، حتى تجلّت لهم أهمية تأمين تلك الفتوحات بالسيطرة على منطقة الدروب، وهو الشيء الذي كان يتخوف منه البيزنطيون بشدة⁽²⁾، فبعد مشاورات طويلة بشأن بدء اجتياز المنطقة، اتفق المسلمون المقيمون ببلاد الشام على ارسال جيش يفتح الدروب ويغير على العدو في البلد القريب، ويعود فيخبرهم عن وضع البلاد، فيعملوا على حسب ما ينقله، أي تكون مهمته الاستطلاع وتقصي الأخبار ليتصرف أولوا الأمر على أساسه⁽³⁾.

(1) في فتوح الشام، لما جاء كتاب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر (رضه) يسأل عن الذي ينبغي أن يبدأ به، كتب اليه: «أما بعد، فأبدأوا بدمشق فأخذوا لها فإتّما حصن الشام وبيت مملكتهم، واشغلو عنكم أهل فحل-اسمه باليونانية *pella*- يقع إلى الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية، كما يقع في الطريق إلى دمشق-تكون بإزائهم في نخورهم، وأهل فلسطين وأهل حمص فإن فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فليزل بدمشق من يمسك بها ويدعوها، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرو وأخلهما بالأردن وفلسطين»، انصرف أبو عبيدة إلى حمص سنة 13هـ/634م وفتحها بعد أن صالح أهلها، وبعث خالد بن الوليد إلى قنسرين فصالحه أهلها، ثم رحل إلى حلب فتحصن أهلها وطلبوا الصلح، ثم سار إلى أنطاكية وفتحها صلحا، وتتابعت انتصاراته. أما الجزيرة فيذكر غير واحد من المؤرخين أنّها من فتح عياض بن غنم بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح، فيذكر أنّ عمر(رضه) كتب إلى سعد بن أبي وقاص: «إنّ الله قد فتح على المسلمين الشام والعراق، فابعث من عندك جندا إلى الجزيرة، وأمر عليهم أحد الثلاثة: خالد بن عرطفة، أو هاشم بن عتبة، أو عياض بن غنم»، فقال سعد: «ما أحرّ أمير المؤمنين عياض بن غنم آخر القوم إلا أنّه له فيه هوى أن أوليه، وأنا موليه»، فخرج عياض لفتح الجزيرة سنة 17هـ/638م وكان خالد بن الوليد على ميسرة جيشه، أنظر: الطبري، تاريخه، ج4، ص53

(2) بعد خروج هرقل من أنطاكية إلى القسطنطينية، علم بفتح أنطاكية صلحا، وقتل المسلمين لمن فيها من المقاتلين بكى وقال مقولته المشهورة: «السلام عليك يا أرض سوريا إلى يوم اللقاء»، ثم اجتمع ببطارقه وحجابه، وأعرب لهم عن قلقه من أن يتعقبهم المسلمون، ثم أنّه جهّز ثلاثين ألفا مع ثلاثة بطارقة، وأمرهم أن يحفظوا له الدروب، أنظر: الواقدي، فتوح الشام، ج2، ص5

(3) ضمن هذا الإطار وضع عمر (رضه) الذي لم يجد مفرّا من استكمال الحرب مع الروم نظاماً دقيقاً لتنفيذ ذلك، وعلى هذا الأساس أرسل أبو عبيدة أول صائفة إلى بلاد الروم في عهده، وقد اختلف في أول من قطع الدرب؛ فبينما يذكر الواقدي والبلاذري أنّه ميسرة بن مسروق العبسي، يذكر ياقوت أنّه عمير بن سعد بن عبيد الأوسي الأنصاري، أمّا الطبري فيذكر أنّه في سنة 20هـ/641م غزا أرض الروم أبو بحرية الكندي، ويخالفه ابن الأثير فيقول: «في سنة 20هـ/641م مات عياض بن غنم، وهو الذي فتح الجزيرة، وأول من أجاز الدرب إلى الروم»، أنظر: فتوح الشام، ج2، ص6- فتوح البلدان، ص224- معجم البلدان، م2، ص80- تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص112-الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، م2، ص410- ابن سعد، الطبقات الكبرى، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، ط1، مصر 2001، ج8، ص94-96

والراجح أنّه ميسرة استنادا إلى رأي الواقدي الذي أسهب في الكلام عن تلك الغزوة، التي عُرفت بغزوة مرج القباطل داخل الدروب، أو غزوة الحطمة سنة 20هـ/641م، وهي تمثل البداية الحقيقية للدخول إلى مجاهل بلاد الروم، وبالرغم من ذلك فقد دخلها المسلمون بروح عالية، وليس أدلّ على ذلك قول ميسرة في رده على أبو عبيدة: «اعلم أيها الأمير أنّه ما لنا تجارة ولا عمل، غير الجهاد في أعداء الله»، فكان أول من سارع إلى هذا الأمر وأشار به، أنظر: فتوح الشام، ص5

ورغم دخول المسلمين إلى الدروب أول الصيف، إلا أنّهم وصلوا أرض الروم وسط برد الشتاء وتلوجه، تذكر الروايات التاريخية أن أصابع أرجل وأيدي المسلمين كانت تتقطع من شدة البرد⁽¹⁾.

ووسط دهشة الروم استمر العرب في اقتحامهم الدروب، حتى قال قائل الروم: «أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمت هذه الجبال؟»، وطالبوا المسلمين بالاستسلام لكنهم أبوا واستماتوا في القتال رغم قلة عددهم (كان العرب في أربعة آلاف، والروم في ثلاثين ألف)، وكتب للمسلمين النصر في النهاية⁽²⁾.

وهكذا وجد المسلمون المنفذ لما يجيش في صدورهم من رغبة في الجهاد، والاستشهاد في سبيل الله، والمسرح الذي يقرب دخولهم إلى دار البقاء بنفس راضية، لذا تعددت غزواتهم إلى بلاد الروم⁽³⁾.

2- نشأة الثغور وتطورها:

اتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية طابعاً عدائياً، منذ أن بدأت المرحلة العالمية في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ذلك أنّ التوسع في الشام ومصر وبلاد المغرب تمّ على أنقاض النفوذ البيزنطي في تلك الأصقاع، وبديهي أن تطمع السياسة الإسلامية إلى إسقاط الدولة البيزنطية، لتؤول إلى المصير نفسه الذي آلت إليه الإمبراطورية الساسانية، وبديهي أيضاً أن تخطط بيزنطة سياستها إزاء المسلمين، على استرداد ما فقدته من ولايات ثرية، والعودة إلى البلاد التي كانت تسيطر عليها من قبل⁽⁴⁾.

(1) فقد وصف مجاهد كيفية عبور الدرب فقال: «أنّهم تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود، فلم يبق أحد إلا وترجل على فرسه، ومشيئا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا، والثلج على الجبال يميننا وشمالنا»، ولكن شيئا لم يشتهم عن عزمهم، فمن يعلم أنّه ينتقل من دار الفناء إلى البقاء لا يبالي، أنظر: الطبري، تاريخ، ج8، ص241-الواقدي، فتوح الشام، ج2، ص6

(2) الواقدي، فتوح الشام، ص10

(3) الواقع أن معاوية بن أبي سفيان 41-60هـ/661-680م قام بمجهودات كبيرة في هذا المجال، سواء قبل توليه الخلافة أو بعدها، ويقال أنّه كان أول من غزا الصائفة وذلك سنة 23هـ/643-644م وكان وقتها عاملا على دمشق من قبل عمر بن الخطاب(رضه)، ثم غزا عمورية سنة 25هـ/645-646م فوجد الحصون بين أنطاكية وطرسوس خالية، فترك فيها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى يعود من غزوته، وهو الذي غزا الصائفة بعد ذلك بسنة أو سنتين، وغزا سنة 31هـ/651-652م من ناحية المصيصة فبلغ درولية، فلمّا رجع جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه، وبذلك يكون قد وضع أسلوبا جديدا منظماً لحرب الروم، مستندا إلى تنظيم عمر بن الخطاب(رضه)، وعلى نمجه سار خلفاؤه من بني أمية والعباسيين فيما بعد، أنظر: البلاذري، فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، (د،ط)، بيروت، 1987، ص225-الطبري، تاريخه، ج4، ص241

(4) علي محمد الصلابي، تاريخ الدولة الأموية، دار المعرفة، ط2، بيروت، 2008، ج1، ص57

وكان لا مفر من الصدام بين الطرفين، حيث اتخذ أطوراً متصلة من الصراع العسكري البري والبحري، فضلاً عن السياسي، والدبلوماسي، والاقتصادي، ولطالما تبادل الانتصارات والهزائم في هذا الصراع، الذي أسفر عن نتائج بعيدة المدى في تاريخ الجانبين⁽¹⁾.

وأعطت الاحتكاكات الأولى للمسلمين مع أطراف الدولة البيزنطية وأحلافها نذيراً عن خطرهما، وخبرات عن دورها وأحلافها في نظام دفاعها، وقد كانت المقاومة في الشمال تبرز أهمية المنطقة، خاصة وأنها كانت أقرب مناطق الشام إلى بلاد الروم⁽²⁾، فقد حرص الطرفان على إحكام التحصينات على الحدود، وإقامة معازل على طول الطرق الحربية، وفي المواقع الحساسة ومناطق الاحتكاك، فنتج عن ذلك تنظيم إداري حربي إسلامي، أطلق عليه المسلمون اسم الثغور، والبيزنطيون الثيمات⁽³⁾.

ومع اتساع الفتوحات الإسلامية زاد اهتمام الإدارة العسكرية بحماية الحدود البرية، ولذلك عمد خلفاء الدولة الإسلامية إلى اتخاذ المسالحي التي تتبدل مواضعها وقواتها حسب مصادر الأخطار والخطط التي تضعها الإدارة العسكرية، فبالإضافة إلى عملها في حفظ الثغور كان يستعان بها في المعارك الحربية والأمور الإدارية الأخرى كقوة مساندة في الطوارئ، فقد زاد اتساع حدود الدولة وانعكس ذلك بدوره على الإدارة، بازدياد مهامها في حماية الحدود والحفاظ على البلاد المفتوحة⁽⁴⁾.

(1) عبد الرحمن محمد العبد الغني، الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية 40-339هـ/660-950م، حوليات كلية الأدب، كلية الأدب، الكويت، ع11، الكويت، 1989-1990، ص(11-59)

(2) فتحي عثمان، المقال السابق، ص731-733

(3) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، تر: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1985، ص160

(4) سليمان بن صالح، الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية - نشأتها وتطورها حتى منتصف القرن 3هـ/9م - (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة أم القرى، 1992، م 2، ص380، 381- يذکر الطبري في أحداث سنة 17هـ/638م أنّ عمر بن الخطاب(رضه) لما زار بلاد الشام وقسم الأرزاق، وسمى الصوائف والشواتي وسد فروج الشام ومسالحها، أمر بإقامة قواعد عسكرية إسلامية كمراكز حربية في مواقع استراتيجية متقدمة على الحدود لترى أي عدوان خارجي، وكمركز تجمع للجند ولنشر الإسلام، وثغوراً أخرى بسواحلها وسواحل الشام لرد هجمات الروم، كما وضع تقسيماً إدارياً جاء نموذجاً لما سار عليه البيزنطيون في إدارة هذه البلاد، فقسمها إلى أربعة أقاليم سمي كل منها جندا وهي جند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وكان في تسمية الكور لقواد الفتح إشارة إلى تقسيم الشام الإداري في حاضره البيزنطي ومستقبله الإسلامي، فدل ذلك أنّ الشام لما كان بأيدي الروم كان منقسماً إلى هذه الكور الأربع لا غير، أنظر: تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص64- قدامة، المصدر السابق، ص192، 193- فالليف، العرب والروم، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص91- بسم العسلي، فن الحرب الإسلامي، دار الفكر، (د،ط)، بيروت، 1988، ج1، ص223

وقد أدى التخوف الحاصل بين المسلمين والبيزنطيين، إلى تحويل منطقة التماس بينهما إلى خراب-
No Man's Land - بين الدولتين، حيث نقل كل منهما سكان التخوم إلى داخل البلاد، وتركوا
 بذلك الحصون خالية، وكان البيزنطيون أشد اهتماماً من المسلمين بتخريب منطقتهم الواقعة شمال
 حلب وأنطاكية، ليوقفوا حركة الزحف الإسلامي⁽¹⁾.

ودرءاً للأخطار التي قد تهدد المسلمين في تلك المناطق، عملت الإدارة الإسلامية على ترك
 حاميات عند الثغرات الجبلية التي يستعدون منها لمهاجمة البيزنطيين، ثم تطور الأمر إلى اهتمامهم
 بتحصين المدن التي تتحكم في تلك الممرات، فكان أمامهم سلسلة طويلة من الحصون المخرب، رأوا
 بعد أن ثبتت أقدامهم وتتابعت حملاتهم، حاجتهم إلى مراكز عسكرية عند الحدود، فتطلعوا إلى مد
 نفوذهم إلى الثغور وتحصينها وشحنها بالجنود⁽²⁾.

3- نضج فكرة الثغور:

أ- في العصر الأموي:

اتضحت دوافع المسلمين في قتال البيزنطيين في آسيا الصغرى في العهد الأموي في محاولة إسقاط
 القسطنطينية، والتوسع بهدف تأمين الحدود الشمالية، ومضى خلفاؤها على سنن معاوية في الاهتمام
 بمناطق الثغور، فواصلوا اختطاط المدن وتمصيرها، وإنزال الجنود فيها وتوسيع الثكن وإقامة المخازن،

(1) البلاذري، المصدر السابق، ص 224

(2) كتب الخليفة عمر(رضه) إلى أبي عبيدة بن الجراح، يأمره بأن يرتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل ثبات يرابطون بها، وأن
 لا يجبس عنهم العطاء، فنقل إليها قوماً من أهل حم، وبعلبك للمرابطة بها وحماية المنطقة من أي عدوان، وعيّن عليها حبيب بن
 مسلمة الفهري، والذي اتخذ منه قاعدة لانطلاقه إلى ما خلف الحدود الإسلامية، فمنها كان يأتي المدد للخطوط الأمامية في
 الجبهة الرومية، أنظر: عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر، دار الفكر، ط2، بيروت، (د،ت)،
 ص320- شمس الدين الذهبي، تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الفاروق الحديثة للطباعة، ط1، (د،م)، 2004، م2،
 ص212، 213

وفي ولاية معاوية للشام كتب إليه عمر(رضه) أن يتخذ أنطاكية ثغراً، ثم أمره عثمان(رضه) أن يلزمها قوماً ويقطع القطائع، وبعد أن
 انفرد بإقليم الشام رأى ضرورة العناية بهذه المعازل والتخلي عن سياسة تدميرها، فأخذ تدريجياً بتعميرها حتى أصبحت حدود الشام
 تتاخم مباشرة بلاد الروم كخطوة جديدة في التنظيم العسكري الإسلامي، فبدأت الثغور الأمامية تأخذ مكانتها المتميزة في نظام
 الدولة الإسلامية، ولم تلبث المنطقة أن اتسعت باتساع سلطانه، عندما جمع له الخليفة عثمان(رضه) الشام والجزيرة وولاية ثغورها في
 إدارة عسكرية موحدة، باعتبارها وحدة تتم بعضها بعضاً من حيث ارتباط حصونهما، وتعرضهما للغارات، أنظر: إبراهيم أحمد
 العدوي، الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية، ط2، القاهرة، 1963، ص110- ابن الأثير، المصدر السابق، م2، ص380

فلم تزل العمائر تتقدم حتى أصبحت أمصارا خطيرة الشأن زاخرة بالمقاتلين والسلاح والمؤن والأيدي العاملة، وكان عهد مروانيين؛ عبد الملك وابنيه الوليد وسليمان متميزا في تاريخ الحدود الإسلامية البيزنطية، فقد تابعوا سياسة معاوية بإحاطة ببيزنطة بالنفوذ العربي عن طريق عقد العهود والأحلاف، ثم حماية من دخل في عهد العرب بحملات كبيرة ضد الأراضي البيزنطية، واشتد القتال في آسيا الصغرى، وعلى جانبي الحدود أقام الفريقان وسائل الدفاع أحدهما عن طريق البنود، والآخر عن طريق الأجناد، وعمل كلاهما على زيادة الجند والعتاد، وبني كل منهما استحکامات جديدة لمواجهة الآخر⁽¹⁾.

أما الخليفة عمر بن عبد العزيز، فكان يؤمن بأنه لا ينبغي أن تهدد الحدود العدو، ويكفي أن تحمي مداخل ديار الإسلام، فلم ينظر إلى هيبة الدولة ونفوذها بقدر ما نظر إلى سلامة المقاتلين على الحدود، فتهديد العدو لديه يكون تاليا في الأهمية لتأمين وضع الثغور في الداخل، ثم تجدد بعد عصر عمر النشاط الإنشائي في عهد مروانيين المتأخرين، حتى سادت الحدود ظاهرة جديدة خاصة بفضل جهود هشام والوليد، وكانت القاعدة هي إقامة التحصينات على طول الطرق الحربية، فشهدت هذه الفترة بناء أربعة عشر مدينة محصنة أو حصنا جرى بناؤه أو إصلاحه⁽²⁾.

وبذلك عمل خلفاء بني أمية على الاهتمام بمناطق الثغور فاجتهدوا في تعميمها، وتشجيع الناس على الاستقرار بها، إذ أقاموا في بعض الجهات بالقرب منها طلبا للراحة بعد عودتهم من الغزو للترفيه عن الجند، حتى ظهرت في بعض الأماكن التي عسكر فيها الجند مدن جديدة هامة، ومن القادة الذين كان لهم الفضل في الاهتمام بهذه الجهات مالك بن عبد الله الخثعمي⁽³⁾؛ إذ أقام بعد عودته من إحدى الغارات في مكان يدعى الرهوة بالقرب من درب الحدث، وقضى به ثلاثة أيام يوزع

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص365، 370

(2) نفسه، ص371، 372

(3) هو مالك بن عبد الله بن سنان بن سرح الخثعمي، أبو حكيم، المعروف بمالك السرايا (جمع سرية) ومالك الصوائف، من كبار القادة من أهل فلسطين، ولي الصوائف زمن معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك، ومات غازيا في أرض الروم سنة 55هـ/674م، فكسر المسلمون على قبره أربعين لواء حدادا عليه، وهو الذي سميت الرهوة بالقرب من ثغر الحدث باسمه سنة 46هـ/666م، بعد أن أقام بها يوزع الغنائم فعمر بها سوقا، أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط13، بيروت، 1998، ج5،

الغنائم، فعمر سوق هذه البقعة بحركة البيع والشراء، عرفت بعد ذلك باسم رهوة مالك، فانتقل بذلك المروانيون إلى إقامة تحصينات عسكرية ثابتة، بعد أن كان أسلوب الدفاع المتحرك، والحملات الفصلية هو السائد⁽¹⁾.

ب- في العصر العباسي:

أحسن المسلمون خاصة بعد أن استقرت أقدامهم في دولتهم الفتية بالحاجة إلى إحكام نظمها الإدارية والدفاعية، والاهتمام بمناطق الحدود خاصة ما يواجهه الدولة البيزنطية⁽²⁾، فقد كانت ثغور المسلمين تتعرض للهجوم والغارات من قبل البيزنطيين، وغيرهم على طول حدود الدولة الإسلامية برا وبحرا، ولهذا فقد اهتم خلفاء العصرين الأموي والعباسي بالمنطقة الثغرية شمال الشام والجزيرة على طول خط الفرات، كما عملوا على تحصين السواحل بالقلاع والحصون والحاميات والمدن وتعميرها تسهيلا للدفاع عنها⁽³⁾.

وكما رأينا اهتمام الأمويين بالتنظيم الإداري والعسكري للمنطقة، فقد اهتم خلفاؤهم العباسيون بنفس الغرض؛ فحين استقرت الخلافة بيد العباسيين سنة 132هـ/749م، اتخذ الصراع طابعا دينيا هدفه المثاغرة والجهاد، ففي الوقت الذي تطلع فيه الأمويون إلى قهر القسطنطينية والسيطرة على البحر⁽⁴⁾، كانت سياسة العباسيين دفاعية، استهدفت إحاطة العدو بسلسلة القلاع والتحصينات لحمايتها من البيزنطيين والخزر⁽⁵⁾.

ويتضح اهتمام العباسيين بأمر الثغور عندما فصل الخليفة أبي العباس 132-136هـ/749-753م فلسطين عن الشام، واستعمل عليها أميرا مستقلا وذلك لتدعيم النفوذ العباسي في الشام قاعدة الأمويين، وولي أخاه أبا جعفر المنصور أرمينية والجزيرة وثغورهما، ولما كانت الدولة العباسية قد ولت

(1) العدوي، المرجع السابق، ص 112

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 38

(3) محمد عبد الحفيظ المناصير، الجيش في العصر العباسي الأول، دار مجدلاوي، ط 1، 2000، ص 381

(4) مهراڤ محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، ط 2، (د،م)، (د،ت)، ص 214

(5) أقوام عامتهم يهود، تحد بلادهم بلاد أرمينية، ولهم بحر يسمى باسمهم متصل ببحر القسطنطينية، تقع بلادهم خلف باب الأبواب المعروف بالدرند على السواحل الشمالية الغربية من بحر الخزر المعروف ببحر قزوین، خرجوا سنة 183هـ/799م على أرمينية، فأوقعوا بأهل الإسلام وسبوا أزيد من ألف نسمة، أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص 154

وجها شطر آسيا، ونقلت عاصمتها إلى بغداد، فقد كانت سياستها بالنسبة للبيزنطيين دفاعية، ومن ثم كان اهتمام الخلفاء بتحصين حدودهم وإحكام خطوطهم الدفاعية⁽¹⁾.

ولما تولى المنصور الخلافة 136-158هـ/753-774م قام بعمل تحصينات وقائية متعددة، وتتبع حصون السواحل ومدنها وعمرها وحصنها، وكذلك مدن الثغور البرية فبدأ في تعمير مدن الثغور، وتشيد الحصون والقلاع والرباطات⁽²⁾.

وتابع ذلك الخليفة المهدي 158-169هـ/775-785م، وعمل الرشيد 170-193هـ/786-809م على تغيير نظام الثغور بشكل يضمن فيه حمايتها واستقلالها وحريتها الذاتية، فعمل على تزويدها بالحاميات، ونظرا لأهمية الطرق والمفارق التي تسيطر عليها هذه القلاع كونها ممرات تستخدم في حركة القوات البيزنطية، فقد فرضت رقابة شديدة عليها، وعين الرشيد موظفا خاصا مهمته مراقبة حدودها، ولم يخل بالأموال على هذه التحصينات⁽³⁾.

وتطورت الإدارة العسكرية لحماية الحدود الإسلامية؛ حتى أن الخليفة هارون الرشيد عمد إلى خطوة جديدة في التنظيم الحربي للثغور، فتفوق على سابقه من الخلفاء، بل وتميز عنهم في أسلوبه الذي اتبعه في التنظيم الحدودي، فقد استهل عهده بخطوة قام بها من أجل حماية حدود وثور الدولة الإسلامية؛ هو قيامه بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيزا واحدا سماها العواصم سنة 170هـ/786م، وجعلها منطقة عسكرية مستقلة على شكل حصون عسكرية ما بين حلب وأنطاكية، وجعل من منطقة الحدود نظامين:

الأول: النظام الأمامي، ويضم ثغور الجزيرة والشام، وخصص لمواجهة المنافذ البيزنطية.

والثاني: يضم الأقاليم الخلفية والحصون الجنوبية، وهي العواصم وتمتد من أنطاكية إلى الفرات⁽⁴⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 183

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص 223

(3) شيرين سليم حمودي، الجزيرة الفراتية منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية خلافة المأمون 132-218هـ (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة دمشق، 2008، ص 144

(4) صابر محمد دياب، المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والثغور الجزرية والشامية، مكتبة السلام، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص 20، 21

وعد غير واحد العواصم فجعلوا منها كورة: أنطاكية، وقورس⁽¹⁾، وتيزين⁽²⁾، وبوقا⁽³⁾، ومنبج⁽⁴⁾، ودُلوك ورُعبان⁽⁵⁾.

واختلف الجغرافيون في ذكر الحصون التي أغفلها الكثير أو صعب إحصاؤها: كالجرجومة⁽⁶⁾، سلوقية⁽⁷⁾، ومعرفة مصرين، وسرمين⁽⁸⁾، ومرتحوان⁽⁹⁾، وخنصرة⁽¹⁰⁾، وبغراس⁽¹¹⁾، والشجر وبكاس⁽¹²⁾،

- (1) خط دفاعي أمامي تشرف على الطريق من أنطاكية إلى الفرات وحلب مارا بأعزاز، كانت كالمسلحة لأنطاكية تأتيها في كل عام طالعة من جندها، ثم حول إليها ربع منها وقطعت الطوالع عنها، أنظر: الحموي، معجم، م2، ص189
- (2) بلدة من أعمال حلب على نحو مرحلة غربا، عدت من أعمال قنشرين حتى صارت من العواصم، وحين خربت أضيفت القرى التابعة لها إلى أرتاح، أنظر: القلشندي، المصدر السابق، ج4، ص128- ابن الشحنة، المصدر السابق، ص222
- (3) من قرى أنطاكية، تقع إلى الشرق من اللاذقية وتعد من ضاحيتها، بناها هشام بن عبد الملك، أرسل إليها الزط مع جواميسهم في عهد الوليد بن عبد الملك، أنظر: ابن الشحنة، المصدر السابق، ص222- صابر دياب، المرجع السابق، ص27
- (4) تقع إلى الشمال الشرقي من حلب على ثلاثين ميلا (48 كلم)، لعبت دورا تجاريا ودينيا هاما منذ القدم، بحكم موقعها كنقطة اتصال بين الثغور الجزرية والشامية، ومجاورتها للفرات وحلب، أنظر: ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، (د، ط)، بيروت، (د، ت)، ص176، 177- الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، (د، د، ن)، ط1، بيروت، 1975، ج1، ص547- أبو الفرج العشي، آثارنا في الإقليم السوري، دار محطة الحجاز، ط1، دمشق، 1960، ص84، 85
- (5) كورتان متقاربتان، فدلوك من نواحي حلب إلى الشمال من دابق، ورُعبان إلى الشرق من دلوك، بين حلب وميساط قرب الفرات، عدّها البعض من العواصم، والآخر من الثغور الجزرية، أنظر: فتوح البلدان، ص204- حسين عطوان، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دار الجليل، ط1، بيروت، 1987، ص62
- (6) تقع بين بياس وبوقا على جبل اللكام، يقال لأهلها الجراجمة أو المرّدة، لم تفلح محاولات المسلمين لإخضاعهم نهائيا، فكانوا يستقيمون مرة ويعوجون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئوهم على المسلمين، وسرعان ما أصبح الجراجمة نواة إلتفّ حولها كل الخارجين على السلطات الإسلامية بالشام، وقد تفانوا في خدمة أغراض الدولة البيزنطية حتى أصبحوا ستارا حديديا، فصل الشام عن أراضيها وعرقل هجوم المسلمين عليها، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص217- ابراهيم زعرور، تاريخ العصر الأموي، (د، ط)، دمشق، 1995، 1996، ص51
- (7) من قرى أنطاكية، اشتهرت بصناعة السيوف، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص202
- (8) من أعمال حلب تقع إلى الجنوب الغربي بين حلب واللاذقية، وبقرها سرمين، أنظر: حسين عطوان، المرجع السابق، ص64
- (9) من نواحي حلب، أما دير طبايان ودير الغسيلة فقد أهملهما أكثر الجغرافيين، أنظر: حسين عطوان، المرجع السابق، ص64
- (10) حصن يحاذي قنشرين إلى ناحية البادية، كان يسكنها عمر بن عبد العزيز، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص203
- (11) بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ (6,43 كلم)، على يمين القاصد إليها من حلب على نواحي طرسوس، كانت لمسلمة بن عبد الملك وقفها في سبيل البر، أقامت فيها السيدة زبيدة دارا للضيافة لاستقبال المسافرين من المجاهدين و طلاب العلم، أنظر:

Canard, Marius, Histoire de la dynastie des Hamdanides de jazira et de syrie, TI, Alger, 1951, p217

(12) قلعة حصينة تقابلها بكاس بينهما واد كالخندق، وهما قرب أنطاكية، يعبر من أحد القلعتين إلى الأخرى بجسر متحرك، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص234

وبرزويه⁽¹⁾، وبيت لاهأ⁽²⁾، ودركوش⁽³⁾، ورسافة هشام⁽⁴⁾، ودانا⁽⁵⁾.

ومن أسباب هذه الخطوة التي اتخذها الرشيد، أنّ المنصور وخلفاؤه قد مدّوا حدود الشام بغزواتهم، فوجد أنّه من الضروري تقسيم جند قنسرين بعد تضخمه، وهكذا اقتطع جنداً جديداً تجاه الحدود الإسلامية البيزنطية، يشمل المنطقة من أنطاكية غرباً إلى الساحل، وشرقاً إلى حلب ومنبج وهي العواصم، فحقيق بذلك أن تكون الثغور والعواصم اسماً على مسمى واحد⁽⁶⁾، بعد أن أقدم على عزل الثغور إدارياً عن الجزيرة وقنسرين وجعلها وحدة عسكرية مستقلة، قادرة على الدفاع عن منطقة الثغور وصد أي حملات عليها، قادرة على الهجوم والتوغل في أرض الروم، دون انتظار وصول المدد من بغداد، وكذلك إمداد الثغور بما يلزمها من مؤن وعتاد خلال العمليات العسكرية⁽⁷⁾.

فالثغور مهامها مراقبة التخوم وإعلام الظهير بذلك دون الدخول في الحرب، وأصحابها يستقرون بها لفترة ثم يرجعون دون عائلاتهم -*les postes avancés*-، أمّا العواصم فمهامها الحرب وهي أكبر وأوسع، وأصحابها يستقرون بها استقراراً دائماً مع عائلاتهم، فالعواصم نشأت لتعصم الثغور، وتمدها بوسائل القوة، واستخدامها كان لضرورة عسكرية وإدارية في آن واحد، وبذلك ميّز المسلمون بين الحدود الداخلية وهي العواصم، والخارجية وهي الثغور⁽⁸⁾.

(1) حصن قرب السواحل الشامية، يضرب به المثل في الحصانة، تحيط بها أودية من جميع جوانبه، بينه وبين أفامية بحيرة، يشغل أهله من صيد السمك، أخلى الحمدانيون كل القلاع التي تتحكم في طريق اللاذقية خاصة بروزية سنة 365هـ/975م بعد هجوم الفرنج، وظلت بيدهم حتى فتحها صلاح الدين سنة 584هـ/1188م، أنظر: *Dussaud René, op-cit*, pp152,153

(2) حصن عال بين أنطاكية وحلب، على جبل ليلون، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص235

(3) حصن قرب أنطاكية، على نهر العاصي، غربي حلب على نحو ثلاث مراحل (4,82 كلم)، أنظر: الحموي، المعجم، م2، ص452

(4) تبعد عن الرقة حوالي 40 كلم، بعد أن دخلها العباسيو دمروها وهدموا قبر هشام، أنظر: الحموي، معجم البلدان، م3، ص47

(5) قرية قديمة قرب حلب بالعواصم، في لطف جبل لبنان، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص235

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص131

(7) أبو زكريا يزيد بن محمد الأزدي، تاريخ الموصل، تح: علي حبيبة، دار التحرير، (د، ط)، القاهرة، 1967، ص262

(8) سناء عبد الله عزيز الطائي، أنطاكية مدينة العواصم في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، ع60، 2011، ص(1-30)

ويلاحظ أنّ هناك اختلاف بين الجغرافيين في ذكر مركز -قصة- العواصم، بين منبج التي تقع في أقصى شرق الجند على الفرات، واعتبرت أولاً قاعدة إقليم العواصم ومركزها الرئيسي، وبين أنطاكية الواقعة في أقصى الغرب قريبا من بحر الشام، التي حلت محلها حيث كان يقيم الحاكم المسلم⁽¹⁾. ولعل مركز العواصم كان ينتقل بين هاتين المدينتين وفقا لظروف الحرب بين الطرفين، وحسب طبيعة الهجوم الرومي المفترض، فربما كانت منبج هي المركز إذا تعرضت الثغور الجزرية للهجوم، وأنطاكية إذا كانت الشامية المستهدفة⁽²⁾، وهناك تفسير آخر أنّ منبج كانت قصة العواصم في الفترات التي شهدت قوة العمليات العسكرية في منطقة الثغور والعواصم لأتقرب الأقرب، أمّا في الفترات التي شهدت انحسارا في النشاط العسكري أصبحت أنطاكية قصة الإقليم⁽³⁾، أو لعل ذلك راجع إلى أن العواصم منها ما يقترب ويتاخم الثغور الجزرية، ومنها ما يحيط بأنطاكية ويتاخم الثغور الشامية⁽⁴⁾. والواقع أنّ ولايات الثغور والعواصم والجزيرة وأرمينية كانت متجاورة، وشؤونها متداخلة، ففي عهد الراشدين والأمويين وصدر عهد العباسيين، كان يعهد إلى والي واحد بالشام والجزيرة، وأحيانا توضع الجزيرة والموصل مع أرمينية تحت إدارة واحدة، ثم أخذت الثغور والعواصم مكانتها بالتدرج وأصبح أمراءها مختصين بها، يباشرون حكمها ويرسلون حملات منها⁽⁵⁾. على أنّ إنشاء هذه الولاية العسكرية البحتة، أدى إلى أن تنال القوات زيادة في عطائها، وإقطاعا من الأرض لاستثمارها، فانتقل إليها الناس واستقروا بها، ما أدى لازدهار الحياة وتعويض ماخربته الحروب المتكررة⁽⁶⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص42

(2) الرواضية المهدي عيد موسى، جند قنسرين في العصر العباسي حتى قيام الدولة الحمدانية 132-333هـ/749-944م (رسالة دكتوراه منشورة)، الجامعة الأردنية، ص17

(3) هيام هاشم أحمد البدرشيني، الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في منطقة الثغور الإسلامية الجزرية والشامية في القرن 3هـ/9م (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الملك عبد العزيز، (د، س)، ص131

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص42

(5) *Gaudefroy-Demombyes et Platonov, Le monde musulman et Byzantin jusqu'aux croisades (Histoire du Monde, t VII;direction ECavaignac),1932, p332*

(6) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص43

وهكذا يتبين مدى اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية في صدر الإسلام والفترات اللاحقة، وعنايتهم بأمر حدود وثغور الدولة الإسلامية، لحمايتها والحفاظ عليها، بإقامة وسائل دفاعية متعددة؛ من تحصينات، ومنشآت معمارية، وشحنها بالجنود النظامي والمطوعة للمرابطة بها، وإقامة المسالح، والمراصد، والقواعد العسكرية المتعددة، إضافة إلى خروج حملات الصوائف والشواتي كخطوة أخرى من التنظيمات العسكرية.

المبحث الرابع: تقسيمات الثغور

إذا كان مفهوم الحدود والتخوم والرباط والثغور في الاصطلاح الإسلامي، حمل معه محمولات سياسية تستعمل في سياق العلاقات المتوترة، فإننا مع بيزنطة نلمس حدا عمقته مرارة الصراع لم تفككه التجارة ولا أيام السلم ولا صور الإعجاب الملتبسة بالمنافسة، فقد شكلت بيزنطة في الوعي العربي الإسلامي، الآخر المعاند المهذّب لتطلعات الإسلام العالمية وتناقضا فعلياً⁽¹⁾.

وقد دام الصراع بين القوتين أكثر من ثمانية قرون، كان ميزان القوى خلالها يتأرجح بين الجانبين، هذه الحال جعلت الفضول المعرفي العربي بأحوال بيزنطة، يَنْصَبُّ بالدرجة الأولى على الشأن السياسي والإداري والديني في سبيل الاهتمام إلى مصادر قوة هذا الجار العنيد⁽²⁾.

وعبر قدامة⁽³⁾ عن هذا الحذر بوضوح، فبعد أن يشير إلى أن الأمم والأجيال المخالفة للإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه ونهايات أعماله، ينتهي إلى القول: «ينبغي ألا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذرا منهم للروم»، ومن هنا تتجه المعرفة إلى بيزنطة لتفحص عوامل قوتها، وأول ما يطالعنا منها عند الجغرافيين التخوم والثغور المقابلة لها؛ فيقول: «فلما كانت الروم على ما وصفت، وجب أن نقدّم الكلام في الثغور المقابلة لبلدهم على الكلام في غيرها».

ولما كان التقسيم لأي موضوع يسهل دراسته، فقد نهج الجغرافيون القدامى ومن جاء بعدهم في العصور الأحدث، منهج تقسيم الثغور عند تناولها بالبحث والدراسة.

فبينما يقسمها البعض إلى ثغور برية وبحرية، يفصل قدامة⁽⁴⁾ أمر الثغور على مستويات ثلاث؛ برية، وبحرية، أو معاً، قائلاً: «الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر، ومنها بحرية تلقاه وتواجهه من جهة البحر، ومنها ما يجتمع فيه الأمران، وتقع المغازي من أهله في البر وفي البحر».

(1) شمس الدين الكيلاني، صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، (د،ت)، ص 96-115

(2) عبد الرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم في عصر النبوة، دار الفكر العربي، (د،ط)، القاهرة، 1997، ص 17

(3) المصدر السابق، ص 185

(4) المصدر نفسه

1- البرية: أمّا البرية فان تقسيماتهم لها تتعدد وتنوع كل حسب رؤيته، والأساس الذي بنى عليه التقسيم، ففي حين جعلها البعض شامية فقط⁽¹⁾، جعلها البعض الآخر شامية وجزرية⁽²⁾، بينما جعلها جزء ثالث، أقسام ثلاث شامية وجزرية وبكرية.

ويعتبر الاصطخري وابن حوقل⁽³⁾ الثغور كلها شامية، وذلك لأن كل ما وراء الفرات من الشام؛ وإنما سمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة، لأن أهل الجزيرة يرابطون بها ويغزون لا لأنها من الجزيرة، ونجد البعض الآخر يقسمها إلى ثغور شامية وهي الجنوبية الغربية، وثغور جزرية وهي الشمالية الشرقية⁽⁴⁾.

هذا الخلاف أكدته حمودي⁽⁵⁾ في دراستها الجزيرة الفراتية حيث تقول: «أمّا مدن الجزيرة فكانت موضع خلاف بين الجغرافيين، فالمدن التي ضمتها الأقسام الثلاثة من الجزيرة لم تكن مستقرة، فكثيرا ما ضمت مدن للجزيرة من الشام، فكانت بين مد وجزر بين البلدين، إذ أنّ هناك تداخل بين مدن الجزيرة وثغورها ومدن الشام وثغورها».

ويقسم قدامة⁽⁶⁾ الثغور البرية تقسيما مفصلا إلى ثلاث أقسام، موضحا ثغورها مبتدئين بالشامية:

(1) شريقها بادية الشام، وجنوبيها بحر القلزم، غربيها حدود مصر وبعض من بحر الروم، وشمالها حدود بلاد الروم، يقال سميت شاما لأنها شامة الكعبة، وقيل بل لتشاؤم الناس إليها، وقيل بل لشامات بها حمر وبيض وسود، وأهل العراق يسمون كل ما كان وراء الفرات شاما، ومن محاسنها ما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {إنكم ستحتدون بعدي أجنادا ثلاثة: جندا إلى اليمن، وحندا إلى الشام، وحندا إلى العراق، قال عبد الله: خر لي يا رسول الله، قال: عليك بالشام، فإنها خيرة الله في أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده، وأن الله قد تكفل لي بالشام وأهله}، وعن ابن عباس: {من أراد أن ينظر إلى قبور الأنبياء فعليه بالشام}، أنظر: مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، ط1، القاهرة، 1994، ص128- أبو البقاء عبد الله بن محمد البدر، نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، 1980، ص9- الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تح: بيرند رانكه، (د،ط)، القاهرة، 1902، ج1، ص118

(2) تنسب إلى بلاد الجزيرة وقد أطلقها العرب على بلاد ما بين النهرين، وهي تنقسم إلى ديار ربيعة ومضر وبكر، نسبة إلى القبائل العربية التي نزلت الإقليم قبل الإسلام وكان يحكمه الساسانيون، فعرف كل بقبيلته، أنظر: كي لسترنج، المرجع السابق، ص114- أنظر الملحق رقم3، ص416-

(3) أنظر: مسالك الممالك، ص27- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، 1992، ص154، 155

(4) الإصطخري أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، مسالك الممالك، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1927، ص27

(5) المرجع السابق، ص28، 29

(6) المصدر السابق، ص185 - لتفاصيل أكثر عن مواقع الثغور الشامية والجزرية - أنظر الملحق رقم4، ص417-

طرسوس⁽¹⁾، وأذنة⁽²⁾، والمصيصة⁽³⁾، والتي كانت ذات مكانة متميزة، والهارونية⁽⁴⁾، وعين زربي⁽⁵⁾، والكنيسة⁽⁶⁾، وسييس⁽⁷⁾، وبياس⁽⁸⁾.

كانت مهمتها الدفاع عن بلاد الشام، كما كانت تشن منها الهجمات الرئيسية نحو بلاد الروم وهي تقع في الشق الشمالي الغربي لإقليم الثغور الفاصل بين بلاد الشام والروم.

(1) تقع إلى الشمال الغربي بين أنطاكية وحلب، اختلف حول مؤسسها، ذُكرت في التوراة باسم إبسوس وفي الإنجيل أرسوس، لها منزلة عظيمة لدى المسلمين المسيحيين، كانت قاعدة لانطلاق القوات الإسلامية إلى بلاد الروم وقاعدة لانطلاق القوات البيزنطية إلى بلاد الإسلام، أنظر: وليم الصوري، الحروب الصليبية، تر: حسن حبشي، مؤسسة الأهرام، (د،ط)، القاهرة، 1991، ج1، ص235، 236- إنجيل مرقس، كنيسة الأنبا تكلاهيمنوت، (د،ط)، الاسكندرية، (د،ت)، الإصحاح 12 (29-31)- شذرات من كتب مفقودة، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (د،ط)، بيروت، 1988، ج2، ص443- علي محمود فهمي، التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط 7/10م، تر: قاسم عبده قاسم، دار الوحدة، ط1، بيروت، 1981، ص66

(2) يقال لها أدام، قرب المصيصة بينهما 12 ميلا (3،19 كلم) (الميل = 400 ذراع شرعية = 1/3 فرسخ، والميل منه البري ويساوي 1609م، والبحري 1852م)، أنظر: محمد عمارة، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، ط1، بيروت، 1993، ص579- عبد الحكيم العفيفي، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، دار أوراق متريّة، ط1، بيروت، 2000، ص37 - محمود شيت خطاب، بلاد الروم قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، دار قتيبة، ط4، بيروت، 1990، ص185

Anna Comnena, The Alexiad, translated by :Elizabeth Asdawes, Cambridge Ontario, 2000, p 355

(3) بها من قبور الأنبياء خمسة، تقع على ساحل نهر جيحان ويمر بينها وبين كفرية حتى يصب في البحر على أربعة أميال (44،6 كلم)، خربت من الزلازل في عهد المنصور وأعاد اعمارها فسميت بالمعمورة، أنظر: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، (د،ط)، القاهرة، (د،ت)، ج1، ص95- أبي محمد عبد الله، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997، ج1، ص137

(4) تقع قرب مرعش، تعد آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالجزيرة، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص234، 235

(5) عاصمة الإقليم الروماني في إقليم قيليقيا، عرفها الصليبيون باسم أنازريس، أنظر: صابر محمد دياب، المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والثغور الجزرية والشامية خلال القرن 4هـ/10م، مكتبة السلام العالمية، (د،ط)، (د،م)، 1984، ص31، 32

(6) بلد بثغر المصيصة، في الإقليم الرابع، وهي حصن منيع في معزل من شاطئ البحر، أنظر: ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج1، ص173- البلاذري، فتوح البلدان، ص235

(7) كانت قاعدة الثغور الشمالية، بينها وبين عين زربي والمصيصة 38،6 كلم، أنظر: ابن الشحنة أبي الفضل، المصدر السابق، ص189- تقويم البلدان، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ص257- ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، ترجمة: عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1995م، ج1، ص48

(8) تقع بين حلب والرقّة، وهي أول مدن الشام من جهة العراق، أنظر: خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، تح: أكرم ضياء العمري، دار طيبة، ط2، (د،م)، 1985، ص485

هذا وقد اتفق معظم الجغرافيين والرحالة أمثال ناصر خسرو⁽¹⁾، ابن جبير الذي كتب رحلته سنة 582هـ/1186م، وابن بطوطة الذي عاش بين 704-779هـ/1304-1377م، والرحالة التركي أوليا جلي 1020-1090هـ/1611-1679م وغيرهم على ذكر أهم المدن الشامية مع التطرق إلى اليسير من المدن الثغرية، والقرى، والحصون، والقلاع.

وقد جمع بعض المؤرخين أمثال: البلاذري في كتابه فتوح البلدان، وابن العديم في بغية الطلب أوفر المعلومات عنها، وانفرد القلقشندي في ذكر حصون وقلاع كانت مضافة للمدن الكبرى، وأوردها ضمن الأعمال الصغار من بلاد الأرمن بعد ذكر الأعمال الكبار وقسمها قسمان ساحلية وجبلية، ثم أخذ عنهم المتأخرون، ولعل أهمها والمتفق عليه: زنده⁽²⁾، ويياس⁽³⁾، ودرولية⁽⁴⁾، وكفريا⁽⁵⁾، والمثقب⁽⁶⁾، وموزار⁽⁷⁾.

ويفصل البلاذري ومن أخذ عنه من المتأخرين، أمثال ابن العديم في تحديد المنطقة أكثر، بذكر القلاع والحصون وأهمها: قليقية⁽⁸⁾، حصن ثابت⁽⁹⁾، حصن عُجَيف⁽¹⁰⁾، حصن شاكر⁽¹¹⁾، حصن

-
- (1) سفرنامه، تح: يحيى الحشاش، دار الكتاب الجديد، ط3، بيروت، 1983
 - (2) وردت باسم زندان، وهي ناحية بالمصيصة، أنظر: خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص166
 - (3) تقع شرقي أنطاكية وغربي المصيصة، بينها وبين الإسكندرونة 9,6 كلم، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص221
 - (4) بنواحي المصيصة -أشد إغالا في بلاد الروم-، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص237
 - (5) مدينة كبيرة قرب المصيصة على شاطئ جيحان، بينها وبين المصيصة قنطرة حجارة حصينة جدا، ينظر منها الجالس في المسجد إلى قرب البحر نحو اثني عشر ميل (3,19 كلم)، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص227، 228
 - (6) على ساحل البحر قرب المصيصة، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص288
 - (7) حصن ببلاد الروم عمره الخليفة هشام، بعد أن تعرض الروم لرسول له في درب اللُكّام عند العقبة البيضاء، ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجرامة، وأقام بيغراس مسلحة، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، م 1، ص221
 - (8) أول ما عرف بإقليم الثغور قبل الإسلام، ينسب إليها علماء الروم الثغر فيقال بند اقليقية، وهي عن يمين السالك من المصيصة إلى أذنة، بينها وبين الأخيرة نحو ميلين (2,3 كلم)، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص207
 - (9) كان المشهور قبل بناء الثغور، ذكر ابن العديم: «ما زال أولونا يقولون لم يعرف الجهاد فيما مضى في شيء من أرض الثغور؛ إنما كان حصن ثابت بن نصر بمدينة المصيصة في آخر أيام بني أمية وأول أيام بني العباس، يخرج منه أربعمئة فارس، إذا قلبوا حوافر خيولهم للغزو، قلبوا بذلك قلوب بطارقة القسطنطينية خوفاً»، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص207
 - (10) ينسب إلى عجيف بن عبسة من أكابر قواد الخليفة المأمون، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص209
 - (11) قريب من طرسوس ينسب إلى شاكر بن عبد الله أبي الحسن المصيصي، كان من الفاتحين المذكورين والمحدثين المشهورين، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص211

الجوزات⁽¹⁾، تل جبير⁽²⁾، ذي الكلاع⁽³⁾، قطرغاش⁽⁴⁾، مورة⁽⁵⁾، وأهم القلاع⁽⁶⁾.

ونكون بذلك قد تطرقنا لأهم الحصون والقلاع في المنطقة من خلال ما ذكر في المصادر الجغرافية والتاريخية، وكتب الرحلة والآثار. يلي الثغور الشامية عن يمينها جهة الشمال الثغور الجزرية، وسنوضح أهمها مبتدئين ب: مرعش⁽⁷⁾، والحدث⁽⁸⁾، وحصن منصور⁽⁹⁾، وزبطرة⁽¹⁰⁾، وملطية⁽¹¹⁾، وكيسوم⁽¹²⁾، وكركر⁽¹³⁾، وطرندة⁽¹⁴⁾.

- (1) يقع بين البدنون وطرسوس، بينهما اثنا عشر ميلا (19,31 كلم)، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص212
- (2) من عوادل الثغور الشامية، يبعد عن طرسوس أقل من عشرة أميال (16,09 كلم)، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص233
- (3) هو حصن ذي القلاع، وبالرومية الحصن الذي مع الكواكب، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص174، 175
- (4) يقع قرب المصيصة، بين أنطاكية والمثقب، بناه هشام بن عبد الملك، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص233
- (5) يقع في جبل اللكام، أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ص135، 136
- (6) قلعة بارك كروك، قلعة كاوژا، قلعة كولاك، قلعة كيزال، قلعة كومي، تل حمدون، قلعة حميمص بالقرب من نهر جيحان، قلعة لؤلؤة، قلعة تامرون، عمل سنياط كلا، عمل بلسلوص، أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ص135، 136
- (7) تسمى باليونانية مراسيون *Maracion*، واسمها الأرمي *nakinur*، كان لقرىها من الدولة البيزنطية دورا ملحوظا ومستمرا في الجهاد، أنظر: المنفي، بلاد الشام في الجغرافية العربية (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة دمشق، 1990، ص200-المعاضدي، بناء المدن العسكرية، الجيش والسلاح، ع3، 1988، ص(253-307)
- (8) تقع على الدرب من مرعش إلى عريسوس، وهي على ضفاف نهر آق صو، يفصل بينها وبين مرعش مسيرة يوم، أنظر: الفسوي، المعرفة والتاريخ، تح: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، ج1، ص160-الإدرسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، (د،د،ن)، ط1، (د،م)، 1989، ج2، ص652
- (9) تسميه الروم *Perrhe*، وهو اليوم في الغالب أديمان، قرب سميساط، أنظر: صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص155
- (10) تقع بين ملطية وسميساط والحدث، وموقعها حاليا بمدينة فيران شهر قرب منابع نهر سلطان صو (قراقيس)، وجوك صو جنوب النهر الأزرق، أنظر: صابر محمد دياب، المرجع السابق، ص29
- (11) تقع شمالي الهارونية، كانت مفتاح الطريق للجيوش الإسلامية القادمة من الشرق المتجهة لآسيا الصغرى، والبيزنطية القادمة من الغرب، وظلت لعدة قرون مركزا لالتقاء الطرق التجارية والعسكرية بين الجزيرة والعراق من جهة، وبين آسيا الصغرى والقسطنطينية من جهة أخرى، أنظر: جونز أرنولد هيومارتن، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة: إحسان عباس، دار الشروق، ط1، عمان، 1986، ص8
- (12) من أعمال سميساط، تقع جنوب بحسنا على حوالي 33 كلم، بين مجموعة من الحصون أقامها المعتصم منها: طبارجي، الحسينية، بني المؤمن، وحصن منصور، وكان يربطها بالأخير نهر سنجة وعليه قنطرة، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، م4، ص491
- (13) تبعد عن حلب نحو خمس مراحل، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، م4، ص452، 453
- (14) تقع من ملطية على ثلاث مراحل، داخلية في بلاد الروم، أنظر: كي لسترنج، المرجع السابق، ص153

إضافة إلى بعض الحصون والقلاع التي انفرد البعض بذكرها: كشمشاط⁽¹⁾، حصن قلوذية⁽²⁾، حصن كمنخ⁽³⁾.

أما الإصطخري وابن حوقل⁽⁴⁾ فيجملان الثغور في: ملطية، والحدث، ومرعش، والهارونية، والكنيسة، والمصيصة، وأذنة، وطرسوس، وتدخل معظم الثغور ضمن الإقليم الرابع في تقسيمات ابن رسته⁽⁵⁾.

ثم إن الدولة الأموية اهتمت من أجل صراعها مع الروم في آسيا الصغرى بالثغور الشامية والجزرية، فجعلت وظيفة الأخيرة الأساسية هي حماية الدولة الإسلامية من هجمات الروم البيزنطيين، في حين حددت للأولى مهمة الهجوم على الدولة البيزنطية ذاتها⁽⁶⁾.

إذا فمهمة الثغور الجزرية هي الحراسة، أما الشامية فمهامها الجهاد، وظل تقسيم مهام الثغور هذا ساريا في الفترة العباسية، والتي جمعت بين سياستين متوازيتين هجومية ودفاعية في الوقت ذاته، فأنشأت مناطق على الحدود داخل وحدات إدارية تتمتع بحرية ذاتية في تسيير شؤونها، وهي منفصلة عن إقليم الشام والعراق، سميت بالعواصم منذ عهد الرشيد⁽⁷⁾.

والمقصود بها سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية، وسميت بذلك لأنها تحمي أو تعصم الحدود، وتعينها على صد غارات الروم، وقد فرّق قدامة⁽⁸⁾ بينها وبين الثغور فقال: «وعواصم هذه

(1) تقع بين آمد وبين خرت برت، وهي غير سميساط، وأنها بين بالويه وحصن زياد، وهي أرمينية الرابعة كما سماها البلاذري، هي أول حدود بلاد أرمينية من جهة الجنوب، منها إلى ملطية واحد وخمسون ميلا (82 كلم)، وتبعد عن سميساط وحصن منصور مسير يومين، منها غادر هرقل بلاد الشام داخلا إلى أرض الروم، حيث التفت إلى سوريا وقال: «قد سلمت عليك تسليم المسافر، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق، ولا يعود إليك رومي أبدا إلا خائفا، حتى يولد المولود المشؤوم، وليته لم يُولد»، أنظر: فتوح البلدان، ق3، ص259- ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج2، ص811

(2) حصن قرب ملطية، أنظر: الحموي، المعجم، ج4، ص392

(3) يقع على الفرات الغربي إلى الشمال الشرقي من ملطية، ويبعد عنها حوالي مائة وستون كلم، تبادل المسلمون والبيزنطيون السيطرة عليه حتى استولى عليها الأخيرين، أنظر: كي لسترنج، المرجع السابق، ص151

(4) أنظر: مسالك الممالك، ص27- صورة الأرض، ص153، -أنظر: الملحق رقم5، ص415-

(5) الأعلام النفيسة ويليه كتاب البلدان لليعقوبي، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1982، م7، ص97

(6) علا عبد العزيز، الدولة الأموية دولة الفتوحات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، القاهرة، 1996، ص21

(7) وديع فتحي، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى، مؤسسة شباب الجامعة، (د،ط)، الإسكندرية، 1990، ص141

(8) أنظر: قدامة، المصدر السابق، ص186- صابر محمد دياب، المرجع السابق، 1984

الثغور، وما وراءها إلينا من بلدان الإسلام وإنما سمي كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمدّه في أوقات النفير، ثم ينفر إليه من أهل أنطاكية، والجومة، وقورس».

2- الثغور البحرية: وتتكون من سواحل جند الثغور وهي بالترتيب: أولاس⁽¹⁾، التينات⁽²⁾، أياس⁽³⁾، الاسكندرونة⁽⁴⁾. وجند حمص ويتكون من: اللاذقية⁽⁵⁾، وبلاطنس⁽⁶⁾، وجبله⁽⁷⁾، والكاف⁽⁸⁾، وبلدة⁽⁹⁾، والجماهيرية⁽¹⁰⁾، بكسرايل⁽¹¹⁾، صهيون⁽¹²⁾، مرقية⁽¹³⁾، بانياس⁽¹⁴⁾، المرقب⁽¹⁵⁾،

(1) هو حصن الزهاد، يقع على الساحل، أنظر: ابن حوقل، المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن، 1872، ص123- لمعلومات أكثر عن مواقع الثغور البحرية أنظر الملحق رقم6، ص419-

(2) على شاطئ البحر بين بياس والمصيصة، ينسب إلى أبي الخير التيناني، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ص222، 223

(3) أياس تنسب إلى يوان بن يافث ولد أياس، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ص222، 223

(4) تقع شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ(19كلم)، وبين أنطاكية ثمانية فراسخ(38كلم)، ويدخل خليج الاسكندرونة في اليابسة، أنظر: الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، (د،م)، 2001، ج16، ص619

(5) من ثغور أنطاكية، تجدد تمديد البيزنطيين للنظام الثغري في العهد العباسي، فسقطت في أيديهم في عهد الخليفة المنصور سنة 140هـ/757م، فأندر الإمام الأوزاعي الخليفة بخطر الأمر، وطلب منه تخصيص أعطيات سنوية لأهل الساحل حتى يقووا على المراقبة والحراسة، أنظر: السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، (د،م)، 1967، ج1، ص89- جميل المصري، طرسوس صفحة من جهاد المسلمين في الثغور، الجامعة الإسلامية، ط20، المدينة، 1988، م1، ص108- يعقوبي، البلدان، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1891، ص162

(6) حصن منيع بالساحل قرب اللاذقية، كانت تشرف على تفرع الطريق المتجه إلى جبلة، عند انفصاله عن طريق الأرنط- اللاذقية، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص178

(7) قلعة مشهورة بالساحل من أعمال حلب، إلى الجنوب من اللاذقية باثني عشر ميلا (19كلم)، وهي في الأصل جبلة، أنظر: ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج1، ص312- البلاذري، المصدر السابق، ص135

(8) حصن حصين بسواحل الشام قرب جبلة، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص178

(9) من مدن ساحل بحر الشام، قريب من جبلة، أنظر: ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج1، ص217

(10) من سواحل الشام، قرب جبلة، أنظر: René Dussaud, *Topographie Historique de la syrie antique et médiévale, librairie orientaliste geuthner, paris, 1927, p150*

(11) من نواحي سواحل حمص مقابل جبلة في الجبل، أنظر: ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج1، ص214

(12) في طرف جبل خنادقه أودية هائلة، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص188، 189

(13) قلعة حصينة خربت فجدها معاوية، ورتب فيها الجند وأقطعهم، أنظر: الحموي، المعجم، ج8، ص28

(14) تقع إلى الجنوب من جبلة بعشرة أميال(16كلم)، أنظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج1، تح: محي الدين العمري، دار الفكر، ط1، دمشق، 1998م، ج1، ص249

(15) قلعة تشرف على ساحل البحر وبانياس، أنظر: Dussau, op-cit, p127, 128

أنطرسوس⁽¹⁾، مصياف⁽²⁾، المنيطرة⁽³⁾، وطرابلس⁽⁴⁾. وسواحل جند دمشق هي: عرقة⁽⁵⁾، جبيل⁽⁶⁾، بشرون⁽⁷⁾، أنفة⁽⁸⁾، بيروت، صيدا⁽⁹⁾ قلعة أبي الحسن⁽¹⁰⁾.

وسواحل جند الأردن: صور، وعكا.

وسواحل جند فلسطين: تل كيسان⁽¹¹⁾، الخروبة والعرابة⁽¹²⁾، طرطوس⁽¹³⁾، حيفا، كرسل⁽¹⁴⁾،

(1) من أعمال طرابلس، تقع على مقربة من جزيرة أرواد، بينها وبين عرقة ثمانية فراسخ (38 كلم)، وبين جبلة اثنا عشر ميلا (19 كلم)، طرابلس ثلاثين ميلا (48 كلم)، من أشهر الموانئ على الصعيدين التجاري والحربي خلال العهدين الأموي والعباسي، طوّر الخليفة المعتصم صناعة السفن بما فيبلغ عددها حوالي ثلاثمائة مركب سنة 227هـ/841م، أنظر: الحسن بن أحمد المهلب، الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك، (د، د، ن)، (د، ط)، (د، م)، (د، ت)، ص 69-96- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، (د، ط)، القاهرة، (د، ت)، ص 191- طه خضر عبيد، واقع البحرية العباسية في شرق البحر المتوسط 132-247هـ/749-861م، مجلة التربية والتعليم، جامعة الموصل، العراق، ع 18، م 3، ص (104-118)

(2) حصن صغير للإسماعيلية قرب طرابلس، يقال له مصياف، أنظر: الحموي، المعجم، ج 8، ص 79

(3) حصن بالشام، قرب طرابلس، أنظر: ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج 3، ص 1326

(4) بينها وبين عرقة اثنا عشر ميلا (19 كلم)، وبعليك أربعة وخمسون ميلا (87 كلم)، ومنها إلى دمشق مسيرة 5 أيام، أنظر: أفرح أحمد القططي، الثغور الشامية في العهد الأموي (رسالة ماجستير منشورة)، جامعة غزة، 2016، ص 47

(5) بلدة في شرقي طرابلس، بينهما أربعة فراسخ (19 كلم)، آخر أعمال دمشق من جهة الشمال ومن سواحلها، ومن البحر على نحو فرسخ (5 كلم)، أنظر: ابن خردزابة، المسالك والممالك، مطبعة بريل، (د، ط)، ليدن، 1989، ص 255- البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تح: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (د، ت)، ج 3، ص 934

(6) تقع بين طرابلس وبيروت في سفح جبل لبنان، تبعد عن طرابلس بنحو ثلاثة وعشرون ميلا (37 كلم)، وهي تصغير لكلمة جبل، أنظر: واصف بيك، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، بورسعيد، 1998، ص 44- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، (د، ط)، القاهرة، (د، ت)، ص 107- أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، (د، ط)، بيروت، (د، ت)، ص 108-157

(7) حصن بين جبيل وأنفة على ساحل بحر الشام، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 182

(8) بليدة على ساحل البحر، شرقي جبيل، أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج 3، ص 59

(9) تلفظ صيداء، تبلغ المسافة بينها وبين دمشق 66 ميلا (106 كلم)، أنظر: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة صيدا، مؤسسة شباب الجامعة، (د، ط)، مصر، 1986، ص 64- التوراة، تح: سهيل زكار، دار قتيبة، ط 1، القاهرة، 2007 (سفر التكوين، 10:15)

(10) قلعة ساحلية عظيمة، قرب صيدا بالشام، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 181

(11) موضع في مرج عكا، من سواحل الشام، أنظر: فتحي عثمان، المرجع نفسه

(12) حصنان بسواحل بحر الشام، يشرفان على عكا، أنظر: فتحي عثمان، المرجع نفسه

(13) قرب المرقب وعكا، أنظر: الحموي، المعجم، ج 6، ص 41

(14) حصن على الجبل المشرف على حيفا، أنظر: ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج 1، ص 442

قيسارية⁽¹⁾، قاقون⁽²⁾، كفرلاب⁽³⁾، بازور⁽⁴⁾، أرسوف⁽⁵⁾، يافا⁽⁶⁾، بالإضافة إلى كل من عسقلان⁽⁷⁾، بيت جبرين⁽⁸⁾، غزة، ميماس⁽⁹⁾.

كانت في بداية الفتوحات الإسلامية حدودا ونهايات، ثم تحولت إلى نقاط للوثوب والانطلاق، حتى تخدم السياسة التوسعية للدولة أوقات النفير⁽¹⁰⁾، ومن ثمَّ عمل خلفائها على وضع برنامج للثغور؛ يضم إلى جانب ترميم الحصون، وإقامة أبراج الحراسة والمراقبة، وبناء الأربطة، تشجيع إقامة الجند في الثغور، فاقتزن الرباط بمفهوم الجهاد، وتطور مفهومه بحيث لم يعد مجرد حصن يجتمع فيه الجند للدفاع ضد الغارات، بل أضحي بالأساس قاعدة للهجوم وشن الغارات على بلاد العدو وليس صدّها⁽¹¹⁾.

(1) هي جت فلسطين الواردة في التوراة (صمويل، 7:14)، وهي بلد على ساحل البحر بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، تقع إلى الجنوب من صور بمقدار ثمانية فراسخ (38 كلم)، منها إلى عكا ستة وثلاثون ميلا (57 كلم)، وأرسوف ثمانية عشر ميلا (28 كلم)، ويافا ثلاثون ميلا (48 كلم)، أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص486- المهلي، المصدر السابق، ص64

(2) حصن بفلسطين قرب الرملة، من عمل قيسارية، وردت في التوراة باسم قعيلة، أنظر: التوراة (يشوع، 44:15)

(3) بلد بساحل الشام قرب قيسارية، بناه الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص182

(4) بليدة بسواحل الرملة، من أعمال فلسطين، أنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص174

(5) تقع بين قيسارية ويافا، كان بها خلق من المرابطين، أنظر: الحموي، المعجم، ج1، ص192

(6) مدينة ساحلية تتوسط عكا وقيسارية من جهة-بينهما ثلاثة أميال-، وعسقلان من جهة، وهي ميناء لبيت المقدس بينهما ثلاثة مراحل(482 كلم)، تعد إحدى البوابات الرئيسية الغربية لفلسطين، وعبرها يتم اتصال فلسطين بدول حوض المتوسط، وكانت منذ القدم محطة تلاقي بضائع الشرق والغرب، وجسر عبور للقوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام، أنظر: النويري، المصدر السابق، ج30، ص200- موسوعة سفير الإعلامية، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، (د،د،ن)، (د،م)، (د،ت)، ج11، ص5

(7) من أعمال فلسطين، تعد من أجمل مدن الساحل، يقال لها عروس الشام ودمشق، تقع على مرتفع بين غزة وبيت جبرين، إلى الجنوب من يافا بمسافة مرحلة، ومن غزة اثنا عشر ميلا(19 كلم)، بينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلا(28 كلم)، وليس لها ميناء، أنظر: الحموي، المعجم، ج4، ص122- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص192- المهلي، المصدر السابق، ص100

(8) *Eleutheropdis*: مدينة سهلية جبلية، بين بيت المقدس وعسقلان، ذكر أن سكانها وعمارتها قد قلّت، أنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص174

(9) مدينة صغيرة على البحر، حسنة تنسب إلى غزة، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص182

(10) قدامة، المصدر السابق، ص186

(11) علا عبد العزيز، المرجع السابق، ص21

وهكذا كان الانتقال من دولة إلى أخرى، هو الانتقال من عالم بحري يهتم بالنظر إلى الغرب، نحو عالم برى يهتم بالنظر إلى الشرق، بعدما قلل العباسيون نشاطهم في البحر، وأصبحت شواطئه في نظرهم حدودا ونهايات لدولتهم ينبغي الدفاع عنها لا الهجوم منها⁽¹⁾.

وبهذا كان إقليم الجزيرة وشمال الشام وحدة يتم بعضه بعضا، من حيث ارتباط حصونها وتعرضها لغارات البيزنطيين، ثم إن المسلمين اهتموا من أجل صراعهم مع الروم في آسيا الصغرى بالثغور الشامية والجزرية، فجعلت وظيفة الثغور الجزرية الأساسية، هي حماية الدولة الإسلامية من هجمات الروم البيزنطيين، في حين حددت للثغور الشامية مهمة الهجوم على الدولة البيزنطية ذاتها⁽²⁾.

ومما سبق يتبين لنا صعوبة تحديد المنطقة تحديدا دقيقا، وهذا ما يظهر لنا الاختلاف بين الجغرافيين والرحالة في تصنيف الحصون والمدن والقرى، وربما وقع الخلط بينهم في الكثير من المرات؛ حول ما إذا كانت من العواصم، أم من الثغور الجزرية أو الشامية، فتنسب أحيانا إلى هذه أو تلك، وذلك راجع إلى أهمية المنطقة في العصور الإسلامية الأولى.

(1) وديع فتحي عبد الله، المرجع السابق، ص 141

(2) أنظر: الجنزوري، المرجع السابق، ص 24 - علا عبد العزيز أبو زيد، المرجع السابق، ص 21

المبحث الخامس: جغرافية الثغور والمنطقة المحيطة بها

ترتكز الثغور الشامية والجزرية إلى أرض الجزيرة في شمالي العراق من جهة، وأرض الشام من جهة ثانية، كما تتصل من ناحية الشرق والشمال الشرقي بأرمينية، ومن ناحية الشمال بآسيا الصغرى، وإلى الغرب منها يقع ساحل بحر الروم⁽¹⁾، وارتباط أعالي الشام والجزيرة واضح من الناحية الجغرافية، يقول ياقوت⁽²⁾ عن الفراض: «والفراض تحوم الشام والجزيرة في شرقي الفرات»، وقد تتابع الجغرافيون المسلمون على تأكيد هذا الارتباط؛ فذكر المسعودي⁽³⁾ أن سوريا هي الشام والجزيرة.

وقد كان الروم يسمون البلاد التي سكانها المسلمون في عهدهم من الشام والعراق سوريا، كما كان الفرس يسمون العراق والجزيرة والشام سورستان، إضافة إلى السريان وهم الكلدانيون وتسميهم العرب النبط⁽⁴⁾، وأهل العراق يسمون كل ما وراء الفرات شاماً⁽⁵⁾.

وارتباط الشام والعراق في أعاليهما يدعمه مجرى الفرات من جهة، وامتداد جبال طوروس التي تحمي الثغور الجزرية والشامية من جهة أخرى، وارتبطت المنطقتان في الأعمال الحربية التي سجلتها معارك الروم والفرس، أو المسلمين والبيزنطيين⁽⁶⁾.

وقد جرت الجغرافية القديمة على تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، وتدخل معظم الثغور في الإقليم الرابع منها، وقد حدده ابن رسته⁽⁷⁾ بأنه: يبتدئ من المشرق فيمر ببلاد التبت، ثم خراسان فيكون فيها من المدن: سر من رأى، والموصل، وبلد نصيبين، وآمد، ورأس العين، وقالي قلا، وشمشاط، وحران، والرقعة، وقرقيسيا، ويمر عن شمال الشام ففيه من المدن: بالس، ومنبج، وسميساط، وملطية،

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 136

(2) المعجم، ج 6، ص 350

(3) التنبيه والاشراف، دار صادر، (د، ط)، بيروت، 1893، ص 150

(4) جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقيين، والنبط في اصطلاح العرب في القرون الأولى للهجرة اسم أهل الحضرة المتكلمين باللغات الآرامية، الساكنين في الشام وخصوصا في بلاد ما بين النهرين، وليسوا النبط أو الأنباط الذين اتسعت مملكتهم في أرض الحجاز الشمالية إلى حدود فلسطين ونواحي دمشق، أنظر: كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، ط 3، دمشق، 1953، ج 1، ص 60، 61

(5) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 136

(6) نفسه، ص 137

(7) المصدر السابق، ص 97، 98

وزبطرة، وحلب، وقنسرين، وأنطاكية، وطرابلس، والمصيصة، والكنيسة السوداء، وأذنة، وطرسوس، وعمورية، واللاذقية... ثم يمر في بحر الشام على جزيرتي قبرص ورودس...».

ويختلف الجغرافيون في تحديد موقع الثغور من الأقاليم السبعة، فالمقدسي⁽¹⁾ يجعل مدينة ملطية في الإقليم الخامس، ويدخل ياقوت⁽²⁾ ضمن هذا الإقليم برذعة، ميفارقين، أرمينية، دروب الروم وبلادهم، أما ابن خلدون⁽³⁾ فيقسم الإقليم إلى تسعة أجزاء فرعية، والجزء الخامس منها يبرز إقليم الثغور والعواصم في وضوح، كما يبرز الأقاليم المتاخمة له.

ومن ذلك نستنتج أنه صعب على المتقدمين تحديد المنطقة تحديدا دقيقا، وهو ما فصلنا فيه مسبقا وحتى بالنسبة إلى جغرافيتها، ويظهر ذلك من خلال الاختلافات بين الجغرافيين، وعليه ارتأينا أن نحدد جغرافية إقليم الثغور والعواصم؛ من خلال تحديد جغرافية المنطقة ثم المنطقة المحيطة بها، وفيما يلي وصف لذلك:

1- جغرافية إقليم الثغور: لو ذهبنا إلى القول بأن الدول تؤثر دائما أن تتخذ تحوما تفصل بينها وبين جيرانها، فإننا نستطيع أن نتبين أن هناك ظروفًا طبيعية معينة تصلح لهذا الغرض تماما؛ فالبحر، والصحاري، والسلاسل الجبلية، والغابات، تعد خير أنواع التخوم لأنها تمثل صعوبات تعوق انتقال الإنسان، كما أنها لا تعول عددا كثيفا من السكان⁽⁴⁾.

والواقع أن نظرة واحدة إلى مواقع الثغور الإسلامية التي أقاموها على ثغور بلادهم، توقفنا على ما كان لدى المسلمين من فن استراتيجي، إذ كانوا يقيمونها على أبواب الطرق للتحكم في أماكن اقتراب العدو، مراعين أن تكون بعيدة عن البحار، قريبة من الصحراء التي يحسنون القتال فيها، وأن تكون محصنة بثنيات الأنهار، ومنعطفات الجبال أو الخنادق، أو بغير ذلك من الموانع الطبيعية، التي تضمن لمواقعهم ميزة استراتيجية ملحوظة⁽⁵⁾.

(1) أحسن التقاسيم، ص 60، 61

(2) المعجم، ج 1، ص 30

(3) المصدر السابق، ص 310

(4) جوردن ايست، المرجع السابق، ص 107

(5) كي لسترنج، المرجع السابق، ص 160

وكانت الحدود في بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس تتألف من سلسلتين، جبال طوروس وطوروس الداخلية *Anti taurus*⁽¹⁾ أو طوروس المناوح⁽²⁾، وكان يعين هذه الحدود ويحميها خط طويل من القلاع، يمتد من ملطية على الفرات الأعلى، إلى طرسوس بالقرب من ساحل بحر الشام، وكان الروم يحتلون هذه القلاع تارة والمسلمون تارة أخرى⁽³⁾، ويمكن تقسيم هذه المنطقة جغرافياً إلى ثلاث مناطق وهي: المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية، المنطقة الوسطى، والمنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية.

المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية: وأهم معالمها الجغرافية قاليقلا، والمجرى الأعلى لنهر الفرات أو *Qara Su*⁽⁴⁾، الإقليم بين الفرات وأرسناس أو *Murad Su*، ثم الإقليم الواقع غرب الفرات، ثم الهاليس الأعلى والثغور البكرية.

المنطقة الوسطى: وتشمل إقليم ملطية، ونهر القباقيب أو تحمه صو *Takhma Su*، والضفة اليمنى لنهر الفرات من ملطية إلى النهر الأزرق أو جك صو *Gok Su*، والثغور الجزرية بين ملطية ومرعش، والمجرى الأعلى لنهر جيحان، والمجرى الأعلى لنهر سيحان، وكبادوكيا، وقيصرية⁽⁵⁾.

المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية: وأبرز أجزائها إقليم الفرات بين النهر الأزرق والثغور الشامية، إقليم طوروس وممراته، إقليم جيحان الأوسط وقيليقية، وممرات طوروس القيليقية، والأبواب القيليقية إلى قيصرية⁽⁶⁾، ويوضح شابو⁽⁷⁾ الصورة أكثر للمنطقتين الأوليتين، فيذكر أن منابع نهر الفرات في أرمينيا والحدود السورية، ويبدأ عند سفوح جبل نمرد *Nemroud-dagh* في منطقة معزولة شمال الممر العظيم من الشرق للغرب، والطريق الحربي بين الروم والفرس، وتقع أرمينيا الصغرى غرب الفرات

(1) الجنزوري، المرجع السابق، ص 26

(2) أحمد وصفي زكريا، المرجع السابق، ص 31

(3) الجنزوري، المرجع السابق، ص 26

(4) *Victor chapot , la frontière de l'Euphrate de pompée à la conquête arabe,*

(paris1907), p219

يشير إليها باسم النهر الأسود (باللغة التركية) أسود = qara، نهر = su

(5) الجنزوري، المرجع السابق، ص 11

(6) نفسه

(7) *Victor chapot, op-cit, p 222*

الأعلى، وتمتد على ضفته الشمالية، ويتم الالتقاء بين سوريا وأرمينيا الصغرى عند تلك الزاوية المتوسطة التي تخطط النهر بين سميساط وملطية، أما ملطية فتحيط بها مجموعة من الأنهار، فغربها نهر القبايق، وإلى الشمال النهر الأسود (كراصو).

وإذا كانت جبال طوروس بسلسلتها هي الفاصل الطبيعي بين بلاد المسلمين وبلاد الروم، فإن الجغرافيين العرب يركزون الحديث عن جبل اللكام، الفاصل بين الثغور الشامية والجزيرية⁽¹⁾، والذي يسميه الإفرنج آمانوس *Amanus*، وعامة الترك تدعوه كلور طاغي (جبل الكفرة)، ودعته حكومتهم جبل البركات، وذكره البعض باسم الجبل الأسود لسواد حراجه الملتفة، وسلسلة اللكام تعد عند الجغرافيين الحد الطبيعي الفاصل بين بلاد الشام والأناضول.

وصفه أوليا جلبي في رحلته قائلا: «في هذه السلسلة أودية سحيقة، ومهاو ذات منحدرات صعبة، ونجود عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية، لجودة هوائها وغزارة مياهها، وروعة مشاهدتها وطيب أعشابها ووفرة ثمارها»⁽²⁾.

ولو أننا تتبعنا سلسلة جبال طوروس من الفرات حتى حدود قيليقية، فإن أعيننا تقع أولا على ملطية⁽³⁾، عند التقاء الطريق العلوي الكبير من سيواس وقيصرية إلى أرمينيا، وشمال ما بين النهرين ليس بعيد عن تلك الحلقة، التي يخطها النهر أسفل النقطة التي تتخذ فيها مياه مجاريه الأم، ويتميز الطريق من ملطية إلى مرعش عبر طوروس بحصون زبطرة، والحدث، ومرعش، وعين زربة، وبين هذين الموقعين الأخيرين في إقليم التلال في جيحان الأعلى، كان موقع حصن الكنيسة والمارونية، كما يشتهر في هذا الجزء ممر الحدث أو كوردخاي، ويعتبر أحد الممرين الهامين في جبال طوروس، الذي يحمي حصن

(1) الاصلطخري، المصدر السابق، ص 28،

يفصل ياقوت في الكلام عن هذا الجبل فيذكر أنه يجيء من الحرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام، فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل، وبدمشق سنير، وبحلب وحماة وحمص ولبنان ويتصل بأنطاكية والمصيصة، ويسمى هناك اللكام، ثم يمتد إلى ملطية وسميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر، فيسمى القبق، أنظر: الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 11- أنظر الملحق رقم 7، ص 420-

(2) أحمد وصفي زكريا، المرجع السابق، ص 42 (قام بتعريب رحلة أوليا جلبي الرحالة التركي المشهور)

(3) يذكر القزويني أن بها جبل فيه عين، حدثه بعض التجار أنّ هذه العين يخرج منها ماء عذب ضارب إلى البياض يشربه الإنسان لا يضره شيئا، فإذا جرى مسافة يسيرة يصير حجرا صلدا، أنظر: آثار البلاد وأخبار العباد، (د، ط)، ليدن، 1848،

الحدث⁽¹⁾.

وقيليقية مجاورة لبلاد الشام، بل إن بعضها يعدها جزءا من الشام التي يوصلون حدها الغربي إلى جبال طوروس، ومن الشمال أونتي طوروس، ومن الشرق جبل اللكام، ومن الجنوب بحر الروم، وفيها سهل واسع يسميه الترك جقو راووة أي السهل المنخفض، وسماه العرب مرج الديباج أو مرج المصيصة، يعد من أخصب سهول بلاد الروم وأعظمها إنتاجا⁽²⁾.

ويعتبر سهل قيليقية منطقة دلتا مجرى نهر جيحان وسيحان اللذان ينبعان من بلاد الروم ويصبان في بحر الشام⁽³⁾.

وهو محاط بالجبال من ثلاث جهات: طوروس القيليقية، وطوروس الداخلية، وجبال الأمانوس، وتنقطع طوروس الداخلية فتصبح سلسلة منفصلة بواسطة مجرى نهر جيحان، ويمتد جبل المصيصة أو جبل النور على الضفة الغربية لخليج الاسكندرونة إلى الشرق من مجرى نهر جيحان القريب من البحر، ومنها حتى مصب نهر جيحان نحو 25,7 كلم يمتد الريف المزدهر العامر بالسكان وبالنشاط التجاري⁽⁴⁾.

وبالمسير من المصيصة على طول جيحان كان يوجد مرج الديباج، وهو منطقة خصبة جدا، أما أذنة فتقع على الضفة اليمنى لنهر سيحان غربي النهر، الذي يصب في بحر الروم إلى الغرب من نهر جيحان⁽⁵⁾.

(1) J-B-Bury: A history of the eastern Roman Empire, (London Macmillan and co), 1912, p244,245

(2) أحمد وصفي زكريا، المرجع السابق، ص 30، 31- أنظر الملحق رقم 8، ص 421-

(3) يُذكر أن المسلمين أطلقوا على نهر سارس وبيرامس اسم نهر سيحان وجيحان، وكانا في صدر الإسلام حدا مائيا بين بلاد المسلمين وبلاد الروم، وقد سمي البلدان يون العرب نهرى بيرامس وسارس باسم جيحان وسيحان، على غرار تسميتهم نهرى أوكسس OXUS و جكسارتس (Gaxartes) في آسيا الوسطى، وهما أكثر شهرة باسم جيحون وسيحون، أنظر: كي لسترنج، المرجع السابق، ص 163، 164

أما عن بحر الشام فقد كان يسمى في العهد الروماني *Nostrum Mare* أي بحرنا، ولذلك أطلق عليه المسلمون بحر الروم، وبعد الفتح الإسلامي صار اسمه بحر الشام ثم البحر المتوسط

(4) أنظر: الاضطخري، المصدر السابق، ص 25- ابن حوقل، المسالك والممالك، ص 108

(5) الجنزوري، المرجع السابق، ص 14

أما نهر البردان الذي عرفه العرب، فهو نفسه سيدنوس القديم *cydnus*، والراجح أنه أخذ هذا الاسم نسبة إلى مائة البارد، فكان ينبع من جبل بلغار *Bulgar Dagh*، ويصب في بحر الروم بالقرب من سيحان، ويقترّب جدا من طوروس القيليقية، وكانت الأراضي الإسلامية تنتهي عند نهر صغير هو اللامس *Lamus Su* الذي يعين الحدود الفاصلة، ويتم عنده تبادل الأسرى⁽¹⁾.

وعلى هذا يمكن تلخيص جغرافية الجزء الساحلي من قيليقية، بأنه ترويه عدة أنهار صغيرة هي: سيحان وجيحان وبردان، وهي أنهار طرسوس والمصيصة وأذنه، وهذه السهول تنقسم قسمين: السهل الأدنى أو الغربي - يسمى قيليقية السفلى -، ويمتد من جبال طوروس حتى البحر، وأهم مدنه طرسوس وأذنه، أما السهول الشرقية أو العليا فيفصلها عن السهول الغربية مرتفعات تعرف بجبل النور، وأشهر مدن هذا الجزء المصيصة، عين زربة، سيس⁽²⁾.

وتنقسم طوروس القيليقية إلى ثلاث مجموعات: الغربية وهي سلسلة *Dumbelek*، والوسطى وهي مرتفعات *bulghn Dagh*، والشمالية *Ala Dagh* وتمثل منطقة شديدة الانحدار والوعورة على الضفة اليسرى لنهر *Korkun Su*، وسلسلة طوروس القيليقية، وعلى مسافة من الجنوب للشمال حوالي 300 كلم تتكون من كتلة شمالية وساحلية تفصلهما منخفضات ومضائق عميقة لا يمكن لأي عابر أن يخترقها بسهولة، بعكس الكتلة الشمالية حيث وديان الأنهار تكون سهلة العبور والاختراق لآسيا الصغرى، وبين الكتلتين يوجد منخفض يكونه المجرى الأعلى لنهر *Korkun Su* وعدد من البرك والمستنقعات⁽³⁾.

أما طريق الأبواب القيليقية (الأبواب السورية *Pylée ciliciennes*)، أو مضيق كولك⁽⁴⁾ فيخرج من طرسوس متجها شمالا، فيبلغ طوروس الشمالية ويلتحم بشعابها ومضائقها ويصل إلى درب

(1) كان نهر كوندس القديم يعرف بنهر البردان أو بردى، وذكر أنه كان يسمى بنهر الغضبان وهو بطرسوس، ومخرجه من أصل جبل في شمال طرسوس يعرف بالأقرع، أنظر: الحموي، معجم البلدان، م 1، ص 376 - ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 116
(2) الجنزوري، المرجع السابق، ص 14، 15
(3) نفسه

(4) أحمد وصفي زكريا، المرجع السابق، ص 30 (وصفه أوليا جلي بأنه مضيق حرج، على طرفيه صخور شاهقة جرداء، كان له في كل العصور مكانة عظيمة، مرت منه جحافل الفاتحين، وكان ممن مر به امرئ القيس؛ دعاه بالدرب وإياه عنى في قوله:

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

البوابات⁽¹⁾.

وهذا الأخير هو الممر الثاني الهام في جبال طوروس، بل هو الأهم بالنسبة لحركات الجهاد في الثغور ضد الروم، وقد أطلق عليه العرب اسم درب السلامة كما بينا سابقا⁽²⁾، وهو الضارب شمالا من طرسوس، ومنه يأخذ الطريق العام إلى القسطنطينية، وكان هذا الطريق هو الذي يسلكه سعاة البريد ويمر منه وفود قيصر والخليفة، كما أنه الطريق الذي تتبعه ندبات الغزو العديدة من المسلمين والنصارى⁽³⁾.

ويشتهر بأنه حوالي 112,6 كلم من أعلى نقطة في هضبة آسيا الصغرى جنوب الطوانة، حتى السفوح الجبلية لجبال طوروس في السهل القيليقي، وقرب الطرف الشمالي للممر، وبذلك تكشف الرؤية الواسعة عن كل السهول الكبادوكية الجنوبية، وسفوح طوروس الشمالية، وعلى هذا الارتفاع العظيم تقع قلعة لؤلؤة، التي كانت مفتاح ممر الأبواب القيلية، فعندما كانت في يد الروم كان من الصعب على أي جيش إسلامي أن يغزو كبادوكيا، وعندما استولى عليها المسلمون كان من الصعب على أي جيش دخول الممر⁽⁴⁾.

وكان الطريق الشمالي إلى الطوانة، والطريق الغربي إلى هرقله يلتقيان بالقرب من لؤلؤة، وبذلك كانت تشرف على الطريقين، وكان الطريق ينعطف أولا جهة الشرق ثم يعود ويلف جنوبا حتى يصل إلى وادي البدندن البيضاءوي، ويرتفع الطريق من البدندن خلال وديان صغيرة منعزلة عالية وضيقة حتى يصل إلى قمة الطريق، وعلى الجانب الشرقي في أعلى الجبل كانت تشرف عليه قلعة حصينة مبنية بالحجر الأسود عرفت باسم قلعة السلاف، وتتميز القمة بوجود سهل صغير عليها، وهو الذي سمي الآن *Tekir*، وكان هناك طريقا هابطا طوله حوالي ثلاثة أميال (4,8 كلم)، يتجه إلى الدرب الصخري الذي يعرف باسم الأبواب القيلية، طوله حوالي 91,4م، وعرضه عدة أمتار بين حوائط

(1) أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكشوف، ط1، بيروت، 1955، ج1، ص294، 295

(2) الجنزوري، المرجع السابق، ص15

(3) كي لسترنج، المرجع السابق، ص166

(4) Bury, Op-cit, pp 245,246

صخرية ترتفع عمودية على كلا الجانبين، وكان من الممكن السيطرة منه على أي جيش بواسطة عدد قليل من الرجال ذوي العزيمة⁽¹⁾.

والحقيقة أن هناك دروب كثيرة تقطع جبال طوروس، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم السنوية لبلاد الروم، وهي درب الحدث ويحميه حصن الحدث، ودرب الأبواب القيليقية⁽²⁾.

2- جغرافية المنطقة المحيطة بالثغور: فيما يلي وصف الجغرافيين المسلمين للمنطقة المحيطة بالثغور والعواصم: الجزيرة، والشام، وأرمينية، وبلاد الروم، وجزر بحر الروم.

أ- الجزيرة: الجزيرة هي المنطقة الشمالية الخصبية بين دجلة والفرات، وتمتد إلى منطقة الدروب عند سلاسل جبال طوروس، وإلى الجبال الفارسية، وقد تهيأ للجزيرة بحكم موقعها الجغرافي المتوسط، وكونها معبرا بين العراق والشام والإمبراطورية البيزنطية وأرمينية وأذربيجان، وبحكم أنهارها ومواصلاتها ومواردها الطبيعية وبخاصة الزراعية منها ومدنها الآهلة، أن تكون ذات أهمية خاصة، فقد كانت الجزيرة مع العراق، جسرا أرضيا يوصل بين طرق المواصلات البحرية في جنوبي آسيا وأوروبا، وذلك بحكم موقعها المتوسط بين البحر الشامي والخليج الفارسي⁽³⁾.

وأطلق المقدسي⁽⁴⁾ على الإقليم اسم آفور، وهو غير واضح ولكن يخال لنا أنه كان اسم السهل العظيم في شمالي ما بين النهرين العليا، وعند ياقوت⁽⁵⁾ هو إقليم بالجزيرة، أو الجزيرة التي بين الموصل والفرات، وهناك أيضا آثور أو أتور، وبالموصل بليدة يقال لها أفور وكأن الكورة كانت مسماة بها.

ويقسم سطح الجزيرة والعراق بوجه عام إلى ثلاثة أقسام: سهل رسوبي في وسط وجنوبي العراق يحيط بدجلة والفرات، وهضبة صحراوية في غربي العراق، ومنطقة جبلية في الشمال الشرقي من العراق، وطبيعة الأرض في المنطقة الجبلية ليست على نمط واحد؛ فالقسم المجاور للحد الشرقي والشمالي أكثر ارتفاعا وتعقيدا في تركيبه، فهو وعر المسالك ولا تتخلله إلا وديان ضيقة وسهول

(1) Bury Op-cit, pp 245,246

(2) كي لسترنج، المرجع السابق، ص 165، 166

(3) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، القاهرة، 1976، ج1، ص 207-210

(4) أحسن التقاسيم، ص 136

(5) المعجم، م1، ص 238

صغيرة، يكون حوالي ربع المنطقة الجبلية أما الثلاثة أرباع الباقية فهي مكونة من سلاسل جبلية إلتوائية تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، تتخللها وديان واسعة وسهول كبيرة، ويقل ارتفاع جبالها واتساع سهولها كلما اتجهنا نحو الجنوب والغرب حتى تندمج في السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية⁽¹⁾ وقد ترتب عن هذا التباين في سطح الإقليم (الجزيرة)، تباين في أحواله الطبيعية وحتى البشرية، فكثرت الأمطار والثلوج على جباله العالية، وانحدرت منها أنهار مثل: الخابور والزبان نحو الضفة الشرقية لدجلة، بينما انعدمت على ضفته الغربية لانخفاض الأراضي هناك وقلة الأمطار، وليس للفرات روافد في أراضي عراق العرب، ووسطه وجنوبه أمطاره قليلة، ونظرا لانخفاض هذا الجزء فقد تعرض لفيضانات الأنهار، وتكونت به بحيرات ومستنقعات، على أنّ انبساط الأراضي قد يسر المواصلات والأنهار في بعض أقسامها صالحة للملاحة، وأثر امتداد السلاسل الجبلية، من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي في الانتقال، فأصبحت أيسر في هذا الاتجاه دون غيره، واختلفت الثروة المعدنية، والظروف المعيشية تبعا لذلك⁽²⁾.

الشام: وصف المقدسي⁽³⁾ تضاريس الشام، فقال: «ووضع هذا الإقليم ظريف، هو أربعة صفوف: فالصف الأول يلي بحر الروم، وهو السهل-رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل، والصف الثاني الجبل -مشجر ذو قرى وعيون، ومزارع، يقع فيه من البلدان بيت جبريل، وإيليا، ونابلس، واللجون، والقدس، والبقاع، وأنطاكية-، والصف الثالث الأغوار- ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان تبوك، وصفد، وأريحا، وبيسان، وطبرية، وبانياس، والصف الرابع سيف البادية -وهي جبال عالية باردة ذات عيون وأشجار، يقع فيه من البلدان عمان، وأذرعات، ودمشق، وحمص، وتدمر، وحلب-».

وهناك تقسيم معاصر لبلاد الشام، لا يختلف كثيرا عن الأول، يؤكد التناوب في أرض الشام بين الأراضي المنخفضة والمرتفعة بحيث تحاذي بعضها بعضا، تتجه من الشمال إلى الجنوب، ويمكن أن نميز من خلاله خمس مناطق طولية، وهي:

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص148

(2) نفسه، ج1، ص149

(3) أحسن التقاسيم، ص186

1- السهل الساحلي: يمتد على الساحل الشرقي لبحر الروم، من شبه جزيرة سيناء إلى الاسكندرونة⁽¹⁾، وينحصر بين البحر والبادية، يتسع في الشمال والجنوب، ويقتصر على مجرد شريط ضيق في سفح جبل لبنان، وفي بعض الأحيان يكون الارتفاع من السهل مفاجئاً، وهو بكامله مستقيم لا يوجد فيه خليج إلا في الشمال حيث خليج الاسكندرونة.

2- السلسلة الغربية: تشرف على الساحل سلسلة من الجبال تبدأ بـ:

أ- اللكام (الأمانوس): تسميته العربية مأخوذة من السريانية أو كما *Ukkama* أي أسود، وبالتركية كاورداغ *Giaour Dagh* أي جبل الكفار، إذ كان حصناً للبيزنطيين ضد المسلمين لزمان طويل، وهو التواء فرعي، يمتد من جبال طوروس ليتصل بكتلة الجبال السورية، ويحيط بخليج الاسكندرونة فيشكل حاجزاً بينها وقيلية، ويرتفع إلى نحو خمسة آلاف قدم (1524م) عن سطح البحر، ويشق نهر العاصي طريقه إلى البحر من طرفه الجنوبي، وتعبه طرق تمتد من أنطاكية وحلب وتمر بالمر الرئيسي الأبواب السورية *pylea Syriae*⁽²⁾.

ب- تستمر السلسلة الغربية جنوبي مصب العاصي في جبل الأقرع⁽³⁾، ومن هناك تمتد إلى جوار اللاذقية حيث تعرف بجبال النصيرية *Bargyius*، ثم تتابع سيرها إلى النهر الكبير الجنوبي، ويشكل هذا النهر الحد الفاصل بينها وجبال لبنان، كما يشكل الحدود السياسية بين لبنان وسوريا حالياً.

ج- تبلغ السلسلة ارتفاعاً شبيهاً بالارتفاعات الألبية بجبال لبنان⁽⁴⁾، التي تمتد من النهر الكبير إلى نهر

(1) تقع في شرقي أنطاكية على ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس 4 فراسخ (19 كلم)، وأنطاكية 8 فراسخ (38 كلم)، بنت بها أم جعفر حصناً، وجدده أحمد بن أبي داوود في خلافة الواثق، ويدخل خليجها في اليابسة، وموقعه دعا إلى تأسيس مرفأ بحري يحمي السفن من الرياح، كما تحمي الجبال المرفأ من الرياح الغربية، وهكذا تكون مرفأ حلب، وأنطاكية، وكلس، وعينتاب، ومرعش، والبيرة، وديار بكر، ومدن شمالي الجزيرة، وحتى الموصل، أنظر: الحموي، المعجم، ج 1، ص 182

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 172، 173

(3) يقع شمال طرسوس سمي بـ *Cassius* القدم، يرتفع إلى 1500 قدم (457م)، أنظر: ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 116

(4) جبل مظل على حمص يجيء من العرج الذي بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام، فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل، وما كان بدمشق فهو سنير، وبحلب وحماة وحمص ولبنان ويتصل بأنطاكية والمصيصة ويسمى هناك اللكام، ثم يمتد إلى ملطية وسميساط وقاليقلا إلى بحر الخزر، فيسمى هناك القبق، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 11

القاسمية شمالي صور، ويأتي اسم لبنان من أصل سامي بمعنى البياض - إذ تغطي الثلوج قممها نحو نصف السنة-، في حين يبقى الجليد في الفجوات التي على القمم طوال السنة، وبما أن طبقات جبال لبنان مائلة وملتوية وعمودية أكثر منها أفقية، فقد نتج عنها خليط من التلال والشواهد والأودية⁽¹⁾.

د- فلسطين: امتداد للبنان جنوباً، حيث يستمر سهل لبنان الساحلي في سهل صارون، الذي يمتد من الكرمل إلى جنوبي يافا، ويتصل بساحل المنطقة الفلسطينية، وتستمر السلسلة الغربية جنوبي ممر القاسمية في هضاب ومرتفعات الجليل الأعلى، حيث تبلغ ذروتها في جبل جرمق - شمالي صفد- ويرتفع الجليل الأدنى عند جبل طابور قرب الناصرة، وتشهد السلسلة الغربية أعظم انقطاع لها في مرج ابن عامر الذي يجتاز كامل فلسطين⁽²⁾.

3- المنطقة الطولية الثالثة: هي حوض طويل ضيق يتوسط البلاد، يبدأ شمالاً عند المنعطف الغربي للعاصي في سهل متسع يسمى العمق، ثم يسمى سهل البقاع بين سلسلتي لبنان، ويستمر جنوباً في وادي الأردن حتى البحر الميت، ومن هناك يواصل سيره حتى خليج العقبة، وقد تشكل هذا الحوض نتيجة تصدع شمل وادي البقاع، والأردن، والعقبة، يعتبر من أغرب المظاهر التضاريسية وخاصة في القسم الجنوبي، ويتراوح عرض البقاع -الجزء الذي تحصره سلسلتا لبنان- من ستة إلى عشرة أميال (16 كلم)، ويرتفع بجوار بعلبك إلى 3770 قدماً (1149م) عن سطح البحر، وبقراب هذه المنطقة تقع نقطة تقسيم المياه؛ حيث يتجه العاصي ببطء شمالاً، بينما يتجه الليطاني جنوباً -وهما أطول أنهار الشام-، ورواسب الطمي هنا تفيد في الزراعة كثيراً، غير أن مجرى العاصي منخفض لدرجة تجعل من استغلال مياهه أمراً صعباً، ومنه جاء استخدام النواعير⁽³⁾.

4- السلسلة الشرقية: تبدأ من نقطة جنوب حمص، وتقابل لبنان الغربي بالشرقي على طول وارتفاع واحد، ثم تنحدر بسرعة من حرمون (وهو جبل الثلج عند المقدسي)⁽⁴⁾، نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها في الغرب وهي الجولان، ومن هناك تستمر في شرق الأردن لتنتهي في جبل سعيير

(1) Canard, op-cit, pp 196-199

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص173

(3) نفسه، ص174

(4) أحسن التقاسيم، ص160

جنوبي البحر الميت، وهضبة حوران سطحها بركاني في معظمه، وهي أكبر هضبة من نوعها في الشمال الشرقي، منطقة اللجا ذات الحجارة السوداء، وكانت ملجأ المتمردين في مختلف العصور، وفي الجنوب الشرقي جبل حوران(الدروز)، وترتفع هذه الكتلة شرقي حوران إلى ما بين 4000-5000 قدم (1219-1524م) وتقوم بين حوران والبادية، في حين تمتد المنطقة البركانية غربا حتى الجولان⁽¹⁾.

5- بادية الشام: تتدرج هضاب شمالي حوران وشرقي الأردن نحو منطقة السهوب والرمال، وتلتقي أخيرا بالأراضي القاحلة التي تشكل البادية، وهي تنمة صحراء العرب الكبرى، وهي تفصل الشام عن العراق، وتشكل الخليج الصحراوي الذي يقع بين الطرفين الشرقي والغربي للهلال الخصيب، وتسمى الصحراء التي تحيط بالطرف الشرقي(العراق)، أو بادية ما بين النهرين في قسمها الشمالي، وبادية العراق أو السماوة في قسمها الجنوبي، وسطح القسم الجنوبي الغربي من البادية حجري ورملي ويكسوه العشب في الربيع، وتؤلف البادية الشامية العراقية مثلثا كبيرا تركز قاعدته على خليج العقبة، بينما رأسه منطقة حلب في الشمال، وقد تاجر سكانها الرحل مع سكان الحضر على جانبيها، وعملوا كوسطاء وأدلاء ورؤساء قوافل، وبنوا في القدم مدنا مثل تدمر الواقعة على الطريق بين الشرق والغرب يجتاز البادية⁽²⁾.

أرمنية: صقع واسع، يمتد إلى جبال القبق أو القوقاز والبحر الأسود شمالا، وبعض الجزيرة جنوبا، وبحر قزوين وهضبة أذربيجان شرقا، وآسيا الصغرى والجزيرة غربا، ويشمل الأراضي الجبلية التي تخترقها أنهر عظيمة: كدجلة والفرات في الجنوب، والكر والرس في الشمال، كان يسكنه شعب آسيوي يعرف بالأرمن، كما كانت تعيش هناك جماعات يهودية ومجوسية، وبسبب موقعها في نقاط التماس في الصراع الفارسي-البيزنطي ثم الإسلامي-البيزنطي، فقد تصارعت عليها شعوب كثيرة منذ القدم⁽³⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 176

(2) نفسه

(3) تصارع عليها السلوقيون، والرومان، والبيزنطيون من ناحية، والدول الإيرانية من ناحية أخرى، ويبدو أن فرعا من أسرة الأرشكانيين الفارسية تملك عليها لمدة أربعة قرون، ثم سيطر الساسانيون على جزء كبير منها، بعد ذلك استولى البيزنطيون على الأجزاء المجاورة لهم، وكان ظهور الخزر في المناطق الشمالية المجاورة لأرمنية، سببا في بناء الفرس قلاعاً من الحجارة عرفت بالأبواب لمنع غاراتهم، أنظر: ماجد عبد المنعم، المرجع السابق، ص 246-248

واستطاع البيزنطيون ضم معظم أرمينية في عهد هرقل، لكن تمرد الأرمن عليهم نتيجة الاختلاف في المذهب الديني، وبسبب طمع جيرانها، وطبيعة أرضها، فقد قسمت أرمينية إلى أرمينيتين الكبرى والصغرى، أو الداخلة والخارجة، وكان غزوها من قبل المسلمين أمراً ضرورياً لتأمين حدود دولتهم في الجزيرة والشام، خاصة بعد فتح بلاد الجزيرة وأذربيجان، ولتضييق الخناق على دولة الروم بآسيا الصغرى⁽¹⁾.

يقول لسترنج⁽²⁾: «إن إقليم الران، وشروان، وجورجيا(الكرج)، وأرمينية -وهي في جملتها شمالي نهر الرس- كان يصعب عدها من ديار الإسلام، لأنّ أغلب أهلها ظلوا على نصرانيتهم حتى نهاية العصور الوسطى، وظلت كذلك حتى حل المسلمون ثانية عقب الفتح المغولي».

هـ- بلاد الروم: عرفنا كيف أنّ المسلمين درجوا على إطلاق لفظة الروم على الإمبراطورية البيزنطية، الواقعة على حدود بلاد الشام ناحية الشمال، فقد كانوا يسمون أقاليم الدولة البيزنطية في جملتها بلاد الروم، ولفظ الرومي أو الروماني في العصور الإسلامية الأولى ترادف عندهم النصراني، سواء كان من اليونان أم اللاتين، وصارت لفظة الروم بمرور الأيام اسماً لأقرب الأقاليم النصرانية من بلاد الإسلام، ومن ثم صار الروم اسماً لآسيا الصغرى⁽³⁾.

وأنّ الحدود بين بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس كانت تتألف من سلسلتين طوروس وطوروس الداخلية، وأنّ هناك دروب كثيرة تقطع جبال طوروس، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص⁽⁴⁾، وذكر ابن خردادبة⁽⁵⁾ الطرق بين الدولة الإسلامية وبلاد الروم وعدّد بنودها، وعرض لشيء من نظمها المالية والعسكرية، كما ذكر المسعودي⁽⁶⁾ البنود الرومية مما يلي الثغور الشامية والجزيرة.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 191

(2) المرجع السابق، ص 211

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 70

(4) كي لسترنج، المرجع السابق، ص 165، 166

(5) المسالك والممالك، ص 10

(6) مروج الذهب، ج 1، ص 191 - 210

و- جزر بحر الروم: لها أهميتها بالنسبة لإقليم الثغور، حيث تعتبر القريبة من الساحل قواعد بحرية للأسطول العربي تدعم الأسطول البري.

يقول قدامة⁽¹⁾: «والغزاة إذا عزموا عليها، كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له بالتجمع بجزيرة قبرص، والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية». «الشامية».

ذكر ابن خرداذبة⁽²⁾: «أنه في بحر الروم مائة واثنان وسبعون جزيرة، كان جميعها عامر فأخرب المسلمون أكثرها بالمغازي إليها، منها خمسة عظمى وهي: قبرص، اقریطش، وصقلية، وسرتانية، وجزيرة يابس حيال الأندلس».

أمّا ابن رسته⁽³⁾ فيكتفي بمائة واثنين وستين جزيرة عامرة، منها خمس جزائر عظام، وهي: سردانية، صقلية، اقریطية، قوابرص، وأصغرهما قورنص.

ويشير الاضطخري⁽⁴⁾ إلى الدور التجاري والحربي لبحر الروم وأهميته، فيقول: «وليس في البحار أحسن حاشية من هذا البحر، فان العمارات ممتدة في الجانبين ممتدة غير منقطعة، وتتردد فيه سفن المسلمين والروم يعبر كل فريق إلى الجانب الآخر فيغنمون، وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم في السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك فيكون حربهم في الماء، وقد جعلت في هذه الجزر حاميات».

وكانت العمليات الحربية في الجزر البعيدة عن الشام كصقلية تؤثر على قوة البيزنطيين الرئيسية في مقر دارهم، وتعطي لحملات الثغور فرصة سانحة لمهاجمة الروم.

أرواد: هي الجزيرة الوحيدة المأهولة على الساحل السوري، تبعد حوالي 3 كلم عن الشاطئ، كان لها قسم آخر على الشاطئ هو مدينة عمريت وتبعد حوالي 3 كلم جنوب طرسوس، كانت ملجأً للسكان عند الخطر يهتمون بأسوار قلعتها، بينما كان القسم البري للتجارة مع البلاد المجاورة، كان

(1) ملحق بابن خرداذبة، ص 255

(2) المسالك والممالك، ص 231

(3) الأعلام النفيسة، ص 85

(4) المسالك والممالك، ص 51

أهلها يحترفون القرصنة⁽¹⁾، وهناك من يرى أنّها تسمية ثانية لجزيرة رودس التي جرى فتحها سنة 54هـ/674م⁽²⁾.

قبرص: جزيرة في بحر الروم، ذكر البكري⁽³⁾ أنّها سميت كذلك نسبة لمدينة تسمى قبرو، وكانت معظمة منذ القديم للوثن المسمى فانوس وهو على اسم ذو الزهرة، أهلها موصوفون بالغناء والجدّة وبها معدن النحاس، ومنه بزغت الحضارات في الحوض الشرقي للبحر.

وتعتبر الجزيرة بحكم موقعها في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر فهي تتحكم في مياه تلك المنطقة، ويمكن رؤيتها بالعين المجردة من آسيا الصغرى، ويقترّب طرفها الشرقي من خليج الاسكندرونة الذي يقع خلفه الممر الجبلي الهام الممتد من ساحل البحر إلى شمال العراق، وهو من أهم طرق التجارة صوب أسواق بحر الروم⁽⁴⁾.

رودس: جزيرة مقابل الإسكندرية على ليلة منها في البحر⁽⁵⁾، كانت داراً لصناعة الروم، ومنها يشنون حملاتهم وغاراتهم، وهي أول حلقات سلسلة أرخبيل بحر ايجة من ناحية الشرق، تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي على بعد 12 ميل (19.3 كلم) تقريبا من ساحل آسيا الصغرى، هيأها هذا الموقع لأن تكون خطراً على إقليم الثغور والعواصم في أطراف الشام الشمالية المتاخمة للحدود، أسس بها المسلمون رباطاً يدافعون منه على الشام⁽⁶⁾.

(1) ذكرت باسم أَرادوس عند اليونان والرومان *Aradus*، وبالفيينية أَرواد أي الملجأ، أسسها الفيينييون سكان صيدا أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، حررها معاوية سنة 19-20هـ/640م، تبادل المسلمون والبيزنطيون السيطرة عليها حتى استعادها المسلمون نهائياً سنة 703هـ/1303م، أنظر: فاطمة جود الله، سوريا نبع الحضارة، دار الحصاد، ط1، دمشق، 1999، ص144-146

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ص207

(3) أبو عبيد الله، المسالك والممالك، تح: أدريان فان ليوفن، أندري فيري، الدار العربية للكتاب، ط3، (د،م)، 1992، ج1، ص481

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص208

(5) نفسه

(6) العدوي، المرجع السابق، ص90، 91

وخير وصف لجغرافية الدروب، ما نقله لنا الواقدي⁽¹⁾ على لسان أحد المجاهدين في غزوة مرج القبائل داخل الدروب: «بلاد شديدة البرد، كثيرة الشجر والمدر -قطع الطين والحجر-، فيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات، مضايق ليس للفرس فيها مجال».

والواقع أن البرودة كانت غاية في القسوة أحيانا في منطقة الثغور، حتى أنه في سنة 175هـ/791م «أصابهم برد قطع أيديهم وأرجلهم» رغم أنها كانت صائفة، وفي سنة 266هـ/879م خرج المسلمون لملاقاة الروم في برد ووقت لا يمكن الناس فيه دخول الدروب، كما تعرضت منطقة الثغور أحيانا للزلازل المدمرة كما حدث في سنوات 187هـ/803م و245هـ/859م⁽²⁾.

(1) فتوح الشام، ج2، ص6

(2) أنظر: الطبري، تاريخه، ج8، ص241- ج9، ص553- ج8، ص302

الفصل الثاني

عوامل نمو النشاط الاقتصادي

المبحث الأول: الظروف الطبيعية

المبحث الثاني: إدارة الثغور

المبحث الثالث: السياسة الإسلامية-البيزنطية

المبحث الرابع: العوامل الأمنية

المبحث الخامس: الحروب والمعارك

اتخذ المسلمون على مدى حدودهم مع بيزنطة سلسلة من القلاع والحصون، حيث لم يكن اختيار تلك المواقع الثغرية البرية منها والبحرية اختياراً عشوائياً بحتاً، بل فرضته ظروف كثيرة لعب العامل الاقتصادي فيها الدور الكبير⁽¹⁾.

فرغم أن حياة الناس بالمنطقة كانت حربية أكثر منها اقتصادية، وعماد ثروتها القوة لا الصناعة، إلا أن إقامة قوات ثابتة تدافع عن تلك المناطق، كان لابد لها من توفر موارد ثابتة للإعاشة، سواء من ناحية المأكل أو المشرب أو التسليح⁽²⁾، أو بعبارة أخرى امتلاكها لمصادر الثروة؛ من خلال كسب المال الذي يقوم أساساً على الزراعة والصناعة والتجارة.

فالاقتصاد هو عصب الحياة، وهو الدعامة الأولى للمعركة، ويعدّ التخطيط والتعبئة الركبان الأساسيان للحروب الطويلة والشاقة بالمنطقة، فالتعبئة تعني إعداد كل الموارد لمعاونة الجهد العسكري، فهي عملية ضخمة تُنظَّم فيها الموارد الإنتاجية، وتُوجَّه لتدعيم الجهد الرئيسي للحرب، أي وضع النظام الاقتصادي كدريف للقوات المسلحة، أما في نطاق العلم العسكري فتبقى هي عملية الإمداد والتموين في كل صورته، ومن ثم الاهتمام بالنقل والإسكان والإمداد⁽³⁾.

فعند القيام بأي حرب كان يسبقها استعداد اقتصادي شامل لتحقيق التعبئة أهدافها، والمتمثلة في: قمع العدو، والمقاومة، والصمود، وتوجيه الضربات له، ولتحقيق ذلك فإنه يحدث مقارنة عملية وموضوعية ما بين الموارد الإنتاجية، ومتطلبات الحاجة إليها، كي تصل التعبئة العامة إلى درجة تستطيع تحقيق أهدافها السياسية، أما التخطيط؛ فهو تحديد عمل المستقبل ورسم سياسته، وهو وسيلة تتضمن الاستخدام الأفضل للموارد بطرق صحيحة وعملية وعلمية، ويهدف إلى بناء اقتصاد قويم ومتين يتفق مع النظم الاجتماعية التي تدير عليها الدولة⁽⁴⁾.

(1) أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، دار دمشق، ط3، دمشق، 1994، ص328، 329

(2) الجنزوري، المرجع السابق، ص161

(3) أحمد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص38

(4) نفسه، ص38، 39

أما عن الأوضاع الاقتصادية بمنطقة الثغور، فمن المعلوم أنها قد تأثرت بالوضع العام للمنطقة، التي كان يغلب عليها الطابع العسكري، فقد كانت تدين في بقائها إلى موقعها في تلك المنطقة الوعرة من الحدود، فعندما انهمكت الخلافة العباسية بمشاكلها الداخلية، أهمل الخلفاء تدعيم الثغور عسكرياً ومالياً وتركوها لمصيرها، فلولا أنها لم تعتمد على إمكاناتها المحلية للدفاع عن نفسها، لكانت لم تستطع الاستمرار في المقاومة لفترات زمنية طويلة⁽¹⁾.

وقد أثرت مجموعة من العوامل في النشاط الاقتصادي بمنطقة الثغور والعواصم؛ منها الطبيعة من: موقع، ومناخ، وتوفر مصادر المياه، وتأثير الكوارث الطبيعية على الأسعار عامة، وعوامل إدارية؛ تتلخص في اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية بالثغور، من خلال بنائها، وتحصينها، وشحنها بالرجال، وتوفير الأيدي العاملة بها، وتأثير ذلك على العمل أو الاقتصاد.

وأخرى سياسية تتجلى في؛ تبادل السيطرة على ثغور الدولتين الإسلامية والبيزنطية، وما كان لهذا الإقليم خلال الفترة المدروسة من نشاط سياسي كبير، سواء من ناحية الصراعات السياسية بين الأمويين والعباسيين، والثورات الأموية، أو مواطن لثورات الطامعين في الخلافة والخارجين عنها، وأثر ذلك على استقرار المنطقة، واستقرار الدولة ككل.

وعوامل عسكرية تظهر جلياً من خلال؛ التقنية العسكرية، وتدريب الجيوش، وطريقة تحريكهم، وحماية الجبهة الداخلية، إضافة إلى الحرب النفسية، والمتأمل في ذلك يدرك أن نفقات الجانب العسكري أصبحت عامل إقبال لكاهل بيت المال في الدولة من خلال كثرة الإنفاق، فقد كان إيراد مناطق الثغور تافهاً إذا قورن بنفقات الدفاع عنها.

بالإضافة إلى العوامل الأمنية، باعتبار منطقة الثغور والعواصم منطقة حدودية، وطبيعة الحياة بها استوجبت الاستفادة منها ومن سكانها في العمل الأمني، وتوظيف التجار لنفس الغرض، وخلق نقاط الاستطلاع المتقدم، كما لا يفوتنا ذكر العوامل الدينية والحضارية والثقافية، وما كان له من تأثير على

(1) محمد العبد الغني، المقال السابق، ص(11-59)

الجانب الاقتصادي بصفة عامة، وسنأتي إلى ذكر هذه العوامل على النحو التالي:

المبحث الأول: الظروف الطبيعية وأثرها على النشاط الاقتصادي

1-الموقع: دارت رحى المعارك بين المسلمين والبيزنطيين في الشام، في جهات حددتها جغرافية الإقليم، إذ تمتاز تضاريسه بتتابع؛ من أرض منخفضة، وأخرى مرتفعة تمتد متوازية من الشمال إلى الجنوب مع ميل نحو الشرق، فالساحل، تليه أرض جبلية، ثم وديان الأردن، وأخيرا المنطقة المتصلة بالصحراء، وقد بدأ المسلمون فتوحاتهم في المنطقة الأخيرة، حيث ينتهي الشريان التجاري القديم، بينما تأخر استلاؤهم على المنطقة الساحلية التي كانت محلّ اهتمام البيزنطيين⁽¹⁾.

ومن هنا فمصطلح المكان يبين الصفات الطبيعية للأرض، من حيث الانحدار والارتفاع والانخفاض، في حين يصف مصطلح الموقع تموضعها بالنسبة للدول، والمظاهر الجغرافية؛ كالبحار والأنهار والجبال، وللموقع الجغرافي علاقة كبيرة بالسياسة الدفاعية أو الهجومية التي تتبعها الدول، فالموقع إما أن يكون متوسطا يُسهّل عملية الاتصال، أو هامشيا بعيدا يعرقل ذلك، وهو ذو أهمية كبيرة في أوقات الحرب والسلم، حيث تعتمد كثير من أنشطة الدول وسلوكها اعتمادا كبيرا على موقعها الجغرافي، فتزدهر الدول التي تحتل موقعا جغرافيا متوسطا اقتصاديا في أوقات السلم من خلال سيطرتها على طرق التجارة، في حين تستغل تلك الدول موقعها الجغرافي في أوقات الحرب لغايات السيطرة والتفوق العسكري⁽²⁾.

أما بالنسبة للمواقع الثغرية على أطراف بلاد المسلمين، فلم يكن اختيارها اختيارا عشوائيا، فقد حكمتها ظروف كثيرة، لعب العامل الاقتصادي فيها دورا كبيرا، فغالبية القلاع كانت تتمتع بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة مياهها من الأنهار أو الأمطار، وكان يعدّ بعضها

(1) يظهر تأثير الظروف الجغرافية في توزيع القادة على مناطق الشام، التي حددها الخليفة عمر بن الخطاب (رضه)، وهي جند فلسطين، وجند الأردن، وجند دمشق، وجند حمص، وجند قنسرين، ثم جند الثغور والعواصم فيما بعد، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص286

(2) أبو أسعد الأثري، أثر الجغرافيا في العمل العسكري "مقتطف من كتاب الجغرافية العسكرية"، منير التوحيد والجهاد، (د،ط)، (د،ت)، 2005، ج1، ص5

مركزا تجاريا هاما، ومن المعلوم أن المسلمين قد أقاموا هذه المدن على أبواب الطرق المتحكمة في أماكن اقتراب العدو، مراعين في ذلك أن تكون بعيدة عن البحار، قريبة من الصحراء، محصنة بالأشجار، ومنعطفات الجبال، وغيرها من الموانع الطبيعية⁽¹⁾.

ولعل هذه المناطق قد أثرت في الحياة الاقتصادية بشكل واضح، فقد كان قيام جبال طوروس بممراتها المحدودة على الحدود، ظرفا طبيعيا ساعد على تكييف الدفاع وتأسيس المدن على نحو معين، فإذا تأملنا الخط الدفاعي على امتداد جبال طوروس من الفرات إلى حدود قيليقية، فإننا نجد مدينة ملطية عند إلتقاء كثير من الطرق الكبرى المؤدية من سبسطية وقيصرية إلى أرمينية، وعلى الطريق من ملطية مرعش عبر جبال طوروس نجد قلعتي زطرة والحدث اللتين كثيرا ما تعرضتا لهجوم الروم، وقد قام الرشيد بتحسين مرعش وعين زربي، وابتنى قلعتي الكنسية والهارونية بينهما في منطقة التلال التي يجتازها نهر جيحان الأعلى⁽²⁾.

وكان الخط من ملطية إلى عين زربة يمثل تحصينات الدفاع عن الجزيرة، بينما حصنت الشام بخط آخر كانت مراكزه الرئيسية في المصيصة وأذنة وطرطوس، وعندما كان الطريق الساحلي يبرز من الأبواب القيليقية ويطوف حول خليج أسوس *Isus*، كان يتحول بعد ذلك البر متجها إلى المصيصة، ومنها يسير غربا إلى طرسوس، مارا بأذنة التي يدخلها عن طريق القنطرة القديمة التي شيدها جستنيان على نهر سارس *sarus*، ومن بين ممرات جبال طوروس اشتهرت الأبواب القيليقية، التي استخدمها البيزنطيون والمسلمون في حروبهم، ثم الممر الذي يصل بين مرعش وعربسوس *Arabissos*⁽³⁾.

وكان ممر الأبواب القيليقية يبدأ من النقطة التي ترتفع فيها الهضبة الوسطى لآسيا الصغرى في درب طوانة *Tyana*، إلى النقطة التي تنتهي عندها السفوح الجنوبية لطوروس في سهل قيليقية، وعند نهاية هذا الممر من الشمال توجد قمة منعزلة شاهقة تتحكم في منطقة واسعة من سهول كبادوكيا الجنوبية

(1) الجنزوري، المرجع السابق، ص 161

(2) فتحى عثمان، المرجع السابق، ج 1، ص 286

(3) نفسه، ص 287

ومنحدرات طوروس الشمالية، وعلى هذا العلو الشاهق المنيع كانت قلعة اللؤلؤة *Lulon* التي تداولتها أيدي المسلمين والبيزنطيين، وكانت مفتاح الأبواب القليقية، ويقول عنها بيوري⁽¹⁾: «أنه عندما كانت في أيدي الروم، كان من العسير على جيش عربي أن يغزو كبادوكيا، وعندما كان يستولي عليها العرب لم يكن في وسع جيش امبراطوري أن يخاطر باقتحام منافذ الممر الضيقة».

وكان الطريق الشمالي إلى طوانة، والطريق الغربي إلى هرقله يلتقيان بجوارها، كذلك يصعد طريق البذندون وهو يجتاز بعدها وديانا، ومنحدرات ضيقة إلى نهايته، وتتحكم فيه من الجانب الشرقي على ارتفاع شاهق، قلعة محكمة البناء من الحجر الأسود تسمى حصن الصقالبة، وهكذا كانت طبيعة ممرات جبال طوروس تحدد مواقع معينة يمكن عندها التحكم في المسالك، ويبرز بيوري⁽²⁾ استراتيجية أحد هذه المنافذ الجبلية وهو المسمى الأبواب القليقية، والذي أعطى اسمه للممر المسمى به، وقد حرص المسلمون وقت ازدهار دولتهم واشتداد قوتهم على السيطرة على البذندون وحصن لؤلؤة، والذي كانت أيدي المسلمين والبيزنطيين قد تداولته.

فسهل قليقية يمثل وحدة جغرافية مميزة، تفصله عن بلاد المسلمين في شمال الشام جبال الأمانوس، وعن إقليم الدولة البيزنطية في الشمال جبال طوروس وهو سهل خصب وغني، ولذلك ازدهرت فيه عدد من المدن أصبحت مراكز تجارية بالإضافة إلى كونها عسكرية بسبب موقعها، كالمصيصة وأذنة وطرسوس والهارونية والكنسية السوداء وغيرها⁽³⁾.

كما احتل بعضها مواقع استراتيجية باعتبارها نقاط اتصال بين عدة طرق، وخير مثال على ذلك؛ نذكر ملطية التي كانت بفضل موقعها مفتاح الطريق للجيوش الإسلامية القادمة من الشرق والمتجهة لآسيا الصغرى، والبيزنطية القادمة من الغرب، وقد تحدث الجغرافيون عن خصوبة المنطقة المحيطة بها⁽⁴⁾.

(1) *Bury, op-cit, pp 244,245*

(2) *ibid, p 224*

(3) الجنزوري، المرجع السابق، ص 103

(4) نفسه

فقد اشتهرت بلاد قيليقية برقي زراعتها، ووفرة غلاتها وصادراتها، وقوة حركتها التجارية؛ فأذنة تحيط بها البساتين وتمتد أحيائها على ضفتي نهر سيحان، وكذلك طرسوس، وأما المصيصة فبنيت وسط سهل فسيح على الشاطئ الغربي من نهر جيحان بها بساتين كثيرة تسقى منه، وغيرها من المدن⁽¹⁾. وإلى الشرق من سهل قيليقية غلب على المنطقة الطابع الجبلي، ما جعل بعض الثغور الممتدة في الأودية أكثر عزلة وعرضة للمخاطر؛ كمرعش التي تقع عند الطرف الجنوبي لطرف الجبل، وكانت المراعي الخصبة التي هيأتها لها السهول تحيط بها وهو ما أثر في اقتصادها⁽²⁾. وتحدث الإدريسي⁽³⁾ عن أسواق مرعش وغيرها من المدن، موضحاً أن تلك المدن ليست سوى مراكز عسكرية وتجارية في الوقت نفسه، وعليه فقد كانت هذه الثغور جميعها تقع في السهول الخصبة بجوار الأنهار وروادفهما.

2- المناخ: يأتي عامل المناخ في مقدمة العوامل التي تؤثر في الاقتصاد بوجه عام، والزراعة بوجه خاص، فدرجة الحرارة تؤثر في نوع المحصول وفترة انتاجه، واختلاف كميات الأمطار ونظام سقوطها يتطلب التوفيق بينه وبين الاحتياجات المائية للمحاصيل المختلفة والتي يمكن انتاجها في هذه الظروف، فدراسة المناخ بتحديد فترات الجفاف والصقيع، ترشد إلى أنسب الأوقات للبذر أو جمع المحاصيل، وتنبؤها عن المطول تهدي إلى أفضل الأوقات للحث أو التسميد، فالحرارة والأمطار والضوء عناصر حيوية لازمة لنمو النبات، كما أن الرطوبة والتربة والضوء والرياح لها أيضاً أثرها على ذلك⁽⁴⁾.

وقد أدى الموقع الجغرافي لمنطقة الثغور وطبيعة تضاريسها، إلى تباين واضح في نماذج المناخ، إذ تتباين التضاريس الطبيعية بين ارتفاع شاهق قرب سطح البحر، إلى انخفاض كبير خلف الجبال، يمتد عبر بلاد الشام من العمق حتى البحر الميت، إلى الصحراء القريبة نسبياً من البحر، الأمر الذي سبب

(1) أحمد وصفي زكريا، المرجع السابق، ص 36-39

(2) محمد العبد الغني، المقال السابق، ص 11-59

(3) نزهة المشتاق، ص 644-652

(4) نحدث خماش، الشام في صدر الإسلام «من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية»، دار طلاس، ط1، دمشق، 1987،

تعدد المناخات في مساحة قليلة العرض⁽¹⁾.

ومع ذلك فإن مظاهر المناخ المتوسطي تبقى هي السائدة في بلاد الشام⁽²⁾، إلى جانب الخصائص المناخية القارية في الداخل والبحرية في منطقة الساحل، إضافة إلى وجود نظام ثالث في السلاسل الجبلية الساحلية، يتصف بانخفاض حرارته وغزارة أمطاره، الأمر الذي أدى إلى تعدد المناخات⁽³⁾، ومن طبيعة جغرافية منطقة الثغور، يمكن تمييز العديد من النماذج المناخية المشتقة من مناخ البحر المتوسط ومنها⁽⁴⁾:

النموذج المناخي	كمية الأمطار
الساحلي	700-800 ملم
الساحلي الجبلي	1000-1500 ملم
الجبلي الهضبي	350-600 ملم
شبه الجاف	200-500 ملم
الجاف الصحراوي	أقل من 200 ملم

وتتمتع الثغور الشامية البحرية، بأفضل مميزات مناخ البحر المتوسط؛ إذ يكون معدل المطر في الإسكندرونة 1000 ملم، وتتناقص كميته في الجنوب فتبلغ في يافا 550 ملم، لتصل الحد الأدنى عند رفح وهو أقل من 200 ملم، وهناك بعض الاختلاف في أوقات سقوطه بين الشمال والجنوب، إذ تصل نسبة المطر في الشمال صيفا إلى 6%، بينما في الجنوب نادرا في الصيف ولا يتعدى 1/6 % من المعدل السنوي للمطر⁽⁵⁾.

(1) عبد السلام عادل، جغرافية سورية طبيعية بشرية اقتصادية، (د،د،ن)، (د،ط)، دمشق، 1973، ج1، ص262

(2) كين، تطور الزراعة في الشرق الأوسط، تر: أمين نظيف، مكتبة النهضة المصرية، (د،ط)، القاهرة، 1949، ص12

(3) حسين فالخ، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير عبر منشورة)، الجامعة الأردنية، 1978، ص29، 30

(4) عبد السلام عادل، المرجع السابق، ص250-262

(5) حسين فالخ، المرجع السابق، ص30

ويمتاز الشتاء باعتدال في الحرارة وبأمطاره الوفيرة نسبياً، وصيفه الحار المعتدل على رطوبة زائدة، ويتكرر تساقط الثلوج عدة مرات، ونادراً ما يحدث الصقيع في السهول، ومع هذا تسقط الثلوج في بيروت وحيثاً مرة كل عشرة أو عشرين سنة، وأبرد الفترات هي أواخر شهر جانفي وفيفري، حيث المعدل الشهري لدرجة الحرارة 12-14م⁽¹⁾.

ويعتبر شهر أوت من أكثر الأشهر حرارة في المنطقة، وخاصة في الإسكندرونة 28° وبيروت 29° ويفا 27° وغزة 26°، ويرجع هذا إلى دور الحواجز الجبلية المرتفعة جداً في الشمال التي تلعب دور الحاجز للحرارة⁽²⁾.

ويسود المرتفعات الجبلية العالية المناخ الجبلي، إذ يزيد معدل التساقط عن 1000 ملم، ويكون شتاءه بارداً جداً، وربما وصلت درجة الحرارة إلى 12م°، أما الصيف فإنه يكون معتدلاً، ويسود مناخ السهوب الهضي-الجبلي في المنطقة الواقعة بين المرتفعات الجبلية والصحراء، وتكون الأمطار كافية للزراعة البعلية⁽³⁾.

ويسود إقليم الثغور الجزرية بشكل عام المناخ المتوسطي، حيث الشتاء البارد الماطر والصيف الحار الجاف، والمناخ يتدرج من الشمال إلى الجنوب من الساحلي الرطب إلى الصحراوي شديد الحرارة والجفاف⁽⁴⁾، وقد تناول المقدسي⁽⁵⁾ طبيعة المناخ في الجزيرة بقوله: «أما هواء هذا الإقليم فمقاربة للشام»، ثم يمضي قائلاً: «وبه مواضع حارة- ولعله يريد بذلك المناطق شبه الجبلية التي تتمتع بمناخ صحراوي-، أما المناطق الجبلية التي يقرب مناخها من مناخ الشام، فهي كورة آمد لقربها من الجبال، وتقع في المنطقة الجبلية الشمالية الشرقية من الجزيرة.

(1) حسين فالح، المرجع السابق، ص 23

(2) نهي محمد حسين مكاحلة، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة اليرموك، العراق، 1992، ص 29

(3) حسين فالح، المرجع السابق، ص 24-30

(4) شيرين سليم حمودي، المرجع السابق، ص 31

(5) أحسن التقاسيم، ص 142

وتشكل الجبال في شمال الجزيرة في أرمينية خزانا ضخما للمياه بسبب الثلوج التي تتراكم عليها شتاءً، وتأخذ بالذوبان في أوائل فصل الربيع، فتمد الأنهار بمعين لا ينضب من المياه العذبة وتزيد في منسوبه طوال العام⁽¹⁾.

أ- الأمطار: يعدّ عنصر الأمطار كافيا من حيث الكمية في المنطقة، على الرغم من التباين الكبير بين الشمال والجنوب، حيث تتناقص كمية التساقط كلما اتجهنا جنوبا، أما في الشمال فالمعدل السنوي يصل إلى 6% في الصيف⁽²⁾، ويرتبط سقوط الأمطار في بلاد الشام عموما، بالمنخفضات الجوية والكتل الهوائية، فالرياح الغربية التي تمر ببحر الشام تكون محملة بالرطوبة، وتقابل جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى، فترتفع بارتفاع الهواء ويتمدد مما يتسبب في سقوطها، وهو تعلق كثرة التساقط على الغرب وتناقصه كلما اتجهنا شرقا أو جنوبا⁽³⁾.

وهذا لا يعني أن الكتل الهوائية القادمة من الغرب تجلب المطر، بل لا بد من توافر شروط أخرى؛ منها أن يوافق وصول هذه الرياح والكتل الهوائية المحملة بالرطوبة حلول الفصل البارد، بسبب هطول المطر في الشتاء⁽⁴⁾.

أما المنخفضات الجوية التي تأتي إلى بلاد الشام من الغرب والشمال، والتي تبدأ في شهر نوفمبر وتبلغ عنفوانها في شهر ديسمبر وجانفي وفيفري، فتجلب معها الرطوبة والأمطار شتاءً، ويبلغ عددها وسطيا 26 منخفضا في السنة، فإذا انخفض عددها فوق الأراضي الشامية أو تأخر مرورها فإن ذلك يؤثر على تساقط المطر، ومن ثم يؤثر تأثيرا خطيرا على الزراعة⁽⁵⁾.

(1) فؤاد عبد الرحيم الدويكات، الأحوال الزراعية في إقليم الجزيرة الفراتية في العصر الأموي 132-749هـ / 41-660م، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع1، م7، الأردن، 2013، ص(1-24)

(2) كندور، وج، مناخ القارات، تر: حسن طه، مطبعة الحكومة، (د،ط)، بغداد، 1967، ج1، ص345

(3) محمد صبحي عبد الحكيم، الوطن العربي أرضه وسكانه وموارده، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، القاهرة، 1979، ص76

(4) حسين فالج، المرجع السابق، ص24

(5) خير صفوح، غوطة دمشق "دراسة في الجغرافية الزراعية"، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، (د،ط)، دمشق،

أما بالنسبة إلى توزيع الأمطار فإنّ سقوطها يكون غزيراً في المناطق الساحلية والجبلية المقابلة للبحر، في حين تحجب جبال اللكام وجبال لبنان الغربية الرياح الرطبة القادمة من الغرب عن المناطق الواقعة إلى الشرق منها مما يجعل نصيبها من الأمطار قليلاً، وأفضل الأمطار ما سقطت في فترات متباعدة نسبياً خلال الموسم، على أن تكون في كل مرة كافية لري الأراضي حتى المرة التي تليها⁽¹⁾، أمّا سقوطها دفعة واحدة فإنّه يقلل من أهميتها حتى لو كان غزيراً جداً، لذا وجب أن تسقط مبكرة في أكتوبر ويستمر سقوطها على فترات حتى أواخر شهر مارس⁽²⁾.

وهكذا نجد أنّ الأمطار تحتل المكانة الأولى بين عناصر المناخ، وأن أيام الشح تظهر لنا مدى أهميتها في حياة البلاد الاقتصادية، فأنحباس المطر يشيع القلق عند جميع السكان، ويشترك في دعاء الاستسقاء الجميع دون تمييز في الدين أو المذهب⁽³⁾.

أما منطقة الجزيرة، فأمطارها تكون غزيرة في المرتفعات الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية وحتى في بعض السهول والمنحدرات الواقعة بين السلاسل الجبلية وقليلة في البادية⁽⁴⁾، وهناك مناطق واسعة من المنطقة اعتمدت كلياً على مياه الأمطار وهي تتساقط في فصلي الشتاء والربيع، وقليلاً ما تسقط الثلوج في المنطقة، أي أن معدل الهطول ينخفض من الشمال إلى الجنوب⁽⁵⁾.

ب- الحرارة: بالنسبة لعنصر الحرارة، يلاحظ أن الفروق الحرارية في المنطقة عموماً كبيرة بين الصيف والشتاء، فدرجة الحرارة الوسطية تنخفض في شهر جانفي في الساحل والداخل والجبال، بينما ترتفع كثيراً في الصيف عما كانت عليه شتاء في كل المناطق⁽⁶⁾.

حيث يعبر المقدسي⁽⁷⁾ عن هذه الفروق فيقول: «هو إقليم متوسط الهواء، إلا في وسطه من الشراة

(1) كرد علي، غوطة دمشق، مطبعة الترقى، ط2، دمشق، 1952، ص39

(2) كندور، المرجع السابق، ج1، ص346

(3) خير صفوح، المرجع السابق، ص28

(4) فؤاد عبد الرحيم الدويكات، المقال السابق، ص(1-24)

(5) أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص183، 184 - شيرين سليم حمودي، المرجع السابق، ص32

(6) حسين فالخ، المرجع السابق، ص23

(7) أحسن التقاسيم، ص179

إلى الحولة، فإنه بلد الحر والنيل والموز والنخيل، وأشد هذا الإقليم بردا بعلبك وما حولها. أما إقليم الجزيرة فيعرض لتقلبات كثيرة في درجات الحرارة، وذلك للفرق الكبير الذي تشهده المنطقة بين فصلي الصيف والشتاء، حيث تعرف ارتفاعا كبيرا في الصيف لاسيما في الأقسام الجنوبية، بينما تنخفض وبدرجة كبيرة في فصل الشتاء، وهذا الفارق الكبير يسبب حوث العديد من الكوارث الطبيعية، فينتج عن انخفاض درجات الحرارة إلى مادون الصفر-لا سيما في المناطق الشمالية- حدوث صقيع يغطي أجزاء واسعة من هذا القسم ليشمل المسطحات المائية محدثا بذلك تهديدا حقيقيا لأشكال الحياة، حيث شهدت المنطقة سنة 131هـ/749م حدوث صقيع حتى أن الأمهار الكبيرة تجمدت وصار من الممكن العبور عليها فماتت الأسماك وتجمعت أكاداسها على الشواطئ⁽¹⁾.

ج- الرياح: تحمل الرياح صفات وخصائص الجهات القادمة منها، ومن جانب آخر فهي تختلف من سنة إلى أخرى، ولا يقتصر هبوبها وما تحمله من خصائص وصفات لفصل معين، إذ أن أحوال الطقس تتأثر بسمات المناخ، والمعروف عن مناخ الجزيرة أنه شديد التطرف في بعض السنوات، كما تهب عليها الرياح من جميع الاتجاهات: الغربية، والجنوبية الغربية الرطبة، والشمالية الباردة، والرياح الشرقية الجافة، وتعرض المنطقة للعواصف الترابية في فصل الصيف⁽²⁾.

أما بالنسبة إلى الرياح الغالبة على بلاد الشام عموما، فالمنطقة واقعة بين منطقة الرياح التجارية الجافة التي تهب على الجزء الجنوبي من الشام، ومنطقة الرياح الغربية المحملة بالرطوبة التي تهب على الجزء الشمالي من الشمال مسببة الأمطار⁽³⁾.

أما في فصل الصيف فتسود الرياح التجارية الجافة التي تجعل الهواء حارا بعض الشيء، فالرياح الغربية التي تمر بالبحر تكون محملة بالرطوبة وتقابل جبال لبنان ومنطقة التلال الوسطى فتترفع،

(1) ميخائيل السرياني، تاريخ مار ميخائيل الكبير، تر: مارغريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، ط1، حلب، 1996، ج3، ص252

(2) مجموعة من الباحثين، الرقة درة الفرات، مر: سهيل زكار، تق: نجيب السيد أحمد، (د،د،ن)، (د،ط)، الرقة، 1992، ص22

(3) أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، الأنواء في مواسم العرب، مجلس دائرة المعارف، (د،ط)، الهند، 1956، ص158-

وبارتفاع الهواء يتمدد ما يسبب سقوط الأمطار⁽¹⁾.

3- مصادر المياه: للمياه أهمية كبيرة في حياة الإنسان قديما وحديثا فقد ارتبط بقاؤه بوجودها، وبالقرب من مصادرها قامت الحضارات وازدهرت المدن، وعند الحديث عن مصادر المياه بمنطقة الثغور الشامية والجزرية وجب تسليط الضوء على موارد المياه في بلاد الشام والجزيرة بشكل عام.

فالجزيرة غنية بالمياه السطحية والجوفية وذلك بسبب الجبال الغربية من أرمينيا، والتي تشكل خزاناً للمياه من خلال الثلوج التي تتراكم عليها في الشتاء فتذوب في الربيع وتغذي الأنهار بالماء، أما بلاد الشام فهي تفتقر للمجري الدائمة التي يمكن الاستفادة منها في الري، ولذلك اعتمد أهلها على الأمطار لكونها المصدر الأول والأساسي لري أراضيهم وتقرير مصير المواسم الزراعية فيها، بل أن الأنهار الدائمة الجريان مدينة بدوامها لمعدل سقوط المطر من زيادة أو نقصان، حيث يرتفع منسوبها شتاء ويقل صيفاً، ولسقوط الثلوج وذوبانها من جهة ثانية في الصيف كنهر العاصي، وبردى، والأعوج وغيرها⁽²⁾.

وفيما عداها فإن المجاري المائية في الشام قليلة الأهمية، ومعظمها سيول مؤقتة تمتلئ بالمياه بعد سقوط الأمطار على الجبال الغربية واللكام وتجف صيفاً⁽³⁾، أما مصادر المياه: فهي الأنهار، والينابيع، والعيون، والقنوات، والبحيرات.

1- الجزيرة: اعتمدت الجزيرة إلى جانب الأنهار وروافدها وتفرعاتها على الأمطار كوسيلة مهمة من وسائل الري، وخاصة في المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية، وحتى في بعض السهول والمنحدرات والمناطق الواقعة بين سلاسل الجبال، ولذلك فإن مناطق واسعة اعتمدت اعتماداً كلياً

(1) أحمد رمضان أحمد محمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، (د، د)، (د، ط)، مصر، 1977، ص 118

(2) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 44

(3) عدا النهر الكبير الشمالي جنوب اللاذقية، ونهر السن إلى الجنوب من بانياس، والنهر الكبير الجنوبي الذي يصب في خليج عكا، ونهر الليطاني الذي يخرج من طرف جبل الباروك الشرقي، ويصب في بحر الشام شمال صور، أما نهر الفرات فهو نهر داخلي يشكل الحدود الشرقية لبلاد الشام، ومع أنه عظيم الفائدة في العراق إلا أنه ليس كذلك بالشام، أنظر: نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 25

على مياه الأمطار⁽¹⁾.

وتجري في المنطقة مجموعة من الأنهار، يصب بعضها في الداخل فيروي قسماً من الأراضي التي بقربها، إلا أنّ بعض تلك الأنهار ينتهي به المطاف ليصب خارج بلاد الشام أو في بحيرات داخلية، وبعضها الآخر يصب في بحر الروم، ولعل أهم الأنهار التي تمر في أراضي الجزيرة هي: نهر الفرات⁽²⁾، ودجلة⁽³⁾، ونهر الخابور⁽⁴⁾، الهرماس⁽⁵⁾ (نهر الجعجغ)، ونهر البليخ⁽⁶⁾، والزابين⁽⁷⁾،

(1) سوادى عبد محمد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989، ص197

(2) مخرجه من قليقله ويمر بأرض الروم، وسيتمد من عيون كثيرة، ويصب فيه أرسناس نهر شمشاط، ويجيء إلى كمخ ويجري على ميلين من ملطية، ويجيء إلى جبلتا حتى يبلغ سميساط، فيحمل من هناك السفن والأطواف، ويجيء حتى يبلغ السواد، فتشعب منه أنهار في سواد بغداد ويصب في دجلة، وبعضه يمر في الكوفة فيحترق سوادها ثم يصب في دجلة أيضاً، أما روافده فيذكرها ياقوت في قوله: «ويصب إليه أنهار صغار نحو نهر سنجة، وكيسوم، وديصان، والبليخ، حتى ينتهي إلى قلعة نجم مقابل منبج، ثم يجادي باليس إلى دوسر، إلى الرقة، إلى رحبة مالك، ثم إلى عانة، ثم إلى هيت فيصير أنهاراً تسقي زروع السواد: منها سوراً وهو أكبرها، ونهر الملك وهو نهر صرصر، ونهر عيسى بن علي، وكوثا، ونهر سوق أسد، والمصرة، ونهر كوفة، والفرات العتيق...»، أنظر: ابن خردذابة، المصدر السابق - ابن رسته، المصدر السابق، ص93 - ياقوت الحموي، المعجم، م4، ص241، 242

(3) مخرجه كما يذكر ابن خردذابة من جبال آمد وتمر بجبال السلسلة، وتستمد من عيون كثيرة من نواحي أرمينية ثم تمر ببلد، ومن ثم تحمل السفن والأطواف وتستمد من الزابين والنهروان والصراتين، وتصب في البطائح ثم تصب في البحر الشرقي، أنظر: مسالك الممالك، ص232

(4) مخرجه من رأس العين في أعلى الجزيرة ويستمد من الهرماس ويجري وسط بلاد الجزيرة، ويصب في الفرات عند قرقيسيا، ويستقبل الخابور في يساره مياه نهر ماردين الآتي من رأس العين، ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس الآتي من نصيبين، على أن أكثر مياه هذا النهر كانت تنساب من سكير العباس - وكان فوق ملتقى الهرماس بالخابور - إلى وادي الثرثار فتجتمع بذلك في الخابور مياه ثلاثة أنهار كبيرة، هذا إلى ما ينصب فيه من مياه 300 جدول، أنظر: العمري، المصدر السابق، ج1، ص176-305 - فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص146

(5) مخرجه من طور عبيدين ويصب في الخابور، وهو نهر نصيبين مخرجه من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ (29 كلم) مسدودة بالحجارة والرصاص، وإتماً يخرج منها إلى نصيبين من الماء القليل لأن الروم بنت هذه الحجارة عليها لئلا تغرق المدينة، وفاضل مائها يصب في الخابور ثم الثرثار ثم دجلة، أنظر: العمري، المصدر السابق، ج1، ص176-305

(6) مخرجه من منطقة عين الذهبانة قريبة من حران، ويصب في الفرات أسفل الرقة، أنظر: العمري، المصدر السابق، ج1، ص176-305

(7) مخرجهما من جبال أرمينية ويصبان في دجلة، الزاب الكبير بالحديثة والصغير بالسن، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، م2، ص441

ونهر الثرثار⁽¹⁾، والنهروان⁽²⁾، وبعض الأنهار الصغيرة كجلاب والرد والساجور وديصان⁽³⁾.

كما أنّ الجزيرة غنية بالمياه الجوفية الموجودة في صخور نهرى دجلة والفرات وبالعيون التي تنفجر من أراضيها وأهمها:

- العيون التي تتبع من مدينة رأس العين وأشهرها: عين الآس، عين لصرار، عين الرياضية، عين الهاشمية، عين الزاهرية وفيها نبع عين الكبريت ويعرف بأن مياه النبع تشفي من الأمراض⁽⁴⁾.

- عين حنبوص وهي في مدينة ميفارقين وتروي بساتينها⁽⁵⁾.

- عين دارا العين وعين الأحنات في مدينة سنجار⁽⁶⁾.

- العين الطويلة والعين المدورة بالرها، وعين سودا، عين زعورا، عين باكلا في مدينة آمد⁽⁷⁾.

وقد استفاد أهالي الجزيرة من هذه المياه الوفيرة، فحفروا الآبار، ومدوا القنوات، وشكلوا الصهاريج لاستغلالها فساعدتهم على ازدهار مدتهم وزراعتهم.

2- الشام: اعتمد أهالي بلاد الشام على الأمطار كونها المصدر الأول والأساسي لري أراضيهم الزراعية، وذلك لعدم توفر مصدر مائي دائم يمكن الاستفادة منه، وما قد ينتج من تذبذب في معدل السقوط بين سنة وأخرى، فالأنهار-وهي المصدر الثاني للري- لم تكن تكفي لري جميع المناطق الزراعية، لاعتماد هذه الأنهار على معدل سقوط الأمطار من زيادة أو نقص، حيث يرتفع معدل منسوب المياه فيها في فصل الشتاء ويقل هذا المنسوب في فصل الصيف، وحتى الأنهار الدائمة الجريان فقد

(1) مخرجه من الهرماس ويمر بالحضر ويصب في دجلة، وهو واد عظيم يمد إذا كثرت الأمطار، فأما في الصيف فليس فيه إلا منافع

ومياه حامية وعيون قليلة مالحة، وهو في البرية بين سنجار وتكريت، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص147

(2) مخرجه من جبال أرمينية، ويمر بباب صلوى ويسمى هناك تامرا، ويستمد من القواطيل فإذا صار بباجسرى سمي النهروان،

ويصب في دجلة أسفل جبل، أنظر: ابن خردزابه، المصدر السابق، ص174

(3) العمري، المصدر السابق، ج1، ص176-305

(4) الحموي، المعجم، ج3، ص14

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص320

(6) ابن شداد، ج3، ق1، ص156

(7) نفسه، ص86-156-258

كانت تعتمد في جريانها على سقوط الثلوج على المرتفعات وذوبانها في فصل الصيف، وكثيرا ما تتعرض للجفاف في بعض السنوات⁽¹⁾.

وتجري في بلاد الشام مجموعة من الأنهار يصب بعضها داخل البلاد وبعضها الآخر خارجها أو في بحيرات داخلية أو في بحر الروم أهمها:

نهر سيحان⁽²⁾ وجيحان⁽³⁾، ونهر البردان⁽⁴⁾، واللامس⁽⁵⁾، والأزرق⁽⁶⁾، وعفرين⁽⁷⁾، وحمير⁽⁸⁾،

(1) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص44، 45

(2) هو نهر أذنة والمصبية، مخرجه من بلاد الروم من مدينة سيحان من ناحية ملطية من الثغور الجزرية، يمر بأذنة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال (9,66 كلم) ويصب في بحر الشام، وهو أقل حجما من جيحان، عليه قنطرة حجرية عجيبة طويلة، يمر ببلاد الروم إلى الجنوب عند مجرى جيحان، ويسير حتى يمر ببلاد الأرمن، ويمر على سور أذنة من شرقها، ثم يتجاوز ويلتقي مع جيحان ويصبان في بحر الروم بين أياس وطرسوس بعد أن يصيرا نهرًا واحدًا، غير أنهما يصبان في بحرين منفصلين، أنظر: ياقوت، المعجم، ج5، ص191- فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص166

(3) مخرجه من عيون وراء مرعش، وهي عيون جيحان على ثلاثة أميال منها (4,83 كلم)، ولا تقع عليه من مدن المسلمين سوى المصبية وكفريا، وعليه بإزاء المصبية قنطرة من حجارة رومية عجيبة عريضة، وينفذ من المصبية فيمتد أربعة أميال (6 كلم) ثم يصب في البحر وسهل قيليقية، وهو منطقة المجرى الأدنى لنهر جيحان وسيحان، وتحوطه الجبال من ثلاثة جوانب طوروس وطوروس الداخلية والأمانوس وهي تنحدر تدريجيا في اتجاهه، وهناك سلسلة منغزة تنفصل عن طوروس الداخلية بمجرى جيحان، وتسمى باسم جبل المصبية أو جبل الثغور، وهي تمتد على طول الشاطئ الغربي للخليج، أنظر: المسعودي، التنبيه والإشراف، ص51، 52

(4) هو نهر طرسوس مخرجه من عيون تحت عقبة الأكواخ من جبل ترابي أحمر مما يلي هرقله من بند القبادق، فإذا جرى نحو ميل (1,6 كلم) انقسم قسمين قسم بمضي إلى هرقله وآخر إلى طرسوس، فإذا صار على بريدن منها إلى موضع القطاليا صب إليه نهر الفاتر وهو غزير الماء مخرجه من عقبة تحت عقبة برداع، ثم يشق بردان مدينة طرسوس ويصب إلى البحر الرومي على ستة أميال (9 كلم)، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، م2، ص115

(5) أو نهر لاموس أو السس، وهو نهر سلوقية بينه وبين طرسوس مسير يوم، به يتم الفداء بين المسلمين والروم، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص167

(6) بين بحسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب، بقرية النهر الأسود في طرف بلاد المصبية وطرسوس، يمتد حتى يصب في بحيرة أنطاكية، ويخرج منها ويصب في العاصي، أنظر: الحموي، المعجم، ج8، ص335

(7) نهر في نواحي المصبية ينبع من بلاد الروم، يمر على الراوندان إلى الجومة ثم العمق ويختلط بالنهر الأسود، وقد كان طريقا هاما للمواصلات في المنطقة التي يجتازها، وكان لا بد من عبوره عند جسر مقام عليه للوصول إلى الطريق المتجه إلى الوادي الأعلى للنهر الأسود (قره صو)، والطريق المتجه إلى قورس وكلس، وعينتاب، وأعزاز، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص167

(8) يأخذ من بحيرة الحدث قرب مرعش ويصب في نهر جيحان، أنظر: الحموي، المعجم، م8، ص339

والساجور⁽¹⁾، وقباقب⁽²⁾، وقويق⁽³⁾، والذهب⁽⁴⁾، والعاصي⁽⁵⁾.

كما يوجد في المنطقة مجموعة من البحيرات التي تصب فيها بعض الأنهار، منها ما هي ذات مياه عذبة تصلح للري والزراعة وتعيش فيها الأسماك، ومنها بحيرات لا يستفاد من مياهها لا لري الأراضي الزراعية ولا لتربية الأسماك بسبب الملوحة العالية، أهمها: بحيرة أنطاكية⁽⁶⁾، بحيرة يغرا (أو بغراس)⁽⁷⁾،

(1) نهر منبج يصب من جبال الروم آخذا شرقا حتى يحاذي منبج ثم يصب في الفرات، أنظر: الحموي، المعجم، م5، ص7

(2) قرب ملطية ويصب في الفرات، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص167

(3) نهر مدينة حلب، اسمه القديم (*chalus*) ويسمى العوجان، مخرجه من قرية سنياب على سبعة أميال (11 كلم) من دابق، يمر إلى حلب ثمانية عشر ميلا (29 كلم)، ثم إلى قنسرين اثنا عشر ميلا (19 كلم)، ثم إلى مرج الأحمر اثنا عشر ميلا، ثم يفيض في الأجمة، وله مخرجان أحدهما من قرية الحسينية قرب أعزاز، والثاني يجتمع من عيون ماء من سنياب، وتكون المسافة التي يقطعها من مخرجه إلى مصبه اثنين وأربعين ميلا (68 كلم)، وهو من الأنهار التي تجري بغزارة شتاءً وتجف أو تنضب صيفا، أنظر: ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، ط2، بيروت، 1897، ص154

(4) يقال أنه نهر وادي بطنان الذي يمر ببزاعة، وهو من عجائب الدنيا الثلاثة: دير الكلب، ونهر الذهب، قلعة حلب، والعجب فيه أن أوله يباع بالميزان وآخره بالكيل، أنظر: الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعا، ص431- ابن العديم، المصدر السابق، ص28

(5) يسمى الأرنط أو الأرنط وهي تسمية مشتقة من كلمة يونانية تعني السريع *Atzois* حرفها العرب إلى العاصي، وهو نهر حمص وحماه وشيزر وأنطاكية، مخرجه من بحيرة قدس ومصبه في البحر قرب أنطاكية، سماه الصليبيون بالفرفار، أما تسميته بالمقلوب فلجريانه من الجنوب إلى الشمال بعكس أنهار الدنيا كلها، أما القلقشندي فيعلل سبب تسمية بالعاصي أن أغلب الأنهر تسقي الأراضي بغير دواليب بينما العاصي لا يسقي الأراضي التي على جانبيه إلا بنواعير تنتزع الماء منه، ينبع من منطقة بعلبك في الجنوب ويسير شمالا حتى يصب في بحيرة قدس غربي حمص، ويتجاوزها إلى الرستن ثم إلى حماه فشيزر ثم أفامية، ومنها إلى الحديد مارا بدركوش، ومن هنا يبدأ التغير في مسيرة النهر في اتجاه جنوبي غربي، فيمر على سور أنطاكية حتى يصب في بحر الروم، له عدد من الروافد منها: نهر أفامية، الأسود، يغرا، بردى، أبي فطرس، أنظر: جبران نعمان، مملكة حماه في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، عمان، 1980، ص27- صبح الأعشى، ج4، ص80-

e-strange, palestine under the moslem, A description of syria and the haly land from commited of the palestine exploration fund, gto 650-1500 AD, 1890, pp59-64

(6) بحيرة عذبة الماء، بينها وبين أنطاكية ثلاثة أميال (4 كلم)، طولها نحو عشرون ميلا (32 كلم) في عرض سبعة أميال (11 كلم)، في موضع يعرف بالعمق، تقع بين أنطاكية وبغراس وحارم، فيها مصب نهر عفرين والأسود ويغرا، وتجتمع الأنهار الثلاثة لتصير نهرًا واحدا يصب بنهر العاصي تحت جسر الحديد، أنظر: أبي الفداء، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ص42

(7) بين أنطاكية وطرسوس تعرف ببحيرة السلور لكثرة هذا النوع من السمك فيها، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ص170

الحدث⁽¹⁾، أفامية⁽²⁾، قدس⁽³⁾.

الكوارث الطبيعية: كان لانتشار مختلف الآفات والكوارث الطبيعية؛ كالقحط، والمجاعات، والأوبئة، والآفات: كالطاعون، والزلازل، والفيضانات، أثره في تسريع عرقلة قوة المسلمين في حروبهم ضد الروم، أو عرقلة جهود الروم في حروب المسلمين بمنطقة الثغور، فهي تؤدي إلى اختلال الاقتصاد وبدوره يؤثر على الأعمال الحربية، فارتفاع الأسعار نتيجة الجفاف والقحط أو غيرها يؤدي إلى توقيف الغزوات⁽⁴⁾. وهذا معناه الأثر الشديد في الموسم الزراعي، وبالتالي ندرة القوت وقلة عرض المواد الغذائية وبالتالي ارتفاع أسعارها، فقد تسببت المجاعة في إخفاق العديد من الحملات على المنطقة، وعلى رحيل سكان بعضها هرباً من الغلاء، ففي سنة 264هـ/877م عندما غلت الأسعار بطرسوس طلب أهلها من أحمد بن طولون الرحيل أو الإقامة في عدد يسير من جنده، ففضّل الرحيل كي يحفظ هيبة الثغر في وجه الأعداء⁽⁵⁾.

وفي سنة 353هـ/964م اشتد الغلاء في الثغور، وما تبعه من مجاعة في إخفاق حملة الروم على ثغر المصيصة، فقبل انصراف دمستق الروم عن المصيصة خاطب أهلها قائلاً: «إني منصرف عنكم لا لعجز عنكم وعن فتح مدينتكم، ولكن لضيق العلوقة»⁽⁶⁾، واضطر نتيجة لذلك حوالي 50 ألف من

(1) قرب مرعش من أطراف بلاد الروم، أولها عند قرية تعرف بابن الشيعي على اثنين وسبعين ميلاً (116 كلم) من الحدث نحو ملطية، أنظر: البغدادي، مرصد، ج1، ص168

(2) وهي عدة بطائح في الغرب بميلة إلى الشمال عن أفامية، يصب فيها نهر العاصي من الجنوب، وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيها السمك، فالجنوبية بحيرة أفامية وسعتها نصف فرسخ (2.5 كلم)، وأرضها موحلة لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها، وحوها القصب والصفصاف وبها أنواع الطيور، وبنيت بها اللينوفر الأصفر حتى يستر الماء عن آخره بورقه وزهره، والشمالية من عمل حصن بروزيه، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص170

(3) قرب حمص، طولها اثنا عشر ميلاً (19 كلم) وعرضها أربعة (6 كلم)، تنصب إليها مياه ما حولها من الجبال، ويخرج منها نهر العاصي، وهي بحيرة في أرض مستوية عن حمص في جهة الغرب، وفي طرفها الشمالي سد ممتد في طولها مبني بالحجر ينسب إلى الاسكندر وسطه برجان من حجر أسود، أنظر: le strange, undes the palestine, pp70-72

(4) يقول الطبري: «وفي سنة 68هـ/687م، كان القحط الشديد بالشام حتى لم يقدروا من شدته على الغزو»، أنظر: تاريخه، ج6، ص127

(5) الطبري، تاريخه، ج6، ص277

(6) ابن مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، دار الكتاب الإسلامي، (د،ط)، القاهرة، (د،ت)، ج2، ص203

أهالي الثغور إلى الرحيل عنها هربا من الغلاء.

يذكر ابن الجوزي⁽¹⁾ أنه قال: «أنا عائد إليكم بعد هذا الوقت، فمن أراد منكم الهرب فليهرب قبل رجوعي فمن وجدته قتلته»، أما ابن الأثير⁽²⁾ فيقول: «اشتد الغلاء على الروم وكان شديدا قبل نزولهم، فطمعوا في البلاد لعدم الأقوات عندهم، فلما نزل الروم زاد شدة وكثر الوباء أيضا، فمات من الروم كثيرا فاضطروا إلى الرحيل».

وفي سنة 354هـ/965م زاد القحط والمجاعة بطرسوس والمصيصة حتى أكلوا الكلاب والميتة⁽³⁾، والسبب في ذلك يعود إلى أمر هام، هو أن المسلمين كانوا يخرجون كل سنة فيزرعوا الزرع فيأتي نقفور بعساكره فيفسده، فلما تكرر منه ذلك لم تثمر الأرض الكميات اللازمة، فأصبحوا يعانون من ضيق شديد، ومجاعة قاسية، لذلك سهل على الروم الاستيلاء عليهما⁽⁴⁾.

يذكر ابن العبري⁽⁵⁾: «أن جماعة اجتازوا قرية اسمها باعبدون، ببلد جاوباس من أعمال ملطية، فرأوا جماعة من النساء قد اجتمعن في بيت ميت ممدود، وبأيديهن السكاكين، وهن يشرحن لحمه ويشوينه ويأكلن، وأن امرأة أخرى شوت ابنها الصغير، ونفت ذلك، وبأنها لم تقتله، وإنما فعلت به ذلك زاعمة أنها هي أولى به من الديدان».

كما أن الأمراض والآفات التي تصيب المحاصيل الزراعية قد تؤدي إلى تلفها، علاوة على الطواعين التي تصيب الإنسان والحيوان وتؤدي إلى هلاكهم، وبذلك تفقد الزراعة الكثير من المشتغلين بها مما

(1) أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1995، ج14، ص155

(2) الكامل في التاريخ، م7، ص284

(3) ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص210

(4) أنظر: ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص211- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م7، ص287

(5) انتشرت المجاعة بشكل كاسح في ملطية، بعد مهاجمة التتار لها سنة 642هـ/1244م، فدمروا محاصيلها ونخلها فانتشر على إثرها طاعون مدمر، وفي سنة 655هـ/1257م اشتد الغلاء جدا حتى بلغ المكوك (مكيال يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه، فقيل يسع صاعا ونصف) من الملح أربعين درهما، والحنطة بسبعين درهما، ويقال أنه من شدة الجوع أكل الناس الكلاب والسنابير، وكانوا يطبخون الجلود اليابسة، أنظر: مختصر تاريخ الدول، ص468

ينعكس أثره في ارتفاع الأسعار، ومنها⁽¹⁾: طاعون عام 107هـ/725م و 109هـ/727م⁽²⁾، و 115هـ/733، و 116هـ/734م ما أدى بالخليفة هشام بن عبد الملك إلى نزول الرصافة هرباً منها⁽³⁾.

أما بالنسبة لوقوع الزلازل⁽⁴⁾ أو الفيضانات، فهو يؤدي إلى تلف المحاصيل ودمار القرى والمدن وهلاك البشر، ومنها: في سنة 187هـ/803م أصابت بلاد الشام تركزت على المصيصة فهدمت سورها ونضب ماؤها ساعة من الليل⁽⁵⁾، وأصيبت أنطاكية في عام 220هـ/835م بزلزال دام أربعين يوماً فهدمها، وحدثت زلزلة أخرى بمدينة دمشق سنة 230هـ/844م أسقطت دوراً وأهلكت الكثير من الخلق حتى امتدت إلى أنطاكية فهدمتها، وإلى بلاد الجزيرة فأحرقتها⁽⁶⁾.

وفي سنة 232هـ/846م حدثت الزلازل في بلاد الشام، وأدت إلى تحطيم جدران دمشق وحمص وكانت شديدة بأنطاكية والعواصم، لدرجة أنها امتدت حتى الجزيرة والموصل واستمرت أياماً عدة⁽⁷⁾، وفي عام 233هـ/847م ضرب زلزال بلاد الشام اشتد على أنطاكية والموصل فدمر أكثر من ألفي دار،

(1) منها طاعون سنة 18هـ/638م زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رضه) كان بالشام، والذي عرف بطاعون عمواس، وقدر عدد الذين ماتوا به بخمسة وعشرين ألفاً، كذلك طواعين عامي 57-58هـ/676-677م، وطاعون عام 65-66هـ/684-685م، وطاعون الجارف بالبصرة قيل سنة (67هـ/686م) أو (69هـ/688م) أو (70هـ/689م) أو (72هـ/691م)، وطاعون سنة 79-80هـ/698-699م، فكانت بيزنطة تستغل ذلك للتكثيف من نشاط جيوشها في المنطقة، ففي سنة 81هـ/700م هزم المسلمون عند سميساط، وفي قيليقية مرتين سنة 84 و 85هـ/703 و 704م، وطاعون الفتيات سنة 87هـ/705م، أنظر: نصير، ب، الطواعين في صدر الاسلام والدولة الأموية، مجلة جامعة كركوك، العراق، 2011، ص(1-18)

(2) الطبري، تاريخه، ج7، ص40، 92، 93

(3) مؤلف مجهول، العيون والحداثق في أخبار الحقائق، وفيه كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه، تح: مج دغويه، (د،د،ن)، (د،ط)، بريل، 1871، ج3، ص101

(4) ومنها قبل فترة الدراسة هزة عامي 11-12هـ/632-633م، وهزة سنة 91هـ/709م ودامت أربعين يوماً وقد خربت أنطاكية، أنظر: مؤلف مجهول، العيون والحداثق، ص8

(5) أنظر: الطبري، تاريخه، ج4، ص665- ابن الأثير، الكامل، ج5، ص336

(6) خالد يونس، الزلازل في بلاد الشام من القرن 1-13هـ/7-19م، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ع1، م13، يناير 2005، ص(67-92)

(7) السيوطي، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تح: عبد اللطيف السعداني، مطبعة محمد الخامس، (د،ط)، فاس، 1971، ص25

ومات من أهلها حوالي 20 ألف، كما دمر البساتين والأشجار وسقطت القناطر والمنازل⁽¹⁾. كما أصابت الزلازل بلاد الشام سنة 245هـ/859م فخربت المدن والقلاع والقناطر، فأصابت طرسوس والرها وحران وحمص، وسقط من أنطاكية جبل في البحر، وسقط من دورها 1500 دارا و90 برجاً من أبراجها، أما اللاذقية فلم يبق منها سوى اليسير من منازلها، ومات معظم أهلها تحت الهدم، وامتدت إلى جبلة وأفنت سكانها، إضافة إلى هدم بالس⁽²⁾. ومن الأسباب الأخرى لغلاء الأسعار انحباس الأمطار وتأخرها عن موسم الزرع⁽³⁾، أو تراكم الثلوج⁽⁴⁾، وحدوث الصقيع والبرد⁽⁵⁾ الذي يؤدي إلى تلف المحاصيل الزراعية⁽⁶⁾، كما أن كثرة الأمطار تحدث فيضانات وسيول جارفة تؤدي إلى غرق المحاصيل وتلفها وبالتالي ارتفاع أسعارها⁽⁷⁾. وكذلك خزن الغلال وعدم بيعها واحتكارها أيام الأزمات يؤدي إلى ارتفاع أسعارها، وطول مدة الحصار وشدة البلاء يؤديان إلى نفاذ القوت وارتفاع ثمنه، وظهور الجراد الذي يهاجم المزارع ويلحق به ضرراً كبيراً، وهبوب الرياح، وقرب السلعة أو بعدها من أماكن التسويق، وحالة الطلب عليها، وتوافر عنصري الأمن والحماية، كلها عوامل تؤدي إلى ارتفاع الأسعار وغلاء المعيشة⁽⁸⁾.

-
- (1) النويري الاسكندراني محمد بن قاسم، الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تح: أتيين كومب، وعزيز سوربال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1968، ج4، ص131
- (2) نفسه، ص135
- (3) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج6، ص89
- (4) الطبري تاريخه، ج9، ص210
- (5) ابن الأثير، الكامل، ج1، ص291
- (6) يذكر الطبري: وغلت فيها الأسعار، وحال الثلج بين السابلة والميرة، أنظر: تاريخه، ج9، ص210
- (7) ابن الأثير، ج8، ص416
- (8) خالد أحمد سلمي زنيدي، التجارة في بلاد الشام حتى نهاية العصر العباسي الأول (مذكرة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1992، ص81

المبحث الثاني: النظم الادارية بالثغور

من بين العوامل التي أثرت في النشاط الاقتصادي بالمنطقة، طبيعة العلاقات بينها وبين بلاد الروم في فترات الحرب والسلم، فبالنسبة للدولة الإسلامية فقد حافظت أن تظل أمة مجاهدة، فأبقت القسم الأكبر من مواردها المالية تصرف في المجال العسكري، إضافة إلى إخراج رواتب الجند والأرزاق والمعونة للمقاتلين، عملت على توفير القوة ووجوه المنعة للجيش، وأقامت المدن العسكرية وعبأتها بالجنود، وشجعت الناس على الانتقال إليها، وأقطعتهم الأراضي الزراعية يستغلونها والمنازل يسكنونها، ووفرت لهم الطعام ومخازن الأسلحة، وحصنتها بالأسوار والخنادق وبنيت القلاع والحصون، وأقامت المناظر والمنارات على طول الطرق بين الثغور والداخل في شمال الشام والجزيرة وعلى طول خط الفرات، وقد تحول كثير من هذه المدن العسكرية إلى مراكز مدنيّة حافلة بالبناء وأماكن العبادة، ومراكز الثقافة، وأسواق التجارة، وأخذت تشهد نهضة من النشاط البشري⁽¹⁾.

فقيمة المنطقة في تلك الفترة لم تكن اقتصادية، ذلك أن نفقات الثغور كانت عبئا على كاهل المال المركزي، إذا أن دخلها القليل لا يمكن أن يقارن بمقادير الإنفاق الطائلة التي تصرف عليها، ولكنها سياسية ودينية معا، تتصل بأمر الجهاد والرغبة في الاستشهاد به، كيف لا وهي تستعد لمواجهة العدو في أي لحظة، وقد بلغت قيمتها من الناحيتين إذ أن الخلفاء كانوا يباشرون الحرب على تلك الجبهة بأنفسهم ويخرجون إلى المنطقة على رأس الجيوش المحاربة، وقبل الحديث عن مجهوداتهم المتنوعة في الفترة المدروسة لا بد لنا أن نتعرف على مشكل العلاقة القائمة بين الدولتين في مناطق الاحتكاك.

I- طبيعة العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين:

لعل أهم وأخطر العلاقات الخارجية التي عاشها المسلمون، إنما كانت علاقاتهم مع البيزنطيين، فقد كانت جبهة الروم هي من أخذت من وقت وجهد ومال ودماء المسلمين أكثر من أي جبهة أخرى، وقد شهدت طبيعة العلاقات بينهما عددا من الأحداث الهامة أثرت في كليهما وجعلت الصراع

(1) جوعان راشد سعيد ظاهري، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة القاهرة، 1992، ص2

بينهما سجالاتاً متأرجحة بين النصر والهزيمة، وبين الحرب والسلم وفقاً لمقتضيات ظروف كل منهما⁽¹⁾.
1- الاتصالات الحربية: يرجع للخلافة الأموية عامة الفضل في ذلك، فقد كانت مسألة السيادة على بحر الشام هي شغلها الشاغل وحجر الزاوية في سياستها إزاء القسطنطينية التي منعت المسلمين من التوسع البحري⁽²⁾، ويمكن إجمال صور النشاط الحربي في إقليم الثغور والعواصم الإسلامية في الصور التالية:

أ- الحملات البرية: استهدفت الهجوم على معاقل الحدود البيزنطية أولاً، ثم استطاعت أن تتوغل داخل الأراضي البيزنطية حتى بلغت العاصمة:

1- معاقل الحدود: لم يكن أسلوب الدفاع عن الحدود المألوف عند الروم مطبقاً في الشرق، وهو لا يكاد يوافق ظروفه الجغرافية، ففي الجزيرة أو تخوم الشام لا نجد آثار حواجز كالتى عرفت في شمال أوروبا (اسكتلندا وأراضي الراين)، والتي كانت تتألف من حواجز وخنادق *Foss, Vallum*، وإنما وجدت سلاسل من القلاع امتدت على حدود الفرات وطول الخابور، كما امتدت شمالاً من دارا إلى آمد، وكان الحد الشرقي لآسيا الصغرى يتابع الفرات الأعلى، وأهم قاعدتين هما ملطية في الجنوب وستلا *satala* في الشمال، وكانت ملطية على مسافة واحدة من أنطاكية وطرابزون، ويمكن الوصول إليها من سميساط، وكانت أرمينية الرومانية تقع وراء الفرات، وتكون خط دفاع جبلي ضد الفرس، وتعرضت الصحراء الممتدة شرقاً من سوريا، وفلسطين، وحتى الفرات لهجمات البدو الذين كانوا يغيرون ويلذون بالفرار فيتعذر تعقبهم⁽³⁾.

وكان على المسلمين حين توجهوا إلى فتح الشام، أن يحتكوا بالعرب المتوطنين على حدود الدولة أولاً، ثم يفتتحوا الشام بأجنادها، حتى إذا دانت لهم صار عليهم تأمين مراكزهم الجديدة بفتح أرمينية

(1) لم يكده ينتهي الإمبراطور هرقل 610-641م من القضاء على خطر الفرس، حتى التفت إلى الشرق لمواجهة خطر الدولة الإسلامية، والتي بدأت تعتمد على قوتها العسكرية وخاصة البحرية منها والتي مكنتها من السيطرة على بحر الشام، أنظر: وديع فتحي، المرجع السابق، ص70

(2) العدوي، المرجع السابق، ص162

(3) Bury, op- cit, p94, 95

والجزيرة، وعندما استقر الأمر هناك تطلعوا إلى أراضي الدولة البيزنطية، فبدأوا بشن الغارات على معازل الحدود، ولما خبروا مسالكها أخذوا يتوغلون إلى داخلها شيئاً فشيئاً، مستندين إلى قواعدهم العسكرية التي أقاموها، ثم تطلعوا بعد ذلك إلى العاصمة نفسها.

2- فتح القسطنطينية⁽¹⁾:

كانت جبهة الروم تسخن أو تهدأ تبعاً للظروف المتقلبة في كلا العاصمتين، ويمكن أخذ فكرة عن حركة المد والجزر الحربي في تلك الفترة من خلال تتبع الغزوات والعمليات الحربية التي نفذها الخلفاء الواحد تلو الآخر.

فترة حكم الخليفة المنصور كانت تعتبر فترة توطيد للحكم وتأمين الحدود، ولم تشهد أعمالاً حربية واسعة حتى عهد الخليفة الثالث المهدي، وما كان من غزو القسطنطينية على يد ولده هارون سنة 165هـ/781م، وفي ذلك يقول الطبري⁽²⁾: «وجهه أبوه غازياً إلى بلاد الروم، فافتتح ماجدة، وهزمت الروم»، وقال أيضاً: «سار هارون حتى بلغ خليج البحر على القسطنطينية وصاحب الروم يومئذ أوغسطة⁽³⁾ امرأة أليون وذلك أنّ ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه في حجرها، فجرت بينهما الرسل والسفراء في طلب الصلح والمودعة وإعطائه الفدية فقبل ذلك، والذي وقع عليه الصلح تسعون ألف سبعة دنانير، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الأسرى».

(1) بعد استتباب الأمر لمعاوية سنة 41هـ/661م صار يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته وبين الإمبراطورية البيزنطية، فمذ وقعت ذات الصواري 31هـ/652م واستقرار أقدام المسلمين في الشام ومصر دخل النزاع بينهما مرحلة جديدة، فتحت الإمبراطورية البيزنطية عن مشاريعها القديمة في استرجاع ممتلكاتها في الشام ومصر، وأصبح الموقف الجديد يحتم عليها تعديل سياستها بما يتلاءم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى في بحر الشام.

ومن ثم كانت مسألة السيادة في البحر هي شغل معاوية الشاغل وحجر الزاوية في سياسته إزاء القسطنطينية التي منعت المسلمين من التوسع البحري، فجهد في وضع خطة تهدف إلى ضربها في عقر دارها كلما تهيأت له الظروف لذلك، وترك لخلفائه من بعده طريقاً واضحاً المعالم للسير فيه، أنظر: أحمد إبراهيم العدوي، المرجع السابق، ص 162- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 344

(2) تاريخ الطبري، ج 8، ص 152

(3) أوغسطة أو إيرين إمبراطورية بيزنطية 797-802م: زوجة لاون الرابع ووصية علي ابنها قسطنطين السادس، وافقت على الأيقونات، أنظر: لويس معلوف، المرجع السابق، ص 93

وتكرر جهاد الرشيد إلى بلاد الروم، وكان أهم نشاط حربي قام به سنة 187هـ/802م بعدما نقض الروم الصلح⁽¹⁾، واستطاع في حملته دخول هرقل⁽²⁾ فطلب إمبراطور الروم⁽³⁾ المودعة على خراج يؤديه كل سنة فقبل بذلك، وحين عودة الرشيد صار بالرقعة نقض نفقور العهد بعد أن يئس من رجعته لأنّ البرد كان شديداً، فلما علم الأخير بذلك كر راجعا في أشد محنة حتى حقق مراده وعاد⁽⁴⁾.

وفي سنة 190هـ/805م غزا الرشيد الصائفة وفيها فتح هرقل الثاني وما حولها، وبث السرايا والجيش بأرض الروم، ومن ذلك يمكن أن تقف على ما كان من عزة المسلمين وقوة دولة الإسلام في عهد هارون الرشيد، حيث كان ملك الروم يدفع الجزية والخراج لدولة الإسلام، ويذل له بالكتاب الذي بعثه إليه ليهبه امرأة من السبي، وإنما علا شأن المسلمين وقويت دولتهم لمحافظة على الجهاد⁽⁵⁾.

وهكذا كان مستوى العلاقة الدائمة بين الدولتين يقع تحت تأثير تعاقب الخلفاء والأباطرة على عرشي الدولتين وإن كان التأثير محدوداً، والوصف الأساسي الذي يمكن أن يعطي لتلك العلاقات أنّها كانت عدائية، واستعراضها لا يزيد أن يكون سجلاً متشابهاً كبيراً أبرز ملامحه هي الحملات الحربية

(1) سبب ذلك نقض نفقور الصلح الذي كان بين المسلمين وبين الإمبراطورة إيرين بعد أن خلعتها الروم وملكوه، وبعد أن تأكد من طاعة الروم له كتب إلى الرشيد: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك، فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ورد عليه: بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام»، أنظر: الطبري، تاريخه، ج 8، ص 307، 308

(2) مدينة ببلاد الروم كان الرشيد قد غزاها بنفسه ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديدة ورمى بالنار حتى غلب أهلها، أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، م 5، ص 398

(3) نقفورس 1 (802-811م): إمبراطور بيزنطي خلع إيريني، هزمه الرشيد، هلك وجيشه في حرب البلغار، أنظر: معلوف، المرجع السابق، ص 577

(4) الطبري، تاريخه، ج 8، ص 308- بعد فتح هرقل كتب نقفور في جارية من سبي هرقل كتاباً: «لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم، سلام عليكم أما بعد أيها الملك إنّ لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة، أن تمب لابني جارية من بنات أهل هرقل، كنت قد خطبتها على ابني، فإن رأيت أن تسعني بحاجتي فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»

(5) عبد العزيز الحميدي، المرجع السابق، ص 77

السنية التي كانت تجوب المنطقة ذهابا وإيابا⁽¹⁾.

ب- الحملات البحرية: تتابعت الحملات البحرية الإسلامية على جزر بحر الشام، كما ساندت الهجمات البرية على القسطنطينية واضطرت الدولة البيزنطية إزاء الخطر الإسلامي إلى تعميم نظام البنود وإدخاله في ولاياتها البحرية لمواجهة للمسلمين، ففي القرن 2هـ/8م كان هناك البند الايجي وبند كبيرا، وكان حاكم البند الأول موكلا بحماية شواطئ آسيا الصغرى ومداخل بحر ايجي، وكان هذان البندان خاضعين لقيادة عليا خاصة لدفع العرب عن القسطنطينية ومواجهة حركات الأساطيل الإسلامية في الحوض الشرقي لبحر الشام، وكان تحت تصرف كل منهما أسطول كبير من السفن الصغيرة الشبيهة بالشواني⁽²⁾.

ودعا النشاط البحري الإسلامي الدولة البيزنطية معاودة تنظيم بنودها البحرية، فأستت بندا بحريا ثالثا مركزه جزيرة ساموس مهمته مراقبة حركات المسلمين المسيطرين على كريت، وحماية مداخل البحر الأدرياتي وجنوبي إيطاليا من غاراتهم، كما أقيمت قواعد بحرية في بعض البنود المهتدة بالخطر الإسلامي البحري، مثل البلوبونيز وبنود إيطاليا⁽³⁾.

وكان لجزر بحر الشام أهميتها بالنسبة لإقليم الثغور على الحدود، حيث أن القرية من الساحل تعد قواعد بحرية للأسطول يستند عليها الهجوم البري، يقول قدامة⁽⁴⁾: «والغزاة إذا عزموا عليها، كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك، والتأهب له بالتجمع بجزيرة قبرص، والمدر لجميع أموال المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية»، وأقيمت حاميات إسلامية بها، وكانت العمليات الحربية في الجزر البعيدة عن الشام كصقلية تؤثر على قوة البيزنطيين الرئيسية وتعطي الثغور الإسلامية

(1) مصطفى شاعر مصطفى، المرجع السابق، ج2، ص294

(2) الشواني: ج شيني أو شينة أو شونة، تعرف أيضا بالأغرية أو الغريان (ج غراب) لأنها كانت تطل على القار، وكانت لها قلع بيضاء فهي بذلك تشبه الغريان، والشيني مركب طويل يمتاز بأنه يجذف بمائة وأربعين مجدافا ويحمل المقاتلين والجدافين، وكان مزودا بأبراج وقلع تستخدم للهجوم والدفاع، أنظر: أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأمل، (د،ط)، بيروت، 1972، ص132، 133

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص15

(4) المصدر السابق، ص225

فرصة سانحة لمهاجمة بلاد الروم.

ج- المعارك الداخلية: لم تنقطع محاولات كلا الفريقين للإفادة من الفتن والقتال لدى الطرف الآخر، فالبيزنطيون حاولوا استثارة الجراجمة في جبل اللكام (الأمانوس) ضد المسلمين، وحاولوا الانتفاع من فتنة الخرمية أيضا، وبالمثل اتجه المسلمون إلى الإفادة من خصوم الدولة البيزنطية من الصقالبة (السلاف)⁽¹⁾. وقد استفاد المسلمون كثيرا من ولائهم، إذ كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التي تصل بين مدنها المختلفة، فقاموا بوظيفة الأذلاء للجيوش الإسلامية يهدونها إلى أسهل الطرق وأيسرها للاستيلاء على المعاقل الهامة بهذه البلاد، ولذا تابعت الجيوش الإسلامية انتصاراتها دون أن تلقى جهدا كبيرا⁽²⁾.

كما حاول المسلمون الاستفادة من البيالقة (البولسيين) *paulicians* الذين اضطهدتهم الدولة البيزنطية، فأنزلوهم في مواضع آمنة وأدخلوهم في جيوشهم، فشاركوهم حملاتهم على الروم أكثر من مرة، يقول قدامة⁽³⁾: «البيالقة هم من الروم، إلا أنهم يخالفونهم في كثير من أديانهم، وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم في غزواتهم، ويتوفر على المسلمين المعونة بهم، إلى أن رحلوا دفعة واحدة، بإساءة أهل الثغور معاشرتهم، ففرقوا في البلاد، وسكن مكاثرهم الأرمن»، وقد تمس الفتن الداخلية إقليم الثغور مباشرة، وقد لا تتدخل الدولة المعادية لتأييد الجانب الثائر عند خصومها، ومع هذا يستفيد

(1) السلاف أو الصقالبة جيل حُرُّ الألوان صُهب الشعور، يتاخون بلاد الخزر أعالي جبال الروم، وقيل للرجل الأحمر صقلاب على التشبيه بألوان الصقالبة وقال غيرهم: الصقالبة جيل من الناس بين بلاد البلغار والقسطنطينية، وهم الذين يطلق عليهم اليوم السلافيون، وهم ليسوا محصورين بين البلغار والقسطنطينية فقط، ولكنهم منتشرون في الشمال الشرقي لأوروبا وفي غرب البلغار أيضا، وقيل: رومي وصقلبي وأرميني وفرننجي اخوة، وهم بنو لنطي ابن كسلوخيم بن يونان بن يافث، سكن كل واحد منهم بقعة من الأرض فسميت به، يقول قدامة: «وهم من الروم، إلا أنهم يخالفونهم في كثير من أديانهم، وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم في غزواتهم، ويتوفر على المسلمين المعونة بهم إلى أن رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع، ففرقوا في البلاد وسكن مكاثرهم الأرمن»، أنظر: الحموي، المعجم، م3، ص416- قدامة، المصدر السابق، ص187

(2) فقد أسكنهم مروان بن محمد في الثغور وأنزلهم الخصوص، وفي عهد عبد الملك بن مروان ت 86هـ/705م تجددت الحرب بينهما، وحين اصطدم الفريقان عند سيواس انضمت العناصر السلافية إلى المسلمين، أنظر: *Bury, op-cit, p322*

البلاذري، المصدر السابق، ص166

(3) المصدر السابق، ص254

كلا الفريقين بطريق غير مباشر حين يرى الآخر مشغولا ضد الفتن الداخلية⁽¹⁾.

2- الاتصالات الدبلوماسية:

لم تكن علاقات الفريقين حروبا متصلة الحلقات، بل أنّ هذه الحروب نفسها كانت تستلزم اتصالات تتعلق بشؤون الحرب، من محاولة لإنهائها أو الإبقاء على فترات السلم أو تبادل الأسرى، فعلى الرغم من أن الدول تهتم كل الاهتمام بتنظيم جيوشها وأساطيلها، إلا أنّها مع ذلك لا تغفل جانبا من النشاط السياسي يترتب على العناية به الاقتصاد في القوات العسكرية، فالنشاط الدبلوماسي يصطنع الأصدقاء ويبذر الشقاق بين الأعداء، فيحقق توازن القوى ويججز العدو المترص عن المخاطرة بالعدوان، ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من الاتصالات الإسلامية البيزنطية: المراسلات المكتوبة، والسفارات الشخصية، وبعثات فداء الأسرى.

أ- المراسلات المكتوبة: بالرغم من أنّ الغالب على العلاقة الإسلامية-البيزنطية هو طابع الصراع العسكري والسياسي، وأنّ السيف هو اللغة التي يتحاور بها الطرفان، إلا أنّ العلاقة بينهما لم تقتصر على جانب الصراع والحرب فهناك مكاتبات بينهما⁽²⁾.

وكانت المعاهدات من صور الكتابات الدبلوماسية، فعلى أثر غزو هارون في عهد الخليفة المهدي سنة 781م/165هـ بلاد الروم وبلوغه خليج البحر، جرت بينه وبين أغسطه الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية فقبل ذلك منها، واشترط عليها الوفاء وأنّ تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه، والذي وقع عليه الصلح 60 أو 70 ألف دينار لثلاث سنين وتسليم الأسرى⁽³⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص172

(2) تتحدث المصادر عن أقدمها التي تعود إلى سنة 638م/17هـ، إذ ارتحلت إياد بن نزار فاقترحوا أرض الروم على أثر الفتح الإسلامي، فكتب بذلك الوليد بن عقبة إلى عمر(رضه)، نكتب هذا إلى ملك الروم: «أنته بلغني أنّ حيا من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دار فوالله لتخرجنه أو لننبذن إلى النصارى ثم لنخرجهم إليك» فخرجوا، فتم منهم على الخروج أربعة آلاف، وتفرق بقيتهم بين الشام والجزيرة، وتعددت اتصالات معاوية بالروم عند ولايته على الشام، فروي أنّ الروم حاولوا أن يتصلوا به أثناء قتاله مع علي فآبى على أنه قد اضطر أثناء حكمهم على مال، واضطر عبد الملك بن مروان إلى مهادنة الروم أيضا، على أن يصلحهم على ألف دينار كل جمعة، وصالح ملك الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربتة، أنظر: الطبري، تاريخه، ج4، ص19

(3) الطبري، تاريخه، ج2، ص415

وبعد نقض الروم صلح سنة 168هـ/784م وطلب الموادعة كتب نقفور كتابه المشهور إلى الرشيد سنة 170هـ/786م⁽¹⁾.

ولم يكن المأمون أقل حرصاً على كرامة الخلافة الإسلامية ولا أزهدي في جهاد الروم، فقد غزا بلادهم سنوات 215هـ/830م و216هـ/831م و217هـ/832م وتوفي بالبذندون سنة 218هـ/833م وقد كتب إليه تيوفيل بن ميشيل سنة 216هـ/830م فبدأ بنفسه، فلما ورد الكتاب لم يقرأه وخرج إلى أرض الروم، فوفاه رسل تيوفيل بن مخائيل بإذنه ووجه له بخمسمائة رجل من أسارى المسلمين، فلما دخل أرض الروم صالح أهلها، وصار إلى هرقل⁽²⁾.

ب- السفارات الشخصية: قد يستدعي الاتصال الدبلوماسي إرسال سفير لتبادل وجهات النظر عند الرغبة في الاتفاق على مسائل حربية أو تجارية أو لتبادل الجحاملات، ويعرف هذا النوع من السفراء بالسفراء فوق العادة وهم سفراء المناسبات، وقد راعى حكام الدولتين تزويد السفير بكتاب يعرف بشخصيته ومهمته تشبه أوراق الاعتماد، ويتمتع سفراء الجانبين بميزات وحصانات وحرص كل فريق على الحفاوة بالسفراء وإظهار عظمته للطرف الآخر⁽³⁾.

وقد أليف المسلمين والروم الاتصال سرا وعلنا لمختلف الأسباب والأغراض، وعُرف عنهما تدقيقهما في اختيار سفرائهما إلى بعض الروايات في ذلك كثيرة، فقد حاول المأمون أن يستقدم الرياضي البيزنطي الشهير ليو فلما سمع الإمبراطور تيوفيل بذلك قرر للعالم البيزنطي مرتباً، وعينه معلماً في إحدى كنائس القسطنطينية، ورفض الإمبراطور رسالة شخصية من المأمون يطلب فيها السماح لهذا العالم بالحضور لبغداد فترة قصيرة ويعدّ ذلك عملاً ودياً، ويقال أنّ المأمون عرض مقابل حضور

(1) الطبري، تاريخه، ج2، ص415

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص390-أنظر الملحق رقم9، ص422-

(3) طلب معاوية من الخليفة عثمان (رضه) أن يترك له خراج بعض الأراضي كان الأنباط قد هجروها أو قتلوا على أثر الفتح الإسلامي، «ولم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال، حتى كتب معاوية في إمرته على الشام إلى عثمان أنّ الذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد، ورسّل أمرائها، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها... وسأله أن يقطعه إياها»، فأجابته الخليفة إلى ذلك، أنظر: ابن عساكر، المصدر السابق، م1، ص595- أنظر الملحق رقم10، ص423-

ليو، صلحا دائما وألفي قطعة ذهبية⁽¹⁾.

ج- الأسرى: لعب الأسرى دورا هاما في التأثير والتأثر الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين، وكان جزء كبير منهم من سكان الثغور، يؤسرون في الغارات المتبادلة على المنطقة، ونتيجة لظروف الحرب المستمرة بينهما فقد ساهم كل طرف في نقل ثقافته للجانب الآخر، حتى أصبح من بين الأسرى البيزنطيين من يتكلم العربية، وبين الأسرى المسلمين من يتكلم اليونانية، ونتيجة لذلك انتقلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة اليونانية وأخرى يونانية إلى العربية، كما نقلوا معهم بعض الصفات والطباع⁽²⁾.

ومن شدة رواج اللغة العربية لدى الروم تلك الفترة ما يذكر أن مؤسس الأيسورية - ليو الأيسوري أو الثالث 99-124هـ/717-741م- كان يتكلم العربية ويجيدها ويقرأ بها، حتى وصل الأمر ببعض أعدائه بعد إعلانه حركة اللأيقونية بأن وصفوه بأنه ذو عقلية عربية⁽³⁾.

(1) أرسلت الإمبراطورية إلى دمشق بعد انتهاء حصار القسطنطينية الثاني أحد رجالها الممتازين يدعى يوحنا وكان مسنا حكيما لبقا، وقد استقبل لدى الأمويين بالحفاوة والترحيب، وعقد له مجلس كبير واكتسب عطف معاوية، ثم عاد إلى القسطنطينية بعد أن أخذ فكرة طبية عن البلاط الأموي، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص394
واشتهر من سفراء الأمويين إلى القسطنطينية العالم الفقيه عامر به شرحيل الشعبي، حيث بعثه الخليفة عبد الملك في رسالة خاصة، يقول: «أنفذني عبد الملك إلى ملك الروم، فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبتة، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده، فحبسني أياما كثيرة حتى استحسبت خروجي، فلما أردت الانصراف قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت لا، ولكن رجل من العرب في الجملة فهمسني بشيء، فدفعت إليّ رقعة، وقيل لي: إذا أدت الرسائل عند وصولك إلى صاحبك، أوصل هذه الرقعة، قال: فأديتها عند وصولي، ونسيت الرقعة، فلما صرت في بعض الدار إذ بدأت الخروج تذكرتها، فرجعت فأوصلتها إليه، فلما قرأها قال لي: أقال لك شيئا قبل أن دفعها إليك؟ قلت: نعم، قال لي: من أهل بيت المملكة أنت؟ قلت لا... ثم خرجت من عنده، فلما بلغت الباب رددت، فلما مثلت بين يديه قال لي: أتدري ما في الرقعة؟ قلت: لا، لم أقرأها، فلما قرأتها فإذا فيها: عجب من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره! فقلت: والله لو علمت ما حملتها، وإنما قال هذا لأنه لم يرك، قال: أفندري لم كتبها؟ قلت: لا، قال: حسدني عليك وأراد أن يغريني بقتلك»، أنظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص126.

(2) محمد عمر يحيى، التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والإسلامية في عهد الأسرة الأسيوية 98-205هـ/717-820م، بحث مدعم عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 2010، ص(1-43)

(3) نفسه، ص29

وقد نشطت تجارة الرقيق بين الطرفين، وكانت القسطنطينية مركزا هاما من مراكزها، حيث أقيمت لها أسواق خاصة في المدينة يأتيها التجار من مختلف أنحاء العالم⁽¹⁾، يذكر ابن رسته⁽²⁾ أنه كان بها أربعة حبوس: حبس للمسلمين، وحبس لأهل طرسوس، وحبس للعامّة، وحبس لصاحب الشرطة. واشتهرت بلاد الروم بتصدير الجوارى والخصيان والخدم إلى العالم الإسلامي كما ذكر ابن الفقيه⁽³⁾، وتحدث المقدسي⁽⁴⁾ عن نوع خاص من الرقيق القادم من بلاد الروم، فيذكر: «أن الرقيق الأبيض جنسان؛ الصقالبة وبلدهم خلف خوارزم إلاّ أنّهم يحملون إلى الأندلس فيخصون ثم يخرجون إلى مصر، والروم ويقعون إلى الشام وقد انقطعوا بخراب الثغور، وقد سألت جماعة كيف يخصون فتحصل إليّ أنّ الروم يرسلون أولادهم ويجرزونهم على الكنائس لئلا ينشغلوا بالنساء وتؤذيهم الشهوة، وكان المسلمون إذا أغاروا على كنائسهم أخرجوا الصبيان منها».

1- معاملة الأسرى في الدولتين: أوجد وقوع أعداد كبيرة من الأسرى والسبائا من الطرفين أحكاما ومعاملات للأسرى، وتباينت المعاملة بينهما بين معاملة إنسانية حسنة ولا إنسانية سيئة، وارتبطت بطبيعة الخلفاء والأباطرة أنفسهم والعلاقات الحربية والسياسية ونتائجها من جهة أخرى، فضلا عن ترسيخ قاعدة التعامل بالمثل⁽⁵⁾.

واستند المسلمون في المعاملة على الدين الإسلامي، وجاءت أسس تلك المعاملة من القرآن الكريم والسنة النبوية في معاملة إنسانية راقية، لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدَ وَاِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾⁽⁶⁾.

(1) سيف المريخي، العلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والبيزنطيين في القرنين الثالث والرابع الهجريين، التاسع والعاشر الميلاديين، (<http://www.dr-saif.com>)، 2011/6/1، ص(1-10)

(2) المصدر السابق، ص 130، 131

(3) مختصر كتاب البلدان، ص 148

(4) أحسن التقاسيم، ص 243

(5) طه خضر عبيد، الأسرى بين الأمويين والبيزنطيين 41-132 هـ/661-750م، مجلة تكريت للعلوم الاقتصادية، العراق، ع6، 13، 2005، ص(1-16)

(6) سورة محمد، الآية 4

وقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾⁽¹⁾، وتتحدث المصادر عن نماذج كثيرة لصور المعاملة لكلا الطرفين⁽²⁾.

وتحولت عملية تنصير الأسرى إلى أسلوب بيزنطي مألوف تكررت حوادثه طيلة الصراع الإسلامي البيزنطي، لكن الخلافة لم تهملهم وأصرت على فكهم وإعادةهم إلى البلاد⁽³⁾.

وهذا لا يعني أنّ الأسرى المسلمين كانوا في معاملة سيئة دوماً، فقد روى أسير يدعى "غياث بن أرزن" أنّ الأسرى كان لهم الحق في الصلاة الجماعة، وقراءة القرآن الكريم، وممارسة شعائهم، وواجباتهم الدينية الأخرى، ولقوا العطف والعناية من بعض القادة البيزنطيين⁽⁴⁾.

وعرف تقليد في الحروب بين الطرفين عبر عن الجانب الإنساني في احترام الجرحى ومعالجتهم، ودفن الموتى منهم، فأصبح بندا من بنود قانون الحرب السري بين الطرفين، وعبر عنه بالتعامل بالمثل، وخير مثال ما جرى للبطال ت 122هـ/740م عندما جرح في إحدى المعارك وبقي في أرض المعركة، فلمّا

(1) الإنسان، الآية 8

(2) أحسن الخليفة معاوية معاملة الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا في يده قبل فتح قيسارية وبعده، فروى المنبجي أنه في السنة الثانية لخلافته 42هـ/622م هزمت الروم هزيمة عظيمة وكان قائد الحملة بسر بن أرطاة فقتل عدداً من البطارقة وسي، وفعل مثل ذلك في حملته التابعة سنة 43هـ/663م، فأحسن معاوية إلى الأسرى وقد أراد بذلك أن يفعل البيزنطيون مثله بأسراه من العرب المسلمين، غير أنّ تلك المعاملة تغيرت بعد حادثة أوردتها المصادر، فحواها أنه لما شنّ الأمويين حملة ضد الروم البيزنطيين أسر فيها جماعة من المسلمين فأوقفوا بين يدي الإمبراطور قسطنطين الثاني 641-668م، فتكلم أحد الأسارى ودنا منه بطريق بيزنطي فلطم وجهه، فقال الأسير: أين أنت يا معاوية؟ لقد أهملتنا وضيعت ثغورنا، وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا؟ فوصل الخبر إلى معاوية، فنادى بالفداء، وافتدى ذلك الأسير ومن معه، أما البيزنطيون فقد عاملوا المسلمين بقسوة ووحشية تصل أحيانا حد القتل ما يفسر التعامل بالمثل، ففي سنة 50هـ/670م في حملة معاوية على القسطنطينية ضرب يزيد بن معاوية أعناق الروم، معاملة بالمثل محاولة لإذلالهم تكررت معاملة الإمبراطور طيباريوس 659-681م سنة 52هـ/672م الإنسانية للرسول الذين أوفدهم معاوية لإقرار الصلح، وكانوا اثنا عشر رجلاً من حرسه فقتل تسعة منهم، وأسرت مراكب الروم رجلين من أهل بعلبك، عندما كانا في مهمة استخبارية في طريقهما من قبرص إلى عكا، لاستقصاء أخبار الروم في بحر الشام، وأجرا على التنصر والإقامة هناك، أنظر: اغابوس بن قسطنطين، المنتخب من تاريخ المنبجي، تح: عمر بن السلام التدموي، دار المنصور، (د،ط)، طرابلس، 1986، ص 66- المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص 584-587- القرشي محمد بن عائد، كتاب الصوائف المستخرج، إعداد سليمان عبد الله السويكت، مكة المكرمة، 2002، ص 12-14- المنبجي، المصدر السابق، ص 59، 60

(3) القرشي، المصدر السابق، ص 30

(4) التنوخي أبو الحسن بن علي، الفرج بعد الشدة، الطبعة المحمدية، (د،ط)، القاهرة، 1957، ج 1، ص 138-147

علم به الإمبراطور ليو الثالث أمر الأطباء بمعالجته، فلمّا أخبروه بأنّ لا أمل في ذلك سأل الإمبراطور البطل عما يريد⁽¹⁾ وكان ذلك التصرف تقديراً لبطولة وشهرة البطل، فأجابته بأن يسمح للأسرى أن يهتموا به ويكفونه إن مات والصلاة عليه ثم تخلية سبيل من بقى منهم، ففعل ذلك⁽²⁾.

ونرى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز 99-101هـ/718-720م يكتب إلى الأسرى بالقسطنطينية: «أما بعد، فأنكم تعدون أنفسكم أسرى، معاذ الله بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أي لست أقسم شيئاً بين رعيّتي إلا خصصت لأهاليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وإني قد بعثت إليكم خمسة دنانير، ولولا أي خشيت إن زدتم أن يجسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلانا ابن فلان يفادي صغيركم وكبيركم، ذكركم وأنثاكم، حرّم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا، والسلام عليكم»⁽³⁾.

ودخل بعدها في مفاوضات مع البيزنطيين للبحث في مسألة فداء المسلمين الأسرى، ولكي يحثهم على ذلك عرض عليهم ملطية، وفودي برجل من المسلمين عشرة من الروم⁽⁴⁾، وفي العصر الأموي كان يفادي النفر بعد النفر، أمّا في العصر العباسي وفي عهد الخليفة هارون الرشيد تحديداً وقع أول فداء بمال في الإسلام، وكان ذلك سنة 189هـ/805م على ضفاف اللامس⁽⁵⁾.

أما بخصوص أماكن إقامة الأسرى المسلمين فقد خصصت لهم بنايات، وعدّ المنزل الذي بناه مسلمة في القسطنطينية مكان للإقامة وعرف بالبلاط، ويقع بالقرب من القصر الإمبراطوري في الميدان، ينزله وجوه العرب والأشراف إذا أسروا⁽⁶⁾، وتوزع الأسرى المسلمون في مختلف السجون البيزنطية، التي كانت تختلف من مكان إلى آخر في سعتها وأحوالها⁽⁷⁾.

(1) مجهول، العيون والحداثق في أخبار الحقائق، ص100

(2) ياقوت الحموي، البلدان، ج5، ص333

(3) الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ج10، ص148

(4) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ص268

(5) المسعودي، التنبيه والاشراف، ج1، ص161

(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ج2، ص52

(7) التنوخي، المصدر السابق، ج1، ص138-147

وكانت بيزنطة تحترم أو تتظاهر باحترامها للعقيدة الإسلامية بخصوص منع الطعام المحرم وتقديم المسموح به بالشريعة الإسلامية، فلا تجبر أحدا على أكل الطعام الحرام أو تحريم الملابس⁽¹⁾.

2- طرق تخلص الأسرى: نظرا للاهتمام الواسع بعملية فداء الأسرى، واعتبارها من أعظم القربات وأولى مسؤوليات الحاكم، فقد كانت تسبق عمليات الفداء سلسلة من المفاوضات والترتيبات وإيفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرير أسس الفداء، يتضح من خلالها أن التبادل يجري طبقا لقواعد مرسومة ونظم خاصة، فإذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعدادا عظيما للفداء⁽²⁾.

وكان التبادل يجري على ضفاف نهر اللامس⁽³⁾، في مقاطعة سلوقية على مسيرة يوم عن طرسوس، على أن المقدسي⁽⁴⁾ يروي حدوثه في ثغور فلسطين فيقول: «فيقع فيها النفير، وتقلع إليها شلنديات⁽⁵⁾ الروم وشوانيههم ومعهم أسرى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يعرفون لسائهم، ويذهبون إليهم في الرسائل، ويحمل إليهم أصناف الأطعمة، وقد ضج بالنفير لما تراءت مراكبهم، فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهارا دخنوا، وفي كل رباط منارة شاهقة قد رتب فيها أقوام، فتوقد المنارة التي في الرباط ثم التي تليها وهكذا، فلا تكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة، وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط، وخرج الناس بالسلاح، ثم يكون الفداء فرجل يشتري رجلا، وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشتري ما معهم».

ولم تقم سفارات كبرى بين الدولتين الأموية والبيزنطية لتبادل الأسرى على نحو ما حفل به العصر العباسي فيما بعد، رغم اتساع دائرة الحروب في العصر الأموي، فلا نجد إلا إشارات عابرة عن

(1) christop hilopolou, Aik, the Byzantine history, Athens, 1985, vol 1, p53

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص416

(3) من قرى الغرب، على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس، كانت تتم فيها عمليات الفداء بين المسلمين والروم، يقدمون الروم في البحر فيكونون في سفنهم والمسلمون في البر ويقع الفداء، أنظر: الاضطخري، المصدر السابق، ص69

(4) أحسن التقاسيم، ص177

(5) جمع شلندي، ثم خففت إلى صندل، سفن كبيرة الحجم تستخدم لنقل المؤن والسلع وكان هذا النوع معروف لدى البيزنطيين، ويتميز بأنه مركب مسطح من أعلى ليتمكن المقاتلة من مقاتلة أعدائهم من ظهرها، ويجدف الجداфон تحتهم ويقترن اسمها باسم الشواني والمسطحات في مصر الفاطمية، أنظر: أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص135، 136

اتصالات دبلوماسية لإطلاق سراح بعض الشخصيات الكبرى من رجال الدولتين، واقتصر الفداء على حالات فردية⁽¹⁾، ولم يكن هناك فداء مشهور كما يقول المسعودي⁽²⁾ بل يفادى النفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر والإسكندرية وملطية وبقية الثغور⁽³⁾.

أوردت المصادر فداء في عهد عمر بن عبد العزيز سنة 99هـ/717م سمي فداء أسرى القسطنطينية، فقد أرسل الخليفة إلى الإمبراطور ليو الثالث في أمر من مصالح المسلمين، وأوحى بأن يفادى واحد بواحد فإن رفض فرجل من المسلمين باثنين منهم، فإن أبوا فثلاثة أو أربعة، وأن يعطى بكل أسير مسلم ما سألوا، وأن يشمل الفداء حتى الذين تنصروا، واتفقوا على أن يفادي رجل من المسلمين برجلين منهم، وخلص الوفد الأسرى جميعهم⁽⁴⁾.

ويبدو من خلال عملية الفداء الأخيرة أمور كثيرة:

- حرص الخليفة على فكك الأسرى مهما كان الثمن، ليؤدي واجبه -وما ورد في رسالته إلى الأسرى بالقسطنطينية خير دليل على ذلك-.
- احتفاظ الأمويين بأعداد كبيرة من الأسرى البيزنطيين، يقابله عدد قليل من أسراهم.
- شمول المنتصرين، والعبيد بالفداء لأنهم أكرهوا على ذلك.
- كما استخدم الأمويون طرق أخرى لإطلاق سراح أسراهم، كطريقة الاستنقاذ بالقوة أو الحيلة، مستغلين تفوقهم الحربي في محاصرة الحصون والمدن البيزنطية لفرض شروطهم بإخلاء وفك أسرهم⁽⁵⁾.

(1) فتحى عثمان، المرجع السابق، ج1، ص415

(2) التنبيه والاشراف، ص176

(3) المقرئى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418هـ، ج3، ص334

(4) سجل أول فداء في عهد معاوية، ويروى الطبري في أخبار سنة 90هـ/709م فداء آخر قائلا: «وأسرت الروم، خالد بن كيسان صاحب البحر، فذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك»، أنظر: تاريخه، ج6، ص442، أحداث سنة 90هـ- المسعودي، مروج الذهب، ج2، ص854- القرشي، المصدر السابق، ص30

(5) وخير مثال على ذلك أن القائد عباس بن الوليد سنة 88هـ/707م استطاع أن يأسر في عهد والده ثلاثمائة من أبناء الملوك والبطارقة البيزنطيين في مدينة طوانة، وجعلهم سببا في تخليبة سيبلهم إذا فتحت المدينة أبوابها، فكان الصلح على ذلك، أنظر: القرشي، المصدر السابق، ص22

وعرفت طريقة أخرى وهي الإهداء أسلوباً لتخليص الأسرى، وذلك بإرسالهم من الطرفين وبطريقة تتناسب مع العلاقات بين الطرفين، أو طبقاً لبنود الاتفاقيات والهدن بين الجانبين⁽¹⁾.

أما في العصر العباسي، فقد وقع أول فداء بالمال في الإسلام في عهد هارون الرشيد سنة 189هـ/805م وملك الروم يومئذ نقفور، وحدثت عملية الفداء على يد القاسم بن الرشيد وهو بدابق، حيث فودي بكل أسير كان ببلاد الروم وحضرت مراكب الروم بأحسن ما يكون من العدد، والخيول والسلاح والقوة، وبأحسن ما يكون من الزي ومعها الأسرى، واستمرت عملية الفداء اثني عشر يوماً، فودي فيها بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير، ولم يبق في سجون الروم أي أسير مسلم⁽²⁾.

وقد قال مروان بن أبي حفصة⁽³⁾ في هذا الفداء يخاطب الرشيد بهذه الأبيات:

وفكت بك الأسرى التي شيدت بها محابس ما فيها حميم يزورها

على حين أعيبى المسلمين فكأكها وقالو سجون المشركين قبورها

وحدث فداء آخر سنة 192هـ/807م، وكان القائم عليه ثابت بن نصر أمير الثغور الشامية، حضره ألوف من الناس، وكان عدد من فودي به ألفين وخمسمائة ونيف من ذكر وأنثى⁽⁴⁾.

أما عملية الفداء الثالث وهي الأضحى، فقد كانت في عهد الخليفة الواثق 227-232هـ/842-846م في محرم من سنة 231هـ/سبتمبر 845م وملك الروم ميخائيل بن توفيل، والقائم بها خاقان التركي، وكانت عملية الفداء بعد سلسلة من المفاوضات، حضرها فرقة عسكرية عباسية عددها سبعون ألفاً من حملة الرماح فكانت فرصة لإظهار قوة المسلمين⁽⁵⁾.

(1) عندما أسرت الروم صاحب البحر خالد بن كيسان سنة 90هـ/708م وسيرته إلى الإمبراطور، الذي أفرج عنه وأرسله بدور إلى الخليفة الوليد لوجود هدنة بينهما، أنظر: المقرئ تقي الدين، الخطط المقرئية، (د،د،ن)، (د،ط)، بيروت، 1978، ج1، ص215

(2) المسعودي، التنبيه، ج1، ص189

(3) من شعراء العصر العباسي، مدح المهدي والرشيد، توفي سنة 182هـ/798م، أنظر: الفسوي، المصدر السابق، ج1، ص173

(4) المقرئ، المصدر السابق، ج3، ص334

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص310

واجتمع الطرفان ومن معهم من الأسرى على ضفتي النهر وأقام كل منهما جسرا، فكان المسلمون إذا أطلقوا أسيرا أطلق الروم مثله فيلتقيان وسط الجسر، فإذا وصل المسلم كبر المسلمون وإذا وصل الرومي صاحوا صيحة الفرحة، وكان عدد من افتدي به من المسلمين 4362 أسير، وكان يعطى الطليق فرسا وألف درهم، وإلتام العملية ونظرا لعدم وجود أسرى كفاية من الروم لتحرير باقي المسلمين، اضطر الوثائق لجمع الرقيق الرومي من بغداد والجزيرة وبلاد الشام وإخراج النساء الروميات العجائز حتى اكتمل العدد⁽¹⁾.

وجرى فداء في عهد المتوكل سنة 241هـ/855م، يظهر أنّ الروم كانوا يعرضون على الأسرى ترك دينهم واعتناق النصرانية تماشيا مع الطابع الديني للحروب بين المسلمين والروم، فمن تنصر كان أسوة لمن تنصر قبل ذلك ومن أبي قتلوه، فيذكر أنّ صاحبة الروم -أم ميخائيل- قتلت من الأسرى المسلمين اثنا عشر ألفا من أصل عشرين ألف، فوقع الفداء على نهر اللامس وكان عدد من فودي بهم في سبعة أيام ألفي رجل ومائتي امرأة⁽²⁾.

تتابعت الأفدية بعد ذلك كما يروي المسعودي⁽³⁾ في عهود: المتوكل 232-247هـ/847-862م، والمعتضد 279-289هـ/892-902م، والمكتفي 289-295هـ/902-908م، والمقتدر 295-317هـ/908-932م، والراضي 322-329هـ/934-940م، حتى كان فداء ابن حمدان سنة 335هـ/946م في عهد المطيع، ويذكر أفدية أخرى لم تثبت عنده مثل أفدية: النقاش الإيطالي أيام المهدي، وعياض بن سنان أيام الرشيد، وثابت بن نصر أيام الأمين، ومحمد بن علي أيام المتوكل⁽⁴⁾.

يتضح أنّ العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين قد أوقعت أعدادا كبيرة من السبايا والأسرى من الجانبين، مع قتلها عند المسلمين بسبب تفوقهم الحربي ومكانة الثغور، وأحكمت الظروف أن تتعامل الدولتان كل حسب عقيدتها الدينية وظروفها، كما حرص كل طرف على تخليص أسراه،

(1) الطبري، تاريخه، ج9، ص144

(2) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص191

(3) نفسه، ص191-194

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص422

فتعددت بذلك الطرق والأساليب، فالثغور الإسلامية كانت مركزا زاخرا بصور النشاط الحربي، سواء في بناء التحصينات والمعسكرات، أو تنظيم الجيوش، أو في تحركات الأساطيل، وأخيرا في تبادل السفارات من أجل الهدنة أو الفداء، وقد واجه المسلمون أعباء حماية حدودهم في عهد قوتهم بدأب ومقدرة، واستفادوا من السوابق التي تقدمت بين أيديهم ومن تجاربهم التي مارسوها، فكانت منطقة الثغور جبهة دائمة للجهاد المقدس، وغدت مجالا طيبا لنضوج كثير من النظم الحربية الإسلامية.

II- التنظيم الإداري العسكري:

ما كادت الفتوح الإسلامية تستقر، حتى شرع المسلمون في تنظيم البلاد المفتوحة مستفيدين في ذلك من النظم السابقة التي كانت قائمة في تلك البلاد عند الفتح، وكان عليهم مواجهة مهام التنظيم الإداري والحربي من خلال تزويد المراكز الاستراتيجية الهامة بالتحصينات المعمارية التي تدفع غارات العدو وتعبئتها بالسكان المحاربين، وكان عليهم أن يستلهموا ظروف البلاد في تقسيم الوحدات الإدارية وترتيب الجهاز الإداري.

فلما استقرت أقدامهم في الداخل تزايد اهتمامهم بحدودها وثغورها، وتطلعوا إلى إيفاد الحملات العسكرية وراء الدروب، ولتلاشي ضعفها في الحروب البحرية كان أول ما فعلته الدولة الإسلامية هو الاتجاه نحو تحصين السواحل وتعمير محارسها ومسالحها وشدها بالرجال، فنجد المسلمين يضعون نظاما دقيقا لحراسة السواحل، وينقلون إليها أقواما من القادرين على الحرب ويقىمون عليها وفي كبار مدنها معسكرات منظمة ومعدّة، ويقسموا هذه القوات إلى عرّافات، ويقىموا المناظر على السواحل، ويقىتسوا من البيزنطيين فكرة إعطاء الإشارات بإيقاد النيران في المواقع⁽¹⁾.

(1) جرى منح القطائع لأجل ربط العرب بالسواحل، حيث غدا قاعدة مقررة زمن الخليفة عثمان (رضه)، ولم يكن منحها لتكوين طبقة من المزارعين بل لتدعيم شأن المحاربين المرابطين في الثغور الخطرة، وكانت نتيجة هذه الجهود المتواصلة أن استطاع المسلمون ركوب البحر في أسطول إسلامي لفتح قبرص في حملتهم الأولى بقيادة معاوية، وأخذ المسلمون في إنشاء أسطول خاص بهم يتولى مقاتلة الروم، فأمر معاوية ببناء دار للصناعة بعكا بعد أن اقتصر على مصر، وبذلك بدأ التنظيم البحري الإسلامي يشق طريقه نحو البروز، والتطور، ومجارة التنظيم البحري البيزنطي خلال العهد الراشدي، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1،

ومن خلال هذه المراحل تبلور وضع الثغور والعواصم، وتأهلت لأن تشغل مكانها الخاص على تخوم الدولة الإسلامية للقوة المنافسة الكبرى قوة الدولة البيزنطية، وفيما يلي عرض لهذه المراحل التي أعانت على تحديد شخصية الثغور:

1- اهتمام الخلفاء بالثغور

أ- بناء الثغور وتحصينها: اهتم الخلفاء الأوائل بالمدن الثغرية، وفي مقدمة ذلك بنائها وإدخال التحصينات عليها لتكون قادرة على درء خطر القوى المجاورة وحماية الحدود الإسلامية⁽¹⁾، وسار خلفاء بني العباس الأوائل على هذا النظام في العناية بتحسين مناطق الحدود وبناء المدن المسورة والقلاع الحصينة، حتى إذا اكتملت أصبحت درعا يقي المسلمين من أخطار أعدائهم، وكان ذلك أساس النظام الدفاعي، حتى أصبحت الثغور بالإضافة إلى كونها مدنا عسكرية البناء والطابع مجتمعات عسكرية أيضا ذات طابع خاص ومميز⁽²⁾.

وتجلى اهتمام الخليفة عمر بن عبد العزيز 99-101هـ/718-720م بحدود الدولة الإسلامية وحصونها، حيث قام بإعادة جيش القائد مسلمة بن عبد الملك بسبب ما لقي من الجهد والبلاء من شدة البرد، فوجه لهم عامل ثغر ملطية وقائد الصائفة لإرجاعهم وأرسل لهم الزاد والكسوة⁽³⁾.

وسار بنفسه إلى ثغر المصيصة لتفقدته والاطلاع عليه عن كتب فبنى حصن المثقب⁽⁴⁾، وفي سنة 100هـ/718م أمر ببناء ساحل اللاذقية وتحصينها بعد أن أغارت الروم عليها فهدموا المدينة وسبوا أهلها، فأتم بناء المدينة وشحنها، وقيل أتم بناءها يزيد بن عن الملك بعد أن توفي عمر بن عبد العزيز⁽⁵⁾، ويتضح لنا من سياسة الخلفية مدى اهتمام الخلفاء بأرواح الناس والحفاظ عليها في المناطق

(1) الظاهر أنه لم تختلف تلك السياسة في كونها تقوم على بناء وتحصين وترميم تلك الأماكن وشحنها، والسعي للسيطرة على سواحل بحر الروم وجزره، أنظر: الحازمي الهمداني أبو بكر، الأماكن ما اتفق لفظه وافترق مسماه، دار اليمامة، (د،ط)، دمشق، 1995، ص524- طه أبو عبيدة، موجز عن الفتوحات الإسلامية، دار النشر للجامعات، (د،ط)، القاهرة، (د،ت)، ص24

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص169-173

(3) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص141

(4) الاضطخري، المصدر السابق، ج2، ص299

(5) علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ج2، ص299

الثغرية، على غرار الاهتمام بتحصينها وحمايتها.

وفي عهد هشام بن عبد الملك 105-124هـ/724-743م أولى عناية كبيرة بالثغور وأحوالها، من إنشاء التحصينات اللازمة التي كان منها؛ ثغر المصيصة، والريض، وحصن المثقب، وقطرغاش، وأقام بحصن بغراس مسلحة، وحصن بوقا⁽¹⁾.

وحين تولى مروان بن محمد الثغر كان يقدم على الخليفة هشام مرة كل سنتين، يرفع إليه أمر الثغر واحتياجاته ومصالحة من به من الجنود، وما ينبغي عمله من تحصينات لحمايته⁽²⁾، وسار على نهج الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك 124-126هـ/743-744م، حيث قام ببناء ثغر زبطرة وتحصينه بعد أن قامت الروم بتخريب هذا الحصن في عهده⁽³⁾.

وحين ولى الخلافة يزيد بن الوليد 126هـ/744م خطب في الناس قائلاً: «أيّها الناس إنّ لكم عندي أموراً ألا أضع لبنة ولا حجراً على حجر، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغره وأقسم بين مصالحه، فإن فضل رددته إلى البلد الذي يليه وهو أحوج إليه حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء، ولا أجمد ثغوركم فتفتنوا ويفتن أهليكم»، فجل اهتمامه كان سد الثغور وتحصينها⁽⁴⁾.

وما أن تولى الخليفة مروان بن محمد 127-132هـ/744-750م، حتى عمل عدة تحصينات واهتم بأمر الصائفة والروابط، وبنى حصن منصور قرب سمسياط⁽⁵⁾، واستغل الروم اشتعال الفتنة في عهد مروان فحاصروا مرعش وصالحه أهلها على الجلاء وخرجوا نحو الجزيرة وقنسرين، ثم أخربت فبعث مروان جيشاً لبناء مرعش وتمصيرها، وبنى بها حصناً يعرف باسمه "المرواني"⁽⁶⁾، والعديد من الحصون

(1) قدامة، المصدر السابق، ص 309

(2) الطبري، تاريخه، ج 7، ص 296

(3) البلاذري، المصدر السابق، ص 191

(4) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، دار القلم العربي، ط 1، بيروت، 1997، ص 136

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص 192

(6) كي لستنجن، المرجع السابق، ص 161

كالخصوص شرقي جيحان وبنى عليها حائطا وشحنها وجعل حواليها خندقا وبابا من خشب⁽¹⁾. وباستلام العباسيين السلطة سنة 132هـ/749م تغيرت خطة الحرب بين المسلمين والبيزنطيين، حيث قامت بيزنطة بسحب جيوشها وإعادةتها إلى بيزنطة، وأصبحت حروبها مع المسلمين عبارة عن غارات هدفها الهدم والتخريب وليس حروبا منتظمة⁽²⁾.

فبالإضافة إلى سياسة البيزنطيين التي تغيرت إلى حد ما، انشغل العباسيون بالأوضاع الداخلية المضطربة نتيجة سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ/750م وقيام الدولة العباسية الناشئة، وما تبع ذلك من نقل العاصمة إلى بغداد بعيدا عن الحدود البيزنطية، واتباع الدولة سياسة الدفاع بدل الهجوم، ما أدى إلى فتور في ميدان الفتوح وتوجيه الحملات العسكرية بخلاف ما كان عليه الأمر سابقا، فاتجه الخلفاء لبناء المدن الثغرية والعناية بها⁽³⁾.

وأول من اهتم ببناء الثغور وتحصينها في العصر العباسي الأول الخليفة أبو جعفر المنصور 136-158هـ/754-775م، بل ويعد من أكثرهم اهتماما بها، كما حرص على وضع أسلوب للقتال وتقاليده، والمحافظة على انتظام تسيير الصوائف والشواتي، وكانت سنة حميدة طبقها من جاء بعده⁽⁴⁾. فقد بدأ المنصور سياسة التعمير سنة 139هـ/756م حين أمر بعمران المصيصة بعد أن هدمتها الزلازل فبنى سورها، وأسكنها أهلها سنة 140هـ/757م وسماها المعمورة، وبنى فيها مسجدا جامعاً في موضع هيكل جعله مثل مسجد عمر مرات⁽⁵⁾.

وفي سنة 140هـ/757م وجه الخليفة عبد الوهاب بن إبراهيم على الجزيرة وثغورها ومعه الحسن بن قحطبة في سبعين ألفاً، فعسكروا على ملطية وأتموا بناءها⁽⁶⁾، وكانت الروم قد هاجمتها سنة

(1) قدامة، المصدر السابق، ص312

(2) حشرين سليم مودي، المرجع السابق، ص119، 120

(3) عمر يحي محمد، المرجع السابق، ص10

(4) محمد بن ناصر الملحم، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد الرشيد 170-193هـ/786-

808م، جامعة الإمام محمد بن سعود، (د ط)، الاحساء، (د،ت)، ص4

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص166

(6) ابن العديم، ج1، ص255

133هـ/750م وهدموها فلم يبق منها إلا شيئاً يسيراً⁽¹⁾، فقام الحسن بجمع العمال من البلاد كافة، واستطاع الجند الخراسانية إعادة بنائها في ستة أشهر⁽²⁾.

وقد أسهمت جهود المنصور في دعم قوتها واستمرار صمودها، وجعلها قادرة على القيام بدورها في حماية ما حولها من المناطق الثغرية لعهود طويلة، ولا أدل على ذلك ما ذكرته بعض الروايات أنّ الروم غزتها أيام الرشيد إلا أنّها لم تتمكن من الإستلاء عليها⁽³⁾.

وفي سنة 141هـ/758م أغزى المنصور عمه صالح بن علي إلى بلاد الروم، فوجّه الأخير من أهل دمشق والأردن وغيرهم فتم بناء مدينة أذنة، كما بنى القصر الذي عند جسر أذنة على نهر سيحان، إلا أنّ بناءه لم يكن محكماً فهدمه الرشيد بعد ذلك وأعاد بناءه من جديد⁽⁴⁾، كما بنى مدينة مرعش وحصنها وكانت قد بنيت وجددت أكثر من مرة في العهد الأموي، كما أعاد بناء حصن زبطرة والذي أغارت عليه الروم وشعثته أثناء فتنة الخليفة مروان بن محمد⁽⁵⁾.

ووجه المنصور سنة 155هـ/771م ابنه المهدي لبناء الرافقة⁽⁶⁾ فبنيت على شكل مدينة بغداد، وأصبحت مركزاً مهماً للتوجيه والإشراف على العمليات في مناطق الثغور⁽⁷⁾، ورغم احتجاج أهل الشام على بنائها بحجة أن ذلك يعطل أسواقهم، بعث إلى راهب في الصومعة قائلاً: «هل عندك

(1) ابن خياط، المصدر السابق، ص418

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص191

(3) الراجحي، جهود العباسيين في بناء المدن الثغرية وتحصينها، مجلة الدرعية، جامعة الامام محمد بن سعود، الرياض، ص4، 13 أفريل 2001، ص21

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص168-172

(5) حدثت سنة 127هـ/745م حينما قام سليمان بن هشام بن عبد الملك بخلع مروان وحاربه، كاتب أهل الشام وانضموا إليه وسار بمن معه وعسكر بهم في قنسرين، وانتقلت عشرة آلاف من أهل الشام الذين استنفرهم مروان لقتال الخوارج وذهبوا إلى سليمان بالرصافة، ودعوه لخلع مروان فأجابهم إلى ذلك دون أن يعبأ ببيعته وعهوده التي قطعها على نفسه للخليفة، واستفحلت ثورة سليمان فقرر مروان أن يسير اليه بنفسه، ودارت بينهما معركة كبيرة هزم فيها سليمان وقتل حوالي ثلاثين ألفاً من أتباعه، وهرب هو ومن بقي إلى الكوفة، أنظر: ابن الأثير، الكامل، ج4، ص339

(6) بلدة متصلة بالرقعة على الفرات من أعمال الجزيرة، بناها المنصور على بناء بغداد، أنظر: الحموي، المعجم، ج2، ص15

(7) ابن الأثير، الكامل، ج5، ص182

علم أن بينى هاهنا مدينة، فقال له: بلغني أن رجلا يقال له مقلاص بينها، قال: أنا مقلاص»⁽¹⁾.
وفيما يخص الثغور البحرية وتحصينها فقد قام المنصور بتتبع الحصون ومدّها وحصّنها ورمّمها، وجاء ذلك لما تجدد تهديد البيزنطيين للنظام الثغري وسقوط اللاذقية سنة 140هـ/757م، حيث أُنذر الإمام الأوزاعي الخليفة بخطر الأمر، وطلب منه أن يخصص عطيات سنوية لأهل الساحل حتى يقووا على المراقبة وحراسة الأبراج ففعل⁽²⁾.

وبعد تولي المهدي الخلافة 158-169هـ/775-785م تابع السير على درب أبيه في بناء الحصون وحشد الجند في محاولة لتأمين حدود الشام، وأصبحت سياسته سنّة لمن جاء بعده من الخلفاء، ففي سنة 165هـ/782م أرسل ولده هارون لغزو بلاد الروم فقام بترميم المصيصة ومسجدها وزاد في شحنها وقوى أهلها، وقام بهدم القصر الذي عند جسر أذنة على نهر سيحان، وجدد مدينة كفريا، كما أمر ببناء مدينة طرسوس والحدث مثلما أشار عليه الحسن بن قحطبة وبَيّن له أهمية ذلك⁽³⁾.

ولما ولي الخليفة موسى الهادي سنة 169هـ/785م اهتم بأمر الثغور وتحصينها، وقام بعزل علي بن سليمان عن إقليم الجزيرة وقنسرين وولى محمد بن إبراهيم، ولما بلغه تهدم سور مدينة الحدث بسبب الأمطار والثلوج أرسل قواده لحمايتها وتحصينها إلّا أن الأمر لم يتم بسبب وفاته⁽⁴⁾، كما اتخذ المراصد والأربطة لمساندة الثغور عند الحاجة⁽⁵⁾.

وكان للفترة التي عاشها الرشيد مع أبيه المهدي أثرها الواضح في علاقته مع الروم، فقد اطلّع بنفسه على خطر البيزنطيين، لذا عمل منذ توليه الخلافة سنة 170هـ/786م على إتمام ما بدأه أسلافه⁽⁶⁾، كما عمل على إخماد ثورات الخوارج في إقليم الجزيرة بعد تزايدها، ومن أجل ذلك ولى كبار قادته

(1) الطبري، تاريخ الرسل، ج8، ص44

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص167

(3) قدامة، المصدر السابق، ص320

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص227

(5) ابن خلدون المقدمة، ج1، ص32

(6) محمد بن ناصر الملحم، المرجع السابق، ص9

عليها، أمثال خزيمه بن خازم التميمي⁽¹⁾، ويزيد بن مزيد⁽²⁾ والذين استطاعا القضاء عليها⁽³⁾. ولما بلغ الرشيد عزم الروم التوجه إلى مدينة طرسوس سنة 171هـ/787م اهتم بها وشرع في تحصينها، فأرسل إليها جيشا بقيادة هرثمة وأمره أن يهتم بأمرها، وأن ينقل إليها البنائين المهرة ليبنوا المساكن والحصون، وينقل إليها الناس وتمصّر كباقي المدن، وفي سنة 180هـ/796م أمر ببناء مدينة عين زربة وحصينها، وبناء مدينة الهارونية سنة 183هـ/799م ويقال بناها في خلافة المهدي ثم أمّتها⁽⁴⁾. كما عمّرت في عهده مدينة الحدث بعد أن تهدم سورها وهجمت عليها الروم⁽⁵⁾، وأعاد تعمير مدينة كفريا وحصّنها بخندق وأمر ولده المأمون ببناء سور لها⁽⁶⁾، كما أعاد تجديد بناء مرعش ووسعها بعد أن عرضة لتتابع هجمات الروم عليها فكان تجديد بنائها أوسع وأعظم⁽⁷⁾. كما أن الرشيد تفوق على سابقيه من الخلفاء، بل وتميز عنهم في أسلوبه الذي اتبعه في التنظيم الحدودي، فقد استهل عهده بخطوة قام بها من أجل حماية حدود الدولة الإسلامية، وهو قيامه بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيزا واحدا سماها العواصم سنة 170هـ/786م، وجعلها منطقة عسكرية مستقلة على شكل حصون بين حلب وأنطاكية⁽⁸⁾.

وفيما يخص تحصين الثغور البحرية وكدليل على اهتمام الخلفية بحمايتها، أراد أن يوصل ما بين البحر الشامي والأحمر مما يلي بلاد الفرما⁽⁹⁾، فنصححه وزيره يحيى بن خالد البرمكي أن ينصرف عن

(1) أحد قادة بني العباس، والده خازم بعثه السفاح سنة 134هـ/751م إلى بسام بن إبراهيم الذي خالف وخلع الطاعة، فأنهزم

بسام، كما هزم الراوندية سنة 141هـ/758م، أنظر: ابن الجوزي، المصدر السابق، ج7، ص324

(2) من عمال الرشيد على الجزيرة، قاد عدة حملات في عهد الرشيد، أنظر: ابن عساكر، المصدر السابق، ج22، ص337

(3) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص451

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص168-174

(5) ياقوت، المعجم، ج4، ص46

(6) قدامة، المصدر السابق، ص308

(7) ياقوت، المعجم، ج5، ص107

(8) أنظر: ابن شداد، المصدر السابق، ج1، ق2، ص240-محمود شاكر، المرجع السابق، ص20

(9) أول مدن مصر للداخل من الشرق، بما أخلاط من الناس، بينها وبين البحر الأحمر ثلاثة أميال (45 كلم)، ومنها يختلف

الطريق إلى القسطنطينية مصر، فطريق للشتاء وآخر للصيف، أنظر: اليعقوبي، البلدان، ص175

ذلك معرباً له عن تخوفه من دخول مراكب الروم البحر الأحمر وتهديد الحجاز فعدل عن ذلك⁽¹⁾. ولما تولى الخليفة الأمين سنة 194هـ/810م بنى مدينة أذنة وأحكم بنائها وحصنها، كما أعاد بناء قصر سيحان القريب من ثغر الحدث⁽²⁾، وفي عهد الخليفة المأمون عمّرت مدينة طوانة، وهوجمت زبطرة من قبل الروم فأمر برمّها وتحصينها، ولما قدم إمبراطور الروم سنة 210هـ/825م يسأل الصلح لم يجبه المأمون، وكتب إلى عمال الثغور فساحوا في بلاد الروم فأكثروا فيها القتل وظفروا بها⁽³⁾. وفي عهد الخليفة المعتصم 218-227هـ/833-842م أمر ببناء حصن زبطرة بعد أن خربته الروم، وبنى بالقرب منه عدة حصون أخرى لتقوم بحمايته، حتى أصبحت من المناعة ما أن حاولت الروم الدخول إليها لم تقدر عليها، كما أتم السور المحيط بمدينة كفرية، وقام بتحسين ثغر قاليقلا بعد أن دكّ الروم سورها بالمنجنيق وأنفق عليه خمسمائة ألف درهم⁽⁴⁾. كما أنشأ عدة قواعد عسكرية لتجميع الجند ومسالح ومراصد وتحصينات في مناطق الثغور والطرق المؤدية إليها، ولم يغفل عن التهديدات التي تأتي من جهة البحر فأمر ببناء حصن سلوقية بالميناء بعد تهديد البيزنطيين أنطاكية سنتي 213-226هـ/828-841م حيث دمرها، وأمر سنة 223هـ/838م ببناء السفن في الشام لاقتناعه بضرورة وجود قوة بحرية تحمي الشواطئ المصرية والشامية⁽⁵⁾، واهتم بصناعة السفن بطرطوس فبلغ عدد السفن في حدود ثلاثمائة مركب سنة 227هـ/841م⁽⁶⁾. ولما تولى الخليفة الواثق 227-232هـ/842-847م لم يغفل عن تحصين الثغور وبنائها، حيث تم في عهده بناء حصن الاسكندرونة وقد يكون جدّد بناءه⁽⁷⁾.

(1) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2، قطر، 2013، ص226

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص186

(3) الحميري، المصدر السابق، ص285

(4) أنظر: الحموي، المعجم، ج4، ص299- ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص248

(5) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج، ص545

(6) طه خضر عبّيد، واقع البحرية العباسية في شرق البحر المتوسط، ص10

(7) يعقوبي، البلدان، ص363

كما اهتم الخليفة المتوكل 232-247هـ/847-861م بالثغور وبترتيب المراكب، ويصور لنا ابن العديم⁽¹⁾ صورة الثغور بعد عهد المتوكل فيقول: «وما زال مشحونا من ملوك المسلمين بالراجل والراكب إلى أن قصرت المهمم، وولى من تعدى وظلم، واشتغلوا بالذات، وتعاطوا الأمور المنكرات، فضعف أمر الثغور واحتل، ووهن عقد نظامها وانحل، وحل بالمسلمين من أعداء الله الشدة والبؤس». وإن كانت حلب قد لقيت مجدا بانتقال الحمدانيين إليها بعد قيامهم بالجزيرة، إلا أنها لم تستطع أن تحافظ على مجدها للنهائية، ولم يكن باستطاعتها التصدي للهجمات البيزنطية إلى الأبد⁽²⁾.

ويوضح ياقوت⁽³⁾ أحداث النهاية المؤسفة للثغور، فيقول: «لم يزل هذا الثغر وهو طرسوس وأذنة والمصيصة، وما ينضاف إليها بأيدي المسلمين والخلفاء مهتمين بأمرها، لا يولونها إلا شجعان القواد والراغبين منهم في الجهاد والحروب بين أهلها والروم مستمرة والأمور على مثل هذه الحال مستقرة، حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف الدولة الحمداني، فصمد للغزو وأمعن في بلادهم فكانت الحرب بينهما سجالاتاً، وإلى أن كانت وقعة مغارة الكحل سنة 351هـ/962م وقتل كل من قدروا عليه من أهلها ما كان عجز سيف الدولة، فترك الشام شاغراً ورجع إلى ميفارقين، فهاجمهم نقفور، فحاصر المصيصة ففتحها ثم طرسوس ثم سائر الثغور سنة 354هـ/965م، وتولاها لاون الأرمني».

وكان من أسباب تدهور الثغور اختلاط فرق الجيش الإسلامي مع ضعف رابطة الإسلام وتنازع الطوائف على السلطة، وتسليم الخلفاء العباسيين للفرس فالأتراك فالديلم وغيرهم، وانقيادهم للوزير وأمير الأمراء⁽⁴⁾، وقد بلغ الضعف بولاية الثغور الجزرية سنة 313هـ/925م زمن المقتدر أن قصد أهل ملطية بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا خائبين، وفي سنة 316هـ/982م انحدر أهل أرزن وغيرها إلى بغداد واستغاثوا إلى الخليفة فلم يغاثوا أيضاً، وفي سنة 317هـ/983م عزم أهل ملطية وميفارقين وأمد وآرزن على طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر على نصرهم، وأرسلوا إلى بغداد

(1) بغية الطلب، ج1، ص589، 590

(2) فتحي، المرجع السابق، ج1، ص397

(3) المعجم، ج2، ص80

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص398

يستأذنون في التسليم واستولى البويهيون على العراق سنة 344هـ/955م⁽¹⁾.

وكان الروم أثناء ذلك يغيرون على الثغور فيقتلون ويحرقون ويحرقون، وليس هناك من المठाغرين من يمنعهم عن ذلك حتى استردوا جميع الثغور، ولما استولى الروم على الثغور سنة 354هـ/965م اشترط ملكهم تخريب الجوامع والمساجد، وأن من أراد المقام في البلد على الذمة وأداء الجزية فعل وإن تنصر فله الحياة والكرامة فتنصر خلق كثير، ومن أبي ذلك خرجوا من بلاد الإسلام وتفرقوا فيها، وملك نقفور البلد فأحرق المصاحف وخرّب المساجد وأخذ من خزائن السلاح ما لم يسمع بمثله⁽²⁾.

ب- **تعمير الثغور:** سارت الخلافة الإسلامية في جبهة الثغور والعواصم التي شكلت خطوط الدفاع الأولى على حدودها المواجهة للإمبراطورية البيزنطية على سياسة واضحة، استندت إلى الرد على تحديات الروم المتكررة، وتمثل ذلك بتزويد المنطقة بالعناصر السكانية وتشجيعهم على الاستقرار على أساس زيادة العطاء، واقطاع الأراضي للجند، وزيادة حماسهم في الدفاع عنها⁽³⁾.

وقد ظهر هذا النظام مبكراً في الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)⁽⁴⁾، وهو يقوم على العلاقة بين السادة ونوابهم ويقضي بأن يملك الأولون الآخرين قطائع من الأرض على

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص398

(2) وقد انقسم نظام الأجناد كله في القرن الثاني عشر للميلاد بقدم الصليبيين وتأسيس الإمارة اللاتينية في بيت المقدس، ولما طرد صلاح الدين وخلفاؤه الصليبيين وعادت الشام إلى حظيرة المسلمين اتبعت الشام وفلسطين حاكم مصر اسمياً، وانقسمت بين عدد من السلاطين الصغار من الأسرة الأيوبية الذين يتعذر تحديد الحدود بينهم نظراً لتتابع الحروب بينهم، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ص398- كي لسترنج، المرجع السابق، ص39-40

(3) سناء عبد الله عزيز الطائي، دور المرأة في الثغور والعواصم 13-354هـ/974-965م، 13 أكتوبر 2008، (<http://3wpulpit-alwatan.com>)، (19 جوان 2011)، 228 ك أ، ص(1-3)

(4) لما أسلم تميم الداري قال يا رسول الله، أن الله مظهرك على الأرض كلها، فهب لي قريتي من بيت لحم، قال: هي لك، وكتب له بها، فلما استخلف عمر وظهر على الشام، جاء تميم بكتاب النبي (ص)، فقال عمر: "أنا شاهد ذلك" فأعطاه إياه، أنظر: الحافظ أبي الفتح محمد اليعهدي، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تح: محمد العيد الخضراوي، مكتبة دار التراث، (د، ط)، المدينة، (د، ت)، ج1، ص147

وتميم الداري: هو صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة اللحمي الفلسطيني، والدار: بطن من لحم، ولحم فخذ من يعرب بن قحطان، أنظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط11، (د، م)، 1996، ج2، ص442

سبيل المنحة، وبمكّن المالك أن يتحكم في الأرض ومن عليها⁽¹⁾.

وقد كان لسياسة الخلفاء والولاة القائمة على تشجيع المسلمين على المرابطة بمناطق الثغور أن فضل الكثير سكنى تلك المناطق، فكان لذلك أثر في إستقرار وانتقال أعداد كبيرة من المقاتلين مع عائلاتهم حتى ظهر منهم جيل أحبّ الحروب والقتال واشتهر بالشجاعة والفروسية، فكانوا يكرّمون المقاتلين الذين يكلفون لمهمات، ويتم تمييزهم عن غيرهم بزيادة العطاء ومنحهم القطن ودور السكن⁽²⁾ وأدى ذلك إلى زيادة العمران، وسوف نلاحظ أن هذا سيصبح نمطا بعد ذلك في الأراضي المفتوحة، حيث لا يستقر الفتح الإسلامي إلا عندما يستوطن المسلمون الأراضي ويستقرون بها، فيتحولوا من جند فاتحين إلى سكان مقيمين⁽³⁾، كما حدث مع مرعش التي اضطر سكانها إلى الانتقال عنها سنة 128هـ/745م أثناء انشغال الخليفة مروان بن محمد بمحاربة أهل حمص⁽⁴⁾، وفي سنة 152هـ/769م هوجمت من طرف البيزنطيين وأسرأ أهلها، وكذلك سنة 163هـ/779م حيث قادوا العديد من أهلها إلى إقليم تراقيا في عهد الإمبراطور ليو الرابع 775-780م⁽⁵⁾.

(1) المعجم الوسيط، ص745

(2) سناء الطائي، دور المرأة، ص(1-3) - ففي عهد الدولة الأموية توسع الخلفية معاوية في منح الأراضي، عندما سأله أناس من قريش وأشرف العرب أن يقطعهم من أرض الصوافي ففعل، كما قام بسمح شامل للصوافي في الشام والجزيرة وأعطى منها اقطاع لأهل بيته وخاصته، واهتم بتعمير مدن الساحل فنقل عدداً من الفرس سنة 42هـ/662م من بعلبك وحمص وأنطاكية إلى مدن على الساحل ناحية الأردن وعكا وغيرها، ونقل سنة 49 أو 50هـ/669-670م إلى سواحل قوما من الرّط وأنزل بعضهم أنطاكية، وفي سنة 49هـ/669م أغار الأسطول البيزنطي على مدن الساحل فشيّد معاوية دار صناعة السفن في عكا وعمل على استقرار الصنّاع على طول الساحل، ولما غزا عمورية سنة 25هـ/645م وجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزوته، أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص201 - فائزة إسماعيل أكبر، الرّط وموقعهم في التاريخ الإسلامي، مجلة العصور، الرياض، م8، ج1، 1993، ص(127-142) - علي محمود فهمي، المرجع السابق، ص60

(3) أنظر: علا عبد العزيز أبو زيد، المرجع السابق، ص21، 22 - عبد الهادي السيد، موسوعة التاريخ الإسلامي، المكتب الجامعي الحديث، (د، ط)، ليبيا، 2008، ج5، ص33

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص265، 266

(5) *Hebraeus Bar, the chronography of gregorius Abu lfaraj (the Son of Aaron), v1, english translation, London, 1932, p142*

ولم تختلف سياسة البيت الأموي فقد تابع الخليفة عمر بن عبد العزيز سياسة سابعه في تعمير مدن الثغور وشحنها بالرجال، فأمر أهل طرندة بالرجوع عنها إلى ملطية القريبة منها، وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو واشفاقاً عليهم⁽¹⁾، وشحن المصيصة والمثقب واللاذقية⁽²⁾.

وأولى الخليفة هشام بن عبد الملك عناية كبيرة بتعمير المدن الثغرية وتحصينها، ومنها المصيصة، والريص، والمثقب، وحصن قطرغاش، وأقام بحصن بغراس مسلحة من خمسين رجلاً، وكانت هذه الحصون قد شحنت بالجنود المرابطين، إضافة إلى تعزيزها كل صيف بجنود الطوابع من الطوائف، كما قام بجملة من التدابير والإجراءات حيال سلامة الثغور، حيث يذكر أنه خرج عشرون ألفاً من جنود الروم على حصن ملطي، فخرج رسولهم مستغيثاً به مع البريد، فندب الخليفة على الفور الناس إلى ملطية، ثم أتاه الخبر أن الروم قد غادروها، فدعا بالرسول وأخبره الخبر، وبعث معه جنوداً ليرابط بها⁽³⁾.

نستنتج أن الخلفاء الأمويين لهم سياسة واضحة في الحفاظ على الثغور والعناية بها وتحصينها لحمايتها من العدوان الخارجي وإنجازات عظيمة في المنطقة، وأن سياستهم ارتكزت على إرسال من يتولى حماية الثغور لفترة زمنية محدودة هي فترة الغزوة ثم تنتقل إلى مكان آخر، ويبدو أن هذه الظاهرة لم تستمر خلال العصر العباسي، حيث أن الإدارة العباسية قصدت بإرسال حاميات إلى تلك الثغور من أجل أن تجعلها تستوطن هناك بصفة دائمة⁽⁴⁾.

فاستبدل العباسيون سياسة تدمير الحصون وحرق المحاصيل بسياسة إنشاء المعاقل والحصون ووضع الحاميات في مدن الثغور، بل أخذوا يطورون ثغورهم لتكون حصوناً تؤدي دوراً دفاعياً في المقام الأول لحماية دولتهم، ولتكون قواعد تنطلق منها الصوائف والشواتي، وكانت هذه المدن التي أنشئت حديثاً أو التي أعيد إنشاؤها في حاجة إلى توطين سكان وجند فيها⁽⁵⁾.

(1) البلاذري، المصدر السابق، ص 262

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ج 1، ص 182

(3) البلاذري، المصدر السابق، ص 166، 167

(4) سناء عبد العزيز الطائي، دور المرأة في الثغور والعواصم، ص (1-3)

(5) نفسه

وبدأ الاهتمام بذلك مبكراً، فلما تولى الخليفة أبو العباس السفاح 132-136هـ/749-754م فرض بالمصيصة لأربعمائة رجل زيادة في شحنتها وأقطعهم الأراضي⁽¹⁾.

ولما تولى المنصور استعمل وسائل ترغيب كثيرة لحث الجند والناس على العمل في الثغور والإقامة بها كزيادة العطاء، فلكل مقاتل عشرة دنانير إضافية، وتخصيص مؤونة قدرها مائة دينار لكل واحد، وبناء بيوت خاصة لإقامتهم مع عوائلهم في تلك الثغور⁽²⁾، ثم قام بنقل أهل الخصوص إلى ثغر المصيصة، وكان مروان قد أسكنهم إياها وأعطاهم خططا⁽³⁾ في المدينة عوضاً عن منازلهم، ونقض منازلهم وأعمانهم على البناء، كما قام بشحنها بأربعمائة جندي آخر ثم أتبعهم بألفي مقاتل آخرين⁽⁴⁾. وفي سنة 141-142هـ/759-760م قام المنصور بتوطين قوة عسكرية جملها من الخراسانيين مع أعداد من جند الشام بمرعش، حيث بعد أن فرغ من بناءها أمر بتزويدها بحامية عسكرية، وحرص أن يكون جنودها من خراسان لأنها من ثغورهم، كما اهتم بالثغور البحرية فأمر بتخصيص أعطيات سنوية لأهل الساحل حتى يقووا على المرابطة وحراسة الأبراج والحصون⁽⁵⁾.

ومن شدة اهتمامه بالثغور وإدراكه لأهمية الجهاد فيها، لم ينس وهو على فراش الموت أن يوصي ابنه المهدي بأن يشحن الثغور بالرجال، وأن يقوم بضبط أطراف الدولة، قائلاً⁽⁶⁾: «وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك، وتسد ثغورك وأرغب إلى الله في الجهاد...».

وعلى نهجه سار ولده المهدي، ففي سنة 165هـ/781م زاد في شحن المصيصة وقوى أهلها وفرض بها لألفي رجل، ثم فرض بها لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير، فكثرت من بها وعظمت قوتهم، وأسكن الحدث أربع آلاف رجل ثم نقل إليهم ألفي آخرين⁽⁷⁾.

(1) البلاذري، المصدر السابق، ص 166

(2) جميل المصري، المرجع السابق، ص 109

(3) قطعه من الأرض، تتسع لأسرة واحدة، مساحتها 201 ذراع، أنظر: القرعة غولي، المرجع السابق، ص 210

(4) الجنزوري، المرجع السابق، ص 147

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص 175

(6) الطبري، تاريخه، ج 8، ص 103

(7) أنظر: البلاذري، المصدر السابق، ص 226- قدامة، المصدر السابق، ص 320

ولما تولى المهادي سنة 169هـ/785م فرض للحدث فرضاً من أهل الشام والجزيرة وخراسان في أربعين ديناراً من العطاء، وأقطعهم المساكن وأعطى كل امرئ فيها ثلاثمائة درهم⁽¹⁾.

وواصل بعده خلفاء العصر العباسي بإمداد تلك الثغور بالجند والأموال وضروريات الدفاع بتزويدها بحاميات دائمة، فتحولت إلى مناطق عامرة بالسكان فأصبحت سداً منيعاً أمام هجمات البيزنطيين.

ففي سنة 171هـ/787م قام الرشيد بتعمير مدينة طرسوس وشحنها بالمقاتلة على يد قائده هرثمة بن أعين الذي كلف سليم الخادم بذلك فاتجه إلى بغداد، ونقل المجموعة الأولى من السكان وعددهم ثلاثة آلاف رجل من أهل خراسان الذين دخلوها بعد الفتح الإسلامي وأقاموا بها، والمجموعة الثانية من ألفي رجل ألف من المصيصة وألف من أنطاكية، وطلب منهم أن يعسكروا في قرية المدائن غربي دجلة حتى انتهاء البناء، ونقلهم إليها وأقطعهم الخطط وزاد كل رجل عشرة دنانير في أصل عطائه⁽²⁾.

وتم مسح طرسوس فكانت مساحتها أربعة آلاف خطة، كل خطة عشرون ذراعاً⁽³⁾ في مثلها، فأقطعها أهلها سنة 172هـ/788م وسكنوها⁽⁴⁾، والواقع أنه كان بها حتى النصف الأول من القرن 4هـ/10م حوالي مائة ألف فارس، ويقال أن سبب ذلك أنه لم يكن هناك مدينة عظيمة في حد سجستان إلى كرمان وفارس وخوزستان وسائر العراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلاّ وبها دار أو أكثر ينزلها أهلها إذا وردوها، ولم يكن من ناحية من النواحي أو بلاد من البلاد إلا وله أوقاف عليها من ضياع أو غلات أو فنادق أو حمامات⁽⁵⁾.

وفي سنة 180هـ/796م وبعد أن أمر الرشيد ببناء مدينة عين زربة وتحصينها، ندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل، وشحن مدينة الهارونية بالمقاتلة ومن نزح إليه من المطوعة

(1) الحموي، البلدان، ج، ص228

(2) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص113

(3) هناك عدد لا يستهان به من الأذرع في الإسلام، ونقطة الانطلاق لجميع الحسابات ذراع مقياس النيل القلمم بجزيرة الروضة، يرجع إلى سنة 247هـ/861م وطولها 5404سم، تسمى بالذراع السوداء العباسية، أنظر: فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة كامل العسلي، روائع مجدلاوي، ط 2، عمان، 2001، ص83

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص233- الاصطخري، المصدر السابق، ص31

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص184

سنة 183هـ/799م، وكذلك فعل مع الحدث⁽¹⁾، وملطية التي أسكنها أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة، لأن سكانها لم يتعرضوا كبقية الثغور لضغط الروم وقسوتهم فحسب، بل لتكثيف الأتراك أيضاً⁽²⁾، ووجه أفواجا من الجند للكنيسة السوداء ليرابطوا بها، وزاد عطاءهم⁽³⁾، وأعاد بناء حصن زبطرة بعدما تهدم وشحنه بالجند⁽⁴⁾، وكذلك فعل ولده الأمين.

وعلى هذا الأساس سار خلفاء العصر العباسي، أمثال: الأمين والمأمون والمعتمد والواثق في شحن الثغور بالرجال، وإسكانها بالجند والمتطوعة ومنحهم الإقطاعات ليضمنوا بقاءها عامرة مأهولة، ولقطع الطريق عن أي محاولة من قبل الروم لمهاجمتها والسيطرة عليها.

ولم يقف الأمر بخلفاء العصرين الأموي والعباسي على إرسال الرجال إلى تلك الثغور، بل أتمّ كانوا لا يولّونها إلا لشجعان القواد والمقربين منهم والراغبين أيضاً منهم في الجهاد، ولعلنا نستخلص ذلك من قول زياد بن أبيه: «أربعة أعمال لا يليها إلاّ المسن: الذي عض على ناجدة الثغر، والصائفة والشرط والقضاء»⁽⁵⁾.

2- سياسة الخلفاء في الثغور: من خلال العرض لمدى اهتمام الخلفاء بالثغور وإنجازاتهم العظيمة بها، يتضح انتهاجهم لسياسة واضحة المعالم في الحفاظ عليها من خلال ما يلي:

أ- تسير الصوائف والشواتي: وضع المسلمون نظاماً آخر لحرب الثغور، فكانت تخرج حملات سنوية إلى بلاد الروم عرفت بالصوائف والشواتي⁽⁶⁾ وكانت متبادلة بين المسلمين والروم، ما جعل الحدود الشمالية

(1) البلاذري، المصدر السابق، ص 234-269

(2) *Bar Hebraeus, op-cit*, p212, 213

(3) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 113

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص 270

(5) اليعقوبي، تاريخه، ج 2، ص 146

(6) الشواتي(ج شاتية)، وقيل الشتاء اسم مفرد لا جمع بمنزلة الصيف لأنه أحد الفصول الأربعة، والدليل على ذلك قول أهل اللغة: أشتينا أي دخلنا في الشتاء، وأما الشتوة فإنما هي مصدر شتا بالمكان شتوا أو شتوة للمرة الواحدة أو شتى القوم أصابهم الشتاء، وشتى بالبلد أقام بها في الشتاء، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، م 8، ص 21- محمد فريد وجددي، المرجع السابق، ص 364، وأمّا الصوائف(ج صائفة)، هي أوان الصيف والغزوة في الصيف، ويقال المكان يصيف صيفا أقام به في الصيف ومثله صيف به، وأصاف القوم دخلوا في الصيف، أنظر: محمد فريد وجددي، المرجع السابق، ص 597

في حركة مدر وجزر⁽¹⁾، وهي الحملات التي تخرج بانتظام سنويا كالدوريات المنظمة فصلي الصيف والشتاء لسد الثغور، والتي استمرت من صدر الإسلام إلى أواخر الدولة العباسية⁽²⁾.

وقد عرض قدامة بن جعفر⁽³⁾ شيئا من هاته الحملات قائلاً: «إن أجهدها مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من آيار(ماي)، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية آيار وعشرة من حزيران(جوان)، فيجدون الكأ من بلاد الروم ممكنا وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمس وعشرين يوماً وهي بقية حزيران وخمسة من تموز(جويلية) حتى يقوى ويسمن الظهر، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون إلى وقت قفولهم بستين يوماً، أما الشواتي فاني رأيتهم جميعا يقولون: إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في آخر شباط(فيفري) فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار(مارس)، فإنهم يجدون العدو في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفسا ودوابا، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم ليتسابقوا»⁽⁴⁾.

وتعدّ الأساليب التعبوية الهجومية التي استخدمتها القوات الإسلامية تطبيقاً لمبدأ الهجوم خير وسيلة للدفاع لردع العدو من التفكير باستخدام القوة⁽⁵⁾، فكان المسلمون يقومون بالصوائف فينتزعون من الروم ما أخذوا وبينون ما خربوا، والروم ينشطون حين ينكمش المسلمون منتهزين فرصة خلو الثغور من معظم قواتها لأن المتطوعين يعودون إلى بلدانهم إذا نزل الثلج واشتد البرد، فكانت الصوائف أحب إلى المسلمين من الشواتي، لأنهم أكثر احتمالاً للحر من عدوهم وأقل صبراً على البرد منهم، ومن هنا

(1) وفيق الدقوقي، الجندية في عهد الدولة الأموية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1985، ص210

(2) زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، المطبعة الميسرية، (د،ط)، مكة، 1884، ص113

(3) المصدر السابق، ص192، 193

(4) كان بداية استخدام الإدارة العسكرية لهذا النظام في عهد عمر بن الخطاب(رضه) سنة 17هـ/638م، وهذا معنى قول المؤرخين وشتي فلان بأرض الروم ومعنى قولهم وكان فلان بأرض الروم مرابطاً بها، حتى أن الطبري يقرن الصوائف بالحج وهو شعيرة تتم كل سنة فنجد في ذيل كل سنة يقول: «وغزا بالصائفة فلان، وحج بالناس فلان»، أنظر: تاريخه، ج4، ص64

(5) سليمان بن صالح، المرجع السابق، ص210

عجز المسلمون عن الاستقرار وراء جبال طوروس فتحولت حروبهم إلى غزوات للتخريب، قابلها الروم بغزوات انتقامية في أرضهم التي فقدوها وحاولوا استرجاعها في الشام⁽¹⁾.

والظاهر أنّ هذه الغزوات بدأت صغيرة ومحدودة ولكن الضعف الظاهر في المقاومة البيزنطية شجع العرب على توسيع نشاطاتهم العسكرية⁽²⁾، خاصة في مناطق التحوم في آسيا الصغرى خلال الخمسين سنة الأولى من خلافة الأمويين لأنها قليلة السكان ولا تتواجد بها قوة حربية كبيرة، ولأنّ البنود البيزنطية لم تقو بعد، فضلا عن انشغال بيزنطة الحربي مع جيرانها الآخرين⁽³⁾.

وقد زاد الاهتمام بحملات الصوائف والشواتي فكانت تخرج في كل سنة وفي الوقت المحدد لها لأداء مهمتها المنوطة بها، وسار خلفاء الدولة الإسلامية على خطى معاوية الذي أدرك من تجاربه في هذا الميدان ضرورة انتقاء قادة ممتازين يقومون بإدارة العمليات الحربية، إذ تتطلب مهارة وحدقا وسرعة بديهة من القادة وإلا تعرضت الحملة كلية للفناء، كما عرف عن البيزنطيين من الدهاء والبراعة في إقامة الكمائن في الممرات التي يجتازها المسلمون ومفاجأتهم بالعدوان حيث تتاح لهم الفرص⁽⁴⁾.

فكان يستدعى الأشخاص الأكفاء المشهود لهم بالمهارة ويجري لهم نوعا من الاختبار الشخصي للوقوف على مدى مواهبهم وتجاربهم، ثم ينتقى منهم أحدا لقيادة الحملة وفق أهميتها وخطورتها، ويرسم له الخطة التي سيتبعها في إغارته من حيث تخريب الحصون أو تعميمها، فأضحى ميدان الصوائف والشواتي مجالا بيدي فيه المسلمون مواهبهم، ويتدربون فيه على أساليب القتال⁽⁵⁾، ويؤمنون الغنائم اللازمة لينالوا مجد الانتصار وتأكيد فكرة مجاهدة خليفة المسلمين للكفار لإظهار الدين⁽⁶⁾، أمّا غاية الغايات منها فكان الاستيلاء على القسطنطينية⁽⁷⁾، وبذلك عملت هذه الحملات كمدرسة

(1) وفيق الدقوقي، المرجع السابق، ص 210

(2) محمد شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، الأهلية للنشر والتوزيع، (د،ط)، بيروت، 1987، ص 92

(3) محمد خضر عبيد، الأسرى، ص (1-16)

(4) العدوي، المرجع السابق، ص 113

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص 171، 172، 199

(6) عبد العزيز الدوري، العصر العباسي الأول، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1945، ص 73

(7) كي لستنجنج، المرجع السابق، ص 169

لتخريج جيل مدرب من المحاربين والقادة العسكريين⁽¹⁾.

واتبع الأمويون في هذه الفترة سياسة حربية قائمة على أساس الهجوم المتكرر وإرسال تلك الحملات إلى العمق البيزنطي، حيث أرسلت ثماني حملات في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وأكثر من خمس وعشرين حملة في عهد هشام بن عبد الملك⁽²⁾.

كما واصل العباسيون إرسال الحملات إلى الأراضي البيزنطية، والتي لم تكد تخلو سنة دون أن تسير فيها صائفة أو شاتية بل ربما أكثر، لكن ليس هناك ما يدل على أنّ الخلفاء العباسيين هدفوا إلى ما هدف إليه أسلافهم الأمويون من حيث القضاء على دولة الروم والسيطرة على بحر الشام، فهي لم تكن عندهم سوى غارات للاستيلاء على معاقل جبال طوروس أو للنهب والسلب⁽³⁾.

واكتفت المصادر بذكر قائد الحملة دون أي تفاصيل، كذلك التي ولى فيها الخليفة المهدي إدارة الصوائف والشواتي لابنه هارون وبرفته كبار القادة، وقطع معه البعوث⁽⁴⁾ على جميع الأجناد سنة 163هـ/779م، وفيها بنى الرشيد حصن الحدث، وفتح حصن سمالو وعدة حصون أخرى، ثم أغزاه سنة 164هـ/780م فبلغ القسطنطينية وطلب الروم الصلح فصالحهم⁽⁵⁾.

(1) علا عبد العزيز، المرجع السابق، ص 13

(2) هذه السياسة عبرت عنها وصية معاوية لقادته بقوله: «أن شدوا خناق الروم، فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم»، فلم تمض سنة من خلافته العشرين إلّا ونفذ فيها حملة واحدة على أقل تقدير إمّا صائفة أو شاتية أو معاً، وسميت أحدهما اليمنى والأخرى اليسرى حسب جهتها من الثغور وأحصى محمد بن عائذ القرشي أكثر من ثلاث وعشرين صائفة يمنية ويسرى شاتية، وحملة بحرية في عهد معاوية فقط استهدف منها العمق البيزنطي برا وبحرا، وطال منها العاصمة القسطنطينية سنتي 49هـ/668م و53هـ/673م

وفي عهد يزيد بن معاوية أرسلت ثلاث صوائف وحملات سنوية ضد الدولة البيزنطية، كما أحصى أحد عشر صائفة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، أجملت إحصائية محمد بن عائذ الحملات السنوية طيلة العصر الأموي بأنّها قارت خمس وثمانين حملة برية وبحرية، أنظر: الصوائف، ص(10-40) - ثابت إسماعيل الراوي، تاريخ الدولة العربية، خلافة الراشدين والأمويين، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1976، ص 151 - طه خضر عبيد، الأسرى، ص(1-16)

(3) أسد رستم، المرجع السابق، ص 296 - كما هو مبين في الملحق رقم 11، ص 424-427

(4) ج بعث وهو الجش، أنظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 1983، ج 5، ص 209

(5) ابن خلدون، العبر، ج 3، ص 477، 478

وعلى العموم لم يكن لهذه الغزوات نتائج حاسمة، فلم تتح للمسلمين التوغل في عمق آسيا الصغرى بفضل الثيمات البيزنطية، غير أنها كانت مدرسة مفيدة بفضلها لم ينقطع المسلمون على تدرجهم⁽¹⁾.

ب- سياسة النقل والتهجير: لجأ الخلفاء المسلمين إلى نقل السكان الأصليين من الثغور إلى مناطق أخرى وإحلال أقوام مكانهم⁽²⁾، ولعلّ الهدف من هذه الحركة هو إبعاد الروم النصارى عن الساحل حتى لا ينقضوا على المسلمين⁽³⁾، وإعادة تعمير الساحل وتمكين الدفاع البري، أو لحراستها من غزوات البيزنطيين⁽⁴⁾، بالإضافة إلى تشجيع المسلمين على الانتقال إليها بهدف الرباط⁽⁵⁾.

ج- تمصير الثغور: بعد أن اقتصر إسكان الثغور بالجند والمتطوعة بهدف تعميرها، لجأ الخلفاء إلى خطوة أخرى في سياستهم وهي تمصير الثغور، أي اسكانها بالمدينين، وذلك بعد أن تحولت من مناطق خالية إلى مدن آمنة نسبياً لها حضارة خاصة بها، فانتقل الناس إليها وزرعوها، واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها، وأقاموا على الشواطئ يجرسونها⁽⁶⁾.

كما بنيت فيها المساجد والمرافق، ونقل إليها العلماء لنشر العلوم الإسلامية، فجو الثغور وتطرفها ساعد كثيراً على توفير الجو المناسب للزهاد والصالحين، والواقع أنّ غالبيتها عند تأسيسها كانت مزودة بمساجد، فنجد أنّ المسلمين لا يبنون بالثغور حصناً ولا يعمرون مدينة إلاّ وأقاموا المسجد في المقدمة لما له من دور ديني وعسكري معروف⁽⁷⁾.

(1) إبراهيم زعور، المرجع السابق، ص 184-وفيق الدقوقي، المرجع السابق، ص 213

(2) فعلى سبيل المثال أجلي الخليفة معاوية أهل الساحل من الروم إلى مواضع أخرى، وأحل مكانهم قوما من الفرس استقدمهم من فارس، وفي ذلك يقول اليعقوبي: «إن جبيل وصيدا وبيروت وأهل هذه الكور كلهم قوم من الفرس، نقلهم إليهم معاوية»، كما نقل قوما من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها سنة 42هـ/662م، ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية، أنظر: اليعقوبي، تاريخه، ج 2، ص 142- البلاذري، المصدر السابق، ص 149

(3) كما حدث في الإسكندرية سنة 25هـ/645م وطرابلس في أول خلافة معاوية، أنظر: الطبري، تاريخه، ج 4، ص 106

(4) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 62

(5) الواقدي، فتوح الشام، ج 1، ص 296

(6) عبد الحكيم الكعبي، عصر الخلفاء الراشدين، دار أسامة، ط 1، عمان، 2003، ص 149

(7) ياقوت، المعجم، م 2، ص 80

فمن ذلك المسجد الذي بناه عمر بن عبد العزيز من ناحية كفربيا، وُبني في عهد المنصور مسجد بمدينة المصيصة⁽¹⁾، ومسجد طرسوس الذي بُني سنة 172هـ/788م، أما المسجد في مدينة آمد فيشير إليه ناصر خسرو⁽²⁾ قائلاً: «بني من الأعمدة، وفي ساحة المسجد حوض كبير مستدير من الحجر، وفي وسط الحوض أنبوبة نحاس، ينفجر منها ماء صاف، وفي المسجد ميضأة عظيمة جميلة الصنع، بحيث لا يوجد أحسن منها وأنظر»، وهذا يدل على مكانة المسجد في المجتمع.

ومن المرافق الأخرى التي اهتم بإنشائها الخلفاء تعبيد الطرق وبناء الجسور، فبنى الخليفة الوليد بن يزيد جسراً على طريق أذنة من ثغر المصيصة سنة 125هـ/743م نسب إليه فسمي بجسر الوليد وذلك لتسهيل مرور حملات الصوائف نحو الثغر⁽³⁾، وبنى الخليفة عبد الملك في ثغر المصيصة هرياً⁽⁴⁾ لتموين الجند، واتخذ مسلمة بن عبد الملك في عهد الخليفة هشام مستودعاً لحفظ ثغر أرمينية، كما قام بإسكان الجند المرابطين، وبنى لهم هرياً لحفظ الطعام وآخر لحفظ الشعير وخزانة للسلاح، واتخذ عمر بن عبد العزيز لأهل المصيصة صهريجاً لحفظ الماء وكان اسمه مكتوباً عليه⁽⁵⁾.

د- الاهتمام بالأسطول لحماية الثغور البحرية: استهل المسلمون سياستهم البحرية عندما سيطروا على شواطئ بحر الشام من جبال طوروس شمالاً إلى حدود برقة غرباً، بخطة دفاعية تستهدف تأمين فتوحاتهم فعمدوا إلى الثغور البحرية وشحنها بالحاميات⁽⁶⁾، وقد أدرك خلفاء الدولة الأموية أنّ سواحل الشام لا يجنبها غزوات الروم إلاّ بإيجاد الأسطول الإسلامي الذي يحافظ على الحدود ويغزو سواحل الروم بين الفينة والأخرى، ولذلك فقد استكملوا ما بدأه معاوية من إقامة المراكب للغزو، إلى جانب ترتيب الحفظة في السواحل بالقواعد والمنشآت البحرية، واختيار قادة البحرية من ذوي الخبرة

(1) البلاذري، المصدر السابق، ص225-227

(2) سفرنامه، ص9

(3) ابن عبد الحق، المصدر السابق، ج1، ص334

(4) الهراء: بيت كبير يجمع فيه الطعام، وهو عبارة عن مستودع لتموين الجند، أنظر: الفيروز أبادي، المصدر السابق، ص1346

(5) كي لستننج، المرجع السابق، ص162

(6) العدوي، الأساطيل العربية في البحر المتوسط، (د، ط)، مكتبة نضرة مصر، القاهرة، 1957، ص2-4

وممن يجيدون فن بناء السفن⁽¹⁾.

والمعلومات عن تنظيمات الأمويين البحرية، كما يذكر فتحي عثمان⁽²⁾ أقل منها عن الأساطيل البيزنطية، ويمكن القول أنّ هناك ثلاثة أساطيل متميزة، يتركز كل واحد منها على إقليم بحري مستقل، وهي أساطيل الشام، ومصر، وشمالي إفريقية (بعد عام 704/هـ85م)، بجانب وحدة صغيرة عملت في حراسة البحر الأحمر ويحتمل خضوعها للأسطول المصري، وقد قرر ذلك ابن خلدون⁽³⁾ في المقدمة، بقوله: «واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته، مثل الشام، وإفريقية، والمغرب، والأندلس».

وتواجه الأساطيل الثلاثة توزيع الأساطيل البيزنطية؛ فأسطول الشام يواجه أسطول كبيرهايوت البيزنطي في آسيا الصغرى الذي يكون طليعة بيزنطية ضد المسلمين، خاصة في مدن أذنة وطرسوس، وأسطول شمالي إفريقية يقابل أسطول صقلية، وأسطول مصر يقابل الأسطول الإمبراطوري بالقسطنطينية وكان أكثر أهمية وأضخم عدداً، وغالبا ما اشترك الأسطولان الشامي والمصري في العمليات البحرية، في حين استقل أسطول شمال إفريقية بعملياته عنهما، وشهد الحصار الثاني للقسطنطينية فقط الأساطيل الثلاثة مجتمعة⁽⁴⁾.

ويقسم أرشيبالد لويس⁽⁵⁾ فترات تحدي المسلمين لسيادة بيزنطة البحرية في بحر الشام إلى ثلاثة فترات، وبعد فشل الجهود الأموية تحول صراع الدولتين إلى مناوشات متبادلة، فشهدت سنة 747/هـ129م نصرا بيزنطيا كبيرا، واختفت قوة الأمويين البحرية نهائيا سنة 752/هـ135م عقب

(1) النويري، المصدر السابق، ج6، ص186

(2) المرجع السابق، ج1، ص342

(3) المصدر السابق، ج2، ص137

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص342، 343

(5) الأولى دفاعية في أساسها بين 27-34/هـ748-655م وتنتهي بموقعة ذات الصواري، والثانية هجومية تبدأ من سنة 49/هـ669م، واشتملت على حصار للقسطنطينية دام سبع سنوات، وانتهت بانتصار بيزنطي بسبب نشاط الأسطول البيزنطي ونشاط المردة في الشام، والفترة الثالثة هي أشد الموجات جدية استمرت منذ سنة 73/هـ693م قرابة ستين عاما وبدأت بانتصار العرب خاصة في غربي بحر الشام، كما اشتملت على حصار ثان للقسطنطينية، أنظر: أرشيبالد، المرجع السابق، ص99-105

انكسارهم البحري والاقتصادي وسقوط الخلافة، وبمجيء العباسيين انتقلت الخلافة الإسلامية من إقليم البحر الشامي وهي الشام ومصر قاعدتي الدولة الأموية، إلى إقليم داخلي في غرب آسيا⁽¹⁾. ومن هنا يؤرخ أرشيبالد⁽²⁾ لفترة من السيادة البيزنطية، تقابل عهود الخلفاء العباسيين من السفاح إلى المأمون 134-212هـ/752-827م حيث نفضت الخلافة الشرقية يدها من شؤون البحر، وخرجت من ميادينه جملة، وأخذت آسيا تبتاعها رويدا رويدا، وليس أدل على ذلك من أن الدولة الإسلامية نظرت إلى الشواطئ على أنها حدود ونهايات ينبغي حمايتها، لا أبوابا وثغورا يمكن الاعتماد عليها في سيادة مياه البحر والقفز منها إلى ما وراءه من البلدان.

وبدأ الموقف يتغير من سنة 184هـ/800م، إذ أخذت بيزنطة تهمل شأن قواتها البحرية، وبدأت فترة أخرى من التوسع الإسلامي، عهود الخلفاء العباسيين من المأمون إلى المطيع 212-349هـ/827-960م، حيث انتقلت السيطرة إلى المسلمين الذين انتشروا على الشواطئ الجنوبية من جبال طوروس حتى البرانس، ولم يتم التغيير دفعة واحدة بل احتفظت القسطنطينية بالسيطرة على بعض القوات البحرية، والتي استطاعت أن تؤخر إتمام فتح الأغالبة لصقلية حتى سنة 289هـ/902م، ولم يأت القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد إلا وقد انتقلت السيادة الكاملة في بحر الشام للمسلمين والقوة البحرية الإسلامية في شرقيه، وبخاصة عند حدود طرسوس الأكثر استقرارا⁽³⁾.

ثم تأتي فترة حدها أرشيبالد⁽⁴⁾ تشمل عهود الخلفاء العباسيين المطيع والطائع والقادر بين 349-422هـ/960-1030م، حدثت فيها تغييرات استغرقت السنوات الأخيرة من القرن 4هـ/10م كانت على جانب كبير من الأهمية في الشكل العام للقوى البحرية، فقد استطاعت الخلافة الفاطمية بالقيروان أن تتحرك شرقا لتستولي على معظم ما كان يملكه الإخشيديون في مصر والشام والحجاز، وتربط القوة البحرية في الشرق بمحور شمال إفريقية وصقلية في غربه، وفي هذه الأثناء تحركت بيزنطة

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص341

(2) المرجع السابق، ص293، 294

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج1، ص350

(4) المرجع السابق، ص293، 294

لستولي على كريت وقبرص وطرشوس وشمالي بلاد الشام وأجزاء أخرى من آسيا الصغرى، وتعرضت ممتلكات المعز في المغرب للتقسيم ثم تدهورت القوة البحرية إلى مستوى منخفض جدا.

هـ- إنشاء القواعد البحرية المتقدمة: اجتهد المسلمون على جعل قواعد بحرية متقدمة في جزر البحر الشامى تكون بمنزلة قواعد إنذار مبكر من غزوات الروم للسواحل الإسلامية⁽¹⁾.

فاستراتيجية الخلفاء المسلمين كانت تقوم على عدة ركائز أساسية، بعضها دفاعي والآخر هجومي؛ كاحتلال الجزر القريبة من السواحل للتخلص من خطرهما، وشحنها بالقوات الإسلامية التي تتولى أعمال الرصد والإنذار، وعرقلة تقدم أسطول العدو إذا ما وقع هجوم مفاجئ ريثما يتم تنبيه القوة الرئيسية، بالإضافة إلى إرسال قوات مؤقتة عند الحاجة من المناطق الداخلية للدفاع عن الساحلية تعرف بالطواع - البعوث - تغادر بانتهاء الحاجة لوجودها، وجعل أجناد المناطق الداخلية مستعدة دائما لتقديم العون للمدن الساحلية في حال تعرضها لعدوان خارجي وفق مخطط ثابت ومنظم⁽²⁾.

ومن بين الركائز الأخرى، تشكيل نظام حراسة متطور جدا يقوم على تناوب الحراسة بين الحاميات البحرية، وبما أنّ المدن الساحلية تقع على نفس الارتفاع تقريبا ما يسمح لها بالتواصل البصري، فكل مدينتين متجاورتين على الأقل تقومون بتبادل الإشارات فيما بينهما عن طريق إشعال النيران في مواقد عالية أعدت خصيصا لهذا الغرض، وسرعان ما ينتقل الإنذار من حصن إلى آخر حتى يعمّ المنطقة الساحلية ثم الداخلية⁽³⁾.

وما أن يتم اتخاذ قرار الهجوم تبدأ مرحلة الاستعداد، حيث تتحرك القوات الداخلية إلى الساحل لتولي مهام الدفاع بدلا من القوات الساحلية المستعدة لتنفيذ الهجوم على الأهداف المعادية⁽⁴⁾.

(1) هذا ما كان في قبرص ووردس بعد فتحهما من طرف جنادة بن أمية، حيث أنزلها قوما من المسلمين واتخذ بها حصنا، وناطورا يحذرهم ما في البحر ممن يريدهم بكيد، وكان الجند المقيمين بها أشد على الروم يعترضونهم في البحر وبأخذون سفنهم، وقد خافهم العدو، أنظر: الطبري، تاريخه، ج5، ص288

(2) أنظر: بسام العسلي، المرجع السابق، ج1، ص216- أفرح مصطفى، المرجع السابق، ص71

(3) العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية، ص36

(4) ابن العديم، ج1، ص3

وما أن يتم وصول القوات الداخلية وتمركزها في مواقعها، تبدأ الخطوة الثانية وهي الاستعداد للمسير وفق مخطط كان معمولاً به في معظم الموانئ الإسلامية، حيث تندفع القطع البحرية الثقيلة حتى عرض البحر لحماية عملية الركوب، ثم تصعد القوات إلى الموانئ ناقلات الجند استعداداً للتحرك، ثم تدفع الزوارق الخفيفة في كل اتجاه للمساعدة في تأمين عملية الركوب، ثم تتخذ المراكب الجاهزة أماكنها في رتل المسير⁽¹⁾.

وقد تأثرت القوات البحرية تأثراً شديداً بالقوات البرية في تشكيلاتها ومسيرها وحتى في فنون قتالها، فقد تشكلت كما البرية من قلب وجناحين ومقدمة وساق متخذة أثناء المسيرة أشكالاً مختلفة؛ تصطف المراكب خلف بعضها على شكل رتل طويل، حيث تكون مرتبة ترتيب الهلال نصف دائرة، وقد أثبت هذا الترتيب فعاليته في تطويق سفن الأعداء، ويبدأ بالإنزال في خطوات معاكسة لخطوات الركوب، حيث ترسو المراكب الكبيرة على مقربة من الشطآن، إذ يتم الإنزال غالباً بعيداً عن الموانئ التي تكون تحت سيطرة الأعداء، فتقوم السفن الصغيرة بنقل الجنود إلى الساحل أثناء القتال-سواء كان الهلال مقعراً أو محدباً- فإذا كان محدباً يقاتل القلب سفن الأعداء، في حين يتقدم الجناحان ببطء للتطويق، وإذا كان مقعراً تتقدم كل المراكب معاً، أما ترتيب النسق الصف المستقيم، كان يتبع في غالب الأحيان حالات الهجوم، حيث تصطف السفن في صفوف مستقيمة لتنطح سفن الأعداء باللجام فتحرقها وتغرقها⁽²⁾.

(1) العسلي، المرجع السابق، ص 217، 218

(2) وفيق بركات، فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، معهد التراث العلمي العربي، حلب، 1995، ص 14

المبحث الثالث: السياسة الإسلامية- البيزنطية

أبدى المسلمون اهتماما بالمنطقة الثغرية، لما لها من مكانة أمنية وعسكرية واقتصادية واستراتيجية، وعملوا على فتحها وضمها إلى حدود الدولة الإسلامية، وبقيام الدولة الأموية عدت المنطقة جزءا أصيلا من سيادة الدولة اتخذتها قاعدة للانطلاق صوب الدولة البيزنطية وعاصمتها، ولذلك وضعت نصب أعينها إعمار المنطقة والمحافظة عليها وصد الهجمات⁽¹⁾.

وبسقوط الدولة الأموية وانتقال مقاليد الحكم إلى العباسيين، ورثوا إمبراطورية مترامية الأطراف، وتركوا صراع عسكري مع عدو بني جزءا كبيرا من تلك الإمبراطورية على أملاكه، وعلى الرغم من طول فترة السيطرة الإسلامية على تلك المناطق إلا أن عين الروم لم تزل عليها، فالغارات على شمال الشام وحدودها الغربية لم تتوقف طول تلك الفترة، خاصة وأن عددا من الأباطرة كان لديهم اعتقاد بإمكانية استعادة تلك المناطق من المسلمين وإعادةتها إلى الحضيرة البيزنطية، وظهرت تلك الفكرة واضحة في ما يسمى بحروب الاسترداد التي خاضها الإمبراطور حنا تريمسكس⁽²⁾.

وفيما يلي نستعرض أبرز العوامل السياسية التي أثرت وتأثرت بها المنطقة في تلك الفترة:

1- تبادل السيطرة على الثغور: استمرت مناطق الثغور ساحة للصراع العسكري والسياسي بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي حتى بعد سيطرة العباسيين على الحكم، وقد استغل البيزنطيون انشغال العباسيين في ترتيب بيتهم الجديد والذي تمثل في نقل عاصمتهم من دمشق إلى بغداد، وانشغالهم أيضا في التصدي للحركات المناوئة لحكمهم، وفي القضاء على آخر فلول بني أمية، الأمر الذي اضطرهم لتغيير استراتيجية المواجهة مع الروم، لذلك وجد البيزنطيون فرصة للتوسع في المناطق الحدودية في آسيا الصغرى وشمال الشام، واستولوا على عدد من المناطق الثغرية⁽³⁾.

(1) توفيق سلمان فريح حشاش، الثغور الشامية في العهد العباسي الأول 132-232هـ/750-547م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة، 2016، ص199

(2) يوحنا ابن شمشقيق (969-986 م): طرد الروس من بلغاريا، احتل دمشق والناصره وبيروت، مات مسموما على يد خلفه باسيلوس 2، أنظر: لويس معلوف، المرجع السابق، ص623

(3) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص365

وبعد أن استعادت الدولة العباسية قدرتها على التصدي للبيزنطيين، بدأت بإرسال الحملات العسكرية، وحملات الصوائف والشواتي لاستعادة ما استولى عليه، وإزالة التهديد والخطر عن باقي الثغور، فأصبحت المنطقة بين مد وجزر بين الطرفين، وأصبحت الحدود غير ثابتة، قد تندفع باتجاه العمق البيزنطي أو تنكمش إلى العمق الإسلام تبعاً لقوة الطرفين أو ضعفهما، وهكذا كان الحال طول فترة الصراع والرغبة في السيطرة على الثغور مرتبطة بطلب توسيع النفوذ والسيادة، بالإضافة إلى دفع الخطر عن العاصمتين المتقابلتين بغداد والقسطنطينية⁽¹⁾.

ويمكن أخذ فكرة عن حركة المد والجزر الحربي من خلال متابعة العمليات الحربية، والتي كان يباشرها الخلفاء بأنفسهم ويخرجون إليها بالجيوش المحاربة، كما فعل المهدي؛ فبمجرد أن استخلف أوجد تقليداً جديداً بدأ فيه بقيادة الحملات بنفسه، والبقاء على مقربة من الحدود، وجعل من الغزو السنوي عملية جهادية تقليدية تأكيداً على الصبغة الدينية للخلافة⁽²⁾.

وعلى نهجة سار خلفاؤه الرشيد والمأمون الذي توفي وهو غاز في طرسوس⁽³⁾، ثم المعتصم والواثق، إضافة إلى أن ولائها وجب أن يكونوا من البيت العباسي، وقلما عهد بأمرها لغيرهم، فقد تولاه المنصور عندما كان ولياً للعهد، ثم عبد الله بن علي ثم أخوه، ثم العباس بن محمد زمن المنصور، ثم عبد الملك بن صالح العباسي، ثم القاسم بن الرشيد زمن الرشيد، ثم العباس بن المأمون في عهد المأمون⁽⁴⁾.

ومنها أيضاً كانت ترسل الحملات لقمع الخارجين على الدولة في أطراف الخلافة الساحلية، فقد أرسل الخليفة المأمون أسطوله البحري المرابط في ثغر طرسوس سنة 210هـ/825م إلى ميناء تيسيس المصري لقمع فتنة داخلية حدثت في مصر⁽⁵⁾.

(1) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص 325، 326

(2) يعقوبي، تاريخ، ج 4، ص 548

(3) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 230

(4) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ص 333، 334

(5) طه حضر، واقع البحرية العباسية في شرق البحر المتوسط، ص (1-16)

2- ساحة للصراع الأموي العباسي: كانت مناطق الثغور ساحة للصدام المسلح بين الخلافة الأموية الآفلة والدولة العباسية الصاعدة، وعلى أرضها كانت آخر المعارك العسكرية بين الطرفين حيث شهدت أحداث نهاية الدولة الأموية، فما أن تولى أول خليفة زمام الأمور، حتى كان لزاماً عليه أن يقضي على النفوذ الأموي في بلاد الشام، والممثل في آخر خليفة مع قواته المرابطة في موقع الزاب⁽¹⁾.

حيث جمع مروان جيشاً قدر بحوالي مائة وعشرين ألفاً من فرسان الشام والجزيرة، وتوجه نحو حران ثم إلى الموصل، فنزل على دجلة وحفر خندقاً وتمركز في الضفة الشمالية من نهر الزاب الكبير، فأرسل له السفاح جيشاً بقيادة عبد الله بن علي والذي توجه إلى الزاب، وبدأ الصدام المسلح بين الجيشين سنة 132هـ/750م جمادى الأولى، واستمر القتال عشرة أيام استطاع خلالها عبد الله بن علي هزيمة مروان⁽²⁾، والذي فر إلى الموصل ثم حران ثم دمشق ثم إلى مصر وهناك لحق به أحد قادة العباسيين وقتله، وأرسل رأسه للخليفة العباسي في آخر ذي الحجة من سنة 132هـ/جويلية 750م⁽³⁾.

3- ساحة للثورات الأموية: فقدت بلاد الشام خلال العصر العباسي مكان الصدارة بين الولايات الإسلامية، والتي كانت تتمتع بها أثناء الحكم الأموي، فقد نظر العباسيون إلى بلاد الشام وأهلها بعين الريبة والحذر، بسبب ولائهم الخالص للأمويين من جهة، ومن جهة ثانية فقدهم المكانة والامتيازات الخاصة التي حصلوا عليها قبلاً، وقد استعمل الخلفاء العباسيون وأمرؤهم الشدة في تعاملهم مع أهل الشام، لذلك شهدت منطقة الثغور سلسلة من الثورات ضد الحكم العباسي⁽⁴⁾.

هذه الثورات غلب عليها الطابع السياسي والديني، أشعلها أتباع بني أمية الذين آلمهم سقوط دولة الأمويين فكانت كرد فعل على ذلك، وكان الهدف منها القضاء على الدولة العباسية، وقد بدأت بمجرد دخول العباسيين دمشق، وتركزت في بلاد الشام بشكل عام وفي مناطق الثغور بشكل خاص

(1) الزاب: بلد يقع شمال العراق، بين الموصل وأربيل، تجاوز إقليم الجزيرة، يمر بها نهران سميا بالزاب الكبير والصغير، أنظر:

الحموي، المعجم، ج3، ص123

(2) الطبري، تاريخه، ج7، 432-434

(3) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص404

(4) توفيق سلمان، المرجع السابق، ص203

كونها أكثر بعدا عن مركز الحكم والأكثر تضررا، وقد اتخذت تلك الثورات عقيدة السفيناني⁽¹⁾ شعارا لها⁽²⁾. ومن أهم الثورات التي حدثت ببلاد الثغور:

▪ ثورة أبي الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر الكلابي⁽³⁾: والذي قاد أهل قنسرين وحلب في ثورة ضد العباسيين، وكان سببها اعتداء قوات عبد الله بن علي العباسي على ورثة مسلمة بن عد الملك بمدينة بلس⁽⁴⁾، ما أغضب أبو الورد الذي تحرك على رأس أربع مائة إلى بلس ودخلها، وقتل القائد العباسي وعاث فيها خرابا ودمارا⁽⁵⁾، فطلب الخليفة العباسي من قائده عبد الله بن علي قمع هذه الثورة، والتي انتهت بهزيمة أبي الورد وإنهاء ثورته⁽⁶⁾.

▪ ثورة العباس بن محمد: ما إن انتهت ثورة أبي الورد حتى ظهرت ثورة أخرى بحلب قادها حفيد معاوية، سرعان ما أخدمت على يد مقاتل بن حكيم العكي⁽⁷⁾ الوالي على الجزيرة وأرمينيا⁽⁸⁾.

ثورة أهل الجزيرة: حاصروا القائد العباسي موسى بن كعب، وقائدهم إسحاق بن مسلم العقيلي⁽⁹⁾

الذي منحه الخليفة مروان البيعة، وهرب إلى أرمينيا بعد سماعه بوفاة، وقد تحصن العقيلي بسميساط،

(1) ظهرت تلك العقيدة في بلاد الشام بعد سيطرة العباسيين، وتقول هذه النبوءة بظهور شخص من ولد أبي سفينان سينتقد أهل الشام من الظلم العباسي، ويقضي على حكم العباسيين، ويتخذ من بلاد الشام قاعدة ملكه، أنظر: الزبير، نسب قريش، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، ط3، القاهرة، (د،ت)، ص129

(2) نائل عبد الحميد عبد الرحمان الرقب، أثر الحركات (الفتن والثورات) في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الأول 132-247هـ/681-750م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 2003، ص58

(3) هو مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث أبو الورد الكلابي من سادات قيس، من قادة الخليفة مروان، بايع العباسيين، إلا أنه سرعان ما خرج عنهم وقاد ثورة ضدهم، أنظر: ابن عساكر، المصدر السابق، ج57، ص48

(4) ابن عساكر، المصدر السابق، ج7، ص81

(5) ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص526

(6) ابن خياط، المصدر السابق، ص412

(7) هو مقاتل بن حكيم العكي: من أهل مرو، من قادة بني العباس، كان واليا على حرّان، ثم ولاه المنصور على إمرة الثغور بالجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، عندما طلب منه السفاح التوجه لإقامة الحج، أنظر: ابن خياط، المصدر السابق، ص433

(8) ابن العديم، المصدر السابق، ص33

(9) هو إسحاق بن مسلم بن ربيعة بن عاصم ابن حزن بن عامر أبو صفوان العقيلي، كان قائدا من قواد مروان بن محمد ولي أرمينية، وشهد مع مروان عدداً من حروبه، وبعد معركة الزاب هرب إلى أرمينية، ثم انحاز إلى أهل الجزيرة الذين ثاروا على العباسيين، أنظر: ابن عساكر، المصدر السابق، ج8، ص280

واجتمع إليه ستون ألف مقاتل من كافة الجزيرة، حوصر لسبعة أشهر وانتهت ثورته بصلح⁽¹⁾.

▪ ثورة إيان بن معاوية: والذي قاد أربعة آلاف شخص من بقايا جند إسحاق، ودخل بهم إلى سميساط، وتحصن بها، إلا أنه هزم هو الآخر، وانتهت ثورته على يد عبد الله بن علي⁽²⁾.

4- مواطن لثورات الطامعين في الخلافة والخارجين عنها: بمجرد ما تشكلت الدولة العباسية حتى بدأت عوامل الاختلاف والتفرق في الظهور، فقد بدأ عدد من قادة الثورة العباسية ومن معهم من الأنصار الذين قامت على أكتافهم الدعوة بالتمرد والانتفاض والثورة على السلطة العباسية، رغبة منهم في الحصول على منصب الخلافة، بالإضافة إلى ظهور الخارجين على الخلافة الذين رغبوا في الاستقلال عن سلطان الخلافة، وكانت مناطق الثغور بيئة ملائمة لذلك لبعدها عن مركز الخلافة وقربها من بلاد العدو ولعداء أهلها لبني العباس، فكانت مسرحا لبعض تلك الصراعات وعلى أرضها قامت المعارك لحسم تلك الخلافات والقضاء عليها، ولعل من أهمها:

أ- ثورة عبد الله بن علي العباسي(136هـ/754م): أرسل عبد الله على رأس صائفة لبلاد الروم، بأمر من الخليفة أبي العباس، ومعه جنود من أهل الشام، والجزيرة وخراسان والموصل، وسار بالصائفة حتى وصل دلوك، ومنها إلى درب الحدث⁽³⁾، وهناك وصلته الأنباء بوفاة الخليفة وبيعة أبي جعفر المنصور، فعاد بالجيش مدعيا أحقيته بالخلافة بناءً على وعد من الخليفة⁽⁴⁾.

فجمع جيشه ونزل نصيبين وتحصن بها، واتخذ الإجراءات اللازمة لثورته، فأرسل الخليفة المنصور قائده أبا مسلم الخراساني على رأس الجيش لقتاله، والذي استمر عدة شهور وانتهى بهزيمة سنة 137هـ/775م، ففر بعدها إلى البصرة وأقام عند أخيه سليمان متواريا عن الأنظار، إلى أن عفا عنه المنصور، غير أنه لم يأمن جانبه فأمر بقتله سنة 147هـ/764م⁽⁵⁾، وليضمن المنصور عدم تكرار

(1) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج1، ص199

(2) ابن العديم، المصدر السابق، ص33

(3) الطبري، تاريخه، ج7، ص474

(4) ابن خياط، المصدر السابق، ص412

(5) أبو زكريا الأزدي، تاريخ الموصل، تح: أحمد عبد الله محمود، دار الكتب، ط1، بيروت، 2006، ص363، 364

حركات التمرد، فقد أعاد تقسيم الشام إلى سابقه في العهد الأموي، بعد أن قسم في بداية حكمه إلى ولايتين كبيرتين حلت محل الأجناد الخمسة الأولى، ضمت أجناد قنسرين ودمشق والأردن وحمص، وعيّن عليها صالح بن علي⁽¹⁾.

ب- ثورة الوليد بن طريف الخارجي (198هـ/813م): كان الوليد بن طريف بن عامر⁽²⁾ واليا على حلب وقنسرين بعد عبد الملك بن صالح، وفي سنة 178هـ/794م خرج الوليد على الخليفة الرشيد بأرض الجزيرة، ثم توجه إلى أرمينية واستولى عليها، وقصد بعدها أذربيجان ثم حرّان، ثم عبر إلى غربي دجلة وقصد مدينة بلد، وهزم عدة جيوش للرشيد ثم عاد إلى الجزيرة، واشتدت شوكته وكثر أتباعه، فوجه إليه الرشيد يزيد من مزيد الشيباني سنة 179هـ/795م فراوغه حتى تمكن منه وقتله وحمل رأسه إلى هارون، فاعتمر شكرا لله على ما أبلاه وكافأه⁽³⁾.

ثورة نصر بن شبث العقيلي (198-210هـ/813-825م)⁽⁴⁾: من أبرز قادة الثورات ضد الخلافة العباسية على أرض الثغور، خرج على المأمون سنة 198هـ/813م في ثغر كيسوم، كان من أتباع الأمين وفي عنقه بيعة له ولما قتل غضب نصر، فتغلب على ما حوله من البلاد من ثغور الجزيرة فملك ثغر سمسيات، واجتمع حوله خلق كثير فقويت شوكته، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي، فأمر الخلفية المأمون قائده طاهر بن الحسين⁽⁵⁾ بمحاربة نصر وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب، فسار إليه وأرسل يدعوه للطاعة وترك الخلاف فرفض نصر ذلك، والتقى الجيشان بنواحي كيسوم واقتتلا قتالا

(1) الملحم، المرجع السابق، ص3، 4

(2) من بني صيفي بن حي بن عمرو بن بكر بن حبيب من قبيلة تغلب الخارجي، أنظر: ابن خلدون، تاريخ، ج2، ص360

(3) ابن مسكويه، المصدر السابق، ج3، ص523

(4) نصر بن شبث: من أنصار الأمين من بني عقيل، استقل بإقليم حلب بعد وفاة الأمين وامتنع عن البيعة للمأمون، ثار عليه، قضى على ثورته عبد الله بن طاهر سنة 210هـ/825م، أنظر: معلوف، المرجع السابق، ص574

(5) هو طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي أبو الطيب وأبو طلحة، من كبار الوزراء والقواد أدبا وحكمة وشجاعة، هو الذي وطد الملك للمأمون، ولد في بوشنج، سكن بغداد فاتصل بالمأمون في صباه، وكانت لأبيه منزلة عند الرشيد، ولما مات الرشيد وولي الأمين سنة 193هـ/809م كان المأمون في مرو فانتدب طاهر للزحف إلى بغداد فهاجمها وظفر بالأمين سنة 198هـ/813م وعقد البيعة للمأمون فولاه شرطة بغداد، ثم الموصل وبلاد الجزيرة والشام والمغرب، أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ج3، ص221

عنيفا أبلى فيه نصر بلاء عظيمًا، وعاد طاهر مهزوماً إلى الرقة⁽¹⁾، وفي سنة 206هـ/821م أمر المأمون عبد الله بن طاهر⁽²⁾ بالتوجه لقتال نصر بعد أن ولاه على مصر والشام، فسار إلى الشام وسيطر على الرقة، وبسط نفوذه على المنطقة بكاملها حتى نزل كسيوم وبها نصر فحاصرها مدة من الزمن حدثت خلالها وقائع كثيرة انتهت بهزيمة نصر بعد أن استسلم وطلب الأمان سنة 209هـ/824م⁽³⁾.

ج- ثورات متفرقة: كما شهدت مناطق الثغور مجموعة من الثورات المحدودة، ولعل من أبرزها:

1- ثورة العباس بن زفر الهلالي: الذي تغلب على مدينة قورس وما يجاورها من العواصم، ثم سيطر على قنسرين سنة 196هـ/812م مستغلاً الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون، فوجه إليه طاهر بن الحسين رسالة سنة 199هـ/815م وهو في طريقه لمحاربة نصر حثه على الاستسلام، وانتهى ذكره سنة 208هـ/823م بعد أن سيطر عبد الله بن طاهر على بالس وكيسوم وقضى على ثورة نصر⁽⁴⁾.

ثورة عثمان بن ثمامة العبسي⁽⁵⁾: استغل فتنة الأمين والمأمون وسيطر على المنطقة الممتدة ما بين قنسرين وأفامية وأنطاكية، تواصل مع النصارى شمال الشام فزار أديرتهم وكنايسهم، كدير قنسرين على طريق الفرات وكنيسته التي حرقت وخربت، واستجاب لطلبهم بإعادة بنائها، بل طالب أتباعه من الأمراء بالمساعدة في ترميم الكنائس والأديرة، وساعد نصارى أنطاكية بأن طرد أتباع المتمردين على بطريك أنطاكية المنصب رسمياً⁽⁶⁾، انتهت ثورته سنة 208هـ/823م بعد أن رأى سيطرة عبد الله بن طاهر على بالس وتدميره لها، فقام بالاستسلام وأداء ولاء الطاعة⁽⁷⁾.

(1) أنظر: الطبري، تاريخه، ج8، ص529- ابن العديم، المصدر السابق، ص39

(2) هو عبد الله بن مصعب الخزاعي أمير خراسان، من أشهر الولاة في العصر العباسي، أصله من باذغيس بخراسان، ولي إمرة الشام مدة ونقل إلى مصر سنة 211هـ/826م فأقام سنة ونقل إلى الدينور، ثم ولاه المأمون خراسان وظهرت كفاءته، أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج3، ص83

(3) ابن كثير، البداية، ج10، ص287

(4) الرواضية، المرجع السابق، ص113-115

(5) جده الوليد العبسي كان قائداً أمويًا وواليا على قنسرين، تولى قيادة الصائفة في عهد المنصور والمهدي، ولما تولى الرشيد كان ثمامة شيخاً كبيراً وعلى اتصال به، حاول نصر والعباس أن يضمهما إلى ثورتهم فرفض، أنظر: خليفة، المصدر السابق، ص430

(6) اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص313

(7) الرواضية، المرجع السابق، ص117

المبحث الرابع: العوامل الأمنية

نظرا لطبيعة الحياة في الثغور والتي هي دار رباط وحرب وفي مواجهة العدو، ونظرا لأن المناطق الحدودية في الغالب هي ساحات للتجسس وتتبع الأحداث ونقل الأخبار، تطلب بقاء أهلها على يقظة وحذر على مدار اليوم من جواسيس الروم والمتبعين لعورات المسلمين، ونقل أخبار خلافاتهم ومشاكلهم، ما أثر على سلوكيات وطبائع أهل تلك الثغور، حيث غدت سمة الجفاء والغلظة هي السمة الأبرز للسلوك الاجتماعي لبعضهم، تجاه الطارئ الغريب الوافد إليهم حتى يأمنوا جانبه⁽¹⁾. ولقد حرص الطرفان على التعرف على ما يدور في بلاد الآخر، وذلك من باب معرفة أحوال العدو وتوجهاته، والبقاء على جاهزية للتصدي لأطماعه، واقتناص الفرصة المواتية للانقضاض عليه، لذلك تم توظيف كل أدوات نقل المعلومات والأخبار لمتابعة ما يحدث في الجانب الآخر، وما يستجد من أحداث، فكانت تصل بواسطة الجواسيس والعيون أو التجار أو الأسرى، وتصب عند والي الثغور، والذي بدوره يقوم بتزويد الخليفة في بغداد بما يحدث في بلاد الروم، وكذلك كانت تنقل أخبار المسلمين للروم⁽²⁾.

ولقد تمثل الدور الذي لعبته الثغور في هذا المجال فيما يلي:

1- الاستفادة من سكان الثغور في العمل الأمني: نظرا لقرب أهل الثغور من بلاد الروم والاحتكاك المتواصل معهم، فقد لعبوا دوراً مهماً في تتبع أخبار الروم والتنصت عليهم، وجمع المعلومات عنهم، ومعرفة مواضع الخلل عندهم ونقاط ضعفهم، ولقد أدرك المسلمون الأوائل أهمية ذلك فجعلوه شرطا أساسيا لقبول الصلح مع أهالي تلك البلاد، بدليل لما فتحت رعبان ودلوك سنة 16هـ/637م قام عياض بن غنم بمصالحة أهلها، واشترط عليهم مقابل ذلك أن يبحثوا له عن أخبار الروم، ويكاتبوا بها المسلمين⁽³⁾.

(1) توفيق سلمان، المرجع السابق، ص 217

(2) الطبري، تاريخه، ج 10، ص 12

(3) الحموي، المعجم، ج 5، ص 123

وكذلك فعل حبيب بن مسلمة الفهري⁽¹⁾ مع أهل الجرجومة وهو في طريقه لغزو أنطاكية سنة 18هـ/639م حيث طلب أهلها الأمان والصلح⁽²⁾، فصالحهم على أن يكونوا أعوانا وعيونا للمسلمين في جبل اللكام وألا يأخذوا بالجزية.

ولقد أثرت طبيعة الجوار في مزايا أهل البلدان القريبة من بلاد العدو، من حيث معرفتهم بأخبار الآخر وخبرتهم بتفاصيل بلاده وطبيعة حياته، فوصف أهل الهارونية بأنهم مجاهدون في غاية الشطارة والجلد يغزون فيغنمون ويتلصصون على بلد الروم فيسلمون، وكذلك أهل حصن التينات بأنهم رجال أجلاء في القتال، لهم علم بواضع الخلل في بلاد الروم وممالكهم⁽³⁾.

كما كانت تعيش في مناطق الثغور فئة تعرف بالأدلاء، وهم المؤلفة قلوبهم من غير المسلمين كالأرمن، وبالرغم من أنها ليست طبقة واسعة الانتشار وليس لها تأثير واضح في مجتمع الثغور إلا أنها كانت محط اهتمام أولياء الأمور في المنطقة، للدور الكبير الذي تلعبه تلك الفئة في الحصول على المعلومات الخاصة والتي من شأنها حسم الحرب⁽⁴⁾.

فقد سكن الأرمن منطقة الثغور ونزلوا ملطية بعد أن انتقل عنها أهلها⁽⁵⁾، وكانت غالبية سكان كيسوم وسميساط من الأرمن⁽⁶⁾، وقد لعبوا دوراً أمنياً مهماً حيث وقفوا إلى جانب المسلمين، وأعانوهم على الروم في أكثر من مرة، وعمل بعضهم كأدلاء للجيوش الإسلامية لبلاد الروم، وكان المسلمون يصرفون عليهم من الغلال التي تجبي من الضياع التابعة لطرسوس، كما ميزت دوابهم

(1) هو حبيب بن مسلمة بن مالك بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيان بن محارب بن فهر القرشي الفهري أبو عبد الرحمن، ويقال أبو مسلمة وأبو سلمة المكي، شهد اليرموك أميراً، له دار بدمشق، كان كثير الغزو إلى بلاد الروم حتى سمي حبيب الروم، لا يزال معاوية يغزيه ولم يزل معه في حروبه في صفين وغيرها، عيّنه واليا على أرمينية فمات بها سنة 42هـ/662م ولم يبلغ الخمسين، أنظر: ابن سعد، المصدر السابق، ج6، ص540، 541-الذهبي، تهذيب التهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج2، ص212، 213.

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص217.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص182.

(4) توفيق سلمان، المرجع السابق، ص218.

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص261.

(6) الجنزوري، المرجع السابق، ص152-154.

ومطاياهم من الشعير برسم العشر، وأطلق عليهم سنويا بمقدار نشاطهم⁽¹⁾، وكذلك الجراجمة الذين كانت تتم الاستعانة بهم في مواطن كثيرة، وكان يعرف منهم المناصحة وتجري عليهم الجرايات، وقد ألزمهم بعض العمال بدفع الجزية فرفعوا ذلك إلى الواثق فأمر بإسقاطها عنهم⁽²⁾.

وقد تعايش المسلمون والمسيحيون في منطقة الثغور في جو واحد، وتمتع المسيحيون بحرية كبيرة في ممارسة طقوسهم وشعائهم الدينية، لكن الظروف كانت تتبدل وتتغير تبعا للأحداث العامة التي تمر بها البلاد، حيث كان يصدر عن الخلفاء في بعض الأحيان قوانين مجحفة بحقهم، ومن بينها الأمر بأن يوسم جميع المسيحيين على العنق أو الجبين أو الصدر أو اليدين أو الكتفين⁽³⁾، ومضاعفة ضرائبهم وحظر بناء كنائسهم والذي يخضع لأمر شرعي وهو منع هدم القائم منها ومنع بناء الجديدة⁽⁴⁾.

وحدث في عهد الرشيد أن تعاون النصارى من سكان الثغور مع البيزنطيين، فأصدر أمرا بهدم كنائسهم، واستخدم تلك الحجارة في بناء الحصون ومدن الثغور، وأخذ أهل الذمة إلى مدينة السلام، وأمر بمخالفة النصارى هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم⁽⁵⁾، وأن لا يبنوا كنسية أو يبعه لهم إلا بأمر منه ، وأن لا يظهروا صلبانهم في الأمصار، وذكر أنه تراجع عن قراره⁽⁶⁾.

وكانت معاملة المسلمون للنصارى صادرة من الشرع ولا تعني أنّ المسلمين عاملوا النصارى بطريقة سيئة، بل على العكس فقد عاش المسيحيون جنبا إلى جنب مع المسلمين، ولعبوا دورا هاما في مساعدة المسلمين خلال حملاتهم العسكرية، وتحديدًا في مجال معرفة لغة الروم والترجمة عنهم، فعلى سبيل المثال: بسيل الترجمان الذي شارك الرشيد في إحدى حملاته، ورافق المعتصم في فتح عمورية، أمره المعتصم بعد انتهاء المعركة أن يميز بين الأسرى، فيعزل منهم أهل الشرف والقدر من الروم في

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص181

(2) نفسه، ص233

(3) كان الغرض من الوسم منع سكان مناطق محددة "مسلمين ومسيحيين" من الانتقال إلى مناطق أخرى، مما يؤدي إلى تراجع الرسوم، ثم أنّ هذه الإجراءات هي للحفاظ على الشرع وتدخّل في الغيار.

(4) شيرين سليم حمودي، المرجع السابق، ص45

(5) الطبري، تاريخه، ج8، ص324، أحداث سنة 191 هـ

(6) أبو يوسف، المصدر السابق، ص107

ناحية ويعزل الباقيين في ناحية أخرى⁽¹⁾، وأمّا ما كان يحدث لهم من مشاكل إنّما كان نتيجة غير مباشرة لما تعانیه الخلافة في بعض الأحيان من ضغوط خارجية أو مشاكل داخلية، كما نقل الخليفة المعتصم عدداً كبيراً من الزط⁽²⁾ إلى عين زربة فانتفع أهلها بهم⁽³⁾، كما استفاد خلفاء العصر الأموي والعباسي من الفرس في تعمير الثغور⁽⁴⁾.

2- **توظيف التجار للعمل الأمني:** لعب التجار الذين يترددون عبر مناطق الثغور ومنها إلى بلاد الروم، دوراً هاماً في نقل بعض أخبار الروم وتحركاتهم، فهؤلاء التجار لم تؤثر على عملهم الأوضاع السياسية والأمنية التي كانت تخيم على مناطق الثغور، وعلى طرق التحرك من وإلى الدولة البيزنطية، خاصة وأن طرق التجارة هي نفسها الطرق التي كانت تسلكها الحملات العسكرية أو الاستطلاعية⁽⁵⁾.

وقد أدرك البيزنطيون خطر هؤلاء التجار، إلا أنه لم يكن بمقدورهم الاستغناء عن التعامل معهم، ولا عن منتجات العالم الإسلامي أو منتجات الشرق التي كانوا ينقلونها، لذا وضعت بيزنطة العديد من القيود على التعامل التجاري معهم، والذي وضع من خلال إلزام التجار بالدخول إلى القسطنطينية من مواضع معينة، وأن يحصلوا على إذن الدخول، وكانت توضع عليهم حراسة دقيقة ورقابة تامة عند الدخول العاصمة، وتكون إقامتهم محددة بفترة زمنية⁽⁶⁾.

3- **العيون والجواسيس:** اهتم الخلفاء المسلمون ببيت العيون والجواسيس وسط أراضي العدو، لاستطلاع الأخبار ومعرفة مخططات الأعداء، وعادة كانت طريقة جمع المعلومات تتم قبيل الحروب

(1) الطبري، تاريخه، ج9، ص69

(2) بضم الزاي وتشديد الطاء، تعريب للكلمة الفارسية جت Jat أو Jets، وقد اتفق المؤرخون والجغرافيون على أن أصلهم من بلاد الهند إلى بلاد فارس والعراق، وهم خليط من الهنود دخلوا الدولة الإسلامية واشتغلوا في مهن متعددة لا سيما بالزراعة ويطلق عليهم الآن العجر، أنظر: فايزة إسماعيل أكبر، المقال السابق، ص(127-142)

(3) الجنزوري، المرجع السابق، ص155

(4) البلاذري، المصدر السابق، ص232

(5) توفيق سلمان فريح، المرجع السابق، ص220

(6) نخلة أنيس مصطفى، الأسواق والمراكز التجارية في شمال الشام والجزيرة خلال العصر العباسي، بحث نشر في المؤتمر الدولي في التاريخ الاقتصادي، جامعة الأزهر، القاهرة، ص1998

والمعارك أو خلالها، للحصول على مدى استعدادهم للحرب، وعدد قواتهم ومواقعهم، ويطلق على أحد هؤلاء اسم العين والجاسوس⁽¹⁾.

ففي رسالة وجهها مروان بن محمد لولده عبد الله قال: «أذك عيونك على عدوك، متطلعا لعلم أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومنازلهم التي هم بها، ومطامعهم التي قد مدوا أعناقهم نحوها، وأي الأمور أدعى لهم إلى الصلح، وأقودها لرضاهم إلى العافية»، وبالنظر إلى أهمية الجواسيس نحو الأعداء وخطورة واجباتهم في الإدارة العسكرية، نجد أن العلماء وصفوا شروطا ينبغي على متولي الإدارة العسكرية مراعاتها⁽²⁾.

كما أولوا عناية فائقة لأن يكون أمام الجيش طلائع تتقدم مسيرة الجيش حتى لا يفاجأ بعدو، ووصفوا لهذه الطلائع شروطا، جاءت في أقوالهم ووصاياهم منها: «تقدم في طلائعك فإنها أول مكيدتك، ورأس حربتك، ودعامة أمرك، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوي نجدة وبأس وصرامة وخبرة، حماة، كفاة، قد صلوا بالحرب، وتذاوقوا سجالها، ثم انتقمهم على عينك»، وعملوا على انتقاء قائد الطلائع، بحيث يكون شجاعا، مشهورا، جهوري الصوت⁽³⁾.

وكانت المعلومات التي يتحصل عليها الجواسيس توفد إلى صاحب البريد، فهو بمثابة عين الخلفية الباصرة وأذنه السامعة، والواسطة بين الخلفاء والقادة والولاة، وكان أصحاب البريد رقباء ومفتشين من قبل الدولة يرفعون التقارير عن أحوال الجند والمال والعطاء، ومن واجباتهم مساعدة الإدارة العسكرية في التموين والإمداد، وحفظ الطرق وصيانتها من الأعداء، وانسلاال الجواسيس، ويجد عنده الخليفة ما يحتاج إليه من المعرفة عند إنفاذ الجيوش، فسمي لذلك جناح المسلمين لما كان يطير به من الأخبار⁽⁴⁾.

(1) الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية، (د،ط)، مصر، 1964، ص24-26

(2) أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه، وذا حس صائب وفراسة تامة ليدرك أحوال العدو، كثير الدهاء والحيل والخديعة ليتوصل بدهائه إلى كل موصل، له دراية بالأسفار، ومعرفة بالبلاد التي يتوجه إليها، وعارفا بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها، وصبوراً على ما لعله يصير إليه من عقوبة إذا ظفر به العدو، حتى لا يخبر بأحوال مرسله، أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج10، ص218-1، ص123، 124

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج10، ص225

(4) قدامة، المصدر السابق، ص50

4- نقاط للاستطلاع المتقدم ومكافحة الجاسوسية: كانت الثغور تعبأ بالمساح والمناظر والمراقب، وهي خطوط الدفاع الأولى عن المدن الثغرية ونقاط الأمان فيها، ومحل جمع المعلومات عن تحركات العدو ونياته، وكانت توضع بها الحاميات المقيمة، والتي كانت وظيفتها الأولى الاستطلاع، وإخبار الجيش بقدوم عدو ما، ومشاغلتها لحين وصول القوات المدافعة⁽¹⁾.

وغالبا ما تكون في مواضع مشرفة مثل رأس تل أو جبل لمراقبة العدو، فإذا أراد الغارة أرسلت تلك المناظر رسالة تحذير للتهيؤ لصد العدو ومنعه من التسلل بسهولة، وتكون متصلة بالنظر، وتمر عليها دوريات للتفقد، وتتضح هذه الصورة من خلال رسالة مروان بن محمد إلى ابنه عندما وجهه للقتال قائلا: «ليخرج في كل ليلة قائدا في أصحابه أو عدة منهم، إن كانوا كثيرا على غلوة أو اثنين من عسكريك، متبذبا عنك، محيطا بمنزلك، ذاكية أحراسه، قلقة التردد، مفرطة الحذر، معدة للروع، متأهبة للقتال، آخذة على أطراف العسكر ونواحيه، متفرقين في اختلافهم كردوسا كردوسا»، كما أوصاه: «واجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكريك نوبًا معروفة وحصصا مفروضة، لا تستثن منها زلفا منك بمودة، ولا تتحامل فيه على أحد بموجدة، ولا تستثن منه أحداً من المقربين إليك»⁽²⁾.

واتبع الأئمة وولاة الثغور سياسة مشددة لمنع التخابر مع الأعداء ونقل المعلومات إليهم، حيث كان يفتش كل من يمر من التجار على المساح، فمن وجد معه سلاح أو دقيق أو شيء آخر رد، ومن كان معه كتب قرئت كتبه، فما كان فيها من خبر أخذ الذي أصيب معه وبعث به إلى الإمام ليرى فيه، ولا ينبغي للإمام أن يدع أحداً ممن أسر يخرج إلى دار الحرب راجعا دون أن يفادى به، فإما على غير الفداء فلا، فإن كان هؤلاء الجواسيس من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدي الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فتضرب أعناقهم، وإن كانوا من أهل الإسلام معروفين، فيوجعون بالعقوبات ويطول حبسهم حتى يتوبوا⁽³⁾.

(1) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص299

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج10، ص229

(3) فوزي فاروق عمر، الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي 41-334هـ، المكتبة العلمية، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ص230

5- منفي لمناوئي الحكم: لعبت منطقة الثغور دوراً أمنياً آخرًا في أنّها استوعبت كل من يخشى منه إفساد حياة المسلمين في الحواضر، وكانت هدفاً لسياسة الإبعاد عن عاصمة الخلافة التي اتبعتها الخلفاء، كرد فعل على اشتراك بعض العناصر أو الجماعات في الفتن والاضطرابات السياسية الداخلية، حيث يتم إبعادهم اتقاءً لشهرهم، وقد كانت تلك سياسة ناجحة حققت عدة أهداف من أبرزها: التخلص من شرور هؤلاء الناس خاصة أن الأوضاع في الحواضر تكون دقيقة وحساسة، وكذلك زيادة عدد المسلمين في الثغور مما يربك مخططات الأعداء في حال فكروا في غزوها، وأخيراً الاستفادة منهم في أمور الحياة العامة⁽¹⁾.

كما حدث مع الزط حين تمردوا وقاموا بقطع الطرق في عهد المعتصم فحاصروهم وأمر بنقلهم إلى عين زربة⁽²⁾، وهناك اندمجوا مع أهلها وانتفع الناس بهم كثيراً⁽³⁾، هذا على صعيد الجماعات أما على صعيد الأفراد فقد أبعده الإمام أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح المضروب⁽⁴⁾ وغيرهم، وأرسلوا إلى طرسوس في عهد المأمون حين بدأت محنة خلق القرآن.

6- استيعاب ودعم الثائرين على العدو: استخدمت مناطق الثغور كذلك لاستيعاب بعض المناوئين للدولة البيزنطية ولجوائهم إلى الدولة الإسلامية مثل: توماس الصقلي⁽⁵⁾، الذي لجأ إلى أنطاكية سنة 208هـ/ 823م وتوج بطريقها أيوب الثائر إمبراطوراً، وقد عقد مع الخليفة المأمون معاهدة خلقت للمسلمين فرصة مناسبة لكي يشنوا غاراتهم على أراضي بيزنطية، وقد أدت ثورته دوراً مهماً في

(1) فوزي فاروق عمر، المرجع السابق، ص 230

(2) قدامة، المصدر السابق، ص 309

(3) ابن خياط، المصدر السابق، ص 476

(4) محمد بن نوح بن عبد الله أبو الحسن الجنديسابوري، صاحب الإمام أحمد، سكن بغداد وكان أحد رواة الحديث نفاه المأمون إلى طرسوس بعد إصراره على الامتناع من القول بخلق القرآن، وتم إعادته إلى بغداد بعد وفاة المأمون، مات في الطريق سنة 218هـ/ 833م، أنظر: ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تح: عبد الله بن عبد المحسن الترك، دار هجر، ط2، (د،ت)، 1409هـ، ص 427

(5) ت 208هـ/ 823م، قائد عسكري من صقلية آسيا الصغرى، يدعي أنّه ابن الإمبراطور قسطنطين الخامس، قاد ثورة داخلية في الدولة البيزنطية سنة 205هـ/ 820م، عاش هارباً في بلاد المسلمين، أنظر: مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج 2، ص 338

إضعاف الدولة البيزنطية برًا وبحرًا، وخسارتها لجزيرتي كريت وصقلية، ما دفعها لشن هجوم تدميري على أنطاكية سنة 213هـ/828م انتقاماً منها على استيعابها للصقليين، وبنفس الأسلوب قام الروم بمد يد المساعدة لنصارى جبل لبنان حتى وصل بهم الأمر لغزو سواحل الشام، حيث تم غزو طرابلس عام 152هـ/769م في عهد المنصور⁽¹⁾.

واستغل الروم ثورة نصر بن شيبث العقيلي 198-210هـ/813-825م، فكاتبوا نصر وبعثوا إليه رسولاً إلى ثغر كيسوم وقد افتخر بقدومه، فنصحه أنصاره من مغبة الاتفاق مع الكفار فقام بقتل الرسول، وكذلك فعلوا مع بابك الخرمي حيث فتحوا معه مفاوضات سرية وتعاون حربي، فكان الهاربون من أصحابه يلجؤون إلى الأراضي البيزنطية إن ضيق المسلمون عليهم⁽²⁾.

(1) مصطفى شاكر، المرجع السابق، ج2، ص322

(2) نفسه، ص337

المبحث الخامس: الحروب والمعارك

تظهر صورة الحدود الإسلامية في عدة مجتمعات مدنية في سهول وأودية وأنهار إلى الجانب الشرقي من آسيا الصغرى، في شكل مدن حصينة وقلاع سرعان ما أصبحت قواعد لاجتذاب العناصر السكانية التي ستتولى الدفاع عنها، كما كانت تعدّ قواعد لانطلاق الهجمات التي كانت تتطور كما شاهدنا أحيانا لتأخذ شكل حملات ضخمة، ينظمها ويقودها الخلفاء أنفسهم أو من ينوب عنهم من كبار رجال الخلافة⁽¹⁾.

فالكثير من النشاط العسكري بالمنطقة كان عبارة عن خروج جماعات محدودة العدد والهدف، في شكل من أشكال التحرك السكاني ذي الطابع العسكري، ومع استقرار تلك العناصر بالمنطقة وحدوث عملية الانصهار بينها، بدأت تميل تلك المدن عن الطابع العسكري الذي قامت من أجله، وتتحول شيئاً فشيئاً إلى مراكز حضارية مزدهرة⁽²⁾.

فشكل المجتمع الثغري وحدة بكافة فئاتها وشرائحها المختلفة، أثرت وتأثرت بالأوضاع السياسية والاقتصادية للعالمين الإسلامي والبيزنطي، كان لها عاداتها وتقاليدها المميزة، عاشت حياة اجتماعية أثمرت فيها طبيعة المنطقة ودورها العسكري بالأساس، فحياة السكان ارتبطت بالجهاد والاستعداد الدائم للحرب والنفير، وقد تمثل الدور العسكري للثغور فيما يلي:

1- **التعبئة العسكرية والتدريب:** لعبت الثغور دوراً عسكرياً مهماً، حيث كان يتم على أرضها الاستعدادات الحربية وتعبئة الجيوش⁽³⁾ والتهيؤ لملاقاة العدو، وكون أنّ الثغور هي أماكن ومعسكرات للرباط والجهاد والقتال ضد الأعداء، كان لا بد أن تكون جاهزة ومستعدة على الدوام هي ومن يقطنها، لذلك اختلفت الحياة فيها عن غيرها من الأماكن، واختلف النشاط اليومي فيها عن غيرها،

(1) محمد العبد الغني، المقال السابق، ص(11-59)

(2) محمد شعبان، المرجع السابق، ص188

(3) التعبئة العسكرية: مفهوم عسكري يعني عملية ترتيب وتنظيم الجيش قبل المعركة وأثناءها، أنظر: طه عبيد خضر، التعبئة العربية الإسلامية في كتاب *the tactica* للإمبراطور البيزنطي ليو السادس 886-912 م، مجلة الجمع القلمي، ع1، 1 فيفري 2000، ص(123-144)

ففي الأيام العادية التي لا تشهد أي أنشطة حربية إلى أراضي الروم أو النفير لصد أي هجوم، كان المجاهدون الشباب وغيرهم من المتطوعة الذين يقدرّون على حمل السلاح واستخدامه يقسمون يومهم إلى قسمين؛ الأوّل يخصصونه للتدريب والمران على ركوب الخيل والطراد، واستخدام الأسلحة بمختلف أنواعها، والضرب بالسيف، والتدرب على الفنون الحربية الأخرى، أمّا القسم الثاني من النهار فجعل للراحة في المنازل، ورعاية المزروعات والبساتين التي أقطعت لهم⁽¹⁾.

وقد غلب على مناطق الثغور أسلوب خاص في التنشئة الجهادية، يشبه التدريبات العسكرية للصبية والأطفال، وأصبحت تلك الطريقة عادة وموسم احتفال للصبية، ففي أوقات النفير والاستعداد للتحرك للغزو كان المحتسب⁽²⁾ يطوف ورجاله في الشوارع لدعوة الناس للنفير ويساعده الصبية في النداء⁽³⁾.

يذكر ابن العديم⁽⁴⁾ أنّ الطرسوسي ت. 401-..هـ/1011م شاهد رجلاً يعرف برؤية، يجتمع إليه الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم يزيد عددهم عن ألف، كلهم بالسلاح الذي يمكنهم حمله، وبمزاودهم من الأطعمة التي يحبونها، يطوفون بمطرّد يحمله رؤية، يسيرون بسيره ويقفون بوقوفه، فلا يزال ذلك دأبهم حتى إذا عاد السلطان إلى مقر داره، دخل أولئك الصبية أمامه على مراتبهم، يصفهم قائدهم الأمثل فالأمثل، يدخلون فوجاً فوجاً، صبيين صبيين، كل صنف في مرتبته، ثم يتلوهم رؤية قائدهم، ويضيف حتى إذا خرج أولئك الصبيان من حد الطفولة واشتد عضدهم، وقرب حد البلوغ أو بلغ أو

(1) توفيق سليمان، المرجع السابق، ص228

(2) هو من نصّب الإمام أو نائبه للنظر في أحوال الرعية، والكشف عن أمورهم ومصالحهم، كما عزّفه ابن الأخوة، أنظر: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي ضياء الدين، معالم القرية، موسوعة الجامع الكبير، (د،م)، (د،ت)، ص2 وعزّفه آخرون أنّه: هو من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر احتساباً، إلا أن الفقهاء خصصوا هذا الاسم لمن يعينه ولي الأمر للقيام بالاحتساب، وسموا غير المعين بالمتطوع، وفرقوا بين المحتسب والمتطوع بفروق، أنظر: عبد الرحمان نصر هاشم التتر، ولاية الحسبة في العهد العباسي ودورها في حفظ الحياة الاقتصادية والحياة العامة 132-656هـ/750-1250م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية بغزة، 2015، ص45

(3) توفيق سليمان، المرجع السابق، ص228

(4) أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص188- من سير الثغور، من خلال مخطوطة بغية الطلب لابن العديم، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ع8، ديسمبر 1975، ص(17-55)

تجاوز البلوغ قليلا، انضاف إلى قائد من قواد الرجالة وصحبه في نفيده وغزوه، وارتاد لنفسه الرفاق، بحسب ما يختار تربه وجاره وقربنه، فإذا التحى وخرج على حد المرد، دخل في جمهور الناس حاذقا بما يحتاج إليه، ماهراً بصيرا بأمر جهاده وتدييره أمره، ناقدا يقظا إن شاء الله⁽¹⁾.

2- طريقة تحريك الجيوش من الثغور: في تشكيل المعركة كان المسلمون يرسلون مجموعات مقاتلة للاستطلاع والتقصي واستكشاف الدروب، وللإغارة على بلاد العدو القريبة منهم، وتعود لتنقل لهم المعلومات التي يبني عليها عمل الجيش⁽²⁾، وكان قادة الجيوش يحتاجون هؤلاء في مقدمة الجيش وسموا بالطلّاع *Aithiopes*، وهم مسلحون بالأقواس فقط ليرشقوا البيزنطيين بوابل من السهام، وكانوا دقيقي الرمي ماهرين في أداء واجبهم القتالي الذي هو جزء من التعبئة، وكان هذا الواجب ينفذ قبل اندفاع الفرسان لسلب زحف سريع للمشاة والفرسان الآخرين⁽³⁾.

وما إن يتم قرار الخروج للقتال وينادى للنفير حتى يقوم ولي الأمر بإغلاق باب المدينة كشكل احترازي وأمني، ويضع مفاتيح الثغر لدى صاحب الشرطة، ثم ينادي المحتسب ورجاله بأعلى أصواتهم وبشكل متزامن: «النفير يا أصحاب الخيل والرجالة، النفير حملكم الله إلى باب الجهاد»، ولا تزال الأبواب مغلقة حتى يعود السلطان من النفير فتفتح ويطوف المحتسب ورجاله كل الشوارع، فإذا كان ذلك نهارا ساعدوهم الصبيان على ذلك⁽⁴⁾.

هذا في النفير الطبيعي، أما إذا كان الخطر كبيرا ودهما احتاجوا إلى حشد كل الناس وليس الخيالة والرجالة فقط، فيطلب من أهل الأسواق النفير ويحضهم على المسير في أثر الأمير⁽⁵⁾، ومنذ أن تتحرك الجيوش من الثغر وحتى وصولها لهدفها، يتم الالتزام بأوامر وضوابط صارمة اعتاد عليها المجاهدون خوفا من التفرق والتنازع، وللحفاظ على وحدة الرأي والكلمة، حيث يعقد الأمير لقائد الفرسان لواء

(1) الطرسوسي، المصدر السابق، ص(17-55)

(2) الهروي، المصدر السابق، ص15، 16

(3) طه خضر عبيد، التعبئة العربية الإسلامية، ص(123-144)

(4) الطبري، تاريخه، ج3، ص602، 603، أحداث سنة 15هـ

(5) الطرسوسي، المصدر السابق، ص453

الجهاد، ويشد أزره بقائد من قواد الرجالة، والذي يكون بصحبته عدد من المقاتلين أولى القوة والنشاط والنية من المتطوعة الذين يرغبون بالجهاد ولقاء العدو⁽¹⁾.

فإذا نزل الجيش مكانا قريبا من العدو وقبل اللقاء ولفرع المعنويات، تبتل شيخ بل شيوخ من الصلحاء المعروفين بحفظ من هناك من الغلمان المرموقين، فلو هم أحدهم بالوضوء للصلاة لما أفرج عنه إلا بريقب يمضي معه⁽²⁾.

3- حماية الجبهة الداخلية في الثغور: نظرا لكون الجبهة الداخلية للثغور تصبح هشّة بعد مغادرة الجيوش إلى الغزو، فقد كان من واجب ولاة الثغور حمايتها، وقد أظهرها اهتماما كبيرا بذلك، فبعد أن تغلق أبواب المدينة خشية قيام جواسيس الروم بالاطلاع على استعدادات المسلمين، ونقل صورة عن تجهيزاتهم وأعدادهم، ولمنعهم من القيام بعمليات التخذيل، وبث الإشاعات في صفوف المسلمين، وخروج الجيش بعدها، كان هناك مجموع من الصبية الذين لم يبلغوا الحلم، تجتمع إلى رجل معروف بالمدينة، ويسند إليهم حماية الجبهة الداخلية للثغر، وتعزيز ثقة الناس بالنصر، وإشعارهم بالأمن، والمحافظة على النساء، والذراري، ومن تخلف عن الغزو، من باب التدريب والتهيئة للمشاركة في عمليات نفير قادمة، ويتمركز صاحب الشرطة والمحتسب مع رجاله عند الباب الأول، الذي يلي المدينة الذي يخرج منه الناس إلى النفير، وإذا طال أمر النفير وتأخر خبره، يقوم المحتسب بالتردد على الأسواق، وحث الناس وتشجيعهم على اللحاق بالجيش، فلا يزال الأمر كذلك حتى يعود الأمير من نفيره إلى دار الإمارة⁽³⁾.

4- الحروب النفسية: لعبت الثغور دورا مهما في الحرب النفسية مع العدو نظرا لقربها من بلادهم، وكونها البوابة التي يمر من خلالها الرسل والتجار وتنتشر فيها العيون، لذلك حرص المسلمون أن تبقى في حالة من الاستنفار والجهاد الحقيقي في كل أوقاتها، حتى أن المناسبات فيها كان يحتفل بها بشكل

(1) الطرسوسي، المصدر السابق، ص 453

(2) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 189

(3) نفسه

يُوحى بالجهد والاستعداد له، من منطلق إرعاب العدو وضرب روحه المعنوية، وخاصة في مناسبات الأعياد، حيث كانت الأنوار تسطع في لياليها، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير، وتضرب الطبول وتدق الأبواب وترفع الأعلام والرايات ذات الألوان الزاهية⁽¹⁾.

وكان الاحتفال يبلغ منتهى روعته وأبعثه في الثغور، فنجد طرسوس توضع في المكان الأول من البهاء والعظمة أيام العيد⁽²⁾، حتى أن ابن تغري⁽³⁾ اعتبر أنّ العيد بها من عجائب الإسلام الأربع وهي: عرض الخيل بمصر، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد، وربما يعود ذلك إلى الحشد الكبير الذي يسكنها⁽⁴⁾، وعند استقبال رسل الروم كذلك كان أهلها يتزينون ويخرجون بالأسلحة الكثيرة والخيل الحسان ليصل الخبر إلى الكفار، فتقع في نفوسهم الرهبة من المسلمين فتقل رغبتهم في قتالهم⁽⁵⁾.

كما كانت عمليات تبادل وفكاك الأسرى وتخليصهم من الروم، والتي تعددت وتداخلت أكثر من طريقة للوصول إلى الهدف؛ ولعل أهمها: الاستنقاذ، أو عن طريق المعاهدات واتفاقيات الصلح بين الطرفين، أو من خلال محاصرة وتحرير المدن والقلاع والحصون، كما اعتمد المسلمون في العصر العباسي طريقة الفداء بالمال، أو الهدايا المتبادلة، أو عن طريق شراء الأسرى من التجار والأسواق⁽⁶⁾، كانت مثلاً واضحة على الحرب النفسية التي كانت تدور بين الجانبين، فعمليات الفداء كانت تتم بعد سلسلة من المفاوضات والترتيبات والطقوس المتعددة على أرض الثغور.

(1) شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 411

(2) الجنزوري، المرجع السابق، ص 30

(3) النجوم الزاهرة، ج 3، ص 12

(4) الاصطخري، المصدر السابق، ص 30

(5) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 189

الفصل الثالث

الزراعة والنشاط الرعوي

بالثغور

المبحث الأول: الأراضي الزراعية بمناطق الثغور

المبحث الثاني: ملكية الأرض

المبحث الثالث: تنظيم الري ووسائله

المبحث الأول: الأراضي الزراعية بمناطق الثغور

1- الاهتمام بالأرض:

تأثرت الأوضاع الاقتصادية بمناطق الثغور بالوضع العام للمنطقة التي كان يغلب عليها الطابع العسكري، فقد كانت تدين في بقائها إلى موقعها في تلك المنطقة الوعرة من الحدود، ومن المعلوم أنّ المسلمين قد أقاموا المدن الثغرية على أبواب الطرق المتحكمة في أماكن اقتراب العدو، مراعين في ذلك أن تكون بعيدة عن البحار، قريبة من الصحراء، محصنة بثنيات الأنهار ومنعطفات الجبال وغيرها من الموانع الطبيعية⁽¹⁾.

ولعلّ هذه المناطق قد أثرت في الحياة الاقتصادية بشكل واضح، فسهل قليقية يمثل وحدة جغرافية مميزة تفصله عن أقاليم الدولة البيزنطية في الشمال جبال طوروس، وتفصله عن بلاد المسلمين شمال الشام جبال الأمانوس، وهو سهل خصب غني ازدهرت فيه عدد من المدن الثغرية⁽²⁾.

فلم يكن اختيار المواقع الثغرية اختياراً عشوائياً بل حكمته ظروف كثيرة، لعب العامل الاقتصادي فيها دوراً كبيراً، فغالبية القلاع كانت تتمتع بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة مياهها، وتنوع تضاريسها ومناخاتها، بالإضافة إلى توفر الكثير من المواد الخام اللازمة للصناعة، كما أنّ موقعها المميز جعل منها ملتقى تجارياً يربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب، كثغر ملطية الذي كان مفتاح الطريق للجيوش الإسلامية القادمة من الشرق المتجهة إلى آسيا الصغرى، والبيزنطية القادمة من الغرب إلى الشرق، وقد تحدث الجغرافيون عن خصوبة المنطقة المحيطة بها، كما أنّ تحكمها في السواحل الشرقية لبحر الشام الذي كان يعج بالتجارة جعل منها مركزاً تجارياً وعسكرياً⁽³⁾.

كل ذلك ساعد على إقامة زراعة في المنطقة، اعتبرت من أشهر الحرف التي زاوها سكان المنطقة، نظراً للخبرة الزراعية التي تمتعوا بها، بالإضافة إلى الحيوية والنشاط اللذان عُرف بهما مزارعو بلاد الشام

(1) الجنزوري، المرجع السابق، ص 161

(2) محمد العبد الغني، المقال السابق، ص (11-59)

(3) الجنزوري، المرجع السابق، ص 161

وقد شكل هذا النشاط مورداً آخر مهماً أسهم في زيادة وارداتها.

كما عدت الزراعة من أهم الموارد الاقتصادية بثغور الجزيرة، وقد شجعت جغرافية المنطقة وتنوع تضاريسها على اهتمام السكان بالزراعة؛ فالسهول الواسعة، والمياه الوفيرة، والمناخ المتوسطي، ساعد على إنتاج محاصيل زراعية كثيرة ومتنوعة، كانت المصدر الأساسي والرئيسي لمعيشتهم، كما ساعدت في توفير المواد الأولية للصناعات المحلية، ويعلق ابن شداد⁽¹⁾ على رخاء الحياة الاقتصادية في بلاد الشام عموماً وفلسطين خاصة فيقول: «إذا كانت الدنيا في بلاء وقحط، كانت الشام في رخاء وعافية، وإذا كانت الشام في بلاء وقحط، كانت فلسطين في رخاء وعافية»، ومنه مدن الثغور.

كما أنّ اهتمام الخلفاء بالزراعة، وعنايتهم بالأرض وإعمارها وزراعتها، وإقامة مشاريع الريّ، وحفر الأنهار والقنوات، وإقامة القناطر والجسور، واستصلاح الأراضي، ساهم في ازدهارها وزيادة العمل في هذا المجال، وإنتاج محاصيل زراعية مختلفة الأنواع⁽²⁾، فقد عمّر الخليفة المنصور ثغر ملطية وحث على زراعتها، وأسكن فيها الجند وأقطعهم المزارع، ولما رأى أنّ مياه نهري دجلة والفرات لم تكن تكفي لإرواء الأراضي الزراعية عمل على تنظيم وسائل الريّ بشق الترع والجداول والقنوات⁽³⁾.

وبدأ اهتمام الخليفة هارون الرشيد بالزراعة واضحاً، فقد كانت تستهويه المواضع النزهة والمعمورة، فقد استبدل مرج عبد الواحد قرب حصن منصور من حمى لخليل المسلمين إلى أرض زراعية⁽⁴⁾، وكان الخليفة المعتمد يحب الزراعة ويقول أنّ فيها أموراً محمودة، أولها عمران الأرض التي يحي بها العالم ويزكو عليها الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش، كما أعطى وزيره محمد بن عبد الملك الصلاحية الكاملة في زراعة أي موضع يراه مناسباً،

(1) الأعلام الخطيرة، ص 94

(2) حاتم الضمور، الأسواق في بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع 1، م 3، الأردن، 2009، ص (15-41) - فقد قام الجنود المرابطين في جزيرة رودس على سبيل المثال سنة 53هـ/673م، بزراعة الأرض واتخاذ المواشي ورعايتها حول الأراضي المحيطة بالقلاع، أنظر: الطبري، تاريخه، ج 5، ص 288

(3) حمودي، المرجع السابق، ص 35

(4) قدامة، المصدر السابق، ص 321

واستصلاحه دون الرجوع إليه، حيث يقول: «إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم، جاءني فيه بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه»⁽¹⁾.

وزراعة الأرض لا يثاب عنها المزارع بالمحصول والنتاج وتحقيق الأرباح فقط، وإنما له المثوبة عند الله جل جلاله، فقد روى البخاري في صحيحه⁽²⁾ حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَيْمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ}، كما شرف الإسلام العامل الزراعي تشريفاً كثيراً، والأحاديث في هذا الشأن كثيرة منها: {مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ}⁽³⁾، والثروة كما تنمي بالعمل والاستثمار تنمي بالإحسان، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُصْعَافًا كَثِيرَةً﴾⁽⁴⁾.

2- أصناف الأرض:

أ- أرض الخراج:

إنّ تحديد الاصطلاحات خاصة في النظم المالية أمر دقيق، فالتمييز بين الجزية (ضريبة الرأس) والخراج (ضريبة الأرض) من جهة، والتمييز بين الغنيمة والفيء⁽⁵⁾ من جهة أخرى، يحتاج إلى متابعة دقيقة لمراحل التطور الفقهي والتاريخي لها، فأبو يوسف⁽⁶⁾ الذي عاصر الرشيد لا يفرق في أحكامه بين الفيء والخراج فيقول: «فأما الفيء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا»، وهو يطلق على خراج الأرض التي افتتحت عنوة أو صلحا، فيقول: «والخراج ما افتتح عنوة مثل السواد، وأما قوم من أهل الشرك صالحهم الإمام على أن ينزلوا على الحكم والقسم، وأن يؤدوا الخراج فهم أهل ذمة وأرضهم

(1) ابن عساکر، المصدر السابق، ج73، ص245

(2) ج2، ص816، 817، رقم الحديث 2195

(3) البيهقي أبو بكر أحمد من الحسين، الجامع لشعب الإيمان، تح: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشيد ط1، الرياض،

2003، ج1، ص434، حديث رقم 1170

(4) سورة البقرة، الآية 245

(5) لغة معناه الرجوع، قال تعالى: ﴿حَتَّى تَفْجَأَ إِلَى أُمْرِ اللَّهِ﴾ الحجرات9، أي ترجع إلى الحق، أما اصطلاحاً فهي الأموال التي

يستولي عليها المسلمون من أهل الحرب من غير قتال كالهذنة أو الصلح وعشر التجارة، أنظر: الماوردي، المصدر السابق، ص161

(6) المصدر السابق، ص23، 59، 63، 132، 134

أرض خراج، ويؤخذ منهم ما صلحوا عليه، ويوفى لهم ولا يزداد عليهم»، ونص أيضا على أن: «سبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل خراج، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة عن جزية رؤوسهم، وما يؤخذ من مواشي بني تغلب فكله سبيل خراج».

فالخراج لغة يطلق على الغلة⁽¹⁾، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: {الْخَرَجُ بِالضَّمَانِ}، أي ما يستحقه الإنسان من غلة المال، ويطلق على الأجر، ومنه ما يأخذه السيد من أجرة العبيد، وقوله عز وجل: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾⁽²⁾ أي أجرا⁽³⁾، أما اصطلاحا فهو ما يؤخذ من الأرض التي فتحت عنوة وأقر أهلها عليها، أو فتحت صلحا وأقر أهلها عليها كذلك، إلا أرض العرب⁽⁴⁾.

وقد ذكر أبو يوسف⁽⁵⁾ في رسالته هذا المعنى، حيث قال: «الفيء هو الخراج عندنا يا أمير المؤمنين»، وهو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدي عنها، ويوضع على الأرض التي أخذت عنوة⁽⁶⁾، وفيه نص الكتاب: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾⁽⁷⁾، وهو عند العرب اسم للكرء والغلة، وقيل الأتاوة تؤخذ عن مال الناس وتصرف في عطاء الجند لما فيها من مصالح الناس⁽⁸⁾، أما الأرض الخراجية، فهي الأرض التي فرضت عليها ضريبة الخراج وهو نوعان⁽⁹⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص504

(2) سورة الكهف، الآية 94

(3) التهانوي محمد علي، موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية، (د،د،ن)، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص53

(4) عبد الرحمن بن محمد داماد شيخي زادة أفندي، مجمع الأثر في شرح ملتقى الأبحر، دار احياء التراث، (د،ط)، بيروت،

(د،ت)، ج1، ص662

(5) الخراج، ص25

(6) أنظر: يحيى القرشي، المصدر السابق، ج1، ص63- الماوردي، المصدر السابق، ص186

(7) سورة المؤمنون، الآية 72

(8) فتيحة النبروي، النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، ط8، القاهرة، 1997، ص182

(9) خراج مقاسمة: وهو ضريبة نسبية تؤخذ من محصول الأرض كالثلث والرابع والخمس، وهو واجب في المحصول الخارج من الأرض، وبالتالي لا يجب على الفلاح إذ أعطى الأرض ولو كان متعمدا، وخراج وظيفة: وهو عبارة عن مبلغ من المال يدفع سنويا عن الأرض الزراعية التي يمكن الانتفاع بها، سواء انتفع بها أم لا، فهو عكس الأول إذ يجب وإن لم تزرع الأرض فعلا، أنظر: عبد العزيز عوض، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام واثاره الاقتصادية والاجتماعية 1839-1914، مجلة دراسات تاريخية، السنة الحادية عشر، ع 35، 36، دمشق، 1990، ص(51-57)

وتشمل الأراضي الخراجية التي تؤخذ منها ضريبة الخراج ما يلي: الأراضي التي فتحها المسلمون صلحا على أن تكون للمسلمين ويسكنها أهلها من غير المسلمين بخراج معلوم يؤدونه، فهي أرض فيء أو الأراضي التي جلا أهلها عنها خوفا من المسلمين فتصبح وقفا للمسلمين، ويوضع الخراج على من يسكنها أو ينتفع بها مسلما كان أم ذميا، أو الأراضي الموات التي أحيها مسلم، وكانت أقرب إلى الأرض الخراجية منها إلى الأراضي العشرية، أو الأراضي الموات التي أحيها ذمي أو التي اشتراها الذمي من أراضي العشر فإنها تصبح أراضي خراجية⁽¹⁾.

ومقدار الضريبة على الأرض الخراجية توضع حسب رداءة أو جودة الأرض، وقيمة الغلة قلتها أو كثرتها، ونوعية الماء الذي تسقى به، فالأرض الخراجية تسقى بماء الأنهار ونوعية زروعها، ويجب أن يراعي عند وضع الخراج على الأرض قواعد العدالة حتى لا يكلف الفلاح أكثر مما يطيق⁽²⁾.

ونظرا للاختلاف الفقهي والاجتهاد فيه من قبل العلماء المسلمين والاستجابة للاحتياجات العلمية، نُسب إلى عمر بن الخطاب(رضه) مبدأ أن ما وقع في أيدي المحاربين من أموال منقولة وأسرى حرب إنما هو داخل في الغنيمة وهو من نصيب المقاتلين، أما أراضي البلاد المفتوحة فليست كذلك إذ هي من حق جمهور المسلمين وهي فيؤهم، وهذا ينطبق على أراضي الثغور -وهي موضوعنا- فقد كان من المستحيل إحداث تغيير في نظام التملك على إثر الفتح، واقتسام تلك الأراضي وزراعتها، بل كان لابد للمسلمين أن يجتمعوا في معسكرات إن أرادوا الحفاظ على سلطانهم، ولذلك اعتبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت، وأعيرت ملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها، وهي نصيب المحاربين ومن يرثهم من ذريتهم، فلم يكن لهم رأس مال بل ما يخرج منه⁽³⁾.

وهكذا نشأ التمايز بين الغنيمة والفيء، وكانت غلة الأرض تجبها الدولة بوساطة موظفيها، ثم أنها لا تعطي الغلة الكاملة للمقاتلة أو وارثهم بل كانت تدفع أعطيات وأرزاق ثابتة، على حين يبقى ما

(1) الماوردي، المصدر السابق، ص 131، 132

(2) الرحي عبد العزيز الحنفي، فقه الملوك ومفتاح الرتاج، تح: أحمد الكبسي، مطبعة الارشاد، بغداد، 1973، ج 1، ص 35

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 118

يفضل عن ذلك في بيت مال الدولة، فالارتباط وثيق بين اختيار هذا النهج في تأويل النصوص وتطبيقها وبين الضروريات العسكرية للدولة، أمّا في المناطق الثغرية فقد حرص المسلمون على دوام تفرغهم للجهاد وحفظها، وربما كان من الصحيح ما صدر من الخليفة عمر (رضي الله عنه) لأهل الشام أن يحافظوا على أنسابهم، وألا يقتنوا المزارع، وألا يعملوا في الأرض⁽¹⁾.

وقد واجه الأمويين مشكلا لم يطرح سابقا، وهو الوضع القانوني للأرض الخراجية التي يتحول أصحابها إلى الإسلام، فإذا خفضت الجزية والخراج بمقدار ما ينقص منها بسبب الدخول في الإسلام أضر ذلك بيت المال، وإذا أخذ مبلغا إجماليا بالمقدار الذي كانا عليه أولا زاد العبء على الجماعة التي نقص أفرادها إثر إسلام بعضهم، فإذا هجر المسلمون الجدد قراهم ومزارعهم إلى المدن كان ذلك سببا في حرمان القرى من اليد العاملة، ولما كان هؤلاء يسعون للالتحاق بالجيش خاصة مناطق الثغور فإنّ عملهم هذا كان من شأنه أن يوقع بيت المال في خسارة مزدوجة؛ نقصان الخراج والجزية من جهة، وزيادة العطاء من جهة ثانية⁽²⁾.

وواجه الخليفة عمر بن عبد العزيز المشكلة نفسها، فاستنبط من السنة السابقة أنّ أرض الخراج يجب أن تكون ملكا للمسلمين جميعا أولا، ثم هي بعد ذلك لأهل القرى الذين تركها لهم المسلمون مقابل خراجها، ويعدّ سبب انتقالها إلى أيدي المسلمين ملكا خاصا يعفي من الخراج، وتبعاً لذلك أعلن عمر عبد العزيز أنّ بيع أرض الخراج على العرب والمسلمين غير جائز اعتبارا من سنة مائة للهجرة، لكنّه لم يجعل لهذا المنع أثرا رجعيا، أمّا إذا دخل المالك الملزم بدفع الجزية في الإسلام، فالظاهر أنّ عمر قرّر رجوع ممتلكاته إلى أهل القرية التي هو منها، وكان المالك يستطيع بعد ذلك أن

(1) فلهاوزن يوليوس، تاريخ الدولة العربية، تر: عبد الهادي أبي ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د،ط)، القاهرة، (د،ت)، ص 28-32-

وقد أورد أبو يوسف وجهة نظر الخليفة عمر (رضه) حينما نوقش في قسمة الأرض، قوله: «والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها، وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق؟...أرايتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها...لا بدّ أن تشحن بالجيوش وإدراار العطاء عليهم، فمن أين يؤتى هؤلاء إذا أقسمت الأرضون والعلوج؟»، أنظر: الخراج، ص 25، 26

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 122

يبقى فيها متقبلا لها، كما كان يستطيع أن يرحل إلى العواصم خلاف لما جرى عليه⁽¹⁾. وتناهى الناس عن شراء الأرض الخراجية بعد سنة 100هـ/718م بناءً على أمر الخليفة، وحاول من جاء بعده من الخلفاء التأكيد على هذا المنع، لكن ذلك لم يصمد طويلا لأنّ العرب اشتروا أراضي كانت بيد أهلها يؤدون العشر ولا جزية عليهم، وبقي الأمر كذلك إلى زمن المنصور الذي أقرّها⁽²⁾. فالأرض الخراجية بيعت وانتقلت إلى أيدي العرب بالرغم من منع ذلك، باعتبارها وقفا على الأمة الإسلامية، ما أدى إلى ظهور تفرقة بين الخراج والجزية، فاعتبرت الجزية متعلقة بالشخص، فلا تقع إلا على غير المسلمين وكانت تسقط عن رؤوسهم إذا دخلوا الإسلام، أمّا الخراج فصار متعلقا بالأرض المزروعة، يجب أن يدفعه المسلمون أيضا إذا كانوا يملكون أرض الخراج⁽³⁾.

ب- الأرض العشرية:

الأراضي العشرية هي التي أوجبت الشريعة فيها الزكاة، وسميت كذلك لأنه يجب العشر في الخارج منها من زرع أو ثمر إن سقيت بغير مؤونة، ونصف العشر إن سقيت بمؤونة⁽⁴⁾، أمّا من الناحية التاريخية فنرى البلاذري في كتابه فتوح البلدان⁽⁵⁾، يذكر عن أبي حفص الشامي وهو يحدد الأرض العشرية في الشام بقوله: «كل عشري بالشام فهو مما جلى عنه أهله فأقطعه المسلمون فأحيوه، أو كان مواتا لا حق لأحد فيه فأحيوه بإذن الإمام» .

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص122

(2) ابن عساكر، تهذيب تاريخ ابن عساكر، مطبعة روضة الشام، (د،ط)، دمشق، 1329-1332هـ، ج1، ص184

(3) الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، بحث مقدم لمؤتمر بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1974، ص4

(4) دبور أنور محمود، نظام استغلال الأراضي الزراعية، دار الثقافة، (د،ط)، القاهرة، 1987، ج1، ص52

تشمل الأرض العشرية الأراضي التي أسلم أهلها عليها طوعا دون حرب، والتي صولح أهلها ثم أسلموا، والأراضي التي فتحت عنوة ثم قسمت بين الغانمين وهي غير موجودة بالشام، وأراضي العرب الذين لا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل وهم عبدة الأوثان، والأراضي التي يقطعها الإمام لأحد المسلمين من الصوائف أو الموات ويحييها المسلمون، والأرض إذا أقطعت لمسلم وهي من أرض الخراج وصيرها الإمام عشريّة فهي عشر، وأرض الخراج إذا اشتراها عربي مسلم، وأرض الجبال التي لا يصل إليها الماء، أنظر: أبو يوسف، المصدر السابق، ص29- ابن عساكر، تهذيب، ج1، ص181- يحيى بن آدم القرشي، الخراج، تح: أحمد محمد شاكر،

(د،د،ن)، ط2، القاهرة، 1384، ص25

(5) ص152

ويذكر قدامة⁽¹⁾ عن أرض العشر: «ما جلى عنه العدو من أرضهم فجعل في يد من قطنه وأقام به المسلمين من الثغور»، فأرض الثغور كانت عشيرية إذ أنّها مما جلي عنها أهلها وأقطعت بنفس الوقت للمقاتلة، والأراضي العشيرية بكل أنواعها ملك لمن هي في أيديهم، فلهم أن يتصرفوا فيها من بيع وإجازة ورهن وهبة، كما أنّها تنتقل بالميراث⁽²⁾.

ج- الصوافي:

كان من نتائج الفتح الإسلامي أنّ أراضي عديدة في العراق والشام وغيرها بقيت دون مالك، إذ جلا عنها أهلها أو كانت تابعة للملوك السابقين أو الدولة، فضمت إلى بيت المال وعرفت بالصوافي، وهي في الأصل الأرض التي أصبحت نتيجة للفتح لا مالك لها، باعتبار أنّها كانت ملكاً للإمبراطور أو الدولة الإسلامية، أو جعلت خالصة لبيت المال واستمرت مباشرة دون إقطاع⁽³⁾.

وقد نشأت الصوافي ببلاد الثغور من أراضي الإمبراطورية البيزنطية، والنبلاء، وكبار الموظفين خاصة من قتل منه، أو هرب، ومن جلى عن أرضه لبلاد الروم⁽⁴⁾، إذ اعتبرت أراضي النبلاء الذين قتلوا أو هربوا من الصوافي، كأراضي بالس وقاصرين على الفرات لجلاء أهلها عنها⁽⁵⁾، وكانت الأرض حول جبلة، وطرطوس، وبانياس أرضاً صافية⁽⁶⁾.

(1) المصدر السابق، ص 137

(2) دبور، المرجع السابق، ج 1، ص 150

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 173

وتشمل أراضي الصوافي كما حددها القرشي والطبري الأراضي التي أصفها عمر بن الخطاب (رضه)، وهي عشر أصناف: «من قتل في الحرب، ومن هرب من المسلمين، وكل أرض لكسرى، وكل أرض كانت لأحد عن أهله، وكل مغيض ماء، وكل دير بريد، أو أجمه (الآجام)، وأرض بيوت النار، ومن كان كسرى أصفى أرضه، والأرحاء»، ويلحق نوع آخر، وهو أرض أهل الخراج إذا تركوا أرضهم وأخذها الإمام، وأرض الخراج إذا توفي صاحبها دون وريث، تعود ملكيتها لبيت المال، ويتصرف بها الإمام كالصوافي كما فعل يزيد عندما حفر النهر المسمى باسمه في دمشق، وعبد الملك حين أقطع من الأرض التي توفي أصحابها دون وريث فعاملها معاملة الصوافي، أنظر: الخراج، ص 100- تاريخ، ج 4، ص 3- الماوردي، المصدر السابق، ص 193

(4) ابن عساکر، تهذيب، ج 1، ص 183، 184

(5) الدوري، العرب والأرض، ص 4

(6) ابن الاثير، ج 2، ص 436-493

فحركة الفتوح دمّرت الإقطاع القديم بالاستيلاء على ما سمي بالصوافي في كل الأماكن، حين انتقلت ملكيتها إلى بيت المال يتصرف في شؤونها الخليفة، لكنّها من ناحية أخرى ساعدت على إيجاد ملكية من نوع جديد قوامها الأمراء والأشراف العرب⁽¹⁾، وأمر الصوافي إلى الإمام إن شاء أنفق عليها من بيت المال واستأجر من يقوم بها، وإن شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين⁽²⁾. وكانت أراضي الصوافي مصدرا رئيسيا للإقطاع في مناطق الثغور وتمنح بملكية تامة، وهي ما سمّيت بالقطائع، وكان بعضها يعطى بنوع من الإيجار أو المزارعة، وفي هذا الشأن يتحدّث ابن عساكر قائلا⁽³⁾: «فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين، موقوفة يقبلها والي المسلمين، كما يقبل الرجل مزرعته، فلم تزل المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال»⁽⁴⁾.

وكانت سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز في استغلال الصوافي بطريقة المزارعة⁽⁵⁾ أو بصورة مباشرة وعدم إقطاعها، حيث كتب لعمّاله: «أنظروا ما قبلكم من أرض الصافية، فأعطوها بالمزارعة

(1) عبد العزيز الدوري، العرب والأرض، ص4

(2) بلغت غلة الصوافي على عهد عمر بن الخطاب (رضه) أربعة آلاف ألف - وقيل سبعة أو تسعة - درهم كانت تصرف على مصالح المسلمين، ثم رأى عثمان (رضه) أنّ إقطاعها أوفر لغلتها على أن يأخذ ممن أقطعه إياها حق الفيء، بقيت هذه الأراضي مسجلة في الديوان حتى أحرقت الدواوين أثناء فتنة ابن الأشعث، أنظر: القرشي، المصدر السابق، ص99، 100 - فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص173، 174

(3) تهذيب، ج1، ص183

(4) وقد اتبته معاوية إلى الصوافي في زمن مبكر، وهو والٍ على الشام في عهد عثمان (رضه)، إذ كتب له كتابا وصف له فيه المزارع الصافية وسمّاها له، وسأله أن يقطعه إياها ليقوى بها، فقال: «إنّها ليست من قرى أهل الدّمة، ولا من الخراج فكتب إليه عثمان (رضه) بذلك كتابا»، ولما شحن الخليفة معاوية الساحل الشامي، اتبع سياسة إقطاع القطائع للهند في جبلة، وطرطوس، وبانياس، ومرقية، وغيرها بعد أن جلى عنها أهلها، ويبدو أنّه أول من توسّع بإقطاع الصّوافي، إذ سأله أناس من أشراف العرب بأن يقطعهم من أرض الصّوافي ففعل، كما أنّه قام بمسح شامل للصّوافي في بلاد الشّام، وأعطى منها الاقتطاعات لأهل بيته خاصّة، وأقطع قسما آخر من التي لم يكن أقطعه إياها عثمان (رضه) لأناس من قريش وأشراف العرب، وأكمل الخليفة عبد الملك ما بدأه معاوية، أنظر: اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص234 - ابن عساكر، تهذيب، ج1، ص183 - ج3، ص184

(5) المزارعة هي طريقة لاستغلال الأراضي الزراعية، وذلك باشتراك المالك والمزارع في الاستغلال، ويقسم الناتج بينهما بنسبة يعينها العقد أو العرف، وعرفها الفيروز أبادي والنووي بأنّها المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها، والبذر من المالك، أنظر: القامس المحيط، ج3، ص33 - أبي زكريا محي الدين النووي، تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، (د،ت)، ج2، ق1، ص87 - ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص393

بالنصف، وما لم تزرع فأعطوها بالثلث، فإن لم تزرع فأنفق عليها من بيت مال المسلمين ولا تبتزّن قبلك أرض»⁽¹⁾.

د- الأرض الموات:

يقصد بالأراضي الموات الأراضي التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد، ولا يوجد بها أثر عمارة أو ماء زرع⁽²⁾، ويبدو أنّ الأرض الموات محدودة في الشام، إذ ترد الإشارات دائما إلى الأرض التي جلى عنها أهلها فأصبحت متروكة، إلا أنّها لم تكن مواتا، ومثل ذلك كل أراضي الساحل التي أقطعت للمقاتلة، وأرض بالس وقاصرين⁽³⁾، والسبب في ذلك أنّ أرض الشام بما فيها مناطق الحدود حسنة الاستغلال، إذ أنّ الأرض المعطّلة تكثر في البطائح، أو التي لا تصلح إلا بالمياه، وجلبها إليها لا يكون بكلفة ومشقة، ويذكر ابن سلام⁽⁴⁾ أنّ الأحكام في الإحياء جاءت على ثلاثة أوجه.

(1) القرشي، المصدر السابق، ص 59

(2) يحددها أبو يوسف كما يلي: «فإذا لم يكن في هذه الأرضين أثر بناء ولا زرع، ولم تكن فناء لأهل قرية، ولا مسرحا، ولا موضع مقبرة، ولا محتطبهم، ولا موضع مرعى دواجم وأغنامهم، وليست ملك لأحد ولا في يد أحد فهي موات، فمن أحيا منها شيئا فهو له، ولك أن تقطع من ذلك من أحببت ورأيت، وتعمل فيه بما ترى أنّه صلاح، وكلّ من أحيا أرضا مواتا فهي له»، ومن الأراضي الموات، ما ملكه الناس فأحياه ثم حرب ومات، وهذا لا يملكه أحد إلا بإذن الإمام كالعامر، وهو عادي الأرض التي كان لها مالك فانقرض ولم يبق لها مالك معروف إلى عاد، لأنهم كانوا مع تقدمهم ذوي قوة وبطش وآثار كثيرة، فنسب كل أثر قلم إليهم وهي التي عنها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله: {عَادَى الْأَرْضَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ثُمَّ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ، فَمَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ}، والأرض الموات تملك بالإحياء، لقوله (صلى الله عليه وسلم): {مَنْ أَحْيَا، أَرْضًا مَوَاتًا فَهِيَ لَهُ}، {مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهِيَ أَحَقُّ بِهَا}، أنظر: الصولي أبو بكر محمد بن يحيى، أدب الكاتب، تح: محمد بهجة الاثري، المطبعة السلفية، (د، ط)، القاهرة، 1341هـ، ص 213- القرشي، المصدر السابق، ص 78- 85- أبو يوسف، المصدر السابق، ص 61-64- البحاري، المصدر السابق، ج 2، ص 32

(3) عبد العزيز الدوري، العرب والأرض، ص 9

(4) الأول: أن يأتي الرجل الأرض الميتة فيحييها ويعمرها، ثم يثب عليها رجل آخر فيحدث فيها غرسا، أو بنيانا ليستحق بذلك ما كان أحيا الذي قبله، والثاني: أن يقطع الإمام رجلا أرضا مواتا، فتصير ملكا للمقطع، إلا أنّه يفرط في إحيائها وعبارتها حتى يأتيها آخر فيحييها ويعمرها، وهو يحسب أنّه ليس لها رب، والثالث: أن يحتجز الرجل الأرض، والاحتجاز أن يضرب عليها منارا، أو يحفر حولها حفيرا، أو يحدث منشأة وما أشبه ذلك مما يكون به الحياة، ثم يدعها مع هذا فلا يعمرها، ويمتنع غيره من إحيائها، أنظر: أبو عبيد القاسم، الأموال، تح: محمد عمارة، دار الشروق، ط 1، بيروت، 1989، ص 378- المباركفوري عبد الرحمان، جامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذى، دار الكتاب العربي، (د، ط)، بيروت، (د، ت)، ج 4، ص 631، 632

فالإحياء هو استصلاح الأرض للزراعة أو البناء، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): {مَنْ أَحَاطَ حَائِطًا عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ} ⁽¹⁾، وقال مالك: «وإحيائها بشق العيون وحفر الآبار وغرس الشجر وبناء البنيان والحرث، فإن فعل شيئاً من ذلك فقد أحيائها» ⁽²⁾، وإن غلب الشجر على أرض فجاء رجل وقطعه فهو إبداء أيضاً ⁽³⁾، كما أن تجفيف المستنقعات واستخلاص الأرض يعتبر إحياءً ⁽⁴⁾.

ويفصل الماوردي ⁽⁵⁾ في كيفية الإحياء، إذ يعتبر في ذلك عمل حاجز للأرض بينها وبين الأرض المجاورة ثم سوق الماء إليها، أو حبسه عنها حسب طبيعة وضعها، ثم حرث الأرض وتعديلها لتصلح للزراعة، وإن كانت الغاية من الإحياء البناء فيكون بالبناء والتسقيف.

والتحجير هو الشروع في الإحياء، إذ يكون المقطع أحق الناس بقطيعته وليس مالكا لها، لأنّ الإحياء الفعلي هو الذي يؤدي إلى الملكية، فإذا ما أحيها أناس بعد المهلة كانت ملكا لهم، لأنّ حق المقطع الأول قد زال، ويذكر أبو يوسف صفة التحجير بقوله: والمتحجر أن يجيء الرجل إلى أرض موات فيحظر عليها حظيرة، ولا يعمرها، ولا يحييها فهو أحق بها إلى ثلاث سنين، فإن لم يحييها بعد ثلاث سنين فهو في ذلك والناس شرع واحد، فلا يكون أحق به بعد ثلاث سنين ⁽⁶⁾.

(1) أبو يوسف، المصدر السابق، ص 65

(2) ابن سلام، المصدر السابق، ص 384

(3) القرشي، المصدر السابق، ص 124

(4) ابن سلام، المصدر السابق، ص 384

(5) الأحكام السلطانية، ص 231

(6) حسين فالج، المرجع السابق، ص 58

المبحث الثاني: ملكية الأرض

1- الإقطاع:

شكّلت جبهة الثغور خطوط الدفاع الأولى للخلافة الإسلامية على حدودها المواجهة للإمبراطورية البيزنطية، والتي سارت على سياسة واضحة استندت إلى الرّدّ على تحديات الروم المتكررة، وتمثل ذلك في تزويد المنطقة بالعناصر السكانية، وتشجيعهم على الاستقرار في الأقاليم على أساس زيادة العطاء، وإقطاع الأراضي للمقاتلين من أجل استقرارهم وزيادة حماسهم في الدفاع عنها⁽¹⁾.

وللحديث عن الإقطاع⁽²⁾ وجب الإشارة إلى نشأته ثم تطوره، فقد انتشر الطابع الإقطاعي في النظم الحربية في القرن السابع الميلادي/الأول للهجرة، فالملك يقسم الأرض بين البارونات الذين يلزمون بتقديم عدد معين من الجند لخوض معارك مع الملك، وبهذا النظام لا يكون الجند ملزمين بالطاعة، إذ كانوا هم جند البارونات أو تابعي الملك، لكن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أدخل طريقة منظمة لدفع رواتب الجند، وحرص على أن يحول بينهم وبين تملك الأرض والاشتغال بالزراعة، فاعتبرت الأراضي المفتوحة فيئا، تركت في أيدي أصحابها على أن يؤدّوا الخراج، فإلى أي حد طبقت

(1) الطائي، دور المرأة في الثغور والعواصم، ص(1-3)

(2) الإقطاع لغة هو المنح والإباحة، وقد ذكر تعبير أقطع الإقطاع في مصادر ومراجع مختلفة، فمنها ما جاء في لسان العرب: «أقطعه نهر أي أباحه له، واستقطعه إياها أي سأله أن يقطعه له»، ويقال: اقتطع طائفة من الشيء أي أخذها، والقطيعة: ما اقتطعه منه، وأقطعي إياها، أي: أذن لي في اقتطاعها وأقطع فلانا أرضا أي ملكه إياها، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص139-المقرزي، الخطط، ج4، ص95، 96- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج2، ص751

أما اصطلاحا فقد اكتسبت لفظة الإقطاع مدلولات مختلفة عبر فترات التاريخ الإسلامي، وهو أن يقطع السلطان واحدا من أمرائه أرضا فيصبح بحكم الإقطاع له رقبته، وتلك التي تسمى قطائع، كما عرّفه الخوارزمي حيث قال: «والقطع مصدر قطعت الحبل قطعاً فانقطع، والمقطع بالكسر: ما يقطع به الشيء، وقطعه واقتطعه فانقطع وتقطع، شدد للكثرة، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا أي تقسموه»، أنظر: مفاتيح العلوم، مطبعة بربر، (د،ط)، ليدن، 1890، ص39

وهو كما عرّفه قدامة، أن يدفع الأئمة إلى من يرون أن يدفعوا إليه شيئا مما ذكرنا من أصناف الأرض، فيملك المدفوع ذلك إليه رقبته بحق الإقطاع ويجب عليه العشر، وهذا الإقطاع يؤدي إلى ملكية تامة للأرض ودفع العشر، أنظر: المصدر السابق، ص124

وهو ما يعنيه الماوردي عندما يتكلم عن قطاع التملك، فهو يعبر بذلك عن الإقطاع بمفهومه الإسلامي الذي ساد في أوائل ممارسة الإقطاع: «أن يقطع السلطان رجلا أرضا فتصير له، وتسمى تلك الأرضون قطائع، واحدها قطيعة، وهو كل نظام يمكن المالك من أن يتحكّم في الأرض ومن فيها من الناس»، أنظر: الأحكام السلطانية، ص193، 194

هذه القاعدة عموماً، وفي الثغور بوجه خاص؟ وهل كانت الدولة الإسلامية في نظامها بالثغور أقرب إلى القاعدة العمرية، أم إلى ما كان لدى الروم من نظم حربية ومالية؟⁽¹⁾.

لقد أدى استمرار حرب الثغور إلى حدوث التطور الاجتماعي نفسه لدى كل من الدولتين، فقد شرعت كل منهما تقطع أجزاء كبيرة من مناطق الثغور لطائفة وراثية من المقاتلين، فأهمية الإقطاع في هذه المناطق كان على أشده، حيث كان الأمر يقتضي قيام حالة مستديمة من اليقظة لدفع العدو، وهو عند المسلمين والبيزنطيين كبير التشابه، ويختلف اختلافاً جوهرياً من حيث ارتباط صاحب الإقطاع بعامله مباشرة، فعلى حين كان المقطع العربي عضواً في مجموعة متدرجة من الإقطاعيين، الذين يمكنهم منح تلك الأراضي إقطاعاً لآخرين دونهم، فيصبحون بذلك تبعاً لمقطعين لمقطعين وهكذا⁽²⁾، كان المسلمون ينظرون إلى الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرهم إلى الولايات المدنية، فكانوا أميل إلى التساهل مع السكان في تلك النواحي طمعاً إلى كسبهم، وأكثر كرمًا على الجنود المقيمين هناك على المقيمين في الولايات المدنية⁽³⁾.

وقد اكتسب الإقطاع بمرور الزمن مفاهيم متعددة؛ من منح أرض بملكية دائمة أو مدى الحياة أو لفترة محدودة، إلى منح وارد الأرض بدل العطاء، وبعد أن كان من الصوافي والأرض الموات ومن ضياع الخلافة اتسع إلى الأراضي الخراجية، ولئن أعطيت إقطاعات بدل الرواتب في حالات محدودة أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة، فإنّ تحولاً خطيراً حصل في العراق خاصة بعد التغلب البويهي، وذلك بمنح الجند إقطاعات بدل العطاء، كما شمل الإقطاع أنواع الأراضي كافة، وهو الإقطاع العسكري الذي اتخذ اتجاهات متعددة من كونه معدوداً بزمن أو خدمة، إلى أن صار وراثياً، ثم تطور مقابل تهيئة المقطع لعدد من الجند، مع التمتع بسلطات محلية واسعة⁽⁴⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص171

(2) جيرونيانوم، حضارة الإسلام، تر: عبد العزيز جويد، الألف كتاب، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص24

(3) حسين مؤنس، فجر الأندلس، الشركة العربية للطباعة، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص398

(4) عبد العزيز عبد الكريم طه الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، دار الاجتهاد، (د،ط)، لبنان، 1980، ع1، ص(243-267)

ولم يكن ما فعله البويهيون استمراراً للتطور السابق، بل كان تعبيراً عن مفهوم جديد ووجهة جديدة، وكان بدايةً خط من التحول انتهى بأن يعمّ الإقطاع العسكري، ويصبح النظام السائد من أوسط آسيا إلى مصر⁽¹⁾.

ومع ذلك فإنّ فهم هذا التحول يوجب تتبّع الخطوات العامة وظهور الملكيات الكبيرة، ثم الظروف التي أدّت إلى ظهور الإقطاع العسكري وانتشاره، ومن المناسب أن نلقي نظرة على تطور الإقطاع في العهد الإسلامي على العموم، وبمنطقة الثغور على الخصوص.

تطور الإقطاع:

الاقطاع بالثغور والسواحل:

عرفت الدولة الإسلامية نظام الإقطاع منذ ظهورها، وتتبع الأصول التاريخية للإقطاع نجد أنّه مر بعدة مراحل منذ العصر النبوي والراشدي، إلى الأموي والعباسي، وتشير المصادر إلى عدد من أمثلة ذلك⁽²⁾، وأدت سياسة الخلفاء في توسع الإقطاع إلى تضخم القطائع، ويقدم ابن عسّاكر⁽³⁾ قصة هذه

(1) الدوري، نشأة الإقطاع، ص(243-267)

(2) فقد أقطع تميم الداري قريته في بيت لحم وأقرها له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بعد فتح الشام، فلمّا أسلم تميم قال: يا رسول الله إنّ الله مظهرك على الأرض كلها، فهب له قريتي من بيت لحم، قال: هي لك وكتب له بها، فلما استخلف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) جاء تميم بكتاب النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال عمر (رضي الله عنه): «أنا شاهد ذلك فأعطاه إياه»، أنظر: ابن سلام، المصدر السابق، ص254

وإن كان الخليفة أبو بكر (رضه) من المقلين في الإقطاع لدرجة المنع، فقد اهتم عمر (رضه) بإقطاع أرض الموات بصفة خاصة لما رآه في ذلك من النفع العام، وشدّد على أنّ المقطع إذا عجز عن استغلال الإقطاع خلال ثلاث سنوات استرجعه منه، أو استرجع القدر الذي لم يطق عمارته، أمّا الأرض العامرة المزروعة فعلا التي انتقلت إلى حوزة المسلمين بالفتح فيينا كانت أو غنيمة، فلم ير عمر (رضي الله عنه) إقطاعها مثل السواد بالعراق واسترجع ما كان أقطعه، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص173

كما توسّع عثمان (رضي الله عنه) في منح القطائع، وعاونه في ذلك واليه على الشام معاوية، فبعد أن أمره بإنزال العرب بمواضع نائية من المدن والقرى، وأنزل بني تميم الرابية، ووطن القبائل في منطقة الرّها، وجلا أهل بالس وقاصرين والقرى القريبة من الفرات، حيث وطّنها أبو عبيدة لجماعة من المقاتلة، كما أمره بتحسين سواحل صيدا، وعرفة، وجبيل، وبيروت، وعسقلان، وأنطرسوس، ومريّة، وبلنيس، وقاليقلا وغيرها وشحنها بالمقاتلة، كما أذن للناس في تلك المناطق بالزراع بعد أن كان عمر (رضي الله عنه) ينفر

من اشتغال الجند بالزراعة، أنظر: الدوري، العرب والأرض، ص28

(3) تاريخ مدينة دمشق، م1، ص593-596

القطائع وتطورها، قائلا: «فلما هزمت الروم، هرب البطارقة تاركين ما كان لهم من المزارع، فلحقت بأرض الروم، ومن قتل منهم في المعارك بين المسلمين والروم، فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبلها والي المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته، قالوا: فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبلة تدخل قبالتها بيت المال فتخرج نفقة ما يخرج من الخراج، حتى كتب معاوية في إمرته على الشّام إلى عثمان (رضي الله عنه) أنّ الذي أجراه عليه من الرزق في عمله لا يكفي، ووصف في كتابه هذه المزارع الصّافية وسماها له، يسأله أن يقطعه إيّاها ليقوى بها على ما وصف له، وبأئها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج، فكتب إليه بذلك».

أ- في العهد الأموي:

مضى الأمويون قدما في هذا السبيل، واستلزم تحوّل الخلافة إلى ملك استكثار الأنصار⁽¹⁾، وقد أتاحت السّعة في رقعة الدولة الإسلامية للخليفة أن يتوسع في إقطاع القطائع، ومن ذلك ما استلزمته المحافظة على هذا الملك العريض، وإقامة المعادل والحصون التي عرفت بالمسالح ولا سيما على حدود الدّولة، وشحنها بالجند المرابطين والمثاغرين ليكونوا على أهبة الاستعداد للدّفاع، ثم إنّ عملية التوسّع نفسها وما تحلّلها من عمليّات حربيّة أدّت بطبيعة الحال إلى اختلال الأمن وفقدان الطمأنينة، سواء في حدود الدّولة من العدوّ الجاثم على الأبواب أو داخل حدود الدّولة نفسها⁽²⁾.

وثمة عامل آخر لانتشار الإقطاع الإسلامي، تتمثل في الثراء المفرط الذي صار للخلفاء نتيجة للفتح وتكدّس الغنائم، فقد مكّن لهم أن يسيطروا أيديهم في الهبات الإقطاعية على سبيل المكافأة، بالإضافة إلى عامل آخر وهو شخصية ولاة الأمر أنفسهم والتي كانت من أكبر العوامل في انتشار الإقطاع، إذ عمل القوي منهم على منح الإقطاعات لتدعيم سلطانه وتثبيت قواعد ملكه، كخلفاء هذا العصر وخلفاء العصر العباسي الأول وأوائل الفاطميين، في حين اضطر الضعيف فيهم بإشباع رغبات المتسلّطين ممن يخافهم ويخشى على ملكه منهم، الذين حازوا الإقطاعات الواسعة وتصرفوا في المنح

(1) أقطعت الدّولة الحسن بن علي إقطاعا كبيرا على إثر تنازله عن الخلافة لمعاوية، أنظر: عبد العزيز الدوري، العرب والأرض، ص 24-30

(2) فتحى، المرجع السابق، ج 3، ص 175

الإقطاعية لأنصارهم⁽¹⁾، ومن هنا نجد آثار التوسع في الإقطاع بأراضي الثغور⁽²⁾.

ويتضح من كل ذلك أثر سياسة التوطين في تكوين الملكيات العربية، فكان للشراء دور هام في توسيع الملكية نتيجة إقبال العرب على الأرض وخاصة في فترة عبد الملك، بعد أن ألح عليه الأشراف وعلى بنيه من بعده بإقطاعهم من أرض الخراج ورفضهم ذلك، فطلبوا منهم السماح بشرائها، الأمر الذي أدى إلى تحويل الأراضي الخراجية إلى عشرية⁽³⁾.

وبمجيء عمر بن عبد العزيز، لاحظ مدى انتقال أرض أهل الذمة إلى المسلمين، فأمر بإيقاف البيع، وأصدر أمراً بمنع بيع الأرض الخراجية لحماية لبيت المال، وربما للحد من تكوين الملكيات الكبيرة⁽⁴⁾، ومع أنّ خلفاءه وخاصة هشام التزموا بخطته إلا أنّ ذلك لم يوقف البيع واستمر الشراء، مما أدى إلى فرض الخراج على الأرض بصرف النظر عن المالك، وهذا يظهر بجلاء أثر الشراء في تكوين الملكيات الكبيرة، وظهور طبقة ملاكين جدد⁽⁵⁾.

(1) إبراهيم علي طرخان، الإقطاع الإسلامي أصوله وتطوره، المجلة التاريخية المصرية، العدد6، القاهرة، 1950، ص(47-76)

(2) نجد أنّ آثار التوسع في الإقطاع بأراضي الثغور لم تنزل بيد معاوية حتى أفضى الأمر إليه فأقرّها على حالها، ثم جعلها من بعده حبساً على فقراء أهل بيته والمسلمين، ثم سأله أناس من قريش وأشرف العرب أن يقطعهم من بقايا تلك المزارع ففعل، فمضت لهم يبيعون ويورثون، فلما كان زمن عبد الملك سأله أشرف الناس أن يقطعهم ففعل، ثم نظر إلى أرض الخراج وقد بدأ أهلها ولم يتركوا عقبا، فأقطعهم منها ورفع ما كان عليها من خراجها وقالوا فلم يزل يفعل ذلك، حتى لم يجد من تلك الأرض شيئاً، وأقطع الوليد بن عبد الملك جنداً بأنطاكية أرض سلوقية عند الساحل، وصير الفلثر(الجرب مكيال قدر أقدرة، ويساوي 29,5 لتر أو 22,715 كغ قمح، أنظر: المعجم الوسيط، ص114) بدينار ومدى قمح فعمروها وجرى لهم ذلك، وبنى حصن سلوقية. وكانت أرض بغراس لمسلمة بن عبد الملك فوقفها في سبيل البر، وكانت عين السلور وبحيرتها له أيضاً، فلما كان مسلمة غازياً لبلاد الروم من جهة الثغور الجزرية عسكر ببالس، فأتاه أهلها وسألوه أن يحفر لهم نहरًا من الفرات يسقي أرضهم ففعل، فلما مات مسلمة صارت لورثته، وأقطع عبد الملك بن مروان القعقاع بحيار بني القعقاع قطيعة، وأسكن مروان بن محمد الخصوص شرقي جيحان فرساً، وصقالبة، وأنباط، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص178- ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص90

(3) عبد العزيز الدوري، العرب والأرض، ص5

(4) الخوارزمي، المصدر السابق، ص62

(5) حسين فالح، المرجع السابق، ص63

وقد تمكن الخليفة عمر بن عبد العزيز من إيقاف موجة التوسع في الملكيات الكبيرة لفترة قصيرة من الزمن، لكن يبدو أنّ الأمر عاد بعده أشدّ مما كان في السابق، حيث نلمس ذلك من تأكيد الخليفة يزيد بن الوليد: على عدم حفر القنوات والأنهار واتخاذ الضياع، حيث قال: «أيّها الناس، إنّ لكم عليّ ألاّ أضع حجراً على حجر، ولا لبنة على لبنة، ولا أكري نهرًا»، فقد أحس يزيد بالتذمر الذي شاع من توسيع الملكيات، واقتناء الأراضي على نطاق واسع خاصة من قبل الأمراء والخلفاء أنفسهم⁽¹⁾.

ب- في العهد العباسي:

بمجيء العباسيين قبضوا ما كان بأيدي بني أمية من إقطاعات وأعطوها لأهلهم وأنصارهم، فأرض مسلمة ببالس قبضها عبد الله بن علي وأقطعها السفاح سليمان علي فصارت لابنه محمد سليمان، ثم آلت للرشيّد فأقطعها المأمون، وصارت لولده من بعده⁽²⁾.

وكان مرج عبد الواحد حمي⁽³⁾ لخيّل المسلمين قبل أن تبنى الحدث وزبطرة، فلما بنيتا استغنى بهما، فضمّه الحسين الخادم إلى الأحواز في خلافة الرشيد، ثم وثب الناس عليه فغلبوا على مزارعه، حتى قدم عبد الله بن طاهر الشّام فرده إلى الضياع، وهكذا تراكمت ضياع بني العبّاس⁽⁴⁾.

فيروي الطبري⁽⁵⁾: «ولّى سلام -خادم الرشيد- بعض خدام الخاصة ضياع الرشيد بالثغور والشّامات، فتوترت الكتب بحسن سيرته، فأمر الرشيد بتقديمه وضم ما أحبّ أن يضمّ إليه من ضياع الجزيرة ومصر».

(1) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ج2، ص551

(2) فتحي، المرجع السابق، ج3، ص176

(3) مكان في أرض موات به كلاً، يعينه ولي الأمر، يقيم عليه عاملاً ويتخذه مرعى لخيّل الجهاد وماشية الصدقة وفقراء المسلمين، وعرفه ابن منظور بأن يقوم الخليفة أو نائبه بمنع الرعي في أرض مخصوصة، وجعلها لنبت الكأ، ورعي المواشي، وقيل هو الفقيع، أنظر: عز الدين ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، ص262، 263- ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص114

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص177

(5) تاريخ، ج10، ص117

ومن أساليب تحول ملكية الأرض الإلجاء، وأساسه التعزز بأمير قوي، أو بمنقذ ذو سلطة لتلاشي مضايقة الجباة، وقد عرّفها الخوارزمي⁽¹⁾: «بأن يلجئ الضعيف ضيعته إلى أمير قوي ليحامي عليها»، فيلجئ الرجل أرضه إلى أمير، أو قوي يحتمي به فتكتب باسمه، فلا يتجرأ الجباة على العنف والظلم، ويقوم بدفع خراجها، ويجعل صاحب الضيعة نفسه مزارعا له، وتصبح الضيعة بتوالي الأيام ملكا للملجأ إليه.

وهو نظام الحماية نفسه *autopragia patromage* حين اضطر المزارع البيزنطي - أمام تضاعف الأعباء - أن يبحث عن رجل غني أو قوي يضع أرضه تحت تصرفه، ليقوم بدلا منه بدفع الضرائب ويحميه من تعسف الحكومة، وقد ألبأ ناس إلى مسلمة ضياعا كثيرة للتعزز به، وصارت التلجئة اصطلاحا قائما بذاته في مواضيع الكتابة في دواوين الخراج، وأصبح لها قسم خاص بها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي⁽²⁾.

وكان للإلجاء أثر في تكوين ملكيات كبيرة، ومن أمثلة ذلك انتقال بالس وقراها إلى ورثة مسلمة، بعد أن ألبأ إليه أهلها، وطلبوا منه قناة من الفرات إلى أراضيهم ففعل، ولم يقتصر تكوين الملكيات الكبيرة على الفترة الأموية بل استمر وازداد قوة واتساعا في الفترة العباسية⁽³⁾.

2- الوقف والأحباس:

وجدت بمناطق الثغور أيضا أراضي الوقف والأحباس، ويقصد بها الأراضي والمنشآت العقارية التي يخصصها المسلمون للأغراض الدينية، للإنفاق على المساجد، والمؤذنين والقراء، والمنقطعين للعلم، والمجاهدين، والفقراء، والمحتاجين، واليتامى، وفك الأسرى، وبناء الحصون، أو للمنافع العامة؛ فقد حبس معاوية منطقة الصوافي لفقراء المسلمين، وكانت بغراس بأنطاكية وقفا للفقراء والمساكين⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ص 56

(2) فتحى عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 184

(3) البلاذري، المصدر السابق، ص 151

(4) محمد زينهم محمد غرب، الإدارة المركزية للدولة الأموية (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة القاهرة، 1981، ص 101،

وهناك نوعان من الأوقاف خاصة ورسمية، فأما الخاصة فهي التي يوقفها بعض الأتقياء والأمراء والأغنياء⁽¹⁾ بمنطقة الثغور لما لها من دور في خدمة الجنود⁽²⁾، وأما الرسمية فهي التي يوقفها الخلفاء والسلاطين للإنفاق على المنشآت الدينية والاجتماعية على اعتبار أنّها جزء من أعمال البر والتقوى، والهدف من إنشائها هو نيل الأجر والثواب، ولذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مينا هذا الفضل في الحديث الشريف: {مَنْ أَحْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ، وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبْعَهُ وَرِيَهُ وَرَوْتَهُ وَبُوكَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ⁽³⁾، فأخذ الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم بسنة الوقف لأنّه صدقة جارية.

كما وعى المسلمون منذ العهود الأولى ما للوقف من مقاصد سامية، ومصالح ملموسة في الحفاظ على مكانة الأمة وأمنها، فالوقف كان خير معين على الجهاد وحماية الثغور، وبناء الأربطة والمراكز في مناطق التماس مع العدو، وتقديم الدعم للمجاهدين، فالصناعة الحربية والأربطة التي يرتادها المجاهدون لحماية الثغور أوقفت لها الأوقاف لرد المعتدين على بلاد المسلمين، فأنشئت الكثير من المصانع أوقفت لمواجهة العدو، وتبع ذلك وقف الخيول، والسيوف، والأسلحة وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله وكل ما يعينهم في حروبهم، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها ⁽⁴⁾.

كما وقفت الوقوف لفك الأسرى، فذكر ابن الأثير⁽⁵⁾ أنّ بعض الأوقاف كانت لفك الأسرى من المسلمين، وأنّ الخليفة المقتدر أوقف ما غلته تسعون ألف دينار على الحرمين وعلى الثغور، وأنشأ

(1) فقد أدركت السيدة زبيدة هذا الأمر وقامت ببناء دار ضيافة لا يضاهاها أي دار في الشام كلها ببغراس، مهمتها استقبال المسافرين من المجاهدين أو طلاب العلم الذين يقصدون تلك المناطق، هذا فضلا عن بنائها عددا من دور السبيل بالثغر الشامي وطرسوس، كما اهتمت ببناء البيمارستانات -المكان المعد لعلاج المرض واقامتهم أثناء العلاج بمعنى دار الاستشفاء-، أنظر: سناء عبد الله عزيز الطائي، دور المرأة في الثغور والعواصم، ص(1-3)

(2) سليمان بن صالح، المرجع السابق، ص 697

(3) البخاري، المصدر السابق، حديث رقم 2853

(4) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار الوراق، ط1، الرياض، 1990، ص 201

(5) البداية والنهاية، ج 14، ص 252

ديوانا للوقف سماه ديوان البر، وكانت بعض القرى وقفا على المقطعين غير المسجلين في الديوان، وأخرى لتخليص السجناء ووفاء ديونهم، كما وجدت أوقاف خيرية تنفق على أسر السجناء وأولادهم، حيث يقدم لهم الغذاء، والكساء، وما يحتاجونه، وأخرى مخصصة للصرف على الفقهاء، شرط أن يؤموا المساجين أوقات صلواتهم، وأن يدرسوهم، ويفقهوهم، ويقودوهم في حياتهم العملية، ليخرج هؤلاء المساجين وقد استفادوا علما من العلوم، أو حرفة من الحرف حتى لا يعودوا للانحراف مرة أخرى⁽¹⁾.

(1) العسقلاني ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دائرة المعارف العثمانية، (د،ط)، حيدر آباد، 1349، ج2، ص412

المبحث الثالث: تنظيم الري ووسائله

بعد انتقال القبائل العربية إلى المناطق الثغرية، حدث تغيير كبير في حياة السكان، ذلك أن إقامتها في المدن جعلها تتجه إلى الاستقرار والحياة الحضرية، ومع أنّ كثيراً من القيم والمفاهيم القبلية بقيت إلا أنّها أصبحت جزءاً من مجتمعات مستقرة، وقد تمثل هذا التحول في النواحي الزراعية والتجارية والحرفية، والتي ساعدت على إنشاء المدن واتساعها وقد تحكّم الماء إلى حد كبير في اختيار مواضعها. ومن المعروف أنّ توفر المياه يشكل العامل الأساسي في ازدهار الزراعة في أي إقليم، لذلك أولى الولاة والخلفاء اهتمامهم بمشاريع الري، فقاموا بتوسيع الأنهار، وحفر الآبار وشق القنوات، وجر المياه المتفجرة من العيون والأنهار عبر القنوات لإيصالها إلى الأراضي، كما أقاموا القناطر والجسور، ووضعوا صهاريج لتجميع المياه للاستفادة منها، معتمدين على مصادر متنوعة في محاصيلهم، حيث تختلف هذه المصادر من منطقة لأخرى، حسب الظروف المناخية والتضاريسية لكل إقليم، فمدن الثغور اعتمدت عموماً على مياه الأمطار في زراعتها، فكانت السمة الغالبة على زراعتها⁽¹⁾.

كما أنّ هناك مناطق اعتمدت مصادر بديلة عن الأمطار لري المزروعات، والتغلب على القحط والجفاف الذي شهدته أكثر من مرة في الكثير من السنوات وأدى إلى ارتفاع الأسعار، ولعلّ أهمها: مياه الأنهار، والآبار الجوفية، والينابيع، والبرك، والسدود، فطرق الري في المنطقة لم تكن حديثة وإنما فكر بها الإنسان منذ القدم لمساعدته في استهلاك المياه، ولمواجهة الفيضانات وتسهيل حياته⁽²⁾.

وتشير الروايات التاريخية إلى مدى اهتمام السلطة بتوفير الماء ومنشآته، ومدى مشاركة العامة في التعاون على إنشائها والمحافظة عليها، في إطار يكفل للسلطات العمل على تطويرها نشاطها⁽³⁾.

(1) م.م. نادية نوري علي، نشأة مدينة البصرة وتطورها العمراني في القرن الأول الهجري، مجلة دراسات البصرة، السنة السابعة، ع14، العراق، 2012، ص(1-25)

(2) عماد مهدي حسن، وسائل الارواء خلال العصر العباسي من خلال صور المخطوطات العربية الإسلامية، مركز بابل للدراسات الحضارية التاريخية، ع2، م7، جامعة بابل، 2017، ص(133-164)

(3) فقد اهتم الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بمشاريع الري ونظامها تنظيمياً دقيقاً يتفق مع الحاجة إليها، فقام بحفر الأنهار، شق الترع وتطهيرها، الاهتمام بمشاريع الري، شق القنوات وغيرها مما أدى إلى تسهيل عملية الزراعة على الفلاحين، كما أنّ علياً كرم الله وجهه أمر بحفر الأنهار، وشق البرك وتطهيرها، أنظر: الهمداني، المصدر السابق، ص233

واهتم الولاة الأمويين بالمشاريع عناية كبيرة؛ فأمرؤا ببحر الأنهار وشق القنوات، وأقاموا القناطر والجسور والمسنيات والسدود لمكافحة الفيضانات، وحجز مياهها من غمر الأراضي المجاورة للأنهار، كما قاموا بإحياء الأراضي، وأحصوا كمية الأمطار التي تهطل فأقاموا خزانات لجمع المياه وتوزيعها، وشبكة ري لتوزيع المياه فيها⁽¹⁾.

وخلال العصر العباسي زاد الاهتمام بمشاريع الري، فشقوا القنوات من نهر دجلة والفرات لتزويد المدن بالماء، وجعلوا ماء الري مع مرور الزمن ديوانا خاصا، أطلقوا عليه ديوان الري، يشرف عليه موظف كبير، وعشرة آلاف عامل، وأقاموا مقاييس على الأنهار للوقوف على مقدار ارتفاع الماء وانخفاضه، بالإضافة إلى اتباعهم القواعد والأساليب العلمية للري، وعلم خصائص الماء (الهيدرولوجية) كما عرفوا استنباط موارد المياه الجوفية لأغراض الشرب، عن طريق شبكة من القنوات يشرف على سلامتها وتوزيعها حفظة وقوامون، مهمتهم السهر عليها بالتناوب ليلا ونهارا⁽²⁾.

1- مصادر الري:

أ- مياه الأمطار:

تؤثر مياه الأمطار في الإنتاج الزراعي، ويشير الجغرافيون أنّ العبرة ليست بكمية الأمطار المتساقطة في منطقة ما، وإنما بالقيمة الفعلية لها، وانتظام سقوطها وعدم تذبذبها، فقد اختلفت مياه الأمطار في حجمها من منطقة إلى أخرى من بلاد الشام نظرا لكبر المنطقة، فنجد أنّ الري ومصادر المياه اختلفت هي الأخرى وفقا لما تجود به الطبيعة من المياه فهناك مناطق كثيرة اعتمدت كليا على مياه الأمطار في زراعتها، فكانت هي السمة الغالبة على زراعتها كمناطق الثغور حيث اعتمدت الجزرية منها على الأمطار كوسيلة مهمة من وسائل الري، وخاصة في المناطق الجبلية الشمالية أو حتى في بعض السهول والمنحدرات والمناطق الواقعة بين سلال الجبال⁽³⁾.

(1) عماد مهدي حسن، المقال السابق، ص(133-164)

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 110

(3) كندور، المرجع السابق، ص345، 346

فيذكر البلاذري⁽¹⁾ أنه ببلوغ المسلمين الفاتحين الفرات، كانت بالس والقرى المنسوبة إليها في حدها الأعلى والأوسط أعداء، ويشير الاصطخري⁽²⁾ إلى أن مدينة جسر منبج البعيدة عن الأنهار، كان يغلب على مزارعها الاعتماد على الأمطار فامتازت أرضها بالخصوبة. ويعزو ابن الأثير⁽³⁾ سبب موجات الغلاء التي كانت تحتاج مدن المنطقة إلى قلة الأمطار، أو انقطاعها أو تذبذبها من وقت لآخر، وأنها كانت تأتي في أوقات متفرقة قريبة، لا يحصل منها الري للزرع، فجاءت الغلات قليلة.

أما بالنسبة لتوزيع الأمطار، فإن سقوطها يكون غزيرا في المناطق الساحلية، والمناطق الجبلية المقابلة للبحر، في حيث تحجب جبال اللكام (الأمانوس)، وجبال لبنان الغربية، الرياح الرطبة القادمة من الغرب، عن المناطق الواقعة إلى الشرق من هذه الجبال، ما يجعل نصيبها من الأمطار قليلا⁽⁴⁾. ويظهر الفرق في توزيع المطر، كلما سرنا من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق، فيلاحظ أن المطر يتناقص كلما اتجهنا جنوبا - في الساحل -، كما يلاحظ في الاتجاه غرب شرق في الداخل، لذا فإن نصيب المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي قليل على العموم، أما بداية فصل الأمطار فقد حدد في الفترة الممتدة بين شهر ديسمبر وأواخر مارس، وبداية منه تأخذ الأمطار بالتناقص بشكل ملحوظ، إلى أن تنقطع أواخر شهر ماي⁽⁵⁾.

وأفضل الأمطار ما سقطت في فترات متباعدة نسبيا خلال الموسم، على أن تكون كل مرة كافية لري الأراضي حتى المرة الثانية، أما سقوطها دفعة واحدة فإنه يقلل من أهميته حتى لو كان المطر غزيرا، فيجب أن تسقط الأمطار مبكرا (شهر أكتوبر) ويستمر سقوطها حتى أواخر شهر مارس⁽⁶⁾، وبلغت

(1) فتوح البلدان، ص 205

(2) مسالك الممالك، ص 74

(3) الكامل، ج 12، ص 424

(4) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 42

(5) الطاهر نصوح، شجرة الزيتون، دار الأردن، (د، ط)، عمان، 1947، ص 131

(6) كرد علي، المرجع السابق، ص 39

أهمية المطر درجة أنّ تأخر نزوله سنة 329هـ/940م، وسنة 377هـ/987م أدى إلى حصول غلاء⁽¹⁾. ويبدو أنّ هناك احتياطات اتخذت في المناطق التي تعتمد في ربيها على الأمطار ضد موجات الثلج والبرد التي تجتاح المنطقة في فصلي الشتاء والربيع، وتستغرق الفصول الزراعية -دائمة-، ويؤكد ذلك عدم ورود إشارات في كتب الرحالة والمؤرخين التي تعرض تلك المناطق، على الرغم مما كنا نقرؤه في المراجع من حدوث موجات من هذا القبيل في بلاد الشام وبلاد الروم خلال فترة الدراسة.

ب- مياه الأنهار:

تعدّ مياه الأنهار وما يتفرع عنها من جداول صغيرة، مصدرا رئيسيا للريّ في مختلف أنحاء العالم الإسلامي بما فيها مناطق الثغور، لذا كانت مراكز الإنتاج الرئيسية من المحاصيل الزراعية حول هذه الأنهار، إذ كانت ذات أثر كبير على نمو الزراعة وازدهارها في المناطق التي تجري فيها، لذا فقد اعتنت الدولة عناية خاصة بها، فكان التحكم في مياهها يتم عن طريق: إقامة القناطر، والسدود، وإنشاء شبكة من الترغ، والمصارف، والقنوات⁽²⁾.

وتتمتع الأراضي التي تزرع معتمدة على الري من مياه الأنهار، بمميزات لا تتوفر في الأراضي التي تروى بمياه الأمطار، وأهمها تجدد خصوبة التربة بصفة مستمرة، وإمكانية التحكم في مياه الري بالزيادة أو النقصان حسب طبيعة المحصول، لذا نجد الأراضي التي تروى بمياه الأنهار غالبا ما تمتاز بارتفاع قدرتها الإنتاجية⁽³⁾.

فمنطقة الجزيرة، ذات تصريف منتظم نحو الجنوب، فالسهل الرسوبي الذي يغطي معظم أراضيها، كان على شكل حوض ضحل يمتاز بانحدار تدريجي عام نحو الجنوب، كما أنّ له انحدارات جانبية

(1) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص282

(2) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج4، ص12

مثلما فعل مسلمة عندما حفر نورا من الفرات لبلدة بالس، كما عمل في الحصن المنسوب إليه بالجزيرة بين رأس العين والرقعة مصنعا لحفظ المياه، طوله مائتا ذراع في عرض مثله، وعمقه نحو عشرين ذراع معقود بالحجارة، فأجرى إليه الماء من البليخ في نهر مفرد في كل سنة مرة حتى يملاه، فيكفي أهله بقية عامهم، ويسقي هذا النهر البساتين والأراضي الزراعية التي بحصن مسلمة، أنظر:

البلاذري، المصدر السابق، ص205، 206- ابن خردذابة، المصدر السابق، ص95

(3) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج4، ص12

من الشرق والغرب، ويعدّ وادي الثرثار المصرف الرئيسي لمياه أراضي الجزيرة، كما تمتاز بالتصريف الداخلي (المغلق)، وبوجود مستنقعات جفّ بعضها فكّون أحواضا، وأصبحت بمرور الزمن ذات سطح منبسط مملوء بالترسبات التي جلبتها باستمرار المياه الجارية⁽¹⁾، وتجري في منظمة الثغور الإسلامية، العديد من الأنهار (سبق الإشارة إليها).

ج- مياه العيون والينابيع والآبار:

من مصادر المياه الأخرى بالمنطقة العيون، وصفها القلقشندي⁽²⁾ بقوله: «هي مياه تنبع من الأرض، وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قنى قد حفرت لها»، ويوجد بمدن الثغور عدد من العيون والينابيع والتي تشكل موردا مهما لأنهارها، ومصدرا آخر يساعد على عملية ري الأراضي الزراعية، ومن الملاحظ أنّها تتركز في الشمال.

وكانت هذه الينابيع والعيون المصدر الطبيعي لبعض المدن، كما هو حال مدن الثغور الجزيرة، فلقد اشتهرت المنطقة بغناها بالمياه السطحية والجوفية، بسبب الجبال الغربية من أرمينيا، والتي شكلت خزانا للمياه، من خلال الثلوج التي تتراكم عليها شتاء لتذوب في الربيع وتغذي الأنهار بالماء⁽³⁾.

وكذلك المياه الجوفية الموجودة في صخور نهر دجلة والفرات، والتي استفاد منها أهالي المنطقة فحفروا الآبار، ومدوا القنوات، وشكلوا الصهاريج لاستغلالها⁽⁴⁾.

وتحدّثنا المصادر أنّه من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي كان سكان الجزيرة الفراتية في السهول المحصورة بين المناطق الجبلية، أو القاطنين على ضفاف الأنهار، ينشطون في ابتداع الطرق والأساليب لري أراضيهم ومزارعهم، ويتم ذلك بمجهوداتهم ومبادراتهم، فيذكر أنّ ماردين حصن حصين مبني على تلة جبل شاهق، وهو مشرف على تلك الجبال من جميع الجهات، وتحتته من الناحية الجنوبية روض عامر، مياههم من عيون مجرورة في قنوات، وقد استحدثوا الصهاريج والبرك ليجمعوا ماء

(1) سوادى، المرجع السابق، ص 181، 182

(2) صبح الأعشى، ج 2، ص 179

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 121

(4) ابن شداد، المصدر السابق، ج 3، ص 40، 41

المطر لري أشجارهم ومزارعهم⁽¹⁾.

كما ساهمت الآبار والبرك التي كانت تجمع فيها مياه الأمطار، والتي تستخدم للشرب وأحياناً لأغراض زراعية في توفير الماء، فهي مصدر رئيسي للحصول على الماء من باطن الأرض، سواء العميقة أو القريبة من سطح الأرض، حيث قامت الإدارة الإسلامية بالعناية بها واستصلاحها، بهدف الاستفادة من الأمطار التي تنحدر عبد الوديان، بإقامة الحواجز والسدود، ومن أشهرها على الساحل الشامي جنوباً: آبار مدينة عسقلان، وبئر الرحمة بقلعة بعلبك، وبئر الكلب بقرية من أعمال حلب⁽²⁾.

2- أدوات ووسائل الري:

تعتمد الزراعة في مناطق الثغور بالدرجة الأولى على المطر، أما المناطق المروية فهي قليلة المساحة، وتكاد تتركز في نهر العاصي، وفيما عدا ذلك فهناك أماكن متفرقة تعتمد على الري في مواقع وجود العيون، والينابيع، والقنوات، والتي تمد مياهها الأراضي الزراعية من حولها.

ويذكر ابن العوام⁽³⁾ أنّ الري قسمان: أولها السقي بالعيون ومن الأنهار بالسواقي، أما القسم الثاني فهو شاق ومتعب، وهو السقي بالآلات والنواعير والدلاء التي تدور بها الإبل والحمير والبغال، والتي تكثر على نهر العاصي، أما بالنسبة إلى الطرق والأدوات التي استخدمها الفلاحون في ري أراضيهم فيمكن حصرها في ثلاث وهي: الآلات والأدوات، القنوات، القناطر والجسور.

أ- الآلات والأدوات: تذكر المصادر مسميات عدة لآلات الري بعضها مترادف؛ كالدلو والقرب والسانية والناضج، وأكثرها شيوعاً؛ النواعير والدواليب والشواذيف، وقد وصفها البوزجاني في كتابه الحاوي للأعمال السلطانية ورسوم الحساب الديوانية⁽⁴⁾، وسنأتي على ذكر أهمها:

(1) سوادى، المرجع السابق، ص201

(2) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تح: فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، (د،ط)، بيروت، 1951، ص235-239

(3) أبو زكرياء يحيى بن محمد، كتاب الفلاحة، مكتبة الفلاحة، (د،ط)، مدريد، 1802، ص3

(4) المكتبة الوطنية بباريس، عربية، 2462، ص164، 165

1- الناعورة: تعدّ من أهم آلات رفع المياه التي استعملت في المنطقة، وهي آلة لرفع المياه من مستويات دنيا إلى مستويات عليا، بواسطة دولاب رأسي كبير القطر، جهاز بمحاديف ودلاء موزعة على محيطه عددها ثمانون كوزا، ويسع كل منها خمسة عشر رطلا (الرطل=7.650 لتر)، ويصب في كل دورة 1200 رطل، ويروي جريبا⁽¹⁾ كل ساعة، وهكذا يمكن للناعور أن يروي بين (350-400 جريب) من غلات الشتاء، و80 جريب من غلات الصيف⁽²⁾.

ويدور دولاب الناعور بقوة تيار المياه الجارية في النهر، رافعا بواسطة الدلاء المياه إلى المنسوب الأعلى⁽³⁾، ويتكون جسم الناعور من خمسة عناصر رئيسية هي:

الكفت: وهو أول العناصر، ويشكل الوسائد التي يتركز عليها قلب الناعورة، ويتكون عن قطعتين من خشب الحور، محفورتن على شكل أسطوانة داخلية، مشكلتين وسادتين يرتكز عليها قلب الناعور -محورها الأفقي- وهو العنصر الرئيسي الثاني للناعورة.

القلب: وهو المحور الأفقي للناعورة وعليه تدور، مصنوع من خشب الحور، ويتم إمساك القلب على الكتف بالصر المصنوعة من خشب المشمش.

الأعتاب: تتكون من خمس عشر عتبة -مهما كان قطر الناعورة- تتركب حول القلب، ويكون نصفها من الأمام جهة قناة الجر، والنصف الآخر من الخلف، وخشبها من خشب الجوز.

الوشاحات: وهي الأداة التي تستعمل بين العتبات وقوس الناعور حامل الدلاء، وعددها محدد بثمانية وأربعين وشاحا مهما كان قطر الناعورة، وهي مصنوعة من خشب الجوز.

الدوائر: مكونة من دائرتين وسطى وعليها، تؤمن ربط الوشاحات بشكل جيد، وتضع عناصر رفع المياه، وهي صناديق الناعورة التي تحمل الماء، كما تحمل المعدات، وهي الميازيب التي ينصب بواسطتها الماء المدفوع بالصناديق ضمن قناة الناعورة، ويركب على هذه الدوائر قطع متممة مثل الريش، مهمتها

(1) الجريب = 1592م²، أنظر: فالترهانتس، المرجع السابق، ص96

(2) عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 1995، ص73

(3) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص121

تلقي صدمة التيار لتؤمن دوران دولاب الناعورة⁽¹⁾.

وأكثر ما استعملت الناعورة على نهر العاصي، حيث كان لا يسقى إلا بنواعير تنزع منه الماء، وعنه يقول شيخ الربوة⁽²⁾: «وعلى العاصي النواعير الكبار التي لم ير في الآفاق مثلهن، يحملن من العاصي أنهارا من الماء، يسقون بها البساتين والأماكن»، ويذكر ابن العديم⁽³⁾: «أن أهل حماة لا ينتفعون بمائه في السقي والزرع إلا بنواعير، وذكر أنه كان في سوريا 7349 ناعورة، أو ما يشاكلها من الآلات التي تستعمل على ضفاف نهر العاصي والفرات».

وعلى نطاق أقل استخدمت النواعير على نهر يزيد في الأرض، التي تمتد شماله و يديرها الماء كما في حماه⁽⁴⁾، كما عرفت النواعير الخشبية التي تدار بواسطة الدواب، وانتشرت على الآبار التي تأخذ مياهها من الأنفاق المتصلة بمجرى النهر⁽⁵⁾.

2- الدالية: هي دولاب يشغله الرجال، وتعمل على نفس مبدأ الناعورة، يذكر البوجزاني⁽⁶⁾ ثلاثة أنواع منها حسب طول زرنوقها⁽⁷⁾، وحجم دولابها، وهي:

- الفارسية، وطوله 24 ذراعا(12.96م)، ويشغلها ستة رجال
- والكوفية طوله بين 22-30 ذراعا(11.88م-16.21م)، ويشغلها سبعة رجال
- والدالية المحدثه، وطوله من سبعة إلى تسعة أذرع(4.86م)، ويديرها رجلان أو ثلاثة، ويروي النوعان الأولين بين 6-8(177-236 لتر) جريب في اليوم.

(1) مرتيني عمر وصفي، الري حول الناعورة وأقنية الري التابعة لها، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب 1983 «اسهامات العرب في علم المياه والري»، الكويت، 1988، ص162-164

(2) محمد بن أبي طالب الأنصاري، المصدر السابق، ص206

(3) بغية الطلب، ص390

(4) النويري، المصدر السابق، ج8، ص253، 254

(5) محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، تح: ظافر القاسمي، دار طلاس، ط1، (د،م)، 1988، ص489

(6) الحاوي للأعمال السلطانية، ص164، 165

(7) الزرنق: منارتان تبنيان على رأس البئر من جانبيها، فتوضع عليها النعامه وهي خشبة تعرض عليهما، ثم تعلق فيها البكرة فيسقى بها وهي الزرائيق، وهما خشبتان أو بناءان كاملين على شفير البئر من طين أو حجارة -دعامتان-، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص729

وتختلف مساحة الأرض المروية حسب توفر الماء، إذ يمكن أن تروي الدالية بين 130 و80 جريب (3835-2360 لتر)، من الشتوي و53 و60 (1563-1770 لتر) من الصيفي، ويتوقف ذلك على وجود أو عدم وجود معونة لها من السيح، ويحصل كل دلو من دولي النوعين 400-600 رطل ماء، أما الدالية المحدثة فقدرتها على الري تبلغ حوالي ثلث مقدرة الداليتين⁽¹⁾.

3- الدولاب: عجلة مائة مثل الناعور، أكثر تعقيدا وهو نوعان: الأول يديره ثور (حصان، جمل)، والثاني يديره ثوران، يروي النوع الأول 70 جريب من المزروعات الشتوية، و30 من المزروعات الصيفية، أما النوع الثاني فيروي 70 جريب من غلات الصيف، و180 من مزروعات الشتاء (4425 لتر)، واستخدام الدولاب على نهر قويق ونهر يزيد⁽²⁾.

4- الشادوف: دلو لطيف مثل دلو الدالية، يحتاج إلى أربعة رجال لتشغيله، يسقي أربعة أجرة في اليوم ويزرع عليه في الشتوي 70 جريب، وفي الصيف 30 جريب، واستخدام الفلاح الشادوف لرفع الماء من الآبار لاستخدامه اليومي، أو الاستخدام الزراعي، ونظرا لبطء عمله لا نطن أنها استعملت للري في المزارع، بل لأجل الشرب⁽³⁾.

5- البكرات: مفرد بكرة، توضع عليها دلاء تجرها البقر، ويحمل الدلو حوالي 200 رطل، ويمكن نصب بكرتين على بئر واحدة⁽⁴⁾.

ب- القنوات:

أما الطريقة الثانية التي اتبعها الفلاحون في ري أراضيهم، فهي استخدام القنوات، واستخدمت في الأماكن المنحدرة انحدارا خفيفا حيث يجري الماء بواسطتها إلى المكان الذي يراد إيصال الماء إليه، سواء كان للشرب أو الري⁽⁵⁾، وقد اشتهرت كل من منبج وسلمية بالقنوات، استخدمت في ري

(1) الدوري، تاريخ العراق، ص73

(2) فالترهنتس، المرجع السابق، ص83

(3) الخوارزمي، المصدر السابق، ص70، 71

(4) نفسه

(5) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص124

الأراضي الزراعية في تلك البلاد⁽¹⁾.

ج- الجسور والقناطر:

من الشواهد التي تدل على اهتمام سكان المناطق الثغرية وغيرها بمشروعات الري الزراعية، إنشاء القناطر والجسور على الأنهار، أو ترميم وصيانة ما كان قائماً منها منذ عهود سابقة، فهي ضرورية لربط المدن والقرى بعضها بعضاً، مما يسهل انتقال الفلاحين إلى حقولهم ومزارعهم، وكذلك تسهيل عملية التبادل التجاري، وعن طريقها يمكن نقل المياه من النواعير إلى قنوات تصل إلى المزارع والمدن ليستعملها الناس⁽²⁾.

ومن هذه القناطر قنطرة وجدت بطرابلس طولها حوالي مائتي ذراع (108.08م)، على واد بين جبلين يمر عليها الماء في ارتفاع سبعين ذراعاً (37.8م)، وكان النهر يجري من تحتها فيبقى الأراضي من حوله ويصب في بحر الشام⁽³⁾، وعلى نهر قباقب قنطرة عظيمة تعرف بقنطرة قباقب في الجانب الغربي، من المحتمل جداً أنها أقيمت لغرض الري كتنظيم مجرى المياه وتوزيعها⁽⁴⁾.

3- كري الأنهار وتنظيم الري:

اتبعت قواعد خاصة لكري الأنهار، ونظمت المسؤولية بين الفلاحين المشتركين في نهر واحد، فتقع على الدولة كري الأنهار الكبيرة ذات الفائدة العامة، وهناك قواعد لتوزيع الماء بين الناس عند اشتراكهم في نهر أو قناة واحدة، أما الكري فهو تنظيف مجرى النهر أو القناة من الأوساخ والأعشاب الكثيفة التي تعيق جريان الماء، أما تنظيف جنبي المجرى من الأعشاب، وإصلاح السدود فهي من أعمال الصيانة للأنهار، ويسمى من يقوم بهذه العملية بالأكار، وتجري عادة كل مرة في فصل الصيف عندما يخف الماء فيها⁽⁵⁾.

(1) تقويم البلدان، ص 271-295

(2) الزهري، المصدر السابق، ص 89

(3) شيخ الربوة، المصدر السابق، ص 207

(4) سوادى، المرجع السابق، ص 186

(5) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، تر: بدر الدين قاسم، دار الحقيقة، ط1، القاهرة، 1947، ص 173

والإمام هو المسؤول عن كرى الأنهار الكبيرة إذا احتاجت لذلك، شرط أن تكون لعامة المسلمين، بينما النهر الخاص فأهله يكرونه بأنفسهم، ولهم أن يمنعوا غيرهم من الري منه⁽¹⁾، فالأنهار العامة لا يحق لأحد أن يسيطر على مائها، ويمنع غيره من الاستفادة منها، ولكل من ملك أرضا على جانبيها الحق بالاستفادة من مياهها، لأن ملكية النهر تعود للأمة، ومن هنا فإن أنهار الجزيرة كدجلة والفرات تعدّ عامة النفع للمسلمين⁽²⁾.

وقد طرح أبو يوسف⁽³⁾، رأيا في كرى الأنهار على الخليفة الرشيد، وخيّرهُ أَيْهُمَا أراد أن يتبع؛ الأول: «أهمّ يجتمعون جميعا فيكرونه من أعلاه إلى أسفله، فكلما جاوزوا أرضا، رفع عنها الكرى، وكرى بقيتهم كذلك حتى ينتهي إلى أسفله»، والثاني يكرى النهر من أعلاه إلى أسفله فإذا فرغ من ذلك حسب أجر جميع من حفر ذلك النهر، على جميع من يشرب منه من الأرض، فلزم كل إنسان من أهله بقدر ماله، ولا يجوز لأحد الشركاء في النهر أن يفتح قناة، أو ينصب عليه رحي، أو يتصرف أي تصرف فيخل بنظام الري ومياه النهر، دون أخذ رأي الآخرين وموافقتهم⁽⁴⁾.

أما عن كيفية تنظيم الري فقد روي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قضى بين رجلين أن الشرب يكون من الأعلى إلى الأسفل، ولا يمنع الأعلى الأسفل⁽⁵⁾، وأن حكم الأنهار المباحة صغيرة كانت أو كبيرة، أن الأعلى يسقى قبل الأسفل بالسنة الصحيحة الثابتة⁽⁶⁾.

ويذكر ابن قدامة⁽⁷⁾، أنه إذا كان النهر صغيرا واختلف فيه أهل الأرض الشاربة، فإنه يبدأ بمن في أول النهر، فيسقى ويجبس الماء حتى يبلغ الكعب، ثم يرسل إلى الذي يليه فيضع كذلك، وهكذا إلى

(1) القاسمي، المرجع السابق، ص 216، 217

(2) أبو يوسف، الخراج، ص 97، 98

(3) الخراج، المرجع السابق، ص 100

(4) الأوزجندی حسن بن منصور، فتاوي قاضي خان في مذهب الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2009، ج3، ص63

(5) القرشي، المصدر السابق، ص96

(6) على بن عبد الكافي السبكي، فتاوي السبكي، مكتبة القدسي، (د،ط)، القاهرة، 1356هـ، ج1، ص461

(7) المصدر السابق، ج5، ص531

أن تنتهي الأراضي كلها.

وبالنسبة لتحديد حبس الماء حتى يبلغ الكعب، فإنّ هذا الأمر ليس من الرسول (صلى الله عليه وسلم) عاما في الأزمان والبلدان لأتّه مقدر بالحاجة، وقد يختلف من خمسة أوجه هي: اختلاف الأرضين فمنها ما يرتوي إلّا بالكثير، ثم اختلاف الزرع فإنّ الأشجار تشرب أكثر من المحاصيل النباتية، ثم باختلاف الفصل من السنة إن كان صيفا أو شتاء، ووقت الزرع، ثم حالة الماء فإنّ المنقطع يأخذ منه ما يدخر والدائم يأخذ منه ما يستعمل⁽¹⁾.

فالتحديد إذن معتبر بالعرف المعهود، ويحق للرجل أن يجري الماء إلى أرضه من أرض غيره رغما من الرجل الآخر صاحب الأرض، إذا لم يكن له سبيل آخر⁽²⁾، والأفضل دائما أن يتراضى أهل النهر على الطريقة التي يستفيد بها الجميع من مياه النهر، فإن لم يتراضوا قسمه الحاكم بينهم على قدر أملاكهم، لأنّ كل واحد منهم يملك من النهر بقدر ذلك، فتأخذ خشبة صلبة أو حجر مستوي الطرفين والوسط، ويوضع على موضع مستو من الأرض في الماء، فيه ثقب متساوية في السعة قدر حقوقهم، يخرج من كل ثقب إلى ساقية مفردة لكل واحد منهم، فإذا حصل الماء في ساقيته انفرد به، فإن كانت أملاكهم مختلفة قسم على قدر ذلك، فإن كان لأحدهم نصفه وللآخر ثلثه وللآخر سدسه جعل فيه ستة ثقوب، لصاحب النصف ثلاثة تصب في ساقيته، واثنان لصاحب الثلث، وواحد لصاحب السدس⁽³⁾.

وإذا كان النهر لا يروي إلّا إذا حبس ماؤه، فلأول أن يبدأ بالري حتى يكفي، ثم الذي يليه حتى يرووا جميعا⁽⁴⁾، ولهم أيضا أن يتفقوا أن يكون الري بالتناوب وبالأيام أو الساعات، أو أن يقتسموا فم النهر عرضا⁽⁵⁾، كما كان هناك اهتمام بكري القنوات.

(1) الماوردي، المصدر السابق، ص 236، 237

(2) القرشي، المصدر السابق، ص 108

(3) ابن قدامة، المصدر السابق، ج 5، ص 533، 534

(4) الماوردي، المصدر السابق، ص 237

(5) السبكي، المصدر السابق، ج 1، ص 465

المبحث الرابع: الإنتاج الزراعي

لم يكن اختيار المسلمين للقلاع الثغرية عشوائياً، بل تم بعد دراسة وتمحيص، فمعظمها كان يتمتع بالغنى الاقتصادي، الذي أسهم إلى حد كبير في تلبية الاحتياجات الأساسية للمقاتلين فيها، فدراسة التاريخ الاقتصادي لتلك البقعة، ترصد لنا التطور الحاصل في بنية الحياة الاقتصادية للمجتمع الإسلامي والأسباب الكامنة فيه⁽¹⁾.

والواقع أنّ غالبية أراضي القلاع كانت تتمتع بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة ووفرة مياهها⁽²⁾، وإشرافها على جبل اللكام الذي وصف بأنه أعمر جبال الشام وأكثرها ثماراً، فقد وصفه المقدسي⁽³⁾، «بأنّ كل ما علا منه نحو الروم كان أكثر أنهاراً وثماراً».

هذه الظروف ساعدت على تقدم الزراعة في تلك المناطق، كما لا يمكن أن ننسى دور السكان في هذا المجال، والخبرة الزراعية التي تمتعوا بها، يضاف إلى ذلك الاستقرار السياسي الذي كان له بالغ الأثر في تنشيط الحياة الاقتصادية، وذلك أدى بدوره إلى انتشار الأسواق التجارية في المدن، وتدفق السلع والأموال من الأمصار إليها، وفتح باب العمل، وجذب الأيدي العاملة إليها، ووجد أهل الريف حول هذه المدن مجالاً لتصريف منتوجاتهم الزراعية وبيعها فيه، ونشطوا في زراعتهم لتلبية حاجاتهم من المواد الغذائية والتموينية، ونشطت تبعاً لذلك حركة التجارة الداخلية⁽⁴⁾.

وعدّت الزراعة من أشهر الحرف التي زاوّلها سكان المنطقة، حيث انعكست الجغرافية الطبيعية على تنوع الحياة الزراعية، ومن أهم المحاصيل الزراعية التي أنتجتها مدن الثغور ما يلي:

I- المحاصيل الزراعية:

تنوعت المحاصيل الزراعية في مدن الثغور بين محاصيل غذائية ومزروعات صناعية، ولعلّ أهمها:

(1) سناء عبد الله عزيز الطائي، اقتصاديات الثغور في القرنين الثالث والرابع للهجرة، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، ع3،

مج9، جامعة الموصل، العراق، 2010، ص(497-515)

(2) الجنزوري، المرجع السابق، ص161

(3) أحسن التقاسيم، ص188-190

(4) حاتم الضمور، المقال السابق، ص28

1- المحاصيل الغذائية:

أ- الحبوب: من أهم المحاصيل الغذائية بمناطق الثغور زراعة الحبوب عامة، والحنطة والشعير خاصة، فقد شكلت دوما المصدر الرئيسي للزراعة، وحظيت باهتمام كبير نظرا لأهميتها الغذائية للسكان، خاصة القمح الذي خصصت له نصف الأراضي الزراعية في بلاد الشام⁽¹⁾.

ولقد كانت المناطق غزيرة الأمطار والجيدة للتربة تزرع قمحا، في حين أنّ الشعير والذرة والتي احتلت المرتبة الثانية بعد محصول القمح من حيث الأهمية، يزرعان في الأراضي الأقل مطرا والمتوسطة الجودة أو الفقيرة⁽²⁾.

ويعدّ الشعير من المحاصيل الفقيرة، ويختلف عن القمح في كونه ينبت في الأراضي الأخرى، ويتحمل العطش وقلة الماء، متميزا في ذلك عن الحنطة، ومن فوائد زراعته في الأراضي المالحة سنة بعد أخرى، أنّه يمتص ملوحتها ويخلصها منه، ويزرع هذا المحصول لاستخدام حبوبه علفا للحيوانات، وأصبح يستعمل فيما بعد كغذاء يضاف إلى دقيق الحنطة أو الذرة في صنع الخبز، وفي بعض الأحيان يزرع الشعير كعلف أخضر ترعاه الماشية قبل أن يجف ويشد ساقه⁽³⁾.

كما عرفت زراعة الدخن⁽⁴⁾، الذي كان يستعمله فقراء تلك البلاد خبزا، وربما استخدمه الأغنياء كغذاء في سنين القحط والمجاعة⁽⁵⁾.

وقد عدت المناطق المحيطة بثغر أنطاكية، من أشهر المناطق في زراعة الحبوب فقد كان الفلاحون يزرعون محصول الحنطة والشعير تحت أشجار الزيتون، وذلك في كل المناطق الواقعة بين حلب وأنطاكية⁽⁶⁾.

(1) فالخ، المرجع السابق، ص122

(2) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص168

(3) نفسه، ص169

(4) نوع من النباتات ينمو على شكل سنابل وعناقيد، تشبه القمح، وتنتشر زراعته في آسيا وإفريقيا، ويستخرج منه حبوب أو بذور كروية الشكل، ويعرف باسم الجاورس، والبشنة، وإيلان، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص232

(5) الغزي، المصدر السابق، ج1، ص119

(6) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص85

كما اشتهرت مدينة بالس بزراعة القمح والشعير⁽¹⁾، واشتهرت بعلبك على الساحل بزراعة القمح⁽²⁾، أما المناطق في شرقي حلب، فقد اشتهرت بزراعة القمح والشعير، وكذلك طرسوس⁽³⁾.
ب- الأرز: كانت زراعته محدودة في مناطق الثغور، حيث تركزت في المناطق التي تتوفر على المياه، فلا تصلح زراعته في تلك المناطق إلا من كان له ماء جار يسقي به متى احتاج إلى السقي⁽⁴⁾، واشتهرت زراعته في بانياس، وكان يجلب إلى دمشق⁽⁵⁾.

ج- الخضر: زرعت الشام وبلاد الجزيرة بصفة عامة وثغورها شتى أنواع البقول والخضار، وأهمها: البامية، والبادنجان، والكرنب، والقرنبيط، والملفوف، واللفت، والبصل الذي اشتهرت به مدينة عسقلان واعتبر نباتا خاصا بها، حتى عرف عند الأوروبيين بالبصل العسقلاني، وكذلك الفجل⁽⁶⁾، إضافة إلى محاصيل أخرى أنتجتها بلاد الشام وثغورها، مثل: العدس، والقرع، والفاصوليا والتي دخلت المنطقة قبل الميلاد⁽⁷⁾.

كما زرعت الثوم، والخس، والحمص، والبقول، والخيار والسهم، وهي من المحاصيل القديمة جدا التي ظلت تزرع هناك حتى نسبت إليها، كمدينة حلب التي اشتهرت بالبطيخ المنسوب إليها وهو البطيخ الحلبي⁽⁸⁾.

2- محاصيل أخرى: اشتهرت مدن الثغور بالعديد من المزروعات الصناعية، التي كانت تدر دخلا كبيرا على المنطقة، ومن هذه الزراعات:

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 164، 165

(2) كرد على، الغوطة، ص 20

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 182-428

(4) فالخ، المرجع السابق، ص 121

(5) غرس الدين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تص: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، (د،ط)، باريس، 1984، ص 46

(6) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، ط 3، بيروت، (د،ت)، ج 1، ص 325

(7) نفسه، ص 302

(8) القزويني، المصدر السابق، ص 183

أ- القطن: عرفت زراعة القطن في المنطقة قبل القرن 4/10م، وذكر قسطوس⁽¹⁾، أن زراعته لا تصلح إلا بالماء، و لذلك كان يزرع بمقدار قليل، واشتهر في عسقلان، وفي جند قنسرين، وخصوصا في حلب، وأنتجت مدن الساحل كميات معتبرة منه كبنياص، وأعدت المراكز الرئيسية لهذا المنتج⁽²⁾ (كان في الرملة وحدها ثلاث أسواق للقطن)⁽³⁾.

ويعد القطن المصدر الرئيسي لصناعة الملابس والمنسوجات، وما كان يفيض عن حاجة السكان كان يصدر لمصر ودمشق، وتعد تجارته من أهم التجارات في جند قنسرين، وخاصة لأهل حلب⁽⁴⁾.

ب- قصب السكر: اهتم المزارعون بزراعة قصب السكر بشكل كبير، نتيجة لتوفر الظروف المناخية الملائمة لزراعته في بعض مناطق الثغور، ولكونه سلعة تجارية هامة لها مردود اقتصادي كبير، وقد نقله العرب عن الصينيين، وتشير المصادر التاريخية إلى أن زراعة قصب السكر كانت كثيفة في الثغور الساحلية، فاشتهرت منطقة طرابلس بزراعته وتصنيعه⁽⁵⁾، بالإضافة إلى كل من: المرقب، بلنياس، عرقة، صور، أريحا، صيدا، وعكا⁽⁶⁾.

ج- النيلة: استخدمت النيلة في الصباغة، وهو جنس من النباتات المحوِّلة أو المعمرة، من الفصيلة القرنية، تزرع لاستخراج مادة زرقاء للصباغة من ورقها تسمى: النيل، والنيلج، وقد زرع في مناطق مختلفة من بلاد الشام، وأهمها في مناطق الثغور أريحا، حيث كان المحصول الرئيسي فيها⁽⁷⁾.

3- الأشجار المثمرة والفواكه: زرع الفلاح بمناطق الثغور سواء البرية منها أو البحرية العديد من الأشجار المثمرة: كاللوز، والجوز، ، والفسق، والنخيل، والتين، والعنب، والزيتون، والرمان، والتفاح،

(1) بن لوقا، الفلاحة اليونانية، المطبعة الوهيبية، (د،ط)، القاهرة، 1293، ص121

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص364

(3) Cohn and Lowis, *Population and Revue in the towns of Palestine in the sixteenth cenjry, princeton university press guild ford, New jersy,1987, p 54*

(4) ابراهيم زياد ابراهيم مقداد، جند قنسرين من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة حتى نهاية الدولة الأموية 15-

132هـ/636-750م (رسالة ماجستير منشورة)، الجامعة الإسلامية بغزة، 2017، ص69

(5) الحميري، المصدر السابق، ص390

(6) فالخ، المرجع السابق، ص126

(7) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص174

والسفرجل، والخوخ، والنانج⁽¹⁾، والأترج⁽²⁾، وغيرها حتى كان يضرب بها المثل لتنوعها وتميزها. ومن أبرز الأشجار المثمرة التي اشتهرت في المنطقة وأقدمها، بل وأهمها وأكثرها انتشارا؛ شجرة الزيتون، التين، الكرم، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، والكتاب المقدس، وكتب التاريخ القديم والرحلة، والتي أشارت كلها إلى سعة انتشارها، ولقيمتها الاقتصادية، ولما تدره من محصول، بالإضافة إلى خواصها الطبية المفيدة، وفيما يلي أهم تلك الأشجار:

أ- الزيتون: من أبرز المزروعات التي اشتهرت بها مناطق الثغور الزيتون، وكان يزرع في أغلب مناطقها وثماره من جملة الغلات المتحصلة منها، والتي تمثل غذاء للمقيمين فيها، ويباع الفائض، ويصرف المتحصل من ثمنه في مهمات الثغور⁽³⁾.

واشتهرت بلاد الشام عامة بالزيتون، حتى قيل أنّ ريف الدنيا من الزيتون هو من فلسطين إلى قنسرين⁽⁴⁾، وتزداد زراعته في مناطق الثغور كلما اتجهنا غربا، وصولا إلى ثغور ساحل الشام، وخاصة التي تتبع جند فلسطين، يقول المهلي⁽⁵⁾ في وصفه لكثرة أشجار الزيتون في غرب حلب، بأنّها: مثل فلسطين في كثرة الزيتون، وأنّ لها ارتفاع جليل من الزيت، يحمل إلى الرقة، ومنها عبر الفرات إلى العراق، وينقل من العراق إلى كل بلد.

وقد أقبل الشوام على زراعة الزيتون في مناطق كثيرة منها: طرطوس، أنطاكية، اللاذقية، حلب، قنسرين، ووصفت طرابلس بأنّها بها الكثير من غابات الزيتون المحاطة بها، بالإضافة إلى يافا، وعسقلان، وما بين أنطاكية وحلب كانت مغروسة زيتون⁽⁶⁾.

(1) النانج: نرن، والنانج، ضرب من الليمون تعرفه العامة بليمون بوصفير، وهو شجر مثمر من الفصيلة البرتقالية دائم الخضرة، ثمرة لبية ذات عصارة حمضية مرة -البرتقال المر- وأزهاره بيض ذوات رائحة طيبة تستعمل في صنع العطور، وقشره يستعمل في عمل المربيات، وفي الطب، أنظر: معلوف، المرجع السابق، ص 800

(2) أترج وأترنج: شجر من جنس الليمون، يقال له أيضا الترنج، وتسمية العامة الكباد، أنظر: معلوف، المرجع السابق، ص 2

(3) الطرسوسي، المصدر السابق، ص 37

(4) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 164

(5) المسالك والممالك، ص 85

(6) أنظر: الحميري، المصدر السابق، ص 390- ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 85

ويبدو أن الخليفة هشام بن عبد الملك غرس في ضياعه بالرصافة الزيتون الكثير⁽¹⁾، ولكثرة زراعته فقد وصف الثعالبي⁽²⁾ الشام بأنها أكثر بلاد الله زيتونا، وكان الزيت يصدر على نطاق واسع، وسمي بالركابي لأنه كان يحمل على الركائب وهي الإبل إلى مختلف البلدان⁽³⁾.

الكرمة: عرفت شجرة العنب في الديار الشامية وفي ثغورها، واعتنى الناس بزراعتها عناية عظيمة، لما لها من فائدة، ولما في عصيرها من الخاصية التي كثر القول فيها نظما ونثرا، فقد تغنى الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم في مطلع معلقته بكروم قرية أندرين شمال حلب، بعد أن بلغت شهرته بلاد الجزيرة العربية قائلا: ألا هي بصحنك فأصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا⁽⁴⁾.

أما أحسن أنواع العنب وأطيبها، فيأتي من قرية داريا بدمشق، والتي تتواجد بها كافة أصناف العنب، وليس لعنبها ما يماثله فيما يجاورها من القرى، فهو يمتاز بحسن المنظر وطيب الطعم، وكان ينقل إلى عدة مناطق كبيروت وحمص وحماة وغيرها من المدن القريبة لدمشق، ويباع هناك بأثمان جيدة⁽⁵⁾.

ومن المناطق الثغرية التي اشتهرت بزراعة العنب مدينة منبج والتي عرفت بكرومها، وقد زرعت في سائر ضياعها بشكل كبير، وكان التجار يقبلون إلى منبج فيحملون وينقلون الزبيب المحفف منها إلى حلب وغيرها⁽⁶⁾.

وقد وصفها ابن جبير⁽⁷⁾، فقال: «وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والماء يطرد ويتخلل جميع نواحيها، وخصص الله داخلها آباراً معينة شهيدة العذوبة، سلسبيلية المذاق، تكون في كل دار منها البئر والبئران، وأرضها أرض كريمة تستنبط مياهها كلها».

(1) البكري، المصدر السابق، ج4، ص1356

(2) ثمار القلوب، ص422

(3) فالج، المرجع السابق، ص125

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص166

(5) القاسمي، المرجع السابق، ج2، ص372

(6) ابن حوقل، صورة الأرض، ص183، 184

(7) الرحلة، ص224

واشتهرت طرسوس بكروم العنب الخالي من البذور⁽¹⁾ وكذلك ملطية⁽²⁾، كما انتشرت زراعته في سواحل لبنان، وفي المناطق الداخلية، وفي حمص وبلبك ودمشق وقيسارية ويافا وبيروت، وكان معظم إنتاج هذه المناطق يحوّل إلى زبيب⁽³⁾، كما هو الحال في ثغر صيدا الذي اشتهر بالزبيب⁽⁴⁾ وطرابلس⁽⁵⁾، كما اشتهرت سروج بالقرب من ملطية بكثرة كرومها⁽⁶⁾، ودركوش التي تقع على نهر العاصي، وجبيل بزراعة العنب الكبير الحجم⁽⁷⁾.

ب- التين: تعد زراعته من أقدم الزراعات المعروفة، فقد عرف في جزيرة كريت منذ عام 1600 ق.م، ثم راجت بعد ذلك في بلاد الشام و شواطئه⁽⁸⁾، واشتهرت حلب والقرى المحيطة بها بتينها الذي لا يوجد له مثيل في أي بلد ، لا في شكله، ولا في حجمه، ولا في طعمه، ولا في كثرته، ومن أصنافه: الجبلي، والسلطاني وهو أجوده، والورداني ولونه أسود، والمزي، والرومي، والشتوي، وغيره كثير⁽⁹⁾. وقد اشتهرت صيدا بزراعته، ومن كثرته ما فيها كان يحمل إلى مصر وغزة⁽¹⁰⁾، وتكثر زراعته في حلب وقراها⁽¹¹⁾، ويزرع أيضا في معرة مصرين ويصدر الفائض فيها إلى مصر والعراق، واشتهرت أنطاكية بزراعة التين القلاري الذي لا يكون إلا بها وعسقلان وغزة⁽¹²⁾.

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص423

(2) القزويني، المصدر السابق، ص183

(3) نحي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص180

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص48

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص143

(6) الحميري، المصدر السابق، ص315

(7) القلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص128

(8) محمد سلامة محاسنة، الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة بغداد، 1986، ص72

(9) ليونهارت راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين، تر: سليم طه، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، العراق، 1978، ص52

(10) نقولا زيادة، شاميات، رياض الريس للكتب، (د،ط)، لندن، 1989م، ص14

(11) العمري، المصدر السابق، ص142

(12) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص60، 90

ويعدّ التين مما اتفق على أن يدفعه سكان الثغور من جزية على شكل محاصيل زراعية للمسلمين بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام⁽¹⁾.

ج- التفاح: من خصائص بلاد الشام وثغورها التفاح الشامي، والذي يضرب المثل في حسنه وطيب رائحته، ففي كل سنة كان يحمل منه إلى الخلفاء والسلاطين ثلاثون ألف تفاحة⁽²⁾، وقد عرفت منه أصناف عديدة منها: السكري، والمسكي، والعني، والبلدي، والقاسمي، وغيرها⁽³⁾.

تركزت زراعته في حلب⁽⁴⁾، وفلسطين⁽⁵⁾، وبيروت التي ذكر الحميري⁽⁶⁾ أنّ بها التفاح الذي لا يضاهيه أي نوع آخر، وكان لتفاح لبنان شهرة كبيرة وميزة على غيره من الثمار والأشجار، يقول عنه القزويني⁽⁷⁾: «وفي تفاحه أعجوبة، وهي أن تحمله من الشام ولا رائحة له، حتى يتوسط نهر الثلج فإذا توسط النهر فاحت رائحته»، وتحاط مدينة طرابلس بسياج من أشجار التفاح⁽⁸⁾، وكذلك قنسرين الذي كان ينقل منها إلى بغداد لبيعه هناك⁽⁹⁾.

د- الرمان: يعدّ الرمان من أقدم المزروعات بالمنطقة، وأفضل المواضع لغرسه الأرض الدافئة الجافة، لأنّ البرد الشديد يضر به أضراراً كبيرة، ومن أشهر أصنافه: الشوبكي، والبردي، الماوردي، المليسي، الكوفي، والسلطاني وغيرها⁽¹⁰⁾، ورغم كونه أقل أهمية فهو يعد من أشهر المحاصيل الزراعية بمدن الثغور حيث اشتهرت طرسوس بثمر الرمان الكبير الحلو والحامض⁽¹¹⁾، وأيضاً الجبال المحيطة بمطية وهي

(1) الواقدي، فتوح الشام، ج2، ص357

(2) القزويني، وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس، تح: أحمد أبيش، (د،د،ن)، ط1، دمشق، 1983، ص11

(3) أبو البقاء البدري، المصدر السابق، ص201

(4) القزويني، آثار البلاد، ص126

(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص183

(6) الروض المعطار، ص508

(7) آثار البلاد، ص216، 217

(8) راوولف، المصدر السابق، ص23

(9) المسعودي، مروج الذهب، ج5، ص202

(10) أبو البقاء البدري، المصدر السابق، ص314

(11) ابن عساكر، تاريخ، ج6، ص284

مباحة لا مالك لها⁽¹⁾، وبلدة حارم التي تميزت برمانها الذي يظهر باطنه من ظاهره مع عدم وجود العجم وكثرة المياه⁽²⁾، وكذلك رمان قرية الدرکوش⁽³⁾ التي بلغ وزن الواحدة منه ما يزيد على رطلين مصريين⁽⁴⁾، واشتهر كذلك رمان شيزر⁽⁵⁾، وكان رمان عسقلان كثيرا⁽⁶⁾، كما عُرفت جسر منبج برمانها الجيد⁽⁷⁾.

هـ - الحمضيات: اشتهرت مدن الثغور بزراعة أشجار الحمضيات: كالليمون والأترج والنانج وسميت باسم الكباد⁽⁸⁾، ولم تعرف شجرة النانج قديما وإنما نقلها المسلمون من الهند بعد سنة 300هـ/912م إلى بلادهم ومنها إلى بلاد الشام⁽⁹⁾، أمّا الأسكندنيا⁽¹⁰⁾، والجريب فروت⁽¹¹⁾، فقد عرفت في فترة متأخرة بالشام⁽¹²⁾.

اشتهرت أنطاكية بين مدن الثغور بزراعة النانج والأترج⁽¹³⁾، وطرابلس التي كان من محصولاتها الليمون والنانج والأترج⁽¹⁴⁾، وكثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي والساحل⁽¹⁵⁾.

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 188

(2) الحموي، المعجم، ج 2، ص 205

(3) الغزي، نهر الذهب، ج 1، ص 445

(4) الرطل المصري = 140 درهم، أنظر: فالترهانتس، المرجع السابق، ص 31

(5) أبي الفداء، مختصر تاريخ البشر، تقديم: حسين مؤنس، تح: محمد زينهم محمد عزب، يحي سيد حسين، دار المعارف، ط 1، القاهرة، (د،ت)، ص 263

(6) ابن الوردي، المصدر السابق، ص 31

(7) ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، تح: خوان فرنيط خينيس، (د،د،ن)، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص 88

(8) محمد محاسنة، المرجع السابق، ص 78

(9) المقرئ، المصدر السابق، ج 1، ص 50

(10) الأسكندنيا: هو المعروف عندنا بالزعور

(11) الجريب فروت: أحد أنواع الفاكهة التي تم زراعتها بتهجين البرتقال الهندي والبرتقال في القرن الثامن عشر، أنظر: تمارا محمد، ما هو الجريب، في 26 نوفمبر 2017، 936

(12) الحميري، المصدر السابق، ص 386

(13) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 93

(14) ناصر خسرو، المصدر السابق، ج 1، ص 47

(15) المسعودي، مروج، ج 3، ص 438، 439

و-التوت: زرعت أشجار التوت على الساحل وفي أطراف أنطاكية وبعلبك لتربية دودة القز والحصول على الحرير الطبيعي، وعرفت زراعته منذ عصور قديمة، وازدهرت صناعة الحرير على الساحل الشامي، ثم تطورت وانتشرت في الفترات الإسلامية، وذلك لتحسن صناعته في حلب خاصة، وتصديره إلى الدول الأوروبية⁽¹⁾.

ومن مدن الثغور التي اشتهرت بزراعة التوت، مدينة منبج التي كثر بها شجره وكان يستفاد منه في إنتاج خيوط الحرير الطبيعي⁽²⁾، وكذا مدينة جسر منبج، ونسب للشام التوت الأحمر ويسمى بالتوت الشامي⁽³⁾، لكنه يبقى من المحاصيل غير الهامة في الشام على كل حال.

ز- النخيل: انتشرت زراعة النخيل في بعض المناطق الشامية منذ زمن بعيد، واشتهرت الثغور وخاصة الساحلية بزراعته، فوجد في قيسارية وحيفا وجبيل⁽⁴⁾، وبغزة قليل من النخل⁽⁵⁾، وكذلك في طرابلس التي اشتهرت بالنخيل وبكثرة محصوله من التمر⁽⁶⁾، وبيروت⁽⁷⁾، ووصفت بالس بأنها خصبة كثيرة النخيل⁽⁸⁾، كما وجدت أشجاره بعين زربة حيث أنّ زراعته تتأقلم مع مناخ تلك المنطقة الحارة⁽⁹⁾.

ح- اللوزيات: تعدّ اللوزيات عموماً محاصيل قديمة في الشام، وتعد أشجارها من الأشجار المعمرة- الجوز خاصة-، التي تتأقلم مع مختلف المناطق الباردة والدافئة⁽¹⁰⁾، ومنها: اللوز، الجوز، المشمش، الدراق، الفستق، البندق.

-
- (1) ليلي الصباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، 1973، ص59
- (2) البيروني، أبي الريحان محمد ابن أحمد، كتاب الصيدلة في الطب، تر: حكيم محمد سعيد، رانا إحسان، (د،ط)، كراتشي، 1973، ص122
- (3) خسرو، المصدر السابق، ص14
- (4) أبي الفداء، المختصر، ص239
- (5) الاصطخري، المصدر السابق، ص33
- (6) ابن حوقل، صورة الأرض، ص162
- (7) نفسه، ص167
- (8) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص205
- (9) الاصطخري، المصدر السابق، ص63
- (10) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص423

وانتشرت أشجار الجوز بمناطق الثغور خاصة في ملطية وفي الجبال التي تحتف بها، وهي مباحة لا مالك لها⁽¹⁾، وفي الجبال المحيطة بسميساط⁽²⁾، كما كان يكثر بطرسوس، حتى أنّ أحد حصونها سمي حصن الجوزات، نسبة لكثرة أشجار الجوز فيها⁽³⁾.

أمّا أشجار اللوز، فكانت تنمو دون أن يملكها أحد أو يتدخل في زراعتها، لملائمة البيئة لنموها⁽⁴⁾، وكثرت أشجاره في سميساط⁽⁵⁾ وطرابلس⁽⁶⁾ وعسقلان التي أنتجت الكثير⁽⁷⁾.

أمّا عن نبتة الفستق، فقد اتفق العلماء على أنّ منطقة الشام والمناطق الجنوبية الشرقية من آسيا الصغرى تعدّ مهذا لهذه الشجرة، ومنها انتشرت في مناطق الساحل الجافة والحارة، ومنها إلى أوروبا⁽⁸⁾.

ومن أشهر مناطق زراعته حلب التي عرف باسمها الفستق الحلبي، وتنتج أشهر أصنافه وأغلاها ثمنا⁽⁹⁾، بالإضافة إلى البندق والجوز، ولكثرة إنتاجه كان يباع رخيصة ويحمل إلى مصر والعراق⁽¹⁰⁾، وقرية جبرين، وتعدّ أشهر مناطق حلب وأكثرها ملاءمة لزراعته⁽¹¹⁾.

ومن الأشجار المثمرة التي عرفت في المنطقة الخوخ أو الدراق، وقد زرع في تل باشر وحلب ومعرفة النعمان⁽¹²⁾.

-
- (1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 181
 - (2) الإدريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 651
 - (3) الطرسوسي، المصدر السابق، ص 56، 57
 - (4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 181
 - (5) الحموي، المعجم، ج 4، ص 476
 - (6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 178
 - (7) شيخ الربوة، المصدر السابق، ص 205
 - (8) محمد محاسنة، المرجع السابق، ص 111
 - (9) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 185
 - (10) المهلبي، المصدر السابق، ص 87
 - (11) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 185
 - (12) فالح حسين، المرجع السابق، ص 129

كما تركزت زراعة المشمش في حماة وحلب والمعرة ، وذكر ابن بطوطة⁽¹⁾ أنّ بها نوعا من المشمش اللوزي، إذا كسرت نواته وجد بداخلها لوزة حلوة الطعم، وعرفت دمشق أصنافا عديدة من المشمش⁽²⁾.

كما أنتجت المنطقة أنواعا أخرى من الفواكه: كالسفرجل، والكمثرى -الإجاص-، والموز والذي تعدّ أشجاره من الأشجار المستديمة الخضرة والتي تحتاج إلى الماء الوفير، ويزرع في المناطق الحارة والمعتدلة الدافئة⁽³⁾، وقد زرع في بعض مناطق الساحل الفلسطيني⁽⁴⁾ وفي طرابلس⁽⁵⁾. ومن الأشجار المثمرة الأخرى التي عرفت في المنطقة خلال فترة الدراسة أيضا الصبار والجلوز⁽⁶⁾، والخروب والسماق⁽⁷⁾ والعناب وغيرها.

د- الورود والأزهار: اهتم المسلمون اهتماما فائقا بتربية الأزهار، فزرعوها في مزارع واسعة بقصد التمتع بمنظرها، أو تصدير عطورها ومياها وأدهانها، فراجت في بلاد الشام صناعة العطور، وخصوصا في دمشق التي اشتهرت بزراعة الأزهار الفائقة الجمال والرائحة.

وقد اعتنى الخلفاء والسلاطين بالورد، ورفعوا من منزلته كثيرا، حتى أنّ الخليفة المتوكل استأثر به لشخصه وحرمه على الناس واستبد به، وقال: «لا يصلح للعامة»، فكان الورد لا يرى إلا في مجلسه، وكان يقول: «أنا ملك السلاطين، والورد ملك الرياحين، وكل منّا أولى بصاحبه»⁽⁸⁾.

(1) الرحلة، ص 51

(2) أبو البقاء البدری، المصدر السابق، ص 251

(3) محمد محاسنة، المرجع السابق، ص 77

(4) القزويني، المصدر السابق، ص 142-161

(5) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص 47

(6) هو البندق، والبندق فارسي والجلوز عربي وله الكثير من الفوائد الطبية، أنظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، مكتبة المثنى، (د، ط)، بغداد، (د، ت)، ج 1، ص 119-166

(7) السماق هو الاسم الشائع لبعض أنواع النباتات من فصيلة البطميات، ويستخدم كمصدر للأصباغ والمشروبات والأدوية، وقد زرع في معرة مصرين، وفي جبل السماق الذي سمي كذلك لكثرة ما به من أشجار، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج 2، ص 60

(8) أبو البقاء البدری، المصدر السابق، ص 112، 113

واشتهرت بلاد الشام عموماً بأنواع عديدة من الورد: كالأحمر، والأبيض⁽¹⁾، بالإضافة إلى الأصفر، ويذكر الغزولي⁽²⁾، أنه رأى في دمشق ورداً أسوداً حالك اللون له رائحة زكية، وورد له وجهان أحدهما أحمر والآخر أبيض، وعرف في طرابلس ورد أصفر وآخر لازورديا، يكون أحد وجهي الورقة منه أحمر والباطن لازورديا⁽³⁾.

وقد أبقى لنا شيخ الربوة⁽⁴⁾ صورة عن استخراج العصر من أزهارها وورودها فقال: «أنّ حراقتة تلقى على طرقات المزة وفي دروبها، وأزقتها كالمزابيل، فلا يكون لرائحته نظير، ويكون أطيب من المسك إلى مدة انقضاء الورد».

واشتهرت جبيل بوردها الأبيض والأحمر⁽⁵⁾، وأريحا بكثرة الريحان⁽⁶⁾، وهو أنواع كثيرة سميت في مصر وبلاد الشام والحجاز بالحبق، ومن أصنافه الحماحي والصنوبر⁽⁷⁾، ويضرب المثل بورودها وأزاهيرها. ويعدد القلقشندي⁽⁸⁾ من رياحين الشام: الآس والورد والرنجس والياسمين والنسرین والسوسن، أمّا الورد فهو كثير جدا وجيده الجوري، ومنه الورد الأحمر والأبيض معا⁽⁹⁾.

وأما سيد الرياحين فهو الآس وهو أنواع عديدة منها: «الأحمر والأبيض والأصفر واللازوردي»، وذكر ابن العوام⁽¹⁰⁾ الأحمر منه والمعروف بالجوسي، وهو ورد المشرق والغور وبلاد الشام.

(1) النوري، المصدر السابق، ج 11، ص 185

(2) علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي، مطالع البدر في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، ط 1، القاهرة، 1299، ج 1، ص 94

(3) مصطفى القصري، كتاب الورد، الدار التونسية، (د، ط)، (د، م)، 1981، ج 2، ص 29

(4) المصدر السابق، ص 116

(5) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 188

(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 175

(7) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، معجم التداوي بالأعشاب والنباتات الطبية، مكتبة التراث الإسلامي، ط 2، القاهرة، 1986، ص 45

(8) صبح الأعشى، ج 4، ص 87

(9) حسين فالخ، المرجع السابق، ص 133

(10) المصدر السابق، ورقة 202

واشتهرت مدينة صيدا بالرنجس، وكذلك حمص وبعليك⁽¹⁾، وأما النيلوفر الذي ينبت لنفسه، إلا أنه لا ينبت إلا في الماء العذب ويزيد انفتاح زهره بزيادة ارتفاع الشمس ويضم ليلا، فكان ينمو بحلب⁽²⁾.

وأما الياسمين فهو نوعان: الأبيض والأصفر، واشتهر في جبال لبنان وطبرية⁽³⁾، والنسرین يتميز بلونه الوردی، وكان لا يجمع ولا يباع في الشام لكثرتة، وكلما بعد عن الماء قويت رائحته⁽⁴⁾، وأما السوسن فهو نبات له ساق، وهو أربعة أنواع: «أبيض، وأسود، وأصفر، وأزرق بلون السماء»⁽⁵⁾. وزرع كذلك زهر المنثور أو الخيري⁽⁶⁾، والقرنفل الذي يستقطر ماؤه المعروف برائحته الزكية، والذي تكثر زراعته في حلب⁽⁷⁾، وكذلك بالنسبة للبنفسج والزنبق والذي يعتبر من محاسن الشام وخصوصياتها⁽⁸⁾.

الأعشاب الطبية: عرفت المنطقة بجودة تربتها للنباتات والأعشاب الطبية، فبعد حركة الترجمة التي توسعت في العصر العباسي، ودخول العرب مجال الطب منذ القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، تمت دراسة نباتات كثيرة للاستفادة منها في تحضير العقاقير الجيدة، وبدأت تصدر بعضها منها⁽⁹⁾. ومن النباتات التي اشتهرت في جهات أنطاكية: إكليل الملك والحماض والخباز والخيري والأشنان⁽¹⁰⁾.

(1) كي لسترنج، فلسطين في العهد الاسلامي، تر: محمود عمارة، جمعية عمال المطابع التعاونية، ط1، عمان، 1970، ص284

(2) ابن الشحنة، المصدر السابق، ص256

(3) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص46

(4) النويري، المصدر السابق، ص46

(5) أنظر: القزويني، عجائب الأقاليم، ص323- النابلسي، المصدر السابق، ص158

(6) العمري، المصدر السابق، ص92

(7) ابن الشحنة، المصدر السابق، ص252

(8) أبو البقاء الدمشقي، نزهة الأيام في محاسن الشام، المطبعة العربية، (د،ط)، بغداد، 1341، ص146

(9) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص180، 181

(10) وهو الخطمي، منه بستاني ومنه صنف بري، وله زهر شبيه بالورد، وهذا النبات يجلل ويرخي، ويمنع من حدوث الأورام ويسكن الوجع وينضج الجرحات العسرة، ويستخدم لعمل الصابون، ويستخدم رماده في غسل الثياب، أنظر: الإشراف الرسولي، المعتمد في الأدوية المفردة، تص: مصطفى السقا، مكتبة البابلي الحلبي، ط2، القاهرة، 1951، ص131

والخردل⁽¹⁾.

ووجد نبات عرق السوس كنبات بري قرب المستنقعات⁽²⁾، وفي برية حلب وبعض جبالها وجدت مجموعة من الأعشاب والنباتات الطبية، أهمها: الحرمل⁽³⁾، والحزنبل⁽⁴⁾، والغافث⁽⁵⁾، والهلين، والعرطنيثا⁽⁶⁾، والماميثا⁽⁷⁾ وتنت في مبنج، والبابونج والسقمونيا⁽⁸⁾، ومن النباتات الطبية المشهورة في المنطقة: الشيح والقيصوم⁽⁹⁾.

وتنتشر في مبنج وجبل لبنان الأعشاب والنباتات الطبية، فذكر شيخ الربوة⁽¹⁰⁾ عن وجود حوالي تسعين عقارا ونباتا نافعا مباحا بلا ثمن وله قيمة جيدة، وثنم يكتفي به الجبابي الجامع طول سنته

(1) نبتة يبلغ طولها زهاء متر وأوراقها مفروضة وأزهارها صفراء، وتزهو في شهري جوان وجويلية أزهارا عنقودية، بذورها حمر تتحول إلى اللون الأسود، والجزء الطبي فيها البذور تستخدم لآلام العضلة والاحتقانات وغيرها، أنظر: وديع جبر، معجم النباتات الطبية، دار الجليل، ط1، بيروت، 1987، ص159

(2) فيليب حتى، المرجع السابق، ج1، ص325

(3) يوجد نوعان من الحرمل، أبيض وأحمر، الأبيض هو الحرمل الغربي ويسمى باليونانية هولي، والأحمر، هو الحرمل العامي والمسمى بالفارسية اسفند، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص92

(4) الحزنبل هو عروق شجرة تغلط في باطن الأرض، لونه يضرب إلى البياض، وإذا مضغ صار لين، وفي طعمه حلاوة مع مرارة، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص95

(5) يستعمل في وقود النار، ويخرج قضييا واحدا قائما دقيقا أسود صلب خشن عليه زغب، طوله ذراع أو أكثر، عليه ورق متفرق، مشرف خمس تشريفات أو أكثر مثل تشريفات المنشار، لونه لون الورق إلى السواد، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص347

(6) قيل هو بخور مرهم، وهو نبات ذو أصل إذا وضعته في الماء مسحوقا أحدث رغوّة مثل رغوّة الصابون، تقتل الديدان والحشرات التي تتلف المزروعات، ورقه يشبه ورق السوسن، وله دهن مائل لونه إلى السواد، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص319

(7) ورقة شبيه بورق الخشخاش إلا أن فيه رطوبة تدبق باليد، وهو ثقيل الرائحة، مر الطعم، كثير الماء، ولونه شبيه بالزعفران، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص470

(8) وهي الحمودة، وهي نبات يستخرج من تجاويه رطوبة دقة تجفف، تنفرغ منه قصبان كثيرة، تطول نحو ثلاثة أذرع، ولها ورق كاللبلاب، أنظر: مجهول، مفتاح، ص227

(9) القيصوم نبات، وهو نوعان: أبيض اللون وأصفر، وأجوده الطري، وهو حار في الثانية يابس في الأولى، ينفع من عرق النسا المزمن، ويفتت حصى الكلى، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص403

(10) المصدر السابق، ص256

ولأهله.

واشتهرت بيروت بالنباتات التي ينتفع بها الناس ومنها: الربياس⁽¹⁾، والبرباريس⁽²⁾، والقاونينا⁽³⁾، والبقس، والقبقب، الذي يعمل منه المرامل والملاعق والآلات المموهة بالذهب والفضة، ويحمل إلى سائر البلاد⁽⁴⁾.

من خلال استعراضنا لحاصلات مناطق الثغور، لا نلمس تغييراً في نوعيتها أو أماكن توزيعها، إذ لا زالت الحبوب وخاصة القمح والشعير أهم حاصلاتها، حيث يخصص نصف الأرض المزروعة لها، أما عن الخضر والفواكه فلم يطرأ عليها أي تغيير هام سوى انتشار البندورة في فترات لاحقة، والبرتقال الذي اشتهر بعد القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، ولا تزال أشجار الزيتون والتين والعنب أهم أشجار المنطقة.

II - حالة الزراعة في مدن الثغور:

اشتهرت مدن الثغور البرية منها والبحرية ومناطق العواصم بوفرة البساتين والمزروعات، وأنتجت مختلف المحاصيل الزراعية من غذائية إلى صناعية، وأشجار مثمرة، ونباتات طبية، وورود استخدمت لأغراض صناعية وغيرها، انتشرت انتشاراً واسعاً وكثيفاً في كل المدن، ووفرت موارد ثابتة لسكان تلك المناطق وخففت عبء تلك المناطق عن كاهل الخلافة الإسلامية وبيت مال المسلمين إلى حد ما وتقدم لنا المصادر؛ من كتب الرحلة، والجغرافيا، وكتب التاريخ، والكتب الأثرية، معلومات مفيدة عن المنطقة تلقي ضوءاً كافياً عن أحوالها الزراعية في فترة الدراسة.

(1) الربياس من البقول التي تؤكل أصلها وفروعها، ويعد من الحامض، له خواص طبية، وعرف في بلاد الشام، أنظر: ابن سينا، القانون في الطب، منشورات مؤسسة المعارف، (د،ط)، بيروت، 1986، ص 289

(2) يسمى أيضاً أمير باريس، ومنه أندلسي وشامي وروسي، يجلب من جبال بيروت ولبنان وهو شجرة شائكة من فصيلة البارباريسيات، ثمارها بيضاوية كثيرة الزهر، تررع بعض أنواعها للزراعة، وبعضها للاستخدام في الطب، أنظر: لويس معلوف، المرجع السابق، ص 31- ابن البيطار، المصدر السابق، ج 1، ص 55

(3) هي عود الصليب، أنظر: وديع جبر، المرجع السابق، ص 160

(4) شجر حرجي، أوراقه بيضوية الشكل، ينبت في المناطق الكلسية، ويعد خشبه ثمين، أنظر: لويس معلوف، المرجع السابق، ص 45

فلقد عدت المناطق المحيطة بثغر أنطاكية من أشهر المناطق في زراعة الحبوب، وزراعة شجر الزيتون⁽¹⁾، كما اشتهرت بزراعة الحمضيات كالنارج والأترج، واشتهرت بكثرة بساينها المختلفة، وبطيب هوائها وبعذوبة مائها، وكثرة فواكهها، بما ضياع ونواحي وقرى خصبة جدا⁽²⁾ ينمو بها نبات عرق السوس كنبات بري قرب المستنقعات⁽³⁾، وكذلك نبات الدخن⁽⁴⁾ ومختلف الفواكه والخضر. وصفها غير واحد من الجغرافيين والرحالة، فقال عنها الإدريسي⁽⁵⁾: «كثيرة المياه والبساتين، وجنات البقول، وسائر المرافق، وبكثرة فواكهها، وسعة خيراتها».

أمّا ابن العديم⁽⁶⁾ فذكر في كتابه بغية الطلب أنّ: «بين حلب وأنطاكية يوم وليلة، وجدنا المسافة التي بينهما أرضا عامرة، لا خراب فيها أصلا، لكنها أرض زرع للحنطة والشعير تحت أشجار الزيتون، قراها متصلة ورياضها مزهرة، ومياها متفجرة»، ووصفها الاضطخري⁽⁷⁾ بأنّها تأتي بعد دمشق في النزاهة سواء من داخلها أو خارجها.

وكذلك مدينة منبج بالرغم من أنّها برية تعتمد في غالبها على مياه الأمطار، إلا أنّ أرضها خصبة⁽⁸⁾، يحفها من غربها وشرقها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثمار⁽⁹⁾، أعجب بها الخليفة العباسي هارون الرشيد واستهوته المدينة وبساتينها⁽¹⁰⁾، وقد اشتهرت بزراعة العنب في سائر ضياعها وبشكل كبير، حيث تحمل ثمارها والزبيب المجفف منها إلى حلب وغيرها⁽¹¹⁾.

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص85 ص93

(2) الاضطخري، ص33

(3) مجهول، حدود العالم، ص175

(4) الغزي، المصدر السابق، ج1، ص119

(5) نزهة المشتاق، ص645

(6) ج1، ص85

(7) المسالك والممالك، ص62

(8) ابن الجوزي، المنتظم، ج1، ص271

(9) الحميري، المصدر السابق، ص547

(10) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص109

(11) ابن حوقل، صورة الأرض، ص183، 184

وصفها ابن جبير⁽¹⁾ قائلاً: «وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار مختلفة الثمار، والماء يطرد فيه ويجل جميع نواحيها، وخصص الله داخلها آباراً معينة شهرية العذوبة».

كما كثر بها زراعة التوت من أجل تربية دودة القز⁽²⁾ واستخراج الحرير، واشتهرت بزراعة قصب السكر⁽³⁾، والشيخ والقيصوم⁽⁴⁾، وبكرومها، كذلك اشتهرت المصيصة بخضرتها، وسعة بساتينها التي تسقى من نهر جيحان، وكثرة مزارعها وأشجار الفواكه بها⁽⁵⁾، وبكثرة الماشية والكروم والتي أغلبها مباحة لا مالك لها⁽⁶⁾.

وأما ملطية فكان بها عين ماء يخرج منها عذب ضارب إلى البياض، تحفها جبال كثيرة، بها مباح الجوز، واللوز، والكروم، والرمان، وسائر الفواكه الشتوية والصيفية⁽⁷⁾.

واشتهرت مرعش والحدث بزروعهما وأشجارهما الكثيرة وفواكههما، وفاقت مرعش الحدث في خيراتها، وصفهما ابن العديم⁽⁸⁾ قائلاً: «مرعش مدينة من أعمال حلب عامرة ولها مياه وزروع وأشجار أما الحدث فهي مدينة كثيرة الماء والزرع وحوها أنهار كثيرة، ينزل الأكراد في مروجها بأغنامهم»

أما عين زربة فكانت من شدة خصبها وكثرة زرعها، تشبه مدن الغور، قال عنها الاضطخري⁽⁹⁾: «بلد يشبه مدن الغور، به النخيل والخصب، والسعة في الثمار والزرع»، ووافق ابن حوقل في ذلك، وكانت أشجار النخيل بها كثيرة جداً، يذكر أنه في سنة 351هـ/962م وكنوع من التخريب الذي مارسه الروم بالمدينة، قاموا بقطع حوالي 50 ألف نخلة⁽¹⁰⁾.

(1) الرحلة، ص 224

(2) أبي الفداء، تقويم البلدان، ص 271

(3) نفسه، ص 255

(4) القزويني، المصدر السابق، ص 274

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 166-168

(6) الحميري، المصدر السابق، ص 388

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 166

(8) بغية الطلب، ج 1، ص 85-87

(9) المسالك والممالك، ص 47

(10) ابن مسكويه، المصدر السابق، ج 2، ص 190

وأما ثغر زبطرة فقد كثر به أشجار البلوط، فضلا عن أنّها اشتهرت بزراعة أراضيها الواسعة⁽¹⁾. واشتهر حصن التينات بزراعة أشجار الصنوبر التي يستفاد من أخشابها التي كانت تنقل وتباع في الشام ومصر وبقيّة مدن الثغور، وكان فيه مقطع للأخشاب، ذكره ابن الشحنة⁽²⁾ بقوله: «التينات حصن على شاطئ البحر، بين بياس والمصيصة، مما يجمع فيه خشب الصنوبر»، وذكر ابن حوقل⁽³⁾: «أنّ له مقطع الخشب الصنوبر».

واشتهرت مدينة سميساط بكثرة مزارعها التي تسقى من نهر الفرات⁽⁴⁾، وجبالها التي فيها جميع فواكه الصرود والخروم، أي الجبال المرتفع من الأرض، كما وصفها ابن الشحنة، وكذلك كيسوم بكثرة أراضيها الزراعية وفلاحيتها⁽⁵⁾، والتي سميت كذلك نسبة إلى كثرة الأعشاب والحشائش⁽⁶⁾.

واشتهر حصن منصور وما يتبعه من قرى وضياع بالخصب، وكثرة الغلال والزروع التي تسقى من مياه الأمطا، وكذلك جسر منبج التي كانت كثيرة المياه والبساتين، تحوي أنواعا كثيرة من الفواكه؛ كالرمان والسفرجل والخوخ والكمثرى⁽⁷⁾، وانتشار شجر التوت بها⁽⁸⁾.

ويعد جبل دلوك من أحسن البلاد وأزهرها⁽⁹⁾، تحيط به المياه والبساتين الكثيرة العامرة بالفواكه والكروم⁽¹⁰⁾، وأذنة التي اشتهرت أرضها بأنّها خصبة عامرة⁽¹¹⁾ حسنة المحل في كل فصل وأصل⁽¹²⁾.

(1) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص 154

(2) الدر المنتخب، ص 189

(3) صورة الأرض، ص 189

(4) الإدريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 651

(5) الدر المنتخب، ص 198، 226

(6) الحموي، المعجم، ج 2، ص 296

(7) أبي الفداء، تقويم البلدان ص 269

(8) ابن سعيّد، المصدر السابق، ص 88

(9) الحموي، المعجم، ج 4، ص 497

(10) اليعقوبي، البلدان، ص 163

(11) مجهول، حدود العالم، ص 175

(12) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 183

كما اشتهرت من مدن الثغور طرسوس على ساحل البحر، بكثرة غلاتها وخصبها وكرومها وسعة بساينها⁽¹⁾، وبحماماتها وخاناتها ما دلّ على غناها الاقتصادي⁽²⁾، فقد كانت تشتمل من العمارة والخصب والغلات والأموال والسعة في جميع الأحوال حتى أنّه لا يجاريها في ذلك أي ثغر من ثغور المسلمين، وهو ما اتفق عليه ابن حوقل وأبي الفداء والاصطخري⁽³⁾.

واشتهرت طرسوس بإنتاج العديد من المحاصيل الزراعية: كالزيتون، الكمون، البزر، الفجل، السمسم، الترمس، الأرز، وغيرها فضلا عن الزبيب الذي لا نواة فيه كالقشمش⁽⁴⁾، وكذلك هو الحال في ثغر طرابلس على الساحل، والتي اشتهرت بأن أرضها غورية تكثر بها الأشجار، الكروم، والمروج⁽⁵⁾، ومن محصولاتها: الزيتون، قصب السكر، وأنواع الفاكهة: كالنارنج والأترج والليمون والتمر⁽⁶⁾، كما أنتجت الكثير من الجوز واللوز⁽⁷⁾، وجبيل بها أشجار وفواكه وكروم⁽⁸⁾، واشتهرت بالمشمش اللوزي⁽⁹⁾.

واشتهرت صيدا ببساينها وفواكهها الكثيرة، وكان يحمل منها التين والزبيب والزيت إلى بلاد مصر من كثرته⁽¹⁰⁾، وكذلك عكا على ساحل البحر والتي تكثر بها غابات الزيتون⁽¹¹⁾، وقنسرين التي اشتهرت بزراعة الفستق والتين والكروم⁽¹²⁾، وعرفت عسقلان بزراعة القطن والأرز⁽¹³⁾، وبأثها في غاية

(1) الاصطخري، المصدر السابق، ص 64

(2) علي، تاريخ بلاد الشام، ص 329

(3) أنظر: صورة الأرض، ص 168- تقويم البلدان، ص 249- مسالك الممالك، ص 64

(4) القشمش نوع من الفاكهة البرية يسمى أيضا عنب الذئب، أنظر: المهلب، المصدر السابق، ص 99

(5) الحميري، المصدر السابق، ص 390

(6) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص 47

(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 166

(8) الإدريسي، المصدر السابق، ج 5، ص 372

(9) ناصر خسرو، ص 14

(10) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 48

(11) ياقوت الحموي، المعجم، ج 4، ص 143

(12) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 166

(13) ابن العوام، المصدر السابق، ص 271

الخصب، كانت تشتهر بزراعة البصل والفجل والزيتون واللوز والتين والكروم والرمان⁽¹⁾، ووصفت غزوة بأنّ لها فواكه كثيرة أجّلها العنب والتين⁽²⁾.

واشتهرت بالس بزراعة القمح والشعير على شط الفرات⁽³⁾، وبزراعة النخيل والكروم والتفاح⁽⁴⁾، وقد وصفها القلقشندي بقوله⁽⁵⁾: «مدينة جليلة على ضفة البحر الرومي، بها جبل فيه معدن الحديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر، وشرب أهلها من قناة تجري إليها، وكذلك من الآبار».

وبعد هذا العرض الموجز لطبيعة المنطقة اقتصاديا الذي تحدّثنا فيه عن أهم المحاصيل الزراعية التي أنتجتها مناطق الثغور، وبوصف حالة الزراعة في أهم الثغور البرية والبحرية الشامية والجزرية، يثبت لنا ما كانت تتمتع به معظم القلاع الثغرية، من إمكانيات زراعية كانت بمثابة موارد ثابتة بالنسبة لسكانها، أسهمت بدور مباشر في استمرارية حركة الجهاد في هذه المنطقة لمواجهة العدو.

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ج1، ص364

(2) توفيق سلمان، المرجع السابق، ص168

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص164، 165

(4) البغدادى، المصدر السابق، ص189

(5) صبح الأعشى، ج4، ص110، 111

المبحث الخامس: الرعي وتربية الماشية

يعد الرعي وتربية الماشية من أقدم ما عرف الإنسان من مهن، وعليه قامت حياة شعوب كاملة طيلة حقبة من الزمان، معتمدة على نباتات رعوية أوجدها الله تعالى: ﴿الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿١﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٢﴾﴾⁽¹⁾.

ولم يكن الرعي من الحرف المحترمة داخل المجتمعات الإسلامية عامة؛ لأن جميع الأنبياء مارسوا هذه الحرفة، لقوله (صلى الله عليه وسلم): { مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ عَلَى قَرَارِيطٍ ⁽²⁾ مَكَّةَ }، لذلك فقد اشتغل به العامة والخاصة، واحتل الراعي مكانة هامة، إذ يمثل عنصرا أساسيا في الإنتاج خلال تعهده للماشية تربية وحراسة⁽³⁾.

وعادة ما ارتبط نشاط الرعي وتربية الماشية بالزراعة، من حيث المناطق أو الأشخاص القائمين بذلك، أو اعتماد الواحدة على الأخرى، كما ارتبط بالظروف المحيطة، وأمن خلال استخدام هذه الحيوانات في أعمال الزراعة من: حرث ودرس وسقي للمحاصيل، ونقلها إلى مطامير البيوت، بالإضافة إلى توفيرها للمواد الغذائية (لحوم، ألبان، دهون)، والأولية (جلود، أصواف)⁽⁴⁾.

فقد استعملت الإبل في النقل، واستعملت الأبقار والثيران في تدوير عجلات الناعورات للري والدرس والحرث، وكذلك الحمير والبغال، وربما كانت الإفادة من الثيران أكثر من غيرها، وكذلك الخيل والجواميس، فهناك إشارات عن استقدام أعداد منها: «عندما اشتكى الناس إلى الوليد، سباعا كانت تعترض الناس في الطريق بين المصيصة وأنطاكية»⁽⁵⁾.

(1) سورة الأعلى، الآية 4، 5

(2) معناها قيراط وهو جزء من الدينار أو الدرهم، ففي شرح صحيح البخاري، مسألة رعي الغنم على قيراط، جاء على معنيين القيراط وهو الأجرة، وقيل مكان بمك، أنظر: العسقلاني، ج2، ص517

(3) نوال بلمداني، نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/10-11م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة وهران، 2011-2014م، ص206، 207

(4) حميور سكيينة، ريف المغرب الأوسط في القرنين 5 و6هـ/11 و12م، دراسة اقتصادية واجتماعية (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة قسنطينة2، 2012/2013، ص150

(5) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص162

واستخدم الحصان في المعارك بالدرجة الأولى، وكانت الأثقال تحمل بالدرجة الأولى على الإبل ثم البغال ثم الحمير، واستخدمت أصوافها وأوبارها كمواد أولية هامة في بعض الصناعات، ولحومها للاستهلاك المحلي، وحتى للتصدير للمناطق المجاورة⁽¹⁾، وكذلك دهونها في الكثير من الصناعات الدوائية⁽²⁾.

أما في مناطق الثغور، فلم تتجه القبائل العربية أول الأمر نحو تملك الأرض الزراعية، بسبب خلفيتهم الاجتماعية، وتوجيههم للجهاد، وانشغالهم بالفتوح⁽³⁾، هذا إضافة إلى أن واردتهم من الغنائم لم يكن قليلا⁽⁴⁾، ثم أتمها لم تكن تجذب الزراعة والعمل في الأرض، أما الرعي فمألوف لديها، على أنه يتفق مع البداوة⁽⁵⁾، حتى أن الخلفاء نصحوا القبائل المهاجرة إلى الأرض المفتوحة أن يقتنوا المشية، لأن العطاء وحده لا يكفي لمواجهة عوائل الزمن⁽⁶⁾.

ولم يقتصر ممتهني الرعي على نوع واحد من الحيوانات، فكثيرا ما تربى الأبقار، والأغنام، والماعز، والإبل(الماشية)، والخيول، والبغال، والحمير(الدواب) في منظمة واحدة، حسب ظروف المعيشة الملائمة وكذا امتداد المراعي، على الرغم من أن الإشارات عن تربيتها نادرة لدرجة أننا لا نكاد نعثر عليها، ويفترض أن المناطق التي توافرت فيها المراعي، انتشرت فيها تربية المشية بالمروج⁽⁷⁾.

وكان امتداد المراعي الهامة والشاسعة في سفوح الجبال والمروج، وكذلك في أودية الأنهار، والمناطق القريبة من البادية، حيث توجد بها أنواع من الأشجار الحرجية والأعشاب، فترعى الظأن والماعز في الجبال وسفوحها، في حين تربى الأبقار والخيول في السهول والمروج، وعلق البلاذري⁽⁸⁾ على قول هرقل

(1) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج7، ص31

(2) أبو يوسف، المصدر السابق، ص102

(3) الدوري، تاريخ صدر الإسلام، ص55

(4) فلهاوزن، المرجع السابق، ص270

(5) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1969، ص40

(6) البلاذري، المصدر السابق، ص452

(7) اسماعيل سامعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، (د،ط)، الجزائر، 2007، ص275

(8) المصدر السابق، ص137

لما خرج من أنطاكية عليك يا سوريا السلام ونعم البلد هذا العدو، يعني أرض الشام لكثرة مراعيها. وقد تميزت منطقة الثغور عموماً بكثرة مراعيها الخصبة، وبانتشار مروجها -وهي الأرض الواسعة فيها نبات كثير ترعى فيها الدواب-، ومن هذه المروج: مرج الديباج، ومرج حسين، ومرج دابق الذي وصفه ياقوت الحموي⁽¹⁾: «بأنه مرج معشب نزه، كان ينزله بنو مروان، إذا غزو الصائفة إلى ثغر المصيصة»، ومرج عيون بسواحل الشام، وإلى الشرق من الدر بساك شمال بحيرة العمق، مروج متسعة حسنة المنظر كثيرة العشب⁽²⁾.

وكانت مدينة أرسوف⁽³⁾ واحدة من المدن التي اشتهرت بكثرة مراعيها، فكان السلاطين وكبار الأمراء بالديار المصرية يرتادونها أثناء توجههم إلى الشام لكثرة مراعيها⁽⁴⁾. أما الأشجار الحرجية فهي تنبت دون أن يبذل الإنسان جهداً في زراعتها، ولا تحتاج إلى اهتمام أو رعاية في المناطق الجبلية المرتفعة، والأدوية، وضياف الأنهار، وسواحل البحار، لتوفر المناخ الملائم لنموها في مناطق الثغور.

ومن أهم الأشجار الحرجية التي كانت تنمو بمنطقة الثغور أشجار البلوط (السنديان)، والصنوبر، والخروب، والسماق، والغار، والصفصاف، والأرز، والسدر، والخور⁽⁵⁾، والدلب⁽⁶⁾، والبطم⁽⁷⁾

(1) المعجم، ج 2، ص 416

(2) أبي الفداء، تقويم البلدان، ص 261

(3) أرسوف مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، كأن بها خلق من المرابطين، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، م 1، ص 151

(4) ابن عبد الظاهر محي الدين أبو الفضل عبد الله، الروض الزاهر في سيرة الملك الطاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، ط 1، الرياض، 1976، ص 239

(5) مزاج الخور مركب من جوهر مائي فاتر، وجوهر أرضي قد لطفه، يستعمل للتداوي من عدة أمراض، فقشر شجرته إذا شرب نفع من عرق النساء وتقطير البول، وعصير ورقة إذا قطر في الأذن وهو فاتر نفع من ألمها، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص 113

(6) شجر كبير، له ورق كبير مثل كف الإنسان، يشبه ورق الخروع إلا أنه أصغر منه ومذاقه مر وقشره غليظ أحمر، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ج 2، ص 156

(7) هي شجرة الحبة الخضراء، ولحاءها وثمرها وورقها في جميع شيء قابض، يؤكل ثمرها، وتنفع للكثير من الأمراض أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص 47

الدردار⁽¹⁾، الملؤل⁽²⁾، الجميز⁽³⁾، الدفلى وغيرها.

وأهم المناطق الحرجية الطبيعية منطقة مرتفعات جبال اللكام، والمناطق الجبلية في أنطاكية، وجبال النصرية، والكرد طاغ، وأحراج حمص، وحماة، وأحراج جبال لبنان، والتي تشتهر بأشجار الصنوبر، ففي بيروت غيظة أشجار تتصل إلى جبل لبنان، ويؤكد حتى أنّ جبال لبنان كانت في القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد كثيفة الحراج، الأمر الذي أدى إلى استغلاله جيدا من قبل الجراجمة في حربهم ضد الأمويين⁽⁴⁾.

ووجدت أشجار العرعر، والجميز في عسقلان والساحل، وكانت غابة عسقلان تمتد إلى نواحي الرملة، وكذلك غابة أرسوف التي امتدت إلى عكا⁽⁵⁾، واشتهرت أشجار البلوط في أنطاكية، وبانياس⁽⁶⁾، والصنوبر بجبال الأمانوس⁽⁷⁾.

وعلى ضفاف العاصي والفرات كانت تنمو أشجار الحور والصفصاف بشكل طبيعي، كما اشتهرت في القلمون، وهي من مناطق تربية المواشي إذ لا يزال أهالي تلك المنطقة في فترة الدراسة يعتمدون في حياتهم على المواشي⁽⁸⁾، وكانت طرابلس موصوفة بكثرة مروجها ومواشيتها⁽⁹⁾، ولما افتتحت قنسرين غنم المسلمون منها بقرا وغنما كثيرا، وهو ما يدل على العناية بتربيتها⁽¹⁰⁾.

(1) يسمى شجرة البق، قوتها في البرودة واليبوسة من الدرجة الأولى، وقشر شجرته مر جدا، ينفع للعديد من الأمراض كالبرص

والصمم والعمى والجراح، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص151

(2) الملؤل نوع من البلوط، أنظر: حبران مسعود، الرائد، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص169

(3) الجميز شجرة شبيهة بالتين ورقها يشبه ورق التوت، ويشمر في السنة 3 أو 4 مرات وثمرته شبيهة بالتين البري، أنظر: الأشرف

الرسولي، المصدر السابق، ص73

(4) حسين فالج، المرجع السابق، ص134

(5) الحميري، المصدر السابق، ص122

(6) نفسه، ص39

(7) ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص60

(8) أحمد وصفي زكريا، الريف السوري، دار البيان، (د،ط)، دمشق، 1955، م1، ص83

(9) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص143

(10) حسين فالج، المرجع السابق، ص136

من خلال هذا العرض السريع لواقع النشاط الزراعي والرعوي وما أنتجته مناطق الثغور من محاصيل، واهتمام خلفاء الدولة الإسلامية في فترة الدراسة بتشجيع هذا القطاع، نستنتج أنّها قد تمتعت بإمكانيات زراعية كبيرة ساهمت في استمرارية الجهاد، وتوفير قوات تدافع عن تلك المناطق، وموارد ثابتة لساكنيها من خلال المأكّل والمشرب أو كسب المال.

الباب الثاني

وسائل الإنتاج بثغور الشام والجزيرة

الفصل الأول

أهم الصناعات والحرف

المبحث الأول: الصناعات والحرف وعوامل قيامها

المبحث الثاني: الصناعات الرئيسية

المبحث الثالث: الحرف

المبحث الرابع: أوضاع الصناع والحرفيين

المبحث الأول: الصناعات والحرف وعوامل قيامها

بالرغم من كون مدن الثغور نقاطا للمرابطة والدفاع عن بلاد المسلمين، ومنطلقا للغارات المتلاحقة على بلاد الروم، إلا أنها اشتملت على نشاط اقتصادي مميز وخاصة في المجال الصناعي، فلقد أسهمت الصناعة في تطوير اقتصاد المنطقة، وظهرت في البداية تلبية لحاجات تلك المدن، إلا أنها ازدهرت لتوفّر المواد الخام اللازمة للصناعة، والتي تعجّ بها مدن الثغور، ورأس المال، واليد العاملة الماهرة، وكذلك انتقال الخبرات إليها، نتيجة الاحتكاك المتواصل مع بلاد الروم بحكم قربها منها، يضاف إلى ذلك اهتمام خلفاء الدولة بالصناعة الحربية خاصة.

فقد كان للصناعة النصيب الأوفر من اهتمام الدولة الإسلامية، واهتمّ خلفاؤها وولاة أقاليمها بمختلف الصناعات التي كانت قائمة، وعملوا على صيانتها وتنشيطها وتطويرها، كما عملوا في الوقت نفسه على إقامة صناعات جديدة، لكي تفي بمتطلبات المجتمع هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنها تشكّل موردا هاما من موارد الثروة والرّفاه للمجتمع وللدولة.

فقد حصلت تطوّرات حضارية واسعة - في فترة الدراسة -، إذ ازدهرت الحياة الثقافية، وتقدّمت الحياة الحضارية، واتّخذ المجتمع طابعه المميّز ومقوماته الراسخة، وتطوّرت الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرنين الثالث والرّابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، ما أدّى إلى تكامل التحوّلات الجديدة، ونمو المدن، وتطوّر الحياة فيها، وخاصة في مناطق الثغور⁽¹⁾.

فانتشرت الصناعة في جميع أنحاء البلاد شرقها وغربها، بفضل ما أتاح لها الإسلام من دفع الناس لعمارة الأرض، وخدمة المجتمع؛ والأدلة على ذلك من القرآن والسنة كثيرة، أمّا من الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّهَّارَ مَعَاشًا﴾⁽²⁾ أي جعله في معرض الامتنان، وقال عزوجل في سورة الأعراف⁽³⁾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي جعلها ربك نعمة، وطلب الشكر عليها،

(1) المقرئ، الخطط، ج1، ص177

(2) سورة النبأ، الآية 11

(3) الآية 10

ويؤكد الله عز وجل تساوي درجة المكتسب بالجهاد فيقول في سورة المزمل: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁽¹⁾.

واقترن السعي في طلب الرزق بالشعائر الدينية، ف جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽²⁾، وهنا إشارة إلى طلب الرزق من الله تعالى بعد التفرغ من الصلاة.

كما اشتملت السنة النبوية على الكثير من الأحاديث التي تحث على الكسب، وطلب الرزق، والاهتمام بالحرف والمهن، وفي هذا السياق يذكر أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: «ما من حال يأتيني عليه الموت بعد الجهاد في سبيل الله، أحب إليّ أن يأتيني وأنا ألتمس من فضل الله»⁽³⁾.

وورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، أنه كان جالسا مع أصحابه ذات يوم، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا! لو كان شبابه وجلده في سبيل الله! فقال صلى الله عليه وسلم: { لا تقولوا هذا! فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة، ويغنيها عن الناس، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أباوين ضعيفين، أو ذرية ضعاف، ويكفيهم فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرا أو تكاثرا فهو في سبيل الشيطان }⁽⁴⁾.

وقوله (صلى الله عليه وسلم): { العامل على صدقة بالحق، كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته }⁽⁵⁾.

وهذه أدلة واضحة على علو ومكانة الكسب والذي قرن بالجهاد في سبيل الله.

(1) الآية 20

(2) سورة الجمعة، الآية 10

(3) القاسمي محمد جمال الدين، مجلس التأويل، تح: محمد باسل عيون السوء، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2002، ج2، ص345، 346

(4) السمرقندي أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد، تنبيه الغافلين في موعظة أحاديث الأنبياء والمرسلين، دار الرائد الغربي، (د، ط)، بيروت، (د، ت)، ص243- باب فضل الكسب-

(5) أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، سنن أبي داود، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (د، ط)، بيروت، (د، ت)، ج3، ص132، رقم الحديث 2936

1- مفهوم الحرفة والصناعة:

أ- مفهوم الحرفة:

لغة: اتَّفقت أغلب المعاجم والقواميس اللغوية، على أنّ الحرفة مشتقة من فعل واحد ثلاثي هو حرف⁽¹⁾، وهي اسم من الاحتراف، وهو الاكتساب، يقال: هو يحرف لعياله ويحترف، بمعنى يكتسب من هاهنا وهاهنا⁽²⁾، وقيل: الحرفة هي الصناعة، والمحترف هو الصّانع، وفلان حريفي أي معاملي⁽³⁾، وحرفة الرجل صنعته، وحرف لأهله واحترف؛ بمعنى كسب وطلب واحتال، وقيل الاحتراف هو الاكتساب أيّاً كان⁽⁴⁾، والحرفة أيضا مصدر الاحتراف، أي مباشرة عمل بصيغة مستمرة ومنظمة بقصد الارتزاق⁽⁵⁾، والصناع هم الذين يصنعون أو يعملون بأيديهم⁽⁶⁾.

اصطلاحا: الحرفة في المعنى الاصطلاحي، هي الطعمة والصناعة التي يرتزق منها، وهي جهة الكسب، وكل ما اشتغل الإنسان به، فإنّه عند العرب يسمى صنعة أو حرفة، لأنّه ينحرف إليها، يقولون: «صنعة فلان أن يعمل كذا، وحرفة فلان أن يفعل كذا»، وقد روي عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّه قال: «إني لأرى لأرى الرجل فيعجبني، فأقول: هل له حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني»⁽⁷⁾.

فالحرفة إذا تطلق على كلّ عمل يقوم به الإنسان، فهي طريقة للكسب ووسيلة للمعاش، وهي مزاولة أعمال دقيقة ومختصة، تعتمد الصنّاعة اليدويّة، يقوم بها عاملين مهرة، وتتطلب جهدا فكريا وبدنيا عاليا، يمارسها أفراد معيّنون ولفترات طويلة، ويتوافر فيها عنصر الإبداع، وذلك لغرض الارتزاق لقاء الحاجات أو الخدمات التي يقدمونها، ويكون العمل فرديّاً على الأغلب، ويتصفّ بندرة العاملين

(1) ابن فارس، المصدر السابق، ج2، ص42

(2) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تهذيب اللغة، تح: عبد الله درويش، الدار المصرية، (د،ط)، مصر، (د،ت)، ج1، ص662

(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1987، ج4، ص1343

(4) الخزاعي علي بن محمد بن أحمد بن موسى، تخرّيج الدلالات السمعية على من كان في عهد رسول الله من الحرف والصناعات والعمالات الشرعية، تح: احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985، ص775

(5) الأزهرى، المصدر السابق، ج2، ص38

(6) الجوهري، المصدر السابق، ج4، ص1343

(7) مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ط1، (د،م)، (د،ت)، ج23، ص133، 134

فيه، وتنحصر هذه الحرف بين جماعات، وعوائل معينة يتوارثونها فيما بينهم، ويشتهرون بها في أغلب الأحيان، ولكن الحرف أسرار وتقاليد وقواعد عمل⁽¹⁾.

ب- مفهوم الصناعة:

لغة: الصناعة لغة مأخوذة من الفعل: صَنَعَ، قال ابن سيده⁽²⁾: صَنَعَ الشَّيْءَ يصنعه صنعا، فهو مصنوع وصنيع، واستصنعت الأمر دعوة إلى صنعه، والصناعة ما تستصنع من أمر، وقد صنعتته فهو صناعتي، أي اتَّخذته صناعة، وللفعل العديد من المشتقات من الناحية اللغوية، والتي تظهر كما يلي:

1- التربية الخاصة، والإعداد الخاص؛ كتربية الجارية أو الفرس أو غيرها⁽³⁾، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلِصُنْعِ عَلَىٰ عَيْنِي﴾⁽⁴⁾ أي لتنزل بمراى مني.

2- الاختيار والاصطفاء، يقال: فلان اصطنع فلانا، بمعنى اتَّخذه، وفي هذا قوله تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾⁽⁵⁾، بمعنى أنّ الله اختار موسى وأعدّه للأمر العظيم.

3- الحذق والمهارة: ومنه يقال للصناعة حرفة الصانع عمله، الصنعة والصانع عامل الشيء، والصناعة حرفته، وهي تسمية تطلق على الرجل أو المرأة الحاذقان والماهران، ومنه أطلق على الموضوع الذي تمارس فيه الصناعة اسم المصنع⁽⁶⁾.

4- البلاغة والفصاحة: الوضوح في الكلام، ومنه يقال للرجل الفصح والبليغ صَنِعَ أو صنع اللسان⁽⁷⁾ وفي ذلك قال حسان بن ثابت⁽⁸⁾:

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، تح: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987، ج3، ص180

(2) المخصص، ج3، ص257

(3) الزبيدي، المصدر السابق، ج21، ص366، 367

(4) سورة طه، الآية 39

(5) سورة طه، الآية 41

(6) الخزاعي، المصدر السابق، ص776، 777

(7) ابن منظور، المصدر السابق، ج8، ص20

(8) حسان بن ثابت بن حرام بن عمرو، يكنى أبا الوليد، وأبو حسام لمناضلة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، يسمى شاعر الرسول، توفي قبل الأربعين في خلافة علي، وقيل سنة خمسين أو أربع وخمسين وهو ابن مائة وعشرين سنة، ولم يختلف في عمره، أنظر: ابن الأثير، أسد الغابة، تح: علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، (د، ط)، بيروت، (د، ت)، ج5، ص268، 269

أهدي لهم مدحي قلب يؤازره فيها أراد لسان حائك صنع⁽¹⁾.

فبالرغم من تعدد مشتقات الكلمة، يبقى معنى الصناعة هو حرفة الصانع وعمله الصنعة، ورجل صنيع اليدين وصنع اليدين معناه صانع حاذق بعمل اليدين، وامرأة صناع اليدين، أي حاذقة ماهرة بعمل اليدين، أما الصنعة فهي ما ينتج من عمل الصانع؛ كالسيف والسكين من عمل الحداد، والخزانة والصندوق من عمل النجار⁽²⁾.

اصطلاحاً: عبارة عن كل ما يمارسه الإنسان من أشغال حتى يصير ملكة راسخة في ذهنه، ومنه فهي العلم المتعلق بكيفية العمل⁽³⁾، فهي عبارة عن عمل يدوي يجريه الصانع في صنعته، ويكون مما يغيّر في ذوات المصنوع كالطحانة والخبازة والطباخة، أو في صفته كالتجارة والحدادة والصبغة، وفي هذه وأمثالها يسمى المصنوع باسم غير اسم مادته⁽⁴⁾.

فهي مفهوم واسع يشمل العديد من الأشياء، ويتفرغ منه الكثير من المشتقات، ويتداخل كذلك معه العديد من المفاهيم؛ فمن المصطلحات التي ارتبط ذكرها بمصطلح الصناعة والحرفة، المهنة ولذلك كان من الضروري التطرق لتعريفها لغة واصطلاحاً.

ج- مفهوم المهنة: يتداخل مفهوم المهنة مع الصناعة حيناً والحرفة أحياناً أخرى، فيراد بها لغة العمل باليد⁽⁵⁾، والحذاقة بالعمل والبراعة فيه وإصلاح المال، ومنه يقال للمرأة تقوم بمهنة بيتها إذا أصلحته⁽⁶⁾ بالخدمة والابتدال، يقال فلان مَهَنَ فلانا أي خدمه⁽⁷⁾، وجاءت الحرفة بمعنى الاحتقار والقلّة والضعف⁽⁸⁾.

(1) ابن منظور، المصدر السابق، ج8، ص20

(2) الجوهري، المصدر السابق، ج3، ص1245، 1246

(3) الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، المطبعة الخيرية، ط1، مصر 1306، ص58

(4) ظاهر خير الله الشويري، الحرفة وتوابعها، مجلة المقتطف، ع29، القاهرة، يناير 1904، ص57

(5) الزبيدي، المصدر السابق، ج21، ص364

(6) ابن سيده، المحكم، ج4، ص337

(7) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002، ج4، ص171

(8) الخزاعي، المصدر السابق، ص776

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾⁽¹⁾، فالمهين هنا الحقير الذي لا وزن له في أي شيء.

وقيل هي حركة يتعاطاها الإنسان بلا حفز ولا استكراه⁽²⁾، ذكر ابن منظور⁽³⁾: «وقد مهن يمهّن مهناً، إذا عمل بالخدمة في صنّعه، أي مهّنهم يُمهّنهم مهناً ومهنة، أي خدمهم، وامتهن هو قيل ذلك وأمهن نفسه أي ابتذلها، وصاحب الدنيا عبيد ممتهن أي مستخدم، وفي حديث لابن المسيب، السهل يوطأ ويمتهن أي يداس ويتذل من المهنة الخدمة»، من خلال التعريفات السابقة، نستنتج أنّ المهنة تدل على عمل وتخصّص مع الحذق وبذل الجهد فيه، وعلى إصلاح الشيء سواء كان مادياً أو معنوياً، أو تدلّ على ضعف وحقارة -وهي تخرج عن موضوع بحثنا هذا-.

اصطلاحاً: من خلال النظر إلى المعاني اللغوية للفظ مهنة، يمكن أن نعرّفها اصطلاحاً بأنّها نوع من الخدمات الدّالة على المهارة والحذق، والتعمّق والخبرة التي تحتاج إلى تدريب، فهي مجموعة من الأعمال تتطلب مهارات معينة يؤدّيها الفرد من خلال ممارسات تدريبية⁽⁴⁾، وبالتالي فإنّ الممارسة المطولة والتدريب المستمر شرطان أساسيان لاكتساب المهنة.

2- العلاقة بين الحرف والمهن والصناعات:

من المعلوم أنّ للصناعة علاقة بجميع الحرف والمهن، ذلك أنّ آلات وأدوات جميع الحرف والمهن، لا بدّ أن تصنع أولاً، ومن هذا المنطلق لوحظت العلاقة الجامعة بين المصطلحات الثلاثة لتتأرجح في بعض التفاصيل. فذهب أهل اللغة، إلى التّرادف بين الألفاظ الثلاثة، وأنّها بمعنى واحد فقيل: عن الحرفة والمهنة أنّه يراد بهما الحذق في العمل⁽⁵⁾، وذات الشيء قيل عن الصناعة والحرفة، غير أنّ الأخيرة أعمّ وأشمل من الأولى؛ حيث تدخل في نطاق الحرفة كل عمل يقوم به الإنسان، فهي الطّعمة

(1) سورة المرسلات، الآية 20

(2) الخزاعي، المصدر السابق، ص 776

(3) المصدر السابق، ص 54 - مادة المهن-

(4) مؤلف مجهول، أخلاقيات المهنة، الفصل 2، جامعة الملك سعود، الرياض، 1436/1435هـ، ص 14

(5) مؤلف مجهول، الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الآفاق والشؤون الإسلامية، ط 2، الكويت، ج 2، ص 69

والصناعة التي يرتزق منهما، وهي جهة الكسب⁽¹⁾، وبهذا تكون كل وجه يتقلّب فيه الإنسان ويتصرّف للكسب حتى تشمل: التجارة، والزراعة، وتعليم العلوم، والسمسرة، والطبابة، والقبالة، والصيدلة، والخياطة، والصبغة، والدباغة، والوراقة والحدادة، والصبغة والبناء وغيرها⁽²⁾.

أمّا الصناعة، فهي عملية تحويل المواد الأولية إلى مواد أكثر فائدة منها، وهذا يتطلب استغلال الثروات الطبيعية؛ من محاصيل زراعية، وأخشاب، ومعادن وغيرها، وتسخيرها لخدمة الصناعة؛ كاستغلال القطن، والحريز، والكتّان في صناعة المنسوجات، واستغلال الأخشاب في صناعة السفن، وأعمال التجارة، واستغلال المعادن في صناعة الحدادة، والصبغة، وهذه الصناعات التحويلية يمكن أن نطلق عليها اسم الحرف الصناعية، وهي بمفهومها هذا تدخل في نطاق مفهوم الحرفة.

فالمجملدي⁽³⁾ يشير إلى أهل الحرف والصنائع ويذكر منهم: الدبّاغ، السمسار، الخراز، الخياط، الصانع، الحداد، الفخار، والنجار، ويشير في موضع آخر إلى أهل الحرف.

ونجد إشارات: لأهل الصناعات والحرف⁽⁴⁾، وأهل الصنائع والحرف⁽⁵⁾، وأصحاب الصنائع والمهن⁽⁶⁾، وأهل الصنائع⁽⁷⁾، وأرباب الصنائع⁽⁸⁾، وأصحاب الصناعات⁽⁹⁾، وهي تشعرنا بوجود فارق بينها، لا يتخطى موضع التداخل فيما بينها، ومن هنا يتبين لنا الارتباط بالرغم من كل ذلك بين الحرف والمهن والصناعات.

(1) ابن منظور، المصدر السابق، ج9، ص44

(2) الشويري، المقال السابق، ص57

(3) ت: 1094هـ/1682م، أحمد بن سعيد، كتاب التيسير في أحكام التسعير، تح: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د،ط)، الجزائر، 1970، ص83

(4) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج2، ص83

(5) أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب، الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، (د،ط)، الرباط، 1965، ص161

(6) شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجمع الثقافي، ط1، أبو ظبي، 1993، ج5، ص13

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ص109

(8) أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي السقطي، في آداب الحسبة، تح: ليفي برونسال، (د،ط)، باريس، 1931، ص9

(9) أبو مروان حيان بن حلف ابن حيان، المقتبس في أخبار الأندلس، تح: عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ص20-49

3- أنواع الحرف والصناعات:

تعدّ الحرف والصناعات من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي في المجتمع الإسلامي بصفة عامة، وفي مناطق الثغور بصفة خاصة، لذلك أولاهها المفكرون جانبا من اهتمامهم وعنايتهم، وحاولوا تصنيفها وتبيان أنواعها وفق أسس متعددة ومختلفة، وهذا ما نجده في رسائل إخوان الصفا (ق4هـ/10م)⁽¹⁾، وفي كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (ت505هـ/1111م)، وفي كتاب الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي (ت بعد 570هـ/1174م)، وفي مقدمة ابن خلدون (ت808هـ/1405م).

أمّا رسائل إخوان الصفا⁽²⁾ فقد وجهت عناية خاصة بالعمل والصناع، وأثنت في رسالة خاصة على الصناع، وأشارت إلى شرف الصنائع ووصفت من لا صناعة له بأنّه لا يتعلم الصناعة لكبر نفسه؛ كأولاد الملوك، أو لزهده وورعه ورضاه بالقليل من أمور الدنيا وإقباله على طلب الآخرة؛ كالأنبياء(عليهم السلام)، أو لكسله وثقل طبيعته عن الحركة، ويرضى بالذل والهوان في طلب المعيشة كالمكدين في السؤال، أو من أجل مهنته واسترخاء طبيعته وقلة فهمه كالنساء وأمثالهن من الرجال⁽³⁾.

ويحمد لهم حصر الأشياء التي تندرج تحت مسمى الصناعة، فألفيناهم يقسمونها حسب موضوع الصناعة إلى نوعين: روحانية وتشمل المهن الفكرية، وجسمانية وتشمل الحرف اليدوية⁽⁴⁾.

(1) جمعية سرية، بدأت فعاليتها في البصرة أو بغداد وانتشرت في مختلف البلدان، كانت تشتغل ضد الخلافة العباسية، وتسعى للتهذيب العام جاعلة ذلك وسيلة لإحداث ثورة سياسية دينية عامة، ولهذا الغرض ألفوا رسائلهم المشهورة برسائل إخوان الصفا، عددها بين إحدى وخمسين وثلاث وخمسين رسالة، تناولوا فيها كل نواحي المعرفة التي يحتاجها الفرد المثقف في القرن 4هـ/10م، أنظر: الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص99

(2) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، مراجعة: خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي، (د، ط)، المملكة المتحدة، 2017، ج1، القسم الرياضي، الرسالة 8، ص231

(3) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص100

(4) تشمل صنائع يكون موضوعها بسيطا: كالماء (كصناعة الملاحين، والسقاءين..)، والتراب (كصناعة حفار الآبار، والأثفار..)، والنار (كالنفاطين والوقادين)، والهواء (كالزمارين، والبواقين والنفاخين)، والماء والتراب مثل الفخارين، أو صنائع يكون موضوعها مركبا: كالأجسام المعدنية (صناعة الحدادين، الزجاجين..)، النباتات (كالنجارين، والعصارين، الكنانين..)، الحيوان (صناعة الصيادين، رعاة الغنم والبقر، والبيطرة..)، أو إنتاج الحيوان (كالقصابين، الشوائين، الدباغين..)، ومن الصنائع ما موضوعها أجساد الناس كصناعة الطبّ، والمزنيين، أو نفوس الناس كصناعة المعلمين، أنظر: إخوان الصفا، المصدر السابق، ج1، ص234،

حسب فائدتها وأهميتها: قسموها كما يلي: صنائع ضرورية (كالزراعة والحياكة والبناء)، صنائع تابعة للضرورية (مثل صناعة الحياكة التي لا تتم إلا بصناعة الغزل، وصناعة الغزل التي لا تتم إلا بصناعة الحجل وهكذا)، صنائع للجمال والزينة (كصناعة الديباج، والحريز، والعمود)، وهناك تصنيف آخر حسب استخدام الصناعة للنار (كصناعة الحدادين، والزجاجين، والطباخين والحبازين..)، وتصنيفاً رابعاً حسب الآلات والأدوات المستعملة فيها، وخامساً حسب قيمة إنتاجها⁽¹⁾.

ويشير الدوري⁽²⁾ إلى أهمية هذه التصنيفات، وأنها إن دلت على شيء فهي تدل على اتساع نطاق الصناعات الموجودة في هذه الفترة، وعن التخصص المتقدم فيها، كما أنها تلقي ضوءاً على الفكر الاقتصادي في تلك الفترة.

وصنّف الإمام الغزالي⁽³⁾ الصناعات والحرف إلى صناعات ضرورية (مهمة)، وغير ضرورية (كمالية)، ومن الناحية الاجتماعية إلى: مستحبة (كالخياطة، التجارة، الحدادة، النجارة، الوراقة)، وغير مستحبة (كالدباغة، الحجام، الكناسة، الجزارة، الدلالة).

أمّا الدمشقي⁽⁴⁾ فقد صنّفها إلى: صنائع علمية تشتمل المهن الفكرية كالفقه والنحو، وعملية وتشتمل المهن اليدوية كالحياكة والفلاحة وغيرها، وصنائع مركبة كالطب والكتابة، ومن الناحية الصحية إلى صنائع مضرّة بالعقول والآراء، وهي التي يخالط فيها الصناع النساء والأطفال، وصنائع مضرّة بالأدمغة والأجسام كحمل الأثقال مثلاً، ومن الناحية الاجتماعية إلى صنائع شريفة وقبيحة.

أمّا ابن خلدون⁽⁵⁾ فقد قسم الصنائع حسب ضرورتها إلى: بسيطة وهي الضرورة التي يحتاجها المجتمع (كالخياطة، الحدادة، النجارة، الحياكة)، ومركبة وهي الكمالية، وتنفرد بها المجتمعات المتقدمة

(1) اخوان الصفاء، المصدر السابق، ج 1، ص 234، 235، 236

(2) أنظر: تاريخ العراق الاقتصادي، ص 115

FFahd, les corps de métiers au VIIIe siècle à Baghdad, jesho, VIII, pp 186

(3) أنظر: المصدر السابق، ج 2، ص 83، 84

(4) أبو الفضل جعفر بن علي الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ودرئوها وغشوش المدلسين فيها، تع:

محمد الأرنؤوط، دار صادر، ط 1، بيروت، 1999، ص 55-58

(5) المقدمة، ج 2، ص 90

والمتحضرة، كما أشار إلى أمهات الصناعات وصنّفها إلى: ضرورية: في العمران كالزراعة والبناء والحياطة والحياكة، وشريفة: كالتوليد والكتابة والطب والغناء، وما سوى ذلك من الصناعات فهي تابعة ومتممة لها.

4- عوامل قيام الصناعة:

لدراسة التاريخ الاقتصادي للثغور أهمية كبيرة في رصد التطور الذي حصل في المنطقة وبنائها التحتية، وانعكاس ذلك على قدراتها في أداء وظيفتها الجهادية، فرغم أنّ حياة سكانها كانت عسكرية أكثر منها اقتصادية إلا أنّها شهدت نشاطا اقتصاديا - كما بينا سابقا - خاصة في المجال الصناعي، ويرجع ازدهار الصناعة إلى مجموعة من العوامل منها: توفر المواد الخام اللازمة لها والتي تعج بها مدن الثغور، وكذلك الأيدي العاملة الماهرة نتيجة الاحتكاك المتواصل مع الروم، ويضاف إلى ذلك اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية بالصناعة وخاصة الحربية، وتوفر رؤوس الأموال، ونظرة المجتمع الثغري للعمل، واحتياجات الجيش والأسطول، وفيما يلي عرض لأهم هذه العوامل:

أ- العمل: يعد العمل المصدر الطبيعي لحصول الإنسان على ما يصلح أن يكون شيئا يتعامل به، ويجري في الحياة مجرى النفع والتبادل، وينظر إلى الدين الإسلامي على أنه دعوة حماسية لمحاربة البطالة والحرص على العمل، حيث أنّه باحتوائه على نظام شامل للحياة يرسم منهجا متكاملا لكل جوانب حياة المسلم⁽¹⁾.

كما شرف الإسلام العمل تشريفا كبيرا، والأحاديث كثيرة في هذا الشأن منها: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكَلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»⁽²⁾.

كما أنّ الثروة تنمى بالعمل وينمى الاستثمار بالإحسان، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا كَثِيرَةً﴾⁽³⁾.

(1) حميد ناصر الزري، مفهوم العمل في الاسلام وأثره في التربية الإسلامية، منشورات دار الثقافة والإعلام، (د،ت)، الشارقة، ج5، ص16، 17

(2) أبو بكر أحمد بن حسين البيهقي، المرجع السابق، ج1، ص434، رقم الحديث، 1170

(3) سورة البقرة، الآية 245

والدليل على تأثير العمل بمنطقة الثغور هو توفر انتاجها الزراعي ونمو نشاطها الصناعي الواسع نسبياً، ما هياً لها دوراً تجارياً هاماً وغدت مدنها مراكز تجارية ذات أسواق استهلاكية كثيرة الخيرات، وهو ما يؤثر على الحياة الحربية كذلك⁽¹⁾.

كما أنّ البطالة قد تؤدي إلى فشل التعبئة الاقتصادية والعسكرية، فمعظم عمال الصناعة في المنطقة كان يدفعهم إلى العمل وعدم الرغبة في الموت جوعاً، علماً أنّ الدولة كانت تنتج في مصانعها معظم ما يحتاجه الجيش من البضائع، وكل صانع كان يحاول إنفاق سلعته من خلال جودة عمله⁽²⁾.

ب- رؤوس الأموال: تحتاج الصناعة إلى رؤوس الأموال والتي لا يستطيع تحصيلها إلا الأثرياء، أما مناطق الثغور وباعتبارها تعيش حالة خاصة تكون مهياًة على الدوام لمواجهة العدوان وصدّه، فكان دخلها لا يمكن أن يقارن بمقادير الإنفاق الطائلة التي تصرف عليها، وكانت رؤوس أموالها تخصص لها من قبل الخليفة أو السلطان أو أولي الأم، وما كان يبعثه المحسنين، بالإضافة إلى ما كان يتأتى لها من إمكانياتها الخاصة والغنائم⁽³⁾.

ج- توفر الخبرة الفنية(اليد العاملة): تتطلب الصناعة الأيدي العاملة الماهرة، ورغم أنّ المصادر لا تقدم لنا إحصائيات عن عدد العاملين بمناطق الثغور، إلا أنّ حياة السكان فيها كانت في حركية دؤوبة على الدوام؛ من ترقب وإرسال العيون والجواسيس واستعداد ونغير وتعبئة وتدريب وغيرها، وحتى في الأيام العادية التي لا تشهد حروباً كان سكانها يخصصونها للتدريب والمران، واستخدام الأسلحة، بالإضافة إلى الأعمال الأخرى؛ من زراعة الأرض ورعي الماشية وصناعة وغيرها⁽⁴⁾.

(1) لما غزا مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية أمر الجند أن لا يأكلوا شيئاً من الطعام الذي حملوه، بل أن يزرعوا الأرض ويفلحوها، أنظر: الطبري، تاريخه، ج6، ص530، أحداث سنة 98هـ

(2) علي أحمد إسماعيل، تاريخ بلاد الشام، ص88

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص168، 169

(4) منذ أن كان معاوية بن أبي سفيان والياً على الشام ألح على الخليفة عثمان(رضي الله عنه) على وجوب إنشاء أسطول لرد هجمات الروم، فأنشأ الخليفة هذا الأسطول وأوكل بناءه إلى عناصر خبيرة في صناعة المراكب البحرية في البلاد المفتوحة في كل من مصر وبلاد الشام ولا سيما القبط، خاصة سكان الثغور البحرية الذين برعوا في صناعة السفن، وتمرسوا في ركوب البحر، أنظر: الدقوقي، المرجع السابق، ص251

د- توفر المواد الأولية الخام: أسهمت الصناعة في تطوير اقتصاد الثغور، إذ ظهرت في البدء تلبية لحاجات تلك المدن، وكان لتوفر المواد الخام دور مهم في تنوع الصناعات والحرف، فقد وجدت صناعات مختلفة في مناطق الثغور اعتمدت على المواد الأولية المتوفرة من زراعية، حيوانية، ومعدنية. فبالنسبة للصناعات القائمة على الإنتاج الزراعي؛ اشتهرت المنطقة بإنتاج الحبوب من قمح وشعير وأرز وسائر أنواع الحبوب، والتي كان يستفاد منها في مجالات الصناعة الغذائية التي لا غنى للإنسان عنها، وكان لوفرة أشجار الفاكهة دور في انتشار صناعة الفواكه المجففة ومن أبرزها: صناعة المعمول بالجوز والفسق والسمسم، كما اشتهرت صناعة معقدات الفاكهة والحلوى والمشروبات، وصناعة السكر⁽¹⁾.

وترتب عن وفرة الأشجار كمادة أولية قيام العديد من الصناعات؛ فمن أشجار الزيتون صنع زيت الزيتون، والذي ترتب عليه صناعة الصابون أيضا، وعدت أشجار التوت من أهم الغلات الزراعية في الثغور إذ كان يستفاد منها في تربية دودة القز، والتي يستخرج من شرانقها الخيوط التي تستخدم في صناعة المنتجات الحريرية، كما اشتهرت المنطقة بزراعة الكروم، ولذلك نشطت صناعة الخمر والبيذ، كما ترتب عن توفر الغابات كونها المصدر الرئيسي وأهم ثروات المنطقة، انتشار صناعة النجارة، خصوصا بثغر طرطوس، حتى أنّ هناك شارع بها يسمى شارع النجارين لكثرة من يعمل بصناعة الخشب⁽²⁾.

كما اهتم سكان المناطق الثغرية بتربية الحيوانات المختلفة، نظرا لأهميتها وفائدتها الاقتصادية في مجالات عديدة، ما أدى إلى انتشار العديد من الصناعات القائمة على الإنتاج الحيواني؛ كالصناعات الغذائية والجلدية والصوفية والحريرية، فتوفر المادة الأولية من قطن وجلود وحرير وغيرها ساهم في ازدهار صناعة النسيج والملابس؛ كالحريرية في منبج، والقطنية في حلب، والصوفية في كل من طرابلس وملاطية⁽³⁾.

(1) المهلي، المصدر السابق، ص 99

(2) الطرسوسي، المصدر السابق، ص 38

(3) ابن العديم، بغية الطلب، ج 1، ص 81

ونسبت أشهر الثياب إلى أنطاكية⁽¹⁾، وصناعة الفراء وصناعة البسط والسجاد⁽²⁾، وانتشرت صناعة الجبن والزبد واللبن واللحوم⁽³⁾ والصناعة الجلدية ودبغها والصبغة⁽⁴⁾.

أمّا بالنسبة للصناعات القائمة على المعادن، فقد كان لتوفر معدن الحديد في مناطق الثغور واستغلاله انتشار العديد من الصناعات، كصناعة الأسلحة مثل: السيوف السلوقية والفؤوس واللجم والعمد والدبابات، ولا يخفى ما لهذه الصناعة من أهمية كبيرة في أوقات السلم والحرب، كما انتشرت صناعة الزجاج في صيدا وصور وغيرها من مدن الثغور الذي لا يدانيه أي زجاج في رفته وصفائه⁽⁵⁾.

ولأنّ أهل الثغور غلبت عليهم الحياة العسكرية والاستعداد الدائم للحرب، وامتلاك أدوات ووسائل الحرب، فقد اشتهرت بعض الثغور بصناعة الأسلحة اللازمة للجهاد والغزو: كالسيوف والرماح والنبال والأقواس، بالإضافة إلى تربية الخيول وتدريبها على الطراد وتجهيز مستلزماتها، فكان يعمل بها عيدان السروج التي تشد على الخيول والدواب بالمصيصة، وكان ثمنها مبالغاً فيه لجودتها⁽⁶⁾، ولم يكن بلد على وجه الأرض فيه الحديد المخزوز للكراسي، ولوازم الخيل، والعمد، والدبابيس كما يعمل في مناطق الثغور.

وعلى صعيد الصناعات البحرية اللازمة لغزو البحر، اشتهرت مدن الثغور بتوفر الأخشاب اللازمة لصناعة ألواح السفن والصواري والمجاديف، فكانت تصنع في مدينة عكا الساحلية، والتي كانت تمتلك ميناء وصف بأنه جليل، وأنّ صناعة السفن كانت تدور به⁽⁷⁾، وكان بالإمكان استغلال معدن الحديد أيضاً لصناعة المواد اللازمة لصناعة السفن: كالمراسي والمسامير وغيرها⁽⁸⁾.

(1) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص81

(2) ياقوت الحموي، المعجم، ج5، ص145

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص128

(4) نفسه، ص181

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص181

(6) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص156

(7) المهلي، المصدر السابق، ص104

(8) العبادي، المرجع السابق، ص24، 25

هـ - اهتمام الخلفاء بالصناعة:

اهتم خلفاء الدولة الإسلامية في هاته الفترة بالصناعات، وشجعوها وخاصة الحربية منها، فعندما وجه الخليفة أبو جعفر المنصور أخاه العباس بن محمد سنة 149هـ/766م لغزو بلاد الشام، اصطحب معه عددا من الحدادين والنجارين، لاستخدامهم في بناء الحصون، فصنعوا المجانيق من أخشاب الصنوبر الذي اشتهرت بها المنطقة، والذي كان في غاية ما يكون من القوة والثبات، وله في الوجود ما يزيد عن أربعة آلاف سنة⁽¹⁾، وفي عهد الخليفة هارون الرشيد ازدهرت صناعة المراكب والسفن في ثغور الشام الساحلية كعكا وصور، والتي كانا بهما دور لصناعة السفن⁽²⁾.

(1) المهدي عيد الرواضية، المرجع السابق، ص225

(2) يعقوبي، البلدان، ص165

المبحث الثاني: الصناعات الرئيسية

ازدهرت بمناطق الثغور أنواع عديدة من الصناعات خلال فترة الدراسة، نتيجة توفر المواد الخام الأولية ورأس المال واليد العاملة، كان بعضها يعتمد على الإنتاج النباتي؛ كصناعة السكر والصابون والزيت والورق وطحن الغلال والمراكب، أمّا بعضها الآخر على الإنتاج الحيواني مثل: المنسوجات الصوفية والحربية والصناعات الجلدية والدباغة، وأخرى تعتمد على الإنتاج المعدني؛ كالأسلحة والحديد والنحاس والزجاج، والبناء -والتي تشكل أحد المواد الرئيسية لبيت المال- ولقد أكد ابن العديم⁽¹⁾ اشتهاً مدن الثغور بقيام العديد من الصناعات والحرف اليدوية، والتي كانت تعتمد أساساً على الموارد الأولية المتوفرة فيها.

I- الصناعات القائمة على الإنتاج النباتي الحيواني:

1- صناعة السكر:

عرف المسلمون زراعة وصناعة السكر، واستخدموه في طعامهم وفي صناعة الأدوية والعقاقير الطبية، إلا أنّ المصادر التاريخية لم تشر إلى تاريخ بدء هذه الصناعة، ولكنها أشارت إلى زراعته في المنطقة⁽²⁾ وإلى اهتمام الخلفاء بصناعته، ويشهد على ذلك أقوال المؤرخين حول كميات السكر الكبيرة المستهلكة في الاحتفالات وقوائم الشحنات التي تقدم الدليل على تصدير السكر الشامي والمصري إلى البندقية وجنوة ومرسيليا وبرشلونة⁽³⁾، وكان من أهم الموارد التي دعمت الاقتصاد، حيث لعبت سواحل بلاد الشام وثغورها دوراً بالغ الأهمية في زراعته وإنتاج قصب السكر⁽⁴⁾.

(1) بغية الطلب، ج1، ص156

(2) كان الأوروبيون قبل القرن 13م يعتمدون العسل في تحلية بعض أصناف طعامهم وشراهم، وساهمت الحروب الصليبية في نقل صناعته وادخالها إلى أوروبا، حيث عمد الإمبراطور فريديريك الثاني إلى أخذ عدد من الصناع الشاميين وأنزلهم جزيرة صقلية، أنظر:

Ashtor , Eliyahu , levantine sugar industry in the late Middle ages, «A case of technological decline», from the islamic Middle East 700-1900, studies in economic and social history, 1981, p6- Heyd. W,H histoire du ommerce du levant au moyen Age, vol2, Lipzig, 1886, p686

(3) آشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، تر: عبد الهادي عيلة، دار قتيبة، دمشق، 1985، ص56

(4) البغدادي، المصدر السابق، ج2، ص426

ونظرا لوفرة إنتاج قصب السكر في مناطق الثغور، فقد قامت صناعته في مدينة طرابلس واعتبرت من المناطق الهامة لإنتاجه، وحازت صناعته شهرة واسعة بسبب نقائه وجودته فكانت أوروبا تستورد السكر منها⁽¹⁾.

واشتهرت كذلك صناعته في المناطق المحيطة بطرابلس، وفي المرقب، وعرقنة، وصور، وحلب⁽²⁾، ويؤكد ذلك وجود المعاصر والمطابخ في المنطقة، حيث وجدت معصرة بطرابلس⁽³⁾، وأخرى في الجهة الشرقية من مرقية⁽⁴⁾، واستمرت طرابلس مع دمشق تصدران سكرًا عرف بجودته وحسن صناعته على شكل رقائق أو ناعم أو بشكل دقيق أو شكل حلوى خلال الفترات اللاحقة⁽⁵⁾.

وكان يسمى من يشتغل بصناعة السكر بالسكري، وكان يعمل به أنواعا من الحلويات: من المعاقيد، والمعاجين، والمربيات، وما يتنقل به من الحلو كالملبس، ومن الفستق، والبندق، واللوز، والصنوبر، وجوز الهند، وهو يشتغل تلك الأشغال للتجار من العطارين بأجرة معلومة، له كل رطل من كل نوع على حسب شيء معلوم من الدراهم، وغالب عمله للأغنياء العطارين المشاهير⁽⁶⁾.

وقد عرفت طرابلس صناعة الحلويات والمربيات التي تُعمل من مختلف الفواكه كالتفاح والبرقوق والعنب والمشمش والعسل، وقد وجد بها سوق لأصحاب هذه الحرفة عُرف بسوق الحلاويين⁽⁷⁾.

(1) إيرامارفين لايدوس، مدن اسلامية في العصر المملوكي، تر: علي ماضي، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، (د،ط)، بيروت، 1987م، ص48

(2) الاضطخري، المصدر السابق، ص51

(3) عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، المؤسسة العربية، ط1، بيروت، 1981، ج2، ص272

(4) الإدريسي، المصدر السابق، ج4، ص375

(5) ذكر ابن فضل الله العمري الذي زار طرابلس في سنة 735هـ/1334م، أنّ السكر كان يصنع بطرابلس، وعندما أغار الفرنج على طرابلس سنة 769هـ/1367م وجدوا في أحد متاجرها جفان كثيرة من السكر فأخذوا يكسرونها ويرمونها على المسلمين بدلا من الحجارة، أنظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج3، ص371- تدمري، المرجع السابق، ج2، ص398- النوري، المصدر السابق، ج8، ص272-280

(6) القاسمي، المرجع السابق، ص184

(7) *Mantran robert sauvaget jean, réglements ficans ottomans, les provinces syriennes, institut francais de damas, 1951, v1, p52*

2- صناعة الزيت:

نتيجة لكثرة أشجار الزيتون ووفرة الزيتون بمدن الثغور وخاصة الساحلية منها، فقد وجدت حرفة استخراج الزيت، لذلك كان زيت الزيتون من أكثر السلع الزراعية التي تصدر منها، ويضرب المثل في جود ونقاء زيت بلاد الشام، لذلك ذاعت شهرته في جميع البلدان وتجاوزت شهرته الآفاق، وبلغ من الجودة حداً جعل السلاطين يهادون به⁽¹⁾، وتعددت استعملاته بين تحضير لأطباق الطعام الشهية، وكمادة للإضاءة أو للتداوي، وطرق استخلاصه هي: العصر أو الطحن أو الغلي⁽²⁾.

ومن الثغور التي اقتصت بصناعته: طرابلس وجبله وطرطوس وحصن الأكراد وعرقه واللاذقية وعكا، وأنشئت لذلك معاصر لاستخراج الزيت⁽³⁾، تدار بقوة الماء أو بالحيوانات، ولم تستخدم لعصر الزيت فقط بل لعصر العنب أيضاً، فقد وجد في عكا لوحدها مثلاً أربعة وعشرون معصرة⁽⁴⁾. ويسمى من يشتغل ببيع الزيت بالزيتات، حيث يشتريه من أصحاب أرباب الزيتون والمعاصر، الذين يدخرونه في آبار مخصوصة محكمة وأوعية كبيرة، فيضعه على دابة مخصوصة بأوعية كالخوابي من الجلد، ويدور في الأسواق على زبائنه كالبقالين وغيرهم بمن يدخر الزيت⁽⁵⁾.

3- صناعة الصابون:

ترتب على زراعة الزيتون واستخراج زيتته صناعة الصابون، وهي من الصناعات الزراعية القديمة والناجحة في منطقة الثغور في مختلف العصور الإسلامية، ومما ساعد على قيام صناعة الصابون في المنطقة إضافة إلى توفر الزيت كمادة أساسية، توفر مادة الصودا القلوية التي عرفت باسم القلي،

(1) يوسف درويش غوانمة، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، ط2، عمان، 1982، ص109،

(2) جهاد غالب مصطفى الزغلول، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1994م، ص139

(3) السيد عبد العزيز سالم، البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص168

(4) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص270

(5) محمد سعيد القاسمي، المرجع السابق، ص173

تستخرج من نوع من الأعشاب يطلق عليها اسم الأشنان، وهي من الأعشاب البرية التي تنمو بكثرة في الجبال المحيطة بطرابلس، وبعض المناطق المحيطة بحماه وحمص، وكانت تجمع وتحرق وبعد حرقها تنقل على الإبل إلى مدينة طرابلس، وتعرف عندئذ بالبلس *Bals*، ونظرا لاستعمال جزء من مادة الرماد المستخرج في صناعة الصابون فقد عرفت باسم عشبة الصابون⁽¹⁾.

وأهم مناطق صناعة الصابون بمدن الثغور، مدينة حلب التي كانت تضم سوقا لبيعه، يذكر ابن الشحنة⁽²⁾: «أنّ مدينة حلب كانت مشهورة بصناعته حيث كان يباع في اليوم والواحد من الصابون مالا يباع في غيرها من المدن في عدة شهور»، ووجدت صناعته في مدينة طرابلس وبأنواعه كافة؛ العادي والمطيب للحمام⁽³⁾، ومدينة بالس التي كان يعمل بها الصابون الكثير والغزير⁽⁴⁾، وقد ساعدها في ذلك قربها من الرقة المشهورة بصابونها المعروف ووفرة إنتاج الزيت⁽⁵⁾.

وأقيمت لهذه الصناعة مصابن في مدن الثغور، من بينها: مصبنة في طرابلس، وأخرى في اللاذقية⁽⁶⁾ ثم ارتفع عددها في فترات لاحقة لفترة الدراسة، حتى وصل عددها في نهاية العهد المملوكي في طرابلس لوحدها أربعة معامل⁽⁷⁾، ووجد لأصحاب الحرفة خان في طرابلس يخزنون به إنتاجهم، والفائض من مادتي البلس والصابون يصدر إلى منطقة الأناضول، والجزر الإغريقية، ومصر، والدول الأوروبية⁽⁸⁾، وكان يسمى المشتغل بهذه الصناعة بالصبان، ومحل عمله بالمصبنة، وأجوده ما يعمل بالزيت الخالص، والقلبي النقي، والجير الطيب المحكم الطبخ، والتجفيف والقطع على أوضاع مخصوصة⁽⁹⁾.

(1) راوولف ليونهارت، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين سنة 1573، تر: سليم طه التريكي، دار الحرية للطباعة، (د،ط)، بغداد، 1978 ص 34، 35

(2) الدر المنتخب، ص 254-250

(3) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 278

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 180

(5) المهلي، المصدر السابق، ص 99

(6) كرد علي، خطط، ج 4، ص 159

(7) sauvaget, op-cit, p70

(8) راوولف، المرجع السابق، ص 34

(9) القاسمي، المرجع السابق، ص 268

4- صناعة النبيذ والخمور:

اشتهرت مناطق الثغور بزراعة العنب، وكان من أهم المحاصيل في الكثير من مدنها وقراها، وانتشرت مزارعه ولذلك نشأت حرفة صناعة النبيذ، ورغم تحريمها في الإسلام فقد وردت إشارات تؤكد السماح بتناول الخمر في حانات خاصة، مقابل دفع ضريبة عرفت بضمان الخمر في طرابلس وفي البلاد الساحلية⁽¹⁾.

ومن المراكز المشهورة التي اقتصت في تصنيع الخمور، مدينة طرسوس التي اشتهرت بصناعة النبيذ الفاخر⁽²⁾، الذي تميز بجودة مذاقه⁽³⁾، ووجدت صناعته كذلك في مدينة اللاذقية، وكان التجار الإيطاليون يشترونه ويصدرونه إلى أوروبا⁽⁴⁾.

5- صناعة تجفيف الفواكه:

من الصناعات التي برزت وازدهرت بمناطق الثغور، صناعة الفواكه المجففة، وكانت أهم أصناف الفواكه التي تنتجها المنطقة وتقوم بتصديرها: الأعناب والتين والمشمش والدراق والخوخ والإجاص والسفرجل والتفاح وغيرها، فقد اشتهرت منبج بتجفيف العنب حتى يصبح زيبيا، ويعمل بالجوز والفسق والسمسم، والذي لم ير له مثل إلا ببخارى من لذته وحلاوته⁽⁵⁾، ونقلت صناعته إلى حلب وغيرها من مدن الثغور فصنع بكثرة بها وبطرسوس⁽⁶⁾.

وقد أشار النابلسي⁽⁷⁾ إلى العديد من طرق التجفيف الخاصة بكل نوع من أنواع الفواكه، ومن ذلك طريقة تجفيف الإجاص حيث يقول: «ويوضع في الشمس فيببس بعد أن يقلب مرارا، ولا يكون ذلك إلا فيما نضح منها، ثم يجعل في أزيار فخار جدد تسد بالجص وتحفظ إلى وقت الحاجة، فإذا

(1) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد زيادة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1970، ج2، ق2، ص937-940

(2) أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام، ص329

(3) كرد علي، الخطط، ج4، ص191

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص181

(5) نفسه

(6) المهلي، المصدر السابق، ص99

(7) الشيخ عبد الغني النابلسي القادري، علم الملاحة في علم الفلاحة، دار الآفاق الحديثة، ط2، بيروت، 1981، ص208

أريد أكلها رشت بالماء ولفت بخرقة حتى تترطب، ويبس العناب ونحوه منظوماً في خيط ويعلق في الهواء في الغرف ونحوها فإنه يبقى العام كله، أما الخوخ فيفرغ من نواة دون تقطيعه ثم ينظم في خيط ويعلق في الهواء ويترك حتى يجف ويعلق في زير من فخار أحمر فيبقى العام كله وعند أكله يرش بالماء ويجعل في قطعة قماش حتى يطرى».

6- الصناعة النسيجية:

تعدّ صناعة النسيج والملابس من أهم وأقدم الصناعات في مختلف الحضارات، وقد ازدهرت بمناطق الثغور لتوفر المواد الأولية الخاصة بها وتحديداً: القطن والصوف والجلود والحريز والكتان بالإضافة إلى توفر الخبرة وبعض العوامل المساعدة الأخرى؛ كحرفة الصباغة والدباغة التي تعتمد على الزعفران والنيلة وغيرها⁽¹⁾، والتي كانت تتولاها طائفة من اليهود.

وكانت هذه المنسوجات من السلع التجارية الرئيسية وخصوصاً الحريرية منها، ومن أهم المدن الثغرية التي اشتهرت بصناعتها مدينة منبج التي ساعدها في ذلك وفرة المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة والمتمثلة في خيوط الحرير التي تنتجها دودة القز التي تتغذى على شجر التوت المتوفر بها⁽²⁾، كما نسب إليها الثياب والأكسية المنبجانية⁽³⁾.

كما اشتهرت طرابلس بصناعة المنتوجات الحريرية المطرزة والمقصبة بالذهب والفضة، والتي تميزت بجودتها وجمالها⁽⁴⁾، ونظراً لوفرة إنتاج الحرير بها فقد أقيمت أسواق خاصة بالحريريين، أصبح في مقدمة المنتجات المصدرة إلى الدول الأوروبية⁽⁵⁾، كما برع أهالي طرابلس في صناعة الغزل والتطريز والزردكاش⁽⁶⁾، وإنتاج الحرير الطرابلسي الأبيض الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد الحرير البيروتي.

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 181

(2) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 171

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 107

(4) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 413

(5) ابن الورد، تاريخ ابن الورد، دار الكتب، ط 1، بيروت، 1996، ص 42

(6) كلمة فارسية معناها صانع الزرد-وهو من أدوات حماية المقاتلين في الحرب-، والزردكشية هم المحترفون لهذه الحرفة، أنظر: محمد

عمارة، المرجع السابق، ص 267

ومن أهم المدن التي اشتهرت بصناعة المنسوجات الحريرية كذلك؛ حلب، وحمص، وبعلبك، وغزة، وعسقلان، وصور، وطرابلس، واللاذقية⁽¹⁾.

وإلى جانب المنسوجات الحريرية، عرفت مدن الثغور صناعة المنسوجات المقطنة والكتانية والصوفية وصناعة الأقمشة الخام من وبر الجمال التي اشتهرت بها أنطربوس وطرابلس⁽²⁾، والصناعات الجلدية كصناعة الكنائن⁽³⁾ وغيرها، واشتهرت ملطية بالصناعات الصوفية، حيث ذكر ابن الشحنة⁽⁴⁾ أنه وجد بها اثنا عشر ألف نول تعمل الصوف، لكنه يذكر أن هذه الأنوال قد تلاشى أمرها فيما بعد، ويذكر المسعودي⁽⁵⁾ أن الخليفة المعتصم لما غزا عمورية كان عليه درّاعة من صوف.

وكانت حلب تقوم بصناعة الملابس القطنية⁽⁶⁾، وجبيل على ساحل البحر الشامي مركزا صناعيا مهما للنسيج⁽⁷⁾، وفي صور كان يعمل من الثياب البيض المحمولة إلى كل الآفاق كل شيء حسن، عالي الصفة والصبغة، ثمين القيمة، قليلا ما يصنع مثله في سائر البلاد المحيطة⁽⁸⁾، واشتهرت عسقلان بتطور صناعة النسيج بها إذ عرفت ثيابها بالثياب العسقلانية، كما اشتهرت بصناعة الأقمشة الحريرية المصنوعة من الحرير الفائق الجودة ومن أشهرها: الشقق المطرز، والساذج والذي كان يصنع خصيصا لكبار رجال الدولة⁽⁹⁾.

وكانت أنطاكية تصنع الثياب ذات الجودة العالية اشتهرت باسم الثياب الأنطاكية، حيث كانت العرب إذا أعجبها شيء نسبتها لأنطاكية⁽¹⁰⁾، كما كان يصنع بها الثياب المصممة المصنوعة من الحرير

(1) عبد الله الخرايشة، مملكة طرابلس في العهد المملوكي (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1985م، ص 240

(2) نفسه، ص 241

(3) هي جعبة السهام، تصنع عادة من الجلد أو الخشب، أنظر: ابن سيده، المخصص، ج 2، ص 67

(4) الدر المنتخب، ص 195

(5) مروج الذهب، ج 4، ص 564

(6) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 181

(7) عصفور، المرجع السابق، ص 157

(8) الادريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 366

(9) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 160، 174

(10) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 81

وأبرزها: الأصبهاني والتستري والعتابي، ونتيجة لجودتها كانت تتبادلها الملوك، وتعد من الهدايا الثمينة والعظيمة القدر⁽¹⁾.

وفي طرطوس اشتهرت صناعة الثياب المسماة بالشفايا، وكانت ذات جودة عالية: مثل رفيع الديبقي يحمل إلى كل بلد والبزاة الغرة⁽²⁾، كما اشتهرت المصيصة بعمل الفراء التي كان تحمل إلى البلاد الأخرى، وربما بلغ سعر الفرو منها حوالي ثلاثين ديناراً⁽³⁾، وقد تحدث القزويني⁽⁴⁾ عن هذا النوع فقال: «ومن خاصية هذه المدينة الفراء المصيصية التي لا يتولد فيها القمل، وإذا غسلتها لم تتغير على حالها، وتحمل الرسائل البلدان».

واشتهر أهل رصافة هشام -وأغلبهم نصارى- بصناعة الثياب، حيث كانوا ماهرين في عمل الأكسية، وكل رجالها فقراء كانوا أو أغنياء يعملون بغزل الصوف ونسائهم ينسجن⁽⁵⁾، ويسمى صانع هذه الحرفة بالحائك، والصنعة بالحياكة، وآلتها يقال لها النول والمنوال، ومنها الأكسية والألبسة وغير ذلك، والحياكة تنتج أكسية تصنع سراويل، أي ألبسة على حسب حال اللابسين⁽⁶⁾.

7- صناعة الحصر:

نظراً لتوفر المواد الأولية اللازمة لها، انتشرت صناعة الحصر في مناطق الثغور، وساعدت ظروف الحياة الرعوية بصورة خاصة على ظهورها، فكانت الصوف أهم المواد التي تدخل في صناعة الحصر (البسط والسجاد)، وكذلك شعر الماعز ولكن بدرجة قليلة، أما الحرير فقد ندر استخدامه ويحتمل أنه كان خاصاً بمعامل الخلافة، وكان يمتزج بالصوف في السجاد الفاخر⁽⁷⁾، كما استخدم أيضاً الكتان، والقطن، ونبات القنب، والحلفاء الذي يمتاز ساقه بالرخاوة، ونبات قصب السكر الذي

(1) الادريسي، المصدر السابق، ج2، ص645

(2) نفسه، ص88

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص155

(4) آثار البلاد وأخبار العباد، ص379

(5) ياقوت الحموي، المعجم، م3، ص48

(6) القاسمي، المرجع السابق، ص86

(7) جمال محرز محمد، السجاد الإسلامي ومشتقاته في اسبانيا، المجلة التاريخية المصرية، ع11، مصر، 1963، ص185

استخدم كذلك في صناعة الحصر بالمنطقة⁽¹⁾.

وهناك أنواع جيدة من السجاد التي كان يتفنن في تنويع طرق حياكتها، فالسجاد الفخم يزين بخيوط الذهب والفضة والبسط والسجاد استعملت لأغراض مختلفة؛ منها ما يفرش على الأرض، وهي إما كبيرة تسمى البسط، أو مستطيلة وتسمى الأنخاخ، ومنها ما يعلق للزينة ويسمى الأنماط أو الزرابي والحياطي، وهناك نوع خاص يستعمل للصلاة ويسمى السجادة أو المصلى⁽²⁾، وقد جرت العادة أن تفرش المساجد بالحصر التي تصنع من نبات الحلفاء، وتصبغ بالألوان المختلفة وتشد إلى بعضها بعضاً بخيوط الكتان⁽³⁾.

وعرفت طرابلس صناعة الحصر والسجاد النادرة، والبسط التي كانت تفرش بالمساجد وبيوت الأثرياء لتوفر المواد الأولية اللازمة بها⁽⁴⁾، كما عرفت اللاذقية صناعته⁽⁵⁾، أمّا عن الستائر فقد أورد الخطيب البغدادي⁽⁶⁾ نصاً عن انتشار صناعتها وتوسع شهرتها خلال فترة المقتدر بالله 295-320هـ/ 908-932م، فقال: «كان عدد ما علق في قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من ستور الديباج المذهبة بالطرز المذهبة الجليلة، المصورة بالجامات والفيل والخيل والجمال والسباع والطرز والستور الكبار البضغائية والأرمينية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها الستور الديباج المذهبة المقدم وصفها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة، وعدد البسط والأنخاخ-البساط الطويلة- في الممرات والصحون التي وطأ عليها القواد ورسل الروم اثنان وعشرون ألف قطعة».

8- صناعة الورق:

لم تبدأ صناعة الورق عند العرب قبل منتصف القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، وتكشف الروايات التاريخية أنّ العرب تعلموا صناعة الورق من الأسرى الصينيين، إذ يروى عن المؤرخ أبو منصور

(1) النووي، المصدر السابق، ج1، ق1، ص280

(2) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص122

(3) غوانمة، المرجع السابق، ص111

(4) راوولف، المرجع السابق، ص25

(5) الخرايشة، المرجع السابق، ص241

(6) م1، ص419

الثعالبي الذي عاش في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد أنّ الأسرى الصينيين الذي وقعوا في قبضة المسلمين عملوا على إدخال صناعة الورق إلى سمرقند عام 134هـ/751م، ثم أخذها المسلمون⁽¹⁾.

وبدأت صناعته في عهد الخليفة هارون الرشيد 193-198هـ/809-813م بعد أن أشار عليه وزيره الفضل بن يحيى البرمكي بصناعة الكاغد⁽²⁾، وتم صنعه وكتب عليه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذ الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الإجادة في صناعته درجة كبيرة⁽³⁾. ثم انتشرت صناعته في عدة مدن كدمشق وطبرية، ومنها نقل إلى باقي البلدان⁽⁴⁾، ووصلت لمناطق الثغور، فأصبح يصنع في ثغر طرابلس التي زارها ناصر خسرو⁽⁵⁾ في القرن الخامس هجري/الحادي عشر للميلاد، فأشاد بجودة صناعة الورق الطرابلسي، ووصل إلى طرسوس حيث صنع في بعض الأبراج المقامة على سورها أين كان هناك أماكن مخصصة لعمل الورق والكاغد⁽⁶⁾.

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار صناعة الورق توفر نبات الأرز الذي يصنع الورق من قشورته، وتوفر مادة الزجاج⁽⁷⁾ التي تدخل في تصنيع الأحبار المتوفرة في بلدة الجرجومة⁽⁸⁾، وربما كان يجلب ما نقص من تلك المادة من جزيرة قبرص والتي يوجد فيها معدنه بكثرة وينسب إليها⁽⁹⁾.

(1) سليمان الموس، الورق وتطور صناعته في العصر العباسي، مجلة جامعة دمشق، ع3، 4، دمشق، 2001، ص(211-252)

(2) الكاغد أو الطُّرس لفظ فارسي معرب، وهو نوع من أنواع الورق، أمّا إذا كتب فيه سمي القُرطاس وجمعه قراطيس، أنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، (د،م)، 1989م، ج21، ص103

(3) ابن خلدون، العبر، ج1، ص532

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص180، 181

(5) سفرنامه، ص13

(6) الطرسوسي، المصدر السابق، ص36

(7) أو أملاح الكبريت، وهي مادة معدنية يمكن تحليلها بالماء والطبخ، وتوجد مخالطة لأحجار لا تقبل التحليل، أنظر: محمد عمارة، المرجع السابق، ص265

(8) ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج4، ص190

(9) الطرسوسي، المصدر السابق، ص36

9- صناعة العطور:

تعد مهنة العطار من المهن الرفيعة التي لا يمارسها إلا عليّة القوم، وقد ورد في كتاب الأزمنة والأمكنة للأصفهاني⁽¹⁾، أنّ العرب أبدعوا في تركيب العطور، فكانوا أحسن من مزج الطيب، وكانوا يحفظونه في قوارير من زجاج، ويصدرونه عبر البحر إلى السند والهند، وعن طريق البر إلى فارس وبلاد الروم. بالإضافة إلى المسك⁽²⁾ والعنبر⁽³⁾ والعود⁽⁴⁾ والصندل⁽⁵⁾ اشتهر العرب باستخدام أنواع أخرى من الطيب، استعملوها في تطيب ثيابهم وتبخير معابدهم مثل الكافور⁽⁶⁾، ونجحوا في توليف وتركيب خلطات عطرية سميت بالطيب المعمول كالغوالي⁽⁷⁾، وكان يتفاخر بها التجار العرب، ويأخذونها معهم في رحلاتهم التجارية، ويعرضونها في الأسواق.

- (1) الشيخ أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996، ج1، ص384
- (2) اسم غير عربي، والغالب أنه انتقل إلى اللغة العربية من اللغة الهندية القديمة، وفي المغرب المسك: الطيب، فارسي معرب، أنظر: الجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد الخضر، المغرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب، مصر، 1969، ص373، ويستخرج من مادة من الدم، تنمو في سرّة الطي، وعندما يأتي موعد خروجها تضجر الطي فتحك سرتها على أحجار الجبال، حتى تسيل منها المادة المكونة للمسك، أنظر: سيف شاهين خلف المريخي، تجارة العطور وصناعتها عند العرب المسلمين، المجلة المربية للعلوم الإنسانية، ع94، السنة24، الكويت، ص(1-58)
- (3) العنبر مادة شمعية توجد في أمعاء بعض أنواع الحيتان، وخصوصا المعروفة بالحيتان العنبرية، وعندما تستخرج المادة تجفف فتصبح ذات رائحة طيبة، ومن أسمائه: الذكي، وخصم، والورد، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص339
- (4) العود شجر كبير ينبت في الهند، وسيلان، وبلدان جنوب شرق آسيا، ويكون في قلب الشجرة، ولا تصير له رائحة إلا بعد أن يعتق، وينجر، ويقشر، ومن أسمائه: القطر، المندي، الشذا، والألوة، والألنوج، والكبياء، والمجمر، والبخور، والغار، والهضمة، والوقص، أنظر: المريخي، تجارة العطور، ص(1-58)
- (5) الصندل نوع من الخشب، على ثلاثة أصناف أبيض، أصفر، أحمر، يقطع رطبا، ويستورد من الصين والهند وبلدان جنوب شرق آسيا، ويظهر طيبه بالدلك أو بالحرق، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص293
- (6) الكافور نبات طيب الريح، يستخرج من شجر كبير ممتد في الطول، يصل ارتفاعه بين 20-50 متر، وكان يستورد من بلاد الهند وجزيرة سيريلانكا، وهو أصناف منها: القيصوري، والرياحي، والأزاد، والأسفرل، والأزرق، وأفضله أو أجوده الرقيق الشديد البياض، القوي الرائحة، السليم مما يغش به، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص404- سيف المريخي، تجارة العطور، ص(1-58)
- (7) ج غالية: وهو ضرب من الطيب المركب، يقال أنّ أول من سماها بذلك معاوية بن أبي سفيان بعد أن دخل عليه عبد الله بن جعفر ورائحة الطيب تفوح منه، فقال: ما طيبك يا عبد الله؟ فقال: مسك وعنبر جمع بينهما دهن بان، فقال: معاوية غالية، أي ذات ثمن غال، أنظر: سيف المريخي، تجارة العطور، ص(1-58)

أمّا مناطق الثغور فقد اشتهرت بأزاهيرها وورودها، فتقدمت فيها صناعة الزهور والعمور، ووجدت صناعتها بمختلف أنواعها في مدينة طرابلس، أين أفرد لأصحاب هذه الحرفة -العمارين- سوقا خاصا يعملون بصناعة العمور ويتجارون بها⁽¹⁾، كما وجد سوق للعمير بجلب⁽²⁾.

10- صناعة المراكب والسفن:

كان لانتشار الغابات الكثيرة بمناطق الثغور دور كبير في توفر المواد الخشبية، مما أسهم في قيام العديد من الصناعات الخشبية، أهمها صناعة المراكب، وإذا نظرنا إلى الوضع الجغرافي العام لإقليم الشام والجزيرة حيث تتواجد الثغور، لوجدناه في مواجهة الأعداء وفي مقدمتهم الروم، ولذلك تظن خلفاء الدولة الإسلامية إلى ضرورة إنشاء أسطول إسلامي للدفاع عن السواحل ومواجهة خطر البحر، ويرجع الفضل الأكبر في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان الذي عزم وهو بعد وإل على الشام، على إنشاء أسطول عربي إسلامي؛ لأنه كان يعلم تماما أنّ بإمكانه تحقيق هذا الهدف.

فالأخشاب التي يمكن أن تصنع منها ألواح السفن والصواري والمجاديف، تتوفر في مناطق متعددة من أراضي مصر والشام؛ فأشجار الصنوبر القوي، والأرز، والبلوط، والعرعر تزخر بها جبال بلاد الشام، كما أنّ أخشاب السنط المصري الصالحة لعمل الصواري، وضلع جوانب السفن، وخشب الجميز⁽³⁾، والأثل⁽⁴⁾، واللبخ⁽⁵⁾، والدرم⁽⁶⁾ التي تصلح لصناعة المجاديف والقرايا، اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور، كذلك كان بالإمكان استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن، لعمل

(1) تدمري، المرجع السابق، ص 199

(2) الغزي، المصدر السابق، ج 1، ص 96

(3) الجميز شجرة شبيهة بالتين، وورقها يشبه ورق التوت، وثمرتها تشبه التين البري، أنظر: الأشرف الرسولي، المصدر السابق، ص 73

(4) الأثل شجر يشبه الطرفاء، إلا أنه أعظم منه وأكرم وأجود عودا، تسوى به الأقداح والقصاع، أنظر: كوكب دياب، المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، 2001، ص 17، 18

(5) اللبخ أو اللبحة: شجرة عظيمة مثل الأثابة، ورقها شبيه بورق الجوز، وهومن شجر الجبال، له ثمر أخضر يشبه التمر الحلو إلا أنّه كرهه جدا، يجعل خشبه في بناء السفن، أنظر: كوكب دياب، المرجع نفسه، ص 228

(6) شجر تتخذ منه حبال ليست بالقوية، أنظر: نفسه، ص 92

المسامير، والمراسي، والخطاطيف، والفؤوس، كما توفر بمصر القطران الوارد من ليبيا لقلفطة السفن، وأما نبات الدقس فكانت تصنع منه جبال السفن⁽¹⁾.

بالإضافة إلى هاته المواد كانت تتوفر الأيدي العاملة الخبيرة، فلعب الأقباط دورا رئيسيا في صناعة الأسطول الإسلامي، وشاركوا في المعارك البحرية ضد البيزنطيين⁽²⁾، أما أهل الشام وبالذات سكان السواحل؛ من صور، وصيدا جنوبا إلى جبيل، وطرابلس شمالا، فقد برعوا في صناعة السفن، وتمرسوا في ركوب البحر، ونبغوا في قيادة الأساطيل من أقدم العصور، بحكم تطلعهم إلى البحر واحتكاكهم التجاري بعالم البحر، فنستدل من ظهور أشكال السفن الصيدونية منقوشة على عملات صيدا في العصر الفارسي مثلا أنها لعبت دورا هاما في التاريخ البحري، حيث اتخذت السفن رمزا ينقش على عملاتها، كما اعتمد معاوية على عناصر عربية يمنية تنتمي إلى قضاة - سبق الإشارة إلى ذلك-⁽³⁾.

ومن مدن الثغور التي اشتهرت بصناعة السفن، طرابلس التي كانت تمثل مركزا من مراكز صناعتها في بلاد الشام لتمتعها بموقع جغرافي هام، وقربها من غابات الأرز في جبال لبنان التي كانت مصدرا للأخشاب اللازمة لهذه الصناعة، كما اشتهرت مدينة جبيل ببناء السفن وقطع الأخشاب من أرز لبنان، وإرسالها إلى يافا منذ العصور القديمة⁽⁴⁾،

ويذكر ناصر خسرو أنه شاهد في مدينة بعلبك كثيرا من صناعات السفن المسماة في حيفا جودي⁽⁵⁾، ومن المناطق التي وصفت بأنها مجمع لأخشاب الصنوبر حصن التينات، ففيه كانت تجهز المراكب بالخشب إلى الديار الشامية والمصرية⁽⁶⁾، واستخدمت الأخشاب كذلك في تجهيز أسقف البيوت في القرى الشامية⁽⁷⁾.

(1) العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام، ص24

(2) نفسه، ص25

(3) العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، ص25

(4) خرابشة، المرجع السابق، ص237، 238

(5) سفرنامه، ص50

(6) الاضطخري، المصدر السابق، ص64

(7) العمري، المصدر السابق، ص64

وكان ثغر عكا من أوائل الموانئ التي بدأت في صناعة السفن الحربية⁽¹⁾، إلا أنّها لم تكن كبيرة أو مشهورة مثل دار الصناعة في مصر كما ذكر البلاذري⁽²⁾، أو كما يعتقد أنّ دار الصناعة في عكا لم تكن في يد الخلفاء حيث أنّ الخليفة هشام بن عبد الملك 105-124هـ/724-743م نقل في عهده دار الصناعة من عكا إلى صور بسبب أنّها كانت لرجل من ولد أبي معيط بعكا أرحاء ومستغلات، فأراد الخليفة أن يبيعه إياها فأبى ذلك عليه.

وتطرت المصادر العربية إلى البحرية الإسلامية في هذه المدة، وذكرت أنّ مقدار ما يغزو من المجاهدين في مراكب الثغور الشامية وما يجتمع إليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين إلى المائة⁽³⁾، مما يعزو القول أنّ ألف مركب كما جاء في المصادر البيزنطية مبالغ فيه⁽⁴⁾.

وكانت سفن المسلمين مقسمة إلى قسمين؛ سفن الحرب المجهزة بالقاتلة والأسلحة، والسفن النيلية لحمل القمح والبضائع، وأيا كان شكل السفينة وحجمها فإنّ الجزء الغائص من هيكلها صمم على شكل الحوت، وكان استخدام القلع المثلث لدى المسلمين دليلاً على تقدمهم البحري بعد استقرارهم حول شواطئ البحر المتوسط⁽⁵⁾.

وعرف المسلمون صناعة العديد من السفن فظهر اسم السفينة، والمركب، والقارب، والدرومون *dromonoria* وهي اصطلاح للسفينة الحربية وكونت جزءاً من أسطول المسلمين، وكذلك الأكاتيا *acatia* وربما كانت سفينة مساعدة لنقل المؤن أو تشير إلى الطراز المتأخر المعروف بالطاردة⁽⁶⁾.

(1) المهلب، المصدر السابق، ص 101

(2) أنظر: فتوح البلدان، ص 120- العبادي، المرجع السابق، ص 21

(3) قدامة، المصدر السابق، ص 183

(4) ففي معركة ذات الصواري والتي انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين بلغ عدد المراكب فيها من خمسمائة إلى سبعمائة مركب، وأنّ مجموع مراكب الأسطول الإسلامي وهو في أوج قوته في العصر الأموي قدر بألف وثمانمائة سفينة في حملة 98-99هـ/717-718م، أنظر: العبادي، المرجع السابق، ص 35

(5) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 2، ص 363

(6) (ج طريدة): وهي سفن مخصصة لحمل الخيل، وتتسع الطريدة الواحدة لحمل أربعين فرساً، كما استخدمت لحمل المقاتلة والمؤن والسلاح، أنظر: العبادي، المرجع السابق، ص 136

وهناك إشارات إلى سفن القرايبز *carabi* وهي على نوعين؛ محصنة وغير محصنة محاطة بأبراج، والحصن عبارة عن برج صغير له جوانب خشبية في منتصف الصاري لحماية الجنود من أحجار العدو وسهامه، وربما تعني قارب، كما ظهرت الزوارق الكبيرة المعروفة باسم *galleys*، وربما استخدمت في أغراض الاستطلاع⁽¹⁾.

وخلال العصر العباسي دخلت كلمات جديدة في تسمية السفن، بلغت أكثر من مائة اسم، عدد كبير منها أتى من خارج الجزيرة العربية، والتقطها المسلمون بسرعة، وجعلوها جزءا من المفردات العربية وأهمها: الشواني، والحراريق⁽²⁾، والحرابي أو الحربييات⁽³⁾، والطرائد، والشلندينا، والمسطحات⁽⁴⁾، والبطس⁽⁵⁾، الشذاه أو السميرية التي اشتهرت خلال العصر العباسي وقد تحدث عنها الطبري⁽⁶⁾ في حوادث سنة 267هـ/م، وهناك أيضا الشباييك والفلايك والقوارب والزوارق؛ وهي سفن صغيرة تسيير بالمجاديف سريعة الحركة⁽⁷⁾.

11- صناعة الطب والأدوية والتمريض:

من العلوم التي اهتم بها المسلمون الطب، وقد عرف ابن خلدون⁽⁸⁾ صناعته قائلا: «هذه الصناعة ضرورية في المدن والأمطار لما عرف من فائدتها، فإن ثمرتها حفظ الصحة للأصحاء، ودفع المرض عن

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص366، 367

(2) (ج حراقة) وهي مراكب حربية يعبر اسمها عن وظيفتها في إحراق سفن العدو بالنفط، وهي تلي الشواني في الأهمية، أنظر: فتحي عثمان، المرجع نفسه، ص367-370

(3) (ج حربية) وهي نوع من الشواني ولكنها أصغر منها حجما، وتمتاز عنها بسرعتها وخفة حركتها، أنظر: العبادي، المرجع السابق، ص134-136

(4) (ج مسطح) وهي مراكب ضخمة مسطحة كانت تحمل الأسلحة للأسطول، أنظر: عبد الفتاح عبادة، سفن الأسطول الاسلامي وأنواعها ومعداتها في الاسلام، مطبعة الهلال، (د، ط)، مصر، 1913، ص12

(5) (ج بطسة) مراكب كبيرة الحجم تتكون من عدة طوابق، وكانت تزود بعدد كبير من القلوع يصل أحيانا إلى الأربعين، وكانت تستخدم لنقل الأزواد والميرة أو نقل المحاربين، قد يصل عددهم إلى سبعمائة، أنظر: وفيق بركات، المرجع السابق، ص154

(6) تاريخه، ج4، ص267

(7) أو (السميرية)، وكانت تستعمل لنقل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين، وكان بها حوالي أربعين مجدافا، وتستخدم في حراسة أفواه الأنهار، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص371

(8) العبر، ص520

المرضى بالمداواة، حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم».

واشتهر عدد من الأطباء المتميزين الذين اعتمد عليهم الخلفاء وبرعوا في ذلك⁽¹⁾، وفي فترة الدراسة نذكر عبد الملك بن أبي أيجر الكناني⁽²⁾ الذي قدم إلى الشام في حكم عمر بن عبد العزيز و أمره بصناعة الأدوية⁽³⁾.

أما عن مناطق الثغور فشأنها شأن البلاد الأخرى، فقد تعرضت لهجمات من الأمراض المتوطنة أو الوبائية نتيجة الظروف الاقتصادية وتقلب أحوال المعيشة باعتبارها ميدانا للجهد والقتال، وأن من ينفر إليها يدرك أنه متجه إلى ساحة للجهد والحرب وبالتالي فالطابع العسكري هو السائد، كما أن تلك المناطق كانت تبيح حرية تنقل الأشخاص على نطاق واسع، وهي مفتوحة وليس لها حواجز صعبة تعيقها ما كان يتسبب في انتشار الأمراض⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى ما كانت تخلفه الحروب والمواجهات بين المسلمين والبيزنطيين من جرحى وحاجاتهم إلى العلاج والتمريض والاستشفاء، ومما خفف من وطأة الأمراض التي كانت تصيب المنطقة وساعد على التكفل بالمرضى والجرحى، هو الاهتمام بالبيمارستانات لما لها من دور في خدمة الجنود⁽⁵⁾. واشتهر من الأطباء في المنطقة ابن العبري⁽⁶⁾، وأبو سالم النصراني اليعقوبي الملطي، المعروف بابن

(1) أمثال: الطبيب الحارث بن كلدة بن عمرو الذي عاصر النبي (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ومعاوية، وكان بارعا في طب العيون، والطبيب ابن أثال الذي كان نصراني المذهب، عاصر فترة معاوية، وكان طبيبا متميزا خبيرا بالأدوية والأمراض وطرق علاجها، ابن سعد، المصدر السابق، ج5، ص507- ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص171
(2) من أفاضل الأطباء وأهل العلم والتميز بين الضار والنافع، خالط النصراني، كان مقيما في الاسكندرية يتولى التدريس بها، سحب عمر عبد العزيز وكان يستطب عنده، أنظر: العمري، المصدر السابق، ج9، ص317، 318
(3) ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا دار مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، 2002، ص171

(4) سوادى عبد محمد، المرجع السابق، ص125

(5) سليمان بن صالح، المرجع السابق، ص697

(6) غريغوريوس بن توما الملطي (623-685هـ/1226-1286م) أبو الفرج صاحب كتاب مختصر الدول، أنظر:

Huseyin Ali, The History of the city of Malatya and its scholars, , Journal of Academic History And Studies, Volume 2, Issue, 1, (2020), pp (4-27)

زكرياء⁽¹⁾، ومبنيج الطبيب أحمد بن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله العباس⁽²⁾.

كما أنّ المسلمين لم ينسوا خلال غاراتهم على البيزنطيين-خاصة زمن الرشيد- الحصول على مخطوطات يونانية من مدينتهم، وكانوا يرسلون الرسل من قبلهم لشراء المخطوطات اليونانية الموجودة داخل الإمبراطورية البيزنطية، وخاصة الطبية فيروى أنّ الرشيد ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة، عندما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون⁽³⁾.

أمّا عن التمريض فهو رسالة أخلاقية لعبت المرأة دورا هاما في إرساء قواعدها، وخاصة في مناطق الثغور باعتبارها مناطق جهاد، فقد تطوعت لتمريض المصابين، ومداواة الجرحى، وسقاية الجيش وغيرها من الأعمال التي تعين المجاهدين، وليس ذلك بجديد على المرأة فقد عهدناها تقوم بذلك منذ زمن النبي(صلى الله عليه وسلم)؛ فكانت تتطوع للخروج مع الجيوش، فشارك في القتال، وتسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وتناول السهام، وتعد الطعام، وكل ذلك يتم بشروط، فلا يجوز للمرأة الأجنبية تمريض ومعالجة الأجنبي إلا في حالات الضرورة، وجواز تطوعها لخدمة الجيش وتمريض عناصره وجوب استئذان القيادة العليا للالتحاق بذلك، وكان توزيعهم يتم حسب كفاءتهم وخبرتهم على الأعمال المناسبة لهم⁽⁴⁾.

وقد كره المسلمون في بداية الفتوحات إسكان النساء في الثغور المتقدمة، خشية وقوعهن في الأسر، ولأنّ الثغور المخوفة لا يؤمن ظفر العدو بها وبمن فيها واستلائهم على الذرية والنساء، ورغم ذلك فقد قال بعض العلماء أنّ الكراهة مقصودة على غير أهل الثغر، فلا يستحب لهم الانتقال إلى ثغر مخوف، فأما أهل الثغر فلا بد لهم من السكن بأهلهم ولولا ذلك لخربت الثغور وتعطلت⁽⁵⁾.

(1) من الأطباء المشهورين من ملطية خدم السلطان علاء الدين كيقيباد(هـ/1188-1237م) وتقدم عنده وكان أهلا لمجلسه

لفصاحة لهجته في اللسان الرومي ومعرفته أيام الناس وسير السلاطين، أنظر: (Huseyin Ali, op-cit, pp(4-27)

(2) وكان عالما بالطب والفلسفة بعدُ العلاجات والأدوية والأشربة التي لا توجد عند أحد إلا عنده ويعطيها في السبيل، أنظر: ابن

العلم، المصدر السابق، ج2، ص1001، 1002

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ص270

(4) ابن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح، منشورات دار الآفاق، (د،ط)، بيروت، (د،ت)، ج5، ص197

(5) ابن قدامة، المغني، ج9، ص206، 207

وقد برز دور المرأة في مناطق الثغور من خلال مشاركتها في المعارك؛ كما حدث سنة 123هـ/740م بملطية بعد أن تعرضت لهجوم بيزنطي، حيث ظهرت النساء على السور وعليهم العمائم، وقاتلن الأعداء إلى جانب الرجال⁽¹⁾، كما كان القادة يحملون نساءهم معهم أثناء قيادة المعارك إرادة الجد في القتال، كما حدث مع مسلمة بن عبد الملك في حملة على عمورية -عقبة النساء-(2).

ولإدراكهن لأهمية الجهاد في المنطقة، فقد عملت زوجات وأمهات الخلفاء على تجهيز المنطقة بكل ما يحتاجه الجنود، فهذه أم الخليفة المعتز⁽³⁾ 252-255هـ/866-868م قد أقامت بطرطوس دار بشارع الصفصاف، تتألف من حجر مفروزة، كل حجرة من بيتين ومرفق لخدمة المجاهدين في المنطقة، وقامت السيدة أم الخليفة المقتدر⁽⁴⁾ 295-320هـ/907-932م ببناء دار أخرى كانت أكبر وأشهر دار في منطقة الثغور الشامية خدمة لمصالح الجنود⁽⁵⁾.

ومن القصص المشهورة في مناطق الثغور للمرأة، قصة الأميرة ذات الهم، والتي ترجع إلى قبيلة كلب التي كان يتزعمها حارث الكلابي، والذي تنبأت أنه سيرزق بولدين أحدهما ظالم والآخر مظلوم، حيث وُلِدَ للظالم ذكر سماه الحارث، ورث عن أبيه ظلمه وطغيانه، ووُلِدَت للمظلوم بنت سماها فاطمة وسرعان ما أقصاها خشية شماتة أخيه، فترعرت في منفاها وبعدها بدأت إرهابات مستقبلها وبطولاتها تظهر للعيان، عادت إلى عشيرتها، وهنا وقع ابن عمها الحارث في حبها، ولكنها رفضت الزواج منه، فاعتمد الحيلة والغدر لبلوغ مآربه، ولم تكن تضع ابنها عبد الوهاب حتى اعتزمت الرحيل إلى مناطق الثغور للجهاد ضد العدو فلم يجد زوجها ما يعرقل مسعاها ويسيء إلى سمعتها إلا بإشاعة

(1) سناء عبد الله الطائي، دور المرأة في الثغور والعواصم، 132-354هـ، مركز الدراسات الإقليمية، دراسات إقليمية، ع14، م5، جامعة الموصل، ص(1-14)

(2) البلاذري، المصدر السابق، ص229

(3) تدعى قبيحة، ولدت سنة 232هـ/846م، وماتت في سامراء سنة 264هـ/877م، أنظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ج1، ص359، 360

(4) قيل أنها رومية أو تركية، واسمها غريب، وقيل أنها شغب، أنظر: السيوطي، تاريخ، ص378

(5) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص182، 183

أنَّ عبد الوهاب ليس ولده، وبعد إثبات براءتها رحلت إلى ملطية على رأس جيش كبير لتشريع في جهادها العظيم ضد الروم، فضلا عن تهيئة ظروف الجهاد للمقاتلين ومساهمتها في تضييد الجرحى⁽¹⁾.

II- الصناعات القائمة على التعدين:

عرفت مناطق الثغور أنواعا متعددة من الصناعات المعدنية: كالحديدية، والنحاسية، والزجاجية، والرخام، والأسلحة، والقرميد، وغيرها، ويبدو أنَّه لتوفر المواد الأولية من جهة، واستمرار الحروب وزيادة الطلب عليها من جهة أخرى ساعد على استمرار الصناعة المعدنية.

1- الصناعة الحديدية:

الحدادة هي معالجة الحديد وتشكيله بما يحتاجه المجتمع وينفعه، ولقد فرضت ظروف الحياة على سكان الثغور أن يكونوا على دراية بالحدادة، حتى يلبوا بها متطلبات معيشتهم، فكانت من الصناعات الثغرية المتميزة، لكونها من الصناعات الضرورية في عمران تلك المناطق⁽²⁾.

ونظرا لتوفر معدن الحديد في العديد من مدن الثغور أو في نواح عديدة قريبة منها، نشأت حرفة الحدادة بمختلف أشكالها واشتهرت عدة مدن في ذلك، فلم يكن على وجه الأرض بلد يعمل فيه الحديد المحزوز للكراسي، وباقي لوازم الخيل كاللحم والمهاميز والعمد والدبابيس كما يعمل في مناطق الثغور، ولا يخفى ما لهذه الصناعة من أهمية كبيرة في أوقات السلم والحرب⁽³⁾.

فاشتهرت من مدن الثغور مدينة سلوقية بصناعة السيوف السلوقية، وهي مشهورة جدا عند العرب، ومدينة زبطرة بإنتاج معدن الحديد الذي كان يجلب منها إلى سائر المناطق⁽⁴⁾، واشتهرت حابي في ديار بكر بإنتاجه بكثرة، وكان يجلب منها إلى باقي المدن الثغرية⁽⁵⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص284-286

(2) ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص90

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ج2، ص156

(4) نفسه، 247

(5) طه خضر عبيد، واقع المعادن المتطرفة في مشرق الدولة العربية الاسلامية حتى القرن الثالث للهجرة، مجلة المجمع العلمي

العراقي، 3، مج5، العراق، 1426هـ/2005م، ص239-255

وفي مدينة المصيصة كانت تعمل عيدان السروج التي تشد على الخيول والدواب، وكان ثمنها مبالغاً فيه لجودتها⁽¹⁾، واستغل هذا المعدن في صناعة الفؤوس، والآلات الزراعية: كالمناجل، والمعاول، والمناقش، والمناشير، والصواكير - الفأس العظيمة-، والمناشير، وسكك الحراثة، وصفائح الدواب، وفي صناعة بعض الأدوات المنزلية: كالحزائن، والأكواب، والصناديق، والأقفاص، والأتافل- المناصب التي تنصب عليها قدور الطعام-⁽²⁾.

كما برع الحدادون في صناعة المسامير من أوزان وأحجام مختلفة ومتنوعة، وفي صناعة المفاتيح، والأقفال، والسلاسل الحديدية، فقد ظهرت هذه الأخيرة في بعض الثغور البحرية، والتي كانت تحصن بها الموانئ؛ كميناء اللاذقية التي بلغ عدد كلاليتها حوالي 700 كلاب تزن أربعين قنطاراً⁽³⁾، وكذلك صناعة أبواب الحديد الضخمة التي تستخدم لحماية وتحصين أسوار المدن⁽⁴⁾.

وكان الحدادون يستعملون في صناعتهم بعض الأدوات التي تساعدهم في طرق الحديد، وفي تغيير شكله على النحو المطلوب، ومن أهمها الكبير⁽⁵⁾ الذي يستعمل لإثارة النار وإيقادها كي ترتفع درجات حرارتها فتؤثر في الحديد فتجعله ليّناً يسهل طرقه، وإعطاؤه الشكل المطلوب⁽⁶⁾، والكلايب جمع كلاب، وهي الآلة التي يمسك بها الحديد عند الإيقاد والضرب⁽⁷⁾.

كما استخدم الحديد في صناعة مراسي السفن، والإبر، ومسلات الحديد، والسكاكين، وفي صناعة الأكيال والموازين، وفي العديد من الأسلحة؛ كالرماح، والدروع، والبيضات، والسلاح من خلال صناعة الأسلحة التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحدادة.

(1) المهلي، المصدر السابق، ص 98

(2) ابن عبدون محمد بن أحمد التجيبي، رسالة في القضاء والحسبة، منشور ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمختسب، تح: ليفي بروفينال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (د،ط)، القاهرة، 1955، ص 36-59

(3) شيخ الربوة، المصدر السابق، ص 209

(4) ابن عبدون، المصدر السابق، ص 3336

(5) ج أكيار وكيرة، وهو جلد ينفخ فيه الحداد، أنظر: جبران مسعود، المرجع السابق، ص 678

(6) جواد علي، المرجع السابق، ج 7، ص 557 (المفصل)

(7) الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي، لحن العوام، تح: رمضان عبد التواب، (د،د،ن)، ط 1، (د،م)، 1964،

2- صناعة الأسلحة:

نظراً لأنّ أهل الثغور تغلب عليهم الحياة العسكرية والاستعداد الدائم للحرب، وامتلاك أدوات ووسائل الحرب، فقد اشتهرت بعض الثغور بصناعة السلاح اللازم للجهاد والغزو؛ فبالإضافة إلى تربية الخيول، وتعويدها على الطراد، وتجهيز مستلزماتها كعيدان السروج التي اشتهرت المصيصة بصناعتها⁽¹⁾، وصناعة الجوايق والمخالي⁽²⁾ التي برع في صناعتها أهل رصافة هشام، وصناعة اللحم، والمهاميز، والعمد، والدبايس، التي اشتهرت بها مدن الثغور لما لها من أهمية كبيرة⁽³⁾.

وقد برعوا في صناعة أنواع عديدة من الأسلحة الخفيفة والثقيلة، الدفاعية والهجومية، فالدفاعية تتألف من: التراس، والدروع، والبيضات، والدرق، والسواعد، والجواشن، والمغافر، والخوذ، وهي تتوزع بحسب استخدامهما، فتتخذ الوضع الذي تأخذه على جسم المقاتل؛ فمنها ما هو مصنوع لكي يلائم حماية الرأس، وما هو مصنوع لحماية البدن أو الأطراف، وسنأتي على ذكرها فمناها:

البيضة وهي نوع من ألبسة الرأس التي اتخذها العسكريون⁽⁴⁾، سميت كذلك لأنّها على شكل بيضة النعام، وربما أنّ التسمية تعود إلى اللون، حيث أنّه من المعروف أنّ الحديد أو الفولاذ الذي تصنع منه يعطى بعد صقله لمعانا وبياضاً، أمّا الخوذة فقد اتخذها العسكريون كغطاء آخر للرأس، وقد اختلف في تحديد مواصفات كل من الخوذة والبيضة، وهناك من اعتبرهما شيئاً واحداً، فكلاهما يحملان مفهوماً واحداً، وإن كان هناك فرق بينهما فرماً ينحصر في شكلها أو المادة التي تدخل في صناعتها⁽⁵⁾.

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص179

(2) الجوايق: هي الخروج التي توضع على ظهور الجمال والدواب، والمخالي التي يوضع بها علف الدواب، أنظر: القزويني، آثار البلاد، ص198

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص156

(4) تعددت أسماءها وأنواعها ومادة صنعها، وكان يطلق على كل نوع بالنسبة إلى هيئتها وشكلها ومادة صنعها، فمناها: الجماء، والتركة، والخيصعة، والبصلة، وربيعة، والعرمة، والزنبقة، والدومص، سمّاها ابن سلام الخيصعة، ومقدمها يسمى القونس، أنظر: كتاب السلاح، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1985، ص29- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، ط5، مصر، 2011، ص79

(5) صلاح حسين العبيدي، الملابس والأزياء العسكرية في العصور العربية الإسلامية، مجلة الجيش والسلاح، بغداد، ص(197-230)

يذكر أنه وجد تحت جامع المصيصة خلال العصر العباسي أزج⁽¹⁾ مبني من طابقين فيه صناديق كبيرة تحتوي على أعداد هائلة من السلاح من بينها خمسة آلاف بيضة⁽²⁾، ومن ألبسة الرأس كذلك والتي عرفت في فترة الدراسة عمامة الغزاة وقد وجدت على وجه مسكوكة ضربت سنة 241هـ/855م صورة للخليفة العباسي المتوكل على الله في لباسه العسكري واضعا عمامته⁽³⁾.

أما المغافر فهي تسمية تطلق على زرد نسيج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة⁽⁴⁾ غير أنّها أوسع يلبسها الرجل على رأسه مبلغ الدرع، ثم يلبس البيضة فوقها فذلك المغفر يرفل على العاتقين، ويعدّ من الملابس الحربية المهمة فبالإضافة إلى غرضه الرئيسي في حماية الرأس اتخذ المقاتلون وسيلة من وسائل التقنع والتستر وحماية وجه المقاتل، أما الدرع فهو رداء يلبس في الحرب لتغطية الصدر والظهر وبعض الذراعين لوقاية لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح وتأثير السهام⁽⁵⁾.

- (1) الأزج: بناء مستطيل مقوس السقف، أو البيت بيني طولاً، أنظر: المعجم الوسيط، ص 15
- (2) يذكر أنّ الحجاج بن يوسف بنى موضعاً للسلاح بالمصيصة وجعل فيه من السلاح ذخيرة للمسلمين، أنظر: صلاح حسين العبيدي، المقال السابق، ص (197-230)
- (3) صلاح حسين العبيدي، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، دار الرشيد، (د، ط)، العراق، 1980، ص 129
- (4) القلنسوة هي ما يلاصق على الرأس تكويراً كما هو الحال في العمامة، وكانت تلبس غطاءً للرأس، إمّا وحدها، وإمّا تلف حولها العمامة، وقد بلغ من شيوع استعمالها في العصر العباسي أن كثرت أنواعها وألوانها ومناسبات لبسها، وكانت من جملة ملابس القواد والأمراء، وقد ذكر الواقدي أن ميسرة بن مسروق العبسي لبس قلنسوته في غزوة مرج القبايل سنة 20هـ/640م، أنظر: فتوح الشام، ج 2، ص 11- العبيدي، المقال السابق، ص (197-230)
- (5) تتخذ الدروع من مواد مختلفة منها زرد الحديد، وتكون على شكل حلقات صغيرة كثيرة العدد متداخلة بعضها ببعض لتكوّن ما يشبه النسيج، أو تصنع من صفائح معدنية، وقد تتخذ من القماش السميك، وتأتي في مقدمة أنواعها أهمية الدروع المعدنية وهي أنواع حسب شكلها وطولها أو قصرها وأماكن صنعها، فمنها الدروع الواسعة: كالسابقة، والنثرة، والثلة، والربوض والمسرودة، وهناك المفاضة والفيوض والسحل والزغفة، وهناك نوع آخر وصفت بشكلها منها: الشليل (الدروع القصيرة)، البتراء (تصنع بلا أكمام وتصل في طولها إلى أسفل الركبة)، الدائل (بمعنى طويلة الذيل)، ونوع آخر من الدروع يتصل بالملبس عرف بالآينة: كالدلاص، والماذية، والجارية، والخدباء، وظهر نوع آخر في ضوء التصنيف امتاز بصلابته مثل الدروع القضاء، وظهر نوع آخر سمي بالنسبة إلى شكل حلقاتها من حيث التقارب أو التباعد أو الضيق والسعة أو الاستدارة، مثل: السكاء، الجدلاء، وظهرت كذلك ما سمي بالجواشن، واللبوس، واللامة، ويذكر الواقدي أنّ ميسرة من مسروق العبسي، لبس لامته في غزوة مرج القبايل سنة 20هـ/640م - أنظر: فتوح الشام، ج 2، ص 11- صلاح حسين العبيدي، المقال السابق، ص (197-230)

ومن التطورات التي طرأت على الدروع في العصر العباسي هي التوصل إلى طلاء الدروع بمادة لا تتأثر بالنار، حيث كانت ملابس المقاتلين تطلّى من الداخل بمواد متخذة من النشاء والشب ومواد أخرى، وقد أشار المسعودي⁽¹⁾ إلى هذا النوع من الملابس، حيث ذكر أنّ الجيش العباسي الذي اشترك في فتح عمورية سنة 223هـ/838م بقيادة الخليفة المعتصم، كان يتسلح بالحراب، والسيوف، والدروع، ثم الرامية والفرسان، تصحبهم جماعة النفاطين الذين يرمون المحترقات على جيوش الأعداء، ويلبسون ثيابا لا تتأثر بالنار -ومن المرجح أنّها من صنف الدروع هاته-.

ومن الأسلحة الدفاعية الأخرى؛ السواعد، والسيقان المصنوعة من المعدن زيادة في الوقاية، والكف الحديدي، وذكر أنّ من بين ما وجد في خزائن السلاح في المصيصة زمن الأمويين خمسة آلاف ساعد حديد⁽²⁾، وكذلك التراس والتروس، وهي صفيحة مستديرة من المعدن يحملها الفارس بإحدى يديه ليتقي بها ضربات السيف⁽³⁾، وكذلك الدرق وهو الترس من الجلد، والتجافيف (ج تجفاف) وهي آلة حربية من حديد أو غيره يلبسها الفرس أو الفارس⁽⁴⁾.

ومما وجد في مناطق الثغور في الدار التي أنشأتها أم الخليفة المعتز 252-255هـ/866-868م، خزانة للسلاح تظهر في أيام الأعياد وعند ورود الرسل من الروم، فيها الدروع الحسنة تستر الفارس والفرس، والعمد المذهبة، والجواشن التبنية، والخوذ المنيعة، ومن الأسلحة كل نوع يحمل كل غلام ما يعاني العمل به⁽⁵⁾.

أمّا عن الأسلحة الهجومية الخفيفة، فبرع أهل تلك المناطق في صناعة العديد منها، وتتألف من: السيوف ومنها المصقولة والمحدبة⁽⁶⁾، وقد اشتهر من مدن الثغور ثغر سلوقية بصناعتها، والظاهر أنّه لتوفر المواد الأولية من جهة، واستمرار الحروب في المنطقة من جهة أخرى، وزيادة الطلب عليها فقد

(1) مروج الذهب، ج4، ص564

(2) العبيدي، المقال السابق، ص(197-230)

(3) علي فريد وجدي، المرجع السابق، ج2، ص454

(4) جبران مسعود، المرجع السابق، ص358، 195

(5) الطرسوسي، المصدر السابق، ص26

(6) العبادي، المرجع السابق، ص141

استمرت هذه الصناعة⁽¹⁾.

والرماح ومنها الرماح القننا، والقنطاريات المدهونة المذهبة وهي القصيرة، ومنها المزاريق، والفريجيات، والضواري، والصبربرات؛ وهي الرماح الطويلة المخصصة للطن، أمّا الفؤوس فهي سلاح له رأس نصف مستدير مبسط حاد النصل، مقبضه خشبي مستدير وأحيانا يتخذ من الحديد، وتسمى أيضا الفأس بلطة أو طبر⁽²⁾.

وكذلك الأقواس والنشاب فهي آلات لقذف النشاب ذات نصول مثلثة الأركان، وهي أنواع منها قسي الزيار المصنوعة من خشب السنديان وهي أشدها رميا، ومنها: القوس العقّار، والجرخ، والرّجل، ومنها قسي لرمي قوارير النفط وتصنع من خشب الصنوبر، وكذلك الطبرزيينات (الفؤوس)، والمعاول، والكلايب والباسليقات⁽³⁾، وقد وُجد بطرابلس سوقا خاصا بصانعي الأسلحة⁽⁴⁾.

أمّا الأسلحة الهجومية الثقيلة والتي استخدمت في حصار المدن، فمنها: المنجنيقات⁽⁵⁾، والعرادات⁽⁶⁾،

(1) ياقوت الحموي، المعجم، م3، ص242

(2) العبادي، المرجع السابق، ص140، 141

(3) فالأولى نوع من الخطاطيف الحديدية التي كان يستخدمها البحارة للرمي على مراكب العدو لجذبها وشدها والعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلايم من الحبال لمقاتلة ملاحها، أمّا الباسليقات فهي سلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من حديد، كانت تستخدم في القتال على سطح السفن، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج2، ص374

(4) خرايشة، المرجع السابق، ص243

(5) من أسلحة الحصار الثقيلة ترمى بواسطتها الحجارة والأنفاط، وهي آلة لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل، وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر، يجذب حتى ترتفع أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة، فيخرج الحجر أو النفط منه، فما يصيب شيئا إلاّ عصف به عصفاً، أنظر: جبران مسعود، المرجع السابق، ص772-

خرايشة، المرجع السابق، ص164

(6) ج عرادة، أصغر من المنجنيق، ترمي بالحجارة والسهم، وقيل هي من التعرید بمعنى العدو، وقد تستخدم لرمي قدور النفط أو العقرب أو نحوها من آلات الأذى، فإن كانت المقذوفات خفيفة ثقلوها بالرصاص، وإن كانت من السوائل كالنفط ونحوه استخدموا لها كفة، وكانوا يجعلون في أعلى السواري صناديق مفتوحة من أعلاها يسمونها التوابيت يصعد إليها الرجال قبل استقبال العدو، فيرمون العدو بالأحجار وهم مستورون بالصناديق، وقد يكون بدل الحجارة قوارير النفط للاشتعال، أو جرار النورة؛ وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنخ يرمون بها المراكب فتعمي الرجال بغبارها، وقد تلتهب عليهم إذا تبددت، أو يرمون عليهم الحيات والعقارب أو الصابون اللين، أنظر: عبد الفتاح عبادة، المرجع السابق، ص8

والدبابات⁽¹⁾.

3- صناعة الزجاج:

عُرفت صناعة الزجاج بمناطق الثغور منذ العصور القديمة، ونشطت خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، ومما ساعد على ذلك وفرة المواد الأولية اللازمة لها، فيذكر ياقوت⁽²⁾ أنّ رمل مدينة حلب كان يستعمل في الصناعات الزجاجية، وكان يضرب بزجاج الشام المثل في الصفاء والرقّة⁽³⁾.

واشتهرت العديد من مدن الثغور بتصنيعه كأنطاكية وصور وطرابلس، واشتهرت صيدا وصور بزجاجها الذي لا يدانيه زجاج في رفته وصفائه⁽⁴⁾، وبرع الزجاجون في صناعة الأواني والتحف الزجاجية، حتى عُدد سوقه بحلب من العجائب، إذا مرّ به الشخص لا يريد مفارقتها، لكثرة ما يرى من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة التي تحمل إلى سائر البلاد للتحف والهدايا⁽⁵⁾، واستمرت صناعته في هذه المناطق حتى أنّ التجار الفرنج كانوا يستوردونه من طرابلس-سوق المزوقين- في القرون اللاحقة ويصدرونه إلى دول غرب أوروبا⁽⁶⁾.

4- صناعة النحاس:

وُجد معدن النحاس في مناطق الثغور في عرقة وعكا وفي حلب، واستعمل في صناعة الأواني المنزلية، فكان الصفارون يصنعون القدور، والمقال، والأقداح، والأسطال، والآنية، والصناديق...⁽⁷⁾،

(1) هيكل ضخّم من الخشب السميك، مغطى بقطع من الجلد أو اللبود من الجوانب لحماية الجنود الذين يعملون تحته، وكانت تتحرك على بكرات أو أسطوانات خشبية، فتدفع إلى الأمام حتى تلتصق بالأسوار، استخدمها المسلمون لنقب أسوار المدن، أنظر: ذنون طه عبد الواحد، تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي، مجلة المورد، ع1، ج17، 1988، ص22

(2) المعجم، م1، ص426

(3) عبد الملك أبو منظور الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، (د،ط)، القاهرة، (د،ت)، ص532

(4) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص141

(5) المهلي، المصدر السابق، ص99

(6) محمد أبو الفرج العشي، الزجاج السوري، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ع1، سوريا، 1966، ص25

(7) الخرايشة، المرجع السابق، ص244

وما يؤكد رواج هذه الصناعة هو وجود سوق النحاسين بجلب أين كان يصنع ويبيع⁽¹⁾.

5- صناعة الأواني الفخارية والخزفية:

وردت لفظة الفخار بمعنى الخزف، والخزف بمعنى الفخار في مصادر اللغة؛ فهي عند الرازي⁽²⁾:
الفخار والخزف والخزف، بمعنى الجر⁽³⁾، ووردت في معجم الرائد⁽⁴⁾: الفخار الخزف، والخزف هو
الفخار، والخزفي هو صانع الخزف وبائعها⁽⁵⁾.

وقد برع الفخارون في إنتاج أنواع عديدة من الأدوات والأواني الفخارية، لتلبية احتياجات الناس
ورغبتهم، ومن جملة ذلك: القدور، والقوارير، والقناديل، والمصابيح، واشتهرت من مدن الثغور في
صناعتها طرسوس⁽⁶⁾ ومدينة حارم⁽⁷⁾.

6- فن العمارة وصناعة البناء:

عزّف ابن خلدون⁽⁸⁾ هذه الصناعة فقال: «هذه صناعة أول صانع العمران الحضري وأقدمها، وهي
معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن، والأوى للأبدان في المدن، وذلك أنّ الإنسان لما جبل
من الفكر في عواقب أحواله، لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت
المكثفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها».

والواضح أنّ البناء من الحرف التي عرفها الإنسان منذ القدم، ذلك أنّ الحياة بما فيها من مخاطر،
وحر وبرد، دفعت الإنسان إلى صناعة مأوى يحميه من الأذى، وارتبطت هذه الصناعة بأهل الحضرة،

(1) خير الدين الأسدي، أحياء حلب وأسواقها، تح: عبد الفتاح رواس قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،
(د، ط)، دمشق، 1984، ص 240- يذكر المقرئ أنه عندما أغار السلطان بيبرس سنة 664هـ/1265م على طرابلس كان

من بين ما غنموه النحاس والصناديق، أنظر: السلوك، ج 1، ق 1، ص 545

(2) مختار الصحاح، ص 245

(3) الرازي، المرجع السابق، ص 93

(4) جبران مسعود، ص 594

(5) نفسه، ص 334

(6) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 26، ص 19

(7) الحموي، المعجم، ج 1، ص 158

(8) المقدمة، ج 2، ص 103

بما في ذلك مدن الثغور لحاجة ساكنيها للاستقرار في ذلك الشق البعيد، واتخاذ الدور والمنازل والمسكن لينزلوها وقت الحملة، بل وتعدت إلى منجزات عمرانية أخرى؛ كالمساجد، والقلاع، والحصون، فمدن الثغور عبارة عن مسالح، وقلاع، وحصون، ومدن عسكرية، ومراكز لإقامة الجيوش، والواقع أنّ غالبيتها عند تأسيسها تزود بمساجد لما لها من دور ديني وعسكري.

وكان من الأمور المدعية في بناء مدن الثغور، أن يكون البناء صيفا لصلاحيه الفصل للبناء من ناحية الجفاف، بالإضافة إلى أنّ أيام الصيف أكثر مدة من أيام الشتاء، وكان يزود البناء لمرفق الحيوية، ويفضل الحجر لبناء أسوار المدينة، وأبراجها، وقلعته الرئيسية لكي تصمد أمام هجمات العدو، أمّا البيوت فتنى باللبن، أو الآجر، أو الحجر حسب الإمكانيات المتوفرة في تلك المناطق⁽¹⁾. وكانت تتخذ الخطط لبناء السكن، وهي على ثلاثة أنواع:

أ- الخانات: تعني كلمة خان؛ القصر أو البيت أو الفندق، ويقال أنّ أصلها باندوخيتو⁽²⁾، ويذكر البلاذري⁽³⁾ في وصف أحد الثغور الشامية القريبة من أنطاكية: «كانت منازلها كالخانات» أي أنّ الكلمة كانت متداولة أثناء فترة الدراسة، بينما شاع استخدامها الكلمة منذ القرن 6هـ/9م⁽⁴⁾.

غير أن ابن جبير⁽⁵⁾ وهو الذي عاش في الفترة بين (540-614هـ/1145-1217م) أطلق على هذه التسميات اسم القيسارية: «ولا سيما قيسارياتها، وهنّ مرتفعة كأثما الفنادق مثقفة، كلها بأبواب من حديد كأثما القصور»، ما يدل على وجود هذا النوع من المنشآت خلال فترة الدراسة بالثغور.

ويلاحظ في القواميس والحوليات، أنّ الخان كان يطلق عليه في بلاد الشام اسم فندق، على أنّ هذه التسمية لهذه المنشآت كان لها وظيفة رئيسية واحدة، هي استقبال المسافرين، وتأمين راحتهم وبضاعتهم، إلا أنّ هناك دور آخر لهذه المنشآت وهي استعمالها كثكنة عسكرية أطلق عليها اسم

(1) جهادية القوة غولي، المرجع السابق، ص210

(2) لطفی فؤاد، خانات بلاد الشام، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2013، ص19

(3) فتوح البلدان، ص170

(4) لطفی فؤاد، المرجع السابق، ص9

(5) الرحلة، ص207

رباط، وبعد استقرار الفتوحات دل على الحصون والقلاع والمحارس وغيرها المقامة على الحدود الإسلامية⁽¹⁾.

ب- الخِطَط: (ج) خِطَّة، وهي الأرض التي يخطها الرجل لنفسه وهو يعلم أنه احتازها داراً، ومنها خطط الكوفة والبصرة كما ورد في معجم اللغة⁽²⁾، ووردت بمعنى الأرض التي تنزلها ولم ينزلها أحد قبلك، وهي الأرض التي يخطها الإنسان لنفسه⁽³⁾، أمّا معناها الاصطلاحي فهي قطعة من الأرض تتسع للأسرة الواحدة مساحتها 201 ذراع (92م)⁽⁴⁾.

ج- العِرافة: تتألف من أربعة بيوت، بيتان سفليان، وبيتان علويان، واسطبل، وتقسم العرافة على الحجرات بمعدل ثلاثة أفراد لكل حجرة (بيت)، ويبدو أنّ الاسطبل مشترك بين الجميع⁽⁵⁾.

والظاهر أنّ المواد التي استخدمت في بناء المساكن بمناطق الثغور لم تقتصر على اللبن والأجر والحجر فقط، فقد وجدت في المنطقة حرفة صناعة القرميد الذي تغطي به سطوح المنازل في طرابلس واللاذقية، والكلس الذي يكثر في المناطق المحيطة بطرابلس والذي استعمل بكثرة في بناء البيوت وتبييضها من الداخل والخارج⁽⁶⁾.

وفي صيدا ورد استعمال البنائين للحجر الرملي من مقالع الأحجار، وكانت الحجارة تلصق فوق بعضها البعض بالحصى المخلوط مع الرمل، واستعملت الأخشاب في الجسور، والألواح للسقوف، والمنجور من اللون الأحمر للقش⁽⁷⁾، كما عرفت مدن اللاذقية وطرابلس صناعة الرخام ذي اللون الأبيض والأخضر الموشى والمزخرف الذي كان يستعمل في تزيين المدارس والمساجد⁽⁸⁾.

(1) لظفي فؤاد، المرجع السابق، ص 9

(2) جبران مسعود، المرجع السابق، ص 339

(3) الرازي، المصدر السابق، ص 96

(4) جهادية القرّة غولي، المرجع السابق، ص 210

(5) نفسه

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج 4، ص 143

(7) لظفي فؤاد، المرجع السابق، ص 111

(8) شيخ الربوة، المصدر السابق، ص 209

المبحث الثالث: الحرف

1- حرفة طحن الغلال:

كانت حرفة طحن الحبوب، من الصناعات المنتشرة بمناطق الثغور خلال العصور المختلفة، وقد ساعد ذلك على وفرة المواد الأولية اللازمة، إذ انتشرت زراعة الحبوب في مختلف المناطق - كما ذكرنا آنفا- لأهميتها وضرورتها في الحياة اليومية، فأنشئت لهذه الغاية العديد من المطاحن، فلم تكن تخلو أي مدينة أو قرية من المطاحن والأرحاء التي تستخدم لطحن الحبوب والغلال، والتي كانت تدار إما بقوة الماء أو الحيوانات أو الرياح، وإن كانت الأرحاء المائية هي الأكثر استعمالا في المنطقة، بسبب وفرة مياه الأنهار والعيون، ومجاري المياه المختلفة⁽¹⁾.

فكثرت وجودها على جميع أنهار بلاد الشام التي هي جزء من المنطقة؛ كنهر بردى، ونهر أبو علي الذي أنشئت عليه العديد من المطاحن من منبعه حتى مصبه، ونهر إبراهيم والعاصي والأعوج وغيرها من الأنهار، وفي مناطق أخرى كطاحون الفتحية، وعين نور الدين في جهات حصن الأكراد، وطاحون على نهر عرقة، وآخر في مدينة اللاذقية⁽²⁾ تدار بقوة الهواء، كما هي العادة في طواحين الفرنج، وكانت هاته الأرحاء قليلة الاستعمال، أما التي تدار لقوة الحيوانات فكثيرا ما كانت تستخدم لتلبية حاجات الجند أثناء الحملات العسكرية⁽³⁾.

وكانت الطواحين في بلاد الشام نوعان؛ منها ما يطحن الطحين السوقي وقد اختص به خادم الرحي الذي عرف باسم الطحان، وكان يستأجر الطواحين من أصحابها، أو تكون ملكا له يشغلها لنفسه، فيرسل الدواب الموجودة عنده مع أحد الصناع المعروف بالسواق، فيأتي بالحنطة إلى الطاحون، وبعد أن ينظفوها ويطحنوها يفرقونها أصنافا منها: الكماجة، والدقاقة، والناعمة، وما يخرج من النخالة، ثم يملؤها في العدول ويذهب به السواق فيرقها على الفرانة كل حسب طلبه من أي صنف،

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص86

(2) الخرايشة، المرجع السابق، ص242

(3) ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني، أعمال الأعمال في بن بوبع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح:

ليني بروفنسال، دار المكشوف، (د،ط)، بيروت، 1956، ص100

وقد انطوى على أصحاب هذه الحرفة من الغش الواضح البين، وهو طحن أصناف الحبوب التي قيمتها دون الحنطة كالذرة والناعم من طحين البرغل وما يبس من البطاطا، وإدخالها مع طحين الحنطة وبيعها إلى الفرّانة، ومنها ما يطحن الطحين البيتي، وأمّا البيتي وهو الغالب فإنّهم كانوا يشترون الحنطة مؤنة عام أو نصفه، ويعتنون بتنظيمها وغسلها وإرسالها إلى الطحان البيتي فيطحنها ويعيدها إلى صاحبها، فيعطي على كل مد(سنة أرتال شامية) مبلغا من الدراهم على حسب الوقت⁽¹⁾.

2- الصناعة الجلدية:

كان لوفرة الأغنام والأبقار وأصناف الماشية الأخرى، أثر بالغ في ازدهار الصناعات الجلدية في مناطق الثغور، فكان الجلد في أول مرحلة من تصنيعه يخضع لعملية أخذ ما عليه من صوف أو شعر، لذا أطلق على محترفي هذه الصناعة اسم الصوّافين، والشّعارين، وقد استخدم هؤلاء مواد مساعدة تعين على نتف الصوف والشعر من الجلد بسهولة مثل الجير والشب أو باستخدام آلات خاصة⁽²⁾.

وبعد أن تجهز الجلود تأتي المرحلة الثانية، وهي عملية دباغة الجلود والتي كانت تتم غالبا خارج أسوار المدن، لما ينشأ عنها من روائح كريهة، وعرف أصحابها بجماعة الدباغين، ومحلها يقال له مدبغة، وهي من الحرف الأساسية في الصناعة الجلدية.

وقد اشتهرت أكثر من مدينة ثغرية بهذه الصناعة، فاختصت طرابلس وبعض المناطق المحيطة بحرفة الدباغة⁽³⁾، واشتهرت المصيصة بصناعة السروج واللحم التي تشد على الخيول والدواب⁽⁴⁾، وبصناعة الفراء⁽⁵⁾، وطرسوس بصناعة الدروع التي امتازت بجودتها⁽⁶⁾، وفي رصافة هشام كانت تصنع الجوالق والمخالي⁽⁷⁾، إذ لا تحفى أهمية هذه الصناعة وضرورتها في حياة المجتمع الثغري.

(1) القاسمي، المرجع السابق، ص 290، 291

(2) مصطفى زغلول جهاد غالب، المرجع السابق، ص 94، 95

(3) الخرايشة، المرجع السابق، ص 243

(4) المهلي، المسالك والممالك، ص 98

(5) ابن الجوزي، المنتظم، ص 251

(6) الذهبي، تاريخ، ج 26، ص 19

(7) القزويني، آثار البلاد، ص 198

أمّا عن عملية الدبغ فتتم بعد أن يؤتي بالجلد القريب العهد بالسليخ فينقع بالماء يومين أو ثلاثة، أمّا إن كان بعيد عهد أو مملحا أو محففا فينقع من ثمانية أيام إلى عشرة، فإن أمكن نغعه في نهر كان أحسن وإلاّ فتصنع له أحواض كبير وتملأ بالماء وينقع فيها، وحينئذ يكون قد لان فيوضع على لوح من خشب على شكل نصف الدائرة، ويركز الطرف الواحد من اللوح على الأرض والطرف الآخر على سبيبة، بحيث يكون مائلا ويدار باطن الجلد مما يلي اللحم إلى الأعلى، والذي يلي الشعر إلى أسفل، ثم يأخذ الدباغ سكيناً مخصوصة ذات نصابين تعرف بسكينة الدباغة ويكشط بها عن باطن الجلد ما التصق به من الأغشية والمواد الدهنية، وفي خلال ذلك ينعصر جانب عظيم من الماء الذي تشربه الجلد، و بعد الفراغ من تنظيفه يردّه إلى الماء ويقيه أربعاً وعشرين ساعة، ثم يعيد العمل المذكور ويغسل جيداً ويترك ليحجف، ومنهم من يستغني عن هذه الأتعاب بآلات مخصوصة⁽¹⁾.

وأكثر الجلود استعمالاً في المصنوعات الجلدية هي: جلود الظأن، والماعز، والبقر، والثعالب، وبنات آوى، والنسور إضافة إلى جلود الأسماك⁽²⁾ ونظراً لتوفرها قامت حرفة الخرازة⁽³⁾، إضافة إلى الصناعات الحربية كتغليف أعمدة السيوف وصناعة التروس والكنائن (جعبة السهام) وتصنع عادة من الجلد⁽⁴⁾.
ووجد في مدن الثغور حرفة صناعة الأحذية، ويعرف صاحبها باسم الإسكافي والأسكوف والسكّاف والسيكف ومعناه الخفّاف أي صانع الخفاف⁽⁵⁾، ومن أنواع الأحذية الأقران⁽⁶⁾، والخفاف.

(1) القاسمي، المرجع السابق، ص 140، 40

(2) أنظر: جهاد غالب الزغلول، المرجع السابق، ص 96- كرد على، خطط الشام، ج 4، ص 206

(3) جاء في تعريفها أنّها من الحرف التي لا بد من توافرها في الصناعة الجلدية، وذلك أنّ جميع منتجات الجلود لا بد من مرورها على الخرازين لصنع أشياء منها: الأحذية والأحزمة والأثاث، أنظر: عبد العزيز بن إبراهيم العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، دار اشبيلية للنشر والتوزيع، ط 3، الرياض، 2000، ص 282

(4) ابن سيده، المخصص، ج 2، ص 67

(5) جمع خف، ويقال لصانعها الخفّاف والخراز، والمواق (ج موق)، وهي أحذية غليظة تصنع من الجلد وتلبس فوق الخف، أنظر:

جبران مسعود، المرجع السابق، ص 781

(6) نوع من النعال تفصل من الجلد وتحرز بخيوط القنب، ويتخذ بها كعب من الجلد البقري يثبت بواسطة الغراء ويعرف صانعها بالقراق، أنظر: ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، (د، ط)، بيروت، 1997،

ق 1، م 1، ص 805

3- النجارة وأعمال الخشب:

حظيت صناعة النجارة وأعمال الخشب بمكانة مهمة في المجتمعات الثغرية، وقد ساعد على ذلك وفرة الأخشاب، حيث أنّ الغابات الكثيفة المحيطة بمدن الثغور تمثل مصدرا رئيسيا لها، بالإضافة إلى وجود الأيدي العاملة الماهرة، وازدهار الحركة العمرانية، والنجارة حرفة مكتملة للعديد من الحرف الأخرى، كالبناء فلا يتواجد أي بناء إلا ودخلت فيه منتوجات النجارة: كالأبواب، والنوافذ، والأثاث، والمنابر في المساجد، والأواني، والسقوف.

وقد تقدم المسلمون كثيرا في مجال النجارة وأعمال الخشب، فبرع النجارون في صناعة أثاث البيت، والأدوات المنزلية المتنوعة، وغير ذلك من الأدوات المستخدمة في حياة الإنسان، والتي تعد من ضروريات العمران البشري⁽¹⁾، فكان النجارون يصنعون: الخزائن، والصناديق، والأقفال، والمفاتيح، والسلالم، والكراسي، والطاولات، والمشاجب التي تعلق عليها الثياب، والأسرة، والأكواب، وأطراف المقابض، وأدوات المطبخ؛ كالملاعق، والمهارس، والقصاع، والأدوات الزراعية؛ كالمذرى، والمحراث، وبعض أدوات الغزل والنسيج؛ كالنول، والمغزل، والمنسج، وبرعوا في صناعة الأبواب، والشبابيك والسقوف⁽²⁾، وفي صناعة السفن والمراكب.

كما استخدم الخشب في صناعة الفحم النباتي والذي اعتبر من الذخائر التي يجب خزنها في القلاع لاستعمالها وقت الحاجة⁽³⁾، وكانت طريقة إعداده تتم كما يلي؛ يقوم الفلاحون بقطع الأشجار بأطوال محددة، ترص في كهوف خاصة، وتوقد فيها النار بعد إغلاق الكهف إلا من فتحة صغيرة، يتم من خلالها إيقاد النار وتغذيتها بالحطب الصغيرة، وتبقى على هذه الحال مدة يبرد معها الفحم، ويتسرب غاز ثاني أكسيد الكربون من الكهف، ثم ينقلونه إلى المدن والقرى لبيعه، بعد وضعه في أكياس، ويروج جدا في فصل الخريف، وذلك لإعداده لفصل الشتاء⁽⁴⁾.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص91

(2) جهاد غالب الزغلول، المرجع السابق، ص103

(3) غوانمة، المرجع السابق، ص112

(4) القاسمي، المرجع السابق، ص90

ومن استخدامات الخشب أيضا صناعة فن الحفر على الخشب، حتى أنّ الغربيين كانوا يتعجبون من شغل الأبنوس (يقال له السّاسم وهو خشب معروف) وتزيينه بالعاج والصدف، وكانت هذه الأخشاب تستورد من بعلبك وتحمل إلى دمشق بكلفة كبيرة⁽¹⁾، واشتهرت من مدن الثغور طرسوس بالصناعات الخشبية حتى سمي بها شارع بشارع النجارين لكثرة من يعمل بصناعة نجارة الخشب⁽²⁾، وكذلك بالس، وقليقية ذات الغابات الكثيفة⁽³⁾.

4- صناعة الحبال:

من بين الحرف التي برزت بمناطق الثغور حرفة صناعة الحبال، وكان لها أهمية كبيرة؛ من حيث أنّها كانت تستخدم في الغزو لاقتحام الأسوار، وربط السفن، وتوثيق الأسرى، وغيرها من الاستخدامات الأخرى في الحياة اليومية، وأطلق على محترف هذه الصناعة بالحبال، وهو يصنع مختلف أصناف الحبال كالمرس والخيوط المصيص، والحبال تصنع عادة من النخيل، والكتان، ومن قصب القنب الذي تشتهر به مدن الثغور كعين زربة، وهو يزرع كسائر الحبوب، فيبذر حبه في أوائل فصل الربيع ويسمى بالقنيس، ثم يتعاهد بالماء سقيا في نوبات معروفة أسبوعيا فينبت ويعلو نحو قامتين ويدرك مع فصل الخريف، وأكثر زرعه في القرى الغزيرة بالماء، و بعد قطعه ينقع في الماء في مستنقعات معدة له مدة معلومة حتى يتحلل لحاؤه من أغصانه، ثم تأخذ تلك اللحاء وتجفف وتباع للحبال، فيأخذونها ويمشطونها بمشط من حديد معد لذلك، وبعد التمشيط يبقى اللحاء الخالص كشبه الحرير فيصنعه حبالا بالبرم بدواليب مخصوصة، وينوعونه من جميع الأصناف، وما تبقى من اللحاء يباع للكلس والمونة التي توضع على الجدران⁽⁴⁾.

5- حرفة الصباغة وصناعة الألوان:

استفاد المسلمون من تفوقهم في الكيمياء في ميدان الصناعة، فبرعوا في تركيب الأصباغ المختلفة

(1) نهي محمد حسين مكاحلة، المرجع السابق، ص 281

(2) الطرسوسي، المصدر السابق، ص 38

(3) الرواضية، المرجع السابق، ص 207

(4) محمد سعيد القاسمي، المرجع السابق، ص 336

الألوان، مستفيدين في ذلك من وفرة النباتات التي تدخل في صناعاتها⁽¹⁾؛ كالبقم⁽²⁾، والنيلج (النيلة)، والزعفران، والعُصفر⁽³⁾، وقشر الرمان، فاستخلصوا اللون الأحمر، والأزرق، والأصفر الذهبي، وعرفوا الألوان المركبة، الأمر الذي أكسب ملابسهم الألوان الزاهية الفاخرة.

وكانت المصابغ تقام عادة خارج أسوار المدن، بالقرب من مجاري الأودية والأنهار، تفاديا للروائح الكريهة من جهة، وتسهيلا لعملية الصباغة التي تعتمد أساسا على المياه من جهة أخرى، وكان الصباغون يخضعون لرقابة المحتسب المباشرة، فكان يفرض عليهم أن لا ينشروا الثياب المصبوغة المبلولة على الطرقات⁽⁴⁾، ومن مواد الصباغ غير النباتية القرمز⁽⁵⁾، الذي كان الصباغون يجمعونه من شجر البلوط، ويستخلصون منه اللون الأحمر، واستغل بعضهم الرماد لتبييض غزل الصوف⁽⁶⁾، وكان القماش يصبغ على أشكال متعددة، فمنه: صباغ النيل الذي يصبغ أصناف الخام باللون الأزرق لا غير، واشتهرت مدينة أريحا من مدن الثغور بزراعته بغرض استخراج صبغة النيل منها⁽⁷⁾، صباغ الملون وهو يصبغ ألوان الحرير والغزل على أشكال منها؛ الأحمر، والأصفر والأبيض، والذهبي، والبردقاني، والكحلي، واللازوردي، وغيرها، صباغ الأسود الذي يصبغ بالأسود فقط⁽⁸⁾.

7- تربية دودة الحرير:

اشتهرت العديد من مدن الثغور بصناعة المنسوجات الحريرية - هذا ما تم التطرق له في المبحث السابق -، لاهتمام أهلها بتربية دودة القز، والتي تتغذى على أشجار التوت، وقد زرعت في المنطقة

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 109

(2) يقال له العنّدم، وهو شجر يصبغ به، ومن أسمائه الكاذي، والجريال، أنظر: كوكب دياب، المرجع السابق، ص 38

(3) يسمى أيضا البهرمان، وهو نبات يصبغ به، منه ريفي ومنه بري، أنظر: كوكب دياب، المرجع السابق، ص 172

(4) أحمد بن عبد الله ابن عبد الرؤوف، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (د، ط)، القاهرة، 1955، ص 131

(5) القرمز فارسي معرب، وهو صبغ أرمني أحمر، يقال أنه من عصارة دود يكون في آجامهم، ويقال أنه حيوان تصبغ به الثياب فلا يكاد ينصل لونه، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، م 5، ص 394

(6) جهاد غالب الزغلول، المرجع السابق، ص 130

(7) أبي الفداء، تقويم البلدان، ص 236

(8) محمد سعيد القاسمي، المرجع السابق، ص 267

بشكل كبير، وخاصة في مدن الساحل: كأنطاكية، وطرابلس، وعسقلان، وصور، وفي بعلبك، ومنبج على الخصوص، وقد اعتنى سكان هذه المنطقة عناية فائقة بتربية دودة القز، وزراعة أشجار التوت التي تشكل مصدر الغذاء الرئيسي لها، ويتعذر الفصل ما بين صناعة الحرير وزراعة أشجار التوت وتربية الدود، فزراعة التوت موغلة في القدم وكانت منتشرة في المنطقة ساحلا وجبلا، كما أنّ تربية دودة الحرير قديمة في المنطقة⁽¹⁾.

أمّا صناعة الحرير فتمر بذلك بمرحلتين رئيسيتين؛ الأولى: تتمثل في زراعة أشجار التوت، من أجل إنتاج وتربية ديدان القز بغرض إنتاج الحرير، وتتمثل الثانية في إنتاج البيض الذي يتحول إلى يرقات، ثم ديدان تنتج الحرير الطبيعي، ومن الطرق المتبعة في ذلك هو ترك كمية من الفيالج⁽²⁾ تنضج اليرقات بداخلها، فتخرج منها فراشات بيضاء يتركونها تبيض على قطع من القماش قبل أن تنفق بعد وقت قصير، ثم يحتفظون بهذه البيوض إلى أن يحل موسم التربية فيعقلون ما في قطع القماش فوق المدافئ، ويتركونها عرضة للدخان حتى تفقس ديدان دقيقة سوداء يسارعون إلى إطعامها ورق التوت مفروما قطعاً دقيقة جداً، حتى إذا كبرت أطعموها ورق التوت من دون فرم، وهم خبراء بفترات صوم الدود وفترات شراسته إلى التوت، وحتى أنّهم يضبطون ذلك بأمثالهم فيقول سكان بلاد الشام: «ليلة الخمسة كبري الكمشة، وليلة الستة اكمشي وحطي، وليلة السبعة ما لها شبعة، وليلة الثمانية عجوز ثانية، وليلة التسعة راح صاحبي يسعى أي في بيع الشرائق، وليلة العشرة أكلتها فشرة قليلة»⁽³⁾.

(1) مجموعة مؤلفين، لبنان مباحث علمية واجتماعية، المطبعة الأدبية، (د،ط)، بيروت، 1334هـ، ج2، ص44

(2) الفيالج هو جمع فليجة، ومعناها بيت من حرير تنسجه دودة القز على نفسها، أنظر: جبران مسعود، المرجع السابق، ص612

(3) وحتى موسم التربية كانت مضبوطة بالأمثال كذلك، فيقولون: شيلي من آذار(مارس)، وشيلي من نيسان(أبريل) لقز الساحل، وفي عيد البشارة(25 آذار) بزركم يا بزارة، وعيد البشارة إن كان في غيم دؤر الكارة ما يبطلع القز ولا شكارة....ونوار شرنقة، ومشمشة، وشك تين، وعشرة في نوار قزة وسنبلة وزر خيار، وتأتي المرحلة النهائية من تربية الدود، وهي عملية التشييح قبل عملية حل الحرير من الفيالج، والتشييح صعود الدودة إلى أغصان الصنوبر وقد قطعت ووضعت على أطراف أطباق تربية الدود، وعليها ينسج الدود خيوطه فيالج، يفترض قطفها وتحنق اليرقات بداخلها قبل خروج الفراشات، لأنّ ذلك من شأنه قطع خيط الفيالجة، وجعله آلافا من الخيوط القصيرة التي لا تنفع في الغزل، أنظر: مجموعة مؤلفين، لبنان، ج1، ص195

المبحث الرابع: أوضاع الصناع والحرفيين

يشكل الفلاحون والرعاة الشريحة الدنيا من شرائح المجتمع المنتج، ويليهما في الأهمية صغار التجار والحرفيين الذين يغطون بمنتجاتهم السوق المحلي، وفوق هؤلاء يأتي أصحاب الحرف الصناعية، وباستثناء الفلاحين كانت كل الشرائح الاجتماعية تعيش وتعمل في المدن، يشكلون مع رجال الدين والجنود عامة السكان، وكانت الحياة اليومية للجميع بكافة نشاطاتهم تسير وفق نمط واحد دون فروق، كما هو حال مدن الثغور والتي رغم وظيفتها العسكرية والجهادية إلا أنها عرفت قيام مجتمعات قائمة بجالها لا تختلف في حياتها عن باقي أقاليم الدولة، فقد فكانت التنظيمات الحرفية تنظم نشاط الجميع، وكان شيوخ مختلف الأصناف الحرفية والمسؤولين الذين تعينهم الحكومة للإشراف على الحياة الاقتصادية يشكلون معا حكومة مدنية، فكل صغار التجار والحرفيين ينتمون في أصناف منظمين تنظيمًا صارمًا⁽¹⁾.

1- المقصود بالتنظيم الحرفي:

استعملت مصطلحات متنوعة للدلالة عن التنظيمات الحرفية، فكان يشار إليهم بأهل الصنائع، وأصحاب الصنائع والمهن، وأهل الصناعات، ويشار إليهم كذلك بالأصناف⁽²⁾، والطوائف (النقابات)، والنقابة في الشرق تسمى حرفة أو صنفاً، وأساسها عقد تأسيسي يحدده العرف ويسلم به الداخلون في الجماعة ويقسمون على احترامه⁽³⁾، وهي مؤسسة نقابية تقوم بتنظيم الحرفة، وحفظ أسرارها، وتثبيت أسعار عادلة للمنتجات الصناعية، والحفاظ على مستوى الصناعة البشرية⁽⁴⁾.

(1) علي كامل حمزة السرحان، التنظيمات الحرفية في العراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة بابل للدراسات الحضارية والإنسانية، ع7، العراق، 2017، ص(124-161)

(2) الصَّنْف والصَّنْف: النوع والضرب من الشيء، والجمع أصناف وصنوف، والصنف طائفة من كل شيء، وكل ضرب من الأشياء صنف على حدة، أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص198

(3) ليفي بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، المطبعة الأميرية، (د،ت)، القاهرة، 1951، ص89

(4) صباح إبراهيم الشخيلي، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، بحث في التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي، دار الحرية، (د،ط)، (د،ت)، بغداد، 1976، ص69

2- تطور التنظيمات الحرفية:

إنّ الحديث عن تكوين نقابات في هذه الفترة قد يكون سابقا لأوانه، إلا أننا نلاحظ شيئا من التكتل والتنظيم بين أصحاب الحرف والصناعات، وأواخر القرن 3هـ/9م، وخلال القرن 4هـ/10م أين كانت أوسع انتشارا، فهناك شعور بروح الجماعة بين أهل الصنائع وكل واحد يشعر بصلة تربطه بإخوانه، وكان أصحاب الحرفة الواحدة يكتفون بجهة واحدة ترغب في التجمع في مكان واحد لما بينها من روابط ومصالح مشتركة، من أجل حماية أنفسهم وتنظيم شؤون حرفهم، ما أدى إلى نشر روابط بينهم كانت تنفعهم في حياتهم المهنية وقويت الرابط بينهم⁽¹⁾.

وبنمو المدن الثغرية وتوسعها وتطور الحياة المدنية بها، توسع العامة وازدادت أهميتهم، وبما أنّ الصناعات يشكلون المجموعة الرئيسية بين العامة، فقد أدت ظروف عملهم والمشاكل التي واجهتهم وتطور الحياة الاقتصادية إلى تقوية الشعور المشترك والتماسك وتنمية تنظيماتهم، فعاش الجميع في محلة واحدة، وحرصوا أن يكون لأهل كل حرفة سوق خاصة بهم، ولذلك اشتهرت مدن الثغور بازدهار متاجرها، وكثرة أسواقها المتخصصة، التي كانت تقام عادة بجوار المسجد الجامع والذي يعدّ مركز الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، والمنطقة التي يتوسطها المسجد وما يحوطه من طوائف حرفية هي أكثر أجزاء المدينة حركة ونشاطا، ولهذا كان لهذه الطوائف أثرها في إعطاء المدينة الإسلامية طابعا مميزا، كما كان تأثيرها على إدارة المدن ونظامها الاجتماعي⁽²⁾.

فتميزت مدن الثغور بتعدد أسواقها وتخصصها، حيث نجد لكل حرفة أو صنعة سوق، أو محلة أو شارعاً خاصاً بها: كسوق النحاسين، وسوق الحرير، والخياطين، والخيل، والنحاتين، والقطن، والغنم⁽³⁾، والزجاجين أو المزوقين وغيرها⁽⁴⁾.

(1) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص105

(2) محمد المعتصم، المدينة الإسلامية وخصائصها، حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية، ع2، قطر، 1982، ص(217-254)

(3) محمد سعيد القاسمي، المرجع السابق، ج2، ص48، 85، 154، 338، 360، 480

(4) المهلي، المصدر السابق، ص99

وذكر الأُسدي⁽¹⁾ كيف نظمت هذه الصناعات والحرف في أماكن مخصصة لكل منها، فنذكر على سبيل المثال: خان سوق النحاسين، وخان الصابون، وخان الحرير، وخان الفحم، وخان الكتان وغيرها، فمما يلاحظ في المدن التي أنشئت أنّ أسواقها منفصلة ومنظمة بشكل يجعل كل تجارة منفردة، وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم⁽²⁾.

ولم تكن الحرف والصناعات مقصورة على فئة اجتماعية معينة، وإثما كانت تمارس من جميع الفئات ومفتوحة للمسلمين وغيرهم، ويعود ذلك إلى الوراثة والظروف الاجتماعية وأحيانا إلى الدين، وكان الناس أحرارا في اختيار المهنة التي يريدون مع قوة الروابط المهنية، ما يفسر سبب توسع ظاهرة تعدد الأديان في الحرف في هذا العصر⁽³⁾.

وعلى الرغم من أنّ أعداد الأصناف كانت كبيرة في المجتمعات بما في ذلك الثغري، فأوضاعهم عامة كانت جيدة، إلا أنّ أجورهم كانت قليلة، ومستواهم المعيشي كان متدنيا⁽⁴⁾.

3- التنظيم الهيكلي للأصناف الحرفية:

إنّ التطورات التي حصلت في الحرف أكسبها تنظيمها العام الذي يتجسد في تنظيم العلاقات داخل الصنف الواحد، وعلاقتها الخارجية مع الأصناف الأخرى أو مع الدولة، لذا أوجدت في جميع الأصناف الحرفية مجموعة من الأشخاص أوكلت إليهم أداء مهام كل حسب اختصاصه، وتتميز التنظيمات الحرفية عن التنظيمات الاجتماعية الأخرى بتكوينها الهرمي المحكم، الذي يرأسه غالبا شيخ منتخب من الأساتذة البارزين في الصنف، وتندرج مراتب الحرف من الأدنى إلى الأعلى كالاتي:

أ- الصبي أو المبتدئ: وهو الولد الحديث السن، يلتحق بالحرفة ولا يعرف عنها شيئا فلا يزال في مرحلة التعلم⁽⁵⁾، وعلى الرغم من أنّ المبتدئ عادة يكون صبيا قاصرا، إلا أنّه لا توجد سن معينة

(1) المصدر السابق، ص 84، 98، 105، 187، 342

(2) يعقوبي، البلدان، ص 285

(3) ابن الجوزي، المنتظم، ج 9، ص 91

(4) سولاف فيض الله حسن، «الحرف والمهن في أسواق بغداد في العصر العباسي»، كلية التربية ابن رشد للعلوم الانسانية 57(2017)، ص 397-425

(5) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 107، 108

لا تتحاقه بالحرفة، وهناك بعض الحرف التي لا يمكن للمبتدئ أن يكون صغيراً كالطب ويطلق عليه هنا لقب تلميذ، كما أنّ بعض الأشخاص يلجؤون إلى تغيير حرفهم ويبدؤون بتعلم مهنة أخرى وهو في سن متقدمة، لذا فإنّ إطلاق كلمة المبتدئ على هذه المرحلة هي أدق من كلمة صبي، وعندما يلتحق المبتدئ مع معلمه يمضي مدة في تعلم الحرفة تتفاوت بين منطقة وأخرى؛ ففي الأناضول تتراوح بين عامين إلى ثلاثة، أمّا في العراق وبلاد الشام فلا تحدّد بزمن وإمّا بمقدار تقدم المبتدئ في التعلم، وخلال هذه المدة لا يستطيع أن يغير معلمه إلّا في ظروف خاصة تتطلب تدخل شيخ التنظيم⁽¹⁾.

ب- الأجير: عند اكتساب الصبي مهارات تمكنه من المساعدة في العملية الإنتاجية، ويثبت تقدماً في تعلم الحرفة، يبدأ بالحصول على أجر أسبوعي يزداد بزيادة مهارته، وحتى يرتقي الصبي إلى هذه المرتبة ينظم له احتفال العهد، يدعى إليه بعض أعضاء الحرفة، وفيه يفرض المعلم على الصبي مجموعة من المبادئ الخلقية التي تعزز فيه الإيمان، ويلقى مجموعة من النصائح وبعض عادات الرسول (صلى الله عليه وسلم) وينتهي بتلاوة آيات الذكر الحكيم، وغالباً ما يكون الأجير بالغ العقل يتولى إدارة شؤونه الخاصة، ويستطيع أن ينتقل في العمل من معلم إلى آخر وليس لمعلمه ولاية عليه، ويحق له اختيار تقاضي أجره، وبما أنّ أجرته تزداد بازدياد مهارته، نجده يسعى جاهداً لإتقان حرفته من جهة، ولكسب حق الارتقاء إلى درجة الصانع من جهة ثانية⁽²⁾.

ج- الصانع: هو الأجير الذي أتقن حرفته، واجتاز امتحاناً أمام هيئة التنظيم بنجاح، ونُظّم له حفل الشد - يرتدي لأول مرة اللباس الخاص بتلك الحرفة ويشدون على خصره أو يربطون عليه مئزراً - إلّا أنّه لم يصل إلى درجة المهارة التي يتمتع بها المعلم، وعندما يصل إلى هذه المرحلة يعمل كصانع مع المعلم، بموجب عقد يحدّد فيه مدة العمل، والأجرة، والكيفية التي يتقاضى بها أجرته⁽³⁾.

ويبدو أنّ مدة بقاء الصانع في هذه المرحلة متفاوتة من منطقة إلى أخرى، ومختلفة من صانع إلى آخر، يحسمها الاحتراف في الحصول على درجة المعلم، ويكون محدداً بالمهارة وحسن الأخلاق،

(1) علي كامل حمزة السرحان، المقال السابق، ص(124-161)

(2) نفسه

(3) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص107

وإتقان العمل، وامتلاك رأس المال الذي يمكّنه من فتح دكان مع توفر دكان فارغ في السوق، وبذلك يكون بإمكانه فتح حانوت خاص به والعمل مستقلاً⁽¹⁾.

د- المعلم: هو الشخص الذي بلغ ذروة المهارة في عمله، وأصبح له الحق في أن يستقيل بعمل خاص به، بعد حصوله على سند الإجازة الذي يستخدمه خاصة عند تغيير محل عمله، ويعرف في بعض المناطق بالأستاذ، واختصرت في مصر إلى أسطة⁽²⁾. في ضوء العرف السائد بين أرباب الحرف، نجد أنّ المعلم المتمرس يستطيع المشاركة في إدارة شؤون الحرفة، وعليه نستطيع القول أنّ المعلمين المتمرسين يشكلون قاعدة التنظيم الهيكلي للأصناف الحرفية⁽³⁾، حيث سماهم الدوري المتقدمون في الحرفة⁽⁴⁾.

4- الأوضاع الاجتماعية لأرباب الحرف والصناعات:

أ- التسمي بالحرف والصناعات والانتساب إليها:

إذا كان الانتساب إلى الصنعة أو الحرفة أوسع انتشاراً في عهد الخلافة العباسية، فقد انتسب كثير من الأشخاص إلى الحرف والصناعات التي كانوا يمارسونها بفئاتهم المتعددة وشرائحهم المختلفة، ومن بينهم: العلماء، والقضاة، والفقهاء، والمحدثين، والأدباء، وغيرهم ممن يحضون بمكانة رفيعة في المجتمع، الأمر الذي يدل على احترام المجتمع لهاته الفئة⁽⁵⁾.

إذ نجد في كتب التراجم والتاريخ، ألقاباً تدل على التسمية بالحرف والصناعات؛ فلقب الإمام الحافظ العلامة أبو بكر بن هاني⁽⁶⁾ تلميذ الإمام أحمد، الذي ولد في دولة الرشيد بالإسكافي، وكان الوزير عمر بن فرج الرخجي⁽⁷⁾ خبّازاً.

(1) علي كامل حمزة السرحان، المقال السابق، ص(124-161)

(2) ناصر خسرو، ص59، 60

(3) علي كامل حمزة السرحان، المقال السابق، ص124-161

(4) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص107

(5) سولاف فيض الله، المقال السابق، ص(397-425)

(6) هو الإمام الحافظ العلامة أبو بكر أحمد بن محمد بن هاني الاسكافي الأثرم الطائي، وقيل الكلبي أحد الأعلام ومصنف السنن، أنظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص624، 625

(7) عمر بن فرج الرخجي كان ممسحة الخلفاء، لأنهم يكلفونه بالمهمات القذرة، وكان معادياً لأهل البيت، صار والياً للمتوكل على مصر، أنظر: اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص485

وكان إبراهيم بن رسم⁽¹⁾ الذي دعاه المأمون إلى القضاء دباغاً، وكان الفضيل بن عياض الزاهد⁽²⁾ سقياً⁽³⁾، وبنان العطارة التي كانت تعمل بمجال العطارة تتعامل مع جميع الطبقات الاجتماعية وعلى رأسها طبقة الخلفاء العباسيين، فقد استعمل الخليفة الواثق بالله والمتوكل على الله الند -ضرب من النبات يتبخر بعوده- بناء على وصف بنان⁽⁴⁾، وهجى الشاعر بشار ابن برد العقيلي⁽⁵⁾ في ديوانه الشاعر المخضرم بين الدولتين الأموية والعباسية حماد عجرد⁽⁶⁾ بابن الأكار-أي أب امتهن الزراعة-.

أما من كان بمناطق الثغور، فيذكر ابن سعد في طبقاته⁽⁷⁾: آدم من أبي إياس⁽⁸⁾ وكان وزاقاً، أبو عثمان سعيد القارئ⁽⁹⁾ كان صياداً، وأبو زكريا الطحّان⁽¹⁰⁾ وكان عالماً، وذكر ابن العديم غيرهم، ومنهم: أحمد بن الحسن بن عيسى الخنثاب⁽¹¹⁾، وأبو العباس بن أبي عبد الله بن أبي الفتح المعروف بابن الصابوني⁽¹²⁾.

- (1) إبراهيم بن رسم، من أهل مرو، أنظر: ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص265
- (2) الفضيل بن عياض التميمي، يكنى أبا علي، ولد بخراسان، قدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث، وتعبده، وانتقل إلى مكة فنزل بها إلى أن مات سنة 187هـ/803م، في خلافة هارون الرشيد، أنظر: ابن سعد، المصدر السابق، ج6، ص43
- (3) جمال عبد السلام على الطراونة، الحياة الاقتصادية في شعر العصر العباسي الأول 132-232هـ (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة مؤتة، 2004، ص69-72
- (4) النويري، المصدر السابق، ج12، ص62، 63
- (5) بشار بن برد العقيلي: أبو معاذ، إمام الشعراء، من المخضرمين، عاصر نهاية الدولة الأموية وبداية العباسية، ولد أعمى، كان غزير الشعر، أتم في آخر حياته بالزندقة، فضرب بالسياط حتى مات، أنظر: ابن خلكان، المرجع السابق، ج1، ص110-112
- (6) حماد عجرد: هو حماد بن عمر بن يونس بن كليب السوائي، نادم الوليد بن يزيد، قدم بغداد زمن المهدي، أتم بالزندقة، مات سنة 161هـ/778م، أنظر: الذهبي، السير، ج7، ص157، 158
- (7) ج7
- (8) يكنى أبا الحسن، كان من أبناء أهل خراسان من أهل مرو، طلب الحديث ببغداد، نزل عسقلان، فلم يزل هناك حتى مات بها سنة 220هـ/، في خلافة أبي اسحاق بن هارون وهو ابن 58 سنة، أنظر: ابن سعد، المصدر السابق، ج7، ص340
- (9) أبو عثمان سعيد القارئ الصياد، سكن الثغر، وكان فقيهاً وعالماً وزاهداً، توفي بالمصيصة سنة 221هـ/836م، أنظر: ابن سعد، نفس المصدر، ج7، ص341
- (10) أبو زكريا الطحّان كان عالماً، توفي بالمصيصة سنة 225هـ/840م، أنظر: نفسه
- (11) هو أبو الفتح الحلبي الكردي، كان من بيوت حلب القديمة، كان الخشاب جدهم مقدماً في دولة بني حمدان، وتقدم بنوه وعقبه بعده، أنظر: ابن العديم، المصدر السابق، ج2، ص628
- (12) نفسه، ج3، ص1028

وعلي بن عبد المنعم بن علي بن الحدّاد، وأبو عمرو عثمان بن محمد بن يوسف العلاف، وأحمد بن سلم الحلبي السقاء، وأبو العباس أحمد بن أبي غالب الورّاق، وأبو القاسم سعيد بن البناء، وأبو بكر بن الأشقر الدّلال، والحسن بن أبي القاسم أحمد بن عبد الله السلمي العطار⁽¹⁾.

هذا إن دلّ على شيء، فهو يدلّ حتماً على أنّ الحرف والصناعات كانت تنتقل بالوراثة، وأنّ أكثر من نسبة لأشخاص عرفوا بصناعاتهم وحرفهم، وفي نظرة استعراضية غير مستقصية للتسميات بالحرف والصناعات، نجد أنّ كتب التراجم والأدب والجغرافيا تكشف عن هاته الألقاب: مثل الزجاج، والصوّاف، والغزّال، والبزّاز، والحزّاز، والفحّام، والحشّاب، أو ينتسب الشخص إلى حرفة أبيه: كابن الجزار، وابن الحائك، وابن الدبّاغ، وابن الصبّاغ، وابن الحبّاز، أو ابن الكتّاني، وابن الزيّات، و ابن الطحّان وغيرهم، ولم تقتصر الألقاب الملتصقة بالحرفة على شريحة معينة بل اشتملت كل شرائح المجتمع؛ ومن بينها شريحة العلماء، والقضاة، والفقهاء، والأدباء، والمحدثين، والتي تحظى بمكانة رفيعة.

ب- التعصب للحرفة والاعتزاز بها:

بلغ الانتساب للحرف والصناعات حد العصبية والاعتزاز بها، والتمسك بصفة الآباء ولو كانت حقيرة، فقليل في الأمثال: "صنعة والدك ولو كان حشّاش"، وفيه ما يعبر عن عدم احتقار المهنة، وقد أشاروا إلى ما يكون من عداوة بين المشتركين في صنعة واحدة، فقالوا: "صاحب صنعتك عدوك ولو كان أخوك"، وهذا يدلّ على غرس روح التنافس بين أصحاب الصنعة الواحدة.

ومن مظاهر تماسك أهل الحرف وقوفهم في وجه المحتسب؛ ومن ذلك محتسب نبيّه على سوء عمل الحزّازين، فتألبوا عليه بعد ذلك وأرادوا إخراجه من سوقهم، ومنعه من التصرف فيه، وأظهروا عقداً بأذاه لهم واضراره بهم وتسلطهم عليهم، وأنّه أهل أن يخرج من السوق⁽²⁾.

ومن المظاهر الأخرى كذلك، نجد أنّ أصحاب الحرفة الواحدة كانوا يخلّون السوق لأحدهم لبيع فيه يوماً أو يومين إذا كان محتاجاً أو أراد أن يتزوج⁽³⁾، وهذا يدلّ على التعاون بين الحرفيين وشعورهم

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج2، ص769، 770، 772، 918

(2) عبد الرحمان الفاسي، خطة الحسبة، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1984، ص133

(3) الفقيه أبي زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الكنايني الأندلسي، أحكام السوق، الطبعة التونسية، (د، ط)، 2012، ص52

بالارتباط الوثيق مع بعضهم، ومنها أنّ أصحاب الحرف كانوا يتميزون بلباس واحد، يميّز أهل الصناعة الواحدة، أي لكل عمل ثوب ولكل مهنة زي، ليس هذا فقط بل يتميزون بلباس مختلف من منطقة إلى أخرى⁽¹⁾.

ج- حقوق الحرفيين:

أخرج الفقيه البغدادي⁽²⁾، مجموعة من الضمانات تضمن حقوق الحرفيين بما في ذلك مناطق الثغور باعتبارها جزءاً من الدولة الإسلامية وينطبق عليها ما كان في باقي المناطق، ومنها:

- لا يسأل الحارس المستأجر لحفظ الخان إذا ما سرق، ويطالب بتعويض لأنّه يحفظ الأبواب، أمّا الأموال فهي بيد أربابها.

- صاحب المحل المستأجر لحفظ الأمتعة غير مسؤول إذا ما سطا سارق على أمتعته أثناء غيابه.

- لا يدفع الحرفي مثل: النساج، والحداد، والقصار والدبّاغ تعويضاً عن شيء فقد من محل حرفته أو تلف بغير سبب منه.

- للحرفي الصبّاغ حق الاحتفاظ بالسلعة عن ممالته بالسعر، وليس مسؤولاً إذا ما أتلفت أو فقدت.

- أعفي الأطباء والجراحون من مغبة أعمالهم، إذا ما هلك مرضاهم دون تقصير واضح منهم.

- أعفي الملاحون من المسؤولية إذا ما غرقت سفنهم المحملة ببضائع غيرهم، حتى وإن كان غرقها سبب عطب فيها.

- أعفي الناس من أي مسؤولية إذا ما هلك العبد عنده -النحاس هو الذي يبيع الرقيق-.

- يستحق الأجير الخاص أجرته من معلمه في كل الأحوال حتى في حال تعطله عن العمل.

- لا يحق للمعلم أو الأستاذ ضرب صبيه أو تلميذه إلا بإذن وليه.

- إذا ما أذن الصبي بالرقى وأصبح صانعاً اختلف وضعه القانوني، إذ يعرض ما يفقد منه أو يتلفه

(1) عبد الملك بن محمد بن أحمد ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1987م، ص67

(2) أبي محمد بن غانم بن محمد البغدادي، بجمع الضمانات في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، تح: محمد أحمد سراج، علي جمعة محمد، دار السلام، ط1، القاهرة، 1999، م1، ص(103-159)

على عكس زميله غير المأذون، الذي يتحمل عنه معلمه مسؤولية أعماله كافة⁽¹⁾.

5- علاقة الدولة بأصحاب الحرف والصناعات:

أوجدت الدولة جهازا خاصا للإشراف والرقابة على الأسواق، وعلى أصحاب الحرف والصناعات، أطلق عليه اسم الحسبة، والاحتساب مؤسسة إسلامية قديمة قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذان هما أصلان تتفرع منهما مصالح الدنيا والدين، وهذا بقدر تعلق الأمر بالاقتصاد الإسلامي، فهو يمنع ما كان محظورا من المعاملات: كغش المبيعات، والتدليس في العقود، وتطفيف الكيل، والبخس في الميزان، والغبن في الأثمان والأجور، وكان يشرف على هذا النظام موظف خاص يدعى صاحب الحسبة، أو المحتسب، أو صاحب السوق، وكان عليه أن يبحث عن أساليب الغش والتدليس التي كان يمارسها أهل الحرف والصناعات، ووظيفته إدارية ذات سلطة قضائية تتوسط بين القضاء والمظالم، وعرفت خططة باسم ولاية السوق أو أحكام السوق، ثم أصبح يقال لها ولاية الحسبة وأحيانا خططة الاحتساب⁽²⁾.

(1) الفقيه البغدادي، المصدر السابق، ج1، ص159، 103

(2) جهاد غالب الزغلول، المرجع السابق، ص218

أرجع المؤرخون نشأة نظام الحسبة إلى عهد النبي(صلى الله عليه وسلم)، مستندين للحديث الذي رواه أبو هريرة(رضي الله عنه) عندما مرّ برجل يبيع طعاما فأعجبه، فأدخل يده فيه فإذا هو بطعام مبلول فقال النبي(صلى الله عليه وسلم): {ألا من غشنا فليس منا}، فاتخذ بعضهم هذه الحادثة كبداية للتأريخ بنشأة نظام الحسبة، ثم استدلو بتتابع ذلك في الروايات التاريخية من توليه عليه الصلاة والسلام لسعد ابن أبي العاص على سوق مكة بعد الفتح، وعمر بن الخطاب(رضي الله عنه) على سوق المدينة، واستمر نظام الحسبة ساريا خلال عهد الخلفاء الراشدين فيرى المؤرخون أنّ أول وجود وتنظيم للحسبة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه)، مستدلين بقوله لمن حمل جملا جملا ثقيلًا: «لم حملت على جملك ما لا يطيق»، واستمر في عهد الدولة الأموية، وأطلق على القائم بها عامل السوق، وكان يعين من الخليفة أو الوالي، وذكرت هذه الوظيفة في العديد من مراحل الدولة؛ كعهد الخلية الوليد ويزيد بن عبد الملك، أنظر: أنظر: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري أبو عبد الله، المستدرك على الصحيحين، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2002، ص11- محمد عبد الحق الكتاني الإدريسي الحسيني، نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط2، بيروت، (د،ت)، ج1، ص241- عبد الرحمان التتر، المرجع السابق، ص30- أبي بكر بن محمد بن هارون الخلال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تح: يحي مراد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2003، ص24- حسن إبراهيم حسن تاريخ الاسلام السياسي والدين والثقافي والاجتماعي دار الجدير، ط14، بيروت، 1992، ج2، ص24

ويمكن من خلال ما سبق، أن نحدد أنّ ولاية السوق في عهد الدولة الأموية اختلفت عن عهد الراشدين بأنّها أصبحت مدججة مع ولاية أكبر منها هي ولاية المدينة، ولم تنفصل عنها إلا في عهد متأخر، ولم ترد أي روايات تدل على قيام عامل السوق بأي عمل خارج أعمال مراقبة السوق، وبهذا يمكن اعتبار ولاية السوق نظاما للحسبة، واستمر استخدام مصطلح ولاية السوق وعامل السوق حتى بعد زوال الدولة الأموية في المشرق، وبقيت في الأماكن التي لم تدخل في سيادة الدولة العباسية كالأندلس⁽¹⁾.

أمّا في العهد العباسي، فقد ظهر أول تنظيم للحسبة كجهاز مستقل بذاته له مكوناته الخاصة، وأصبح نظاما رقابيا قضائيا له خصائصه ومهامه المحددة، واختلف المؤرخون في تاريخ النشأة، فالغالب يرجعه إلى الخليفة المهدي حيث يستدل الطبري⁽²⁾ في أحداث عام 163هـ/779م: «أرسل عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة»، وما أورده ابن كثير⁽³⁾ في أحداث سنة 167هـ/783م: «وفيها تتبع المهدي جماعة من الزنادقة في سائر الآفاق، فاستحضرهم وقتلهم صبورا بين يديه، وكان المتولي أمر الزنادقة..»، وقيل أنّ أول ذكر لولاية الحسبة كان في عهد المنصور، حيث يذكر الخطيب البغدادي⁽⁴⁾ أنّه قد ولى يحيى بن زكريا على الحسبة، ولكنه أغوى الناس فقتله عام 157هـ/774م.

ومن هنا أمكن القول، أنّ ولاية الحسبة نظمت في بداية الدولة العباسية، واختصاصات المحتسب قد اتسعت بمرور الزمن، كما تعدد المحتسبين حسب الاختصاص النوعي المكلف به كل واحد، واستمر عمل هذه الولاية، حتى بعد ضعف الدولة العباسية وتشتت أمرها، فحافظ الأيوبيون عليها وخصصوا لها أعوانا بسبب التضخم الشديد في صلاحيات المحتسب، واقتضت الظروف شروطا على المحتسب لم تكن فيمن قبله، كالعلم بالمكاييل والموازين حتى يتمكن من المراقبة الاقتصادية⁽⁵⁾.

(1) ابن سعيد المغربي، المغرب في حكي المغرب، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1955م، ج1، ص46

(2) تاريخ، ج4، ص568

(3) البداية والنهاية، ج1، ص149

(4) تاريخ بغداد، ج1، ص390

(5) عبد الرحمان التتر، المرجع السابق، ص31

6- واجبات وصلاحيات متولي الحسبة:

وضعت الشريعة الإسلامية على عاتق متولي الحسبة العديد من المهام والمسؤوليات لخصوصية المهمة التي يقوم بها، وهي حفظ البناء الداخلي للدولة، فكان عليه مراقبة كل ما يمكن أن يخل بالنظام الموجود داخل المدن، ليحفظ استقرار المجتمع واستمراره، وقد لخص الفقهاء واجبات المحتسب ووصفوا لها التفريعات، ثم قامت كتب الحسبة بوضع النماذج التطبيقية من الحياة الواقعية التي عاشها واضعوا كتب الحسبة، وقد أرخت لذلك العديد من كتب فقهاء ذلك العصر، فكانت بمثابة الدستور الذي يسير عليه أصحاب الحسبة: كالغزالي، والماوردي، والشيرازي، وابن الأخوة وغيرهم، وعملت الدولة على تنظيم عمل المحتسب، فتحدد طرق تعيينه، والشروط الواجب توافرها فيمن يتولى المهمة، والمهام التي عليه أن يطلع بها، والصلاحيات المنوطة به، تمت فيها مراعاة المعاملة المباشرة للمحتسب مع الناس باختلاف أصنافهم، وأخلاقهم، ليسهل استجابة الناس لوعظه وأمره، وهذا ينطبق على كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية بما في ذلك مدن الثغور.

أ- واجبات متولي الحسبة:

لما كانت الحسبة أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وإصلاحاً بين الناس، وجب أن يكون المحتسب فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة ليعلم ما أمر به وينهى عنه، ولا مدخل للعقول في معرفة ذلك إلا بكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، فأول ما يجب عليه أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفاً لفعله، ويجب عليه أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته، خالص النية، لا يشوبه رياء ولا مرأى، وأن يجتنب في رياسته منافسة الخلق، ومفاخرة أبناء الجنس، كما ينبغي أن يكون مواظباً على سنن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وجميع سنن الشرع ومستحباته، مع القيام على الفرائض والواجبات، وليكن من شيمه الرفق، ولين القول، وطلاقة الوجه، وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، وأن يكون عفيفاً عن أموال الناس، متورعاً عن قبول الهدية من أرباب الصناعات، وأن يلزم غلمانته وأعاونته بما التزمه من هذه الشروط⁽¹⁾.

(1) عبد الرحمان الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د،ط)، القاهرة، 1946، ص 69

ومن واجباته أن يتفقد الأسواق، ويراقب المكايل والموازين ويتأكد من دقتها، والنظر في أمور الصناعات، ومعرفة أحوال صنائعهم، ومنعهم من المماثلة في أعمالهم، وحثهم على اجتناب الغش والتدليس، ومعاينة المخالفين، ومراقبة أصحاب الحرف والصناعات⁽¹⁾.

وحرص المحتسب على أن يكون لأهل كل حرفة سوق خاصة به، فمثلا منع الخبازين من مجاورة أهل الحرف القدرة، ومن الفرانين أن يتخذوا أفراهم بعيدا عن الطرق، لكي لا يلحقوا الضرر بالناس، وطلب من بائعي السمك أن يتخذوا مكانا يكون فيه سوقهم بعيدا عن الطريق، وذلك لما ينشأ عنه من روائح كريهة⁽²⁾، وكذلك بالنسبة لأسواق الصبّاعين والذبّاعين بأن تكون خارج أسوار المدن، كما أمر أن تكون مواضع صناعات القرميد والآجر خارج أبواب المدن حيث تكون هذه المواضع واسعة⁽³⁾.

(1) فمن أمثلة ذلك، أنه كان عليه أن يراقب الطحانين لئلا يخلطوا القمح الطيب بالرديء ويأمرهم بتغطية الدقيق بين أيديهم حتى لا يسقط فيه ما يفسده، ويلزم الخبازين بغسل قصاري العجين كل يوم وجرّد الألواح ومسحها، وغسل مناديلهم والاعتسال في أكثر الأوقات، وعن رش وجه الخبز قبل الطبخ بالماء وبعده بالزيت، وأن يفرقوا بين خبزة الرطلين والرطل والنصف، وكان يمنع الفرانين من حرق ما يحتطب من المواضع القدرة التي تضر بالمطبوخ، وكان يشدد على الجزّارين بأن يتولى الذبح من يوثق به، وأن يفرّقوا بين لحوم الماعز والظأن، وأن يقوموا بتنظيف حوانيتهم وأسواقهم، وأما باعة اللحوم فيأمرهم بغسل الحصر التي يضعون اللحم عليها، وأن يعرضوا موازينهم في أوجه الحوانيت، أما الطباخين فاشتراط أن تكون مطابخهم مخصصة مسطحة ليتمكن من غسلها كل الأوقات، وحثهم على ضرورة تنظيف أبدانهم وملابسهم، وتنظيف الأواني والقدر المستعملة، وتنظيف اللحوم وسائر المأكولات قبل طبخها وتغطيتها بمنديل نظيفة، وكان يتفقدهم في الصباح وفي المساء.

وكان عليه أن يتفقد الهرايسين، والسفّاجين، والقلائين، والشوّائين، وبائعي العسل والسمن واللبن، وصانعي الكعك والمسمنات وأصناف الحلوى والمجنّبات، ويتفقد الصيادلة والعطارين، ويراقب الزيتين لئلا يخلطوا الزيت الطيب بالرديء، ويمنع معاصر الزيتون أن يعصر فيها زريعة الكتان لئلا تعلق رائحته بالزيت، وينبغي على المحتسب أن يتدخل في شؤون الخياطين فيأمرهم بجودة التفصيل وأن لا يماطلوا الناس أشيائهم، ويراقب الكتانين لئلا يرشوا الماء على الكتان ليثقل وزنه، وبائعي الغزل بتخفيفه تحت الشمس ويفرض على الصبّاعين أن لا ينشروا الثياب المصبوغة المبلولة في الطرقات لكي لا تلحق الضرر بملابس الناس، وتركت رقابة المحتسب على ضرورة الدقة والجودة في أعمال البتّائين، والدهّانين، والرقّاقين، والكعّادين، ومن مهامه أن يمنع الزبّاجين من إخراج الزجاج من أفران التبريد إلا بعد يوم وليلة لكي يكتسب القوة والمتانة... إلخ، أنظر: السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي، في آداب الحسبة، (د، ط)، باريس، 1931، ص 21، 33، 34، 35، 64- ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 86، 87، 105- الشيزري، المصدر السابق، ص 23، 67، 70- جهاد غالب، المرجع السابق، ص 228- ابن الأحرّة، المصدر السابق، ص (114-133)

(2) أنظر: ابن عبد الرؤوف، المصدر السابق، ص 90، 97، 111

(3) ابن عبدون، المصدر السابق، ص 49، 34

ب- صلاحيات المحتسب:

كما أنّ للمحتسب واجبات، فله كذلك صلاحيات، ويقصد بها الأمور والتي يسمح له بفعلها خلال أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فبحكم الولاية لا يستطيع المحتسب أن يذكر بلسانه وبقلبه فقط، فهو مطالب بإعادة الأمور في الدولة إلى نصابها الصحيح مما قد لا يكفي فيه إلا الأخذ بالحزم والضرب بيد من حديد على من تأبى قلوبهم سماع الحق أو النصح⁽¹⁾.

ولما كانت الحدود والقصاص من اختصاص القاضي، فإنّ الفقهاء قد رخصوا للمحتسب التعزيرات، ووضعوا له شروطاً في التنقل بينها، فيقول الشيزري⁽²⁾: «وأما التعزير فعلى قدر أحوال الناس وقدر الجناية، فمن الناس من يكون تعزيره بالقول والتوبيخ، ومنهم من يضرب بالسوط ولا يبلغ به أدنى الحدود، ومنهم من يضرب بالدرة ويلبس الطرطور ويركب على جمل أو حمار...».

فالشيزري يأمر المحتسب بمراعاة أحوال الناس في التعزير، فلا يكون تعزير أهل الصلاح إن حدث منهم ما يستحق التعزير، كتعزير أهل الشر والبذاءة، وإن ضرب بالسوط فلا يبلغ به حداً في عدد الجلادات، وقد أوردت كتب الحسبة ما يقرب من تسعة أنواع للتعزيرات التي يستخدمها، تذكر حسب أولويتها على النحو التالي:

1- الاستدعاء والتهديد

2- التوبيخ والتبكيث

3- الحجر

4- التشهير

5- الغرامة واهلاك المنكر

6- النفي

7- الضرب

(1) عبد الرحمن التتر، المرجع السابق، ص 56

(2) المصدر السابق، ص 109

8- إقامة الحدود

9- التحري ودخول البيوت

ويتضح من خلال عرض التعزيرات والصلاحيات الممنوحة للمحتسب خلال قيامه بالاحتساب، أنّ المحتسب المولّى من الإمام، وإن كان له من السلطة والقوة لتغيير المنكر باليد، فإنّه يجب عليه ألاّ يلجأ إلى القوة إلّا إذا اقتضت الضرورة، وأنّ النصح هو الركن الأساسي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل أمر بعده أوجب مما قبله ما لم تقتض الضرورة بذلك⁽¹⁾.

وفي الأخير يمكن القول أنّه وبالرغم من تأثر مدن الثغور بالوضع العام للمنطقة، كونها منطقة حدودية متأهبة على الدوام لمواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد أمن واستقرار الدولة الإسلامية، إلاّ أنه يمكن الحكم من خلال ما سبق أنّها اشتملت على نشاط صناعي مميز ومهم أسهم في تطوير اقتصاد المنطقة بشكل خاص، أثر في قيام حركة تجارية متميزة.

(1) عبد الرحمن التتر، المرجع السابق، ص56-60- أنظر الملحق رقم12، ص428، 429

الفصل الثاني

النشاط التجاري بإقليم الشغور

المبحث الأول: أهمية التجارة في مناطق الشغور

المبحث الثاني: المنشآت التجارية بمناطق الشغور

المبحث الثالث: المحطات والمراكز التجارية

المبحث الرابع: السلع التجارية بإقليم الشغور

المبحث الخامس: التجار والعلاقات التجارية

عُرفت التجارة منذ عصور موعلة في القدم، على أنّها وسيلة لتبادل المصالح والمنافع بين الناس، فكانت همزة الوصل بين الشعوب في الحرب والسلم، لذا فقد نظر الإسلام إلى التجارة نظرة تشريف لأهميتها في تلاقي الأمم، وتواصلها وتبادل المنافع فيما بينها، فكيف كانت حالة التجارة وأوضاعها في مناطق الثغور؟

تعد التجارة وسيلة من الوسائل التي تتخذها بعض الفئات من الناس، لتسهيل تبادل المنافع والمصالح فيما بينها، أو فيما بينهم وبين مجتمعاتنا للحصول على أرباح من ورائها، وذلك عن طريق المقايضة بالسلع، أو البيع والشراء بالأموال، ولذلك يقول القرطبي⁽¹⁾ في تعريفه للتجارة عند تفسيره للآية الكريمة: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾⁽²⁾، أنّها هي البيع والشراء مصداقا لقوله تعالى، ويعرفها ابن خلدون⁽³⁾ بقوله: «اعلم أنّ التجارة محاولة الكسب، بتنمية المال بشراء السلع بالرخص، وبيعها بالغلاء».

ولو تفحصنا القرآن الكريم لوجدنا بأنّ التجارة ذكرت في مواطن عديدة منه، نظرا لمكانتها الرفيعة عند الله، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾⁽⁴⁾، بل وأكثر من ذلك في مواضع أخرى منه على سبيل المجاز لحث المسلمين على العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُم عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٧﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾⁽⁵⁾.

ولكن بالرغم من ذلك بقيت كلمة البيع هي السائدة في فقه المعاملات الإسلامية، نظرا لمدلولها الفقهي الواضح في التشريع الإسلامي، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَاحْلَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾⁽⁶⁾.

(1) القرطبي، المصدر السابق، ج 5، ص 151

(2) سورة النساء، الآية 29

(3) المقدمة، م 1، ص 346

(4) سورة البقرة، الآية 282

(5) سورة الصف

(6) سورة البقرة، الآية 275

أمّا إذا تكلمنا عن أهمية التجارة ومكانتها في مناطق الثغور، لوجدنا أنّها نشطت واتسعت في تلك المدن، نتيجة لتطور الانتاج الزراعي والصناعي وظهور فائض في الانتاج، مع وجود الأسواق وانتشارها، فالمنطقة تتسم بموقع حساس على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب عموماً، وعلى طريق التجارة المحلية بين العراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى ومصر وغيرها⁽¹⁾، فقد ارتبطت هذه المناطق بشبكة من المسالك والطرق يسرت اتصالها بمن حولها من الجهات، وهيأت لها دوراً تجارياً كبيراً.

المبحث الأول: أهمية التجارة في مناطق الثغور

1- الموقع الجغرافي والأهمية التجارية:

الثغور أشبه ما تكون بالخطوط الدفاعية الأولى ضد الأعداء، وقد شكلت خطاً طويلاً من الحصون والقلاع بين بلاد الشام والدولة البيزنطية، انقسمت إلى شمالية شرقية وهي الثغور الجزرية، وشمالية غربية وهي الثغور الشامية، ثم أضيف لها منطقة العواصم - ماوراء جبال اللكام حتى الفرات -، ويعد الموقع الجغرافي لها من أهم الامتيازات التي جعلتها تأخذ أهميتها التجارية خلال الفترة موضوع الدراسة، وخلال الفترات التاريخية المتعاقبة.

فإذا نظرنا إلى الوضع الجغرافي لإقليم شمال الشام والجزيرة حيث تتواجد الثغور لوجدناه ذو تأثير إيجابي في النشاط التجاري سواء أكان داخلياً أو خارجياً، خاصة أنّ الثغور تقع في موقع متميز كحلقة وصل بين الطرق التجارية، حيث تلتقي طرق القوافل القادمة من الشرق إلى الهند وآسيا الصغرى، والقادمة من الشمال من الدولة البيزنطية، والقوافل الساحلية الآتية فيما بعد من المدن الإيطالية، وفي اتجاه آخر كان لها اتصال بالقوافل الآتية عن طريق شبه الجزيرة العربية ومن مصر والعراق، ولعل إقليم الشام كله خلال العصور الوسطى كان له تأثير في حركة التجارة ونشاطها، وقد وصف لنا ابن جبیر⁽²⁾ كيف أنّه انتقل من دمشق إلى عكا في قافلة تجارية كبيرة.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص192

(2) الرحلة، ص268

ولعل هذه المنطقة أصبحت فيما بعد معبرا هاما من معابر تجارة الشرق، وخاصة إلى الدولة البيزنطية، وبعد أن سيطر المسلمون على إقليم الشام والجزيرة، حيث كانت تحمل البضائع في القوافل من آسيا الصغرى والهند خلال الخليج الفارسي، ثم عن طريق القوافل إلى الجزيرة وشمال الشام، ثم يعاد تصديرها مرة أخرى إلى أسواق بيزنطة⁽¹⁾.

وتأتي الأهمية التجارية للمنطقة - كما ذكرنا - في كونها المستقبل لتجارات الشرق، التي تعيد تصديرها بعد ذلك إلى أسواق الغرب، سواء في الدولة البيزنطية، أو في المدن الإيطالية التجارية التي نمت خلال العصور الوسطى، وكذلك إلى غرب أوروبا، فالعلاقات الاقتصادية لم تنقطع بين الدولة الإسلامية والغرب الأوروبي، فطبيعة العلاقات بينها لم تكن حروبا متصلة الحلقات، أو غارات متكررة أو مستمرة فحسب، بل هناك فترات سلمية تخللتها صلات تجارية لم تتوقف في تلك الفترة، بالرغم من الاختلافات الواردة بين المؤرخين حول حجم التجارة المتبادلة، أو الطرق والممرات التي كانت تمتلكها عبر بلدان الحدود.

فمنهم من يرى أنّها كانت كبيرة وضخمة مثل لومبارد⁽²⁾ *Lambard*، والدليل على ذلك أنّه في القرن الرابع للهجرة استوردت طرطوس كلاب الصيد والصقور من بيزنطة، ويرى بعضهم الآخر العكس من ذلك كآشتور⁽³⁾ *Ashtour* الذي لا يتحمس كثيرا في حديثه عن التجارة في مدن الثغور، وقد لعب إقليم الثغور والعواصم دورا بارزا في هذه العلاقات، وخاصة المدن الواقعة على الطريق التجاري بين بلاد الشام وبلاد الروم، كأنطاكية وحلب وطرطوس، حيث يوجد في كل منها أقوام يعرفون لسان الروم ولغتهم، ويذهبون إليهم على هيئة وسطاء يحملون إليهم البضائع والرسائل وأصناف الأطعمة والصناعات⁽⁴⁾.

(1) نحلة أنيس مصطفى، المقال السابق، ص(1-16)

(2) *Ashtor, E A social and Economic History of the near East in the middle age, london, 1976, pp 226-228*

(3) *Lambard, M, L'islam dans sa premier grandeur VIII ; XI sciecle, paris, 1971, p100*

(4) أرشيالد لويس، المرجع السابق، ص224، 225

كما أنّ موقع مدن الثغور المتميز جعلها تشرف على أبرز المسارات البرية والبحرية، التي تعبرها التجارة إلى بلاد الروم، حيث كانت -وبالإضافة إلى أنّها تمثل نقطة تلاقي بلاد الروم-، تشرف على الرصيف الروماني الذي يربط أنطاكية مع بلاد الشام، بالإضافة إلى أنّها تمثل نقطة تلاقي القوافل المتنقلة بين بلاد النهرين والبحر الشامي⁽¹⁾، كما ساعد نهر الفرات على تسهيل حركة البضائع والتجار، إذ أنّه يربط أعالي مناطق الثغور بالعاصمة بغداد، فما أن يصل النهر إلى سميساط قادما من الشمال حتى تُحمل عليه السفن والأطواف متجهة إلى بغداد، كما كانت تحمل عليه تجارات الشام وما يرد من الثغور⁽²⁾.

وقد أقيمت على الفرات الجسور التي تسهل عملية العبور، منها جسر منبج الذي تعبره القوافل القادمة في بلاد حرّان نحو الشام⁽³⁾، كما اهتم خلفاء الدولة الإسلامية في الفترة موضوع الدراسة بالحفاظ على حركة التجارة، ومراعاة مرافقها من صيانة للطرق لتسهيل مرورها، وحماية الأمن الذي يعتبر أساسيا لازدهارها، ورعاية الأبنية المخصصة لها وصيانتها، وتسهيل مهام التجار خاصة بعد تزايد هجمات الروم على ثغور شمال الشام وسواحلها⁽⁴⁾.

2- المسالك والطرق التجارية:

أ- اهتمام الدولة بطرق المواصلات والتجارة:

تعد الطرق التجارية العصب الرئيسي المحرك للتجارة، وبها يمكن أن تزدهر أو تتقهقر، وقد تناولها الجغرافيون وبيّنوا مراحلها ومسافاتها ومخاطرها، وما تتوفر عليه من تسهيلات، وبعد أن استقرت أوضاع المسلمين في بلاد الشام والجزيرة بدأت الدولة الإسلامية الاهتمام بالطرق عامة والتجارية خاصة⁽⁵⁾، وأكدت نتائج البحث الأثري أنّ عمر بن عبد العزيز هو من أمر بعمارة الطرق ووضع

(1) المهلي، المصدر السابق، ص 98

(2) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 211

(3) الحموي، المعجم، ج 4، ص 391

(4) فريخ حشاش، المرجع السابق، ص 176

(5) من مظاهر اهتمام الخلفاء بذلك ما قام به الخليفة الوليد بن عبد الملك، إذ يذكر الطبري في أحداث سنة 88هـ/707م بأنّه

كتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بتسهيل الثنايا وحفر الآبار في البلدان، أنظر: تاريخه، ج 6، ص 437

الأميال عليها⁽¹⁾.

ويرجع الاهتمام بطرق المواصلات من أجل تسهيل حركة الحجاج والرحالة والتجار والجيوش، وضمان سرعة وصول البريد وأخبار الأقاليم⁽²⁾، ولا شك أنّ الطرق التي أقامتها الدولة الإسلامية للبريد هي التي اعتمدها التجار والحجاج والقبائل في تحركاتهم بين الشام والأقاليم الإسلامية الأخرى إضافة إلى غيرها من الطرق.

وتتضح جهود خلفاء العصر الأموي في الاهتمام بالطرق والعناية بها في وضع المنارات على الطرق، وحفر الأنهار والبرك وإصلاح الطرق ووضع الأميال، إضافة إلى حراسة الطرق وتأمينها إذ تبدو من المهمات الأساسية لصاحبي البريد⁽³⁾، فيذكر ابن الفقيه⁽⁴⁾: «أَنَّ فالوليد بن عبد الملك أول من حفر المياه في طريق مكة إلى الشام»، وأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ببناء الخانات العامة ليستريح فيها المسافرين⁽⁵⁾، كما أنشئت الأحواض والصهاريج المملوءة بالمياه لسد حاجات المسافرين، وبذلك تمكن بنو أمية في فترته ومن جاء بعده من تأمين الطرق التجارية⁽⁶⁾.

ثم تابع خلفاء بني العباس الاهتمام بالطرق وصيانتها والمحافظة عليها، فهذا الخليفة المنصور قد حفر نهر الفرات إلى بغداد لتمر فيه السفن المحملة ببضائع الشام والجزيرة والموصل⁽⁷⁾، وحفر نهر عيسى لمرور السفن المحملة ببضائع الشام ومصر⁽⁸⁾، وهذه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور تولي اهتماما ببناء الدور واتخاذ البرك والمصانع والآبار بمدينة طرسوس⁽⁹⁾.

(1) كامل جميل العسلي، الطريق من دمشق إلى بيت المقدس في القرن الأول للهجرة، مجلة الكشاف، ع1، الأردن، 1928، ص(25-30)

(2) قدامة، المصدر السابق، ص77، 78

(3) قدامة، المصدر السابق، ص77، 78

(4) المصدر السابق، ص106

(5) مؤلف مجهول، العيون، ج3، ص63

(6) زيادة نقولا، الطرق التجارية في العصور الوسطى، مجلة تاريخ العرب والعالم، لبنان، ع59، 60، السنة5، 1983، ص19

(7) أبو حنيفة أحمد بن داوود الدينوري، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب، القاهرة، 1960، ص383

(8) يعقوبي، البلدان، ص35

(9) المسعودي، مروج الذهب، ج5، ص212

وأمر الخليفة الرشيد بحفر الآبار في طريق الحج الشامي، وأمّا في الطريق بين بلاد الروم والثغور فبعد أن عقد صلح مع أوغسطة سنة 165هـ/781م أمر أن تقام له على الطريق الأدلاء والأسواق⁽¹⁾.
وكما أكدت الروايات اهتمام الدولة الإسلامية بعمارة الطرق وإصلاحها، إلا أنّها لم تذكر على الإطلاق أنّ العرب أيام سيادتهم لم يعملوا على تقدم الطرق البرية في بلاد الشرق، لأنهم أمة ركوب لا تميل إلى تمهيد طرق الجيوش واتخاذ المركبات، ويبدو ذلك صحيحاً - إلى حد ما - إذ لم يُذكر أي نص عن استخدام العرب ذات العجلات في عمليات النقل، بل استخدموا الجمال التي لا تحتاج إلى طرق ممهدة⁽²⁾.

ولم يختلف العصر الإسلامي عن العصر الذي سبقه فيما يتعلق بالطرق كثيراً، فقد بقيت الدواب هي وسائل نقل البضائع، في حين استخدمت العربات المدولبة على بعض الطرق المرصوفة، إذ عند التفكير في إنشاء طرق جديدة يبدأ الإنسان مباشرة بالتفكير في مسارات الطرق القديمة الموجودة في المنطقة، وهي الطرق التي أوجدتها الطبيعة، لذلك فقد استخدمت شبكة الطرق التي تم إنشاؤها من قبل الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، وكانت تمتاز بأنّها حسنة التنظيم بعد أن تم تعديلها بما يتلاءم والمتطلبات الجديدة للدولة، ومما ساعد على استخدامها كونها مصممة ومخططة ومصانة على نحو جيد⁽³⁾.

فقد كان المهندسون البيزنطيون يختارون التربة، ومن ثم يتم بناء الطرق بخطوط مستقيمة من خلال قطع المناطق الوعرة أو حفر الانفاق أو بناء الجسور فوق المناطق العميقة والأودية باستخدام حجارة صماء صلبة من المنطقة نفسها، وكان جسم الطريق يحدد بواسطة حفر خنادق متوازية، ثم يتم تعبئتها بالحجارة، من خلال وضع طبقة من الحجارة لتغطي طبقة أخرى وهكذا، ثم توضع الطبقة النهائية المكونة من حجارة مضلعة تبلغ أبعادها حوالي 344 قدماً (104.85م)، يتم تثبيتها على نحو متلاصق،

(1) الطبري، تاريخه، ج2، ص415

(2) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ط1، القاهرة، 2000، ص162

(3) ممدوح الخرايشة، سلامة النعيمات، طرق التجارة في بلاد الشام في العصر البيزنطي من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، الأردن، ع2، 2011، ص(1-22)

وفي وسط الطريق حجارة تبقى على نحو مرتفع عن بقية الطريق وذلك لتسهيل عملية تصريف ماء المطر، وجوانب الطريق تحدد بواسطة حجارة متينة، ويتم بناء ممر للمشاة خلفها، ويبلغ عرض الطرق الرئيسية 15 قدماً (45.72م)، وكان يوضع على نحو يسمح للمشاة بصعود المناطق المنحدرة وهبوطها، أو عبور ممرات المياه الضحلة من غير الغوص في الوحل وخصوصاً شتاءً، ويتم بناء مقاعد حجرية في المناطق التي توجد فيها الينابيع أو حول الحجارة الميلية⁽¹⁾.

لقد أدى اهتمام الإمبراطوريات السابقة بالطرق، من حيث التصميم والوصف، وبناء الجسور والمحطات، إلى تمكين المسافرين والتجار المرافقين للقوافل التجارية من الحصول على أسباب الراحة والتزود بالطعام، وعقد صفقات تجارية⁽²⁾، وكذلك للاستخدامات العسكرية وحركة الجيوش ولاحتياجات أخرى مدنية.

ب- أهمية الطرق الشامية وعوامل قيامها ومخاطرها:

احتلت بلاد الشام موقعا جغرافيا مهما على شبكة المواصلات العالمية، إذ كشفت النقوش القديمة أنّ بعض الطرق كانت مستعملة من أيام الفينيقيين⁽³⁾ والرومان والبيزنطيين- كما ذكرنا سابقا-، ولا تزال هذه الطرق ماثلة للعيان دون تبديل، ومن أشهرها طريق تراجان⁽⁴⁾ الذي أمر ببنائه في القرن الثاني للميلاد 107-111م، وهو يصل حدود سوريا الشرقية بالغرب من مدينة تدمر في أقصى شمالي شرقي بلاد الشام مع العقبة-أيلة الواقعة على الرأس الشمالي لخليج العقبة- والبحر الأحمر في أقصى الجنوب الغربي من بلاد الشام على ساحل، كما ربطت البتراء وبصرى على نحو مباشر⁽⁵⁾.

(1) ممدوح الخرايشة، المقال السابق، ص(1-22)

(2) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص52

(3) Grant, christina phelps, *The syrian desert, caravans, travel and exploration*, London, 1937, p35

(4) تراجان: الإمبراطور الروماني الذي وصلت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها في عهده ت 110م، هو ماركوس البيوس نيرفا ترانيوس أغسطس 53-117م ثاني الأباطرة الأنطونيين الرومان، والإمبراطور الروماني 13، أنظر: محمد بن رافع تقي الدين أبو المعالي، الوفيات والأحداث، تح: صالح مهدي عباس، اشبار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط1، (د،م)، 1982، ج1، ص8

(5) ممدوح الخرايشة، المقال السابق، ص(1-22)

وتتفرع عن هذه الطريق فروع تربط معظم بلاد الشام، وهو يعبر عن الاهتمام الكبير الذي أولاه الأباطرة والقادة الرومان والبيزنطيون من بعدهم بالطرق، حيث قاموا بتحديثها وتطويرها في أنحاء بلاد الشام جميعها، فبنوا الطرق الجديدة وفق مواصفات معينة لديهم، تجعلها صالحة للاستخدام على نحو ممتاز عسكريا ومدنيا وتجاريا، وهناك مجموعة من الشروط اللازمة لقيام الطرق، حيث لا يعد كل طريق تسلكه القوافل التجارية تجاريا بالمعنى الصحيح، ما لم تتوفر فيه مجموعة من الشروط تؤدي في مجموعها إلى اعتماده كطريق تجاري داخلي أو خارجي منها:

- توفر المياه العذبة كي تستريح عندها القوافل التجارية، ويمكن توفرها من خلال الآبار والينابيع، وأن تكون الطريق قريبة من بحيرة ما مثل بحيرة طبرية، أو تكون ميناء على ساحل البحر مثل مدينة عكا، أو أن تكون بها برك وغيرها، لذا فقد كانت مجاري الأودية الرئيسية من أهم ممرات القوافل التجارية وذلك لتوفر المياه والأعشاب التي تحتاجها في رحلتها، كما أنّ وفرة المياه تؤدي إلى قيام الزراعة⁽¹⁾.
- ابتعاد الطريق عن المناطق الجبلية والصخرية، لتسهيل التنقل والحركة نحو مصادر المياه، وتوفر الأمن لأنّ احتمالية اختفاء قطاع الطرق بين الصخور واردة وهي كذلك في مخاطر الطرق التجارية، كما أنّ المناطق الجبلية لا تتفق ومقدرة الابل على السير فيها⁽²⁾.
- كما يجب أن تتوفر بها الحصون والقلاع والمواقع المحمية، وذلك لحماية القوافل من الهجمات المفاجئة من قطاع الطرق أو القبائل القاطنة حول الطريق مثل مدينة صور الساحلية التي تعتبر من أحصن الحصون على شاطئ البحر⁽³⁾، وحافظت بعض المدن على نفسها بوصفها مواقع تجارية هامة ومرورية بسبب ما فيها من حصون وقلاع كعسقلان⁽⁴⁾، كما كانت بلدتا شيزر وحمّاه حصينتين في ذاتيهما⁽⁵⁾، وكانت حلب محصنة بقلعتها الشهيرة.

(1) خالد أحمد سلمي زفيد، المرجع السابق، ص 33

(2) الاصطخري، المصدر السابق، ص 59، 60

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 1، ص 288

(4) الادريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 364

(5) ابن حوقل، صورة الارض، ص 163

- وصفها ابن حوقل⁽¹⁾ أنّها على مدرج طريق العراق إلى الثغور، وكانت خنصرة محصنة كذلك، إضافة إلى أنّه ثمة الكثير من مدن الثغور التي كانت بطبيعتها محصنة لأنّها مراكز عسكرية.
- توفر المنتجات الزراعية كان له أهمية كبيرة في استقطاب التجار، مثل بالس الذي كان الطريق إليها عامرا، وما بينها وبين الفرات بساتين أكثر غلاتها القمح والشعير⁽²⁾.
- وجود السوق دلالة على فعالية الطريق، كما هو الحال في منبج التي تقع على الطريق القادم من الجزيرة عبر الفرات إلى الرقة إلى دوسر، ومنها إلى داقين-على الطريق بين الرقة ومنبج-، إلى جسر منبج، ومنه إلى منبج فحلب، إلى الأثارب، إلى أنطاكية، إلى اللاذقية، إلى جبلة، إلى طرابلس، ثم إلى بيروت، فصيدا، فصور، فأرسوف، إلى يافا، فعسقلان، فغزة⁽³⁾.
- وجود الحمامات والفنادق والخانات-سيأتي تفصيل ذلك-، والتي كانت تقدم خدمات لاستراحة القوافل والمبيت عند الحاجة.
- توفر حفارة القوافل التجارية خلال عبورها طرق التجارة، فقد اهتمت مدن بلاد الشام منذ القديم بحراسة الطرق التجارية، فكانت تؤمنها من خلال خيالة سريعي الحركة كان بإمكانهم توقيف عمليات السلب والنهب، إضافة إلى أنّ هناك وحدات للحفارة تشرف على النظام عند العيون والآبار وأماكن نزول القوافل⁽⁴⁾.
- كما لعبت بعض مدن الثغور دورا في تأمين التجار من قطاع الطرق عند مرورهم بالطرق التجارية، كخنصرة التي كانت مغيثا للمجتازين عليها، بعد أن انقطعت الطريق في داخل الشام على التجار، لاعتراض الولاة سبيلهم من ناحية، أو ضعفهم عن رد الروم وحماية الطرق أحيانا أخرى⁽⁵⁾، بالإضافة إلى أنّ الطرق التجارية أصبحت غير آمنة نظرا لعبث قطاع الطرق والزعرار، فقد عانت من مخاطر

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص155، 156

(2) الحموي، المعجم، م1، ص328

(3) ابن خردذابة، المصدر السابق، ص97، 98

(4) زنيد، المرجع السابق، ص33

(5) البلاذري، المصدر السابق، ص203

أخرى، نذكر على سبيل المثال الطريق بين المصيصة وأنطاكية كانت كثيرة السباع تعترض الناس، فشكى إلى الوليد فوجه إليها أربعة آلاف جاموس⁽¹⁾.

ومن هنا أمكن القول أنّ هناك شروطا يجب توفرها لقيام الطرق، لكي تساهم إلى حد ما في نشاط التجارة الداخلية علاوة على الخارجية.

ج- طرق التجارة:

تشغل مناطق الثغور الشامية والجزرية على السواء موقعا هاما بين الشام - وهو يطل على بحر الشام -، والعراق وأرمينية - وهي قريبة من بحر قزوين والبحر الأسود -، وآسيا الصغرى وقد ارتبطت مع هذه الجهات بشبكة من الطرق يسرت اتصالها بما حولها وهيأت لها دورا تجاريا كبيرا، وقد اعتمد التجار في تنقلاتهم من وإلى مدن الثغور مختلف الطرق البرية والبحرية والنهرية، وكانت التجارات تنتقل من الطرق والدروب والمسالك التي تسلكها في الغالب الحملات العسكرية والصوائف، ولعل أبرز الطرق التي تتحرك من خلالها التجارة داخل حدود الدولة الإسلامية قبل خروجها من مناطق الثغور، الطريق الذي يخرج من بغداد ثم البردان، ثم تكريت، ثم الموصل فالرقة، ثم منبج، وحلب، أو دابق، ثم أنطاكية، ثم المصيصة وصولا إلى آخر نقطة في الشمال الغربي وهي طرسوس⁽²⁾، وتلك الطريق هي التي كانت تتحرك من خلالها الصوائف والشواتي تجاه بلاد الروم⁽³⁾.

وبعد ذلك تصبح حركة التجارة في حكم التجارة الخارجية، حيث تنتقل التجارة من آخر منطقة في الثغور لتعبر إلى الأراضي الرومية، وكان لها طريقان رئيسيان عدا عن الطرق الأخرى الفرعية، هما درب السلامة ومنه يمر حملة البريد والسفراء والوفود بين الجانبين⁽⁴⁾، يقال له درب طرسوس أو المصيصة أو الأبواب القليقية، وكان مشهورا قبل فتح الشام ويبدأ من طرسوس حتى ينتهي بعمورية⁽⁵⁾.

(1) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 162

(2) قدامة، المصدر السابق، ص 111-113

(3) الطبري، تاريخه، ج 8، ص 623

(4) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص 162

(5) ابن خردزابة، المصدر السابق، ص 100

وهذا الطريق الذي سلكه الرشيد في غزوه لهرقلة، وكذلك سلكه المعتصم في غزوه لعمورية⁽¹⁾، والدرب الآخر في أقصى الشمال الشرقي عن الثغور الشامية، ويسمى درب ملطية أو درب مرعش وكانت تمر عبره العديد من الصوائف، ويبدأ من ملطية ومرعش عبر الحدث حتى يصل بلاد الروم⁽²⁾، وقد عدد الجغرافيون المسلمون أمثال؛ الاضطحري وابن خردذابة وابن حوقل والبكري وغيرهم في كتب المسالك وغيرها هذه الطرق، وفصلوا مراحلها ومسافاتها وسككها، وبتتبعها يمكن تبني المجموعات التالية:

أولاً: الطرق البرية

1- الاتصال بين الجزيرة والثغور الجزرية:

تتفرع الطرق داخل العراق مترتبة بين مختلف أجزائه، وعن طريق الجزيرة في الشمال يمكن الوصول إلى الثغور الجزرية وإلى أرمينية أو الشام، وقد كانت الرقة مركزاً هاماً للمواصلات ومنها يمكن الوصول إلى الثغور الجزرية وهي: سلفوس، كيسوم، شمشاط، ملطية، زبطرة، الحدث، مرعش، كمخ، حصن منصور، ويسير الطريق من الرقة إلى عين الرومية، فتل عبدا، فسروج، فالمزينة، فسميساط، فحصن منصور، فملطية، فزبطرة، فالحدث، فمرعش، فعمق مرعش، وهناك طريق من ملطية إلى كمخ⁽³⁾. كما استخدمت الطرق النهرية وأكثرها أماناً نهري دجلة والفرات، فالملاحة على الفرات تبدأ من سميساط إلى بغداد، وتنقل عبره بضائع كثيرة أهمها الخشب من جبال أرمينيا، وزيت الزيتون والرومان من الشام، وعبر دجلة نقلت البضائع المختلفة؛ كالفواكه والأسماك والصناعات النسيجية من الموصل إلى بغداد والشام وأرمينية⁽⁴⁾.

الاتصال بين الشام والثغور الشامية:

تتفرع الطرق داخل الشام فتصل بين شتى أنحائها، وعن طريق حلب في الشمال يمكن الوصول إلى الثغور الشامية ومنها إلى آسيا الصغرى أو إلى ثغور الجزيرة، وهكذا تربط الطرق حلب بقنسرين،

(1) فريخ حشاش، المرجع السابق، ص 177

(2) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص 427

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 255

(4) شيرين سليم حمودي، المرجع السابق، ص 39

وأنطاكية، والمصيصة، وأذنة، وطرسوس، وعين زربة، والمهارونية، والكنيسة السوداء، تل جبير⁽¹⁾.

2- الاتصال بين الجزيرة والشام:

أورد الجغرافيون اتجاهات متعددة للاتصال بين ذراعي الهلال الخصيب، يمر معظمها بمنطقة الثغور:

أ- الطريق الذي يربط الجزيرة بساحل الشام: ويسير من الرقة إلى دوسر ويستمر حتى يصل جسر منبج، فمنبج، ويدخل في ديار الشام فيمر بحلب والأثارب، ويجتاز عمق أنطاكية إلى أنطاكية، ثم يصل اللاذقية على ساحل بحر الشام، ويتابع طريق الساحل متجها نحو الجنوب فيمر بجبلة، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، وعسقلان، وغزة، والداروم⁽²⁾.

ب- الطريق من الرقة إلى قلب الشام إلى دمشق: حيث يصل إلى الرصافة، يصير أمامه طريق إلى دمشق في البرية، وآخر إلى حمص في العمران، والأخير يمر بسلمية وحمص، ومنها تتعدد السبل للوصول إلى دمشق⁽³⁾.

ج- الطريق الجنوبي بين العراق والشام: ويسير من الكوفة إلى دمشق - وهو بالطبع بعيد عن نطاق الثغور الشامية والجزرية-⁽⁴⁾.

3- الاتصال بين شمالي الشام والجزيرة وبين آسيا الصغرى:

هناك عدة طرق تؤدي إلى بلاد الروم، سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص في غزواتهم، وكذا تجارتهم لبلاد الروم - كما ذكرنا سابقا-، أولهما درب الحدث وهو في الشمال الشرقي، من مرعش فشمالا إلى ابلستيل⁽⁵⁾، وكان يحمي هذا الدرب حصن الحدث *adata*.

وثاني الدروب وكثيرا ما كان يسلك هو درب الأبواب القليقية، الضارب شمالا من طرسوس، ومنه يأخذ الطريق العام إلى القسطنطينية، وهو الذي سلكه سعاة البريد، ويمر منه وفود قيصر والخليفة،

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، 226

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص149

(3) ابن خردابة، المصدر السابق، ص100، 101

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، 226

(5) عرفت في الأزمنة القديمة بالبستان، وهي أبلستا البيزنطية *ablastha*، وعربسوس اليونانية *arabissus*، أنظر: كي

لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص166

والطريق الذي تتبعه ندبات الغزو. وقد عني ابن خردادبة⁽¹⁾ بوصفه، وعنه نقل غير واحد من المصنفين بعده، وكان يعرف في قسمه الجنوبي بدرب السلامة ويتصل بما يسمى الأبواب القليقية، فيقول: «من طرسوس إلى العليق، إلى الرهوة، إلى الجوزات، إلى الجردقوب، إلى البزندون، ثم إلى معسكر الملك على حصن لؤلؤة، والصفصاف، وحصن الصقالبة، إلى نهر هرقله، إلى مدينة اللبن، إلى رأس الغابة ثم إلى المسكنين، إلى عين برغوث، إلى نهر الأحساء، إلى ريض قونية، إلى العلمين، إلى أبروسمانه، إلى وادي الجوز ومنه إلى عمورية».

وهناك طريق آخر يبدأ من البزندون إلى الكرم، إلى النوبة، ثم إلى الكنائس التي يمين كوكب، إلى وفرة، إلى بليسة، إلى مرج الأسقف، إلى فلوغري، إلى قرية الأصنام، إلى وادي الريح، إلى ملوطي، إلى الصيد، إلى مخاضة، إلى قرية الجوز، إلى الغطاسين، إلى قرية البطريق، إلى مرج ناقولية، إلى دنوس، فمنه طريق درولية، وطريق آخر متياسر، ومنه إلى حصن بلومين، إلى قطيئة، إلى أبدوس على المضيف، إلى خليج القسطنطينية⁽²⁾، أما المقدسي⁽³⁾ فيذكر أنّ أقصر الطرق إلى القسطنطينية من إقليم آقور ملطية.

4- الاتصال بين الجزيرة وأرمينية:

تقترب الجزيرة من أرمينية، علاوة على قربها من آسيا الصغرى، واتصالها بالشام عن طريق الثغور، وقد ذكر المسلمون مراحل طريق يمتد من نصيبين إلى أرزن وهو يسير من نصيبين، إلى دارا، إلى كفوتوثا، إلى قصر بني نازع، إلى آمد إلى ميفارقين، إلى أرزن وهي مدينة تتأخم أرمينية⁽⁴⁾.

ثانيا: الطرق البحرية

مارس العرب التجارة في البحر منذ القدم، وخاصة أهل جنوب وشرق الجزيرة العربية، ولما جاء الاسلام طغت التجارة البرية على المجتمع الإسلامي، لكن هذا لا يعني انعدام التجارة البحرية لفترات طويلة، ففي العصر الأموي نجد الدولة تتبنى تسهيل التجارة البرية، فالخليفة عمر بن عبد العزيز أصدر

(1) المسالك والممالك، ص 100، 101

(2) ابن خردادبة، المصدر السابق، ص 100-103

(3) المصدر السابق، ص 136

(4) فتح عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 227

أمرا إلى العمال يأمر بالآلا توضع العراقيل في سبيل من يتاجرون بحرا فيقول: «فأذن فيه أن يتاجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإنّ البر والبحر لله جميعا، سخرهما لعباده، يبتغون فيهما من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معاشهم»⁽¹⁾.

أمّا عن منطقة شمال الشام والجزيرة والثغور على حافظتها، فقد ربطتها الطرق بما حولها من أقاليم، حيث تقترب بواسطة هذه الطرق من البحار، وهذا الموقع هياً لتلك المنطقة دورا هاما بالنسبة لتجارة الشرق مع الغرب⁽²⁾.

فقد كانت التجارات الرومية تصل إلى مناطق الثغور من عدة طرق، حيث تنقل عبر الموانئ البحرية، سواء البحر الأسود حيث ميناء طرابزون⁽³⁾ على الساحل الجنوبي لبحر بنطس⁽⁴⁾، أو عبر ميناء أنطالية⁽⁵⁾ على ساحل بحر الشام، حيث تستقبل تلك الموانئ البضائع والسلع من القسطنطينية، ثم يتولى التجار والذين كانوا يجتمعون بالموانئ والتي منها ينطلقون وإليها يعودون نقلها إلى بلاد المسلمين عبر مناطق الثغور البرية⁽⁶⁾.

فقد مخزت سفن التجار موانئ بلاد الشام وثغورها، ونفذ التجار إلى موانئ البحر الأحمر، اذ ترد إشارات حول مدى ارتباط الشام بالبحر الأحمر، فيعتبر القلزم فرضة مصر والشام، ومنها تحمل حمولات الشام ومصر إلى الحجاز واليمن وسواحل البحر⁽⁷⁾.

(1) أبو عبد الله ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، تح: أحمد عبيد، مطبعة الاعتماد، ط2، مصر، 1954، ص82

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص227

(3) تسميها المصادر العربية (أطرابزنده): وهي مدينة من أعيان مدن الروم على ضفة بحر القسطنطينية الشرقي، وهي مشرفة على البحر، وماؤه محيط بما كالخندق محفور حولها بأسرها، وعليه قنطرة إذا داهمهم عدو قطعوها، وأكثر أهلها رهبان، أنظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص179

(4) يقع بحر بنطس (البحر الأسود) في وسط المعمورة بأرض الصقلية والروس، ويعرف عند المسلمين ببحر طرابزنده، يخرج منه خليج يمر بسور القسطنطينية حتى يقع في بحر الشام، أنظر: ياقوت الحموي، المعجم، ج1، ص500

(5) أنطالية: بلد كبير من مشاهير بلاد الروم، كان أول من نزله أنطالية بنت الروم، وهي حصن للروم على شط البحر، منيع واسع، كثير السكان، تنتهي إلى خليج القسطنطينية، أنظر: الحموي، المعجم، ج1، ص270

(6) كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص168

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ج1، ص10

وتذكر المصادر وجود طريق بحري يربط موانئ الشام بالحجاز واليمن، وهو الطريق الساحلي القادم من اللاذقية، إلى جبلة، إلى طرابلس، ثم بيروت، إلى صيدا، وصور، إلى أرسوف، ويافا، وعسقلان، إلى غزة، إلى رفح، فالعريش، إلى المخلصة، إلى قصر حصن النصارى، إلى الفرما، ومنها برا القلزم عبر مياه البحر الأحمر، إلى الجار وجدة⁽¹⁾، وقد ذكر أنّ الخليفة المهدي سنة 161هـ/778م أمر بإحضار الرخام لتبليط الكعبة، فحملت من الشام وأنزلت بجدة ومنها إلى مكة⁽²⁾.

وهناك طريق آخر تتحكم به الثغور البحرية الجنوبية لساحل الشام (غزة وعسقلان)، نظرا لموقعها الجغرافي المميز الواقع على حافة الأراضي الخصبة عذبة المياه والتي تأتي مباشرة بعد برية سيناء، حيث كانت المحطة الطبيعية الأولى للآتين من مصر باتجاه الشام، والأخيرة للقادمين من الشام وجهتهم مصر أو الحجاز، فهي ملتقى القوافل التجارية وغير التجارية قبل دخول البادية⁽³⁾.

وعبر بحر الشام يتجه طريق آخر إلى القسطنطينية من ناحية وأنطاكية من ناحية أخرى، ثم يسير التجار على ثلاث مراحل إلى الجابية، ثم يركبون الفرات إلى بغداد، ثم إلى دجلة، إلى الأبله، إلى عمان والسند، والهند، والصين⁽⁴⁾.

وطريق بحري آخر بين بلاد الشام وصقلية، بدليل عودة السفن محملة بالمعادن منه، وقد ذكر البلاذري⁽⁵⁾ ت 279هـ/892م أنّه سبى عبد الله بن قيس بن مخلد الدرقي صقلية، فأصاب أصناما وذهبا وفضة، مكلفة بالجواهر فبعث بها إلى معاوية.

وقد لعبت بعض الثغور البحرية الشامية دورا مهما في حركة التجارة البحرية، وعبرها كانت تنقل البضائع والسلع التجارية من الشرق بحرا إلى أوروبا والعكس، ومن أبرز تلك المدن والموانئ نذكر ما يلي:

(1) ابن خردزابه، المصدر السابق، ص 80-98

(2) قطب الدين محمد بن أحمد المكي الحنفي النهروالي، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، إشراف: سعيد عبد الفتاح، تح: هشام عبد العزيز عطا، المكتبة التجارية، (د،ط)، مكة المكرمة، (د،ت)، ص 137

(3) البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ط 1، بيروت، 1996، ج 1، ص 94

(4) ابن خردزابه، المصدر السابق، ص 154

(5) فتوح البلدان، ص 233

طرابلس: كانت ميناء تجاريا نشطا في هذه الفترة بدليل حركة السفن المتصلة، يذكر الاصطخري⁽¹⁾ أن: «بها سفنا تسافر إلى بلاد الروم والمغرب والأندلس للتجارة»، وقد وصفت بكثرة الوارد والصادر إليها، ومركزا لتحصيل المكوس على السفن القادمة من بلاد الروم والغرب⁽²⁾.

أما ناصر خسرو⁽³⁾ فقد صور ميناء طرابلس التجاري بقوله: «والميناء اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن وهي تشبه الاصطبل وظهرها ناحية المدينة، وحائطاها داخلتان في البحر، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعا وقد شدت السلاسل بين الحائطين، فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر فوقها، ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء»، أما اليعقوبي⁽⁴⁾ فيذكر أن طرابلس كانت مرفأ تحمل ألف مركب. إلى الجنوب من طرابلس كانت بيروت إحدى الموانئ الشامية الفعالة، التي شهدت نشاطا تجاريا، وكانت منفذ التجارة الواردة من الشرق إلى دمشق، وتجارات البحر عليها دارة، واردة وصادرة، ومن ثغر صور كانت تخرج المراكب إلى بلاد الروم محملة بالبضائع، ويافا التي كانت تعد إحدى البوابات الرئيسية الغربية لبلاد الشام، وعبرها يتم الاتصال بدول بحر الشام، وكانت منذ القدم محطة تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب، وكانت جسر عبور للقوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام⁽⁵⁾.

وكذلك غزة وعسقلان اللتان ازدهرت فيهما التجارة وكانت موانئهما على اتصال بالقسطنطينية⁽⁶⁾ وكانت الضرائب المحصلة من تلك الموانئ أغلب ما يحصله الروم من مراكب المسلمين في الموانئ الأخرى⁽⁷⁾، وهذا يوحي بضخامة حجم التجارة التي كانت تجتمع فيها وتجلب من وإلى بلاد المسلمين.

(1) المسالك والممالك، ص 61

(2) الادريسي، المصدر السابق، ج 1، ص 372

(3) الرحلة، ص 15، 16

(4) البلدان، (ملحق) ص 27

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 163، 170

(6) ابن شداد، المصدر السابق، ج 1، ص 107، 108

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 197

ويذكر أنّ الموانئ الشامية عانت ركوداً تجارياً في بداية العصر العباسي الأوّل، بخلاف ما كانت عليه في العصر الأموي، إذ تكاد تكون الرحلات التجارية قد توقفت منها، إلاّ اليسير منها والتي بلغت القسطنطينية، ويرجع أرشيبالد لويس⁽¹⁾ الأمر إلى نزوح عدد من المسيحيين عنها منذ سنة 198هـ/813م تحت ضغط العباسيين والذي كان له آثاره البعيدة فيما لحق هذه السواحل من كساد، غير أنّ النشاط التجاري عاد إلى الانتعاش بعد فتح موانئ بحر الشام مع بداية العصر العباسي الثاني أمام التجارة الإسلامية، فانتعشت طرابلس، وبيروت، وصور، وسائر الموانئ الساحلية الأخرى.

وقد استمرت حركة السفن التجارية في بحر الشام، ولم يكن لسيطرة المسلمين عليه أثر اقتصادي ضار بالأقاليم البيزنطية، وليس ثمة دليل على محاولة المسلمين عرقلة التجارة الذاهبة إلى الإمبراطورية أو الخارجة منها، فحقيقة أنّ غارات المسلمين البحرية على السواحل البيزنطية استمرت طيلة القرن 3هـ/9م، كما نجحوا في الاستيلاء على جزيرتي كريت وصقلية، غير أنّ فترات السلم الطويلة بين العمليات الحربية، سمحت بكثير من النشاط التجاري بين الطرفين، ولا دليل كذلك أنّ الإمبراطورية البيزنطية عانت أي تدهور اقتصادي خلال تلك المدة بل عكس ذلك⁽²⁾.

إذاً هذا فيما يخص أهم الطرق التجارية والبحرية البرية منها والبحرية، أمّا بالنسبة لمسافاتها ومراحلها وسككها، فقد عدّها واتفق عليها غير واحد من الجغرافيين؛ أمثال ابن حوقل والمقدسي والاصطخري، ولعل أهمها:

- ذكر ابن حوقل⁽³⁾ أنّه: «من حد ملطية إلى رفح عبر منبج، وحلب، حمص، ودمشق، وطبرية، والرملة، ثم إلى رفح 25 مرحلة، وعرضهما في بعض المواضع أكبر من بعض، وذلك أنّ عرضها طرفاها، وأحد طرفيها من الفرات من جسر منبج إلى طرسوس عبر منبج، وقورس، ثم على العواصم في حد أنطاكية، ثم يقطع جبل اللكام إلى بياس، ثم التينات، والمثقب، والمصيصة، وأذنة، ثم طرسوس، وذلك نحو 10 مراحل، وإن سلكت من بالس إلى طرسوس عبر حلب، وأنطاكية، والاسكندرية،

(1) المرجع السابق، ص 191، 258

(2) نفسه، ص 258

(3) المسالك والممالك، ص 125 - صورة الأرض، ص 170

وبياس، فالمسافة أيضا نحو 10 مراحل».

- أمّا المقدسي⁽¹⁾، فيقول: «أمّا المسافات فتأخذ من حلب إلى بالس يومين، من حلب إلى قنسرين يوما، وكذلك إلى الأثارب وحلب إلى منبج يومان، ومن حلب إلى أنطاكية خمسة أيام، ومن أنطاكية إلى اللاذقية ثلاثة أيام، ومن منبج إلى الفرات مرحلة، وتأخذ من دمشق إلى طرابلس، وإلى بيروت أو إلى صيدا أو إلى بانياس أو حور يومين، ومن بيروت إلى صيدا أو إلى طرابلس مرحلة».

واتفق الاضطخري⁽²⁾ مع سابقه في ذلك، ودقق أكثر في تحديد مسافات تلك الطرق، بذكر المسافات والسكك للمنطقة بتفصيل أكثر، فذكر جند قنسرين على حدى، والعواصم والثغور الشامية والحزيرية، وسنأتي على ذكرها مبتدئين بمسافات العواصم وهي كالاتي: من أنطاكية إلى اللاذقية ثلاثة مراحل، ومنها إلى بغراس يوم، وإلى الأثارب يومان، وإلى حمص خمسة أيام، وإلى مرعش يومان، وإلى الحدث ثلاثة أيام.

أمّا جند قنسرين: فمن حلب إلى بالس يومان، ومن حلب إلى قنسرين يوم، ومن حلب إلى الأثارب يوم، ومن حلب إلى قورس يوم، ومن حلب إلى منبج يومان، ومن حلب إلى الحناصرة يوم. أمّا الثغور الجزيرية: فمن منبج إلى الفرات مرحلة خفيفة، ومن منبج إلى قورس مرحلتان، ومن منبج إلى ملطية أربعة أيام، ومن منبج إلى ملطية أربعة أيام، ومن منبج إلى سميساط يومان، إلى حصن منصور يوم، ومن حصن منصور إلى ملطية يومان، ومن حصن منصور إلى زبطرة يوم، ومن حصن منصور إلى الحدث يوم، ومن الحدث إلى مرعش يوم، ومن ملطية إلى مرعش ثلاثة مراحل كبار.

أمّا الثغور الشامية: فمن اسكندرونة إلى بياس مرحلة خفيفة، من بياس إلى المصيصة مرحلتان، من المصيصة إلى عين زربة يوم، ومن المصيصة إلى أذنة يوم، ومن أذنة إلى طرسوس يوم، ومن طرسوس إلى عين زربة يوم، ومن طرسوس إلى أولاس على بحر الروم يومان، ومن طرسوس إلى الجوزات يومان، ومن طرسوس إلى بياس فرسخان (حوالي 10 كلم)، ومن بياس إلى الكنيسة والهارونية أقل من يوم، ومن الهارونية إلى

(1) أحسن التقاسيم، ص 190

(2) المسالك والممالك، ص 68، 69- ابن حوقل، صورة الأرض، ص 170

مرعش من ثغور الجزيرة أقل من يوم.

- وحدد ابن خردادبة⁽¹⁾ مسافات درب الأبواب القليقية قائلا: «من طرسوس إلى العليق اثنا عشر ميلا (19.2 كلم)، ثم إلى الرهوة، ثم إلى الجوزات اثنا عشر ميلا، ثم إلى الجردقوب سبعة أميال (11.2 كلم)، ثم إلى البزندون سبعة أميال، ثم إلى معسكر الملك على حصن لؤلؤة، والصفصاف عشرة أميال (16 كلم)، وكذلك حصن الصقالبة عشرة أميال، وتصير إلى معسكر الملك...».

(1) المسالك والممالك، ص 166

المبحث الثاني: المنشآت التجارية بمناطق الثغور

تعد المنشآت التجارية أساساً تنظيمياً للحركة التجارية، وبقدر استكمال ذلك الأساس يتحدد مدى الازدهار التجاري، وهذا لا يمنع في الوقت نفسه أن يكون تدفق السلع على أحد المراكز التجارية الرئيسية هو الدافع إلى إيجاد تلك التنظيمات أو المنشآت التجارية، أو يكون من العوامل المؤدية إلى تعديلها أو استكمالها بما يناسب حجم وأهمية تلك الحركة، ولكي تقوم تلك المنشآت بتحقيق الهدف من إنشائها، وضعت تحت إشراف محكم محدد الاختصاصات، بما يتناسب مع القواعد والأمور الشرعية للتجارة.

والحديث عن المنشآت القديمة التي لعبت دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي المحلي والعالمي، يستوجب التعرف على ما كانت تحمله من مسميات، اختلفت باختلاف الزمان والمكان وتبعاً للوظيفة التي تشغلها وما يمارس فيها من نشاط، وقد تأصلت هذه المسميات كمصطلحات أساسية شاعت على الألسن، وتناقلتها كتب الرحلة والتراجم، وأثبتتها النصوص والوثائق التاريخية، فكانت الأسواق والوكالات والخانات والقياسر والفنادق من المنشآت التجارية التي قامت على أساس تنظيمي للحركة التجارية وهذا ما سنوضحه في هذا المطلب.

1- الأسواق:

تعد بمثابة القواعد الأساسية اللازمة لاستمرار الحياة الاقتصادية، وهي أقدم أشكال النظم التجارية، وقد نشأت ونمت في إطار من احتياجات المجتمع، فهي من معالم المدينة الإسلامية ومن أهم العناصر المكونة لبنيتها المعمارية إلى جانب المسجد ودار الإمارة، وهي المركز التجاري الرئيسي الذي يلتقي فيه التجار والحرفيون من أجل البيع والشراء، كما أنّها تمثل المركز الحيوي للنشاط التجاري والاقتصادي⁽¹⁾. وقد اهتم المسلمون منذ البدء بالأسواق عند بنائهم المدن الجديدة في كل الأمصار بما فيها مدن الثغور التي لا تكاد تخلو منطقة من مناطقها منها، وهي نتاج طبيعي لازدهار حركة التجارة فيها، تتمثل في المناطق التي يتم فيها ممارسة النشاط التجاري والصناعي، مثل: الحوانيت والقياسريات

(1) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص154

والخانات والساحات العامة، فعني المسلمون بها عند تمصيرهم للثغور واسكان الناس فيها، وكانت تتواجد دائما بجوار المساجد الجامعة⁽¹⁾.

وقد حصلت الأسواق في المنطقة على عناية من حيث العمران والعمارة، وتنوعت وظائفها بحسب السلع أو المهن التي خصت بها، وغدا معظمها مسقوف الفناء مغطى بالخشب أو بألواح أو حصي، فكانت أسواق دمشق مثلا أكثرها مغطاة، وأحسن مثال لهذا النوع من الأسواق نجده في مدينة حلب التي تغطيها قباب بنيت بالحجر المنحوت، وزودت بفتحات للنور والهواء⁽²⁾، فضلا عن كونها مبلطة بالحجر الصلد، فيذكر ابن حوقل⁽³⁾ أن أسواق حمص مفروشة بالحجارة مبلطة.

وقد برزت ظاهرة التخصص في الأسواق بمرحلة ليست ببعيدة عن فترة الدراسة -منذ منتصف القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد⁽⁴⁾- حيث يجتمع أهل السلعة فيه فيسهل على الدولة الإشراف عليها⁽⁵⁾، أمّا عن تحديد نوعيات الأسواق في مناطق الثغور عموما فقد وردت إشارات واضحة عن وجود الأسواق الدائمة والموسمية والأسبوعية⁽⁶⁾.

يضاف إلى تلك الأسواق نوع آخر وهو الأسواق المتنقلة، حيث كان بعض التجار يرافقون الجيوش في غزواتهم أو مرابطتهم في الثغور للأعمال التجارية، ويزودون الجيوش بما يحتاجونه من أدوات القتال أو غذاء أو علف للدواب، وفي نفس الوقت يشترون منهم ما يحصلون عليه من غنائم⁽⁷⁾، أو حتى اقراضهم الأموال عند الحاجة⁽⁸⁾.

(1) المهلب، المصدر السابق، ص 46

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 156

(3) صورة الارض، ص 162

(4) الطبري، تاريخه، ج 7، ص 240، 241

(5) الشيزري، المصدر السابق، ص 11

(6) يذكر البلاذري أنّ معاوية لما حاصر قيسارية أثناء الفتح وجد بها ثلاثمائة سوق قائمة كلها، ويبدو أنّها إشارة لوجود كل

الأنواع، أنظر: فتوح البلدان، ص 143

(7) ابن خردزابة، المصدر السابق، ص 112

(8) فقد هم التجار في اقراض الجيوش الإسلامية التي كانت تحارب الروم بقيادة مسلمة بن عبد الملك سنة 86هـ/705م بعشرين

ألف دينار لفتح القسطنطينية، أنظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج 5، 608

فكثرة الأسواق وانتشار ظاهرة التخصص فيها يرجع إلى إقبال الناس عليها، فتكاثفت مساعي التجار مع الدولة على إقامة المنشآت التجارية، فنجم عن ذلك تدفق السلع على أسواقها، والأموال وأدى ذلك إلى نشاط الحركة التجارية من جراء التطور الذي شهده المجتمع من زيادة أرزاق الجند ورواتب الموظفين⁽¹⁾، ومن بين مدن الثغور التي اشتهرت بأسواقها المتسعة ونشاطها التجاري خلال الفترة مابين القرنين 2-4هـ / 8-10م ومن خلال كتب الجغرافيين والمؤرخين أمثال البلاذري (ت 279هـ / 892م) وابن خردادبة (ت 300هـ / 912م)، والطبري (ت 310هـ / 922م)، والاصطخري (ت 346هـ / 957م) وابن حوقل (ت 367هـ / 977م) والذين عايشوا الفترة وأسهبوا في كتاباتهم عنها نذكر:

منبج: ذات أرزاق واسعة، وتجارة دارة، وأموال متصرفة، وغللات قائمة، وأسواقها أزلية عامرة، فسيحة ومتسعة، ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا، وأعلي أسواقها مسقوفة⁽²⁾، ومما يؤكد نشاط أهل منبج التجاري ما يذكر من مبادرة أهل منبج بالكتابة إلى الخليفة عمر (رضي الله عنه) يطلبون منه السماح لهم بدخول تجارتهم أراضي المسلمين⁽³⁾، أي أن منبج كانت نشطة تجاريا بغض النظر عن دقة هذه الرواية.

طرسوس: وصفت بأسواقها كسوق الصفارين وسوق السلاح، ويبدو أنّ وجود مثل هذه السوق في الثغور لحاجة الناس للسلاح ولكونهم في حالة رباط دائم، علاوة على وجود عديد الفنادق والحمامات، وصفها ابن حوقل⁽⁴⁾: «بأنّها كثيرة الخصب والغللات والأموال والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين».

المصيصة: التي تقع على الطريق التجاري الواصل بين حلب والثغور الشامية، وهي من المدن المحصنة ذات الأسواق الكثيرة⁽⁵⁾.

(1) حاتم نايل الضمور، المقال السابق، ص(15-41)

(2) الحميري، المصدر السابق، ص 547

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 168، 169

(4) نفسه، ص 168

(5) ابن خردادبة، المصدر السابق، ص 99

أذنة: كانت مدينة ذات أسواق وصناعات ووارد وصادر⁽¹⁾.

بالس: كانت مرفأ ومخزنا للبضائع الآتية من الشرق عبر الفرات والآتية من الغرب عبر البحر، وكان بها عددا كبيرا من التجار الأغنياء⁽²⁾.

رصافة هشام: كان أهلها مياسير ذوي ثروة وتجارة⁽³⁾.

أما عن ثغور الجزيرة، فيبدو أن ثغر ملطية من أجل الثغور وأشهرها، غنية ببعض السلع التجارية كالجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية، غير أنها لم تكن محصنة، مما جعلها عرضة للسلب والنهب وقد أثر ذلك في حركة التجارة⁽⁴⁾.

أما الحدث ومرعش، فتقعان على الطريق التجاري الواصل بين الرقة والثغور الجزيرة⁽⁵⁾، ويبدو أن ليس لهما أهمية تجارية، حيث يذكر الاصطخري أن الحدث ومرعش مدينتان صغيرتان عامرتان، فيهما مياه وزروع وأشجار كثيرة⁽⁶⁾، أما ثغر كيسوم ففيه سوق ودكاكين وافرة⁽⁷⁾، واشتهرت أنطاكية بأسواقها العامرة بالسلع والبضائع المختلفة الأنواع⁽⁸⁾.

وبرزت أهمية حلب من الناحية الاقتصادية في كونها مركزا تجاريا يفد إليها كثير من التجار، وقد انتشرت الأسواق فيها، وكانت تحوي الأصناف المختلفة من البضائع والسلع، ويذكر الاصطخري⁽⁹⁾: «أنّ دار الإمارة والأسواق ومجمع الناس بحلب»، كما يصفها ابن حوقل⁽¹⁰⁾: «لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال».

(1) الحميري، المصدر السابق، ص 20

(2) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص 139

(3) ابن العديم، المصدر السابق، ج 1، ص 113

(4) ابن حوقل، صوة الأرض، ج 1، ص 113

(5) قدامة، المصدر السابق، ص 115

(6) الادريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 652

(7) الحموي، المعجم، ج 4، ص 497

(8) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص 11

(9) المصدر السابق، ص 97

(10) صوة الأرض، ص 163

تعد مجعاً تجارياً للبضائع والسلع التي تأتي من خراسان، والعراق، والهند، والصين، ومصر، وجنوب الشام، حلب، وكانت أيضاً مجعاً للتجار الذين يأتونها لبيع بضائعهم، وقد أكد ذلك ناصر خسرو⁽¹⁾ بقوله: «ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد من أجل البيع والشراء».

ومن أشهر أسواقها: سوق الحرير وسوق البز، وقد تعجب ياقوت⁽²⁾ من النشاط الاقتصادي والتجاري في قيسارية لباعة البز، فقال: «أنّ هناك عشرين دكاناً للمتخصصين في بيع هذا الصنف من الأقمشة»، بالإضافة إلى سوق الكتانين، والفرايين، وسوق الغزل، وسوق الغنم، والبقر والخيول والجمال، وكان لهذه الأسواق أهمية بالنسبة للحركة التجارية والعسكرية، وسوق لبيع الطيور، وأسواق الحرف والصناعات: كسوق الحدادين، والبنائين، والحصارين، والسراجين، والخشابين، والخرازين، والدلائين، وسوق الصابون، والنحاسين، والزجاجين، والمزوقين، والعطارين، وسوق البن⁽³⁾.

ومن أسواق المدن الساحلية، وصفت أسواق صيدا وصور بأنها جميلة ونظيفة وعامرة، وأسعارها رخيصة، يحمل منها الزيت والتين والزبيب إلى مصر⁽⁴⁾.

أمّا طرابلس فكان يفتد إليها أعداد كبيرة من تجار الغرب يستوردون من منتجاتها القطن وسلعا أخرى⁽⁵⁾، وكانت ترسو في مينائها أعداد كبيرة من المراكب، وصفها يعقوبي⁽⁶⁾ بأنها: «ميناء عجيب يحتمل ألف مركب» وهذا يوحي بنشاط الحركة التجارية فيها، واشتهرت أسواقها بأنها جميلة ونظيفة والناظر يظن أنّ كل سوق قصر مزين، وصفها خسرو⁽⁷⁾ قائلاً: «أسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين وقد رأيت ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مئة مرة، كما أن باب الوارد والصادر إليها كثير، حيث تتجمع السفن المحملة بالسلع وصنوف التجارات»

(1) المصدر السابق، ص 10

(2) المعجم، ج 2، ص 284

(3) حاتم الضمور، المقال السابق، ص (15-41)

(4) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص 14، 15

(5) ابن الشحنة، المصدر السابق، ص 264

(6) البلدان، ص 327

(7) المصدر السابق، ص 14

وعدت يافا إحدى البوابات الرئيسية الغربية لبلاد الشام، وعبرها يتم الاتصال بدول حوض بحر الشام، وكانت منذ القدم محطة تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب، وكانت جسر العبور للقوافل التجارية بين مصر وبلاد الشام⁽¹⁾، وكذلك غزة وعسقلان اللتان ازدهرت فيهما التجارة وكانت موانئهما على اتصال مع القسطنطينية، وكانت أسواق غزة تلي حاجة سكانها من البضائع والسلع التجارية، وكان التجار القادمون من المدن الشامية وأوروبا يفدون إليها، وكانت نقطة التقاء لتجارة بلاد الشام مع مصر⁽²⁾، ولذلك استمرت خلال العصر الأموي مزدهرة تجارياً فوصفت بحسن أسواقها، ثم فقدت هذه الأهمية التجارية مبكراً ولم تتطرق المصادر إليها.

أمّا ثغر بيروت واللاذقية فقد اعتبرا منفذاً للتجارة الواردة إليها من الشرق إلى البحر، ويعد ميناء بيروت الشريان الرئيسي لصادرات دمشق ووارداتها⁽³⁾، ومن صور كانت تخرج المراكب إلى بلاد الروم محملة بالبضائع⁽⁴⁾.

ومن خلال ما سبق، يتضح أن معظم أسواق مدن الثغور قد عرفت ظاهرة التخصص، وتسميتها كانت متوقفة على نوع المادة التي تعرض فيها، وكان لهذه الظاهرة خصائص إيجابية منها التسهيل على الناس الوصول إليها بكل يسر وسهولة دون الحاجة إلى التفتيش عن سلعة معينة، والتسهيل على الدولة السيطرة عليها⁽⁵⁾.

وامتازت الأسواق المتخصصة بأنها ثابتة مستمرة ودائمة، يبيع فيها أهل المدن، تخضع لصاحب السوق، ولا يستطيع فيها التاجر الجشع أن يرفع سعر سلعته خوفاً من المنافسين له، والذي قد يؤدي إلى حدوث الاحتكار، أو ارتفاع غير طبيعي للأسعار، ثم أن المشتري ينتقي أجود ما يحتاج إليه في وقت قصير لتقارب الدكاكين، ومن حيث النظام والترتيب فإن ذلك يعطي منظراً جميلاً للمدينة، أمّا

(1) ابن حوقل، صور الأرض، ج 1، ص 170

(2) حاتم الضمور، المقال السابق، ص (15-41)

(3) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص 98

(4) اليعقوبي، البلدان، ص 227

(5) الشيزري، المصدر السابق، ص 11

عيوب ظاهرة تخصص الأسواق، هو أنّ الفرد إذا ما أراد أن يشتري أصنافاً عدة من السلع كان لابد أن يتجول في المدينة كلها حتى يستطيع أن يجمع كل ما يحتاج إليه⁽¹⁾.

أمّا بالنسبة إلى الأسواق غير الدائمة، فقد ضم هذا النوع أعماطاً عدة: كالموسمية والسنوية والأسبوعية، وعرفت الأسواق الموسمية والسنوية في المنطقة منذ فترات سابقة لهذه المرحلة، حيث كان هناك أسواق موسمية تعقد في شهور من السنة، كان تقوم في ملتقى الطرق التجارية الكبرى، وفي الموانئ كغزة وبيروت واللاذقية وغيرها، وكان لموسم الحج ومرور قوافله عبر بلاد الشام إلى مكة أثره في قيام العديد منها، لاسيما أثناء استراحة الحاج في بعض المنازل التي كان يقيم بها يومين أو أكثر⁽²⁾.

وقد تطورت الأسواق الموسمية إلى أسواق من نوع خاص، لا تقتصر على البيع والشراء بل مكاناً تقضى فيه الشؤون الاجتماعية والسياسية ويتبارى فيها الأدباء والشعراء، وأقيمت أيضاً الأسواق الأسبوعية داخل المدن في الساحات العامة، وفي الأماكن الخالية من العمران⁽³⁾.

ويعرف كل سوق حسب يوم الأسبوع والمكان الذي تنصب فيه، كما شهدت معظم المدن إقامة الأسواق يوم الجمعة الذي يمثل اجتماع المسلمين، وبالتالي استغل بعض التجار ذلك بإقامة الأسواق، كما أقاموها خارج المدن ذلك لأن مساحة المدينة لا تسمح بعقد بعضها، ويشترط لإقامتها أن يكون مكاناً يسهل الوصول إليه، والرحيل عنه في أي وقت، وأن يكون مكاناً خالياً وواسعاً لمن يقصده، وأن يتوفر فيه الماء والكأ لتلبية حاجات رواده، ومن أمثلة تلك الأسواق سوق الثلاثاء، ويقع بالقرب من حلب جنوب أنطاكية وكان يحوي مياه وفيرة وفاكهة كثيرة تورد إليه من البساتين القريبة ويضم جميع الضروريات⁽⁴⁾، وتمت الإشارة إلى سوق آخر كان يقوم خارج مدينة جبلة ويبدو أنّه كان أسبوعياً⁽⁵⁾.

(1) حاتم الضمور، المقال السابق، ص(15-41)

(2) نفسه

(3) الغزي، المصدر السابق، ج1، ص87، 88

(4) أبي الفداء، تقويم، ص261

(5) ابن بطوطة، المصدر السابق، ج1، ص96

وبالنسبة للجزيرة، فكان من أهم أسواقها سوق دُنَيْسَر الذي كان له أهمية كبيرة، واتخذت فيه الخانات والفنادق والحمامات الخاصة بالتجار، وصفه ابن جبير⁽¹⁾ قائلاً: «بها يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد، بعدها سوق حفيلة، يجتمع لها أهل هذه الجهات المجاورة لها والقرى المتصلة بها، ويسمون هذه السوق البازار، وأكد أن أسواقها منتظمة دقيقة ومسقوفة بالخشب».

ومما ذكر نستنتج أن الأسواق في المنطقة لعبت دوراً كبيراً في حياة الدولة، سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، فكانت مركزاً للبيع والشراء وبها تعقد الصفقات، وتقر حالة البلاد الاقتصادية فهو يعد ميداناً لتصريف الإنتاج الزراعي والحيواني، كما أثرت في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية يلتقي المسلمون مع غيرهم فيتعارفون، وفيها اختلطت عناصر السكان المختلفة.

والظاهر أنه سبب الاتساع الكبير في قطاع التجارة، وفي ظل العلاقات التجارية النشطة في الفترة موضوع الدراسة التي كانت منطقة الثغور الإسلامية من أهم مراكزها، أنشئت القياسر والخانات والوكالات والفنادق، وتنوعت خدمة هذه المنشآت على جانب قيامها بمهمة السوق من بيع وشراء، فهي تقوم بمهمة النزول، ودور الإقامة للتجار الوافدين، وتحتوي على مخازن لحفظ متاجرهم وأموالهم وتؤدي خدماتها للتجارة العابرة من؛ تفرغ، وتحميل، وتخزين، وغير ذلك، ومن مزاياها أنها تقوم بمهمة البيع بالجملة إلى جانب البيع بالتجزئة، وعادة يبنى فوق هذه المؤسسات مساكن تؤجر للتجار، وترجع أهميتها في التنظيم التجاري الذي ساد في هذه الفترة، إلى طبيعة القاطنين فيها سواء في التجارة المحلية أو الدولية، ومعظم العاملين في هذه الوكالات من الشباب الذين هجروا أوطانهم بحثاً عن الثروة من التجارة واكتساب الخبرة⁽²⁾.

ومعظم مؤرخي العصور الوسطى لم يفرقوا بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق، فجميعها مؤسسات تجارية تتشابه في خدماتها وفي نظامها المعماري، فهي تتشابه في وجود حوش في وسطها، وحول الحوش ممر يصل إلى المخازن، وقد تكون دورين، كما أن بها دكاكين ومساكن لكل مفتاح

(1) المصدر السابق، ص 229-233

(2) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 286

خاص بها⁽¹⁾. وفيما يلي وصف لهاته المؤسسات التجارية:

2- الخانات:

بسبب موقع بلاد الشام الاستراتيجي المتميز والذي يشكل همزة وصل بين العالم القديم، ولما تملكه من ممرات مائية و برية على طرق التجارة، والتي امتدت من اليمن وخليج عدن إلى المشرق العربي المركز الأساسي لمعظم حضارات العالم القديم، واتصالها بآسيا الصغرى والثغور الممتدة عبر الأناضول، أصبح من البديهي لأصحاب التجارة أن يقوموا بتأسيس محطات تجارية على امتداد هذه الطرق وتأمين حمايتها ومستلزماتها، ما يفرضه التبادل التجاري من تفاعل انساني، وما ينتج عنه من تفاعل حضاري، فالمشرق ظل لآلاف السنين مصدرا لقائمة من السلع الثمينة الأكثر رواجاً في تجارة العالم القديم عبر محور يمتد من المشرق إلى الغرب، ولقد لعبت مناطق الثغور باعتبارها الفاصل بين الجهتين دوراً مهماً في ذلك.

وقد تحقق بناء الخانات بعد استقرار الإنسان ونمو مجتمعه الاقتصادي، وحاجته لتبادل منتجاته مع المناطق المجاورة، وقدرته على التنقل بوسائل تحتاج مثله إلى راحة بعد يوم كامل من السفر، والخان مصطلح فارسي معرب يعني القصر أو المنزل الكبير، وهو مبنى ضخمة محصن يضم مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع، يتوسطه فناء ضخم في هيئة رواق مغطى حيث يحفظ التجار بضائعهم، يتيح للمسافرين فرصة الراحة وحماية دوابهم وبضائعهم، كان يلجأ إليه التجار المسافرون على طرق التجارة، فهو مركز تجاري وسياحي في آن واحد، وأقدم خان أنشئ في العصر الاسلامي في المنطقة هو الخان الذي بناه الخليفة هشام بن عبد الملك 109هـ/727م على مقربة من قصر الحير الغربي⁽²⁾.

(1) نعيم زكي فهمي، ص286

(2) هناك من المؤرخين من يعيد بناء الخانات إلى عهد قورش أو كورش الأخميني 560-529 ق.م- أحد أعظم ملوك الفرس الأخمينية، استولى على آسيا الصغرى وبابل، حكم بين سنتي 550-529 ق.م-، ومنهم من يعيدها إلى فترة حكم الرومان، و كما يذكر أنّ تعبير خان قد انتشر منذ القرن 6هـ/12م: «ونزلنا بربطها في أحد خاناته»، أنظر: لطفي فؤاد، المرجع السابق، ص4، 19

يذكر البلاذري⁽¹⁾ سنة 279هـ/892م في وصف أحد الثغور الشامية من أنطاكية: «وكانت منازلها كالحانات»، وقد أطلق ابن جبير⁽²⁾ على هذه المنشآت اسم قيسارية: «ولا سيما قيسارياتها وهي مرتفعة كأها الفنادق مثقفة كلها أبواب من حديد كأها القصور».

على أن هذه التسمية لتلك المنشآت كان لها وظيفة رئيسية واحدة هي استقبال المسافرين وتأمين راحتهم وبضاعتهم، إلا أن هناك دورا آخر لها وهو استعمالها ككتكنات عسكرية أطلق عليها اسم رباط، للدلالة على انطلاق الحملات ثم على الحملة نفسها، وبعد استقرار الفتوحات دل على الحصون والقلاع والمخارص المقامة على الحدود الإسلامية وقد وجد نوعان منها؛ خانات الطرق وخانات المدن، وكانت خانات الطرق تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة تتراوح بين العشرين والثلاثين كيلومترا أي مسيرة يوم تقريبا، ومنها نموذجان الأول عبارة عن غرف مستطيلة تتوزع حول الفناء المركزي، والثاني عبارة عن بناء مربع أو مستطيل يضم أروقة تحيط بالساحة الداخلية⁽³⁾.

وقد تعددت هذه الخانات وكثرت وأصبحت من أهم مؤسسات التجارة الداخلية والخارجية - حتى القرن 9هـ/15م-، وكان كبار رجال الأعمال والتجار يتبارون في بناء المنازل والقصور الفخمة ويجولونها إلى خانات ووكالات القياسر ويؤجرونها للتجار، وبداخل الخانات مساجد صغيرة وخزينة عامة⁽⁴⁾.

ونذكر فيما يلي ما عثرنا عليه من أسماء السلع والمهن التي اقترنت بعدد من الفنادق والخانات منها: خان الملح، خان الطحين، خان الزيت، خان الرز، خان العنب، خان البيض، خان اللبن، خان البرغل، خان الصنوبر، خان الصابون، خان الحرير، خان الحناء، خان الخشب، خان القطن، خان الجواري والرقيق، خان الدقاقين، خان الخياطين، خان النحاسين، خان النسيج... الخ.

وللخان وظائف متعددة نذكر منها: الوظيفة العسكرية والتي تتمثل في تضليع الخانات وتزويدها بالأبراج والمرامي والتحصينات، والغرف العلوية للحرس ولحماة الطريق، والبريدية من خلال تزويد

(1) فتوح البلدان، ص 170

(2) المصدر السابق، ص 207

(3) لظفي فؤاد لظفي، المرجع السابق، ص 9، 17

(4) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص 295

الخانات بمراكز بريدية وأبراج للتنوير وللحماية، ووظيفة فندقية وهي أهم وظائف الخان، وقد جهزت بمصاطب لينام عليها المسافرون، وكان الماء والمسجد مرافقين لكل الخانات، ثم أنشئت في فترات لاحقة المطابخ والمخازن، أما التجارية فقد زودت أكثر الخانات بمخازن ودكاكين تجارية وبعضها بأسواق مقامة خارج الباب، والوظيفة الحرفية حيث كان بعضها متخصص في بيع منتج واحد، أما الوظيفة المستودعية فكانت مرتبطة بالوظائف التجارية والفندقية والحرفية، وكانت كل الخانات تحتوي على مستودعات لحزن البضائع، بالإضافة إلى الوظيفة السكنية حيث كانت بعض الخانات أو القيساريات تحوي على طابق لسكن الفقراء أو لإسكان الناس بالأجرة لمدة طويلة، وأخيرا الوظيفة القنصلية حيث كانت بعض الخانات مخصصة للتجار الأوروبيين وكان من بينها ما استخدم لحماية المكوس والضرائب⁽¹⁾.

فالخان إذا يؤدي وظيفة حي قائم بذاته، تزدهم طرقته وحرارته الضيقة بالناس خلال مزادات التجارة، وقد يتكون أحيانا من ثلاثة طوابق، وفي بلاد الشام وثورها وجدت الخانات في معظم الموانئ والمدن، وأشهرها خان دمشق فهو علاوة على استقباله التجار بسلعهم، كان يستقبل الحجاج وكان له مفتاح وباب يغلق على سكانه ليلا وأوقات الصلاة يوم الجمعة، وكذلك في القسطنطينية كانت خانات التجار الوافدين مجانية وشجعت الحكومة وصول التجار لتنشيط التجارة⁽²⁾.

وعليه مصطلح الخان أطلق فعلا فيما بعد⁽³⁾ على منشآت التجارة والسفر إلى جانب الفندق وبدأ بالشيوع كمرادف له، ومع أننا لا نجد عند أبي عساكر أي ذكر للخانات، فإننا نجد أن المؤرخين الذي أتوا بعده أخذوا يفضلون كلمة خان⁽⁴⁾.

ومازالت المنطقة تحتفظ بالعديد من الخانات من مختلف العهود داخل المدن وعلى الطرقات العامة، أما من حيث الوظيفة فإننا نجد الفنادق والخانات مخصصة للأغراض التجارية والسياحية

(1) لظفي فؤاد لظفي، المرجع السابق، ص 168، 169

(2) نعيم زكي، المرجع السابق، ص 293-295

(3) في فترة لاحقة لموضوع بحثنا وبالتحديد منذ العهد الأيوبي 569-648هـ/1147-1250م

(4) حتى أن ابن جبير حين مرّ بفندق صلاح الدين أسماه خان السلطان، أنظر: الرحلة، ص 176، 177

بشكل عام، فهي إمّا محطات لقوافل التجار والمسافرين والحجاج من الطرق العامة، وإمّا منازل للتجار وأماكن لبيع السلع داخل المدن، وأقدم خان في دمشق هو دار الضيافة 123هـ/741م، وخان أماجور 265هـ/878م⁽¹⁾.

3- القيساريات:

من الأبنية التي شاع استعمالها للأغراض التجارية القيساريات (ج قيسارية)، وقد ظهر المصطلح في الشام قبل مصر، ولعلها مأخوذة من كلمة قيصرية *Césarie* أو قيصر لقب أباطرة الروم، وتعني في الأصل البناء الملكي أو الإمبراطوري⁽²⁾.

والقيسارية تعني السوق المسقوفة -فالسوق لا يشترط أن يكون مسقوفاً- تحتوي على غرف ومخازن للتجار، يعلوها بناء بارتفاع دورين أو ثلاثة لسكنهم⁽³⁾، تعد من أهم المنشآت لاستثمار الأموال وتحقيق الربح الوفير وإن كانت هناك قياسر خاصة بكبار التجار فقد جرت العادة أن تنتشر بعض أنواع الصناعات الصغيرة فيها كما كان لكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين⁽⁴⁾.

وهذا النوع من المباني لم يكن موجوداً في فترة البحث على الرغم من قدم المؤسسة في الحضارات السابقة، وقد شاع استخدامه في العهد الإسلامي وأطلق على المباني ذات الوظيفة الاقتصادية المخصصة للمهن والحرف وأحياناً لسلعة ما، وبعضها لنزول التجار أو لسكن الجاليات الأجنبية، حتى اختلط الأمر في التمييز بين القيسارية والخان ابتداءً من مصدر الاسم ومروراً بالهندسة المعمارية، وانتهاءً بالغاية التي خصصت لها هذه العمارة أو تلك، ويمثال بناء القيسارية ومهامه الأبنية التي ظهرت في العصر العثماني باسم الخان، وظلت تسمية قيسارية شائعة حتى وصل الأمر إلى إطلاق الإسمين على مكان بعينه⁽⁵⁾.

(1) لطفي فؤاد لطفي، المرجع السابق، ص40

(2) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص295

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المالكي في مصر والشام، (د،د،ن)، ط2، القاهرة، 1976، ص463

(4) نعيم زكي، المرجع السابق، ص295

(5) محمد قاسم الخليل، القيساريات السورية، (2:5)، (17/6/2019)، (3/5/2012)، <http://www.marefa.org/>

وأقدم استخدام عثرنا عليه للمصطلح يرجع إلى العهد الفاطمي، حيث ذكر ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق تسع قيساريات موجودة في عهده⁽¹⁾.

4- الفنادق:

تمثل الفنادق قمة ما وصلت إليه طاقة المشروعات التجارية في العصور الوسطى، وتعتبر ذروة ما وصل إليه اجتهاد القوامين على التجارة حكومة وتجار وطنيين وأجانب، وقد عرفت بهذا الاسم في مصر وأحيانا وكالة، وعرفت في الشام باسم خان، ويبدو أنّ الفندق وإن اشترك مع الخان في بعض النواحي باعتبارهما من المؤسسات التجارية الهامة، فهو يعد من المباني التجارية المنشأة داخل المدن وعلى محطات القوافل المقامة على الطرق العامة⁽²⁾.

والفندق كلمة معربة من أصل لاتيني، مأخوذة من الكلمة اليونانية *Pando keion*، وهو عبارة عن مبنى فخم، لبعضها أكثر من طابق، ولها فناء داخلي مكشوف-غير مسقوف-، تحيط به الحوانيت في الطابق الأرضي حيث توجد المخازن وفوقها مساكن للتجار، ويحيط بالفندق حديقة غناء ربما يزرع بها التجار أشجارا من أوطانهم، وبالفندق قاعة عامة تستخدم مجلسا لعقد الصفقات التجارية⁽³⁾.

واضح اصطلاح الفندق في العهود اللاحقة ليظهر كترجمة للمصطلح الأوروبي أوتيل، الذي أطلق على المؤسسات الحديثة المخصصة لنزول السياح والمسافرين، على أنّ الفندق الوحيد الباقي في المنطقة هو محطة القوافل الواقعة على الطريق بين دمشق وحمص، قريبا من بلدة القطيفة المعروف باسم خان العروس⁽⁴⁾.

(1) هي: القيساريات الفخرية عند حمام القلانسيين شرقي كنيسة بولس بنيت في العهد الفاطمي 434هـ/1043م، قيسارية السلطان في زقاق الدر، قيسارية الجعفري بالشعارين، قيسارية الفراء، قيسارية القرش في درب عجلات، قيسارية الوزير في سوق القمح في الكتافين، قيسارية في أول درب اللبان عند المدرسة الحافظية شرقي جامع العثمان الجديد، قيسارية القض، قيسارية الصياغ، أنظر: ابن عساكر، تاريخ، ج2، ص 131، 141، 159، 157، 70، 74

(2) شاع استعماله في بلاد الشام منذ القرن 6هـ/12م، أنظر: نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص288

(3) نفسه، ص289-291

(4) لطفي فؤاد لطفي، المرجع السابق، ص19، 20

5- الوكالات:

أطلق مصطلح الوكالة على المؤسسات ذات الصفة التجارية والمهنية كمرادف للخان والقيسارية، ولم نعثر على استعمال له في بلاد الشام، إلا ما ورد لدى المؤرخ ابن عساكر⁽¹⁾ بعبارة دار الوكالة، دون إيضاح لوظيفة هذه الدار التي تبدو كإحدى المؤسسات العامة في دمشق على أيامه، ويقال: «الوكالة اسم للخان في عرف المصريين والدمشقيون يسمونها قيسارية».

والوكالة مركز للبيع والشراء والتخزين، والحجرات فوقها هي الرباع، تعود أهميتها في التنظيم التجاري الذي كان سائدا إلى طبيعة عمل المقيمين فيها سواء في التجارة الدولية أو المحلية، ومعظمهم من الشباب الذي هجروا بلدانهم بحثا عن الثراء من وراء التجارة واكتساب الخبرات، وأنّ بعض الأوروبيين يفضل وضع كلمة لوكندة هنا لاسم الربيع، كما اعتبروه فندقا مفروشا - إن لم يكن هناك مجال للمقارنة بين فنادقها الحالية ومثيلاتها في العصور الوسطى -⁽²⁾.

وجرت العادة أن التجار القادمين من بلد واحد ينزلون في وكالة معينة حيث يألف بعضهم بعضا، وكان التاجر يأمن على أمواله وبضائعه نظرا لتوفر الحراسة والأمن بهذه المنشآت، بالإضافة إلى توفر وسائل السلامة واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب خطر الحرائق⁽³⁾.

وقد تطورت الوكالات من مراكز للتخزين، والبيع والشراء إلى مجموعة أبنية تؤدي معنى الحي وخاصة بالنسبة للتجار والأجانب، وكانت في بداية ظهورها تضم عددا قليلا من قاطنيها، ثم زاد عددهم وكثرت تجارتهم، وأقاموا في الفنادق وأصبح للجالية الواحدة حي خاص بها⁽⁴⁾.

من خلال ما سبق نستنتج، أنّه وبالرغم من أنّ معظم تلك المنشآت قد شاع استخدامها في فترات لاحقة لفترة الدراسة كالفندق، والقيسارية، والوكالة، والفندق، إلا أنه ما يمكن القول أنّ معظم

(1) تاريخ، ج 70، ص 257

(2) كما هو الحال مع التجار الكارمية- إسم أطلق على مجموعة من التجار المسلمين الذين ظهرت تجارتهم أواخر العصر الفاطمي وتطورت في العصر المملوكي، وقد كانوا يشتغلون بتجارة التوابل بكل أنواعها- وكانوا يلحقون أبنائهم بتجارتهم المتنقلة والمستقرة، أنظر: نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص 286، 287

(3) عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 309

(4) نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص 287، 288

مؤرخي العصور الوسطى لم يفرقوا كثيرا بينها، ولم يجدوا بينها فروقا واضحة، ولاحظوا أنّها تتشابه من حيث هندستها المعمارية، من خلال وجود حوش في وسطها حوله ممر يصل إلى المخازن، قد تكون من دورين وبها دكاكين ومساكن، وكذلك لا فرق بينها من حيث وظيفتها، فهي مساحات ومؤسسات تقوم بجانب مهمة البيع والشراء بمهمة النزول ومحل الإقامة والمخازن للواردين من التجار وحفظ أموالهم، كما أنّها تؤدي مهمة البيع بالجملة والتجزئة فتوزع ما يرد إليها من الأسواق، وفوق هذه المؤسسات كانت تبني رباغ تؤجر لطوائف معينة من التجار اقتصر على المسلمين⁽¹⁾.

(1) أنظر: المقرئزي، المصدر السابق، ج3، ص51- الاصطخري، المصدر السابق، ص105- نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص287، 288

المبحث الثالث: المحطات والمراكز التجارية

ازدهرت المراكز التجارية في مناطق الثغور، ولعل ازدهارها هذا ناتج عن وقوع المنطقة في ملتقى تقاطع الكثير من الطرق التي تربط عالم العصور الوسطى في هذه الفترة، والذي كان سببا مباشرا في انتعاش التجارة بتلك المنطقة، الأمر الذي نتج عنه كثير من المراكز والمحطات التجارية داخلها، وقد ازدهرت مدن عديدة أصبحت نموذجا لمراكز التبادل التجاري مع الروم وغيرهم، ولعل من أهمها:

تأتي حلب كأولى المدن التجارية في شمال الشام، والتي ذاعت شهرتها خلال العصور الوسطى، خاصة أثناء وجود الدولة الحمدانية في الموصل وحلب 277-395هـ/890-1004م، ولا يُخفى علينا أن موقع حلب كان سببا مباشرا في شهرتها التجارية وخاصة بعد خراب مدينة قنسرين، فأصبحت مركزا تجاريا كبيرا يتوسط بين الشرق والغرب وتخرج منها القوافل إلى بلاد فارس، والهند، والصين، وإلى الشام، والحجاز، واليمن، والبحرين، ومصر، ثم افريقية، عن طريق دمشق والسواحل الشامية، وقد أخذت تجارات الغرب تصل إليها عن طريق أنطاكية وسائر الثغور الشامية ثم القسطنطينية، وجاب الكثير من التجار المسلمين والبيزنطيين واليهود أسواقها والطرق المؤدية إليها⁽¹⁾، وكانت القوافل التجارية القادمة من الشرق ومن الجزيرة والشام تجتازها آخذة طريقها إلى ملطية وطرابزون ثم إلى القسطنطينية، وكان هناك كثير من الطوائف التجارية الإسلامية التي تعيش كجاليات داخل القسطنطينية لرعاية مصالح المسلمين، ولم يعد يخفى أن سوق الاستيراد في بيزنطة كانت معتمدة على الشرق الإسلامي اعتمادا كبيرا حيث هيأت لها المراكز التجارية في مناطق الثغور الحصول على المنتجات الشرقية المتنوعة⁽²⁾.

هذا ونتيجة لأهمية حلب للتجارة البيزنطية، استطاعت الدولة البيزنطية أن تفرض عليها قيودا تخص التجارة في معاهدتها التي كانت أبرمتها مع حكامها، خاصة إذا ما استطاعت الدولة البيزنطية أن تفرض سيطرتها على إقليم العواصم، وعلى سبيل المثال عندما استطاع نففور أن يفرض معاهدة على حاكم حلب سجل فيها بعض القيود تخص التجارة مع أنطاكية بعد أن استولى عليها سنة 359هـ/

(1) الاضطخري، المصدر السابق، ص 105

(2) ديمومبين موريس جودفرو، النظم الاسلامية، تر: محمد فيصل السامر، صالح الشماع، مطبعة الزهراء، (د،ط)، بغداد، 2016، ص 240

970م، وقد أورد ابن العديم في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب⁽¹⁾ نصوص هذه المعاهدة وكانت بها القيود التجارية وأهمها على سبيل المثال؛ لا يجوز إعاقاة الروم الذاهبة إلى حلب في تجارتهم، وأن تصحب القوافل البيزنطية حراسة كافية لضمان أمنها حتى تصل إلى المدينة، وجاءت إلينا المعاهدة بنصوص تخص الأعشار والمكوس وأنواع المتاجر التي يحملها التجار وتتبادل في أسواق المدينة، وبمقتضاها جاز للموظفين والبيزنطيين أن يعتمدوا بحلب على جباية ما تقرر من العشر على ما يرد إلى المدينة، وفرض المسلمون العشر على الواردات التي تذهب إلى الأسواق البيزنطية⁽²⁾.

وعلى هذا نقول إن حلب أخذت مكانها كمركز تجاري متميز بين تجارة الشرق والغرب في العصور الوسطى، وأصبحت من قواعد التبادل التجاري الهامة مع بلاد فارس والشرق بدلا من طرابزون- سنأتي على ذكرها-، فالطريق إلى حلب وأنطاكية كان أسهل بكثير من الطريق المار في جبال أرمينية إلى البحر الأسود، وكذلك باعتبارها على المدرج القريب الموصل للشامات والثغور والعراق⁽³⁾.

ومن المراكز التجارية في شمال الشام والتي تلي حلب في الأهمية مدينتا بالس ومنبج، فبالس مدينة ذات أهمية تجارية كبيرة تصب بها تجارة الشرق الآتية عن طريق البصرة وبغداد والفرات، وقد أخذ تجارها الأغنياء صفة الوسطاء في التجارة المارة ببلادهم، واشتهرت شهرة واسعة خاصة في عهد الدولة الحمدانية، وكانت تجارتها الداخلية ذات قيمة كبيرة، فكانت تصدر القمح والشعير الذي يزرع بها إلى كثير من مدن الثغور⁽⁴⁾.

أما مدينة منبج فاعتبرت مركزا تجاريا هاما، أسواقها وسككها متسعة تشبه أسواق حلب في أنها مسقوفة، وهي سائدة في أكثر المدن التجارية بالمنطقة، أما عراصها ودكاكينها تشبه الخانات الكبيرة والمخازن الواسعة، وتدل أبنيتها ومنازلها وقصورها على ثراء أهلها، الذين يصفهم ابن جبير⁽⁵⁾

(1) دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996، ج1، ص96-98، أنظر: الملحق رقم13، ص430-431

(2) السيد الباز العربي، المرجع السابق، ص108

(3) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص334

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص165

(5) المصدر السابق، ص228

بأنهم أهل فضل وخير.

وتأتي مدينة معرة النعمان في الأهمية التجارية بعد بالس ومنبج كمدينة تابعة لشمال الشام، وكورة من كور حلب، كان يقام بها سوق أسبوعي كبير يرتاده تجار الأقاليم فهي مركز هام للتجارة الداخلية⁽¹⁾، ولعل زراعة الزيتون والتين والفسقنق بها أعطتها شهرة تجارية، فهي تصدر هذه المحاصيل إلى مصر وسائر الشام⁽²⁾.

وتأخذ أنطاكية دورها في شمال الشام ليس كقاعدة عسكرية حربية، بل كمركز تجاري له شهرة واسعة في تجارة الشرق والغرب، فقد كانت ملتقى كثير من التجار الأنطاكيين والشاميين والأرمن والايطاليين والبيزنطيين، وكثر التبادل التجاري بها خاصة في الأسواق الموسمية التي كانت تقام في المدينة والتي كان يلتقي بها أحلاط من التجار على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وأقيمت بها كذلك الأسواق المحلية الأسبوعية حيث يتم من خلالها البيع والشراء، ولذلك فقد وجد بها كثير من المنشآت التجارية مثل الوكالات، والفنادق، والقيساريات، والخانات⁽³⁾، وكان للتجار من الجمهوريات الإيطالية مستودعات لبضائعهم في أنطاكية، وكانت الفنادق والوكالات تشبه الحصون التي تشتمل على أكثر من طابق حتى يتيح للتجار ممارسة أعمالهم بدقة وراحة⁽⁴⁾.

أشار ابن خردذابة⁽⁵⁾ أنّها كانت مركزا تجاريا للتجار الرذانية⁽⁶⁾، وتحدث الادريسي⁽⁷⁾ عن الحركة التجارية بها فقال: «وبها أسواق عامرة، ومبان زاهرة، وصناعات نافقة، ومعاملات مرفقة، وخير كثير، وبركات ظاهرة».

(1) ابن جبير، المصدر السابق، ص 242

(2) ساريوس كانار، نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمداني، جوقل كريونيل، (د،ط)، الجزائر، 1924، ص 40

(3) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص 342

(4) الحميري، المرجع السابق، ص 342

(5) المسالك والممالك، ص 153، 154

(6) كلمة الرذانية أو الرهدانية، نسبة إلى نهر رودانوس (الرون) بفرنسا الذي يسميه العرب رهونة، حيث كانت تقيم جماعات كبيرة من اليهود، وقيل أنّ لفظة رهدانية محرفة عن لفظتين بالفارسية؛ راه: ومعناها الطريق، ودانش: ومعناها المعرفة، أي معرفة الطريق،

أنظر: المسالك والممالك، ص 153، 154 - التظليل، المصدر السابق، ص 128 - أنظر الملحق رقم 14، ص 432

(7) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص 125

وتأخذ مدينة حماه بأسواقها الفاخرة في شمال الشام أهميتها التجارية من موقعها المتميز بين جند حمص وجند قنسرين، لترسم هذه المدينة صورة حية للأنشطة التجارية في المنطقة، فكانت كثيرة الأسواق اشتهرت بكثير من أنواع التجارات والغلات، وسمت المنشآت التجارية بها كغيرها من مدن الشام، حيث يغلب على أسواقها السقف بالخشب، ودكاكينها وعراصها كبيرة متسعة، وارتادها التجار من كافة المدن⁽¹⁾.

ومن المراكز التجارية المهمة الأخرى، ثغر مرعش والذي كان منذ أقدم العصور واحدا من أهم المراكز التجارية المهمة على أطراف بلاد الشام، ولما كانت ملطية على مقربة من بلاد الروم فقد قامت بها حركة تجارية نشطة⁽²⁾، أما طرسوس فهي تقع في ملتقى الطرق التجارية المهمة، فعدت من المدن التجارية التي كثيرا ما كانت المبادلات تجري من طريقها بين بيزنطة والمسلمين، وبسبب غناها وموقعها التجاري والعسكري فإنها كثيرا ما كانت تتعرض للأخطار، وقد قيل فيها مقابلة بغيرها من مدن الشام: «مدن الشام كالنسوة الجلوس، وطرسوس تلمع بينها بمنزلة العروس»، ومما لاشك فيه أنّ طرسوس كانت تتاجر بالمواد الموجودة في أراضيها أو في البلاد القريبة منها، وكان البيزنطيون أهم الشعوب التي تاجرت معها، وكانت تجارتها رابحة إلى أقصى الحدود فكانت منفذا تجاريا ممتازا، ومما شجع تنشيط التجارة أنّها كغيرها من الثغور كانت معفاة من الضرائب لصفتها الدفاعية⁽³⁾.

واشتهرت طرسوس برخص عام في الأسعار على مدى أيام السنة، ولهذا كانت أسواقها تعج بالناس والتجار دائما، فأدى ذلك إلى انتشار الفنادق والحمامات والخانات بها⁽⁴⁾، ما يشهد للمدينة غناها الاقتصادي رواج تجارتها، هذا وهناك بقية الأسواق الصغيرة التي كانت منتشرة في ربوع الإقليم وتزدهر بها التجارة الداخلية، تجمع بين المرافق السفرية والتجارية، أشهرها: أعزاز، تل باشر، الباب

(1) الفلقشندي، المصدر السابق، ج4، ص140

(2) الجنزوري، المرجع السابق، ص161، 162

(3) أمينة البيطار، ثغر طرسوس بين عصر هارون الرشيد والاحتلال البيزنطي 170-354هـ/786-965م، مجلة الفيصل، ع242، الرياض، ديسمبر/96، جانفي/97، ص(1-138)

(4) ابن العديم، بغية الطلب، ص179

وبزاعة، حصن التينات... وغيرها، وهكذا تأخذ مراكز شمال الشام التجارية أهميتها التي كانت تساهم بها في مسيرة الحياة الاقتصادية على عهد الدولة الإسلامية في الفترة مرحلة الدراسة.

أما بالنسبة لأهم المراكز التجارية في إقليم الجزيرة فتأخذ مدينة الرقة أهمية تجارية كبيرة، واستمدت هذه المدينة شهرتها من موقعها بين بلا الشام والعراق، وكانت تتحكم مع بالس في طرق القوافل من دجلة والموصل وتحمل منها إلى سائر بلاد الشام، أو عن طريق آسيا الصغرى إلى بيزنطة ومنها إلى سواحل البحر الأحمر لتصل تجارة الشرق إلى الغرب⁽¹⁾.

وهو ما أكدّه هايد⁽²⁾ بنصوص في كتابه، على أهمية الرقة التجارية خلال العصور الوسطى وخاصة خلال العصر العباسي، عندما كانت هناك علاقات تربط الدولة الإسلامية بكثير من تجارات الغرب، فهي محطة تجارية مهمة بين الجزيرة الفراتية، والشام، والعراق، وأرمينيا، وآسيا الصغرى، وحوض بحر الشام، وقد ذكر ابن حوقل⁽³⁾ أنّ بها تجارة دائمة رائجة، وتصل منها المراكب المشحونة بالتجارة.

ومن المدن التجارية الهامة التي أخذت أهميتها من موقعها المتميز في شمال إقليم الجزيرة، خاصة لقرها من أسواق أرمينية مدينة ميفارقين والتي أسهبت بنصيب وافر في الحياة الاقتصادية داخل الجزيرة لما تنتجه من سلع زراعية هامة وكذلك خارجيا، ووجد بها أسواق متسعة تزخر بكثير من المتاجر⁽⁴⁾.

ومدينة الرحبة التي تقع على الفرات، بين الرقة وعانة وهي محط القوافل بين الفرات والشام، عمرت في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، وأصبحت محطاً للقوافل التجارية الآتية من الرقة عن طريق القوافل إلى بلاد الشام⁽⁵⁾.

ولعلّ كل من مدينة الرها وقرقيسيا كانا لهما نصيباً في حركة التجارة في المنطقة، فعلى الرغم من كثرة سكان الرها من النصارى إلا أنّها كانت سوقاً كبيراً، يرتادها التجار المسلمون عن طريق القوافل

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 141

(2) تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، تر: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية للكتاب، (د،ط)، القاهرة، 1985، ج 1، ص 59

(3) صورة الأرض، ص 225

(4) القزويني، المصدر السابق، ص 186

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج 4، ص 114

الواصلة إلى قرقيسيا، وكانوا يجلبون منها الفواكه إلى سائر بلاد العراق في فصل الشتاء⁽¹⁾. هذا وكانت أسواق ومراكز الشام والجزيرة تتصل بعدة مراكز تجارية والتي تأخذ أهميتها بالنسبة للتجار المسلمين الذين كانوا يرتادوها، ومن أهمها:

طرابزون التي اشتهرت باسم طرابزندة، وجاء في وصفها أنّها من أعيان مدن الروم، على ضفة بحر القسطنطينية الشرقي المعروف ببحر بنطس، سماها الادريسي⁽²⁾ بأطرابزوني ووصف أهلها بأنهم مياسير، وتعد المستودع الرئيسي لسلع الامبراطورية البيزنطية، ومنها تخرج بضائع الشرق لتصل إلى الغرب عن طريق مدن الثغور⁽³⁾.

وقد وصفها لنا الرحالة والجغرافيون بأنّها مدينة يجتمع فيها التجار فيدخلون منها إلى بلاد الروم للتجارة ويخرجون منها، أي أنّها تعد المدخل الرئيسي للتجار وخاصة المسلمين إلى بلاد الروم وكذلك مخرجهم منها، وفي ذلك يقول ابن حوقل⁽⁴⁾ عندما تحدث عن بلاد الروم وأذربيجان والران: «ولهم مدخل إلى الروم يعرف باطرابزندة، وهي مدينة يجتمع فيها التجار من بلد الاسلام فيدخلون منها إلى بلد الروم للتجارة ويخرجون بها».

وللمدينة أسواق مفتوحة طوال السنة، ويأتي إليها كثير من الأمم من مسلمين وروم وأرمن وغيرهم، فهي نقطة التقاء الطرق التجارية بين البحر الأسود وبحر الشام والمنفذ المهم لدخول التجارة الإسلامية وخروجها إلى بيزنطة، ذكر المسعودي⁽⁵⁾ النشاط التجاري للمدينة فقال: «هي مدينة على شاطئ البحر، لها أسواق في السنة يأتي إليها كثير من الأمم للتجارة».

ومن خلال ذلك يتبين ما قامت به هذه المراكز التجارية بدور بارز في النشاط التجاري؛ كحلب، والموصل، والرقّة، وأنطاكية، ومنبج، واطرابزون، وغيرها، وأخذت جملة الأسواق ومنشآتها التجارية

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 191

(2) المصدر السابق، ج 5، الإقليم السادس، ص 906

(3) هايد، المرجع السابق، ج 1، ص 61

(4) صورة الأرض، ص 179

(5) مروج الذهب، ج 1، ص 198، 199

أهميتها لوجودها في ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب، ولعبت دورا بارزا في التبادل الداخلي بين مدن الأقاليم الإسلامية، وفي التبادل الخارجي بين مدن الثغور والأقاليم المجاورة لها. ولعل الصناعات المشهورة بالإقليم، بجانب ما ينتجه من زراعات تجارية، كان لها النصيب الأوفر في إذكاء حركة التجارة، فضلا عما تمتعت به المنطقة من رخاء اقتصادي رغم الأوضاع الأمنية التي عاشتها المنطقة خلال فترة الدراسة.

المبحث الرابع: السلع التجارية بإقليم الثغور

كانت منطقة الثغور بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي الدفاعي ذات أهمية تجارية واقتصادية، بفضل موقعها بين الشام والعراق، وشهدت حركة تجارية نشطة ومزدهرة نظراً لعلاقات بلاد الشام التجارية مع الدول المجاورة، التي اكتسبها أهل الشام نتيجة لسفراهم المتعددة، أمّا بالنسبة للصلات التجارية بين المسلمين وغيرهم من الأمم -وخاصة البيزنطيين-، فقد استمرت بالرغم من كثرة الحروب والصراع القائم بين الطرفين، فكان لا بد للبيزنطيين تجاوز العداء الديني والسياسي في سبيل التجارة، فالدولة البيزنطية لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم الإسلامي، وأنّ التوابل والبضائع الشرقية التي يقوم المسلمون في تجارتها بدور الوسيط، تعد ضرورية لسلامة اقتصاد بيزنطة⁽¹⁾.

أشهر الصادرات والواردات:

1- السلع المصدرة:

اشتهرت مدن الثغور عامة بإنتاج الكثير من السلع الزراعية؛ من حبوب وفواكه وزيت، والسلع الصناعية؛ كالزجاج، والأخشاب، والمعادن، والمنسوجات، والصابون وغيرها، وقد ترتب عن ذلك أن نشطت الحركة التجارية من مناطق الثغور وعبرها إلى البلدان المجاورة، وكانت أبرز المنتوجات والبضائع التي تصدر من خلالها ما يلي:

المنسوجات: اشتهرت عديد مدن الثغور بالصناعات النسيجية وأهمها الحريرية، واعتبرت عسقلان، وغزة، وبعلبك، وحمص، وحلب، وصور، ودمشق، ومنبج، وأنطاكية، والمصيصة من أهم مراكز إنتاجها، وكانت المنسوجات الحريرية من السلع التي نالت رواجاً في بلاد الروم وغيرها من الأماكن لشهرتها وجودة صناعتها، ومن أهم العوامل التي ساعدت على زيادة الطلب على الحرير المستورد من البلاد الإسلامية شهرته وجودته، بالإضافة إلى أنّ الكميات الخام التي كانت تنتجها مصانع الحرير في بلاد الروم لم تكن كافية لتغطية الاحتياجات المحلية، وسد مطالب البلاد والدولة وما تتطلبه التجارة⁽²⁾.

(1) هايد، المرجع السابق، ج 1، ص 31

(2) سيف الميخي، العلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والبيزنطيين، ص (1-10)

ولذلك لم تحاول الدولة البيزنطية فرض حصار شامل على بلاد المسلمين، فقد خصصت موانئ لاستقبال تلك التجارة، وفرضت على هذه الموانئ رقابتها، فجعلت ميناء طرابزون مقصدا للتجار العرب، وقد أوضح ابن حوقل⁽¹⁾ ذلك فقال: «وأكثر ما يخرج إلى بلاد الاسلام وبلده من الديداج والبرز، وثياب الكتان الرومي، وثياب الصوف، والأكسية الرومية من طرابزنده».

وقد اشتهرت من مدن الثغور كل من منبج في صناعة الحرير، وأنطاكية في تصدير الثياب ومنها العتابي والتستري والأصبهاني، والمصيصة في الفراء إلى مدن الشام والعراق وافريقية وسائر الآفاق، وكذلك صور التي كانت تصدر الثياب البيض الغالية الثمن والتي ذاعت شهرتها في كل مكان⁽²⁾، كما صدرت دمشق منتوجاتها إلى أنحاء مختلفة من العالم، مثل ما يشير إليه الإدريسي⁽³⁾ بقوله: «ومدينة دمشق جامعة لسنوف من المحاسن، وضروب من الصناعات، وأنواع من الثياب الحريرية كالخز والديداج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال، الذي يحمل منه إلى كل بلد، ويتجهز منها إلى كل الآفاق والأمصار المصاوبة لها والمتباعدة عنها».

كما صدرت مدن الثغور القطن إلى أقاليم خارج بلاد الشام، وعبر المدن الساحلية كانت تصدر الثياب والمنسوجات القطنية إلى العراق ومصر وغيرها⁽⁴⁾ واشتهرت حلب بتصديرها⁽⁵⁾. الرقيق: نتيجة لظروف الحرب المستمرة بين المسلمين والبيزنطيين، فقد ازدهرت على سواحل بلاد الشام تجارة بيع وشراء الأسرى بين الطرفين، وكان يجلب إلى مدن الثغور خلال حملات الصوائف والشواتي حيث كان ذلك السبي مضرب الأمثال⁽⁶⁾.

(1) صورة الأرض، ج2، ص344

(2) أنظر: أبي الفداء، تقويم البلدان، ص271- الإدريسي، المصدر السابق، ص645

(3) المصدر السابق، ج4، ص366-369

(4) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص272

(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص182

(6) الطبري، تاريخه، ج9، ص142، 143

وكانت مدينة القسطنطينية مركزا هاما من مراكز تجارة الرقيق حيث أقيمت لها أسواق خاصة، يأتيها التجار من مختلف أنحاء العالم، أنظر: سيف المريخي، العلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والبيزنطيين، ص(1-10)

واشتهرت بلاد الروم بتصدير الجوارى والخصيان والخدم عبر البحر، من خلال موانئ الثغور الشامية⁽¹⁾، وتحدث المقدسي⁽²⁾ عن نوع خاص من الرقيق.

الأخشاب: تعد الأخشاب من المواد المصدرة بكثرة من مدن الثغور لكثرة أشجار الصنوبر والبلوط والسنديان والتي تنتشر في الكثير من مناطقها ويشتهر بجودته ووفرته⁽³⁾، كانت تستخدم في صناعة السفن والمراكب تحديداً، واشتهر حصن التينات من بين مدن الثغور بذلك، الذي يجمع فيه خشب الصنوبر وينقل إلى الشامات وبلاد مصر والثغور بكميات كبيرة⁽⁴⁾.

المحاصيل الزراعية: أنتجت مدن الثغور العديد من المحاصيل الزراعية، وتأتي في مقدمتها الحبوب؛ كالقمح، والشعير، والحنطة، والشوفان، والذرة، والأرز وغيرها، وتذكر المصادر أنّ الحبوب اعتبرت من صادرات بلاد الشام، وقد حملت على شكل دقيق على ظهور الإبل حتى نهر الفرات، وبالمراكز النهرية عبر الفرات إلى بغداد، ومنها إلى العالم المجاور، فضلاً عن ظهور الكعك الشامي في أسواق العراق⁽⁵⁾.

كما اشتهرت العديد من مدن الثغور بإنتاج الزيتون وزيت الزيتون وخاصة مدن الساحل، وكانت بالس إحدى المراكز المهمة والأساسية لتجارته كما يشير إلى ذلك ابن حوقل⁽⁶⁾، وكان الزيت يصدر على نطاق واسع -دون ذكر للأماكن التي كان يصدر إليها-⁽⁷⁾.

واشتهرت أخرى منها بزراعته الأشجار المثمرة، ولا سيما: الكروم والتين، والتفاح، والرمان، والمشمش، وقد صنفت هذه السلع حسب أهميتها التجارية بوصفها مادة مصدرة، ويأتي في مقدمتها

(1) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 148

(2) أحسن التقاسيم، ص 242

(3) الحميري، المصدر السابق، ص 39

(4) الاضطخري، المصدر السابق، ص 63

(5) الجهشيارى أبو عبد الله محمد بن عبدوس، كتاب الوزراء والكتاب، تح: ابراهيم الأبياري مصطفى السقا، مطبعة مصطفى

الباي الحلبي، ط 1، القاهرة، 1938، ص 102

(6) صورة الأرض، ص 165، 166

(7) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 180

الكروم فاشتهرت بيت جبرين بأعناجها التي كانت تحمل إلى مصر، كما صدرت منبج زبيبها إلى حلب وغيرها من المدن الشامية، وحمل التفاح الشامي إلى العديد من المناطق كالعراق ومصر والحجاز، وكذلك التين الذي كان يجفف لبيع قطينا⁽¹⁾.

السلع الصناعية: عرفت مدن المنطقة الكثير من السلع المصنعة، وصنفت حسب أهميتها التجارية بوصفها سلعة مصدرة، يأتي في مقدمتها الزجاج الذي اشتهرت بصناعته دمشق وأريحا وحلب التي عدت من مراكز الشهيرة.

وقد تحدث القزويني⁽²⁾ عن عجائب سوق الزجاج فيها: «ومن عجائبها سوق الزجاج فإنّ الانسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقهما لكثرة ما يرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلدان بالتحف والهدايا، وكذلك سوق المزوقين فيه آلات عجيبة».

وكان يجلب إلى مناطق الثغور العديد من المعادن كمعدن الزجاج من قبرص بالإضافة إلى الموجود في بلاد الجرجومة ثم يجهز منها إلى البلدان الأخرى، ومعدن النحاس الذي اشتهرت به قبرص-معناها بالرومية النحاس الجيد⁽³⁾، وقد شاهد الرحالة ناصر خسرو⁽⁴⁾ الأواني الكبيرة المصنوعة من النحاس الدمشقي في مصر.

ومن السلع التجارية التي كان المسلمون يحملونها معهم إلى بلاد الروم، العقاقير والمنتجات الطبية مثل: السكر، والصبغ، ومستحضر قصب السكر، لما عرف عنه من علاج لكل العلل، والتوابل مثل: الفلفل، والزنجبيل، والقرفة، والزعفران، والقرنفل، والكرم. وكذلك العطور مثل: الزعفران، والحنة، ومنتجات أخرى؛ كالعاج، والبيذ الجيد، والتمر، والشب، كما صدرت الجياد والأسلحة كالحراب والتي تعد من الأسلحة المطلوبة التي عليها إقبال في بلاد الروم⁽⁵⁾.

(1) أنظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص172- ابن حوقل، صورة الارض، ص166

(2) آثار البلاد وأخبار العباد، ص183، 184

(3) الادريسي، المصدر السابق، ج2، ص643

(4) سفرنامه، ص61

(5) سيف المريخي، العلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والبيزنطيين، ص(1-10)

2- السلع المستوردة:

اشتهرت مدن الثغور على العموم ولموقعها المتوسط كمر، فكانت مليئة بالتجارات ويصب فيها كل ما كان يصدر من بلاد الشام، والعراق، ومصر، والحجاز، والهند، والصين، وأرمينية، وبلاد الروم، والفرنجة، والأندلس، ولعل أبرز التجارات الداخلة لبلاد الشام وتحديدًا الثغور هي تجارة الرقيق لما شهدته المنطقة من عمليات فداء -سبق التطرق إليها- بين المسلمين والبيزنطيين.

وتأتي في مقدمة قائمة ميزان التبادل التجاري كذلك تجارة المنسوجات، وقد تحدثت المصادر الإسلامية عن المنسوجات الحريرية البيزنطية وعن جودتها ومكانتها، فهذا ابن الفقيه⁽¹⁾ يذكر في باب ما خص الله تعالى كل بلدة بشيء من الأمتعة دون غيرها، اختصاص الروم في إنتاج الكساء الرومي والفرفير والبيزون فيقول: «ولهم البيزون العجيب، والديباج الرومي»، وذكره الجاحظ⁽²⁾ في كتابه التبصر بالتجارة، فقال: «خير الفرش وأرفعه ثمنًا وأجوده المرعزي القرمزي الأرميني، ثم الخز الرقم، ثم الخز القطوع، ثم الديباج على عمل الخسرواني الرومي، ثم الخز المبعج على الميساني، ثم البيزون، وأيا كان من هذا الضرب منسوجًا بالذهب فهو أجود وأبلغ في الثمن».

كما عرفت بلاد الروم إنتاج الأقمشة المطرزة، والموشاة بخطوط الحرير والذهب والفضة، وكانت تسمى أبا قلمون⁽³⁾، ومن ثياب الروم التي ذكرها الثعالبي في كتابه⁽⁴⁾: «الديباج الذي يضرب في حسنه المثل وكان له عدة أنواع منها: المصطكى، والسقمونيا، والطين المحتوم والسندس، ويقال له الربون أيضًا»، ومن مصر جلب الكتان المصري، والمصنوعات الكتانية لبلاد الشام⁽⁵⁾.

(1) مختصر كتاب البلدان، ص 145، 146

(2) أبو عثمان عمر بن بحر، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، (د،ط)، (د،م)، (د،ت)، ص 7

(3) أبو قلمون: ضرب من ثياب الروم يتلون بعدة ألوان، أنظر: الحموي، المعجم، م 4، ص 391، 392

وذكر المقدسي أنّ أبا قلمون دابة تحتك بحجارة على شط البحر، فيقع منها وبرها وهو في لين الخز، لونه لون الذهب، وهو عزيز الوجود، يجمع وينسج منه ألوانا تتلون، وربما بلغ الثوب منه عشرة آلاف دينار، أنظر: أحسن التقاسيم، ص 240، 241

(4) أبي منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الطاهر، (د،ط)، القاهرة، 1908، ص 42

(5) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 200

كما واشتهرت تجارة البخور، حيث جلبه التجار المسلمون من بلاد الروم، وكانت تقام له سوق مرة في السنة في بند الناطليق، الذي تقع ضمنه مدينة هرقله مما يلي الثغور الشامية⁽¹⁾.

كما أنتجت بلاد الروم أنواعا عديدة من الطيب والنباتات والأعشاب التي تدخل في تركيب وتحضير العطور والأدوية الطبية، ويأتي المصطكا⁽²⁾ والميعة⁽³⁾ في مقدمتها وذكر ابن الفقيه: «ولهم من العطر الميعة والمصطكا»، واشتهرت كذلك جزيرتي قبرص وكريت بإنتاجهما، وقد استوردها أهل الشام لاستخدامها عطورا أو لعلاج بعض الأمراض، أمّا الكميات المستوردة فالمصادر لم تحدد ذلك⁽⁴⁾.

كما عُرفت بلاد الروم بتصدير عديد المنتجات إلى بلاد الشام ومدن الثغور: كالقطن، والعسل، والحب، والحريز، والكتان، والأنعام، والماء، كما جلب التجار إلى المنطقة التمور من العراق⁽⁵⁾، والسّمك والبغال من أرمينية⁽⁶⁾.

(1) المسعودي، التنبيه والاشراف، ص 151

(2) المصطكى أو (المصطكاء): شجر من فصيلة البطميات، ينبت برّيا في سواحل الشام، وبعض الجبال المنخفضة، ويستخرج منه علك معروف، أنظر: معلوف، المرجع السابق، ص 873

(3) الميعة ضرب من العطر طيب الرائحة، أو صمغ يسيل من شجر ببلاد الروم، يؤخذ فيطبخ، أنظر: المعجم الوسيط، ص 894 - ابن منظور، لسان العرب، م 8، ص 345

(4) الاصطخري، المصدر السابق، ص 71

(5) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 175

(6) ابن حوقل، صورة الارض، ص 297 - أنظر الملحق رقم 15، ص 433-

المبحث الخامس: التجار والعلاقات التجارية

صحيح أن مدن الثغور قد أنشئت عن قصد لتخدم الأغراض العسكرية، ثم أصبح لها دور اقتصادي، فصارت بمنزلة أسواق محلية، ولكن لا يعرف إلى أي مدى خدمت هذه الأسواق التجارة الدولية آنذاك، فالتبادل التجاري لمدن الثغور عموماً يكتنفه الغموض، رغم أن هناك من أشار إلى السلع المتبادلة بين الطرفين كالجاحظ⁽¹⁾، الذي ذكر أن المسلمين كانوا يستوردون من بيزنطة الأواني الذهبية والفضية، والدنانير الذهبية الخالصة، والأعشاب الطيبة الرائحة، والمنسوجات المشاة، والخيول القوية، والحواري، والأواني النحاسية وغيرها، ورغم ما ذكره بالنسبة للموضوع إلا أنه لا يتضح من القائمة التي أوردها حجم التجارة التي كانت متبادلة، ولا الطرف أو الممرات التي كانت تسلكها عبر البلدان والحدود.

أمّا مخائيل السرياني⁽²⁾ فقد أشار إلى أنه بالرغم من وقوع الاحتكاك الحربي بين المسلمين والبيزنطيين في المنطقة، وجدت علاقات تجارية بينهما، ويضرب على هذا مثلاً ذلك التبادل الذي حدث أثناء حملة هارون الرشيد، وفي القرن 4هـ/10م استوردت طرسوس كلاب الصيد والصقور من بيزنطة، وكانت التجارة بين الطرفين ضخمة في تلك الفترة كما ذكر لومبارد⁽³⁾، غير أن هناك من اعتبر أن تلك الأدلة غير كافية ولا تثبت حجم التجارة.

وزبدة القول أنه لا توجد أدلة قوية على وجود تجارة على نطاق واسع عبر مدن الحدود في هذه الفترة، وعليه وجب علينا أن نتصور أن أسواق المنطقة كانت تتعامل في المنتجات الصناعية والزراعية التي تنتجها محلياً، والتي سبق التطرق إليها من خلال هذا البحث، واشتهرت بها تلك المدن.

وقد لعب التجار باعتبارهم عنصراً أساسياً في العملية التجارية، دوراً ريادياً في هذه الفترة، خاصة بعد أن ازدادت متطلبات واحتياجات قصور الملوك والأمراء عما كانت عليه من قبل، فقد كان

(1) التبصر بالتجارة، ص 64 وما بعدها

(2) *Michelle le syrien, Chronique de michel le syrien, ed, j,B,chabot (paris 1899-1905), 3vols,p16*

(3) *Lombard m.a, l'islam dans sa premiere qandeur (vlll.xlsiecle) (paris ,1971), pp226-228*

التجار يشتغلون بشراء وبيع البضائع التي يحتاجها الناس عامة، إلا أنّ تجارتهم كانت بالدرجة الأولى في أدوات الترف؛ كالجواهر والرقيق والبسط⁽¹⁾ (التي يطلبها الملوك) فانحصر نشاطهم في تلبية رغباتهم، وبالتالي أصبحت تلك القصور لا تستطيع الاستغناء عن خدمات أولئك التجار، نظراً لسرعة استجابتهم لجلب ما استصحب من أقصى البلدان.

كما أنّ المجتمع الإسلامي قد تحسن مستواه المعيشي، وأصبح معنياً هو أيضاً بكثير من السلع الجلوبة من طرف أولئك التجار، فكانت السلع المستورد -الشرقية والغربية- كثيرة الاستهلاك والرواج، وقبله الأغنياء والأثرياء، والتجار يجنون وراء ذلك أرباحاً كبيرة، فالسلع غالية على قدر مشقتها، يقول ابن خلدون⁽²⁾: «وكذلك نقل السلع من البلد بعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار، وأعظم أرباحاً، وأكفل بحوالة الأسواق، لأنّ السلعة حين إذ تكون معوزة لبعدها مكانها وشدة الغرر في طريقها، فيقل حاملها ويعز وجودها، وإذا قلت وعزت غلت أثمانها».

ولقد أدى ذلك إلى تمركز الثروة في أيدي أولئك التجار، فوصلوا بفضل ذلك إلى درجة عظيمة من الغنى، جعلتهم يحظون بالاحترام الكبير من طرف رجال الدولة بل وبالمهابة أحياناً، ومنهم من كان له نفوذ كبير داخل الدولة، ومن أمثلة ذلك التاجر العراقي ابن الجصاص⁽³⁾ المعروف بتعامله ومتاجرته في الجواهر والأحجار الكريمة، فكانت له صلات وطيدة مع القصر العباسي، وصلات أكثر وثوقاً مع الأمير الطولوني خمارويه، فسمح له ذلك حتى بتهديد بعض الوزراء، بل حتى أكثر من ذلك، فقد شهد القرن الرابع ظاهرة توحى بضعف الدولة، وفي الوقت نفسه ظهور طبقة من الأثرياء النافذين فيها، تتمثل في كون بعض أولئك التجار الأثرياء يقرضون الدولة قروضاً ويأخذون مقابل ذلك فوائد، ولما اشتكى الخليفة العباسي الراضي سنة 322هـ/933م من أزمات مادية حصلت له، كان من بين

(1) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 141

(2) المقدمة، ج 2، ص 36

(3) هو الصدر الرئيس ذو الأموال، أبو عبد الله الحسين به عبد الله بن الجصاص البغدادي الجوهري التاجر الصفار، قال فيه ابن طولون لا يباع لنا شيء إلا على يد ابن الجصاص، كانت لديه أموال طائلة وذهب كثير، عاش أيام خمارويه 270-272هـ/883-885م، والخليفة العباسي المعتضد، أنظر: الذهبي، سير، ج 14، ص 469

الذين لجأ إليهم التاجر ابن الجصاص⁽¹⁾.

وإذ لم ينظر الأمويون للتاجر بعين التقدير، كونهم جيلاً من المحاربين الفرسان وأمراء القواطع، فإن هذه النظرة قد تغيرت تدريجياً خلال العصر العباسي بعد أن استقرت الأمور واستتب الأمن، كما أنّ الاهتمام بالزراعة فضلاً عن التقدم الصناعي أدّى إلى رواج التجارة⁽²⁾، وعلو مكانة التاجر في هذه الفترة، ومن الملاحظ أنّ هناك اختلافاً هاماً جعل التجار أصنافاً من حيث العمل التجاري، أو المكانة الاجتماعية، أو العقيدة، وهذا ما اعتمدها في تصنيف التجار في مناطق الثغور.

أولاً: التجار

1- من حيث العمل التجاري:

يعد التصنيف الذي تركه لنا الدمشقي في كتابه الإشارة إلى محاسن التجارة⁽³⁾ من أدق التصنيفات، حيث اعتمد في تقسيمه على طبيعة عمل كل تاجر، حيث ينقسم التجار من حيث نشاطهم وتعاملهم التجاري إلى ثلاثة أقسام:

أ- الركاض:

هو التاجر الذي يشرف بنفسه على السفر، وبماله على الاتجار في بلدان متعددة سواء بمفرده أو مع شركائه، ويستلزم عليه دراية كبيرة بأسعار البضائع التي ينوي المتاجرة فيها، ومعرفة واسعة بالأقطار التي يريد السفر إليها، وإذا لم يكن يعرفها يبحث عن وكلاء تجاريين يستعين بهم خلال رحلته التجارية داخل تلك البلدان. ومن أمثلة ذلك بمدن الثغور ما حدث مع الخليفة هارون عندما وجهه والده المهدي سنة 165هـ/781م لغزو بلاد الروم فافتتح ماجدة وهزم الروم، وعقد صلحاً مع امبراطورة الروم، والذي تم الاتفاق عليه أن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه لعدم معرفته بتلك المناطق⁽⁴⁾، وعليه كذلك أن يراعي تكاليف النقل والرسوم التي لا مناص من دفعها، مع تفهم عميق لوضعية

(1) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص141 وما بعدها

(2) نادية حسن صقر، المرجع السابق، ص165، 166

(3) ص63-67

(4) الطبري، تاريخه، ج2، ص415

السوق وتقلباتها قبل المبادرة والخوض فيها⁽¹⁾.

ب- الخزان:

هذا الصنف من التجار يعتمد أسلوب التخزين والاحتكار للسلع، فهو على دراية تامة بأحوال وتحولات السوق، فيعرف الوقت اللازم والفرصة الذي تنبغي فيها المبادرة لاستنزاف السوق، وذلك بشراء السلع بثمن معلوم ومدروس، ثم تكديسها حتى تنفذ من السوق ويكثر الطلب والالحاح عليها فيرتفع ثمنها ويعتمد إلى بيعها، وليس من الضروري أن يسافر الخزان بنفسه إلى المناطق التي ينوي القيام بمعاينة أو شراء تلك السلع، بل يمكنه أحيانا أن يعتمد على وكلائه أو شركائه في ذلك، المهم أن يكون على اطلاع مستمر بكل ما يجري في السوق⁽²⁾.

وتشير بعض المصادر⁽³⁾ إلى هذا الصنف من التجار، وتورد لنا مثالا حيا على ذلك مفادها أنّ تاجرا بغداديا شاهد رسولا قادمًا من الرقة يحمل كتبًا إلى بعض التجار فاستطاع الحصول عليها، ووجد أنّها مليئة بالتوصيات لتجار الزيت، بأن يحتفظوا بما عندهم وأن لا يبيعوا شيئًا لأنّ الزيت قل وارتفع سعره، فاستدعى التاجر وكلاءه وطلب إليهم أن يقترضوا كل ما يمكنهم لشراء الزيت، ففعلوا ذلك حتى لم يبق زيت في السوق، ولما علم التجار الذين أرسلت إليهم الكتب على محتوياتها، قدموا له عرضا عليه فائدة بـ 60% ورفض ثم ضاعفوا له الثمن، فرأى أنه من الخطأ أن يرفض مثل هذا الربح، وباع الزيت الذي اشتراه بمبلغ عشرين ألف دينار.

ولكن في الحقيقة أن هذه العملية كانت مذمومة عرفًا وشرعًا، فهي تدخل في المعاملات التجارية المحرمة التي نهى عنها الاسلام نهيا قاطعا، لما فيها من الجشع والطمع والتضييق على الناس، فقد جاء في حديث الرسول الله (صلى الله عليه وسلم): {مَنْ إِحْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرئَ مِنَ اللَّهِ وَبَرئَ

(1) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص142

(2) الدمشقي، المصدر السابق، ص63

(3) التنوخي أبو علي الحسن بن أبي القاسم، نشوار الحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عبود الشالحي، دار صادر، ط2، بيروت، 1995، ج2، ص161-163- محمد بن الحسن الشيباني، المخارج في الحيل، مكتبة الثقافة الدينية، (د،ط)، القاهرة، 1999،

الله منه⁽¹⁾، وفي حديث آخر: {الجالب مرزوق والمحتكر ملعون⁽²⁾}.
ج- المجهز:

مشتق من التجهيز، أي أنّ هذا النوع من التجار يجهز غيره من دون أن يسافر بنفسه، فهو يعتمد على وكلاء تجاريين مأمونين يبعث معهم الأموال اللازمة فيتاجرون بها، ثم تقسم الأرباح بينهم، ويجب أن تتوفر في الوكلاء الثقة والأمانة والخبرة بالتجارة⁽³⁾.

وهذا النوع من التعامل التجاري يسمى في الاسلام المضاربة وهو جائز، والمضاربة مأخوذة من الضرب في الأرض وهو السفر للمتاجرة مصداقاً لقوله عزوجل: ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَعُونَ مِنَ فَضْلِ اللَّهِ﴾⁽⁴⁾، أمّا اصطلاحاً فهو عقد بين طرفين على أن يدفع أحدهما المال إلى الآخر ليتاجر به ثم يكون الربح بينهما حسب اتفاقهما في العقد⁽⁵⁾.

وهناك صنف من الوسطاء في التجارة وهم السماسرة وهؤلاء يفوضون بشراء وبيع البضائع، والسمسار كما عرفه المعداني⁽⁶⁾ هو الذي يطوف بالسلعة بين التجار ويقول من يزيد عليها، وهو وسيط بين البائع والمشتري، وليس لديه راتب محدد وإنما يكون دخله من صاحب السلعة والمشتري، وأحياناً يبيع التاجر بأكثر من السعر المتفق عليه، ما يجعل دخله يرتفع خاصة في فترة الاضطرابات⁽⁷⁾.

2- من حيث المكانة التجارية:

زيادة على التصنيف من حيث العمل التجاري، فإنه بإمكاننا تصنيف التجار حسب مكانتهم الاجتماعية، وبالنسبة لموضوعنا فقد ارتأينا تقسيمهم إلى:

(1) رواه أحمد والحاكم وابن أبي شيبة والبراز، أنظر: السيد سابق، فقه السنة، دار الحديث، ط1، القاهرة، 2004، ص920

(2) رواه ابن ماجة والحاكم عن بن عمر، أنظر: المرجع نفسه

(3) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص146

(4) سورة المزمل، الآية 20

(5) السيد سابق، المرجع السابق، ص957

(6) أبو علي بن الحسن، كشف القناع عن تضمين الصناعات، تح: محمد أبو الأحفان، دار البشائر الإسلامية، ط1، بيروت، 1996، ص106

(7) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص146

أ- التاجر السلطان:

الدولة كما عبر عنها ابن خلدون⁽¹⁾ هي السوق الأعظم، وهي المتحكمة في الأسواق، ولما كانت الدولة كذلك فإنّ بعضاً من الخلفاء والقادة العسكريين راحوا يمارسون التجارة، وليس أدلّ على ذلك ما قام به الخلفاء بمناطق الثغور واجتهادهم في تعميمها وتشجيع الناس على الاستقرار بها، إذ أقاموا في بعض جهاتها طلباً للراحة، حتى ظهرت في الأماكن التي عسكر فيها الجند مدن جديدة هامة بتلك النواحي⁽²⁾.

واهتم الخليفة الواثق بالتجارة وأدرك أهمية رواجها وأثرها على النهوض باقتصاد الدولة، فنجده قد وزع الأموال على التجار، ويبدو أنّ هناك بعض كبار التجار الذين لا تتوفر لهم رؤوس الأموال، فوفر لهم بذلك فرصة العمل في هذا الميدان، كما أقدم على إلغاء ضريبة العشور وما ذلك إلا تشجيعاً منه للتجارة⁽³⁾، وفي ذلك يقول اليعقوبي⁽⁴⁾: «وفرق على قوم من التجار أموالاً جمّة».

كما نشطت تجارة الرقيق في هذه الفترة، وخاصة بين المسلمين والبيزنطيين، وأقيمت لها أسواق خاصة في القسطنطينية، واشتهرت بلاد الروم بتصدير الجواري والخصيان والخدم إلى بلدان العالم الإسلامي، واهتم الخلفاء المسلمين بفداء الأسرى، واستعملوا مختلف الطرق في ذلك، وكانت تتم عمليات الفداء على أرض الثغور وبإشراف الخلفاء أنفسهم، وتورد لنا المصادر أمثلة حية على ذلك، منها ما قام به الخليفة الواثق عندما ولى أحمد بن سعيد بن سالم بن قتيبة على الثغور والعواصم سنة 231هـ/845م وأمره بحضور الفداء مع خاقان الخادم وأمضى الفداء، وبلغ عدد من فودي بهم أربعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وستين⁽⁵⁾.

(1) المقدمة، ج1، ص486

(2) كما حدث مع القائد مالك بن عبد الله الخنعمي الذي أقام بعد عودته من إحدى الغارات في مكان يدعى رهوة بالقرب من درب الحدث وقضى به ثلاثة أيام يوزع الغنائم، فعمر سوقاً بحركة البيع والشراء عرفت باسم رهوة مالك، أنظر: العدوي، الأمويون والبيزنطيون، ص112

(3) نادية حسني صقر، المرجع السابق، ص166، 167

(4) تاريخ، ج2، ص483

(5) ابن العديم، بغية الطلب، ج2، ص758

ولما ولي أحمد طاغان - من قواد خمارويه بن أحمد بن طولون-، على طرسوس وجميع الثغور الشامية سنة 279هـ/892م حضر الفداء على اللامس سنة 282هـ/895م وفودي بألفين وخمسمائة وأربعة⁽¹⁾ كما تظهر سيطرة السلطة الحاكمة في هذه الفترة على التجارة البحرية في المراكب التي كانوا يمتلكونها، فكان لأم الخليفة المستنصر عشاري يعرف بالفضي، يزدان رواقه بفضة تصل قيمتها إلى 130 ألف درهم، وكان للخليفة 36 عشاريا برسم النزه البحرية، وكان عدد عشاريات الخلفاء يزيد على الخمسين، والتي منهما نوعان اللطاف: وهي المراكب الصغيرة وتسمى أيضا السماويات - لأنها مكشوفة السماء-، والخاص الكبار وعددها ستة: الذهبي، والفضي، والأحمر، والأصفر، واللازوردي، والصقلي وكانت تكسى بالستور الديقي الملونة وتعلق برؤوسها وأعناقها الأهلة وقلائد الخرز⁽²⁾.

ب- التاجر الفقيه:

نظرا لما للمرابطة في مدن الثغور من أجر، فقد عجت بالعلماء، والمحدثين، والعباد، والزهاد، والمتصوفة، الذين قصدوها من كافة البلدان، فشهدت بذلك تلك المناطق حركة علمية ميزتها عن باقي البلاد لارتباطها بالجهاد في سبيل الله.

وهناك من العلماء والفقهاء من اختار العمل التجاري، ومما يدل على وجود علماء تجار، أنه سئل عن من يسكن حصنا وييده مالا يشتري به سلعا وهو من أهل الدين، فقيل بأن التجارة هنا جائزة للعلماء لكنها لا تجوز للمرابطين⁽³⁾.

ومن بين الفقهاء الذين مارسوا التجارة وقدموا إلى مناطق الثغور لأجل العلم والتجارة، الفقيه أحمد بن نصر بن أبي القاسم الأزجي البغدادي⁽⁴⁾، وأيضا عبد الله بن علي الخضر⁽⁵⁾، أبو الليث نصر بن

(1) ابن العديم، بغية الطلب، ج2، ص807

(2) أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم، ص137، 138

(3) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والمغرب، اشراف: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، (د،ط)، بيروت، 1981، ج7، ص236

(4) هو أبو العباس بن أبي السعود أحمد بن نصر بن أبي القاسم بن الحسن الثميرة الأزجي البغدادي التاجر، الذي قدم من بغداد إلى حلب من أجل التجارة، أنظر: ابن العديم، بغية الطلب، ج3، ص1182

(5) هو أبو بكر عبد الله بن علي الخضر البغدادي والذي كان تاجرا بحلب، أنظر، ابن العديم، بغية الطالب، ج2، ص953

الحسن⁽¹⁾، ومن الفقهاء التجار أيضا عبد المحسن بن محمد بن علي بن الشيعي⁽²⁾.
ومن اشتهر بطرسوس من الزهاد وعلماء التصوف الشيخ أبو الحارث الفيض بن الخضر أحمد الأولاسي⁽³⁾ في القرن 3هـ/9م، ولارتفاع شهرة طرسوس في علم الحديث وكثرة المحدثين بها، اجتذبت ابن طولون عندما توجه للجهاد 255هـ/869م في خلافة المستعين بالله فأقام بها فترة طويلة⁽⁴⁾.
وقد تمتع أهل الثغور عموما بالثراء وهو ما انعكس على الجانب الديني، ففي سنة 380هـ/990م قدم ثلاثة اخوة إلى ملطية واستوطنوها وكانوا يسمون أبناء عمران، وبنوا فيها الكثير من الكنائس والأديرة، وكانوا يتصفون بسخاء أيام الجمع حتى الظهر، وعندما هوجمت المدينة من قبل الأتراك طلبوا من أكبرهم أن يفتدي نفسه باعتباره غنيا، فقال أنه مستعد أن يفتدي جميع الأسرى مقابل كل أسير خمسة دنانير، وبالفعل افتدى خمسة عشر ألف أسير⁽⁵⁾، وكان تاجر الداب محمد بن سليمان بن حبيب الأسدي 240هـ/854م يربط بالثغور ويتاجر⁽⁶⁾.

ج- عامة التجار:

لا يختلف تصنيف تجار مدن الثغور عن غيرها من الأماكن الأخرى، حيث برزت عدة تصنيفات منها ما هو على حسب رؤوس الأموال والاستثمار، ونميز ثلاث مجموعات؛ الذين يقل رأسمالهم عن مائة دينار، والذين يستثمرون أكثر من ألف دينار، وما بين ذلك⁽⁷⁾.

(1) هو المحدث أبو الليث نصر بن الحسن بن القاسم السكتي، كان تاجرا، أنظر: ابن العديم، بغية الطالب في تاريخ حلب، ج2، ص625

(2) أبو منصور عبد المحسن بن محمد بن علي بن شهنديكة الشيعي، من أهل شبيح بن حية بالقرب من بزاعا، أو من شبيح الحديد بالقرب من الدريساك، المالكي النصري التاجر السفار، كان فقيها، أنظر: ابن العديم، بغية الطالب في تاريخ حلب، ج2، ص755

(3) هو الفيض بن الخضر بن أحمد ويقال الفيض بن محمد أبو الحارث التميمي الطرسوسي، أحد الزهاد المشهورين، كان صاحب مال وتجارا، أنظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج49، ص24

(4) الجنزوري، المرجع السابق، ص179، 180

(5) نفسه، ص170

(6) ابن حجر العسقلاني، تهذيب، ج9، ص199

(7) الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص260

وهناك من قسمهم إلى تجار القوافل الذين اشتغلوا عموماً بتجارة الترف، وتجار الجملة⁽¹⁾. وهناك من صنّفهم إلى تجار مستقرين وهم الذين يمتلكون حوانيت ثابتة يبيعون فيها سلعهم، أو تكون لهم أماكن في السوق لا يغادرونها حتى المساء، أمّا المتجولون فهم الذين يسافرون عبر القرى والأرياف حاملين بضائعهم على ظهورهم أو على الدواب، وينشرونها على حصائر ويلجؤون إلى الدعاية والمناداة عليها، وغالباً ما يبادلونها بسلع أخرى ويتعرضون للمنافسة من قبل كبار التجار، ومن ثم يبيعون بأسعار زهيدة⁽²⁾، وهناك تجار صغار كانوا يبيعون السلع ويقبضون على دفعات ويلبون حاجيات السكان ومطالبهم اليومية، ومنهم من يكتري حانوتاً في القيساريات أو السوق⁽³⁾.

3- من حيث العرقيات والأديان:

إنّ التبادل التجاري لمناطق الثغور لم يكن في أيدي التجار المسلمين لوحدهم، وإنّما كان يشاركهم في ذلك تجار آخرون من جنسيات وأديان مختلفة، أبرزهم اليهود والنصارى الذين كانوا جنباً مع جنب مع المسلمين في جلب البضائع الثمينة وإعادة بيعها ومقايضتها في مختلف نقاط العالم، وكان ثمة تنافس كبير بين تجار الديانات الثلاث، ولمزيد من المعرفة على نشاط أولئك التجار نستعرض كل فئة منهم راصدين نشاط كل منها على حدى:

أ- التاجر المسلم:

لأن التجارة أفضل الكسب عند المسلمين، فقد عمد عديد من أصحاب الأموال وكبار الملاك إلى التنافس الشريف فيها، وذلك باستثمار قسط من أموالهم في المشاريع التجارية، ويشاركهم في ذلك فئات أخرى من المجتمع كصغار التجار ورجال الجيش والعمال ورجال الأدب، وسرعان ما يعود ذلك على أصحابه والقائمين عليه بالريح الوفير، إضافة إلى الدعم المعنوي الذي تقدمه الدولة لهم.

(1) إبراهيم القادري بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1998، ص160، 161

(2) جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3-4هـ/9-10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص146

(3) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص147

كما أنه ثمة أمر يساهم بشكل أساسي في دفع التجار إلى الأمام، وهو الدور الذي لعبوه في إنجاح تجارتهم بفضل تلك التعاليم الربانية المتجددة في قلوبهم وتصرفاتهم، ومعاملاتهم الحسنة والمخلصة مع الناس، وكثرة أسفارهم ومغامراتهم التجارية وامتزاجها بخبرتهم الواسعة بأحوال الناس بمختلف أجناسهم وأعراقهم وألوانهم وألسنتهم، وهذا ما جعل التجار المسلمين رواداً للتجارة في العالم، وأكثر هيمنة ومهارة بمعرفة أثمان البضائع وقيمة النقود⁽¹⁾.

وباعتبار أن المسلمين قد شكلوا الغالبية العظمى من سكان الثغور بعد الهجرات المتلاحقة لهم نحو تلك المناطق، التي كانت قبلة المجاهدين والمرابطين والمحاربين وحتى التجار بعد أن نشطت المنطقة وتحول نشاطها العسكري والحربي إلى اقتصادي وتجاري خاصة، فقد ساهموا مساهمة فعالة في تحريك دواليب الاقتصاد الإسلامي والتخفيف من أزماته بالمنطقة، حيث كان التجار يرافقون الجيوش في غزواتهم أو مرابطتهم، ويزودونهم بما يحتاجونه من أدوات حرب وأرزاق، ويشترى ما يحصل عليه الجيش من غنائم، ولعل هذا ما كان يدر عليهم أرباحاً طائلة⁽²⁾، إضافة إلى أن الفئاض من وارد بيت المال الذي كان يباع إلى التجار فيسوقونه⁽³⁾، وقد أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز أمراً ببيع الغنائم⁽⁴⁾.

وتورد المصادر أنّ العرجي⁽⁵⁾ كان غازياً فأصابته الناس بمجاعة، فقال للتجار: اعطوا الناس وعلّي ما تعطون، فلم يزل يعطيهم ويطعم الناس حتى أخصبوا، فبلغ ذلك عشرين ألف دينار فألزمها نفسه، وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز فقال: بيت المال أحق بهذا، فقص التجار ذلك من بيت المال⁽⁶⁾. ويفهم من ذلك أنّ التجار ساهموا بأموالهم في حل المشكلات الاقتصادية.

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة، الدار التونسية، (د، ط)، تونس، 1986، ص 783

(2) الطبري، تاريخه، ج 6، ص 233

(3) نفسه، ج 7، ص 149

(4) ابن سعد، المصدر السابق، ج 5، ص 260

(5) (ت 40-120هـ/م) هو عبد الله بن عمر بن عفان الأموي، من أعيان الشعراء، وكان بطلاً شجاعاً مجاهداً، سجن بمكة إلى

أن مات في خلافة هشام، عاش ثمانين سنة، أنظر: الذهبي، سير، ج 6، ص 268

(6) الأصفهاني، المصدر السابق، ج 1، ص 395

ولم تكن التجارة مقصورة على الأحرار، بل كان بمقدور العبيد ممارستها بعد الحصول على إذن مسبق من أسيادهم فيصبحوا مأذونين، أي منحوا حق الممارسة مهنة والأعمال التي يريدونها، وكان بإمكان السيد التخلص من عبء إعالة العبيد بأن يجعلهم مأذونين، وبذلك يمنعهم حرية العمل⁽¹⁾. وقد مارس العبيد الأعمال التجارية المختلفة، كالتجارة في الأقمشة، والألبسة، وبيع الزيوت، والحبوب، والدقيق، والطعام، والمأكولات، والسروج، والتمر، والرقيق، وبيع الكرايبس(التياب من القطن)، والجواهر وغيرها، ولم تقتصر إمكاناتهم التجارية داخل الأمصار، بل تعدتها إلى الخارج، فيذكر أن عيسى بن أبي موسى السراج⁽²⁾ كان يأتي بالسروج إلى الرقة ونواحي الثغور لبيعها⁽³⁾، وكان يونس بن كرد بن شهريار مولى عمرو بن الزبير يتاجر من المدينة إلى الشام أيام يزيد بن عبد الملك⁽⁴⁾، وسافر فضالة بن معاذ بن عبد الله التاجر إلى دمشق من أجل التجارة⁽⁵⁾.

كما لعب الموالي دوراً كبيراً في التجارة، واستفادوا من سادتهم، وشاركوهم الأعمال لدرجة أن تشكلت منهم طبقة اقتصادية جيدة أفضل من مواليتهم العرب، وكان الموالي التجار يرافقون المسلمين في غزواتهم أو في المرابطة في الثغور، ويزودون المقاتلة بما يحتاجونه، ولم يقتصر عملهم على التجارة الداخلية، بل مارسوا حتى الخارجية، فيذكر الأزدي⁽⁶⁾ ضمن أحداث سنة 123هـ/741م، أن مولى لبني أمية كان يبيع الحديد عند خاتمة الطريق، وكان حكم بن ميمون مولى الوليد بن عبد الملك يكري جماله لنقل الزيت من الشام إلى المدينة لبيعه هناك⁽⁷⁾.

ومهما يكن من أمر فقد لعب الموالي دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية، وفي التجارة بشكل خاص، واستفادوا من سادتهم وشاركوهم الأعمال التجارية، حتى تشكلت منهم طبقة اقتصادية جيدة.

(1) الذهبي، سير، ج1، ص36

(2) من شيعة الكوفة، كان موسراً يعمل عند أبي مسلم الخراساني، أنظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ق3، ص84

(3) ابن الأثير، الكامل، ج5، ص255

(4) الأصفهاني، المصدر السابق، ج4، ص400، 401

(5) مؤلف مجهول، أخبار، ص179

(6) أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس، تاريخ الموصل، تح: علي حبيبة، دار تحرير، القاهرة، 1967، ص9

(7) الأصفهاني، المصدر السابق، ج6، ص280

ب- التاجر الذمي:

شارك أهل الذمة من يهود، ونصارى، ومسلمين في تنشيط الحركة التجارية في بلاد الشام عموماً ومناطق الثغور خاصة، ومن بين الأعمال التي مارسوها سواء بالتصدير أو الاستيراد: تجارة الحبوب، والخدم والجواري، والغلمان، والديباج، وجلود الخبز، والفراء، والسيوف، وبيع الحيتان، وكانوا يصلون بتجارهم حتى القسطنطينية⁽¹⁾:

1- اليهود:

من أهم العوامل التي ساعدت اليهود على امتهان التجارة، كونهم انتشروا في كل أنحاء العالم منذ القدم، كما أنهم استقروا بالقرب من الموانئ والمراكز التي تمر بها القوافل التجارية، ومما ساعدهم على ذلك أيضاً ارتباطهم مع يهود البلاد الإسلامية وغيرها، وهذا ما كون نظاماً عالمياً سهّل عملية انتقال التاجر والتبادل التجاري، وجعل اليهود ينجحون في التجارة رغم قلة عددهم، وأدى إلى ثراء بعض العائلات ثراءً كبيراً، كما أجاد اليهود الكثير من اللغات نتيجة كثرة تنقلهم⁽²⁾.

أمّا عن دورهم في منطقة الثغور عموماً، فيؤكد التطيلي⁽³⁾ وجود عائلات يهودية في مدينة صور تتاجر بالسفن والمراكب التي كانت تمتلكها فتحجوب البحار شرقاً وغرباً، إضافة إلى احتراف صناعة الزجاج والسك، أمّا ابن خلكان⁽⁴⁾ فيذكر أن بعض اليهود اشتغلوا وكلاء تجارة في مدينة الرملة. ويعطينا ابن خردذابة⁽⁵⁾ صورة عن دور اليهود الرذانية فيقول أنهم يتكلمون العربية، والفارسية، والافرنجية، والأندلسية، والصقلية، ويسافرون إلى كل أقطار العالم، وكانت التجارة البعيدة خاصة مع الهند والصين من اختصاصهم، حيث يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا، ثم يتجهون إلى بلاد المغرب

(1) هايد، المرجع السابق، ج1، ص142

(2) شحاتة محمد رية، اليهود في بلاد المغربين الأدنى والأوسط في عهد بني زييري 362-535هـ/972-1140م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة القاهرة، 2003، ص57

(3) بنيامين بن يونه النباري الأندلسي، رحلة بنيامين التطيلي، تر: عزار حدّاد، دراسة وتقديم: عبد الرحمن بن عبد الله الشيخ، الجمع الثقافي، (د،ط)، أبو ظبي، 2002، ص91، 92

(4) سير، ج6، ص32

(5) المصدر السابق، ص153، 154

عبر البحر، ويجلبون منها: الخدم، والجواري، وجلود الخنز، والفراء، والسمور، والسيوف، ثم يركبون البحر ثانية قاصدين الفرما بمصر، ويحملون تجارتهم برا على ظهور الدواب اتجاه القلزم، ثم يعاودون ركوب البحر حتى ينتهون بالسند والهند، ويذكر البضائع التي يجلبونها: كالمسك، والكافور والعود، وغيرها من مواد الزينة والترف، ثم يعودون أدراجهم إلى أن يصلوا إلى الفرما ويركبون بحر الشام، فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية، كما اشتغل اليهود بأمور الصيرفة، حيث وجدت ببلاد الشام أسواق الصيرفة أو حوانيت الصرّافة، يتولى الصرافون اليهود فيها عملية تبادل العملة⁽¹⁾.

وكانت النشاطات التجارية لليهود محاطة برعاية السلطة الإسلامية، وكانت الجالية اليهودية تسخر لمصالحها التجارية في مختلف الأنحاء أدلاء سفر، وصناديق خاصة للإغاثة، وعملاء للإيواء، وحقما للفصل في قضايا التجارة، ومشرفا على العقود في الأسواق، ومعقبا لافتداء الأسرى، وكل ما يتعلق بأمور التجارة⁽²⁾.

ومهما يكن من أمر فقد عاش اليهود إلى جانب المسلمين مطمئنين إلى وضعهم، واختار هؤلاء حرفاً تؤهل صاحبها أن يعامل باحترام في المجتمع، واعتبر القرن 4هـ/10م نقطة تحول هامة بالنسبة لهم، حيث سجل لهم مؤشر هام في مجال تجارة المسافات البعيدة، فتمتعوا بفرص التسامح الديني الذي وفره لهم المسلمون ليكون دعماً معنوياً وسنداً سياسياً لتركيز جهودهم وأموالهم في المجال التجاري⁽³⁾، حيث كان يقيم في بغداد وحدها نحو أربعين ألف يهودي⁽⁴⁾.

2- النصارى:

لم تقتصر الأعمال التجارية على التجار اليهود والمسلمين، بل مارسها النصارى أهل البلاد، ويبدو أنّ سكان البلاد الأصليين هم الذين اعتنوا بها وكفل لهم المسلمون حرية العمل، إذ كان في شروط

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص227

(2) موريس لومبارد، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، تر: عبد الرحمان حميدة، دار الفكر، (د،ط)، دمشق، 1979، ص276

(3) روبرت لوبيز، ثورة العصور الوسطى التجارية 950-1350م، تر: محمود أحمد أبو صرة، مراجعة: صلاح الدين حسن السوري، منشورات شركة *Elga*، (د،ط)، مالطا، 1997، ص82

(4) التطلبي، المصدر السابق، ص299

الصلح بينهم وبين أهل البلاد أن يسافروا حيث شاءوا من البلاد التي صالح العرب عليها، كما حدث مع أهل بعلبك⁽¹⁾.

وظلّ النصارى سادة بين الشرق والغرب، ورغم استبعادهم تدريجياً من المجال البحري نتيجة منافسة اليهود لهم، غير أنهم ظلوا محتفظين بشيء من نشاطهم التجاري فيما بين القارات عن طريق البر، وخاصة بلاد ما بين النهرين، وآسيا الوسطى، وأرمينيا، والشام، ومصر⁽²⁾.

ويذكر الجاحظ⁽³⁾ أنّ أغلب الصيارفة كانوا من النصارى، واكتفت المصادر بالإشارة إليهم وأطلقت عليهم اسم الضافطة⁽⁴⁾، وهم الذين ينقلون السلع التجارية والأخبار التي تروّج في الشام إلى سكان الحجار.

وقد لعبت الأديرة دوراً مهماً في التجارة، إذ كانت بمنزلة مستودعات تحفظ فيها النقود، فضلاً عن كونها مصارف، وكثيراً ما استخدمت في العمليات التجارية من الصيارفة النصارى، وكانت المراكز النصرانية عبارة عن نقاط أو محطات مهمة، عادة ما ترتبط رحلاتهم التجارية بالزيارات الدينية وبرحلات الحج إلى أماكنهم المقدسة، فكان ذلك سبباً في استمرار نشاطهم التجاري⁽⁵⁾.

ثانياً: العلاقات التجارية

كان للتمايز بين البلدان في الانتاج الزراعي والحيواني والصناعي، والتفاوت بين الناس في القابليات والحاجات، واكتساب الرزق، وحب التملك، أثره في تنشيط التجارة، وإلى بعض ذلك أشار ابن الفقيه⁽⁶⁾ في قوله: «ولولا أن الله عز وجل خص بلطفه كل بلد من البلدان، وأعطى كل إقليم من الأقاليم بشيء منعه غيرهم، لبطلت التجارات، وذهبت الصناعات، وذهب الشري والبيع».

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 13

(2) موريس لومبارد، المرجع السابق، ص 279 وما بعدها

(3) رسائل الجاحظ، تع: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، ط 1، بيروت، 1991، ج 3، ص 316

(4) هم الحمالون والمكارون الذين يكرون إبلهم لحمل السلع، وهم نبط من السكان المحليين، والنبط سموا بذلك لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين، أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، م 7، ص 344

(5) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 232

(6) المصدر السابق، ص 251

ولعل منطقة الثغور وموقعها الدفاعي والاستراتيجي كان ذا أهمية تجارية واقتصادية، كونها تشغل موقعا ساهم في الحركة التجارية، كما لعبت في هذه الفترة دور الوسيط بين الشرق والغرب، علاوة على قيام علاقات تجارية بينها وبين الأقطار المجاورة، وقد روعي في ترتيب البلاد ذات العلاقة التجارية مع مدن الثغور الأهمية التجارية، وتأتي في مقدمتها العلاقة مع بلاد الشام ومدن الثغور نفسها:

1- الشام وثغورها:

ظلت الحركة التجارية مستمرة بين بلاد الشام وثغورها، ويبدو قيام علاقات تجارية من خلال ما أوردته المصادر الجغرافية وكتب الرحلة، فذكر أنّ حصن الاسكندرونة الواقع على الطريق التجاري بين بلاد الشام وبلاد الروم من أكثر المناطق نخيلا وزروعا، وكانت أخشاب الصنوبر تحمل منه إلى سائر الثغور، ويذكر الاصطخري⁽¹⁾ أنّ حصن التينات فيه مجمع للخشب ينقل إلى الشامات ومصر والثغور. وذكر ابن حوقل⁽²⁾ النشاط التجاري بين حلب ومنبج بقوله: «منبج مدينة خصبة لها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفسق والسمسم..، ومنبج من الكروم الأعذاء على وجه الأرض في سائر ضياعها ما يزيد عن الكثرة.. ويحمل أربتهم إلى حلب وغيرها»، ويفهم من ذلك أن زبيب منبج يحمل إلى حلب وغيرها من مدن الشام، مما يؤكد نشاط التجارة الداخلية، أمّا طرسوس الواقعة على الطريق التجاري بين حلب والثغور الشامية كانت في حركة تجارية مستمرة، وقد اشتهرت بسوق السلاح الذي كان يحمل إلى مدن الثغور لحاجة الناس له، ولكونهم في حالة رباط دائم، ومن المصيبة حملت الفراء إلى سائر البلدان⁽³⁾.

وحملت الفواكه من أسواق جوسية إلى باقي المدن الشامية⁽⁴⁾، ومن صيدا وصور التين والزبيب⁽⁵⁾، أمّا ملطية ففيها من الجوز واللوز والكروم والرمان، وسائر الثمار الشتوية والصيفية ما هو مباح ويحمل

(1) أنظر: المصدر السابق، ص 63- ابن حوقل، صورة الأرض، ص 167

(2) صورة الأرض، ص 166-168

(3) القزويني، المصدر السابق، ص 564

(4) الادريسي، المصدر السابق، ج 6، ص 647

(5) خسرو، المصدر السابق، ص 14، 15

منه إلى سائر المدن، أمّا بيروت فكانت منفذ لأهل الشام على الفرات، كما استفادت بالس من حركة مرور التجارة والقوافل التجارية لوقوعها على الفرات⁽¹⁾.

أما حلب فقد برزت أهميتها من الناحية الاقتصادية، كونها مركزاً تجارياً يفد إليه الكثير من التجار من أجل البيع والشراء، وامتازت أسواقها بتصدير ما تصنعه من: خل، وصابون، وقطن، وثياب، والنشاط التجاري بينها وبين أنطاكية كان كبيراً، بدليل أنّ تجارات حلب تصل إليها عن طريق الفرات لتصدرها بدورها عن طريق البحر حتى غدت ميناءً هاماً بل من أكبر الموانئ لتصدير بضائع الشرق⁽²⁾ كما شهدت التجارة الداخلية نشاطاً ملحوظاً بين طرابلس من جهة، وحلب وحمّاه وبعبك وحمص من جهة ثانية، حيث كان التجار الحلبيون يصدرون بعض منتجاتهم المحلية، وما يصل إليهم من بضائع الشرق إلى مدينة اللاذقية⁽³⁾، وكان تجار حمّاه يصدرون: الصوف، والقطن، والأقمشة، والأغنام، والفسق، والجلود المدبوغة، ويستوردون منها: الحناء، وقصب السكر، والنانج، والكتان، والعصفر، والأرز، والنحاس، كما كان أهالي بعبك يبيعون الأقمشة في أسواق طرابلس⁽⁴⁾.

ويشير المقدسي إلى أن أكثر ميرة في بلاد الشام ترد من إقليم آقور⁽⁵⁾، ومن آمد كان يجلب ثياب الصوف والكتان، ومن جزيرة ابن عمر الملح⁽⁶⁾، ومن الرقة الصابون والجوز والزيت⁽⁷⁾. وبذلك يمكن القول إنّ من الثغور من كانت على علاقات تجارية فيما بينها وبين مدن الشام، وقد ساهم التجار في نقل السلع التجارية بينهما، وهو ما أسهم في تنشيط المنطقة من جهة، والتجارة الخارجية من جهة ثانية مع مختلف المناطق المحيطة بها كبلاد الروم، وأرمينيا، والعراق، ومصر وغيرها من البلدان والمناطق.

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 166، 166

(2) أيمن أحمد شعبان، ألوان من تاريخ بني حمدان، مطبعة الإخاء، ط 1، دمشق، 1996، ص 154

(3) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج 7، ص 39

(4) برغوث يوسف، لواء حمّاه في القرن السادس عشر (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة القاهرة، (د، ت)، ص 177 - 179

(5) المصدر السابق، ص 45، 46

(6) عبد العزيز سالم، العبادي، المرجع السابق، ص 178

(7) فهد بدري محمد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الإرشاد، (د، ط)، بغداد، 1973، ص 352

2- العراق:

تشير المصادر إلى صلات تجارية بين الطرفين، ومما ساعد في توطيدها سهولة المواصلات البرية والنهرية وعدم وجود حواجز طبيعية تقف حجر عثرة في طريق القوافل الذاهبة للشام أو العكس، فيذكر اليعقوبي⁽¹⁾ أنّ السفن كانت تأتي إلى بغداد محملة ببضائع الشام ومصر والمغرب، ولعل أول ما يلفت الانتباه، وقوع حلب على خط التجارة الدولي القادم من الهند، وفارس، والخليج العربي، والعراق، كما أنّ إقليم آقور أين تقع ثغور الجزيرة هو الواسطة بين الطرفين، حيث ينزله التجار في منتصف الطريق⁽²⁾.

وكان يرد من العراق الزيت والزيتون والزبيب وكان يحمل على الإبل⁽³⁾، ذكر اليعقوبي⁽⁴⁾ أنّ السفن التجارية تأتي باستمرار إلى نهر الفرات، ثم تسلك نهر عيسى حتى تصل بلاد الشام محملة بالرقيق، والمنسوجات الحريرية، والقطن، والمنسوجات القطنية، والسكر، والزجاج، كما كانت تحمل الخضر والفواكه دون أن يلحق بها أي تلف⁽⁵⁾، وكان يجلب من البصرة التمور⁽⁶⁾، أمّا التجار العراقيون فقد جلبوا من الشام وثغورها القطن والزيت والزجاج والعود والديباج والفواكه والخضر وسائر الغلات.

3- الدولة البيزنطية:

لم تكن طبيعة العلاقات بين الطرفين قصة حروب متصلة الحلقات، أو غارات متكررة تبادلها الطرفان، بل قد سمحت فترات السلم بينهما بتكوين علاقات تجارية نشيطة، فكان لا بد للبيزنطيين تخطي العداء الديني والسياسي في سبيل التجارة، أمّا المسلمين فقد ترددت أعداد كبيرة منهم على القسطنطينية الواقعة على طريق التجارة العالمية والتي تربط الشرق بالغرب، ما دعا إلى إنشاء مقر لهم

(1) البلدان (الملحق)، ص 237، 238

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 136

(3) الجهشباري، المصدر السابق، ص 287

(4) البلدان، ص 50

(5) سالم العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، المعارف، (د، ط)، بغداد، 1953، ص 217

(6) الجاحظ، التبصر بالتجارة، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، (د، ط)، (د، م)، (د، ت)، ص 27

يجتمعون فيه، وقد تناولها الجغرافيون وأسهبوا في وصفها، وتحدثوا عن تخطيطها، وتحصيناتها، وبيوتها، وأسواقها، وكنائسها، ومعالمها، بإعجاب شديد.

ويؤكد المقدسي⁽¹⁾ ذلك فيقول: «للمسلمين بها دار يجتمعون فيها ويظهرون الإسلام بها» ويستمر في وصف المدينة ومدى حاجة المسلمين للتبادل التجاري مع أهلها: «فرأيت أنّ أصوّر ذلك للعيون وأوضحه للقلوب، وأذكر الطرق إليها لحاجة المسلمين إلى ذلك، وقصدهم في شراء الأسارى والرسالات والغزو والتجارات»، وأما عن أسواقها فقال: «للبلد أسواق حسنة، والأسعار بها رخيصة، ومعظم بيوتها من الخشب، ويعيش الأغنياء في قصور مبنية من الحجارة، ويشتمل عدد كبير منها على فناء مغلق».

ويصف بنيامين التطيلي⁽²⁾ الحركة التجارية الدائبة في أسواق القسطنطينية، وكثرة من يتردد عليها من تجار الشام والعراق ومصر بقوله: «وفي المدينة حركة دائبة من التجار القادمين إليها، ولا يباريها في هذا الباب غير بغداد الإسلامية الكبرى»، كما يصور ابن خردادبة⁽³⁾ حركة التجارة في بلاد الروم بقوله: «وتجري السفن بحمولته، فتجئ السفينة بما فيها حتى تقف على حانوت المشتري».

ولا بد من الإشارة إلى أن بيزنطة لم تكن تستطيع الاستغناء عن محاصيل المنطقة وبلاد الشام عموماً، وعن الوساطة التي يقوم بها العرب في نقل بضائع الشرق النادرة التي تكون بيزنطة في أمس الحاجة إليها، وعلى هذا الأساس فإنّ بيزنطة ألغت نظام الرقابة والمصادرة التي فرضتها على سفن المسلمين، وخصصت طرابزنده مكاناً لاستقبال التجارات القادمة من بلاد المسلمين، وخصصت للمسلمين خانات ينزلونها ويحفظوا سلعهم فيها⁽⁴⁾.

وكانت ترد أسواق بلاد الشام والثغور من بلاد الروم سلع كثيرة منها: الديباج الرومي المشهور، والثياب الكتانية، والزيتون، والبسط، والنباتات ذات العطر الطيب، والصمغ، والخدم والجواري

(1) المصدر السابق، ص 147، 148

(2) المصدر السابق، ص 78

(3) المصدر السابق، ص 114

(4) أرشيبالد لويس، المرجع السابق، ص 140

والغلمان، والجلود، والفراء، والسمور، والسيوف⁽¹⁾، وأواني الفضة والذهب والدنانير الخالصة القيسرية، والعقاقير⁽²⁾، وجلود الخنزير والوبر⁽³⁾، والمرجان، والدقيق الأبيض يؤتى به من روسيا، والعنبر من بحر البلطيق، والشموع الطويلة التي كانت تستهلك بكميات كبيرة في المساجد، والفرو، والدروع⁽⁴⁾.

4- مصر:

كانت التجارة بين المنطقتين وثيقة الصلة، فمعظم تجارات الشام الذاهبة إلى شمال أفريقيا والأندلس تمر عبر الأراضي المصرية، وكذا شأن التجارات القادمة من المغرب والأندلس إلى المشرق التي لا بد لها من المرور عبر الأراضي المصرية، وبذلك كانت نقطة تلتقي فيها تجارات المشرق والمغرب باستمرار.

وقد لعبت الثغور البحرية دوراً مهماً في نقل السلع والبضائع بين بلاد الشام ومصر، وبرزت عدة مدن لعبور لتجارة في الاتجاهين، كطرابلس التي صدرت إلى مصر: الفواكه الرطبة من؛ النارج، والأترنج، والموز، والليمون، والتمر⁽⁵⁾، كما كان الصابون الطرابلسي وبعض البضائع القادمة من المدن الأخرى؛ كحماة، وحلب، وحمص، وما يفد إليها من الشرق من البضائع التي تصدر إلى مصر⁽⁶⁾، كما حملت الأخشاب من حصن التينات إلى مصر عبر مينائي اللاذقية وطرابلس⁽⁷⁾، وساهمت في نقل الثلج⁽⁸⁾ والقطن الذي كان يحاك بها مقابل أن تستورد منها الكتان ومصنوعاته⁽⁹⁾.

أمّا عن السلع الواردة من مصر فقد جلب المسلمون الثياب الرقاق، والقراطيس، والحمير، والبغال، والرقيق، والأقمشة، والمنسوجات الصوفية⁽¹⁰⁾، كما استوردوا: الأرز، والحنطة، والنحاس، والذهب،

(1) أبو الحسين هلال بن الحسن الصابي، رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، (د، د، ن)، (د، ط)، بغداد، 1964، ص 178

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 343-346

(3) ياقوت، المعجم، ج 2، ص 46

(4) المسعودي، مروج الذهب، ج 1، ص 342

(5) ناصر خسرو، ص 13

(6) الادريسي، المصدر السابق، ج 4، ص 372، 373

(7) الاصطخري، المصدر السابق، ص 63

(8) القلقشندي، المصدر السابق، ج 14، ص 396

(9) Wright thoma, early travel in palestine, press, new york, 1969, p10

(10) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص 26

والمناديل، والبسط، والستور، والحصر⁽¹⁾.

5- بلاد الحجاز:

نشطت الحركة التجارية بين مدن الثغور وبلاد الحجاز، وكانت هذه الصلات سببا في ظهور الطرق والمراكز التجارية الواقعة عليها والتي تصل بين المنطقتين، وكانت قوافل التجار الحجازيين تسير محملة بالسلع خاصة في موسم الحج، وكان ميناء القلزم المصري هو الواسطة التي تصل عن طريقها بضائع الشام إلى الحجاز، حيث تحمل منه السلع القادمة من الشام براً⁽²⁾. وتشير بعض المصادر إلى أنه كان يجلب لمكة من المنطقة الزيت⁽³⁾ والطعام والحبوب، ومن الجزيرة جلبت الخيل، والنعام، والإبل، والطين الأبيض⁽⁴⁾، والذهب الذي كانت تجارته متروكة للأشخاص من التجار الذين يستوردونه من العراق وكان الطلب عليه شديداً⁽⁵⁾.

6- جزر بحر الشام:

ظلت العلاقات التجارية بين المنطقتين قوية ومستمرة منذ القدم، والتي كانت في مد وجزر وأهمها: جزيرة قبرص: اشتهرت بازدهاها الاقتصادي، وهي تعني بالرومية النحاس الجيد، زارها المقدسي⁽⁶⁾ وتحدث عن نشاط أهلها التجاري، وذكر أنها تقع بالقرب من صور -يقال اثنا عشر يوماً كلها مدن عامرة- وللمسلمين بها سعة لكثرة ما يحمل منها من الخيرات والثياب، كما اشتهرت بوجود معادن الصفر والزاج، فقال أنّ سفنا محملة بالبضائع كانت تأتي من جزيرة قبرص، وقد جلب المسلمون منها الحرير الذي كان من اختصاص بلاد الشام، والمنسوجات والثياب والميعة والمصطكى والنحاس، وكانت تصل إليها عن طريق الثغور البحرية⁽⁷⁾، ونتيجة للحركة التجارية فقد ازدهرت أسواقها.

(1) ابن الجوزي، المنتظم، ج6، ص50، 51

(2) الاضطخري، المصدر السابق، ص33

(3) الزهري، المصدر السابق، ص36

(4) ابن الجوزي، المصدر السابق، ج6، ص188

(5) البيهقي، المصدر السابق، ج1، ص47

(6) أحسن التقاسيم، ص158

(7) ابن حوقل، صورة الأرض، ص185

جزيرة اقريطش: تعد من أهم المراكز التجارية، وقد ساعد على ذلك موقعها المميز، حيث كانت حلقة وصل للتجارة بين الأندلس والمغرب وبلاد الروم ومصر، وهي جزيرة كبيرة اشتهرت بمعدن الذهب⁽¹⁾. جزيرة صقلية: كانت مركزاً تجارياً رئيسياً، حظيت بموقع استراتيجي على طريق التجارة العالمية، فهي تربط قارات العالم القديم عن طريق البحر، شهدت قبل الفتح الاسلامي نشاطا تجاريا بين الروم والفرنجة والمسلمين، ويشير الادريسي⁽²⁾ إلى ذلك فيقول: «وقديما داخلها المتجولون من سائر الأقطار، والمترددن بين المدن والأمصار، وكلهم أجمعوا على تفضيلها، وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها، وما جمعته من مفترق المحاسن وما ضمته من خيرات سائر المواطن». وتعدّ جزيرة صقلية من أهم المراكز التي تركز فيها المسلمون، والذين نقلوا إليها دودة القز وصناعة الحرير⁽³⁾، كما كان يعيش بها تجار يهود متخصصون بجمع الدقيق من أوروبا وبيعه في أسواق المدينة، ويدفعون ضرائب باهضة للروم، ولهم حارة خاصة بهم تسمى بحارة اليهود، وكانت موانئ صقلية تستقبل التجار من أنحاء مختلفة من بلدان العالم، ومما يدل على ازدهار الحركة التجارية بها ما ذكره الادريسي⁽⁴⁾ عند حديثه عن مرسى مدينة مسيني الواقعة على المضيق بين الجزيرة وأرض ايطاليا فقال: «هي من أجل البلاد، وأكثرها عمارة، والسفر منها وإليها قصدا، وهي دار الانشاء وبها الحط والارساء من جميع بلاد الروم الساحلية، وبها تجتمع السفن الكبار، والمسافرون والتجار من البلاد الرومية والإسلامية القاصدون إليها من جميع الأقطار».

7- أرمينيا:

يبدو أنّ هناك علاقات تجارية بين أرمينية ومدن الثغور لقربها منها، يؤكد ابن حوقل⁽⁵⁾ ذلك بقوله: «ويجلب من الزوزان ونواحي أرمينية والران.. إلى العراق والشام»، ولكنها ليست بالمستوى الكثير، فقد

(1) أنظر: البكري، المصدر السابق، ج9، ص482- المقدسي، أحسن التقاسيم، ص15

(2) الرحلة، ص588

(3) أرشيبالد، المرجع السابق، ص263، 264

(4) الرحلة، ص595

(5) صورة الأرض، ص297

حمل منها الأخشاب⁽¹⁾، وسمك الطريخ الذي صدر إلى أماكن عديدة من الشام، والبغال الجياد، والملح الذي حمل إلى العراق وغيرها للخبازين، والفضة والذهب⁽²⁾، وكذلك القرمز الذي استعمل في تلوين الأقمشة الصوفية⁽³⁾، فضلا عن التفاح الأرمني والفسق⁽⁴⁾.

أما بالنسبة للمراكز التجارية الأرمينية، فقد اتخذت أهميتها بالنسبة لموقعها بوصفها مركزا للتجارة العابرة بين البحر الأسود والجزيرة الفراتية، ومركز تجاري على حدود الدولة البيزنطية والخلافة الإسلامية على حد سواء، وازدهرت تجارة أرمينية كذلك بفعل عدة طرق تشكل شبكة هامة للمواصلات بينها وبين الدولة البيزنطية والخلافة الإسلامية عبر البحر الأسود وميناء طرايزون وبحر الخزر⁽⁵⁾.

واشتهرت من أرمينية مراكز تجارية، أهمها: مدينة أرزن *Arzen* أو أرز *Arze* التي ارتادها كثير من التجار الشاميين والأرمن والعراقيين وغيرهم من أجل البيع والشراء، فضلا عن مدينة بردعة التي ربطت بالموصل عن طريق القوافل البرية، وكان يعمر بها سوق أسبوعي به كثير من الفنادق والخانات، يرتاده سكان وإقليم الجزيرة⁽⁶⁾.

ومدينة خرسيون (خرسندة) التي كانت من مراكز التجارة المهمة بين المسلمين والروم، تقع على سواحل البحر الأسود في شبه جزيرة القرم، أشار الإدريسي⁽⁷⁾ إليها فقال: «مدينة حسنة، كبيرة عامرة جامعة، بها أسواق وتجار، كانت تشكل انطلاقا للتجار الروم إلى بلاد الخزر والروس والصقالبة والمسلمين، ويمر عليها التجار المسلمين عند عودتهم من تلك البلاد، وينقلون إليها بضائع الشرق القادمة من الهند والصين، ومنها كانت تنقل البضائع إلى القسطنطينية ثم بلدان بحر الشام»، وعليه يمكن الحكم على تجارة المنطقة مع مدن الثغور أشبه ما تكون بالموسمية.

(1) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص 125

(2) ابن حوقل، المصدر السابق، ص 297

(3) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 380

(4) الزهري، المصدر السابق، ص 86

(5) البغدادى، المصدر السابق، ج 1، ص 91

(6) أنظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص 291- هايد، المرجع السابق، ج 1، ص 61

(7) المصدر السابق، ص 907

8- الهند والصين:

ترجع العلاقات التجارية بين بلاد الشام وبلاد الهند والصين والشرق الأقصى إلى عهود قديمة، وهي تعتمد بالدرجة الأولى على المواد الكيماوية الغالية الثمن كالبهارات، والعاج، والأخشاب الصلبة، وأنواع الطيب، والأحجار الكريمة، والجواهر، وهو ما دفع التجار إلى القدوم إليها من أقصى الغرب⁽¹⁾. ولعبت مدن الثغور دور الوسيط بين الهند والصين والغرب، فقد كان التجار القادمون من الشرق إلى بغداد يسيرون عبر الفرات، فالرصافة، ومنها إلى دمشق، ثم يساهم أهل الشام بنقلها عبر أراضيهم إلى الثغور الشامية ثم إلى مختلف المناطق⁽²⁾.

9- المغرب والأندلس:

ترجع العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس وبلاد الشام إلى أوائل الفتح الإسلامي للمنطقة⁽³⁾، إذ كانت الصلات التجارية قوية ومنظمة، فلم يكن للبعد المكاني بين الشرق الإسلامي والمغرب الأقصى أثر كبير في إعاقه هذه الصلات، فكانت القوافل القادمة من بلاد الشام وثغورها تصل إلى بلاد المغرب منطلقاً من: دمشق، إلى الرملة، ومنها إلى مصر، والمغرب، والأندلس، حاملة منها بضائع الشرق ومنتجات الشام لتصريفها هناك⁽⁴⁾.

وقد أشارت المصادر إلى بعض السلع التي تأتي من الأندلس والمغرب مثل: الخدم، والجواري الروميات والأندلسيات، والجلود، والزئبق، والأكسية، والبسط الرقيقة، والفرش، والصفوف الرفيع، والخز، والدواب وخاصة البغال، والعنبر، والتمور⁽⁵⁾، ومعدن الكبريت الأحمر⁽⁶⁾.

وفي الأخير يمكن القول إن السلع التجارية الواردة إلى أسواق المنطقة كانت تصل بكميات كبيرة، ربما فاق ما بأسواق البلدان التي جلبت منها، وبنفس الطرق التجارية البرية والبحرية التي ترد عن

(1) اليعقوبي، البلدان، ص36

(2) ابن خردادبة، المصدر السابق، ص98

(3) لومبارد، المرجع السابق، ص112، 113

(4) ابن خردادبة، المصدر السابق، ص154، 155

(5) نفسه، ص92

(6) الزهري، المصدر السابق، ص99

طريقها السلع التجارية خرجت منها القوافل، محملة بالبضائع المختلفة إلى نواح كثيرة من الدولة الإسلامية بل وخارج حدودها، فكانت هاته القوافل تتجه نحو الغرب قاصدة مصر وبلاد المغرب والأندلس، وقوافل أخرى اتجهت جنوبا نحو العراق ومنه إلى الهند والصين والشرق الأقصى، وثالثة إلى الشمال نحو طرابزون وخرسيون، وربما توغلت إلى الغرب نحو إيطاليا وفرنسا.

الفصل الثالث

النظم المالية في الثغور الإسلامية

المبحث الأول: إيرادات الثغور

المبحث الثاني: نفقات الثغور

المبحث الثالث: أنواع العملات

المبحث الرابع: الأوزان والمكاييل والمقاييس

المبحث الخامس: الأسعار ومستوى المعيشة

المبحث الأول: إيرادات الثغور

يشير قدامة⁽¹⁾ إلى نقطة هامة بالنسبة لحياة الثغور، وهي مقدار الدخل والنفقات السنوية، وكيف أنّ الإنفاق بها كان دائماً أكثر من دخلها، فالثغور الشامية نجد أنّ دخلها حوالي مائة ألف دينار، بينما نفقاتها حوالي مائتي ألف دينار، وأحياناً ثلاثمائة، أمّا الثغور الجزرية فدخلها حوالي سبعون ألف دينار، ونفقاتها حوالي مائة وعشرون ألف دينار، وأحياناً مائة وسبعون ألف دينار، في حين أنّ دخل الثغور البكرية كان حوالي ألف وثلاثمائة ألف درهم، ونفقاتها حوالي ألف ألف وسبعمائة ألف درهم، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤالان، الأول: من أين يأتي دخل الثغور؟، والثاني: ماهي أوجه الصرف التي كان ينفق فيها؟.

وانقسمت موارد بيت المال في النظام الإسلامي إلى قسمين، القسم الأول عبارة عن إيرادات اعتيادية؛ وتشمل الموارد الرئيسية: كالحراج والجزية، والموارد الشرعية: كالزكاة والعشور والمكوس، وليس في ذلك مجال للتمييز بالنسبة للثغور والعوصم الإسلامية.

أمّا القسم الثاني فهي الإيرادات المتغيرة كالغنائم، والصدقات والموارد الاقتصادية من زراعة، وصناعة، وتجارة، بالإضافة إلى الرسوم والضرائب الإضافية؛ وهي تشمل أموال المصادرات، الهبات، الهدايا وغيرها، ويحدد فتحي عثمان⁽²⁾ ذلك بالنسبة لحياة الثغور فيقول: «أمّا الخراج والجزية فهما يتأسسان في أحكامهما على الفتح، وأمّا الفيء والغنيمة فهما يخلصان من الحرب، وهذه الموارد بالذات-المتغيرة- أوثق علاقة بالموضوع».

والواقع أنّ أهم مصادر دخل الثغور، هي الأموال التي كانت تخصص لها من قبل الخليفة أو السلطات أو أولي الأمر، بالإضافة إلى ما كان يبعثه المحسنون، وفي ذلك يقول ابن حوقل⁽³⁾: «ترد عليها الجرايات والصلوات، وترد عليهم الأنزال، والحملان العظيمة والجسيمة إلى ما كان السلاطين يتكفلونه، وأرباب النعم يعانونه، وينفذونه متطوعين، ويتحاضون عليه متبرعين، ولم يكن في ناحية

(1) الخراج، ص 186-188

(2) المرجع السابق، ج 3، ص 117

(3) صورة الأرض، ص 168، 169

ذكرتها رئيس ولا نفيس، إلا وله عليها أوقاف من ضياع ذوات أكرع، وزراع، وغلات، أو مسقف من فنادق، ودور، وحمامات، وخانات».

ولعله من الضروري ذكر تلك المصادر في الفترة المدروسة، مراعين في ذلك علاقتها بالموضوع، وأهميتها في الحياة الاقتصادية للمنطقة، مبتدئين بالموارد المالية المتغيرة، نظرا لوقوع منطقة الثغور الإسلامية في حركة مد وجزر بين المسلمين والبيزنطيين، خاصة أوقات الحرب هذا من جهة، أمّا من جهة ثانية فهو عجز بيت المال عن سد العجز المالي الذي كانت تعاني منه المنطقة بسبب كثرة الإنفاق.

I- الإيرادات المتغيرة:

تعد الإيرادات المتغيرة، الموارد التي تتسم بعدم الثبات والاستقرار، أي أنّ تحصيلها لا يكون في وقت ثابت، ولا بمقدار محدد، إنّما هو مختلف تبعا لتطور الأوضاع والظروف، ويذكر الفقهاء عديدا منها، والتي تتغير باستمرار، ومع مرور الوقت تبعا لاختلاف الزمان والمكان.

1- الغنائم:

ارتبطت إيرادات الغنائم في الدولة الإسلامية بحركة الغزو والفتوح التي انتهجها الخلفاء لنشر الإسلام، وتوسيع رقعة الدولة وتأمين ثغورها، فلم تكن الغنائم هدفا مقصودا لذاته، إنّما كانت عاملا مشجعا على الجهاد والمقاتلة ونتيجة الانتصار على الأعداء، وكانت الغنائم مقسمة إلى فيء وغنيمة، فالفيء، كل ما وصل عن المشركين عفوا، من غير قتال، أمّا الغنيمة، فهي كل ما غنمه المسلمون بالقتال باستثناء الأرض⁽¹⁾، وتشمل الأسرى وهم المقاتلون الكفار الذين أسروا واسترقوا، والسبي من النساء والأطفال، والأموال المنقولة، وكان خمسها يشكل إيرادا مهما لبيت المال نظرا لاستمرار الفتوحات⁽²⁾.

(1) فالأرض إذا استولى عليها المسلمون، تقسم إلى ثلاثة أقسام: أولها ما ملك عنوة وقهرا حتى فارقوها بقتل، أو أسر، أو جلاء والثاني ما ملكت عفوا لانجلائهم خوفا فتصير وقفا، والثالث أن يستولي عليها صلحا فتصير خراج، أنظر: الماوردي، المصدر السابق، ص 166-175

(2) يحيى بن آدم القرشي، المصدر السابق، ج 9، ص 58

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾⁽¹⁾، وقوله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾⁽²⁾، والغنائم أكثر أقساما وأحكاما، لأنها أصل تفرع عنه الفبيء، فكان حكمها أعم.

لقد شكلت غنائم الحرب موردا مهما بالنسبة لمدن الثغور، نتيجة تتابع الحملات على بلاد الروم، حيث كانت تصيب غنائم كبيرة⁽³⁾، فقد كانت الصوائف والشواقي مصدرا لإمداد مناطق الثغور وغيرها من أقاليم الدولة بأصناف من الغنائم، وأهمها السبي الذي كانت كميته تعبر عن مدى نجاح الحملات، ومن ذلك ما أسفرت عنه حملة الخليفة هارون الرشيد سنة 165هـ/781م إلى بلاد الروم من غنائم كبيرة، ويذكر الطبري⁽⁴⁾ أنه كان مما أفاء الله عليه إلى أن أذعنت الروم بالجزية: 5643 رأسا، ومن الدواب بأدواتها 20.000 دابة، وذبح من البقر والغنم 100.000 رأس، وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق 100.000، ويبيع البرذون⁽⁵⁾ بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفا بدرهم، وعبر عن صائفة عبد الملك بن صالح التي انطلقت سنة 175هـ/791م أنها جلبت معها 19 ألف رأس من الروم⁽⁶⁾.

وفي سنة 190هـ/806م ولي حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر فبلغ قبرص، فهدم وأحرق وسبي من أهلها ستة عشر ألفا، فأقدمهم الرافقة وتولى بيعهم أبو البحترى القاضي فبلغ أسقفها ألفي دينار، وعلى إثر غزوة المعتصم لعمورية سنة 223هـ/838م أقبل الناس بالأسرى والسبي حتى امتلأ المعسكر⁽⁷⁾.

(1) الآية 1

(2) سورة الأنفال، الآية 41

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص141

(4) تاريخ، ج9، ص347

(5) يطلق على غير العربي من الخيل والبغال، عظيم الخلقة، غليظ الأعضاء، قوي الأرجل، عظيم الخوافر، أنظر: عبد اللطيف

عاشور، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، مكتبة القرآن، (د،ط)، القاهرة، 2000، ص77

(6) ابن خياط، المصدر السابق، ص449

(7) الطبري، تاريخه، ج10، ص99، 342

وفي سنة 273هـ/886م غزا يا زمان الصائفة، وتوغل في أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبي، وعاد إلى طرطوس⁽¹⁾، وفي سنة 291هـ/904م نهض جيش من طرطوس فقاتلوا الروم من مدينة أنطاكية، فاقتحموها عنوة وقتلوا بها من الروم خمسة آلاف، وغنموا غنيمة لم يعد مثلها بحيث بلغ سهم الفارس ألف دينار⁽²⁾.

وفي سنة 315هـ/927م خرجت سرية من طرطوس إلى بلاد الروم، فاشتبكوا معها، وأسروا من المسلمين أربعمئة رجل، فقتلوا صبرا، فخرج إليهم ثل الخادم فاقتتلوا وانتصر المسلمون، وغنموا ما لا يحصى، وقيل أنه في جملة ما غنموا؛ أنهم ذبحوا من الغنم في بلاد الروم 300.000 رأس سوى ما سلم معهم⁽³⁾.

أما عن قسمة الغنائم، فقد سأل الخليفة هارون الرشيد أبا يوسف⁽⁴⁾ عن ذلك فأجابته: «أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو، وكيف تقسم؟ فإن الله قد أنزل بيان ذلك في كتابه، فقال فيما أنزل على رسوله (صلى الله عليه وسلم) في سورة الأنفال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽⁵⁾.

فالغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة منها تقسم على الجند، للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم، أما الخمس المتبقي فيقسم على خمسة كما هو ظاهر في الآية السابقة الذكر، ثم قسم بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) على ثلاثة لليتامى والمساكين وابن السبيل⁽⁶⁾.

(1) ابن العديم، زبدة، ج9، ص82

(2) سناء عبد الله عزيز الطائي، اقتصاديات الثغور، ص(497-515)

(3) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص189، 190

(4) الخراج، ص18

(5) الآية 41

(6) فقد اتبع المسلمون الشريعة الإسلامية في ذلك، وماكان سائرا في الدولة كان سائرا في مناطق الثغور، أنظر: أبو يوسف، المصدر السابق، ص20

2- الصدقات والهبات:

تشير النصوص التاريخية إلى ظاهرة تخصيص هبات وصدقات لمناطق الثغور، باعتبارها في نطاق الجهاد في سبيل الله، وفي ذلك ذكر الاصطخري وابن حوقل⁽¹⁾: «أنّه ليس من مدينة عظيمة في حد سجستان، وكرمان، إلى مصر والمغرب، إلاّ وبطرسوس لأهلها دار، ينزل بها غزاة تلك البلدة، ويرابطون بها إذا وردوها، وتكثر عليهم الصلوات، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة».

وقد أدرك الخلفاء وزوجاتهم ذلك الأمر، فسارعوا إلى بناء دور السبيل والجهاد، ووقفوا عليها الحبوس والأرزاق الدارة، لتمويل العاملين على الجهاد، أو طالبي العلم ممن يقصد المنطقة، ولعل ما يلفت النظر أنّ أكثر من والدّة من أمهات الخلفاء كن لهن دور للجهاد، وأكثر من قائد كذلك، وفي الدور جنود محاربون بأعداد تصل إلى المئات ولهم أوقافهم لمتابعة الجهاد⁽²⁾.

فقد قامت السيدة زبيدة زوجة الرشيد ببناء دار ضيافة في بغراس لاستقبال من يقصد المنطقة من مجاهدين أو طلاب علم، وعددا من دور السبيل في الثغر الشامي وطرسوس⁽³⁾، وبنت أم المعتز دارا في شارع باب الصفصاف تتألف من حجر وكل حجرة من بيتين ومرفق، مقدرة لسكنى مائة وخمسين غلاما وجعلتها وقفا، وللدار خزانة للسلاح يظهر أيام الأعياد والحروب أو ورود رسل الروم⁽⁴⁾.

كما بنت السيدة أم المقتدر عند آخر شارع النجارين بطرسوس دارا كبيرة، ليس بطرسوس ولا بالثغور دارا أكبر منها، وبرسم هذه الدار صناع معروفون من أهل سوق السلاح لتدبير جوانبها، ورم شعت سلاحها، وجلا دروعها وسيوفها في كل سنة مرة أو مرتين، وكان يركب منها إلى الجهاد مائة وخمسون غلاما، يرأسهم رجل منه على رأسه مطارد تعرف بهم، وكان ارتفاع الدار في السنة الواحدة مائة ألف دينار⁽⁵⁾.

(1) أنظر: مسالك الممالك، ص64- صورة الأرض، ص184

(2) سناء عبد الله اعزيز الطائي، اقتصاديات الثغور، ص(497-515)

(3) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص151

(4) الطرسوسي، المصدر السابق، ص26

(5) نفسه، ص11

فهذا التصرف من قبل زوجات وأمهات الخلفاء يظهر مدى دراكنهن لأهمية الجهاد في إقليم الثغور، ويعكس رغبتهن في كسب الأجر والثواب؛ من تجهيز هؤلاء المجاهدين في سبيل الله من خلال تقديم الصدقات والأعمال الخيرية.

3- الموارد الاقتصادية:

تشمل الموارد الاقتصادية كلا من؛ الزراعة، والصناعة، والتجارة، ولقد توافر للثغور الإسلامية عدة عوامل أسهمت في ازدهارها، والذي زاد من حيوية ونشاط الحياة الاقتصادية، ووفر موارد ثابتة لبيت المال، لا سيما وأن نفقات الثغور كانت تفوق وارداتها.

وأوردنا سابقا من خلال هذا البحث كيف أنّ مناطق الثغور تميزت بمكانة اقتصادية مهمة؛ فخصوبة تربتها، ووفرة مياهها، وتنوع تضاريسها، ومناخها، أدى إلى ازدهار الزراعة بها، وتوفر الكثير من المواد الخام أدى إلى تنوع صناعتها، إضافة إلى موقعها المميز، والذي جعل منها ملتقى تجاري مهم ربط بين مختلف الجهات، ولا تكاد تختلف مدن الثغور عن بعضها البعض؛ وسنورد هنا مدينة طرسوس مثلا، حيث كانت ضياعها تعطي غلات كثيرة على رأسها الحنطة، التي كان يؤخذ منها من كل عشرة أحمال أو رواحل واحد، يوضع في برج قلمية من طرسوس، فإذا اجتمع أطلق منه لأهل الشرف⁽¹⁾ المقيمين بطرسوس من أبناء المهاجرين والأنصار، وقد جرى ذلك منذ خلافة المأمون الذي أقر ذلك، وأصبح هذا العمل يجري بينهم مجرى الميراث يتوارثونه أبا عن جد، حتى الغريب الطارئ منهم يدفع إليه مقدار كفايته، وكفاية جملته إذا كان ذا عيال، أو كان في مرتبة الشرفاء، وكان جزء من هذا العشر يرسم الشيوخ المسجدية، لا ينقطع عنهم في كل سنة، لكل شيخ منهم ستة أمداء⁽²⁾

(1) من آل البيت وأبناء الصحابة كان يصرف لهم شرف العطاء، وهو مقدار من المال زيادة على عطاء الأجناد تشريفا لهم وكان منذ خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، أنظر: أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا، الإشراف في منازل الأشراف، تح: نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد، ط1، الرياض، 1990

(2) المد بضم الميم، مكيال لقياس الحجم، سمي كذلك لأنه قدر ما تمتد به اليد من العطاء، ويقدر بأربع حفنات بحفنة الرجل الوسط، أو بكفي الإنسان المعتدل، ويساوي 650 غ، أنظر: نجلاء سويد إبراهيم صالح الشمري، المكاييل والأوزان الشرعية وما يعادها بالأوزان المعاصرة، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع203، م2012، جامعة بغداد، 2013، ص(1486-

يبلغ كل مدي منه أربعة عشر مكوكا بالمكوك الطرسوسي، كما يصرف جزء منه على الأدلاء المؤلفة قلوبهم من البيزنطيين والأرمن وأولادهم، حسب ما يراه السلطان من حسن النظر لهم - وذلك أنّ هؤلاء كانوا مرشدين للجيوش الإسلامية في الأراضي البيزنطية وعيونا لهم-، أمّا ما يتبقى من عشر الحنطة، فيصنع منه خبز لقوت الأعلاج المحبوسين في سجن طرسوس، وما فضل يباع بسعر وقته، ويصرف منه في مهمات البلد⁽¹⁾.

أمّا الشعير الذي يؤخذ برسم العشر، فيطلق للأدلاء المؤلفة قلوبهم رسماً على مقدار كراعهم قضيماً في كل سنة، ثم يحمل سائره لقضيم بغال الساقة، وهناك غلات كثيرة أخرى؛ كالعدس، والبقلاء، واللوبياء، والحمص، والأرز، والتي يصفها ابن العديم بالغللات القطاني، مع ما ينضاف إليها من زيتون، وكمون، وبذر، وفجل، وبذر كتان، وسمسم، وأرز يباع كل صنف بسعره⁽²⁾.

وكان حصن الجوزات يمد طرسوس بالجوز، ومن المرجح أنّ الفائض منه يصدر إلى الخارج، ويوجد في المنطقة منبت للأشنان الزيتري يستعمله أهل الحصن ويبيعون بعضه ويهدون بعضه الآخر⁽³⁾، وزرع النارج في طرسوس حتى كثر في دور الناس⁽⁴⁾.

وكان في جبل قريب أوكار للبزاة يعتادها قوم من أهل حصن الجوزات، فإذا فرخ الباز في وكره تعهده الطالب وتفقده وتردد إليه، حتى إذا صلح تلطف بحيلة في نقل الفراخ وتولى تربيتها، ويبيع الواحد منها بمائة وخمسين درهماً، فيعلم الصيد فيصل سعره إلى خمسمائة درهم أو أكثر، كما يوجد بطرسوس عقار يعرف بالفاريقون وهو ترياق للسموم صالح لمرض عرق النسا والمفاصل وغير ذلك من الأمراض، وبها مختلف أنواع الخضر والفواكه والغللات والخشب والتي تنقل منها وتصدر إلى مناطق مختلفة⁽⁵⁾.

(1) الطرسوسي، المصدر السابق، ص25

(2) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص181، 182

(3) نفسه، ص212، 213

(4) المسعودي، مروج الذهب، ج1، ص378

(5) أمينة بيطار، المقال السابق، ص(1-138)

كما كانت الجواميس والأبقار وغيرها تربي بها، وكان أولوا الأمر يأخذون من حولها العشر، توضع في برج قلمية مع الحنطة، وغيرها لتوزيعها على الأشراف والشيخ وغيرهم⁽¹⁾، كما أقيمت بها بعض الصناعات، وعلى رأسها صناعة الأسلحة، وصناعة الورق، والكاغد، ويعمل بها ثياب الشفايا وغيرها⁽²⁾.

ومع هذه الموارد المتعددة التجارية والزراعية والصناعية، غير أنّها لم تكن تكفي للإنفاق على مصالحتها المختلفة، ذلك أنّه كان عليها أن تنفق كغيرها من الثغور على أوجه مختلفة.

4- موارد عامة أخرى:

لجأت الدولة الإسلامية لاسيما في حالات العجز المالي والأزمات الاقتصادية التي قد تمر بها الدولة وخاصة في مناطق الثغور، إلى فرض ضرائب ورسوم إضافية تشكل حينها موردا ماليا هاما لديوان الجند، ولعل أهم ما يتعلق بموضوعنا نذكر:

أ- ضريبة الحرب:

يقول القرطبي⁽³⁾: «اتفق العلماء أنّه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة، يجب صرف المال عليها»، فإذا خيف دخول العدو بلاد الإسلام، أو قيام فتنة داخلية تهدد الأوضاع وتعصف بالأمن، ولم يكن في خزينة الدولة ما يكفي نفقات الجيش لينهض بمهمته، فإنّ للإمام أن يقرر في أموال الأغنياء ضريبة بما يكفي تلك النفقات، تأميناً للبلاد خارجيا وداخليا⁽⁴⁾، وكان أول من فرض هذه الضريبة هو الحجاج بن يوسف الثقفي.

وقال الشاطبي⁽⁵⁾: «أنا إذا قدرنا إماما مطاعا مفتقرا إلى تكثير الجنود لسد الثغور وحماية الملك المتسع الأقطار، وخلا بيت المال من المال، وأرهقت حاجات الجند إلى ما يكفيهم، فللإمام إن كان

(1) الاضطخري، كتاب الأقاليم، طبعة ليدن، (د،ط)، ليدن، 1967، ص47

(2) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص178-182

(3) الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1935، ج2، ص223

(4) قطب ابراهيم محمد، النظم المالية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، مصر، 1996، ص115

(5) أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الشاطبي، الاعتصام، تح: مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة التوحيد، (د،ط)،

(د،ت)، م3، ص25، 26

عدلا أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيا لهم في الحال، إلى أن يظهر مال في بيت المال ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمار أو غير ذلك، كي لا يؤدي تخصص الناس به إلى إيجاش القلوب».

ب- التركات التي لا وارث لها: وهي التركات والأموال المنقولة وغير المنقولة التي يموت صاحبها دون أن يترك وريثا شرعيا يرثها، وهي من الموارد غير الدورية لبيت المال، وتتوقف حصيلتها على عدم أحقية الإرث، لعدم وجود الوارث الشرعي فتؤول إلى بيت المال⁽¹⁾.

ج- ضرائب المستغلات:

المستغلات هي الرسوم والضرائب التي تفرض على الدور، والأسواق، والحوانيت، والطواحين التي أقامها الناس للانتفاع بها في أرض مملوكة للدولة، فيؤدون عنها ضريبة بيت المال⁽²⁾.

استحدث الأمويون ضريبة المستغلات وكان يدفعها التجار كأجرة لقاء كراء السوق والسماح لهم بالمتاجرة فيه بيعا وشراء، وكان أول من وضع هذه الضريبة هو زياد بن أبيه والي العراق على عهد معاوية، فلما تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز سارع إلى إلغائها، وأمر ولاته على الأمصار بإبطالها، وبوفاته أعيد فرضها من جديد على التجار⁽³⁾، وسار خلفاء العصر العباسي سيرة الأمويين في العمل بضريبة المستغلات، فإذا كان الخليفة المنصور قد امتنع عن وضعها، فالخليفة المهدي كان أول من أمر بذلك سنة 167هـ/783م⁽⁴⁾.

كما وجدت ضرائب إضافية على المنشآت التي يتم بناؤها في أراضي تابعة للدولة خاصة المنازل والدور، تسمى أجرة العرصة، ويحتمل أن هذه الضريبة كانت جد هامة لبيت المال بالنظر لعدد البنايات المقامة وتلك التي تؤجرها للعامة، وتحصل مقابل ذلك على أجرها كل شهر من هاته

(1) أحمد عبد العزيز المزيني، الموارد المالية في الإسلام، ذات السلاسل للطباعة والنشر، ط1، الكويت، 1994، ص112

(2) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د،ت)، ج1، ص343

(3) محمد فرقاني، السياسة المالية للخليفة عمر بن عبد العزيز على ضوء رسائله، دار بهاء الدين، (د،ط)، قسنطينة، (د،ت)، ص67، 68

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج8، ص195

المنشآت⁽¹⁾.

د- قروض العامة:

وهي الأموال التي تستلّفها الدولة من الأفراد في الظروف غير العادية لتغطية نفقات غير عادية؛ كنفقات الحروب، والاستعدادات العسكرية، والكوارث الطبيعية والمناخية؛ من زلازل، وبراكين، وقحط⁽²⁾.

ولطالما تعرضت مناطق الثغور بمثل هاته الظروف، فكانت هذه القروض موردا هاما لبيت المال لتسديد النفقات المختلفة.

II- الإيرادات الاعتيادية: تعد الموارد الاعتيادية دعامة النظام المالي، والمورد الرئيسي لبيت المال، والاعتيادية في المفهوم الاقتصادي تعني السنوية، مما يعني أنّ هذه الموارد ثابتة ويتم تحصيلها بشكل دوري ومستمر وتشمل:

1- الموارد الرئيسية:

أ- الخراج:

واجهت الباحثين مشكلة أساسية بشأن تحديد الاصطلاحات الخاصة في النظم المالية، ووقعت خلافات حيث تعددت الآراء الفقهية حولها، واحتاج الأمر إلى متابعة لمراحل التطور الفقهي والتاريخي، كما بيّنا سابقا من خلال هذا البحث، حتى أنّ أبا يوسف لا يفرق في أحكامه بين الفبيء والخراج فيقول: «فأما الفبيء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا، خراج الأرض»⁽³⁾.

وينسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، تقرير مبدأ أنّ ما وقع في أيدي المحاربين من أموال منقولة وأسرى حرب، إنّما هو داخل في الغنيمة، وهو من نصيب المقاتلين، أمّا أراضي البلاد المفتوحة فليست كذلك، إذ هي من حق جمهور المسلمين وهي فيئهم، واعتبرت الأرض بمثابة رأسمال ثابت، وأعيرت لملاكها الأصليين، على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها، وهذه الغلة وحدها هي التي كانت

(1) التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج1، ص146

(2) المزني، المرجع السابق، ص114

(3) الخراج، ص23

نصيب العرب المحاربين ومن يرثهم من ذريتهم، فهم لم يكن لهم رأسمال بل ما يخرج منه⁽¹⁾. فالارتباط وثيق بين اختيار هذا النهج في تأويل النصوص وتطبيقها، وبين الضرورات العسكرية، حيث أنّ المسلمين حرصوا على دوام تفرغهم للجهاد، وحفظ الثغور، وربما كان من الصحيح ما صدر عن الخليفة لأهل الشام بأن يحافظ العرب على أنسابهم، وألا يقتنوا المزارع، وألا يعملوا في الأرض⁽²⁾، كما سبق الإشارة إلى ذلك، فقد كان أبو إسحاق الفزاري⁽³⁾ يكره شرى الأرض بالثغر، ويقول: «غلب عليه قوم في بادئ الأمر، وأجلوا الروم عنه ولم يقتسموه، وصار إلى غيرهم، وقد دخلت في هذا الأمر شبهة العاقل حقيق بتركها»⁽⁴⁾.

وفي سنة 214هـ/829م جعل المتوكل شمشاط عشرية، ونقل أهلها من الخراج إلى العشر، وأخرج لهم كتابا بذلك، ثم جعل الثغور بعد ذلك كلها عشرية، وكذلك بالس والقرى المنسوبة إليها⁽⁵⁾. أمّا تحديد مقدار الخراج، فكان يعود إلى رأي الإمام بالزيادة أو النقصان، حيث يؤخذ بعين الاعتبار خصوبة التربة، ونوع المحاصيل، والري إذا كانت الأرض تروى طبيعياً بمياه المطر أو المياه الجارية، أو كانت تروى بجهد وكلفة بواسطة الآلات، بالإضافة إلى قرب المكان أو بعده عن السوق، وأن يتوجب في تقديره توخي العدل⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف مقدار الخراج الذي فرض على أراضي الشام بما فيها مناطق الثغور كما يرى البعض، فقد احتفظت لنا بعض مصادر التاريخ والجغرافيا بمعطيات إحصائية هامة تتضمن تقديرات رقمية بشكل مفصل لما كان يجبي من خراج من مختلف أقاليم الدولة خلال العصر العباسي، في شكل قيم عينية من عروض وأمتعة وغيرها، وأخرى نقدية في شكل دراهم

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص118

(2) فلهوزن، المرجع السابق، ص28-32

(3) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة (ت188هـ/803م)، ولد بالمصيصة، من أشهر محدثي الثغور،

رحل في طلب العلم رحلات طويلة، وهو الذي أدب أهل الثغر وعلمهم السنة، أنظر: ابن سعد، المصدر السابق، م7، ص488

(4) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص186

(5) البلاذري، فتوح البلدان، ص157، 192

(6) عاطف رحال، تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، دار بيسان، ط2، بيروت، 2000، ص281، 282

ودنانير⁽¹⁾، فالخراج قد يعني به إيرادات الدولة بوجه عام من الخراج وغيره، وهذا هو المعنى الذي يفهم حيث نذكر قوائم الخراج للدولة الإسلامية، وقوائم الخراج التي ذكرها المؤلفون تنسب عهدها إلى العصر العباسي، وتقدم لنا صورة عن الحالة المالية لولايات الدولة، وسنكتفي بذكر ما يتعلق بأجناد الشام والجزيرة فحسب، من خلال الجدول التالي:

السنة	الأمثلة	مقدار الجباية	الإقليم	المصدر
أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد 193-198هـ / 809-813م	العسل الأبيض 20.00 رطل	24.000.000 درهم	الموصل وما يليها	الجهشياري
	/	//34.000.000	الجزيرة والديارات والفرات	الكتاب والوزراء ص 205-208
	/	4.000.000 درهم	أذربيجان	
	البسط المحفورة 20، الدقم	13.000.000	أرمينية	
	580 قطعة، المالح المنبود	درهم		
	10.000 رطل، الطريخ	490.000 درهم		
	10.000 رطل، البزاة 30، البغال 200.	320.000 درهم		
	/		قنسرين والعواصم	
	الزبيب ألف راحلة (وقد تكون صحتها الزيت)		حمص	
	/	430.0000 دينار	دمشق	
	/	96.000 دينار	الأردن	
	الزبيب 300.000 رطل	320.000 دينار	فلسطين	

(1) فتوح البلدان، ص 201، 202

أيام الخليفة المعتصم بالله 227-218هـ / 842-833م	العسل الأبيض 20.000.000 رطل / الريق 1000 رأس، العسل 12.000 زق، البزاة 10، الأكسية 20. البسط 20، الرقم 530، المالح 10.000 رطل، الطريخ 1000 رطل، البغال 200، البزاة 30، الزيت 1000 حمل / / / من الزيت 300.000 رطل وهذه القائمة تفتقد بيان خراج جند حمص ومجموع خراج أجناد الشام 227.000 دينار	24.000.000 درهم مرتين 4.000.000 درهم مرتين 34.000.000 درهم مرتين 13.000.000 درهم مرتين 400.000 دينار 420.000 دينار 97.000 310.0000 دينار	الموصل وما يليها أذربيجان الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات أرمينية قنسرين دمشق الأردن فلسطين	ابن خلدون المقدمة، ج2، ص504-500
---	---	---	---	---------------------------------------

عصر المأمون 212-134هـ / 827-752م	/	6.300.000 درهم	ارتفاع أعمال الموصل في المتوسط.	قدامة الخراج، ص 251-245
	/	3.200.000 درهم	باقردي وبازيدي وقصباتهما بجزيرة ابن عمر.	
	/	4.630.000 درهم	ديار ربيعة وكورها	
	/	4.100.000 درهم	أرزن وميافارقين	
	/	4.000.000 درهم	أرمينية وكورها	
	/	600.000 درهم	ديار مضر	
	/	2.900.000 درهم	أعمال طريق الفرات.	
	/	360.000 دينار	جند قنسرين والعواصم	
	/	118.000 دينار	حمص	
	/	110.000 دينار	دمشق	
	/	109.000 دينار	الأردن	
	/	195.000 دينار	فلسطين	

فترة التسع سنوات 247-256هـ / 861-869م	/	2.000.000 درهم 4.000.000 درهم 5.600.000 درهم 7.700.000 درهم 4.000.000 درهم 340.000 دينار 400.000 دينار 400.000 دينار 350.000 دينار 500.000 دينار 180.000 دينار 140.000 دينار 175.000 دينار 175.000 دينار 670.000 دينار	أذربيجان الموصل ديار مضر ديار ربيعة أرمينية حمص قنسرين دمشق الأردن فلسطين حمص دمشق الأردن فلسطين المجموع	ابن خردذابة المسالك والممالك ص 73، 76، 94، 95، 121، 124 نقل ابن خردذابة عن الأصبهاني قائمة:
296-306هـ / 908-918م	/	390.000.000 درهم	الشام	ابن حوقل صورة الأرض ص 172
أيام سيف الدولة الحمداني 303-356هـ/	/	300.000 دينار 400.000 دينار 170.000 دينار	قنسرين والعواصم دمشق الأردن	المقدسي أحسن التقاسيم ص 189

915-967م		259.000 دينار	فلسطين
		1.189.000 دينار	المجموع

عند قراءة هذه القوائم نلاحظ أنّ هناك:

- تقارب في زمنها، وتقارب في قيمة الخراج
- موارد الخراج من العراق كانت تجي عموماً بالدرهم بينما موارد الشام بالدينار، وكان سعر التبادل هو عشرة دراهم لكل دينار بعد الفتح الإسلامي
- بالنسبة لقائمة الجهشياري فهي مهمة بالنسبة للعصر العباسي والتي يرجع زمنها إلى عصر الخليفة هارون الرشيد، ويبدو من القائمة زيادة كبيرة في الخراج
- لا تختلف قائمة ابن خلدون كثيراً عن قائمة الجهشياري، وتقرب من قائمة قدامة في عصر المأمون
- معدل جباية الخراج يمثل بصورة عامة المعدل الإعتيادي في حالة الاستقرار السياسي والاقتصادي، ونلاحظ أنّه ظل ثابتاً إلى حد نهاية القرن 4هـ/10م، أمّا في سنوات الاضطراب السياسي والاقتصادي فيحدث الهبوط

- تبين لنا كذلك من خلال هذه القوائم مقدار التناقص في الخراج ومدى علاقته باستقلال الأطراف عن جسم الدولة العباسية، فالخراج أيام الخليفة الرشيد بلغ أكثر من 530 مليون درهم، أما في عصر المأمون مليون درهم، ووصل في عهد المعتصم 388 مليون درهم، وفي فترة التسع سنوات وما بعدها 291 مليون درهم، وتناقص كثيراً في عهد الخليفة المقتدر إلى 14 مليون درهم، ولعل السبب في ذلك هو انفصال كثير من الأقاليم عن الدولة الإسلامية⁽¹⁾.

- كانت الإيرادات في بعض الأعوام تتأثر بالأحداث والتطورات السياسية التي تعرفها الدولة من حين لآخر، كما حدث إبان الفتنة بين الأمين والمأمون، فقد انخفضت نسبة الجباية بشكل كبير، وذلك لخروج أغلب مناطق الشام عن طاعة العباسيين فلم يدفعوا الخراج، فقد منع نصر بن شيبان إرسال الخراج لبيت المال⁽²⁾.

(1) أحمد إسماعيل عبد الله جبوري، الخراج في الموصل والحزيرة في العصر العباسي، مجلة دراسات موصلية- العدد الخاص، ع25، العراق، 2009، ص (1-16)

(2) توفيق سلمان، المرجع السابق، ص239

ب- الجزية:

الجزية ضريبة الرأس، وفرضت كما هو معروف على جميع أهل الذمة من أهل الكتاب اليهود والنصارى، ومن السامرة والصابئين والمجوس⁽¹⁾، واسمها مشتق من الجزاء، إما جزاء على كفرهم وإما على أماننا لهم، فعدت بذلك ضريبة نظير حماية المسلمين لأهل الذمة وحفظهم لممتلكاتهم، عوضاً عن الجهاد مع المسلمين الذين يتولون حمايتهم⁽²⁾، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾⁽³⁾.

وتجى من الرجال البالغين، ويستثنى منها النساء والصبيان، ويعفى من دفعها الشيخ الكبير والفقير، والمعتوه والعبد ورجال الدين إذا لم يكونوا أصحاب يسار⁽⁴⁾، ولم يشاركوا بدور في الحياة العلمية، وخير دليل على ذلك ما وصى به الخليفة أبو بكر (رضي الله عنه)، أحد قادة الفتح الإسلامي في بلاد الشام على أنّ رجال الدين النصارى قد جنبوا آثار الفتح والنائج المترتبة عليه حيث تركوا وشأنهم بقوله: «..وسوف تمرون على أقوام في الصوامع قد احتسبوا أنفسهم فيها، فدعهم حتى يميتهم الله على ضلالتهم..»⁽⁵⁾، أي بعدم التعرض لرجال الدين وارغامهم على دفع الجزية، وكانت تسقط عن صاحبها إذا اعتنق الإسلام⁽⁶⁾.

والجزية كالخراج حقان أوصل الله سبحانه وتعالى المسلمين إليهما من المشركين، يجتمعان في ثلاثة أوجه، ويفترقان في ثلاثة، أولهما أنّ الجزية نص وأنّ الخراج اجتهاد، والثاني أنّ أقل الجزية مقدر بالشرع وأكثرها مقدر بالاجتهاد، والخراج أقله وأكثره مقدر بالاجتهاد، والثالث أنّ الجزية تؤخذ مع بقاء

(1) أبو يوسف، المصدر السابق، ص122

(2) الماوردي، المصدر السابق، ص188

(3) سورة التوبة، الآية 29

(4) أبو يوسف، المصدر السابق، ص122

(5) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، تح: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1995، ج1، ص54

(6) عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة، (د، ط)، بيروت، 1982، ص143

الكفر وتسقط بحدوث الإسلام، والخراج يؤخذ مع الكفر والإسلام⁽¹⁾.

وقد ذكر البلاذري⁽²⁾، أنّ طي نزلت حاضر قنسرين بعد حرب الفساد التي كانت بينهم، وعندما ورد أبو عبيدة الجراح عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك بيسير، وقد حاول المسلمون استمالة السامرة⁽³⁾ والجراجمة في مناطق الثغور، وصالحهم على أن يكونوا أعوانا للمسلمين، وعيون ومسالح في جبل اللكام وألا يؤخذ منهم الجزية، واستمرت لهم هذه الميزات في العهود الإسلامية المتتابعة رغم اتصالحهم بالروم، كما صالحهم حبيب بن مسلمة الفهري لنفس الغاية والهدف.

وكان المسلمون يسمون ما يفرضون على دولة إثر انتصاراتهم جزية ففي سنة 165هـ/781م غزا هارون الرشيد الروم -في خلافة أبيه المهدي- فعقد صلحا مع ملكتهم، والذي وقع عليه الصلح تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها في أبريل في كل سنة وفي جوان، ووجهت معه رسولا إلى المهدي بما بذلت، على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وفي سنة 186هـ/802م قدمت الروم بالجزية معها، وذلك فيما قيل: «64000 دينار رومي، 2500 دينار عربي، 30000 رطل مرعزي»، وقد حاول نقفور التحلل من هذا الصلح سنة 187هـ/803م فقاتله الرشيد، فطلب المودعة على خراج يؤديه كل سنة⁽⁴⁾.

وعلى إثر انتصار الرشيد في هرقله سنة 190هـ/806م بعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بيته: خمسين ألف دينار منها؛ عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس استبراق دنانيرين، كما أرسل على سبيل الهدية دراهم بقيمة خمسين ألف درهم، ومائة ثوب ديباج، ومائتي ثوب بزبون، واثنى عشر بازيا، وأربعة كلاب صيد، وثلاثة برادين⁽⁵⁾.

(1) الماوردي، المصدر السابق، ص 188

(2) فتوح البلدان، ص 150، 151

(3) السامرة: يهود وهما صنفان صنف يقال لهم الدستان وصنف الكوشان، أنظر: فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 137

(4) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 139

(5) الطبري، تاريخه، ج 9، ص 347

أمّا مقدار الجزية التي فرضها المسلمون على سكان الشام فكانت تؤخذ نقدا وعينا، يقول ويؤكد ابن سلام⁽¹⁾: «كانت الجزية في بدء الأمر جريبا ودينارا على كل جمجمة»، أي أنّ مقدار الجزية قد فرض نصفه نقدا ونصفه عينا، ثم أصبحت فيما بعد نقدية⁽²⁾.

وكان يوجد جزية خاصة سميت بالصدقة المضاعفة، فرضت على بعض القبائل العربية من النصارى في الشام كقبيلة بني تغلب، وتنوخ، وبهراء لأنفتهم واستصغارهم للجزية واعتبارها دليلا للهوان، إلا أنّ المبالغ التي كانت تجبي من هذه الصدقة المضاعفة، قد اعتبرت كالجزية من أموال الفيء، التي يتم تسجيلها في ديوان الخراج وليس بديوان الصدقة⁽³⁾.

وحاول الأمويون إجراء إصلاحات شاملة، بإعادة النظر في تقديرها، وطريقة وضعها حيث عممها -الخليفة عبد الملك بن مروان- على جميع الناس بدون استثناء، وسأوى بينهم بتأدية ذات مقدار الضريبة وهي أربعة دنانير على كل فرد في الشام والجزيرة كحد أعلى، كما فرضت على رجال الدين المسيحيين بعد أن كانوا معفيين منها قبلا والتي حددت بدينار على كل رأس، وضوعفت في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وأصبحت دينارين⁽⁴⁾.

(1) الأموال، ص 51-54

(2) قام الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بتنظيم هذا الالتزام وإعادة تقدير الجزية وجعلها نقدية، ثم عمّمها على جميع الطبقات بعد أن قام بإجراء احصاء للسكان، فوضع على أهل الذهب أربعة دنانير، وأهل الورق أربعين درهما، وجعلهم ثلاث طبقات لغنى الغني، وتوسط المتوسط، واقل المقل بمعنى أن الخليفة راعى في تقديرها أحوال السكان، فوضع على الأغنياء أربعة دنانير، وعلى متوسطي الدخل دينارين، ودينارا واحدا على أصحاب الدخل الضئيل، وأوصى بعدم تحميل أهل الذمة فوق طاقتهم وإلى جانب الجزية النقدية كان عليهم أرزاق المسلمين من الخنطة مدين وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان كل شهر-من كان من أهل الذمة من أهل الشام والجزيرة- وهذا وقد اختلف الفقهاء في تقديرها، فذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثة أصناف أغنياء يؤخذ منهم 48 درهما، وأوساط يؤخذ منهم 24 درهما، وفقراء يؤخذ منهم 12 درهما، وقال مالك لا يقدر أقلها ولا أكثرها وهي موكلة إلى اجتهد الولاة، وذهب الشافعي إلى أنّها مقدرة الأقل بدينار، وغير مقدرة الأكثر... فإذا اجتهد رأي الوالي في عقدها معهم على مراعاة أولي الأمر صارت لازمة لجميعهم ولأعقابهم... ولا يجوز لوال بعده أن يغيرها... ولا تجب الجزية عليهم في السنة إلا مرة واحدة، أنظر: ابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر وأخبارها، (د،د،ن)، (د،ط)، ليدن، 1930، ص 152- أبو يوسف، المصدر السابق، ص 124، 125- الماوردى، المصدر السابق، ص 184

(3) أبو يوسف، المصدر السابق، ص 124

(4) أبو عبيد، الأموال، ص 25

أمّا ما يخص موضوع بحثنا، ومقدار الجزية على أهل الثغور، فيذكر البلاذري⁽¹⁾ أنّه من شرط الخليفة عمر (رضي الله عنه) عن أهل قنسرين: «على الغني ثمانية وأربعون درهم، وعلى الوسط أربعة وعشرون، وعلى المدقع اثنا عشر.. وعلى مشاطرة المنازل بينهم وبين المسلمين، وأن يقرؤا ضيف المسلمين ثلاثا... فدخل في هذا الصلح أهل الجزيرة».

ونزول الجند على أهل البلاد وعيشهم على نفقتهم تقليد عسكري قديم، ويعرف في المصطلح الاسلامي بالنزلة، وقد استجابت الأحكام الفقهية للضرورات العملية في شأن الخراج فقد حدث هذا أيضا بالنسبة للجزية، فالظروف والمطالب السياسية والحربية قد جعلت المسلمين لا يعممون حكم الجزية على مختلف رعاياهم، وخاصة من كان يسكنون مدن الثغور على الحدود، ونضرب هنا كمثال أنّ الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أراد أن يأخذ الجزية من نصارى بني تغلب، فانطلقوا هارين إلى أرض الروم، فقال رجل لعمر: أنشدك الله في بني تغلب، فإنهم قوم من العرب نائفون من الجزية، وهم قوم شديدة نكايتهم، فلا يغن عدوك عليك بهم، فأرسل عمر في طلبهم فردهم، وأضعف عليهم الصدقة، وقالوا: «أمّا إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج، فإنّا نرضى ونحفظ ديننا»⁽²⁾.

2- الموارد الشرعية:

أ- الزكاة:

تعتبر الزكاة من أهم الموارد المالية التي تصب في بيت مال المسلمين بشكل دوري من كل سنة، وقد نظم الإسلام أحكامها وطرق جبايتها وصرفها، وهي فرض واجب على المسلمين لتزكي أنفسهم وتظهر أموالهم ولا يجب على المسلم في ماله حق سواها يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم):

{لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ}.

أمّا الصدقة فيتبع مدلولها، فالصدقة زكاة والزكاة صدقة يفترق الاسم ويتفق المسمى، أي كل إعطاء صدقة مالا كان أو غير مال، وهي تشمل الزكاة المفروضة لقوله عز وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾

(1) فتوح البلدان، ص 130، 131

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 3، ص 136، 137

تُظَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا⁽¹⁾.

وتجبي الزكاة في الأموال المرصدة للنماء إما بنفسها أو بالعمل فيها، وهي نوعان: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة ما لا يمكن إخفاؤه كالزراع، والثمار، والمواشي، يقوم الجباة بتحصيلها، أما الباطنة وهي ما أمكن إخفاؤه من الذهب، والفضة، وعروض التجارة فتترك للفرد وليس لوالي الصدقات النظر فيها⁽²⁾، وعن مقدارها في فترة الدراسة فقد اعتمدنا عموماً على من عاصر الفترة كأبي يوسف (ت 182هـ/798م) الذي عاصر الرشيد في كتابه الخراج، وأبي عبيد ابن سلام (ت 224هـ/839م) في كتابه الأموال، وتوجب الزكاة في: الذهب، والفضة، والمواشي، والمزروعات، وأموال التجارة.

1- الذهب والفضة:

تدفع الزكاة حين يبلغ نصاب الدراهم مائتي درهم، أو ما يعادلها من الذهب، أي عشرين ديناراً في صدر الإسلام، وتبلغ نسبة الضريبة ربع العشر أي 2.5%، ولا تقوم الدولة بواسطة جباة بالتدقيق بمبلغ قيمة الذهب والفضة وتحصيل زكاتها، بل إنّ الناس هم من يقومون بذلك ويتولون ذلك التقدير بإرادتهم⁽³⁾.

2- المواشي:

تجب في ثلاثة أجناس: الإبل، والبقر، والغنم، وتؤخذ زكاتها إذا كانت سائمة⁽⁴⁾، ولا تؤخذ زكاة الإبل والبقر العاملة والخيل، وتدفع الزكاة عندما يصل عدد المواشي إلى النصاب، وبعد أن يمر الحول عليها في ملكية صاحبها⁽⁵⁾، ويكون مقدار الزكاة كالاتي:

في الإبل: من (5-9) فيها شاة واحدة، من (10-14) شاتان، من (15-19) ثلاثة شياه، من

(1) سورة التوبة، الآية 103

(2) الماوردى، المصدر السابق، ص 145، 113

(3) أبو عبيد، الأموال، ص 166

(4) سميت بهذا الاسم لأنها ترعى بنفسها بحثاً عن الكلاً ولا تعلق، وفي اصطلاح الفقهاء أن ترعى الماشية بنفسها بقصد النسل والزيادة والسمن حولاً أو أكثر الحول، أنظر: المقرئ الفيومي، المصباح المنير، المقرئ، المطبعة الميمنية، (د، ط)، مصر، ج 1، ص 297

(5) أبو يوسف، المصدر السابق، ص 76

(20-24) أربع شياه، من (25-35) بنت مخاض⁽¹⁾، من (35-45) بنت لبون⁽²⁾، من (45-60) حِقَّة⁽³⁾، من (60-75) جذعة⁽⁴⁾، من (75-90) بنتا لبون، من (90-120) حِقَّتَان، من 120 فأكثر في كل خمسين حقة، وفي كل أربعين بنت لبون.

في البقر: إذا بلغ عددها 30 ففيها تباع ذكر عمره ستة أشهر، وإذا وصل العدد إلى 40 ففيها مسنة التي استكملت سنة، وكذلك تكون زكاة الجواميس أيضا⁽⁵⁾.

في الغنم: من (40-120) فيها شاة، من (121-200) شاتان، من (201-399) ثلاثة شياه⁽⁶⁾.

ولم تكن تؤخذ الزكاة من الخيل.

3- الزروع والثمار:

وهي ضريبة العشر على المنتج الزراعي، وتجب الزكاة في كل ما تخرجه الأرض-على الرغم من الاختلافات الفقهية في أنواع الحبوب والثمار التي تؤخذ منها-، ومهما يكن فإنه لا بد من حصول نصاب قدره خمسة أوسق⁽⁷⁾ من نوع واحد من المزروعات حتى تصبح الزكاة واجبة عليها⁽⁸⁾.

ويبلغ مقدار ضريبة العشر 1/10 من محصول المزروعات التي تروى طبيعياً بمياه الأمطار أو العيون كمدن الثغور، أما إذا كانت تروى بواسطة الآلات فعن مقدار الضريبة ينقص إلى 1/20، وتقدر الضريبة بعد وزن المحصول⁽⁹⁾.

(1) بنت مخاض: التي لها من العمر سنة واحدة ودخلت في الثانية، أنظر: أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء، الأحكام السلطانية،

تصحيح: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، 2000، ص116

(2) بنت لبون: لها من العمر سنتان ودخلت في الثالثة، أنظر: الفراء، المصدر السابق، ص116

(3) الحقة: التي لها من العمر ثلاث سنوات ودخلت في الرابعة، أنظر: الترمذي، الجامع الكبير، تح: بشار عوان معروف، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1998، ج2، ص10

(4) الجذعة: التي استكملت من العمر أربع سنوات ودخلت في الخامسة، أنظر: الماوردي، المصدر السابق، ص146

(5) الفراء، المصدر السابق، ص117

(6) أبو يوسف، المصدر السابق، ص77، 78

(7) الوسق: 3، 194 كغ من القمح، أنظر: فالترهانتس، المرجع السابق، ص79

(8) أبو يوسف، المصدر السابق، ص52

(9) أبو عبيد، المصدر السابق، ص193-195

وتعتبر الأراضي العشرية في الشام تلك الأراضي التي تركها أصحابها عند الفتح، أو الأراضي الموات التي ليس لها مالك، فأقطعت للمسلمين فأحيوها، بالإضافة إلى أراضي الصوافي التي أقطعت فأصبحت عشرية، وأراضي الخراج التي سمح بشراء بعضها من قبل العرب⁽¹⁾، وأراضي الثغور.

4- أموال التجارة:

وتفرض على بضائع التجار المسلمين ومن بينها تجارة الرقيق، عندما يصل نصابها مئتي درهم، ويبلغ مقدار الضريبة 2.5%، وكان الرقيق لغير التجارة يعفى صاحبه من دفع زكاته⁽²⁾.

ب- العشور (المكوس):

تعد العشور إحدى الموارد الهامة لبيت المال في الدولة الإسلامية، حيث تستعين بها الدولة للتخفيف من الأعباء المالية في الإنفاق على المصالح العامة، وهي وسيلة لزيادة الدخل وتنمية الثروة، فضلاً عن أنّها حق من الحقوق السياسية للدولة على أراضيها.

وارتبط مصطلح العشور بلفظ المكوس، فالأول معناه الرسوم التي تؤخذ على أموال وعروض تجارة أهل الحرب، وأهل الذمة المارين بها على ثغور الإسلام، أمّا الثاني: فهو ضرائب تؤخذ من التجار في المرافد التي تقام خصيصاً على الموانئ، وطرق التجارة البرية والبحرية⁽³⁾، ويضع الفقهاء العشور موضع الفيء وتجري مجرى الخراج⁽⁴⁾.

وفي فترة الدراسة وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز أمر أن تفرض الضريبة على التجار إذا تجاوز ثمن البضاعة عشرين ديناراً، وعلى تجار أهل الذمة إذا تجاوز ثمن البضاعة عشرة دنانير، وتؤخذ منهم

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 157

(2) آدم القرشي، المصدر السابق، ص 173

(3) الرسي، المرجع السابق، ص 123

(4) فقد كتب أبو موسى الأشعري إلى عمر (رضي الله عنه) يذكر أنّ تجار المسلمين إذا أتوا دار الحرب يأخذون منهم العشر، فكتب إليه عمر بن الخطاب (رضه): «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين ربع العشر وليس فيما دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين فيها خمسة دراهم وما زاد بحسابه»، وكتب أهل منبج إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضه): «دعنا ندخل أرضك تجاراً تعشرنا»، فشاور عمر (رضه) أصحاب رسول (صلى الله عليه وسلم) فأشاروا عليه، فكان أهل منبج أول من عشر من أهل الحرب، أنظر: أبو يوسف، المصدر السابق، ص 113-135

الضريبة مرة واحدة في السنة إلا إذا تحولوا ببضاعة أخرى، أو زادت بضاعتهم السابقة فتؤخذ الضريبة على هذه البضاعة الزائدة⁽¹⁾، أمّا التجار الأجانب الذين يأتون من خارج البلاد الإسلامية، فتفرض عليهم الضريبة إذا تجاوز ثمن بضاعتهم خمسة دنانير أو 50 درهماً⁽²⁾، وتؤخذ منهم كلّما دخلوا إلى بلاد الإسلام.

وكانت مراكز المكوس تحيط ببلاد الشام من جميع الجهات، وكانت تقوم بفرض ضرائب ورسوم إضافية بالإضافة إلى محاولة تحصيل الضرائب الشرعية، مما كان يؤدي إلى إرهاب الناس بأعباء الضرائب الثقيلة⁽³⁾.

وعلى رغم أنّ تلك المكوس والعشور قد لقيت نفورا من الفقهاء، وكانوا أميل أن تترك التجارة حرة، فقد انتشرت تلك المراسد لتؤدي مهمتها المالية والحربية، فيقول أبو يوسف⁽⁴⁾: «وينبغي للإمام أن تكون له مساح على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك في الطرق، فيفتشون من مرّ بهم من التجار، فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد، ومن كان معه دقيق رد، ومن كانت معه كتب قرأت كتبه».

وكانت المكوس على البضائع الصادرة والواردة، تؤخذ على الحدود بين الشام والروم، وكثيرا ما كان الروم إذا قويت شوكتهم يقيمون في حلب رجلا منهم يأخذ مكس البضائع - كما جرى في القرن الرابع -⁽⁵⁾.

(1) أبو يوسف، المصدر السابق، ص 136

(2) أبو عبيد، الأموال، ص 215

(3) عاطف رحال، المرجع السابق، ص 301

(4) المصدر السابق، ص 190

(5) عاطف رحال، المرجع السابق، ص 105

المبحث الثاني: نفقات الثغور

اصطلح فقهاء الشريعة الإسلامية على تسمية النفقات بالمصارف، أو مصارف المال، وعرفها علماء المالية أنها مبلغ من المال داخل في الذمة المالية للدولة، يقوم الإمام أو من ينوب عنه باستخدامه في إشباع حاجات عامة، وفقاً لمعايير الشريعة الإسلامية⁽¹⁾.

وخلافاً لما حدده الشرع من أوجه صرف بعض موارد بيت المال، والتي صدر بشأنها نص واضح أو اجتهاد، فإنّ بقية الإيرادات كانت تنفق في سبيل تأمين المصالح العامة، والتي تعددت وتنوعت بمناطق الثغور بين؛ أعطيات للجند، وأرزاق للمقاتلة، وصلات عسكرية، وإقامة الثغور وتأمينها، وتشيد الحصون، ونفقات تموين الجيوش والحملات العسكرية، وتبادل الأسرى، بالإضافة إلى نفقات إقامة الجسور والقناطر، وبناء المدن والمنشآت التي تحتاجها تلك المناطق، وكراء الأنهار، وحفر الترعة وإصلاحها وغير ذلك، فعلى قدر تنوع الحاجات وتعددتها، تتنوع النفقات لأهمّ الهدف الأساسي من الإنفاق⁽²⁾.

وقد لخص لنا قدامة⁽³⁾ أهم تلك الوجوه من الإنفاق في مصالحي الثغور وسائر وجوه شأنها وهي: «المراقب، والحرس، والفواتير - الجماعة في الثغر يذهبون خلف العدو - والركاضة، والموكلين بالدروب، والمخايض والحصون، وغير ذلك مما جانسه من الأمور والأحوال ويحتاج إلى شحنتها من الجند والصعاليك، وراتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر».

وقد عكست تلك النفقات مدى اهتمام الدولة الإسلامية بتلك المناطق، وما تتطلبه كونها متاخمة لحدود الأعداء التقليديين للخلافة الإسلامية، فكان من الطبيعي أن يكون للجانب العسكري الحيز الأكبر من تلك النفقات، وذلك حرصاً على سلامة مناطق الثغور وإبقائها جاهزة في كل الأوقات.

(1) عوف محمود كفاوي، سياسة الإنفاق العام في الإسلام وفي الفكر المالي الحديث، مؤسسة شباب الجامعة، (د، ط)، الإسكندرية، (د، ت)، ص 5، 6.

(2) الشيزري جلال الدين أبو النجيب، المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تح: علي عبد الله موسى، مكتبة المنار، ط 1، الأردن، 1987، ص 228، 229.

(3) المصدر السابق، ص 186.

أما أوجه الإنفاق بمناطق الثغور والعواصم فنوجزها فيما يلي:

1- عطاء الجند وأرزاقهم:

يعتبر العطاء أهم وجوه النفقات في الدولة الإسلامية، ويقصد به تلك المبالغ السنوية التي تصرف للمسلمين نقداً، مرة واحدة في السنة لسد احتياجاتهم المعيشية ويكون ذلك خلال شهر محرم، واستعمل في صدر الإسلام للدلالة على الرواتب والأجور، لكن سرعان ما انحصر هذا المفهوم ليختص بالمقاتلة دون عامة الموظفين، إذا يطلق بصورة أدق على رواتب الجند⁽¹⁾.

أما الأرزاق فيراد بها المواد العينية: كالحنطة والحبوب، والسمن، والتمر، التي يستلمها المقاتلة لقاء خدمتهم في الجيش من بيت الغلال، مرة في السنة خلال شهر رمضان⁽²⁾، وهناك من الفقهاء من فرق بين العطاء والرزق من جهة توقيت دفع المال، فجعل من الرزق ما يخرج الخليفة كل شهر من بيت المال، والعطاء ما يخرج كل عام⁽³⁾.

وقد حتمت التطورات الحاصلة، وتزايد الغنائم الواردة إلى بيت المال إلى التفكير في إيجاد طريقة مثلى لإحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق، فكتبوا ديوان العساكر الإسلامية على ترتيب الأنساب، واستمر ديوان الجند خلال الفترة مرحلة الدراسة في فرض العطاء، والقيام بأعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة، وإحصاء الجند بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم، وصرف أعطياتهم⁽⁴⁾.

وتذكر المصادر⁽⁵⁾ وجود تنظيم محكم للسجلات والدفاتر في ديوان الجند وأجهزته الإدارية، ومن أمثلة ذلك ما كان يسجل في الجريدة السوداء من أسماء للجند، وأوصافهم، وأنسابهم، وأجناسهم، ومقدار عطاء كل منهم وموعد استحقاقه.

(1) خولة شاعر الدجيلي، بيت المال نشأته وتطوره من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف، (د، ط)، بغداد، 1976، ص 115

(2) خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي في العصر الأموي، دار الحرية، ط2، بغداد، 1986، ص 103، 104

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص 142، 143

(4) جهادية القرّة غولي، المرجع السابق، ص 200، 201

(5) أنظر: قدامة بن جعفر، الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تح: مصطفى الحيارى، الجامعة الأردنية، (د، ط)، عمان، ص 26- الجهشباري، المصدر السابق، ص 89

فالتابع العسكري واضح في تقرير العطاء فهو مقرر للمسلمين إعانة لهم على الجهاد، وهو نظام جديد استحدثه عمر (رضي الله عنه) سيرا على هدى السوابق الرومية والفارسية، ومن ثم كان المجال فسيحا أمام الخلفاء في العصور الإسلامية اللاحقة في التعديل والتعبير، وهكذا كانت الأمور لا تسير على وتيرة واحدة في شأن إعطيات الجند في مدن المعسكرات وحاميات الثغور⁽¹⁾، التي كان الخلفاء يزيدون في عطائها من أجل تشجيع الناس على الاستقرار بها، فقد كان الجند في تلك المناطق بين الطاعة والولاء، أو العصيان والتمرد، معقودة قلوبهم في الأغلب على إخراج العطاء لهم وزيادته، أو تأخيره وتنقيصه⁽²⁾.

وبذلك لم تكن رواتب جند الثغور مثل رواتب جند الخلافة، نظرا لأنهم في حالة حرب أو استنفار على الدوام، وكذلك لخطورة المهمة التي أنيطت بهم، ولبعدهم عن ديارهم، وتعرضهم لرد غارات الأعداء من حين لآخر، ولقيامهم بحملات الصوائف والشواتي، ولقد كان لتلك السياسة أثر واضح في استقرار أعداد كبيرة من المقاتلين فيها، فكانت مرتبات المرابطين ضعف مرتبات جنود الجيش أو تزيد، بالإضافة إلى التمتع بميزات أخرى؛ كالإسكان والإطعام والملابس، فكانت الخلافة تتولى الإنفاق على المرافق العامة؛ كالطرق، والمزارع، والمؤن، والأمن، إلى جانب متطلبات الجند⁽³⁾.

فإذا كان المعدل العام للرواتب في حدود 20 درهما للراجل و40 للفارس، فإن رواتب جند الثغور كانت أكثر من ذلك، نظرا لخطورة المهمة التي أحيطت بهم، تتراوح ما بين 40-50 دينارا لكل شهر، بالإضافة إلى الإعانات التي كان يجود بها الخلفاء وميسوري الحال من حين لآخر، فعلى سبيل المثال في عهد الخليفة العباسي المأمون قام عبد الله بن طاهر بمنح القاسم بن سلام مبلغ ثلاثين ألف دينار، فأخذها واشترى بها خيلا وسلاحا وأرسله للثغور، إسهما منه في الدفاع عن ديار الاسلام⁽⁴⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص145

(2) محمد ضيف الله بطانية، الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي، (د،ط)، الأردن، (د،ت)، ص277

(3) ضيف الله يحيى الزهراني، النفقات وإدارتها في الدولة العباسية 132-334هـ (رسالة دكتوراه منشورة)، جامعة مكة، 1404هـ، ص280

(4) نفسه، ص298-318

ومما يلاحظ أنّ الرواتب بدأت مرتفعة، بلغت في عهد الخليفة السفاح 132-136هـ/749-754م 960 درهما في السنة، 80 درهما للراجل و160 للفارس بسبب الوفرة في الأموال، زيادة على أنّه نوع من التحدي الذي أعلنه الخليفة رغبة منه في كسب ثقة الجيش وتأييد قلوبهم، وكسب الرضا لضمان الاستقرار الأمني والسياسي للدولة الناشئة في المرحلة الانتقالية⁽¹⁾.

وبعدما آلت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور 136-158هـ/753-774م، قام بتخفيض الرواتب إلى 20 درهم للراجل و40 للفارس، وهذا يعني أنّ راتب الجندي الراجل كان في حدود 240 درهم في السنة، أمّا الفارس فله الضعف⁽²⁾، ويعود السبب في تراجع معدلات الرواتب والأرزاق إلى سياسة المنصور المالية وتخوفه من إمكانية استغناء الجند برواتبهم، والتخلي عن الجندية وممارسة وظائف أخرى.

وفي سنة 139هـ/756م أعلن الخليفة عن زيادات مالية في أرزاق الجند قدرت بعشرة دنانير في راتب كل جندي، ومعونة قدرها مائة دينار (200 درهم)، وأقطع الجند المزارع، وفرض بالمصيبة لأربعمائة رجل، وذلك لتحفيز المقاتلة على السكن والإقامة في الثغور، وتشجيعا لهم على ذلك⁽³⁾، وجاءت هذه التحفيزات استثناء لحماية ثغور الدولة وتحسينها، إلا أنّ قلة الرواتب وتأخر صرفها عن مواعيدها المحددة كان له في الكثير من المرات عواقب وخيمة على أمن واستقرار الدولة⁽⁴⁾.

وسار الخليفة المهدي 158-169هـ/775-785م على نهج والده في تحفيز الجند من أهل الجزيرة والشام على المرابطة بالثغور، ورفع رواتبهم إلى 50 درهما، بزيادة قدرها 10 دراهم عما كانت عليه زمن المنصور، بهدف كسب ثقتهم وولائهم له، ولضمان استماتتهم في الدفاع عن أمن الدولة، وحمايتها من الحركات المعارضة والخطر البيزنطي⁽⁵⁾.

(1) الطبري، تاريخه، ج8، ص426

(2) التنوخي، المصدر السابق، ج3، ص53

(3) أنظر، البلاذري، فتوح البلدان، ص225-227- قدامة، الخراج، ص319

(4) الزهراني، المرجع السابق، ص311، 312

(5) قدامة بن جعفر، الخراج، ص320

واستمر الخلفاء في تحفيز المقاتلة للاستقرار بمدن الثغور، فبنى الخليفة الهادي 169-170هـ/785-786م قد ولي محمد بن إبراهيم بن محمد أميراً على الجزيرة وقنسرين، وشجع الناس على سكن الحدث، ففرض لهم رواتباً معتبرة قدرت بـ40 ديناراً (880 درهماً) وأقطعهم المساكن، وأعطى كل فرد زيادة قدرها (300 درهم) ⁽¹⁾، ولما ولي الخليفة هارون الرشيد، أعلن عن زيادات معتبرة في رواتب جنود الثغور سنة 171هـ/787م، فأعطى لأهل طرسوس مثلاً عشرة دنانير (220 درهم) لكل رجل زيادة في أصل عطائه، ورفع راتبهم إلى 60 درهماً، تشجيعاً لهم على الاستقرار في تلك الجهات ⁽²⁾.

وقد تأثر الوضع المالي كثيراً بعد الصراع الطويل بين الأمين والمأمون، وشهدت أرزاق الجند بعد أن استوثق الأمر للمأمون تراجعاً ملموساً بحلول سنة 203هـ/819م، حيث قدر راتب الجندي الراجل بـ60 درهماً بعد أن رفعه الأمين إلى 80 درهماً، والفراس 120 درهماً ⁽³⁾.

أمّا في مناطق الثغور والعواصم فقد فرض للجند فروضاً ثابتة أعلى من معدلات الجند في بغداد، إذ تشير المصادر إلى أنه كتب إلى أخيه المعتصم يخبره أنه فرض على جنود دمشق، والأردن، وحمص، وفلسطين أربعة آلاف رجل، وأنه يجرى على الفراس 100 درهم، وعلى الراجل 40 درهماً ⁽⁴⁾.

واللافت للانتباه أنّ وضعية بيت المال خلال هذه الفترة أثرت سلباً في قيمة الرواتب التي انخفضت بشكل كبير إلى 20 درهماً للراجل و40 للفراس (سنة 201هـ/816م)، ويبدو أنّ المأمون قد أخذ موقفاً حاسماً للتحكم في سياسة الإنفاق على الجند وحسم الموقف لصالحه.

ثم عرفت الرواتب تحسناً ملحوظاً بمقدار 10 دراهم في عهد المعتصم، ليستقر راتب الجندي الراجل طيلة ثلاثة سنوات في حدود 30 درهماً، وللفراس 60 درهماً ⁽⁵⁾، ويبدو أنّ السبب في ذلك هو استمرار نشاط الحركات المعارضة للدولة، وتهديدات الدولة البيزنطية التي تؤثر بالسلب على أمن

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص268

(2) الطبري، تاريخه، ج8، ص364، أحداث سنة 171هـ

(3) ابن الأثير، الكامل، ج5، ص449

(4) الطبري، تاريخه، ج8، ص631 أحداث سنة 218

(5) اليعقوبي، تاريخه، ج2، ص437

واستقرار الدولة.

وتقدم لنا المصادر المعلومات التالية عن نفقات الثغور فيما يتعلق بـ العطاء خلال فترة البحث:

المصدر	السنة	الصلوات	الزيادة درهم	الراتب درهم	عدد الجند	الثغر	الخليفة
قدامة، الخراج، ص 319	140هـ/757م	2200	220	/	4000	ملطية	المنصور
البلاذري، فتوح، ص 227، 228	بعد توليته سنة 158هـ/774م	/	/	220	500	المصيصة	المهدي
قدامة، الخراج، ص 320	169هـ/785م	300	/	880	4000	الحدث	
		/	/	880	6000		
البلاذري، فتوح، ص 232	171هـ/787م	/	220	880	6000	طرسوس	الرشيد
	172هـ/788م	/	/	1100			
الطبري، تاريخ، ج 8، ص 631	/	/	/	100	6000	طوانة	المأمون

عند قراءة هذه القائمة نلاحظ ما يلي:

- أنّ الجند بمناطق الثغور قد تمتعوا بامتيازات إضافية عن باقي المناطق، فكانت رواتبهم أكبر، بالإضافة إلى الصلات والزيادات في الرواتب، وذلك لتحفيزهم وتشجيعهم على السكن في تلك النواحي.

- رواتب جند الثغور عرفت تحسناً ملحوظاً خلال هذه الفترة، فارتفعت من 220 درهم في عهد المهدي إلى ما بين 880-1100 درهم في عهد الرشيد وهي أعلى قيمة لها.

- أنّ الرواتب قد انخفضت بعد ذلك بشكل ملحوظ لتصل في عهد المأمون إلى 100 درهم، ولعلّ السبب هو الوضع المالي بعد الصراع الطويل بين الخليفة المأمون وأخيه الأمين.

2- الصلات العسكرية:

بالإضافة إلى الأعطيات السنوية الثابتة، كان على الحكام أن يدفعوا للجنود من حين لآخر مبالغ إضافية عند قيامهم بمهام خاصة، والصلات على نوعين: نقدية وعينية، تشمل إقطاع كبار القادة العسكريين الأراضي بمناطق الثغور للسكن أو الزراعة⁽¹⁾، مكافأة لهم على ما يقدموه من خدمات جلية للدولة، ولم تكن بدل الرواتب بل امتيازات ومنح إضافية⁽²⁾.

كما كان على الخلافة تقديم إعانات مالية لشيوخ القبائل مقابل الحصول على مدد دائم من المحاربين عند الطلب، ففي حملة الرشيد سنة 190هـ/806م وجد 135 ألف جندي من أصحاب العطاء عدا المتطوعة، وبلغ عدد الجنود في عرض عسكري أيام المقتدر 295-320هـ/908-932م، في حضرة رسل الروم نحو 160 ألف من الفرسان والمشاة⁽³⁾، ومن خلال النصوص التي قدمتها المصادر، يمكن تنظيم القائمة التالية فيما يخص الصلات:

الخليفة	اسم صاحب الصلة	مقدارها	مناسبتها	تاريخها	المصدر
السفاح	عموم جنود الخليفة	1.000 درهم	معركة الزاب	132هـ/ 749م	الطبري، تاريخه، ج7، ص435
المنصور	العباس بن محمد بن علي	40.000 دينار	صائفة إلى بلاد الروم	138هـ/ 755م	الطبري، تاريخه، ج7، ص497
المأمون	المعتصم العباس بن المأمون	500 ألف دينار	تولية المعتصم على مصر والشام	213هـ/ 828م	الطبري، تاريخه، ج8، ص620
المعتصم	الأفشين	1.000.000 درهم	محاربة بابك الخرمي	223هـ/ 838م	ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص75

(1) ضيف الله يحيى الزهراني، المرجع السابق، ص300

(2) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص48

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص146، 147

عند قراءة القائمة السابقة نلاحظ ما يلي:

- أن الصلات العسكرية عبارة عن إمتيازات ومنحا إضافية قدمت لسكان الثغور مكافأة لهم على ما يقدموه للدولة من خدمات.

- أنّ المنح النقدية قد منحها الخلفاء للقادة والجنود عند رجوعهم من معركة كللت بالنجاح أو لمناسبة سعيدة، فالخليفة السفاح لما انتصر على مروان بن محمد في معركة الزاب سنة 132هـ/749م أمر بألف درهم لعموم الجنود⁽¹⁾.

- أنّ تلك المنح قد عرفت تزييدا مستمرا حتى بلغت في عهد المعتصم 1000000 درهم في حربته ضد بابك الخرمي.

3- بناء الثغور وتحصينها:

استدعى بناء مدن الثغور وتحصينها نفقات طائلة، حيث حرص خلفاء الدولة الإسلامية على تحصين الحزام الأمامي للمدن التي امتدت من أعالي الفرات، حيث يقع ثغر ملطية حتى طرسوس وما بينهما من مدن محصنة، كما أنفقوا على ذلك بسخاء وبزيادة في عطاء الجنود، وقد كلف ذلك بيت المال مبالغ باهظة.

وكان للعباسيين آثار مشكورة في خط الحدود الإسلامية البيزنطية، فلما تولى أبو العباس الخلافة أولى اهتماما خاصا للأقاليم المتاخمة للبيزنطيين، ففرض بالمصيصة لأربعمئة رجل وأقطعهم، واهتم من جاء بعده من الخلفاء بنفس الأمر، فتتبعوا مدن السواحل وعمروها وحصنوها، وكذلك فعلوا بالمدن الداخلية، فالخليفة المنصور سارع إلى بناء عدد من الثغور الشمالية كثر ملطية سنة 139هـ/756م وأسكنه أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة، مع تخصيص زيادة عشرة دنانير (220 درهم) في الرواتب، ومعونة مائة دينار (2200 درهم) بغرض تشجيعهم على الاستقرار، كما قام بتمديد عدد منها كثر مرعش، والمصيصة، وحصن قلوذية، وندب الناس إليها على زيادة في العطاء⁽²⁾.

(1) ضيف الله يحيى الزهراني، المرجع السابق، ص301

(2) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص418

وسار المهدي على خطى والده في شحن الثغور، وإقامة الحصون، وتقوية أهلها، فأمر ببناء الحدث، وفرض فيها لأربعمائة آلاف مقاتل، وأعطى كل واحد ثلاثمائة درهم (6600 درهم)، وفرض لهم فروضا بقيمة أربعين دينار (880 درهم) من العطاء، وأقطع مقاتليها المساكن، وأغدق عليهم الأموال الكثيرة لتعزيز الجبهة البيزنطية عسكريا، كما أوصى ببناء طرسوس⁽¹⁾.

واستمر من بعده الخليفة هارون الرشيد في تحصين المنطقة وعمارتها وتمصيرها وشحنها بالجند والمقاتلة، فقام سنة 171هـ/787م بعمارة ثغر طرسوس، وشحنه بخمسة آلاف رجل على زيادة عشرة دنانير في أصل العطاء (220 درهم)⁽²⁾، وقام ببناء ثغر عين زربة وحصينها سنة 180هـ/796م وزاد في عدد مقاتليها من أهل خراسان، وأمر سنة 183هـ/799م ببناء حصن المارونية، والكنيسة السوداء⁽³⁾، كما انتهج استراتيجية عسكرية جديدة، بإنشاء منطقة عسكرية وإدارية على شكل حصون أطلق عليها اسم العواصم، وذلك بعزل الثغور عن الجزيرة وقنسرين، لا ينحصر دورها في المراقبة وإبلاغ الظهير فحسب، إنما في القتال والدفاع⁽⁴⁾.

ويعد الأمن دورا رئيسيا في إعادة بناء أضنة سنة 194هـ/810م وحصينها ضد الغزاة، وشحنها مع زيادة معتبرة في العطاء⁽⁵⁾، وسار المأمون على نهج أسلافه في الاهتمام بالمنطقة، فأعاد بناء كفريا وحصينها بخندق وأمر ابنه العباس ببناء حصن طوانة، وفرض لها أربعة آلاف رجل، وأجرى على الفارس مائة درهم (2200 درهم)، وعلى الراجل ضعف ذلك⁽⁶⁾.

كما اهتم المعتصم والواثق ومن جاء بعدهم بأمر الثغور وتثبيت المكاسب بإتمام إقامتها، وحصينها، وترميمها، فتكاملت الثغور على أطراف آسيا الصغرى وما وراء النهر وغيرها من الحدود، وهكذا تكلفت المطالب الحربية في المنطقة نفقات هائلة، فقد جرى تشجيع المرابطين فيها على ما

(1) ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص240

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص176، 177

(3) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص163

(4) البلاذري، فتوح البلدان، ص180

(5) قدامة، الخراج، ص309، 310

(6) الطبري، تاريخه، ج8، ص631

يواجهون من مخاطر، فكان المرابط يتلقى بادئ ذي بدء معونة يتجهز بها، وينال سكنا وزيادة في العطاء ثم إقطاعا في ريف الثغر⁽¹⁾.

يتضح من خلال ما سبق أنّ الخلافة أولت العناية الكاملة لحماية تخومها، بتقوية الثغور وتحديد الحصون والإنفاق عليها بسخاء، لتكون دائما على أهبة الاستعداد والدفاع، ولعلّ الأموال الباهظة التي أنفقها الخلفاء تشير جليا إلى مدى حرصهم على حمل الناس على الإقامة في تلك المناطق وتعميرها.

4- تموين الجيش والحملات العسكرية:

لم يقف الحد عند بناء الثغور وتحصينها، بل امتد الأمر إلى الإنفاق من أجل الدفاع عنها وإبعاد التهديد، لذلك قام الخلفاء بتسيير الحملات العسكرية وإنفاق الأموال الطائلة عليها، وعلى تجهيز الجيوش، وكان يعتبر إنفاذ الغزوات المتلاحقة جهادا في سبيل الله، وصد للعدوان الواقع أو المحتمل على الحدود، لذا فقد كلفت حملات الصوائف والشواقي التي كانت تتوالى من الثغور وعبرها الخلافة نفقات ضخمة، يختلف مقدارها باختلاف حجم الحملة، وبعد جبهات القتال.

فقد أنفق الخليفة المهدي على الحملتين اللتين قادهما الرشيد إلى بلاد الروم بين 163-165هـ/779-781م، ووصل في الثانية -جاءت كرد فعل على مهاجمة الروم لمدينة الحدث وتدميرها سنة 164هـ/780م- إلى خليج القسطنطينية، ما قيمته 100.000 درهم، 21 مليون درهم⁽²⁾.

وفي عهد الخليفة الأمين، تم إنفاق ما قيمته مليوني دينار، ومليون درهم في الحروب التي خاضها، وإن كان أغلبها قد صرف على حروبه مع أخيه المأمون، حيث أنفق كل ما معه من أموال حتى نفذت، فأمر ببيع ما في الخزائن من أمتعة، وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم⁽³⁾.

أمّا الخليفة المعتصم، فلم يكن له لذة في تزيين البناء وكانت غايته فيه الإحكام، ولم يكن بالنفقة على شيء أسمح منه بالنفقة على الحرب، فقد أنفق ما بين 200 ألف و300 ألف دينار في حملات

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص150

(2) الطبري، تاريخه، ج8، ص117، 147

(3) ابن الأثير، الكامل، ج5، ص437

الصوائف والشواتي التي سيرها في عهده، وأنفق في فتح عمورية لوحدها مليون دينار، حيث تجهز بجهاز لم يسبق لخليفة قبله، من آلات الحرب، والأحمال، والجمال، والقرب، والدواب⁽¹⁾.

وكان إذا كلف جندي بمهمة عسكرية ذات شأن، يخصص له مكافأة مغرية⁽²⁾، يضاف إلى ذلك الأموال التي كانت تنفق على تحصين الثغور البحرية والسواحل، وكذلك الصناعات البحرية، ونفقات دور الصناعة، ففي عهده وصل مقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام وذلك لمرة واحدة نحو 100 ألف دينار⁽³⁾.

ومن خلال المعلومات التي تقدمها المصادر، عن مبالغ النفقات التي تحمّلها بيت المال للإنفاق على تجهيز الحملات الخاصة بمناطق الثغور، يمكن إعداد القائمة الآتية:

الخليفة	الحملة	تاريخها	قيمة النفقات / درهم	المصدر
المهدي	غزو بلاد الروم بقيادة هارون الرشيد	163هـ/779م	100.000	الطبري، تاريخ، ج8، ص147
	غزو بلاد الروم بقيادة هارون	165هـ/781م	4.277.900 21.414.800	الطبري، تاريخ، ج8، ص147
المعتصم	محرابة بابك الخرمي	222هـ/837م	31.000.000	ابن الجوزي، المنتظم، ج11، ص75
	غلات الشتاء والصيف برا وبحرا	كل سنة	من 4.400.000 إلى 6.000.000	
	غزو بلاد الروم وفتح عمورية	223هـ/838م	22.000.000	الذهبي، دول الإسلام، ج1، ص192

ومن خلال قراءتنا لهذه القائمة يتبين ما يلي:

- أنفق الخلفاء أموالا طائلة على تجهيز الجيوش والحملات العسكرية وذلك إن دلّ على شيء فهو

(1) شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، تح: حسن إسماعيل مورة، دار صادر، ط1، بيروت، 1999، ج1، ص192

(2) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3 ص151

(3) عبيد، واقع البحرية، ص (104-118)

يدل على العناية التي أولتها الدولة بمناطق الثغور.

- أن الخليفة المعتصم قد أنفق ما لم ينفقه غيره من الخلفاء على تموين الجيوش، وصلت إلى 31000000 درهم في حربه ضد بابك الخرمي.

5- الفداء وتبادل الأسرى:

أولت الخلافة رغبة جادة في استعادة جنودها ورعاياها ممن يقعون تحت الأسر، خلال فترات الحروب والمعارك الحاسمة، فخصصت لذلك أرصدة مالية معتبرة لافتداء أسراها وإعادتهم سالمين، أو استبدالهم بآخرين من جيش العدو كانوا قد وقعوا أسرى لدى المسلمين، لأنّ بقاءهم يشكل عبئا ماليا على خزينة الدولة، لما يتطلبه ذلك من نفقات كبيرة في الأكل والملبس والمأوى، وقد سبق الإشارة إلى كيفية تخلص الأسرى وعمليات الفداء خلال المرحلة فترة الدراسة، فسنتكفي هنا باستعراض تلك الأفدية، ومقدار مال الفداء، وعدد من فودي به من خلال ما ورد في المصادر:

الخليفة	السنة	المكان	عدد من نودي به	مقدار مال الفداء درهم	المصدر
المنصور	139هـ/756م	قيليقيا	/	/	الطبري، تاريخه، ج7، ص500
هارون الرشيد	189هـ/805م	اللامس	3700	/	المسعودي، التنبيه والإشراف، ص189
	192هـ/808م	اللامس	2500		نفسه، ص161
المأمون	211هـ/826م	/	/	2.000.000	ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج2، ص201
الواثق بالله	231هـ/845م	اللامس	4362	191.928	نفسه، ص259
المتوكل	242هـ/م	اللامس	2200	/	المسعودي، التنبيه والإشراف، ص162
المقتدر	305هـ/م	اللامس	3336	/	نفسه، ص164
المطيع	335هـ/م	اللامس	2482	/	نفسه، ص165

من خلال قراءة سريعة لهاته الأفدية يتبين لنا ما يلي:

- أن الدولة الإسلامية قد عملت جاهدة لاسترجاع أسراها فخصصت مبالغ مالية معتبرة لذلك، مثل ما كان مع المأمون سنة 211هـ/826م، حيث بلغ مقدار مال الفداء 2000000 درهم
- أنّ الفداء بين المسلمين والبيزنطيين كام يتم على نهر اللامس
- أنّ كل الخلفاء دون استثناء قد اهتموا بفداء أسراهم وإعادتهم سالمين بكل الطرق.

6- أعطيات الأدلاء:

يضاف إلى كل تلك النفقات، تلك الأعطيات التي كانت تمنح للجواسيس الذين كانوا يعملون كعيون للمسلمين في مناطق الثغور، وكذلك لفئة الأدلاء التي ترصد لهم حصة معلومة من أعشار الغلال في المنطقة، بحسب ما يراه السلطان، فقد ميزت دواجم ومطاياهم مثلاً بما كان يرد بيت المال بطرسوس من الشعير برسم العشر، وأطلق لهم رسماً سنوياً بمقدار نشاطهم، وفي حملة عمورية مثلاً وجه المعتصم من عسكره قوماً من الأدلاء، وضمن لهم لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم، على أن يوافقوا بكتابه الأفيشين، وكتب إلى أشناس كتاباً يأمره أن يوجه من قبله رسلاً من الأدلاء يعرفون الجبال والطرق، وضمن لكل رجل منهم عشرة آلاف درهم⁽¹⁾.

كما كانت الأعطيات تمنح للذين يساعدون المسلمين، مقابل عملهم كأدلاء للجيش الإسلامي الغازية لبلاد الروم، فكانت تجرى على الجراجمة مقابل الاستعانة بهم في المساح والأماكن القريبة من العدو، كذلك الأرمن الذين كان يصرف عليهم من الغلال التي تجبي من الضياع التابعة للثغور مقابل مساعدتهم للمسلمين⁽²⁾.

7- نفقات أخرى:

كانت مدن الثغور وحصونها تنفق من إيراداتها على مرافقها الخاصة؛ كإنشاء الطرق وتعبيدها وتأمينها، وحفر الجداول، وبناء المؤسسات العامة من مساجد ودور للعلم والعلاج، وتشيد محطات البريد، وحفر القنوات فكانت قنطرة سنجة قرب سميساط تعد من عجائب الدنيا، وقد اهتم

(1) أنظر: ابن العديم، بغية الطلب، ج1، ص181، سناء الطائي، اقتصاديات الثغور، ص(497-515)

(2) ياقوت الحموي، المعجم، ج2، ص123

العباسيون بالإنفاق على آبار الرملة وقناتها، وكانت الطريق عند عقبة بغراس مستدقة تشرف على الوادي، فعرفت بعقبة النساء منذ سقط عندها محمل امرأة في إحدى غزوات مسلمة، والذي أمر باجتيازها مشيا، وبني المعتصم على حد تلك الطريق حائطا قصيرا من حجارة اتقاء لسقوط الناس فيها⁽¹⁾.

فمن خلال هذا العرض عن مداخل الثغور ومصاريفها، يتضح أنّ إيراداتها لم تكن تكفي مطالبها الحربية الباهظة، ومن هنا كانت تمتد بأموال العاصمة، ومما لا شك فيه أن ذلك شكل عبئا كبيرا على بيت المال.

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 174

المبحث الثالث: أنواع العملات

حتمت الظروف السياسية والعسكرية على المسلمين، وضع تعديلات تخص النظم المالية، خاصة مع استمرار العلاقات الحربية مع الدولة البيزنطية، فمع الاستقرار السياسي يأتي الرخاء الاقتصادي، ولا يأتي الرخاء إذا كان المسلمون يتعاملون بالعملة الأجنبية، سواء كانت دنانير رومية أو دراهم كسروية أو حميرية، والتي أبقى عليها الخلفاء في صدر الإسلام وأضيفت إليها عبارة «لا إله إلا الله»، أو كلمة «جائز» للدلالة على أنها مقبولة⁽¹⁾.

وكانت العملة المستخدمة في بلاد الروم هي الدينار البيزنطي، ولما ظهر الإسلام ووصلت الفتوحات الإسلامية بلاد الشام، استمر العرب في تعاملهم بالدينار البيزنطي مع التجار البيزنطيين إلى أن عرّب النقد في العصر الأموي، وأهم ما يميز هذه العملة أنّ أغلبها كان يضرب من الذهب والفضة الخالصين، وكانت تظهر عليهما في الوجه صورة الإمبراطور البيزنطي، وفي الظهر صورة المسيح مع رؤوس الصليبان، كما ضربوا العملة من النحاس (الفلس) لكنها لم تستخدم إلا على نطاق ضيق⁽²⁾.

أما عند المسلمين فقد ظهرت محاولات لسك عملة إسلامية من الفضة والنحاس، وأدركوا أنّها بالإضافة إلى قيمتها الاقتصادية فهي وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة، بما هو منقوش عليها من عبارات دينية، فضلا عن أنّها إعلان لشرعية حكم الخليفة، وقد اختلفت الروايات حول سنة ضرب الدينار⁽³⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص168

(2) يوسف المريخي، العلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والبيزنطيين، ص(1-10)

(3) يذكر الحنفي أنّه كان سنة 75-76هـ/794-795م بعد أن كتب الخليفة إلى الحجاج بن يوسف بولاية العراق وأمره أن يضرب الدراهم، فاتخذ دارا للضرب، وكتب عليها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة، ولم يكتب عليها اسم الملك، وسماه الدرهم الأحدي- أو الأحدية كما يسميها الفقهاء-، أما الماوردي فيذكر أنّ سنة ضربها كان 74 أو 75هـ/693 أو 694م، ثم أمر بضربها في النواحي سنة 76هـ/695م، وكتب عليها ﴿اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ وسميت بالمكروهة لأنّ الفقهاء كرهوا ما عليها من قرآن -وقد يحملها الجنب أو المحدث- وقال آخرون لأنّ الأعاجم كرهوا نقصاتها، أنظر: عبد الرحمن بن حنيف الدين المرشدي العمري، رسالة في معرفة القيراط والدينار والدرهم والدانق، مكتبة جامعة الرياض، الرقم 2173، ص6- الأحكام السلطانية، ص198

واستمر الولاة الأمويين في تجويد النقود بعد ذلك، فعمر بن هبيرة (ت 107هـ/725م)⁽¹⁾، وخالد بن عبد الله البجلي القسري (ت 126هـ/743م)⁽²⁾، ويوسف بن عمر (ت 127هـ/744م)⁽³⁾، اشتدوا في النقود وأحكموا أمرها، فكانت: الهبيرية، والخالدية، واليوسفية أجود نقود بني أمية⁽⁴⁾. وللخلفاء العباسيين جهود تذكر في ذلك، فقد ضرب عبد الله بن محمد السفاح الدراهم بالأنبار، وكتب عليها السكة العباسية وقطع منها وأنقصها حبة⁽⁵⁾، ثم حبتين وأنقصها المنصور ثلاث حبات وسميت ثلاث أرباع قيراط⁽⁶⁾ - لأنّ القيراط أربع حبات -، وضرب المهدي سكة مدورة فيها نقطة، ولم يكن لموسى الهادي سكة تعرف، وفي عهد هارون الرشيد صيرّ نقصان الدرهم قيراطا إلا حبة، وضرب المأمون دنائير ودراهم وأسقط منها اسم أخيه محمد الأمين وسميت الرباعيات، وضرب المتوكل دراهم وزن كل واحدة عشرة⁽⁷⁾.

فقد جاء صك العملة العربية استجابة لمقتضيات سيادة الدولة الإسلامية، وصك كل أمير في ناحيته العملة بتفويض من الخليفة، كما انتفع الناس بإشراف الدولة عليها، فتميز الصحيح من

- (1) عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين الأمير أبو المثنى الفزاري، هو أمير العراق، وابنه يزيد بن عمر بن هبيرة المعروف بيزيد بن هبيرة، ولي إمارة البحر عند حصار القسطنطينية الثاني تحت قيادة مسلمة بن عبد الملك، ثم عينه الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك أميراً على العراق سنة 103هـ/721م، فلما ولي هشام بن عبد الملك دار الخلافة الإسلامية في دمشق عزله وولى خالد بن عبد الله القسري، أنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج7، ص207
- (2) قائد أموي سكن دمشق أيام الأمويين من بطن شق (الكاهن) من بني قسر بنو مالك (من قبيلة بجيلة)، ويكنى أبا القاسم وقيل أبا الهيثم، وقد تباينت أقوال المراجع بشأن سيرته، فمنهم من ذمه وشتمه، ومنهم من مدحه وبجله. والأكثر على ذمه لبغي فيه، حتى أنه هلك بسبب ذلك، أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ج4، ص76
- (3) ابن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي أمير العراقيين وخراسان لهشام، ثم أقره الوليد بن يزيد، وكان شهماً كافياً سائساً مهيباً جباراً عسوفاً جواداً معطاءً، وقد ولي اليمن قبل العراق، ويوسف بن عمر هو بن عم الحجاج بن يوسف الثقفي، أنظر: الذهبي، سير، ج5، ص334
- (4) قدامة، الخراج، ص59، 60
- (5) الحبة: قد يراد بها حبة الشعير، والمراد بها الوسطى من حب الشعير، أنظر: المقرئ، شذور العقود في ذكر النقود، تح: محمد السيد علي بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، ط5، النجف، 1967، ص17
- (6) القيراط: جمعه قراريط، لفظ أعجمي عربته العرب، وكوزن عملة كان يساوي في مكة، ومصر، وبلاد الشام، وآسيا الصغرى 24/1 من المثقال أو 16/1 من الدرهم، ويساوي غالباً أربع حبات أي 0,195 غ، أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص44
- (7) نفسه، ص17، 18

المغشوش، فالعملة لا تسلم في أي عصر من العصور من تعرضها لعمليات التزوير والتزييف، ولضمان سلامة أموال العباسيين من الزوال فقد استخدموا الدنانير الهرقلية لثقتهم المطلقة فيها، ولأنّها كانت أصفى الدنانير لسلامتها من الغش في ذهبها⁽¹⁾.

وكان الخليفة يحدد المقدار أي الوزن بنفسه، فعند ضرب الدنانير سأل الخليفة عن أوزان الجاهلية، فأجمعوا له أنّ المثقال يساوي اثنان وعشرون قيراطا إلا حبة، وأنّ العشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل فضربها على ذلك⁽²⁾، وذكر المقرئزي⁽³⁾ أنّ وزن الدينار اثنان وعشرون قيراطا إلا حبة، ووزن الدرهم خمسة عشر قيراطا، والقيراط أربع حبات، وكل دانق⁽⁴⁾ قيراطين ونصف، أمّا الدرهم فقد قدره اليونانيون من حب الخردل⁽⁵⁾ البري بأربعة آلاف حبة ومائتين، والمثقال بستة آلاف، فيكون درهما وثلاثة أسباع درهم والدرهم سبعة أعشار المثقال، فعشرة دراهم سبعة مثاقيل⁽⁶⁾.

وكانت الدراهم أيام الفرس مضروبة على ثلاثة أوزان؛ درهم منها على وزن المثقال، وهو عشرون قيراطا، ويسمى هذا الدرهم بالبغلي (الوافية)، ويساوي ثمانية دوانق (4.66 غ)، ونسبت إلى «بغل» وهو اسم رجل يهودي ضرب تلك الدراهم⁽⁷⁾.

ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطا، ويسمى الدرهم الجراقي ويساوي 4.5 دوانيق (3.40 غ)، ودرهم وزنه عشرة قيراط، ويسمى الدرهم الطبري، ويساوي أربعة دوانيق (3.83 غ)، فلما احتيج في الإسلام إلى الزكاة أخذ الوسط من مجموع ذلك، وهو اثنان وأربعون قيراطا، فكانت أربعة عشر قيراطا من قيراط

(1) المقرئزي، شذور العقود، ص55، 56

(2) أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، معالم السنن، مطبعة محمد راغب، ط1، حلب، 1933، ج3، ص61-63

(3) شذور العقود، ص6

(4) الدانق: ثمانية حبات، خمسا حبه من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر، أنظر: المقرئزي، شذور العقود، ص5

(5) خردل: يقدر وزن حبة الخردل 70/1 حبة من تلك الحبات التي تعادل كل 60 منها وزن الدرهم الفضي، أي تزن 0,000,707 غ أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص13

(6) المثقال: اسم لما له ثقل كبير أو صغير، إلا أنّ عرفه غلب على الصغير، ويساوي 12/5 درهم، ويساوي 24 قيراطا ويساوي 85 حبة، ويساوي 442 غ، أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص13-الذهبي، رسالة في تحرير الدرهم والدينار، مكتبة الأزهر، رقم 319535، ص2

(7) قدامة، الخراج، هامش ص60

الدينار، فالدرهم أيام الفرس يسمى منها البعض مما وزن الدرهم فيه مساو لوزن الدينار، العشرة وزن عشرة، ومما الدرهم اثنا عشر قيراطا، العشرة وزن ستة، ومما الدرهم منه عشرة قراريط، العشرة وزن خمسة، فلما ضربت الدراهم الإسلامية على الوسط من هذه الأوزان، قيل في عشرتها وزن سبعة⁽¹⁾. فوحدة العملة لم تتغير بتعريبها، فبقي الدينار الذهبي⁽²⁾ -وهو لاتيني الأصل *Denarius*- والدرهم الفضي - ولعله الدراخمة⁽³⁾ اليونانية *Drachmos*- وأصله فارسي، والقطع من الدرهم -تسمى مكسور- كالدانق، والمثقال، ولكن تغير نقش العملة وأصبح كلمات من غير صور، فكانت الدنانير والدرهم على شكلين مدورين، والكتابة عليهما في دوائر متوازية، فيكتب على أحد الوجهين أسماء الله والصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم)، وعلى الوجه الآخر التاريخ واسم الخليفة⁽⁴⁾. وكان وضع علامة السلطان على النقود دليلا على جودتها، بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة، ولفظ السكة⁽⁵⁾ كان اسما للطابع، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش، ثم نقل إلى الوظيفة، وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس⁽⁶⁾.

أما عن التعامل بالدينار والدرهم في أقاليم الدولة الإسلامية خلال فترة البحث، فقد كانت منقسمة إلى منطقتين، الأولى -ويدخل في نطاقها مناطق الثغور وهي ما يهم بحثنا- فيكثر التعامل

(1) نفسه، هامش ص 61

(2) الدينار: اسم أعجمي معرب أصله دينار، الدينار كوحدة وزن يساوي نظريا مثقالا واحدا، وكوزن سبيكة 4,33 غ، أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص 29

(3) أو دراخمي: اسم يطلق على وزن الدراخمة اليونانية في الأوساط الطبية، ويساوي 3,310 غ، أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص 29

(4) عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، القاهرة، 1973، ص 240

(5) هي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد، بنقش صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدنانير، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسك مرة أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه، فيكون التعامل بها عددا أو وزنا، ولفظة السكة كان اسما للطابع وهي الحديدية المتخذة لذلك، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة، فصار علما عليها في عرف الدول، أنظر: ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 41

(6) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص 170

فيها بالدينار، أو يعتبر أساسا كمصر والشام، أو المنطقة التي كانت تابعة للدولة البيزنطية، والثانية يكثر التعامل فيها بالدرهم، أو يعتبر النقد الرئيسي كالعراق، أو فارس أو المنطقة التي كانت تابعة للدولة الفارسية، فالأولى تسمى منطقة الذهب والثانية منطقة الفضة، ولكن مع ذلك كان التعامل مقبولا بأحد النقيدين، ويحوّل أحدهما إلى الآخر بحسب النسبة، أي سعر الصرف السائد في السوق⁽¹⁾.

وقد اختلف سعر الصرف، فبعد أن كان الدينار مساويا لعشرة دراهم في العهد الأول، صار في النصف الثاني من العهد الأموي يساوي اثني عشر درهما، إلى أن صار خمسة عشر أو أكثر في العهد العباسي، ويرجع الدكتور الرئيس⁽²⁾ تقدير الدينار بستين قرشا، مع اختلاف تقدير الدرهم باختلاف سعر الصرف، وبلغ سعر الدينار زمن الرشيد من 20-22 درهم⁽³⁾.

وقد ضربت النقود في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية، وفي عهد مروان بن محمد ضربت الدراهم بالجزيرة⁽⁴⁾، ووجد فلس ضرب بمدن الثغور بقنسرين أيام صالح العباسي، وهناك عملة عليها اسم العكي عامل الرشيد نسبة إلى مدينة عكا⁽⁵⁾.

(1) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص171

(2) المرجع السابق، ص345، 347

(3) فتحي عثمان، المرجع السابق، ج3، ص171

(4) المقريري، ثلاث رسائل «النقود القديمة الإسلامية»، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 1298، ص9

(5) أنستاس ماري الكرملي البغدادي، النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، (د،ط)، القاهرة، 1939، ص136، 137

المبحث الرابع: الأوزان والمكاييل والمقاييس

1- المكاييل:

استخدم الناس منذ القدم المكاييل⁽¹⁾ والموازين بوصفها وسيلة لتنظيم معاملاتهم التجارية، واهتم القرآن الكريم بالحرص على دقة الوزن والكيل من خلال الآيات الكثيرة التي حضت على إيفاء الكيل والميزان، وحماية للبائع والمشتري من التلاعب والغش في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾⁽²⁾، وفي سورة هود: ﴿وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁽³⁾. ويؤكد عز وجل في سورة الأنعام على إيفاء الكيل والميزان: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾.

وقد تختلف المكاييل ويحصل بها التلاعب مما يثير النزاع بين التجار، خاصة أن هناك بعض السلع تباع كيلا ووزنا، ومن شأن هذا الاختلاف أن يضر بمصلحة المستهلك، لذلك نجد أن الدولة قد اهتمت بموضوع المكاييل، فهي المسؤولة عن استبدال المكاييل بأخرى وإقرارها، وهذا ما يؤكد الشيزري في كتابه نهاية الرتبة في طلب الحسبة⁽⁵⁾ بقوله: «وجميع ما ذكرته غير مستمر في جميع الأزمان وإنما يتغير بتغير السلطان».

ونستطيع أن نلتمس مثل هذا الاهتمام، بأنهم وضعوا مواصفات معينة للمكاييل، ليتحققوا من ضبط الكميات، ويتعدوا عن احتمالات الغش، وتقدم لنا المصادر وصفا دقيقا غنيا بالتفاصيل

(1) الكيل عند ابن منظور هو ما يكال به، حديدا كان أو خشبا، والكيل والمكيال والمكيلة ما كيل به، وكال الدراهم والدنانير وزنها، أنظر: لسان العرب، مج 11، ص 604

(2) سورة المطففين، الآية 1-3

(3) الآية 85

(4) الآية 152

(5) ص 17

لمواصفات المكاييل الشرعية، نورد نصها كما وردت عند الشيزري⁽¹⁾: «المكاييل الصحيحة هي ما استوى أعلاه وأسفله في الفتح والسعة، من غير أن يكون محصورا لفم، ولا يكون بعضه داخلا وبعضه خارجا، كما يجب أن يكون مشدودا بالمسامير لثلا يصعد فيزيد أو ينزل فينقص، وأجود ما عيرت به المكاييل الحبوب الصغار التي لا تختلف في العادة».

وقد أُلزم المحتسب الكيالين أن يجعلوا في حوانيتهم أربع وحدات للكيل، وهي مكيال، ونصف مكيال، ورابع مكيال، وثمان مكيال، ويختم على جميعها المحتسب بختمه لتحفظ بصحتها الشرعية⁽²⁾، أمّا قبل ظهور المحتسب فقد كانت من واجبات عامل السوق أن يتثبت من صحة المكاييل.

ويبدو أنّ المكاييل والموازن كانت مختلفة في أقاليم الدولة الإسلامية، ما دعا الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى توحيدها، لأنّ اختلافها يؤدي إلى الإخلال بمصالح الناس ومعاملاتهم في البيع والشراء فيقول: «ثم إنّ المكيال والميزان نرى فيهما أمورا علم من يأتيها أنّها ظلم، إنّّه ليس في المكيال زيغ إلا من تطفيف، ولا في الميزان فضل إلا من بخس، فنرى أنّ تمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحدا في جميع الأرض كلها»⁽³⁾.

ولم تكن لمناطق الثغور أوزان ومكاييل خاصة بها، بل إنّها كانت تستعمل ما كان سائدا منها في بلاد الشام، والتي لم يكن فيها أيضا نظام موحد، وقد وجب عليها ذكر المكاييل التي عرفتھا المنطقة في فترة الدراسة وحتى قبل ذلك المدى الترابط بينها من جهة، ولعدم معرفة مقدار الواحدة دون الأخرى من جهة ثانية.

واعتمدنا في ذلك على مجموعة من المصادر التي عايش مؤلفوها فترة الدراسة، وحاولنا إسقاطها على المنطقة، منها كتاب الأموال لصاحبه أبو عبيد ابن سلام 157-224هـ/774-839م والذي عاش في القرنين الثاني والثالث، واتصل بثابت بن نصر الذي ولاه قضاء طرسوس ثمانين سنة،

(1) المصدر السابق، ص21

(2) ابن الأخوة، المصدر السابق، ص86

(3) ابن محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفي سنة 214هـ، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، تصحيح: أحمد عبيد، مكتبة وهبة، ط2، دمشق، 1954، ص82

وكتاب الخراج لأبي يوسف الذي عاصر الرشيد، والشيزري الذي توفي نحو 590هـ/1094م من قلعة شيزر بالقرب من المعرة، والذي سكن حلب صاحب كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ومن أهم المكايل في هذه الفترة نذكر:

المد: جمعه أمداد، أو مداد، وتأول على ذلك قول النبي (صلى الله عليه وسلم): {سبحانه الله مداد كلماته}، وسمي مداً لأنه قدر ما تمتد به اليدين من العطاء، وقيل لأنه ملء كفي الإنسان إذا ملأها ومد يديه بهما العطاء أو غيره⁽¹⁾، وعند فالترهانتس⁽²⁾ المد الشرعي في فجر الإسلام وخاصة في المدينة، في قول أبي يوسف يساوي 1/3 رطل، ويساوي 812.5 غ، وذكرت المصادر أن مد الخليفة مروان كان للنفقات خاصة، وهو مد وثلاث بمد النبي (صلى الله عليه وسلم)⁽³⁾.

الصاع: جمعه أصواع، وأصوع، وصيعان، عرف بالكراع، وتقول العرب صعت الشيء فرقتة، فيكون الصاع مشتقاً من هذا، لأن الكيل تفريق للمكيل⁽⁴⁾، والصاع الشرعي يتألف من أربع أمداد⁽⁵⁾، والتحديد الدقيق للصاع الشرعي أمر ذو أهمية بالغة بالنسبة للعديد من المكايل الإسلامية الأخرى، وحسب رواية من عصر الأيوبيين تكون سعة صاع النبي 4.2125 لتر، ولو حوّل هذا الكيل إلى وزن القمح يكون 3.24 كغ⁽⁶⁾، وذكر أبو عبيد⁽⁷⁾ في كتابه الأموال، المكيال الذي كان مستعملاً على أيامه وسماه بالملجم، ومقداره صاعان ونصف، وذلك عشرة أمداد.

المختوم: هو الصاع، وسمي كذلك لأن الأمراء كانوا يجعلون عليه خواتمهم لكيلا يزداد فيه أو ينقص⁽⁸⁾، وكان مختوم الحجاج يساوي صاعاً واحداً في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ويساوي قفيزاً واحداً —

(1) أبو العباس أحمد الغري السبتي، إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، دراسة: محمد الشريف، المجمع الثقافي، (د، ط)، أبو ظبي، 1999، ص 126

(2) المرجع السابق، ص 74

(3) السبتي، المصدر السابق، ص 74

(4) نفسه، ص 128

(5) أبو عبيد ابن سلام، الأموال، ج 2، ص 179

(6) فالترهنتس، المرجع السابق، ص 63

(7) المصدر السابق، ج 2، ص 193

(8) الخوارزمي، المصدر السابق، ص 44

سيأتي تفسيره - ويساوي 15/3 رطل (حنطة)، ويساوي 4.21 لتر⁽¹⁾.

السُّنْبِل: مكيال شائع الاستعمال في هذه الفترة بالبلاد الشامية، واختلفت مقاديره من منطقة إلى أخرى، ففي شيزر 3 = 1/2 رطل ويساوي 3.26 كغ قمح، وفي حلب خمسة أمداد (3كغ)، وفي حمص اثنا عشر مدا⁽²⁾.

القِسْط: نصف الصاع، والكلمة باليونانية *Xestes* وباللاتينية *sextarius*، ذكره أبو عبيد الهروي⁽³⁾، وسمي الميزان به، والقسط العدل، لأنّ العدل يتهيأ بها، ويساوي رطلان وثلثان، واستخدم أهل الشام هذا المكيال، فيذكر البلاذري⁽⁴⁾: «وكان على كل إنسان مع جزيته... وقسطان من زيت، وقسطان من خل».

الْفَرْقُ: أو الفتح، وهو مكيال من خشب، اختلف في وزنه، فقليل يسع خمس أقساط بأقساط بني أمية، وفي الخمسة أقساط اثنا عشر مدا بمد النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهناك من قال ستة أقساط⁽⁵⁾، وفي المدينة ثلاثة صيعان⁽⁶⁾.

المكوك: جمعه مكايك ومكّاكي، وهو مكيال قدره صاع ونصف⁽⁷⁾، واختلف مقداره من منطقة إلى أخرى باختلاف اصطلاح الناس عليه، ففي ثغر طرابلس كان كل 2 1/2 مكوك يعادلان غرارة⁽⁸⁾ دمشقية واحدة، وفي حلب كان المكوك يساوي 19 سنبلًا من سنابل شيزر، وكل سنبل منها 1 1/2 رطل وبما أنّ رطل شيزر يساوي 684 درهما، وكل درهم يساوي 3.12 غ، فإنّ مكوك حلب كان يتوافق مع وزن من القمح قدره حوالي 61 كغ، ويعتبر المكوك من المكاييل الخاصة التي تعامل بها

(1) أبو يوسف، المصدر السابق، ص 20، 21

(2) فالترهنتس، المرجع السابق، ص 63

(3) المصدر السابق، ج 2، ص 179

(4) فتوح، ص 178

(5) السبتي، المصدر السابق، ص 130

(6) فالترهنتس، المرجع السابق، ص 64

(7) الشيزري، المصدر السابق، هامش ص 17

(8) الغرارة: ج غرار، مكيال دمشقي للحنطة، وتعني الكيس الكبير من الصوف أو الشعر، وتتألف من 72 مد دمشقي، أنظر:

فالترهنتس، المرجع السابق، ص 64

سكان الجزيرة⁽¹⁾.

الكَيْل: الكيل والمكيال، اسم يعم جميع ما تعابير به المكيالات، والكيل أصله مصدر كال الطعام، قال أبو زيد⁽²⁾: «كال للرجل الطعام، وكاله الطعام»، وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾⁽³⁾، ويعتبر من مكايل المنطقة ففي دمشق كان الكيل الواحد يساوي 1/12 غرارة ويساوي 17 كغ (قمح) ويساوي حوالي 22.08 لتر⁽⁴⁾، وفي حلب كان الكيل الواحد يساوي 1/22 مكوك أي حوالي 6.56 لتر، وفي ديار ربيعة 1/16 مكوكا محليا أي حوالي 469 سم³⁽⁵⁾. المرزبان: جمعه مرزاب، ذكر الشيزري⁽⁵⁾ أنّ كل مرزبان يساوي أربعة أكيال، وفي حلب كل أربعة مرزاب تساوي مكوكا واحدا فيكون 26.25 لتر⁽⁶⁾.

القفيز: وهو مكيال معروف للأشياء اليابسة، وأقدم رواية مؤكدة عن هذا المكيال تتعلق بقفيز الحجاج، وبمقتضاها كان يساوي صاع النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومقداره حسب العديد من المصادر التي أطلعنا عليها ثمان مكايك⁽⁷⁾، وحسب المقدسي⁽⁸⁾ كان القفيز الواحد في الرملة يساوي 4 ويات⁽⁹⁾، ويساوي 8 مكايك ويساوي 24 كيلجة⁽¹⁰⁾، وكل كيلجة 1/2 صاع تقريبا، وفي صور يساوي مد مقدسي واحد ويساوي 77.87 كغ، وفي القرن السادس كان القفيز في شيزر يساوي

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 129

(2) شيخ الربوة، كتاب النوادر في اللغة، دراسة: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، ط1، بيروت، 1981، ص 241

(3) سورة المطففين، الآية 3

(4) فالترهانتس، المرجع السابق، ص 71

(5) المصدر السابق، ص 17

(6) فالترهانتس، المرجع السابق، ص 77

(7) أنظر: الشيزري، المصدر السابق، ص 17- الهروي، المصدر السابق، ج 2، ص 179- السبتي، المصدر السابق، ص 129

(8) المصدر السابق، ص 181

(9) الويبة: مكيال مصري بالدرجة الأولى، كان يعادل 10 أمانان - سيأتي تفسيرها في الوزن- أو 1216 كغ قمح، أي 15 لتر،

أنظر: فالترهانتس، المرجع السابق، ص 80

(10) الكيلجة: مكيال فارسي الأصل، وهو نصف الصاع، أو يزيد الصاع عليها قليلا، وكان يساوي في القرن 5/10م في

العراق 1/3 مكوك، وتساوي 187 كغ قمح، أو 25 لتر، أنظر: فالترهانتس، المرجع السابق، ص 71

16 سنبلًا، وكل سنبل يساوي 1/2 رطل، وفي حمص وحماء يساوي 14 سنبلًا ويساوي 44.81 كغ⁽¹⁾.

الكُرُّ: مكيال بابلي الأصل، كان يساوي في العراق 60 قفيزا كل قفيز 8 مكايك⁽²⁾.

الجَرِبُّ: اسم لمقدار من الأرض معلوم عند أهل المساحة، أما بوصفه مكيالًا فيساوي 7 أقفزة خلال القرن 1هـ/7م، ثم أصبح في الفترات التالية يساوي صاعًا واحدًا، أي 15/2 رطل (وزن الحنطة)، أي 22.71 كغ قمح و29.5 لتر⁽³⁾.

المُدِّي: مكيال لأهل الشام يأخذ جريبًا تكال به الجبوب⁽⁴⁾، يرجع أصله إلى الكلمة اللاتينية *Amodius*، والمدني غير المد⁽⁵⁾، ذكر أبو عبيد⁽⁶⁾ قائلا: «عايرت الأمداء والصيعان، ثم جمعت بينهما، ثم اعتبرتها بالوزن، فوجدت المديين ثلاثة وثمانين رطلا، فزنة المدي أحد وأربعون رطلا ونصف الرطل»، ويعتبر خاصا ببلاد الشام.

وهذا ما يؤكد البلاذري⁽⁷⁾ على لسان عمر بن الخطاب قائلا: «إني فرضت لكل نفس مسلمة في كل شهر مدي حنطة»، ويشير المقدسي⁽⁸⁾ أن أهل إيليا استخدموا المدي، ووضع عياض بن غنم على الجماجم بالجزيرة على كل واحدة دينارًا ومدين قمحا، وقسطين زيتا، وقسطين خلا. ولعلَّ معرفة المكاييل في مناطق الثغور وفي هذه الفترة لتبين لنا أنّها وبالرغم من دورها العسكري إلا أنّها كانت لا تختلف عن باقي أقاليم الدولة من حيث تنظيم المعاملات التجارية في البيع والشراء، وبينت مدى الترابط بينها، رغم أنّها شكلت مجتمعا مستقلا بذاته له خصوصياته.

(1) فالترهنتس، المرجع السابق، ص 68

(2) نفسه، ص 69

(3) الخوارزمي، المصدر السابق، ص 44

(4) السبتي، المصدر السابق، ص 131

(5) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 181

(6) ذكر أن المدي يسع خمسة عشر مكوكًا، والمكوك صاع ونصف، أنظر: الأموال، هامش ص 179

(7) فتوح، ص 443

(8) المصدر السابق، ص 181

2- الموازين:

يعرّف القلقشندي⁽¹⁾ الموازين بالآلات التي تستخدم لتقدير المقدرات، أثناء عمليات البيع والشراء، وأساسها الميزان من وَزْن، تقول العرب: وزنت الشيء وَزْنًا وَزْنَةً، امتحنته بما يعادله، ووزنت الرجل ووزنت له، إذا أقبضته ثمن شيء يوزن، ووزن الشيء وزنا، ووزن ثقل، ووزنت الشيء كنت أثقل منه، قال الفرزدق⁽²⁾: أخلاقنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنا إذا ما نجهل.

ولم تسعفنا المصادر الأولية في الحصول على نصوص تتعلق بالموازين في هذه الفترة، غير أنّ الوحدة المشتركة في هذه البلاد بل وأكثرها استعمالا هي الرطل، بالإضافة إلى أجزائه كالأوقية وأضعافه، مثل القنطار، وفيما يلي ذكر لأوزانها:

الأوقية: ج أواقي، والأوقية الشرعية في صدر الإسلام في مكة كوزن يساوي 40 درهما، ويساوي 125 غ، فهي بغض النظر عن بعض الاستثناءات تساوي 1/12 من الرطل، أمّا في بلاد الشام فنذكر ما ورد عند الشيزري⁽³⁾ أنّ الأوقية:

الحلبية: تساوي ستون درهما وثلث درهم (3/160 درهم) = 3.14 غ.

الدمشقية: خمسون درهما (1/12 من الرطل) = 154.16 غ.

الحمصية: اثنان وسبعون درهما = 225 غ.

الحموية: خمسة وخمسون درهما = 171.87 غ.

"وأوقية المعرة مثل أوقية حمص".

الرّطل: يلفظ أيضا رطل وُرطل، وعند الأوروبيين في العصور الوسطى روتولو *Rottolo*، من اليونانية لترون *Litron*، وهو أكثر وحدات الوزن استعمالا في بلاد الشام ويمثل الوحدة المشتركة فيها⁽⁴⁾، والرطل اسم المقدار من الموزونات، وأيضا لما يعاير به الموزونات من حديد، أو نحاس، أو رصاص، أو

(1) المصدر السابق، ج2، ص146

(2) ديوان الفرزدق، شرح وتقديم: علي فاعور، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، 1987، ص491

(3) المصدر السابق، ص16

(4) فالترهانتس، المرجع السابق، ص30

حجر، وقد يكون اسما لما يكال به مثل المد والصاع، وفي ذلك يقول الشاعر عمرو بن أحمد الباهلي (ت نحو 65هـ/685م): لها رطل تكيل الزيت منه وحمّار يسوق لها حمّارا⁽¹⁾

فيبدو أنّه من الموازين التي كانت مخصصة لوزن السوائل كالزيت.

وفي صدر الإسلام كان الرطل الواحد يساوي 12 أوقية، كل أوقية 40 درهما أي يساوي 1,5 كغ⁽²⁾، وجاء في القاموس المحيط⁽³⁾ أنّ الرطل اثنا عشر أوقية، والأوقية إستار⁽⁴⁾، والإستار أربعة مثاقيل، والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم، والدرهم ستة دوانق، والدانق قيراطان، والقيراط طسوجان⁽⁵⁾، والطسوج حبتان، والحبة سدس ثمن الدرهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزء من درهم⁽⁶⁾.

أمّا ما يهم موضوعنا فقد زوّدنا الشيزري⁽⁷⁾ بأوزانه في:

حلب = 724 درهما، دمشق = 600 درهم، حمص = 864 درهما، حماه = 660 درهما، وفي شيزر =

684 درهم، أمّا ما أورده فالترهنتس فهي تتعلق بفترات متأخرة عن فترة البحث.

كما وجد في حلب رطل خاص بالحرير يزن 700 درهم = 2.21 كغ، ورطل آخر للحرير الفارسي

يزن 680 درهما = 2.15 كغ، ورطل للمعادن والتوابل يزن 600 درهم = 1.9 كغ، أمّا رطل طرابلس

فكان يساوي 630 درهما = 1.96 كغ⁽⁸⁾.

(1) السبتي، المصدر السابق، ص 142

(2) محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، النقود والمكاييل والموازين، تج: رجاء محمود السامرائي، دار الرشيد، العراق، 1981، ص 35

(3) الفيروز أبادي، ج 3، ص 385

(4) استار: من اليونانية (*stater*) يزن 4 1/2 مثقال، أو 6 2/5 درهم، ويساوي 20 غ، أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص 19

(5) الطسوج أو تاسو (*tasu*): وحدة وزن فارسية معربة طسوج تساوي 1/4 دانق أو 1/24 مثقال، أنظر: المرجع نفسه، ص 23

(6) المناوي، المصدر السابق، ص 35

(7) المصدر السابق، ص 18

(8) فالترهنتس، المرجع السابق، ص 34

القنطار: أصله الجملة الكثيرة من المال، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾⁽¹⁾، والمذكور هنا يساوي ألف ومائتا أوقية، وأما القنطار المتعارف عليه فيساوي من حيث الأساس مائة رطل، والرطل 684 درهما، وهو 12 أوقية، والأوقية 57 درهما⁽²⁾، وقد يكون القنطار أيضا 100 من، وإذا أطلق على كمية كبيرة من الذهب فيكون 10.000 دينار = 33 و 42 كغ ذهب، واستخدمت في الأقطار الإسلامية أوزان مختلفة للقنطار، نكتفي بذكر ما يخدم موضوعنا: في حلب كان القنطار يزن دائما 100 رطل - كل رطل 720 درهما، أي وزنه 228 كغ- وكان القنطار في حماه مساويا في ثقله لقنطار حلب⁽³⁾.

3- المقاييس:

عرف العالم الإسلامي، ومن ضمنه بلاد الشام، مجموعة من مقاييس الطول: كالذراع، والقصبه، والميل، والبريد، والفرسخ وغيرها، وسبق الإشارة إلى البعض منها خلال هذا البحث، ومجموعة أخرى تتعلق بمقاييس المساحة؛ كالجريب، والحبة، والدانق، والقفيز، والعشير وغيرها، ونركز على أهم تلك المقاييس التي استخدمت خاصة في مناطق الثغور الإسلامية في الفترة موضوع الدراسة، ومنها:

الذراع: كانت تصنع غالبا من الخشب أو الحديد، من أجل استخدامها في قياس الأطوال المستعملة في الأسواق الشامية، ويذكر ابن منظور⁽⁴⁾ أن: «الذراع ما يذرع به، ذرع الثوب وغيره، أي قدره بالذراع، فهو ذراع»، ويعتبر الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أول من اتخذ الذراع لمسح السواد، سميت بالذراع العمرية، ويبلغ طولها نصف الذراع الميزانية أي 72.813 سم.

وهناك عدد لا يستهان به من الأذرع في الإسلام، ونقطة الانطلاق لجميع الحسابات هي ذراع مقياس النيل القديم في جزيرة الروضة ويرجع إلى سنة 247هـ/861م ويبلغ طولها 54.04 سم، وهي ما يسمى بالذراع السواد العباسية، وقد استحدثت في عهد الخليفة المأمون، وأهمها:

(1) سورة آل عمران، الآية 14

(2) الشيزري، المصدر السابق، ص 13

(3) فالترهانتس، المرجع السابق، ص 40-42

(4) لسان العرب، مج 8، ص 94

الذراع الهاشمية أو الكبرى، ذات الثماني قبضات⁽¹⁾، أو اثنين وثلاثين إصبعا⁽²⁾، وحملت اسم ذراع الملك، والذراع الزبادية نسبة إلى زياد بن أبيه منذ عهد الخليفة المنصور، وتساوي 66.27 سم، الذراع الشرعية = 49.87 سم، الذراع العامة = 54.04 سم وربما هي الذراع السوداء، ذراع الكرباس = 54.04 سم وتستعمل لذرع الخيش الأبيض، وتساوي الذراع العامة والسوداء، ذراع المساحة = ذراع الملك ذات الـ 66.5 سم، ذراع الملك = تساوي الذراع الهاشمية الكبرى، واتخذت هذا الاسم في عهد المنصور، الذراع الميزانية = 145.63 سم استحدثها الخليفة المأمون، وكانوا يستعملونها في مسح القنوات، الذراع اليوسفية = 52.55 سم، نسبة إلى أبي يوسف، وكانت تنقص عن السوداء ب 2/3 إصبع، طولها، وهناك احتمال آخر أنّ الذراع اليوسفية كانت عين الذراع الشرعية أو ذراع اليد التي يبلغ طولها 49.875 سم، ذراع البزّ وهي من أكثر الأنواع انتشاراً، استخدمها التجار لذرع الأقمشة، وبلغ ذراع القماش في دمشق 63 سم، وذراع حلب الذي كان مقبولا على نطاق واسع 67.7 سم، وهناك الذراع المكسر الذي يستخدم لقياس الأقمشة إذ يبلغ طوله 68 سم، ويحتمل أن يكون هو ذراع القماش في حلب⁽³⁾.

البريد: البريد باللاتينية *verdus* ويساوي 4 فراسخ، أي حوالي 24 كلم⁽⁴⁾.

القصبية: وتساوي 3.99 متر⁽⁵⁾.

أما عن مقاييس المساحة فأهمها:

الجريب: الجريب كمقياس للأرض يساوي شرعا 100 قصبية مربعة، ويساوي 1592 متر مربع (والقصبية = 399 سم).

(1) القبضة: هي كقاعدة تساوي أربع أصابع، ومن حيث الأساس 1/6 ذراع، وبناء على ذلك كانت مع الذراع السوداء تساوي

9 سم، أنظر: فالترهنتس، المرجع السابق، ص 94

(2) إضبع: يبلغ من حيث الأساس 1/24 من الذراع، أنظر: المرجع نفسه، ص 81

(3) نفسه، ص 89-94

(4) الماوردي، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، تح: علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب

العلمية، ط 1، بيروت، 1994، ج 1، ص 360

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج 3، ص 446

القفيز: كمقياس للأرض يساوي 1/10 جريب، أو 360 ذرعا مربعا، فيكون طوله 159.2م²(1).
مما سبق يتضح أنّ المصادر الأولية لم تمنحنا الكثير من النصوص التي تتعلق بالمقاييس والموازن والمكاييل، وكل ما توصلنا إليه ما هو إلا استنتاجات عما كان مستعملا في بلاد الشام في تلك المرحلة من المراحل المبكرة في تاريخ الدولة الإسلامية، وبما أنّ منطقة الثغور جزءا لا يتجزأ عن بلاد الشام، فلا شك أنّها استخدمت نفس تلك المكاييل والمقاييس والأوزان في استعمالاتها المختلفة.

(1) أنظر: القلقشندي، المصدر السابق، ج2، ص426- التهانوي، المصدر السابق، ج2، ص513- فالترهنتس، المرجع السابق، ص83-92

المبحث الخامس: الأسعار ومستوى المعيشة

صحيح أن المصادر تزخر بالتفاصيل عن بذخ الخلفاء والوزراء وترف التجار الأغنياء، غير أنّ هذه المعلومات لا تعطي صورة صادقة عن الوضع الحقيقي لمستوى المعيشة والأسعار، لأنّها تتحدث عن حياة فئة معينة من المجتمع، كما لا تعطي معلومات دقيقة مفصلة عن الأسعار، لكنّها تشير أحيانا إلى أسعار بعض السلع، وأحيانا تذكر أسعار السلع التي ارتفعت نتيجة للحروب، والفتن الداخلية، والاضطرابات السياسية، فضلا عن الفساد الإداري والمالي، وكثرة البذخ والترف، وكلها كانت تؤثر على الجانب الاقتصادي.

1- العوامل المؤثرة في الأسعار:

تضافرت عوامل عديدة سياسية كانت أم بشرية، أو حتى عوارض طبيعية، في ارتفاع وانخفاض معدلات الأسعار عامة خلال هاته الفترة، وكل ما أشارت إليه المصادر كان محدودا أو سريعا، وما سجلته من أسعار كان حصرا على أوقات الغلاء والارتفاع المفاجئ معللة أسباب ذلك، فقد ترتفع الأسعار لفترة قصيرة جدا بسبب العارض، ثم تعود إلى الرخص والاستقرار عند زوال الأسباب أو معالجتها، ويمكن أن نشير إلى أهم تلك الأسباب من خلال:

أ- سياسة الخلافة:

وتتمثل في سياستها الزراعية، وضرائبها الخراجية، وسياستها "السعرية" الاقتصادية، بكل الإجراءات والوسائل التي تتحكم فيها الخلافة والتي لم تفرض تسعيرة ثابتة، منطلقة من موقف الدين الإسلامي في رفضه التسعيرة⁽¹⁾.

ولم تشر المصادر إلى تغييرات في الأسعار تتطلب تدخل الدولة إلا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فيروي أبو يوسف أنّ الأسعار كانت مرتفعة في عهده، فطلب منه أن يضع تسعيرة إجبارية،

(1) وردت أحاديث عن الرسول(صلى الله عليه وسلم) ترفض تسعيرة المواد الضرورية ومنها الغذائية، في فترة هدد فيها الغلاء المدينة المنورة وفقرائها، فقال الناس للرسول(صلى الله عليه وسلم) إنّ السعر قد غلا، فوظف وظيفة يقوم عليها فكان جوابه(صلى الله عليه وسلم): {إِنَّ الرِّخْصَ وَالْغَلَاءَ بِيَدِ اللَّهِ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نُجَوِّزَ أَمْرَ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَّاقُ} ابن ماجة، المصدر السابق، م2، ص742

فرفض ذلك⁽¹⁾.

ويبدو أنّ الدولة الإسلامية لم تضع تسعيرة إجبارية، لكنها قامت ببعض الإجراءات والتدابير، كان لها أثر في الحد من ارتفاع الأسعار بطرق مباشرة وغير مباشرة، فنجد أنّ الخلافة جبت ضرائبها الخراجية من الفلاحين بالنقد والعين، ومزجت بذلك بين النقود والمنتجات الزراعية كالحنطة والشعير، فخففت عن الفلاحين الكثير من الأعباء، فلا يضطرون إلى بيع محاصيلهم بأسعار رخيصة أيام الموسم، ليحصلوا على النقد من أجل تسديد الخراج، ولما كان الخراج غير ثابت في نظام المقاسمة، فإنّ ذلك يترك أثره في عدم استقرار الأسعار، ومن أمثلة ذلك ما جاء من خراج السواد سنة 204هـ/820م والمسجل في الدواوين، فقد بلغ الخراج من الحنطة مائة ألف كُرٌّ وسبعمائة وعشرون كرا، وكانت مبالغ الحنطة والشعير تعادل ثمانية آلاف ألف وخمسة وتسعون ألفاً وثمانمائة درهم⁽²⁾.

واتبعت الخلافة إجراء آخر في تأخير أو تأجيل دفع الخراج من الفلاحين في سنوات الشدة والجفاف، أو عند تلف المحاصيل لأي سبب كان، ومنها ما أورده الأزدي⁽³⁾ عن جباية الخراج من الموصل في عهد الخليفة المنصور، عندما شكى أحد الفلاحين بأنّ زرعه أصابه الخراب، ولا يستطيع دفع ما عليه من خراج لذلك العام ومقداره 200 ألف درهم، فأجله الخليفة إلى العام المقبل.

ب- الاضطرابات السياسية والفتن والحروب:

كل هذه العوامل بالإضافة إلى الفساد الإداري، والمالي، وكثرة البذخ، والترف، أثرت على الجانب الاقتصادي، فأرهقت مالية الدولة بمبالغ تؤدي في الكثير من المرات إلى الإفلاس، وهذا بدوره يؤدي إلى اضطراب من نوع آخر وهو شغب الجند والمطالبة بأرزاقهم، ومثال ذلك الصراع بين الأخوين الأمين والمأمون، والذي اعدّ أولى الأزمات الاقتصادية خطورة بين 193هـ-809م/198هـ-813م

(1) أبو يوسف، المصدر السابق، ص140

(2) أنظر: قدامة بن جعفر، الخراج، ص167- طه خضر عبيد، سياسة الخلافة العباسية للمحافظة على استقرار أسعار الحنطة في العراق 132-261هـ/749-875م، مجلة الملوية للدراسات والآثار والتاريخية، جامعة سامراء، العراق، ع16، م6، 2019، ص(23-46)

(3) المصدر السابق، ص276

حيث نفذت الأموال أثناء الحرب، حتى اضطر الخليفة الأمين إلى ضرب أواني الذهب والفضة، وجعلها نقوداً من أجل تأمين ودفع مستحقات الجند، ومعالجة الأزمة⁽¹⁾.

فضلاً عن إسراف الخليفة الأمين الذي أمر بعمل خمس حراقات -نوع من السفن فيها مرامي للنيران- على صورة الأسد، والفيل، والعقاب، والحية، والفرس، وأنفق مالا عظيماً، بلغ على إحداها ثلاثة ملايين درهم⁽²⁾، ويذكر أنه بذّر الأموال التي جمع أسلافه، حتى لم يبق له من ذخائر إلا أنفقه، فلما اشتد به الحصار، أمر أن يتبع أصحاب الأموال والودائع والذخائر، فهرب الناس خوفاً على أموالهم⁽³⁾.

ثم تبعها صراع بين المعتز والمستعين سنة 251هـ/865م، وما صاحب ذلك من أعمال تخريب للقنوات الزراعية وهدر للأموال، فقد أمر الخليفة المستعين بحفر خندق حول بغداد بلغت تكلفته 330 ألف دينار، وكتب إلى عمال الخراج أن يحمل الخراج والأموال إلى بغداد، ولا يحمل شيء منها إلى غيرها⁽⁴⁾.

وواجه الخليفة المعتضد بالله 279-289هـ/892-902م أزمة مالية خانقة، حيث وجد بيت المال خاوياً بسبب الحرب مع الزنج 255-270هـ/869-883م، ويشير ابن الجوزي⁽⁵⁾ لذلك بقوله: «فلما ولي المعتضد لم يكن في بيت المال إلا قراريط، والحضرة مضطربة، والأعراب عاثثة، فأصلح الأمور، وحمل البيضة، وبالغ في العمارة، وأنصف في المعاملة، واقتصد في النفقة..».

كما لجأ إلى إصلاح الأراضي الزراعية، وأقر توقيتاً جديداً لجباية ضريبة الخراج، وذلك لأن القديم يحدث ضرراً بالمزارعين، فيضطرون إلى الاستلاف، وينجلون عن أراضيهم، حتى وإن لم ينضج المحصول.

(1) المسعودي، مروج، ج3، ص403

(2) ابن الأثير، الكامل، ج5، ص294

(3) المسعودي، مروج، ج3، ص408 - ج4، ص408

(4) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص143-147

(5) المصدر السابق، ج5، ص136

وعندما تولى الخليفة المقتدر بالله سنة 295هـ/908م، كان في بيت المال ما يقارب أربعة أو خمسة عشر مليون دينار، ولكنه أسرف وبذر رغم جهود وزيره علي بن عيسى، فحدثت أزمة كبيرة، وتم إفلاس بيت المال⁽¹⁾.

وكان لفترة الفوضى السياسية أثرها على ميزانية الدولة، خاصة عند خلع الخلفاء، والوزراء، ورجال الدولة، ومبايعة الخليفة الجديد، فالجند يستغلون تلك الظروف للقيام بأعمال النهب، ولعل أكبرها حدثت سنة 317هـ/929م عندما تُلح الخليفة المقتدر ونصب القاهر بالله، فاستغل الجند الحادثة وهاجموا دار الخلافة، وسرقوا كل ثمين فيها⁽²⁾.

وتوالى النهب بعد ذلك عندما تُلح الخليفة المستكفي بالله بعد دخول معز الدولة البويهبي بغداد سنة 334هـ/946م حتى لم يبق بها شيء، وتكرر العمل عند خلع بهاء الدولة البويهبي الخليفة الطائع لله سنة 381هـ/991م⁽³⁾.

فضلا عن عوامل أخرى أسهمت في ضعف واردات الدولة المالية، كاستقلال الأطراف من جسم الخلافة العباسية، كالأغالبة في المغرب، والسامانيين في بلاد ما وراء النهر، والحمدانيين في الموصل والجزيرة وحلب، والطولونيين والإخشيديين في مصر والشام وغيرهم⁽⁴⁾.

وتعتبر كثرة الفتن وعمليات السلب والنهب، والحروب المتواصلة، من العوامل التي تؤدي إلى تلف الكثير من السلع التجارية، وهو ما يؤثر على الأسعار بارتفاعها، ومن الأسباب الأخرى خزن المواد الغذائية، وعدم بيعها من أجل رفع أسعارها، مما يسبب عجزا في ميزانية الدولة، كما أنّ طول مدة الحصار وشدة البلاء يؤديان إلى نفاذ القوت وارتفاع ثمنه⁽⁵⁾.

(1) الصايبي أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون، رسوم دار الخلافة، دار الرائد العربي للنشر، (د،ط)، بيروت، 1986، ص22

(2) أحمد إسماعيل عبد الله الجبوري، تاريخ الأزمات الاقتصادية الإسلامية، جامعة الموصل، كلية التربية، العراق، (د،ت)، ص(1-17)

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص451-ج9، ص79

(4) أحمد إسماعيل الجبوري، المقال السابق، ص(1-17)

(5) ابن الأثير، الكامل، ج9، ص614

ج- عوارض الطبيعة:

غالباً ما يقترن بحدوث الكوارث بمناطق الثغور، حدوث أزمات اقتصادية كثيرة مسببة ارتفاعاً حاداً في الأسعار للمواد الغذائية الأساسية بسبب نقصها، تصاحبه موجة من الأوبئة، فتلحق خسائر بشرية، والمعروف أنّ الغذاء الغالب للناس هو الخبز، وأغلب ما يزرع هو الحنطة والشعير، ويعد ارتفاع أسعارها دليلاً على حدوث الغلاء⁽¹⁾.

والمعروف أنّ الجفاف هو العامل الرئيسي لذلك، لأنّ أغلب الأراضي الزراعية بمناطق الثغور أعداء، فقد تسببت المجاعة نتيجة للجفاف وندرة الأقوات من عجز الخلفاء عن تجهيز الحملات للغزو وفي إخفاق العديد من الحملات على منطقة، وعلى رحيل سكان بعضها هرباً من الغلاء، وانتشرت الأوبئة نتيجة لذلك، وهو ما سهل للروم في الكثير من المرات الانتصار على المسلمين، ففي سنة 264هـ/877م غلت الأسعار بطرسوس فطلب أهلها من أحمد بن طولون الرحيل أو الإقامة في عدد يسير من جنده، ففضل الرحيل كي يحفظ هيبة الثغر في وجه الأعداء⁽²⁾.

وفي سنة 355هـ/966م اشتد الغلاء في الثغور، وما تبعه من مجاعة في إخفاق حملة الروم على ثغر المصيصة، فقبل انصراف دمشق الروم عنها خاطب أهلها قائلاً: «إني منصرف عنكم، لا لعجز عنكم، وعن فتح مدينتكم، ولكن لضيق العلوقة»⁽³⁾، واضطر نتيجة لذلك حوالي 50 ألف من أهالي الثغور إلى الرحيل عنها، هرباً من الغلاء، يذكر ابن الجوزي⁽⁴⁾ أنّه قال: «أنا عائد إليكم بعد هذا الوقت، فمن أراد منكم الهرب فليهرب قبل رجوعي، فمن وجدته قتلته»، ويذكر ابن الأثير⁽⁵⁾ عن ذلك أنّه: «اشتد الغلاء على الروم، وكان شديداً قبل نزولهم، فطمعوا في البلاد لعدم الأقوات عندهم فلما نزل الروم زاد شدة وكثر الوباء أيضاً، فمات من الروم كثيراً فاضطروا إلى الرحيل».

(1) آدم متز، المرجع السابق، ج2، ص302

(2) نفسه، ص277

(3) ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص203

(4) ابن الجوزي، المنتظم، ج14، ص15

(5) الكامل، ج7، ص284

وفي سنة 354هـ/965م زاد القحط والمجاعة بطرسوس والمصيصة، حتى أكلوا الكلاب والميتة، والسبب أنّ المسلمين كانوا يخرجون كل سنة ليزرعوا، فيأتي نفقور بعساكره فيفسد ذلك، فلما تكرر منه ذلك لم تثمر الأرض الكميات اللازمة، فأصبحوا يعانون من ضيق شديد، ومجاعة قاسية، فسهل ذلك على الروم الاستيلاء عليهما⁽¹⁾.

وفي العراق غلا السعر سنة 207هـ/822م، حتى بلغ القفيز من الحنطة بين الأربعين والخمسين درهما، وتضررت البلاد المجاورة، وفقدت المواد الغذائية فمات كثير من الناس جوعا⁽²⁾، وفي سنة 383هـ/993م كان الغلاء الشديد فتظاهر الناس ومنعوا قيام صلاة الجمعة، حيث بلغ كره الحنطة أربعة آلاف درهم، وأحدث مجاعة، ولقي عدد من الناس حتفهم جوعا⁽³⁾.

وبالإضافة إلى الجفاف، قد يؤدي كثرة الأمطار أو تذبذبها أو تراكم الثلوج على المحاصيل وتلفها، أو حدوث الصقيع والبرد إلى تلف المحاصيل وبالتالي ارتفاع أسعارها، ففي سنة 244هـ- 245هـ/858-859م تراكمت الثلوج بدمشق وحدث الصقيع، فأدى إلى إتلاف المحاصيل الزراعية، فيذكر الطبري⁽⁴⁾ أنّ الأسعار غلت وحال الثلج بين السابلة والميرة.

ومن أسباب غلاء الأسعار كذلك الآفات الزراعية التي تصيب المحاصيل بسبب أمراض النبات، والتي تؤثر في نوعية المحصول وكميته وسعره، وكذلك زحف الجراد وأكله للأخضر واليابس، وقد توقف المؤرخون عند أحداث غزو الجراد، وسجلوا ارتفاع أسعار الحنطة والشعير المصاحب لذلك، وحصول الغلاء وشدته على الناس والذي يستغرق وقتا طويلا، وبذلك اقترن الزحف بالغلاء، ففي سنة 166هـ/782م التهم الجراد الأعشاب والأشجار، وأتلف المزروعات في الجزيرة⁽⁵⁾، وعمّ الغلاء كل الأقاليم بسبب ذلك.

(1) ابن مسكويه، المصدر السابق، ج2، ص210-ج7، ص287

(2) الطبري، تاريخه، ج10، ص67

(3) ابن الأثير، الكامل، ج8، ص145

(4) تاريخ، ج9، ص210

(5) ابن العبري أبو الفرج جمال الدين، تاريخ الزمان، تر: اسحق أرملة، المكتبة الشرقية، (د،ط)، بيروت، 1991، ص13

وقد يكون التأثير وتلف المزروعات بسبب الريح السموم، والتي يرافقها حرائق كما حدث سنة 234هـ/848م عندما أحرقت مزروعات الكوفة والبصرة وبغداد وامتدت إلى الموصل والجزيرة، فتكون بذلك محدودة التأثير تؤثر على الأقاليم الذي تعرضت له فقط، أما إذا كانت الحرائق بسبب الزلازل مثلا، فإنّ الضرر يكون كبيرا لأنّه يعرض مساحات واسعة للخطر فيؤثر على ارتفاع الأسعار، كزلازل أنطاكية سنة 240هـ/854م الذي رافقته الحرائق، فألحق الضرر بالمحاصيل وأتلفها، ووصل خطره إلى الموصل فغلت الأسعار، وقد أدى وقوع الزلازل في المنطقة إلى خسائر فادحة، من تلف للمحاصيل الزراعية، وموت كثير من الخلق، ودمار القرى والمدن والمنشآت العمرانية، وبالتالي ارتفاع الأسعار⁽¹⁾.

كما أنّ للطاعون تأثير على ارتفاع الأسعار في المنطقة، فهي تصيب البشر والحيوان، وتؤدي إلى هلاكهم، وبذلك تفقد نسبة كبيرة من المشتغلين بالزراعة، مما ينعكس أثره على الأسعار⁽²⁾.

2- الأسعار بين الرخص والغلاء:

لما كان التسعير يعني تقدير السعر وتقويم الثمن، إلا أنّه لم تكن في الخلافة أسعار ثابتة للسلع، ولم تفرض الخلافة تسعيرة محددة، وإمّا كانت تتدخل وقت الضرورة للحد من ارتفاع الأسعار، والعمل على تحديد سقف السعر العادل أحيانا⁽³⁾.

والواقع ليس للرخص والغلاء حد يعرف به ولا يسعر عليه، ولا يرتبط الرخص بوفرة كميات الإنتاج، ولا الغلاء بالقلّة، وللجاحظ⁽⁴⁾ رأي معين يقول فيه: «إنّ الموجود من كل شيء رخيص بوجدانه، غال بفقدانه إذا أمست الحاجة إليه»، فضلا عن أنّ الأسعار لم تكن مستقرة طيلة أيام السنة فهي تختلف بين موسم وآخر داخل المدن وخارجها، فتكون أغلى في الأولى عنها في الثانية، والسبب في ذلك يعود إلى أنّ استهلاك سكان المدن يكون كبيرا بالقياس إلى القرى وعدد ساكنيها أكبر، كما أنّ ارتفاع الأسعار مرتبط بالضرائب والنقل، أو القرب والبعد عن مصادر الإنتاج،

(1) السيوطي، المصدر السابق، ص 347، 348

(2) وديع فتحي، المرجع السابق، ص 76

(3) طه خضر عبّيد، سياسة الخلافة العباسية، ص (23-46)

(4) التبصر بالتجارة، ص 9

وحسب النوعية⁽¹⁾.

ولا تلجأ الخلافة إلى التدخل في وضع تسعيرة محددة ودائمة على الإنتاج، لأن ذلك يؤدي إلى اختفاء المحصول واحتكاره، ومن ثم ارتفاعه⁽²⁾، إلا أنّ بغداد كانت تقرر حدود الأسعار في تلك الفترة، وفي الظروف الطبيعية، وتكاد تكون تسعيرة مركزية، تلتزم بها أقاليم الخلافة، واستمر الحال كذلك حتى القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، ولا تتوفر لدينا معلومات كافية عن الأسعار في أقاليم الخلافة، وكل ما أشارت إليه المصادر كان محدودا وسريعا، وكل ما سجلته كان حصرا على أوقات الغلاء والارتفاع المفاجئ⁽³⁾.

وبالمقارنة مع سعر بعض المحاصيل-الحنطة كمثال باعتبارها أساس تقدير الوضع المعاشي- في الدول المعاصرة للخلافة في تلك المدة، نجد أنّ الخلافة حتى في أوقات الشدة والغلاء هي أرخص بالقياس إلى تلك الدول، فقد بلغ سعرها في الدولة البيزنطية، كل مدين بدينار ذهبي في عهد الإمبراطور باسل الأول، وفي السنوات التي يكون فيها المحصول رخيصة كان كل 12 مد بدينار ذهبي، وبذلك يكون أعلى سعرا من الخلافة⁽⁴⁾.

ويعلل الجاحظ⁽⁵⁾ انخفاض الأسعار في بلاد الشام إلى زيادة عرض السلعة وقلة الطلب عليها، مما يبقى السلع متداولة بين أهلها تفيض عن حاجتهم، ولا يستطيعون تصديرها وبذلك تبقى رخيصة، فيقول: «فالشامات وأشباهها، الدينار والدرهم بها عزيزان، والأشياء بها رخيصة لبعدها المنقل، وقلة عدد من يبتاع، ففيما يخرج من أرضهم أبدا فضل عن حاجتهم».

ولأخذ فكرة عن الأسعار في المنطقة في هذه الفترة، لابد من التوقف عند القوة الشرائية لشرائح من الناس، ولاسيما سكان المدن الذين هم أكثر استهلاكا، وتعطينا أجورهم اليومية مؤشرا عن الأسعار

(1) طه خضر عبيد، سياسة الخلافة العباسية، ص(23-46)

(2) أبو يوسف، المصدر السابق، ص49

(3) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج1، ص70

(4) طه خضر عبيد، سياسة الخلافة العباسية، ص(23-46)

(5) البلدان، ص503

ارتفاعاً أو انخفاضاً، ففي القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، كانت الأجور اليومية لعدد من الشرائح الاجتماعية تعكس مستوى معيشتهم وتقرّب لنا طبيعة الأسعار، ففي عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، كانت أجرة النجار درهمين يومياً، وعامل البناء خمسة دراهم⁽¹⁾، وفي عهد الخليفة الرشيد كان عامل الطين يتقاضى أربعة دنانير⁽²⁾، وعامل البناء درهما ودانقا⁽³⁾، وفي عهد الخليفة المأمون كانت أجرة غزال النول نصف درهم⁽⁴⁾، وفي عهد الخليفة المتوكل تقاضى عامل الرحي ثلث درهم⁽⁵⁾.

في حين بلغت الأجور اليومية أواخر القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد لخراط الزجاج درهم ونصف، وعامل الحفر ثلاثة دراهم، والحداد خمسة، وعامل البناء قيراط وخمس حبات⁽⁶⁾، وتساوي معدلات تلك الأجور قيمة ثمانية أرتال حنطة، لأنّ الرخص زمن المنصور كان واضحاً، فالدرهم يشتري به ستة مكاكيك دقيق رز، وسعر الحنطة يساوي ستة عشر رطلاً بدرهم في حالة الاستقرار⁽⁷⁾ واستمر رخص الأسعار زمن الرشيد، غير أنّ الوضع تغير أثناء حصار بغداد سنة 197هـ/812م وبدأ الارتفاع التدريجي لأسباب منها ارتفاع مستوى المعيشة، وتزايد سكان المدن، وتغير سعر الصرف، وبسبب القحط وانحباس المطر سنة 206هـ/821م، بلغ حمل حنطة خمسة وثلاثين قطعة درهم، والخبز الذي وزنه رطل بيعت كل عشرين قطعة بدرهم⁽⁸⁾، في حين كانت الأسعار في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد ثمانية أرتال ونصف بدرهم، ويفسر الارتفاع إلى ما حدث من فوضى أحدثتها سيطرة الجند الأتراك فعرقلت النشاطات الاقتصادية وأضررت أصحاب الحرف والفلاحين⁽⁹⁾.

(1) البيهقي إبراهيم، المحاسن والمساوي، تح: أبو الفضل إبراهيم، مطبعة النهضة، (د،ط)، القاهرة، 1961، ج9، ص359

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج10، ص185

(3) عبدالرحمن سنبل قنيتو الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، تح: مكي السيد جاسم، مكتبة المثني، (د،ط)، بغداد، (د،ت)، ص137

(4) مجهول، المصدر السابق، ج2، ص29

(5) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج6، ص275

(6) الشيخلي، المرجع السابق، ص89

(7) الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج1، ص70

(8) طه خضر عبيد، سياسة الخلافة العباسية، ص(23-46)

(9) فاروق فوزي عمر، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، دار الرشيد، (د،ط)، بغداد، 1977، ج2، ص28

وبعيدا عن أسعار المواد الغذائية الأساسية، بلغ سعر الجمل العادي خمسين دينارا، وأقل من ذلك حيث قُومَ جمل بخمسة وعشرين دينارا⁽¹⁾، وبلغ سعر حمار 10 دنانير سنة 329هـ/940م⁽²⁾، وسعر تيس حوالي 370هـ/980م دينار⁽³⁾، وسعر رحي جيدة من الجزيرة 50 دينار سنة 350هـ/961م⁽⁴⁾، وبلغ سعر ثوب سقلاطوني من صنع بغداد 5 دنانير سنة 372هـ⁽⁵⁾.

أما أسعار الرقيق فاختلفت باختلاف أصلهم، وجنسهم، ومهارتهم، وجمالهم، فيذكر الأصفهاني⁽⁶⁾: «أنّ شاعرا دخل على عبد العزيز بن مروان بسلام، فقال قَوْمُوا غلاما أسود ليس به عيب، فقالوا: مائة دينار، قال: إنّه راع للإبل، فقالوا مائتا دينار، قال: إنّه يرى القسي ويرمي النبل، قالوا: أربعمائة دينار، قال: إنّه راوية للشعر، فقالوا: ستمائة دينار، قال: إنّه شاعر، قالوا: ألف دينار»، وبذلك يتوقف سعر الرقيق على نوع المهنة التي يجيدها أو مقدار علمه أو مدى إجادته لحرفة ما، كما كان لجمال الجوّاري وخصالهن دور كبير في تحديد أسعارهن⁽⁷⁾.

3- إجراءات الدولة لمعالجة الأزمات الاقتصادية:

اهتم الخلفاء في هذه الفترة من تاريخ الدولة الإسلامية بالنظام المالي، وبصورة خاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد، الذي أمر أبا يوسف القاضي أنّ يكتب في الخراج كتابا جامعاً، تناول فيه موارد بيت المال والطريقة المثلى لجباية الأموال، ثمّ الأموال التي يقوم بها بيت المال، فالضريبة على الأراضي الزراعية في ذلك الوقت تكاد تمثل النفط في الوقت الحاضر، وذلك لاتساع رقعة الدولة

(1) الأصفهاني، المصدر السابق، ج 1، ص 334

(2) التنوخي، المصدر السابق، ج 1، ص 89

(3) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 262

(4) ابن حوقل، صورة الأرض، ص 222

(5) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص 262

(6) المصدر السابق، ج 7، ص 333، 334

(7) فقد اشترى معاوية جارية بمائة ألف درهم، ويبدو ارتفاع سعرها لجمالها وإجادتها الغناء وإنشاد الأشعار، فقد سألتها: «هل تحسنين شيئا؟ قالت: نعم، أقرأ القرآن وأنشد الأشعار»، واشترى يزيد بن عبد الملك جارية بأربعة آلاف دينار، أما الوليد فقد اشتراها بعشرة آلاف دينار، وفي رواية أنّ يزيد بن عبد الملك اشترى جاريته بعشرين ألف دينار كونها فاتنة الجمال، أنظر: ابن عساكر، تاريخ، ص 469 (تراجم النساء) - الطبري، تاريخه، ج 7، ص 23 - الأصفهاني، المصدر السابق، ج 6، ص 26، 27

الإسلامية من جهة، ومساحة الأراضي المزروعة الكبيرة من جهة أخرى، وميزانية الدولة التي كان الخراج يمثل المورد الأول والأهم فيها⁽¹⁾.

وقد حاول الخلفاء عدم إرهاق المزارعين، وأخذ الخراج على نوع المحصول وجودة الأرض-وهو نظام المقاسمة- وراعوا خفض الضرائب إذا قلّ المحصول⁽²⁾، وتشير المصادر⁽³⁾ أنّ الميزانية في العصر العباسي الأول كانت عالية، إذ بلغت في عهد الخليفة هارون الرشيد 530.312.000 درهم، وفي عهد الخليفة المأمون 396.155.000 درهم وفي عهد الخليفة المعتصم 388.291.000 درهم.

وقد خفف الخليفة هارون الرشيد نسبة خراج المقاسمة على الفلاحين، وحذف العشر الذي كان يؤخذ بعد النصف، وألقى الضرائب والرسوم الإضافية التي تثقل كاهل الفلاحين⁽⁴⁾، وسار الخليفة المأمون على نفس الطريقة، في تخفيف الأعباء على الفلاحين والتي كان لها تأثير على استقرار الأسعار⁽⁵⁾، وجاءت مواقف الخليفة المتوكل على الله من مسألة جباية الخراج مشجعة للفلاحين، عندما جعله إلى وقت نزوح المحصول⁽⁶⁾.

واتبعت الخلافة سياسة دفع رواتب المقاتلين وعوائلهم نقداً، وعينا، وأرزاقاً إضافية على المقاتلين في كل سنة، وهناك إشارات إلى صرف كمية من الخبز لعدد من فرق الجيش العباسي، تعويضاً عن قلة الراتب-عهد الخليفة المنتصر بالله- كما كانت تخصص علوفة للحيوانات المخصصة للجيش، وجاءت عمليات تقديم المساعدات والإعانات للفلاحين بالنقود لشراء البذور، وحيوانات الحرثة واسترجاعها وقت الحصاد، وكذلك تقديم قروض مالية لفقراء الفلاحين، تشجيعاً لهم على زراعة المواد الأساسية كالحنطة والشعير، مما يعني استمرار الدعم في كل العهود⁽⁷⁾.

(1) أبو يوسف، المصدر السابق، ص114، 115

(2) نفسه

(3) أنظر: الجهشياري، المصدر السابق، ص288- ابن خلدون، المقدمة، ص179-181- الصابي، المصدر السابق، ص22

(4) أبو يوسف، المصدر السابق، ص109

(5) الطبري، تاريخه، ج10، ص255

(6) البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد، الآثار الباقية عن القرون الخالية، (د،ط)، لايبزك، 1923، ص31

(7) طه خضر عبید، سياسة الخلافة العباسية، ص(23-46)

وبعد أن تدهورت مالية الدولة في العصر العباسي الثاني، بسبب التدهور السياسي لجأت الدولة إلى ضرب دنانير رديئة، أشار المقرئزي⁽¹⁾ إلى ذلك بقوله: «فلما قتل المتوكل، تغلب الموالي من الأتراك، وتناثر سلك الخلافة، وبقيت الدولة العباسية في التراف، وقوى عامل كل جهة لي ما يليه، وكثرت النفقات، وقلت المجاي بتغلب الولاة على الأطراف، وحدثت بدع كثيرة... من جملتها غش النقود».

لجأت الدولة لحل المشاكل الاقتصادية إلى مصادرة أموال الخلفاء والوزراء والكتاب بعد خلعهم، لتوفير المال اللازم لها، بسبب ثرائهم غير المشروع والأمثلة عن ذلك كثيرة، فمن بين الأسباب التي جعلت الخليفة الرشيد ينكب بالبرامكة يقول المسعودي⁽²⁾: «فاحتازوا الأموال دونه، حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه»، وصادر الخليفة الواثق أموال وضياح أحمد بن الخصيب - كاتب أشناس التركي - وكان يلي أعمال الجزيرة، والشامات، ومصر، والمغرب بعد أن حاز أموالا عظيمة⁽³⁾.

من خلال هذا العرض السريع للإجراءات المتخذة من قبل الخلافة، لحل الأزمات الاقتصادية التي كانت تعصف بين الحينة والأخرى على اقتصادياتها، فمن المؤكد أنّها لا تخص عاصمة الخلافة فقط، بل الأقاليم التابعة لها بها فيها مناطق الثغور، التي أولتها الخلافة اهتماما زائدا عن باقي المناطق نظرا لخطورة الدور الذي أنيط بها طيلة هذه الفترة.

(1) كتاب النقود، مطبعة السعادة، (د،ط)، مصر، (د،ت)، ص50

(2) مروج الذهب، ج2، ص368

(3) اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص338

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج والتوصيات، التي يمكن تحديدها في النقاط الآتية:

- للثغور أهمية وشأن عظيمان، وهي من الأعمال الجليلة التي يختار لها من يشغلها بعناية، ومن أولى أولويات الأئمة ومن تصدر لقيادة الناس، بالإضافة إلى الأجر العظيم لمن رابط بها بنية الجهاد، وحرس ثغور المسلمين ضد الأعداء، فكيف لا يكون ذلك لمنطقة الثغور مكانة عظيمة في كونها تتربع على الأراضي المقدسة في بلاد الشام، فالأحاديث والآيات في فضائل البلاد والمرابطة بها كثيرة.

- صعوبة تحديد منطقة الثغور الإسلامية تحديدا دقيقا، وهذا ما يظهر لنا الاختلاف بين الجغرافيين والرحالة في تصنيف الحصون والمدن والقرى، وربما وقع الخلط بينهم في الكثير من المرات؛ حول ما إذا كانت من العواصم، أم من الثغور الجزرية أو الشامية، فتنسب أحيانا إلى هذه أو تلك، وذلك راجع إلى أهمية المنطقة في العصور الإسلامية الأولى.

- مدى اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، وعنايتهم بأمر حدود وثغور الدولة الإسلامية، لحمايتها والحفاظ عليها، بإقامة وسائل دفاعية متعددة؛ من تحصينات، ومنشآت عمرانية، وشحنها بالجند النظامي والمطوعة للمرابطة بها، وإقامة المسالخ، والمراصد، والقواعد العسكرية المتعددة، إضافة إلى خروج حملات الصوائف والشواتي كخطوة أخرى من التنظيمات العسكرية، حتى أصبحت الثغور بالإضافة إلى كونها مدنا عسكرية البناء والطابع، مجتمعات عسكرية ذات طابع خاص ومميز.

- أثرت مجموعة من العوامل في النشاط الاقتصادي بمنطقة الثغور؛ طبيعية، وإدارية، وأخرى سياسية، وعسكرية، وعوامل دينية، وحضارية، وثقافية.

- لم يكن اختيار المواقع الثغرية على أطراف بلاد المسلمين اختيارا عشوائيا، فقد حكمته ظروف كثيرة، لعب العامل الاقتصادي فيها دورا كبيرا، فعالية القلاع كانت تتمتع بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة مياهها من الأنهار أو الأمطار، وكان يعدّ بعضها مركزا تجاريا هاما، ومن المعلوم أن المسلمين، قد أقاموا هذه المدن، على أبواب الطرق المتحكمة في أماكن اقتراب العدو، مراعين في ذلك أن تكون بعيدة عن البحار، قريبة من الصحراء، محصنة بالأنهار، ومنعطفات الجبال، وغيرها من الموانع الطبيعية.

- لم تكن علاقات المسلمين بجيرانهم حروباً متصلة الحلقات، بل إنّ هذه الحروب نفسها كانت تستلزم اتصالات تتعلق بشؤون الحرب، من محاولة لإنهائها، أو الإبقاء على فترات السلم، أو تبادل الأسرى، فعلى الرغم من أن الدول تهتم كل الاهتمام بتنظيم جيوشها وأساطيلها، إلا أنّها مع ذلك لا تغفل جانباً من النشاط السياسي الذي يترتب على العناية به الاقتصاد في القوات العسكرية، كتبادل السفارات من أجل الهدنة أو الفداء.

- إذا كان للخلفاء الأمويين سياسة واضحة في الحفاظ على الثغور، وإنجازات عظيمة في المنطقة، وأنّ سياستهم ارتكزت على إرسال من يتولى حماية الثغور لفترة زمنية محدودة وهي فترة الغزوة، ثم تنتقل إلى مكان آخر، فإنّ هذه الظاهرة لم تستمر خلال العصر العباسي، حيث أنّ الإدارة العباسية قصدت من إرسال حاميات إلى تلك الثغور أن تجعلها تستوطن هناك بصفة دائمة، فاستبدل العباسيون سياسة تدمير الحصون وحرق المحاصيل، بسياسة إنشاء المعقل، والحصون ووضع الحاميات في مدن الثغور بل أخذوا يطورون ثغورهم لتكون حصوناً تؤدي دوراً دفاعياً في المقام الأول لحماية دولتهم، ولتكون قواعد تنطلق منها الصوائف والشواتي، وكانت هذه المدن التي أنشئت حديثاً، أو التي أعيد إنشاؤها في حاجة إلى توطين السكان والجند فيها.

- سارت الخلافة الإسلامية في جبهة الثغور والعواصم، على حدودها المواجهة للإمبراطورية البيزنطية على سياسة واضحة، استندت إلى الرد على تحديات الروم المتكررة، وذلك بتزويد المنطقة بالعناصر السكانية، وتشجيعهم على الاستقرار من خلال زيادة العطاء، وإقطاع الأراضي للجند، وزيادة حماسهم في الدفاع عنها، فكانوا يكرمون المقاتلين الذين يكلفون لمهمات، ويتم تمييزهم عن غيرهم بزيادة العطاء، ومنحهم القطائع ودور السكن، والملاحظ في هذه السياسة المنتهجة أنّها أصبحت بعد ذلك نمطاً في الأراضي المفتوحة، حيث لا يستقر الفتح الإسلامي إلا عندما يستوطن المسلمون الأراضي ويستقرون بها، فيتحولون من مجرد جند فاتحين إلى سكان مقيمين.

- وضع المسلمون نظاماً آخر لحرب الثغور، فكانت تخرج حملات سنوية إلى بلاد الروم عرفت بالصوائف والشواتي، وكانت متبادلة بين المسلمين والروم، ما جعل الحدود الشمالية في حركة مد

وجزر، وهي الحملات التي تخرج بانتظام سنويا، كالدوريات المنظمة فصلي الصيف والشتاء لسد الثغور، والتي استمرت من صدر الإسلام إلى أواخر الدولة العباسية.

- بعد أن اقتصر إسكان الثغور بالجند والمتطوعة بهدف تعميرها، لجأ الخلفاء إلى خطوة أخرى في سياستهم وهي تمصير الثغور، أي إسكانها بالمدينين، وذلك بعد أن تحولت من مناطق خالية إلى مدن آمنة نسبيا، لها حضارة خاصة بها، فانتقل الناس إليها وزرعوها، واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها، وأقاموا على الشواطئ يحرسونها، كما بنيت فيها المساجد، والمرافق، ونقل إليها العلماء لنشر العلوم الإسلامية، فجو الثغور وتطرفها، ساعد كثيرا على توفير الجو المناسب للزهاد والصالحين.

- إنَّ استراتيجية الخلفاء المسلمين البحرية كانت تقوم على عدة ركائز أساسية، بعضها دفاعي والآخر هجومي؛ كاحتلال الجزر القريبة من السواحل الإسلامية للتخلص من خطرها، وشحنها بالقوات الإسلامية التي تتولى أعمال الرصد، والإنذار، وعرقلة تقدم أسطول العدو، إذا ما وقع هجوم مفاجئ ريشما يتم تنبيه القوة الرئيسية، بالإضافة إلى إرسال قوات مؤقتة من المناطق الداخلية عند الحاجة، لتغادر بانتهاء الحاجة لوجودها، وجعل جنود المناطق الداخلية مستعدة لتقديم العون لها دائما، في حال تعرضها لعدوان خارجي، مع تشكيل نظام حراسة متطور جدا، يقوم على تناوب الحراسة بين الحاميات البحرية.

- إنَّ منطقة الثغور كانت بين مد وجزر بين الطرفين، والحدود غير ثابتة، قد تندفع باتجاه العمق البيزنطي، أو تنكمش إلى العمق الإسلامي، تبعا لقوة الطرفين أو ضعفهما، وهكذا كان الحال طول فترة الصراع، والرغبة في السيطرة على الثغور مرتبطة بطلب توسيع النفوذ والسيادة، بالإضافة إلى دفع الخطر عن العاصمتين المتقابلتين: بغداد والقسطنطينية.

- كانت مناطق الثغور ساحة للصدام المسلح بين الخلافة الأموية الآفة والدولة العباسية الصاعدة، وعلى أرضها كانت آخر المعارك العسكرية بين الطرفين، فكانت مناطق الثغور بيئة ملائمة ومواطن لثورات الطامعين في الخلافة والخارجين عنها، لبعدها عن مركز الخلافة وقربها من بلاد العدو، ولعداء

أهلها لبني العباس، فكانت مسرحاً لبعض تلك الصراعات، وعلى أرضها قامت المعارك لحسم تلك الخلافات والقضاء عليها.

- نظراً لقرب أهل الثغور من بلاد الروم والاحتكاك المتواصل معهم، فقد لعبوا دوراً مهماً في تتبع أخبار الروم والتلصص عليهم وجمع المعلومات عنهم، ومعرفة مواضع الخلل عندهم ونقاط ضعفهم، ولقد أدرك المسلمون الأوائل أهمية ذلك، فجعلوه شرطاً أساسياً لقبول الصلح مع أهالي تلك البلاد.

- لعب التجار الذين يترددون عبر مناطق الثغور ومنها إلى بلاد الروم، دوراً هاماً في نقل بعض أخبار الروم وتحركاتهم، فهؤلاء التجار لم تؤثر على عملهم الأوضاع السياسية والأمنية التي كانت تخيم على مناطق الثغور، وعلى طرق التحرك من وإلى الدولة البيزنطية، خاصة وأن طرق التجارة هي نفسها الطرق التي كانت تسلكها الحملات العسكرية أو الاستطلاعية.

- لعبت منطقة الثغور دوراً أمنياً آخر، في أنها استوعبت كل من يخشى منه إفساد حياة المسلمين في الحواضر المهمة، وكانت هدفاً لسياسة الإبعاد عن عاصمة الخلافة التي اتبعتها الخلفاء، كرد فعل على اشتراك بعض العناصر، أو الجماعات في الفتن والاضطرابات السياسية الداخلية، حيث يتم إبعادهم اتقاء لشهرهم، كما استخدمت لاستيعاب بعض المناوئين للدولة البيزنطية، ولجئهم إلى الدولة الإسلامية

- شكل المجتمع الثغري وحدة بكافة فئاتها وشرائحها المختلفة، أثرت وتأثرت بالأوضاع السياسية والاقتصادية للعاملين الإسلامي والبيزنطي، كان لها عاداتها وتقاليدها المميزة، حيث عاشت حياة اجتماعية أثرت فيها طبيعة المنطقة، ودورها العسكري بالأساس، فحياة السكان ارتبطت بالجهاد والاستعداد الدائم للحرب والنفير.

- شجعت جغرافية المنطقة وتنوع تضاريسها على اهتمام سكانها بالزراعة، ونظراً للخبرة الزراعية التي تمتعوا بها، والحيوية والنشاط التي عرف بها مزارعوها، فقد ساعد على إقامة زراعة في المنطقة حيث اعتبرت من أشهر الحرف، وشكلت مورداً آخر مهماً أسهم في زيادة وارداتها.

- إنَّ اهتمام الخلفاء بالزراعة، وعنايتهم بالأرض، وبإعمارها، وزراعتها، وإقامة مشاريع الري، وحفر الأنهار، والقنوات، وإقامة القناطر والجسور، واستصلاح الأراضي، ساهم في ازدهار الزراعة وزيادة العمل في هذا المجال، وإنتاج محاصيل زراعية متنوعة؛ من غذائية إلى صناعية، وأشجار مثمرة، ونباتات طبية، وورود استخدمت لأغراض صناعية، كانت المصدر الأساسي والرئيسي لمعيشتهم، وخففت عبء تلك المناطق عن كاهل الخلافة الإسلامية وبيت مال المسلمين إلى حد ما، كما أسهمت بدور مباشر في استمرارية حركة الجهاد في هذه المنطقة لمواجهة العدو، كما ساعدت في توفير المواد الأولية للصناعات المحلية.

- رغم اعتماد فقهاء المالية وعلمائها على مصادر التشريع الإسلامي في التنظير للسياسة المالية خلال فترة مرحلة الدراسة ورسم محدداتها، إلا أن العرف القبلي وبقايا الإرث الإداري والتجارب السابقة في النظم الضريبية كالخراج والجزية والعشور، حظيت بقوة إقناعية بررت استمرار الدولة في العمل بمجموعة من الاختيارات على أنَّها اجتهادات صائبة، وردت بشكل منسجم مع مبادئ التشريع الإسلامي.

- عدَّت المبادرات المالية التي أقدم عليها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في رسم سياسته المالية نقلا نوعيا في مجال تطوير النظام الضريبي وتنظيمه، لاسيما ما تعلق بالجزية والعشور وأحكام الأرض وتقدير الخراج، وأصبحت سنته مرجعية تاريخية، وركيزة فقهية لكثير من فقهاء وخلفاء الدولة الإسلامية.

- كان المسلمون ينظرون إلى الولايات الثغرية نظرة تخالف نظرهم إلى الولايات المدنية، فكانوا أميل إلى التساهل مع السكان في تلك النواحي طمعا إلى كسبهم، وأكثر كرما على الجنود المقيمين هناك على المقيمين في الولايات المدنية.

- لم تتجه القبائل العربية أول الأمر نحو تملك الأرض الزراعية، بسبب خلفيتهم الاجتماعية، وتوجيههم للجهاد، وانشغالهم بالفتوح، هذا إضافة إلى أنَّ وادهم من الغنائم لم يكن قليلا، ثم أنَّها لم تكن تجذب الزراعة والعمل في الأرض، أمَّا الرعي فمألوف لديها، على أنه يتفق مع البداوة، حتى أنَّ

الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نصح القبائل المهاجرة إلى الأرض المفتوحة أن يقتنوا الماشية، لأنّ العطاء وحده لا يكفي لمواجهة عوائل الزمن.

- اشتملت مدن الثغور على نشاط صناعي مميز، يرجع ازدهاره إلى مجموعة من العوامل منها: توفر المواد الخام اللازمة والتي تعج بها مدن الثغور، وكذلك الأيدي العاملة الماهرة نتيجة الاحتكاك المتواصل مع الروم، يضاف إلى ذلك اهتمام خلفاء الدولة الإسلامية بالصناعة وخاصة الحربية، وتوفر رؤوس الأموال، ونظرة المجتمع الثغري للعمل، واحتياجات الجيش والأسطول.

- اشتهرت مدن الثغور عامة بإنتاج الكثير من السلع الزراعية؛ من حبوب وفواكه وزيت، و سلع الصناعية؛ كالزجاج، والأخشاب، والمعادن، ومنسوجات، وصابون وغيرها.

- كانت كل الشرائح الاجتماعية في مناطق الثغور تعيش وتعمل في المدن، يشكلون مع رجال الدين والجنود عامة السكان، وكانت الحياة اليومية للجميع بكافة نشاطاتهم تسير وفق نمط واحد دون فروق، فكانت التنظيمات الحرفية تنظم نشاط الجميع، وكان شيوخ مختلف الأصناف الحرفية، والمسؤولين الذين تعينهم الحكومة للإشراف على الحياة الاقتصادية، يشكلون معا حكومة مدنية، فكل صغار التجار والحرفيين ينتظمون في أصناف منظمين تنظيمًا صارمًا، حيث نجد لكل حرفة أو صنعة سوقًا، أو محلة أو شارعًا خاصًا بها.

- إنّ التطورات التي حصلت في الحرف، اكتسبها تنظيمها العام، الذي يتجسد في تنظيم العلاقات داخل الصنف الواحد، وعلاقتها الخارجية مع الأصناف الأخرى أو مع الدولة، لذا أوجدت في جميع الأصناف الحرفية مجموعة من الأشخاص أوكلت إليهم أداء مهام كل حسب اختصاصه، وتتميز التنظيمات الحرفية عن التنظيمات الاجتماعية الأخرى، بتكوينها الهرمي المحكم، الذي يرأسه غالبًا شيخ منتخب من الأساتذة البارزين في الصنف، وتندرج مراتب الحرف من الأدنى إلى الأعلى.

- إذا كان الانتساب إلى الصنعة أو الحرفة أوسع انتشارًا في عهد الخلافة العباسية، فقد انتسب كثير من الأشخاص إلى الحرف والصناعات التي كانوا يمارسونها بفئاتهم المتعددة، وشرائحهم المختلفة، ومن

بينهم: العلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين والأدباء وغيرهم ممن يحضون بمكانة رفيعة في المجتمع، الأمر الذي يدل على احترام المجتمع لهاته الفئة.

- أوجدت الدولة جهازا خاصا للإشراف والرقابة على الأسواق، وعلى أصحاب الحرف والصناعات، أطلق عليه اسم الحسبة، يشرف عليه موظف خاص يدعى صاحب الحسبة أو المحتسب، أو صاحب السوق، وكان عليه أن يبحث عن أساليب الغش والتدليس التي كان يمارسها أهل الحرف والصناعات، ووظيفته إدارية ذات سلطة قضائية، تتوسط بين القضاء والمظالم، وعرفت خطته باسم ولاية السوق أو أحكام السوق، ثم أصبح يقال لها ولاية الحسبة، وأحيانا خطة الاحتساب.

- نشطت التجارة واتسعت في مناطق الثغور، نتيجة لتطور الإنتاج الزراعي والصناعي وظهور فائض في الإنتاج، مع وجود الأسواق وانتشارها، فالمنطقة تتسم بموقع حساس على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب عموما، وعلى طريق التجارة المحلية بين العراق وبلاد الشام، وآسيا الصغرى، ومصر وغيرها، وقد ارتبطت هذه الجهات بشبكة من المسالك والطرق والدروب التي تسلكها في الغالب الحملات العسكرية والصوائف، والتي يسرت سبل الاتصال حولها، وهيأت لها دورا تجاريا كبيرا.

- إن الوضع الجغرافي لإقليم شمال الشام والجزيرة حيث تتواجد الثغور، ذو تأثير إيجابي في النشاط التجاري سواء كان داخليا أو خارجيا، خاصة أنّ الثغور تقع في موقع متميز كحلقة وصل بين الطرق التجارية، حيث تتلقى طرق القوافل القادمة من الشرق إلى الهند وآسيا الصغرى، والقادمة من الشمال من الدولة البيزنطية، والقوافل الساحلية الآتية فيما بعد من المدن الإيطالية، وفي اتجاه آخر كان لها اتصال بالقوافل الآتية عن طريق شبه الجزيرة العربية ومن مصر والعراق، ولعل إقليم الشام كله خلال العصور الوسطى كان له تأثير في حركة التجارة ونشاطها.

- تعد المنشآت التجارية أساسا تنظيميا للحركة التجارية، وبقدر استكمال ذلك الأساس يتحدد مدى الازدهار التجاري، فالأسواق، والوكالات، والخانات، والقياسر، والفنادق من المنشآت التجارية التي قامت على أساس تنظيمي للحركة التجارية، تنوعت خدماتها إلى جانب قيامها بمهمة السوق من بيع وشراء، فهي تقوم بمهمة النزول، ودور الإقامة للتجار الوافدين، وحيث كانت تحتوي على مخازن

لحفظ متاجرهم وأموالهم، وتؤدي خدماتها للتجارة العابرة: من تفرغ، وتحميل، وتخزين، وغير ذلك، ومن مزاياها أنها تقوم بمهمة البيع بالجملة إلى جانب البيع بالتجزئة، وعادة يبنى فوق هذه المؤسسات مساكن تؤجر للتجار.

- بالرغم من أن معظم تلك المنشآت قد شاع استخدامها في فترات لاحقة لفترة الدراسة كالفندق، والقيسارية، والوكالة، والفندق، والخان، إلا أنه ما يمكن القول أن معظم مؤرخي العصور الوسطى لم يجدوا بينها فروقا واضحة، ولاحظوا أنها تتشابه من حيث هندستها المعمارية، ووظيفتها.

- لعبت الأسواق دورا كبيرا في المنطقة، سواء اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا، فكانت مركز للبيع والشراء، وبها تعقد الصفقات وتقر حالة البلاد الاقتصادية، فهي تعد ميدانا لتصريف الإنتاج الزراعي والحيواني، كما أثرت في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية أين يلتقي المسلمون مع غيرهم فيتعارفون، وفيها اختلطت عناصر السكان المختلفة.

- ازدهرت العديد من المراكز التجارية في مناطق الثغور وأصبحت نموذجا لمراكز التبادل التجاري، وأهمها: حلب، بالس، ومنبج، أنطاكية، مرعش، ملطية، طرسوس، الرقة، طرابزون، القسطنطينية، خرسيون، وكذلك الجزر المنتشرة في بحر الشام، وأهمها: قبرص، اقریطش، صقلية.

- كانت مدن الثغور مليئة بالتجارات، يصب فيها كل ما كان يصدر من بلاد الشام، والعراق، ومصر، والحجاز، والهند، والصين، وأرمينية، وبلاد الروم، والفرنجة، والأندلس، ولعل أبرز التجارات الداخلة لبلاد الشام وتحديدًا الثغور هي تجارة الرقيق لما شهدته المنطقة من عمليات فداء، وتجارة المنسوجات، والأقمشة المطرزة، والبخور، والطيب، والنباتات، والأعشاب، والمعادن، والقطن، والعسل، والجبين، والحريز، والكتان، والأنعام، والماء، كما جلب التجار إلى المنطقة التمور من العراق، والسّمك والبغال من أرمينية.

- بنفس الطرق التجارية البرية والبحرية التي ترد عن طريقها السلع التجارية لمدن الثغور، خرجت القوافل المحملة بالبضائع المختلفة إلى نواح كثيرة من الدولة الإسلامية بل وخارج حدودها، اتجهت نحو الغرب قاصدة مصر وبلاد المغرب والأندلس، وقوافل أخرى اتجهت جنوبا نحو العراق ومنه إلى الهند

والصين والشرق الأقصى، وثالثة إلى الشمال نحو طرابزون وخرسيون، وربما توغلت إلى الغرب نحو إيطاليا وفرنسا.

- انقسمت موارد بيت المال في النظام الإسلامي إلى قسمين، القسم الأول عبارة عن إيرادات اعتيادية؛ وتشمل الموارد الرئيسية: كالحراج والجزية، والموارد الشرعية: كالزكاة والعشور والمكوس، أمّا القسم الثاني فهي الإيرادات المتغيرة كالغنائم، والصدقات والموارد الاقتصادية من زراعة، وصناعة، وتجارة، بالإضافة إلى الرسوم والضرائب الإضافية؛ وهي تشمل أموال المصادرات، والهبات، والهدايا وغيرها.

- تعددت وتنوعت النفقات بمناطق الثغور بين: عطايا للجند، وأرزاق للمقاتلة، وصلات عسكرية، وإقامة الثغور وتأمينها، وتشبيد الحصون، ونفقات تموين الجيوش والحملات العسكرية، وتبادل الأسرى، بالإضافة إلى نفقات إقامة الجسور، والقناطر، وبناء المدن والمنشآت التي تحتاجها تلك المناطق، وكراء الأنهار، وحفر الترغ وإصلاحها وغير ذلك.

- لم تكن رواتب جند الثغور مثل رواتب جند الخلافة، نظراً لأهمّهم في حالة حرب أو استنفار على الدوام، وكذلك لخطورة المهمة التي أنيطت بهم، ولبعدهم عن ديارهم، وتعرضهم لرد غارات الأعداء من حين لآخر، ولقيامهم بحملات الصوائف والشواتي، فكانت مرتبات المرابطين ضعف مرتبات جنود الجيش أو تزيد، بالإضافة إلى التمتع بميزات أخرى؛ كالإسكان والإطعام والملابس، فكانت الخلافة تتولى الإنفاق على المرافق العامة؛ كالطرق، والمزارع، والمؤن، والأمن، إلى جانب متطلبات الجند.

- بالإضافة إلى الأعطيات السنوية الثابتة، كان على الحكام أن يدفعوا للجند من حين لآخر مبالغ إضافية عند قيامهم بمهام خاصة، وصلات على نوعين: نقدية وعينية، تشمل إقطاع كبار القادة العسكريين الأراضي بمناطق الثغور للسكن أو الزراعة، مكافأة لهم على ما يقدمونه من خدمات جليلة للدولة، ولم تكن بدل الرواتب بل هي امتيازات ومنح إضافية، أمّا المنح النقدية فقد منحها الخلفاء للقادة والجنود عند رجوعهم من معركة كللت بالنجاح، أو لمناسبة سعيدة.

- عكست كثرة النفقات على مناطق الثغور مدى اهتمام الدولة الإسلامية بها، وما تتطلبه كونها متاخمة للحدود، فكان من الطبيعي أن يكون للجانب العسكري الحيز الأكبر منها، وذلك حرصاً على سلامة مناطق الثغور، وعلى إبقائها جاهزة في كل الأوقات، فكان دخلها لا يمكن أن يقارن بمقادير الإنفاق الطائلة التي تصرف عليها، وكانت رؤوس أموالها تخصص لها من قبل الخليفة، أو السلطان، أو أولي الأمر، وما كان يبعثه المحسنون، بالإضافة إلى ما كان يتأتى لها من إمكانياتها الخاصة والغنائم.

- أولت الخلافة رغبة جادة في استعادة جنودها ورعاياها ممن يقعون تحت الأسر، فخصصت لذلك أرصدة مالية معتبرة لافتداء أسراها وإعادةهم سالمين، أو استبدالهم بآخرين من جيش العدو كانوا قد وقعوا أسرى لدى المسلمين، لأنّ بقاءهم يشكل عبئاً مالياً على خزينة الدولة، لما يتطلبه ذلك من نفقات كبيرة في الأكل والملبس والمأوى.

- منحت الدولة إعطيات للجواسيس الذين كانوا يعملون كعيون للمسلمين في مناطق الثغور، وكذلك لفئة الأدلاء التي ترصد لهم حصة معلومة من أعشار الغلال في المنطقة، بحسب ما يراه السلطان كما كانت الأعطيات تمنح للذين يساعدون المسلمين، مقابل عملهم كأدلاء للجيش الإسلامية الغازية لبلاد الروم.

- حتمت الظروف السياسية والعسكرية على المسلمين، وضع تعديلات تخص النظم المالية، خاصة مع استمرار العلاقات الحربية مع الدولة البيزنطية، فمع الاستقرار السياسي يأتي الرخاء الاقتصادي، إذ لا يأتي الرخاء إذا كان المسلمون يتعاملون بالعملة الأجنبية، فالعملة هي وسيلة للإعلان عن سيادة الدولة، فضلاً عن أنّها إعلاناً لشرعية حكم الخليفة.

- أثرت الاضطرابات السياسية والفتن والحروب المتواصلة، وعمليات السلب والنهب، والفساد الإداري والمالي، وكثرة البذخ والترف على الجانب الاقتصادي، فأرهقت مالية الدولة بمبالغ تؤدي في الكثير من المرات إلى الإفلاس.

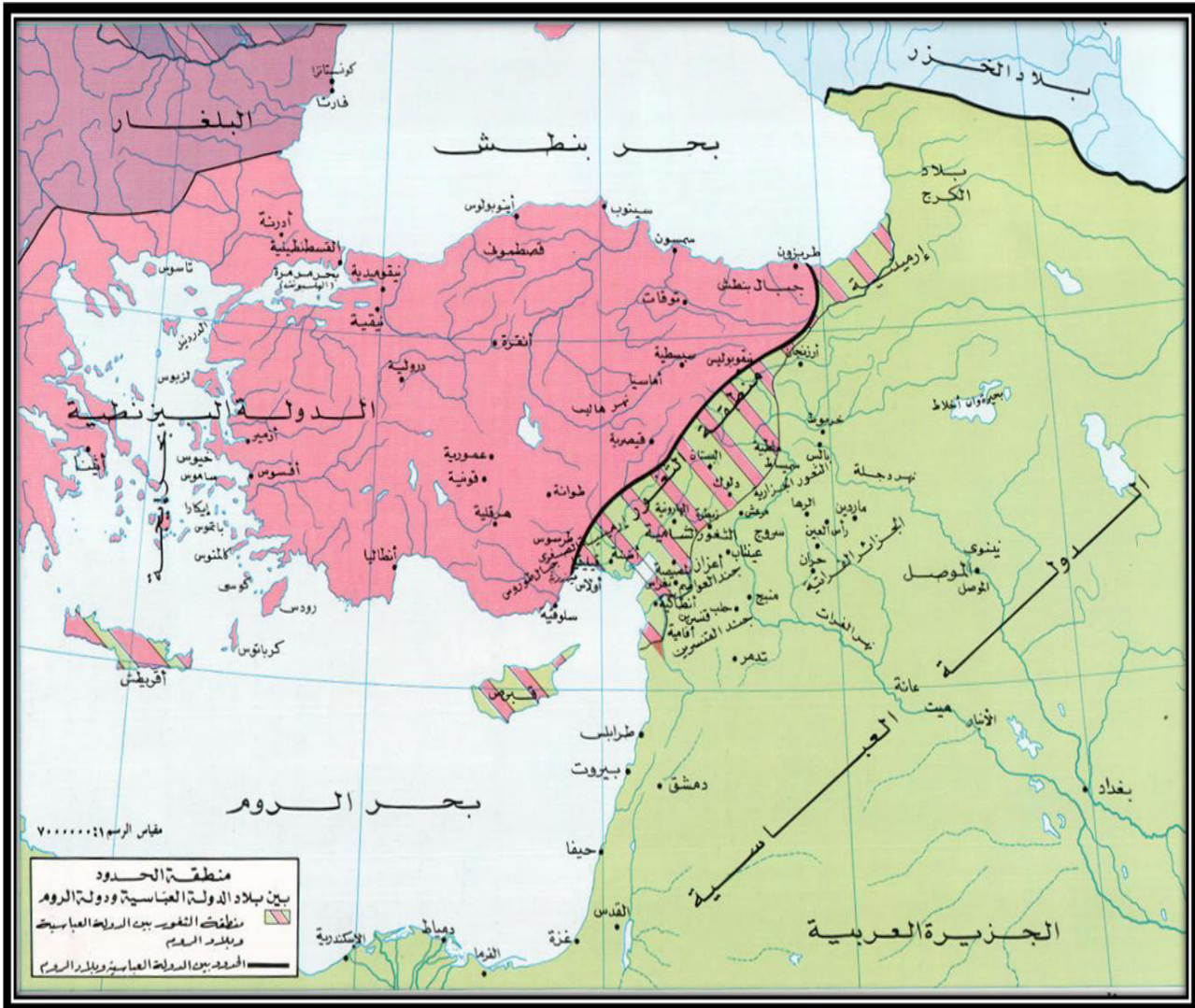
- إنَّ خزن المواد الغذائية وعدم بيعها من العوامل التي تؤثر على الأسعار فترتفع، كما أنَّ طول مدة الحصار وشدة البلاء يؤديان إلى نفاذ القوت وارتفاع ثمنه، كما يقترن بحدوث الكوارث، حدوث أزمات اقتصادية كثيرة تسبب ارتفاعا في الأسعار بسبب نقص المواد الغذائية، تصاحبه موجة من الأوبئة، فتلحق خسائر بشرية، كالجفاف وحدوث المجاعات، وكثرة الأمطار، أو تذبذبا، أو تراكم الثلوج على المحاصيل وتلفها، أو حدوث الصقيع والبرد، وكذلك الآفات الزراعية التي تصيب المحاصيل، وتؤثر في نوعية المحصول وكميته وسعره، وكذلك زحف الجراد وأكله للأخضر واليابس، أو بسبب الرياح السوموم، والتي ترافقها حرائق، أو وقوع الزلازل، أو الطاعون مما ينعكس أثره على الأسعار .

- وعليه فقيمة المنطقة في تلك الفترة، لم تكن قيمة اقتصادية كبيرة، ذاك أن نفقات الثغور كانت عبئا على كاهل المال المركزي، إذ أن دخلها القليل لا يمكن أن يقارن بمقادير الإنفاق الطائلة التي تصرف عليها، ولكنها قيمة سياسية ودينية معا، تتصل بأمر الجهاد والرغبة في الاستشهاد، كيف لا وهي تستعد لمواجهة العدو في أي لحظة.

- فالثغور الإسلامية كانت مركزا زاخرا بصور النشاط الحربي، سواء في بناء التحصينات والمعسكرات، أو تنظيم الجيوش، أو في تحركات الأساطيل، وقد واجه المسلمون أعباء حماية حدودهم، في عهد قوتهم بدأب ومقدرة، واستفادوا من السوابق التي تقدمت بين أيديهم ومن تجاربهم التي مارسوها، فكانت منطقة الثغور جبهة دائمة للجهاد المقدس، وغدت مجالا طيبا لنضوج كثير من النظم الحربية الإسلامية.

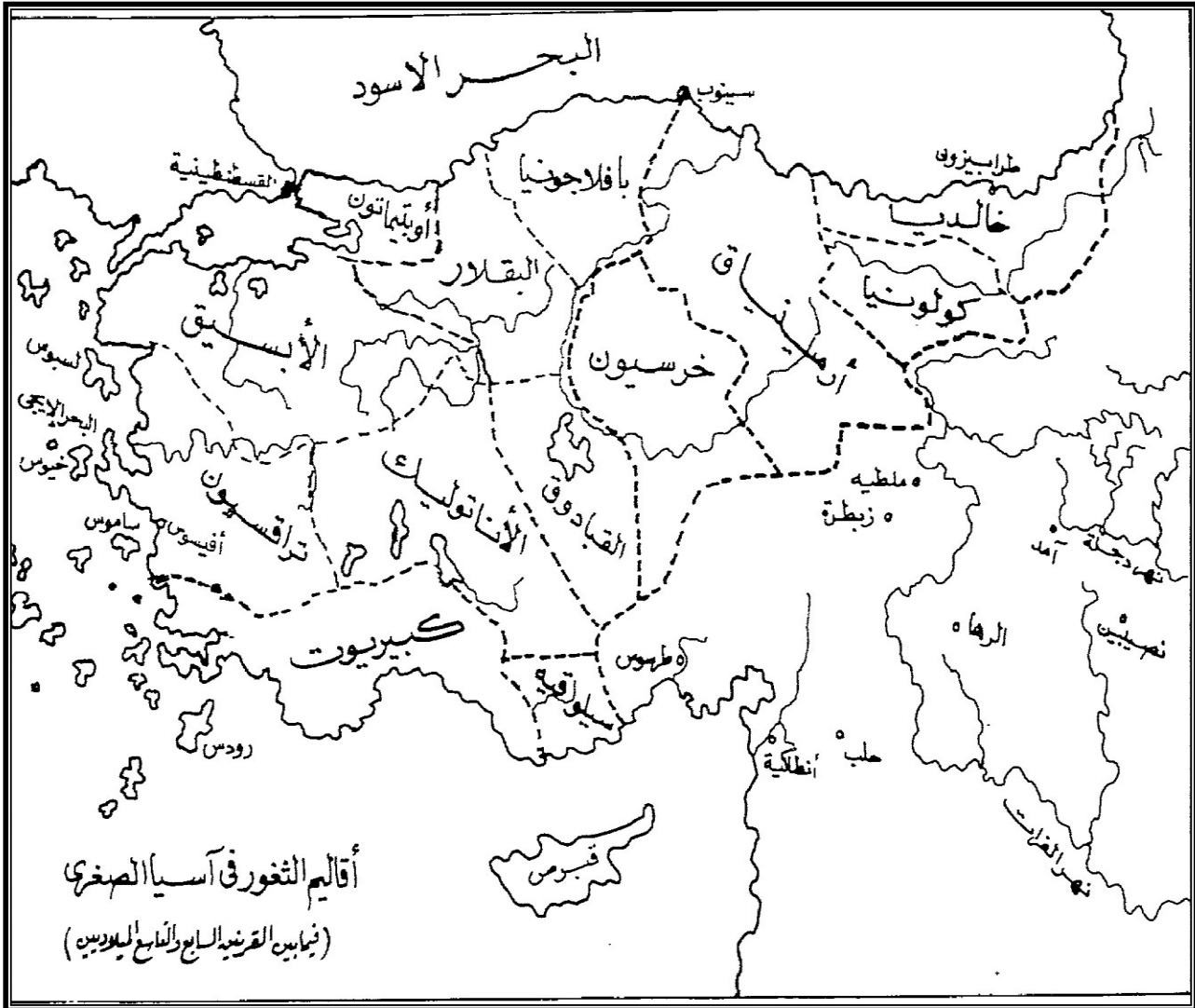
الملاحق

ملحق رقم 1: خريطة الشغور الإسلامية (1)



(1) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الاسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة، 1987، ص150

ملحق رقم 2: خريطة الـثيمات البيزنطية⁽¹⁾



(1) حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، (د،ط)، القاهرة، 1983، ص 74

ملحق رقم 3: خريطة بلاد الجزيرة⁽¹⁾



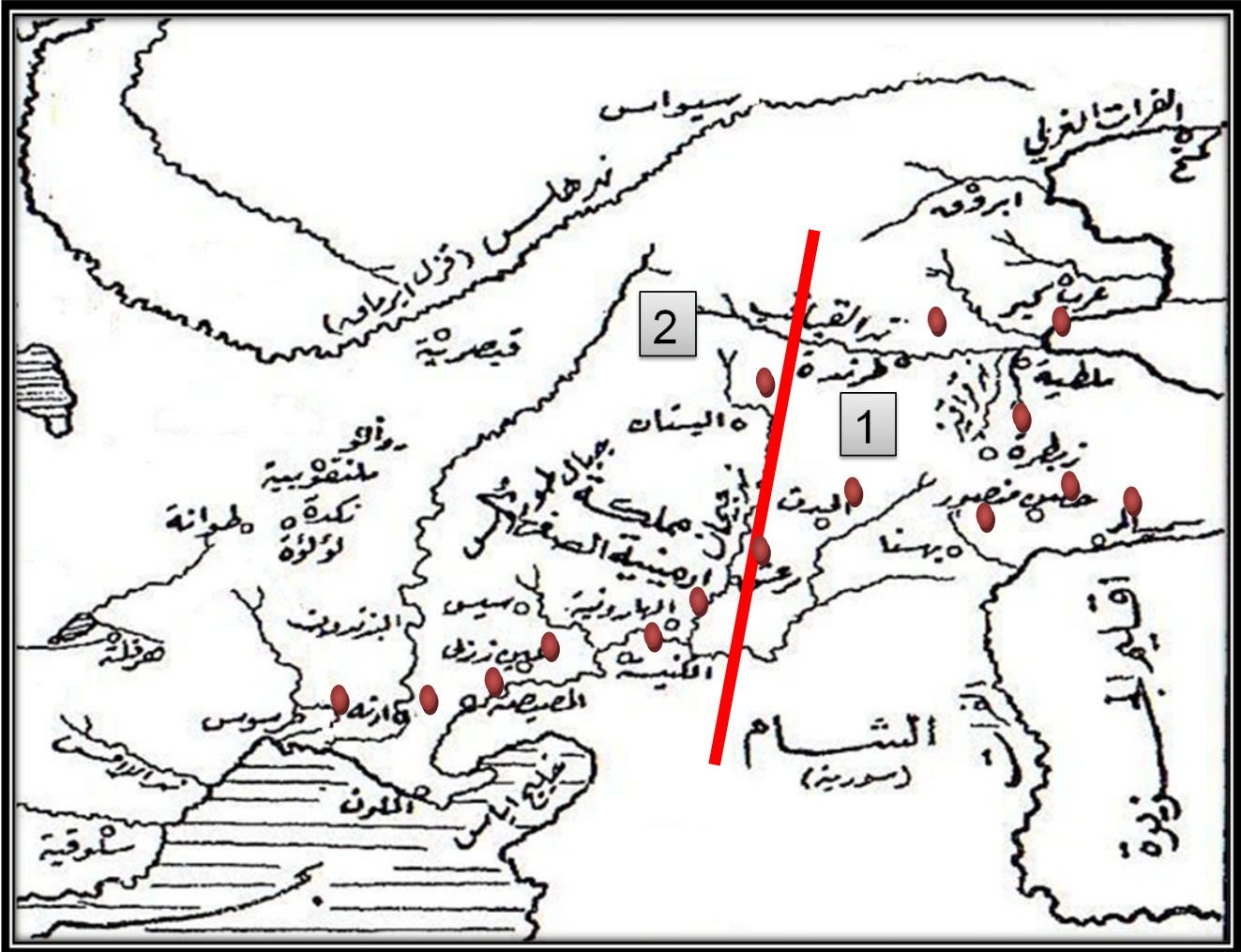
(1) من موقع ويكيبيديا

ملحق رقم 4: خريطة الثغور البرية⁽¹⁾



(1) نقلا عن موقع وكيبيديا

ملحق رقم 5: خريطة توضح ثغور الشام والجزيرة والحد الفاصل بينهما -إنجاز خاص-



مفتاح الخريطة	
منطقة الثغور الجزرية	1
منطقة الثغور الشامية	2
الحد الفاصل بين المنطقتين	—
مدن الثغور	●

ملحق رقم 6: خريطة الثغور البحرية⁽¹⁾



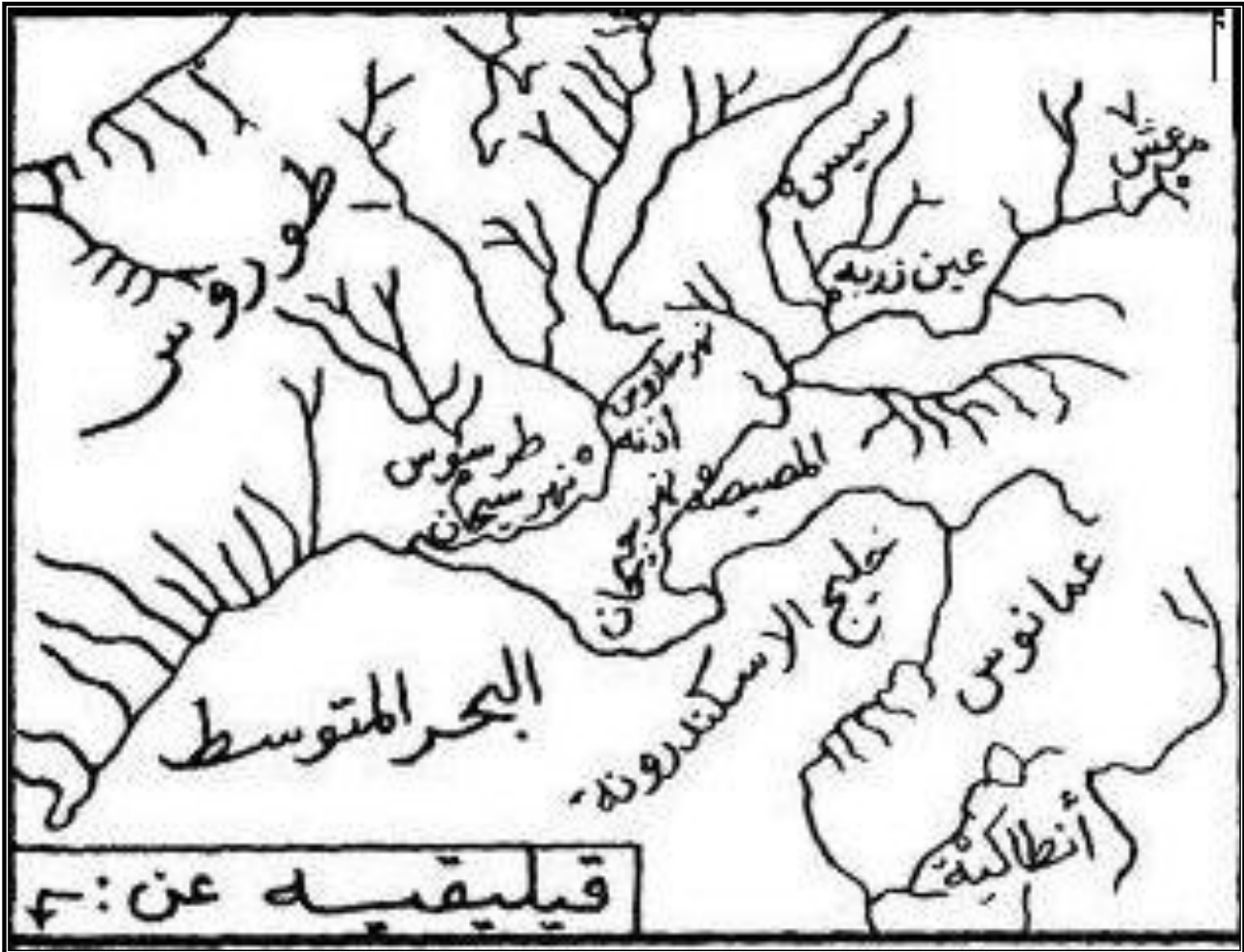
(1) نقلا عن موسوعة المعرفة

ملحق رقم 7: خريطة تبين موقع جبال اللكام⁽¹⁾



(1) نقلا عن مسوعة الآثار في سوريا

ملحق رقم 8: خريطة قيليقية⁽¹⁾



(1) J-Morgan, *Histoire de peuple Arménien*, p32

ملحق رقم 9: كتاب توفيل إلى المأمون ورده عليه⁽¹⁾

وفيها كتب توفيل صاحب الروم الى المأمون يسأله الصلح، وبدأ بنفسه في كتابه. وقدمه بالكتاب الفصل وزير توفيل يطلب الصلح، وعرض الفدية.

وكانت نسخة كتاب توفيل الى المأمون :

أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما، ولست حريا أن تدع لحظ يصل الى غيرك حظا تحوزه الى نفسك، وفي علمك كاف عن اخبارك، وقد كنت كتبت اليك داعيا الى المسالمة، راغبا في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لك واحد وليا وحزبا، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر، وفك المسنأسر، وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت فلا ادب لك في الخمر، ولازخرف لك في القول، فاني لخائض اليك غمارها، آخذ عليك اسدادها، شأن خيلها ورجالها وان أفعل فبعد أن قدمت المعذرة، وأقمت بيني وبينك علم الحجة. والسلام.

فكتب اليه المأمون :

أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت اليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة، مما استعطفت به، من شرح المتاجر واتصال المرافق، وفك الاسارى، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعت اليه من أعمال التؤدة والاحذ بالحظ في تقليب الفكرة، والا اعتقد الرأي في مستقبله الا في استصلاح ما أوتره في معتقبيه، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثلكم ويتقربون الى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله مانالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل اليهم من الامداد، وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد، هم أظما له. موارد المنايا منكم الى السلامة من مخف معتهم عليكم، موعدهم احدى الحسينيين : عاجل غلبة، أو كريم منقلب، غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، من الدعاء لك ولمن معك الى الوجدانية والشريعة الحنيفية، فان أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نظرة . وان تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعودنا ما يغنى عن الابلاغ في القول والاعراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى.

(1) الطبري، تاريخ، ج8، ص629

ملحق رقم 10: أجرة السفير العباسي⁽¹⁾

جاء في سيرة المعتمد بالله انه وجه رسولا إلى ملك الروم. فلما اجتمع الرسول بالملك ورأى الملك هيبة الرسول. وكثرة تجمله. وما صحبه من الرحل والالات التي لا يكون مثلها الا لعظماء الملوك قال له : كم ترزق من مال سلطانك؟ قال : ارتزق أنا وولدي في كل شهر عشرين ألف درهم أو نحوها. قال : فتحت فتحا، قط. كان السلطان به معنيا؟ قال الرسول : لا قال الملك : نازلت رجلا مشهورا بالفروسية من اعداء سلطانك فقتلته مجاولة. قال الرسول: فاستنقذت خليفة أو ولي عهد وقد لجج في مضيق أو معركة لم يظن الخلاص منها. فوجد باقدامك وقد احجم نظراؤك فرجه؟ قال الرسول : لا . قال الملك : فبأي شيء تستحق هذا الرزق الكثير؟ قال الرسول للملك : ان للخلفاء خدما يتصرفون في انحاء الخدم. لك طائفة مذهب يجتنبون له ويحتملون عليه. لا يكلفون سواه. ولا يراد منهم غيره. فمنهم من يعد للفتوح فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش . ومنهم من يعد للقضاء فهو يلبس المبردات والدنيات. ومنهم مثلى من يصلح ان توفده الخلفاء للملوك. ويتحمل رسالهم الى مثلك من اهل الجلالة والقدر. والسناء والذكر. فلولا ثقتهم بي. وعلمهم بمناصحتي وصدقي فيما اورد واودى. صادرا وواردا. لما راوني أهلا للتوجه فيما توجهت فيه اليك. وقليل لمثلى هذا الرزق مع هذا التحمل ومع (هذا) المحل من الخلفة. وهي من الجلالة على ماهي. فسكت سكوت معترف ولم يقل في ذلك شيئا

(1) ابن الفراء أبو يعلى محمد بن الحسين، رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تح: صلاح الدين المنجد، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، 1947، ص32

ملحق رقم 11: الصوائف والشواتي في العصر العباسي - انجاز خاص -

المصدر	الخليفة	مكانها	نوعها		قائدها	سنة الحملة
			شائية	صائفة		
ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 71	السفاح	ملطية طوانة		X X	صالح وعيسى بن علي محمد بن النصر	134هـ/751م
الطبري، تاريخ، ج 7، ص 497	المنصور	ملطية		X	العباس بن محمد وصالح بن علي	138هـ/755م
نفسه، ج 8، ص 43	المنصور	-		X	معيوف بن يحيى الجحوري ⁽¹⁾	153هـ/770م
ابن خياط، المصدر السابق، ص 429	المنصور	درب الحدث		X	معيوف بن يحيى	158هـ/774م
الطبري، تاريخ، ج 8، ص 116	المهدي	-		X	العباس بن محمد	159هـ/775م
ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 226	//	دابق		X	ثمامة بن الوليد ⁽²⁾	161هـ/777م
الطبري، تاريخ، ج 8، ص 152	المهدي	بلاد الروم		X	هارون الرشيد	165هـ/781م
ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص 257 الطبري، تاريخ، ج 5، ص 204	//	الحدث درب الراهب		X	معيوف بن يحيى //	169هـ/785م
نفسه، ج 8/ 234	//	أرض الروم		X	سليمان بن عبد الله البكائي ⁽³⁾	170هـ/786م

(1) معيوف بن يحيى: هو حميد بن معيوف بن يحيى الجحوري الدمشقي، ولي غزو البحر أيام بني العباس، له ذكر في الصوائف، أنظر: ابن عساکر، تاريخ دمشق، ج 15، ص 304

(2) ثمامة بن الوليد: هو أبو معن النميري البصري المتكلم، من رؤوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن، كان ندبما ظريفا، اتصل بالرشيد ثم بالمأمون، روى عنه تلميذه الجاحظ، أنظر: الذهبي، السير، ج 10، ص 204، 205

(3) سليمان بن عبد الله البكائي: هو الشيخ الحافظ المحدث، أبو محمد زياد بن عبد الله بن الطفيل، العامري البكائي الكوفي، راوي السيرة النبوية عن ابن إسحاق، توفي سنة 183هـ/799م، أنظر: الذهبي، سير، ج 9، ص 5-7

ابن خياط، المصدر السابق، ص448	الرشيدي	//		X	سليمان بن عبد الله الأصم	787هـ/م
//	//	مرج القلعة نهر جيحان	X		إسحاق بن سليمان بن علي ⁽¹⁾ زفر بن عاصم الهلالي ⁽²⁾	788هـ/م
ابن خياط، المصدر السابق، ص449	//	أرض الروم		X	عبد الملك بن صالح ⁽³⁾	789هـ/م
نفسه، ص449	//	عقبة السير		X	عبد الملك بن صالح	790هـ/م
الذهبي، تاريخ الإسلام، ج1، ص136	//	أرض الروم	X		عبد الرحمن بن عبد الملك ⁽⁴⁾	791هـ/م
السيوطي، المصدر السابق، ص267	//	أرض الروم		X	عبد الرحمن بن عبد الملك	792هـ/م
ابن الجوزي، المنتظم، ج9، ص29	//	ملطية		X	عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلي ⁽⁵⁾	793هـ/م
ابن خياط، المصدر السابق، ص		الصفصاف		X	عبد الله بن صالح بن علي	

- (1) إسحاق بن سليمان بن علي (ت بعد 178هـ/794م): هو إسحاق بن سليمان بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، من أمراء الدولة العباسية، وُلِّي إمرة المدينة سنة 170هـ/786م للرشيدي، ثم ولي السند ومُكران سنة 174هـ/790م، وولي الإمارة في مصر سنة 177هـ/793م لسنة وأيام وانصرف عنها، فتوجه إلى الرشيدي، أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص295
- (2) زفر بن عاصم الهلالي: أحد القادة الشجعان، قاد عدداً من الصوائف، كما تولى عدداً من الولايات، مثل حلب سنة 137هـ/754م، والمدينة سنة 160هـ/776م، والجزيرة سنة 163هـ/779م، أنظر: الطبري، تاريخ، ج7، ص475
- (3) عبد الملك بن صالح: من رجال بني هاشم، ذا نباهة وجمالة وظهور في أمره كله، حتى أنّ الرشيدي يخافه على الخلافة، وسجنه على ذلك، أنظر: أبي القاسم عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمي، كمامة الزهر وصدفة الدرر، تحقيق: التيجاني سعيد محمود دار الكتب العلمية، (د، ط)، بيروت، 1971، ص287
- (4) عبد الرحمان بن عبد الملك: كان خيراً فاضلاً، صاحب سُنَّة، توفي سنة 181هـ/797م في خلافة هارون، وقد صلى على سفيان الثوري بالبصرة، انظر: ابن سعد، المصدر السابق، ج6، ص362
- (5) عبد الرزاق بن عبد الحميد التغلي: لم أجد له ترجمة

450		الطوانة		X	يسار بن صقلاب ⁽¹⁾	
//		ملطية	X		سليمان بن راشد الثقفي ⁽²⁾	
//						
ابن الجوزي، المصدر السابق، ج9، ص36	//	أرض الروم	X	X	معاوية بن زفر ⁽³⁾	178هـ/794م
			X		سليمان الثقفي	
نفسه، ص67	//	شمال أرض الروم		X	عبد المالك بن صالح	181هـ/797م
ابن خلدون، العبر، ج3، ص225	//	أرض الروم		X	عبد الرحمان بن عبد الملك	182هـ/789م
اليعقوبي، تاريخه، ج2، ص423	//	حصن قرّة حصن		X	القاسم بن الرشيد العباس بن جعفر	187هـ/802م
الطبري، تاريخ، ج8، ص313	//	ناحية الصفصاف		X	إبراهيم بن جبريل ⁽⁴⁾	188هـ/805م
نفسه، ص320	//	الساحل		X	حميد بن معيوف الهمداني ⁽⁵⁾	190هـ/805م

(1) يسار بن صقلاب: ويذكر سقلاب، أحد الجنود الأكفاء الذين بعثهم الرشيد إلى البيزنطيين، وفتح على يديه عدة مدن:

كالمصيصة، والصفصاف، وطوانة سنة 177هـ/793م، أنظر: ابن خياط، تاريخ، ص450

(2) سليمان بن راشد الثقفي: لم أجد له ترجمة

(3) معاوية بن زفر: هو العباس بن زفر الهلالي من قبيلة القيسية، والده واخوته من قادة بني العباس، كان من أبرز جلساء الرشيد،

استعمله والي الرشيد عبد المالك بن صالح على الشام عاملا على الثغور سنة 171هـ/793م، أنظر: ابن عساکر، تاريخ دمشق، ج19، ص40

(4) إبراهيم بن جبريل: من القادة الأفاضل، خرج مع الفضل بن يحيى البرمكي إلى خراسان سنة 178هـ/794م وهو كاره، ولي

أمر سجستان سنة 178هـ/794م، فتح كابل وغنم غنائم كثيرة في نفس السنة، ولاه الرشيد أمر الصائفة سنة 188هـ/803م ونصره الله على الروم، أنظر: الطبري، تاريخ، ج8، ص258

(5) حميد بن معيوف الهمداني: من أهل دمشق ولي غزو البحر سنة 158هـ/774م فقتل وسي، كنيته أبو حميد، أنظر: محمد

بن عبد الله بن نصير الدين، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، مؤسسة الرسالة، 1993، ج8، ص123

ابن كثير، ج10، ص211	//	قبرص		X	معيوف بن يحيى	//
ابن كثير، ج10، ص211	الرشيد	أرض الروم		X	ثابت بن نصر ⁽¹⁾	م807/هـ192
ابن خلدون، تاريخ، ج3، ص340	الوائق	//	X		أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلي ⁽²⁾	م846/هـ231

(1) ثابت بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي، أخو أحمد بن نصر الشهيد، كان يتولى إمارة الثغور، ويذكر عنه فضل وصلاح،

أنظر: الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج8، ص15

(2) لم أجد له ترجمة

ملحق رقم 12: نص سجلّ بولاية الحسبة في عهد الدولة الأيوبية، من إنشاء القاضي الفاضل، وفيه

تلخيصا وافيا بجميع واجبات الحسبة والشروط التي يجب أن تتوفر في المحتسب⁽¹⁾:

« من شكرت خلائقه، وتهدبت طرائقه، وأمنت فيما يتولاه بوائقه، ونيطت بعري الصواب علائقه، وفرجت بسداده مسالك الإشكال ومضايقه، واستحوى من الأمانة قرينا في التصرفات يرافقه ولا يفارقه، ونهض الى الاستحقاق ولم نَعَقُه دونه عوائقه، وأثنى عليه لسان الاختبار وهو صحيح القول صادقه، واستوجب أن يخص من كل قول بأجمله، وأن يعان على نيل رجائه وبلوغ أمله، وأن يقتدح زُند نيته ليُرى نور عمله، وتُيسّر الى النجاح متوعرات طرقه ومشكلات سبله، وأن يقابل جريانه في الولاية قبّله، ويورد من موارد النجاح ما يتكفل له بالري من غلله، ويوسم من مياسم الاضطناع ما يكون حيلة أوصاله ويشنّف سداد خلاله في سد خلله

ولما كنت أيها الشيخ المشتمل على ما تقدم ذكره، المستكمل من الوصف ما يجب شكره، الآوى الى حرز من الصيانة حريز، المستغني بغنائه عن الاستظهار بعزوة العزيز، المستوجب إلى أن بعد من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز، المستوعب من الخلال الجميلة مالا يقتضيه القول الوجيز، المخرّج من قضايا الدنيا بما يستبيح محرّمها ولا يستجيز، الممدّح في خدم كلها أخلصته خلاص الذهب الإبريز، وكانت له مضمرا تشهد له أفعاله بالسبق والتبريز، المتوسل بأمانة عز بها جنباه عن الشهة ووجدانها في الناس عزيز 'تقدم فتى مولانا السيّد الأجل باستخدامك على الحسبة بمدينة كذا، فباشر أمرها مباشرة من يبذل في التقوى جهدا، فلا يرى غيرها على ظما وِردا، ولا يراه الله حيث نهاه، ولا يأمره أبداً بتهاه الا نهاه، طباع الناس على طهارة طبعه ولا يرى ما كشفته الا وهو عالم أنّ الله يراه، وانته فيها الى ما ينتهى إليه من بذل غاية وسعه، ومن لا يرتد عن جر ركبته من عموم نفعه، ومن يذلُّ بتهذيب طباع الناس على طهارة طبعه، ومن يستجزل حسن صنيع الله لديه بحسن صنعه، ومن يستدعى منه بذل فضله بحظر ما أمر بحظره ومنعه، واسلك فيما تستعمله من أمرها المذهب القصد والمنهج الأقوم، واجتهد فيها اجتهاد معتصم بجبل التقوى المتين وسببها المبرم، وامنع أن يخلو جل بامرأة ليست بذات محرّم، واستوضح أحوال المطاعم والمشارب، وقوم كل من يخرج في شيء منها عن

(1) الشيزري، المصدر السابق، ص 123، 124

السنن الواجب، وعير المكايل والموازن، فهي آلات معاملات الناس، واجتهد في سلامتك من الآثام بسلامتها من الالباس والأدناس، وحذر أن تحمّل دابة مالا تطيق حمله، وأدّب من يجري الى ذلك يتوخى فعله، وأوعز بتنظيف الجوامع والمساجد لتتبر بالنظافة مسالكها، كما تنير بالاضاءة حوالكها، ففي ذلك إظهار لبهجتها وجمالها، وإيثار لصيانتها عن إخلاق نفرستها وابتذالها، ولا تمكّن أحدا أن يحضرها الا لصلاة أو ذكر، قاطعا للسان الخصام وموقظا لعين الفكر؛ فأما من يجعلها سوقا للتجارة، فقد حصل بهذه الجسارة على الخسارة، فهي ميادين الضمر، وموازن الرجح في الظاهر من أعمالهم والمضمّر، وما أحق لياليها أن نقوم بها الهجّد لا السمر، وهل أذن الله أن ترفه لغير اسمه أو تعمّر، واحظر أن يحضر الطرقات ما يمتنع السلوك أو يوعره، وأفضل في هذا الأمر ما يردع العابث ويزجره وخذ النصارى واليهود والمخالفين بلبس الغيار وشد الزنار، ففي ذلك اظهار لما في الإسلام من العزة وفي المخالفة من الصغار، وابانة بالشّد للتأهب للمسير الى النار، وتفريق بين المؤمنين والكفار، وأدّب من يكيل مطففا، أو يزن متحيّفا، أدبا يكون لمعاملته مزيفا، وله من معاودة على فعله زاجرا ومخوفا، فاعلم هذا واعمل به، ان شاء الله تعالى».

ملحق رقم 13: قيود التجارة بين المسلمين والروم⁽¹⁾

« فطمع الروم بحلب فنازلوها، وهاجموا المدينة من شماليها وحاصروا القلعة فهادتهم قرغويه⁽²⁾ على حمل الجزية، عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التي وقعت الهدنة عليها دينار، قيمته ستة عشر درهما اسلاميا، وأن يحمل إليهم كل سنة عن البلاد التي وقعت الهدنة عليها سبعمائة ألف درهم، والبلاد: حمص، جوسية، سلمية، حماة، شيزر، كفرطاب، أفامية، معرة النعمان، حلب، جبل السماق، معرة مصرين، قنسرين، والأثارب إلى طرف البلاط⁽³⁾ الذي يلي الآثار وهو الرصيف إلى أرحاب⁽⁴⁾، إلى باسوفان، إلى حميار⁽⁵⁾، إلى برصايا⁽⁶⁾، إلى المرج الذي بالقرب من عزار ويمين الحد كله لحلب، والباقي للروم، وشرطوا أن الأمير على المسلمين قرغويه، والأمر بعده لبكجور، وبعده ينصب ملك الروم أميراً يختاره من سكان حلب، وليس من المسلمين أن ينصبوا أحداً، ولا يؤخذ من نصراني جزية في هذه الأعمال إلا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة.

وإن ورد عسكر اسلامي يريد غزو الروم منعه قرغويه.. فإن لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم.. وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الاسلام تلقاه بكجور إلى المكان الذي يؤمر بتلقيه إليه وأن يشيعة في أعمال الهدنة، ولا يهرب من في الضياع لبيتاع العسكر الرومي ما يحتاجون اليه، سوى التبن فإنه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء.

وإن دخل رومي إلى بلد الاسلام فلا يمنع من حاجته.. وإن دخل من بلد الاسلام جاموس إلى بلد الروم أخذ، ولا يقبل المسلمون أميراً مسلماً، ولا يكاتبوا أحداً غير الحاجب وبكجور، فإن توفيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميراً من بلاد الاسلام، ولا يلتمسوا من المسلمين معونة، بل ينصب لهم من يختاره

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ص 96-98

(2) قرغويه: هو غلام سيف الدولة، قام بالأمر بحلب من قبل سعد ابن سيف الدولة

(3) البلاط: مدينة بين مرعش وأنطاكية يشقها النهر الأسود

(4) أرحاب: تقع قرب البلاما

(5) كيمار وباسوفان: قريبتان من البلاط وأرحاب

(6) برصايا: تقع شمال غرب حلب

من بلاد الهدنة.. وللروم أن يعمروا الكنائس الخربة في هذه الأعمال، ويسافر البطارقة والأساقفة إليهم ويكرمهم المسلمون، وإنّ العشر الذي يؤخذ من بلد الروم، يجلس عشّار الملك مع عشّار قرغوية وبكجور فهما كان من التجارة من الذهب، والفضة، والديباج الرومي، والقر، والأحجار، والجواهر، والؤلؤ، والسندس، عشرة عشّار الملك، والثياب، والكتان، والمزيون، والبهائم، وغير ذلك يعشره عشّار الحاجب وبكجور، وبعدهما يعشر ذلك كله عشّار الملك.. ومتى جاءت قافلة من الروم تقصد حلب، يكتب الزروار -رتبة عسكرية عند الروم- إلى الأمير، ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ويوصلها إلى حلب، وإن قطع الطريق عليها فعلى الأمير أن يعطيهم ما ذهب..»

ملحق رقم 14: شهادة عن النشاط التجاري⁽¹⁾

هذا مسلك التجار اليهود الرذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والفرنجية والأندلسية والصقلية. انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا يجلبون من المغرب الخدم والجواربي والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما 25 فرسخا. ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم الى الجار وجة ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي. فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينة فباعوها من الروم. وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وان شأؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيروا على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية. ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الابلة. ومن الابلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض.

(1) ابن خردذابة، المسالك والممالك، ص 153، 154

ملحق رقم 15: صادرات وواردات الثغور

صادرات مدن الثغور

السلعة التجارية	المدينة/ الدولة
الديباج، البرز، ثياب الكتان الرومي، ثياب الصوف، الأكسية	طرابزون
الحرير من منبج، الثياب من أنطاكية، الفراء من المصيصة	مدن الشام، العراق، افريقية
الثياب، والمنسوجات القطنية من حلب	مصر والعراق
الرقيق، الأخشاب، العقاقير، التوابل، العطور، مواد الصباغة، النبيذ، التمر، الشب، الجياد، الأسلحة	بلاد الروم
الأخشاب، الحبوب، التفاح، الحديد	مصر، العراق
الحبوب (الحنطة)، التفاح، الزيت	الحجاز
الكروم، التفاح، التين، النحاس، الأخشاب، القطن	مصر
الكروم، الزبيب، المعادن	المدن الشامية

واردات مدن الثغور

الرقيق، البردي، الدواب، الأقمشة، النحاس، الحبوب، الستور، الحصر، البسط	مصر
المنسوجات والأقمشة، الطيب، النباتات والأعشاب، الماء، المعادن، القطن، العسل، الجبن، الحرير، الأنعام	بلاد الروم
المبعة والمصطكى، النحاس	قبرص
التمور، الزيت، الزيتون، الزبيب، الدقيق، المنسوجات الحريرية، الخضر والفواكه	العراق
السماك، البغال، الأخشاب، الملح، القرمز، الذهب والفضة	أرمينية
الجذم والجواري، الجلود، الأكسية، الدواب، الزئبق، البغال، الكبريت	المغرب والأندلس
التوابل، العاج، الأخشاب، الطيب، الأحجار الكريمة، والجواهر	الهند والصين
الحرير، المنسوجات، الطيب، النحاس	جزر بحر الشام
الخيل، النعام، الإبل، الطين الأبيض، الذهب	الحجاز

قائمة

المصادر

والمراجع

القرآن الكريم

التوراة ترجمة عربية عمرها أكثر من ألف عام: تح: سهيل زكار، دار قتيبة، ط1، القاهرة، 2007

أولاً: المصادر

1- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الجزري (ت 630هـ/1233م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج5، تح: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، (د،ت).

2- (-، -): الكامل في التاريخ، ج1، 2، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، (د،ت).

3- (-، -): النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، 2، المكتبة العلمية، (د،ط)، بيروت، 1979.

4- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي ضياء الدين (ت 58هـ/677م): معالم القرية، موسوعة الجامع الكبير، (د،م)، (د،ت).

5- إخوان الصفا، وخلان الوفاء (ت ق3هـ/9م): رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء، مراجعة: خير الدين الزركلي، مؤسسة هنداوي، (د،ط)، المملكة المتحدة، ج1، 2017.

6- الإدريسي، أبو الحسن محمد بن إدريس الحموي (ت 560هـ/1164م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، 2، 4، 5، 6، (د،د،ن)، ط1، (د،م)، 1989.

7- الأربلي، عبدالرحمن سنبط قنيتو (ت 717هـ/1317م): خلاصة الذهب المسبوك، تح: مكّي السيد جاسم، مكتبة المثني، (د،ط)، بغداد، (د،ت).

8- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد (ت 334هـ/945م): تاريخ الموصل، تح: علي حبيبة، دار التحرير للطباعة والنشر، (د،ط)، القاهرة، 1967.

9- الأشرف الرسولي، إسماعيل بن العباس بن علي (ت 803هـ/1400م): المعتمد في الأدوية المفردة، تص: مصطفى السقا، مكتبة البابلي الحلبي، ط2، القاهرة، (د،ت).

- 10- الاضطخري، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت 346هـ/957م): مسالك الممالك، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1927.
- 11- (-، -): كتاب الأقاليم، طبعة ليدن، (د،ط)، ليدن، 1967.
- 12- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ/967م): كتاب الأغاني، ج10، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.
- 13- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة (ت 668هـ/1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا دار مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، 2002.
- 14- إنجيل مرقس: كنيسة الأنبا تكلاهيمانوت، (د،ط)، الإسكندرية، (د،ت).
- 15- الأنصاري، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب (ت 727هـ/1327م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1988.
- 16- (-، -): كتاب النوادر في اللغة، دراسة: محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، ط1، (د،م)، (د،ت).
- 17- الأوزجندي، فخر الدين أبو المحاسن الحسن بن منصور (ت 592هـ/1195م): فتاوي قاضي خان في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2009.
- 18- الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف (ت 474هـ/1081م): المنتقى من شرح الموطأ، ج3، مطبعة السعادة، ط1، مصر، 1915.
- 19- البدري، أبو البقاء عبد الله بن محمد (ت 894هـ/1488م): نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، ط1، بيروت، 1980.
- 20- البزّاز، أبو بكر أحمد بن عمرو (ت 292هـ/904م): مسند البزّاز (منشور باسم البحر الزغار)، تح: محفوظ الرحمن زين الله وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، ط1، المدينة، 2009.
- 21- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي (ت 779هـ/1377م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، صادر، ط1، مطبعة الأزهرية، مصر، 1928.

- 22- البغدادي، أبو محمد غانم بن محمد (ت 1027هـ/1618م): تجّمع الضمانات في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، م1، تح: محمد أحمد سراج، علي جمعة محمد، دار السلام، ط1، القاهرة، 1999.
- 23- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1094م): المسالك والممالك، تح: أدريان فان ليوفن، أندري فيري، ج1، 4، 9، الدار العربية للكتاب، ط3، (د،م)، 1992.
- 24- (-، -): معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج3، تح: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (د،ت).
- 25- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود (ت 279هـ/892م): فتوح البلدان، مؤسسة المعارف، (د،ط)، بيروت، 1987.
- 26- (-، -): جمل من أنساب الأشراف، ج1، تح: سهيل زكار، دار الفكر، ط1، بيروت، 1996.
- 27- بن لوقا، قسطوس الرومي (ت 300هـ/912م): الفلاحة اليونانية، المطبعة الوهبية، (د،ط)، القاهرة، 1293.
- 28- البوجزاني، أبو الوفاء محمد بن أحمد (ت 388هـ/998م): كتاب الفلاحة، مكتبة الفلاحة، مدريد، 1802.
- 29- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت 440هـ/1048م): الآثار الباقية عن القرون الخالية، (د،د،ن)، (د،ط)، لايبزك، 1923.
- 30- (-، -): كتاب الصيدلة في الطب، تر: حكيم محمد سعيد، رانا إحسان، (د،ط)، كراتشي، 1973.
- 31- ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد عبد الله المالقي (ت 646هـ/1248م): الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج1، مكتبة المثنى، (د،ط)، بغداد، (د،ت).

- 32- البيهقي، ابراهيم بن محمد (ت 320هـ/932م): المحاسن والمساوي، ج9، تح: أبو الفضل ابراهيم مطبعة النهضة، (د،ط)، القاهرة، 1961.
- 33- البيهقي، أبو بكر أحمد بن حسين بن علي (ت 458هـ/1065م): الجامع لشعب الايمان، ج1، تح: عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشيد، ط1، الرياض، 2003.
- 34- التجيبي، محمد بن أحمد بن عبدون (ت 460هـ/1067م): رسالة في القضاء والحسبة، منشور ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفسنال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (د،ط)، القاهرة، 1955.
- 35- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى (ت 279هـ/892م): سنن الترمذي، ج4، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط2، مصر، 1975.
- 36- (-، -): الجامع الكبير، ج2، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1998
- 37- التطيلي، بنيامين بن يونه النباري الأندلسي (ت 569هـ/1173م)، رحلة بينيامين التطيلي، تر: عزار حدّاد، دراسة وتقديم: عبد الرحمن بن عبد الله الشيخ، المجمع الثقافي، (د،ط)، أبو ظبي، 2002.
- 38- التنوخي، أبو علي المحسن بن أبي القاسم (ت 384هـ/994م): الفرج بعد الشدة، ج1، الطبعة المحمدية، (د،ط)ن القاهرة، 1957.
- 39- (-، -): نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، ج1، تح: عبود الشالجي، دار صادر، ط2، بيروت، 1995.
- 40- التهانوي، مولود محمد علي (ت 1158هـ/1745م): موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية (كشاف اصطلاحات الفنون)، (د،ط)، (د،م)، (د،ت).
- 41- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (ت 728هـ/1327م): الفتاوى، م 28، مكتبة المعارف، (د،ط)، الرباط، (د،ت).

- 42- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت 429هـ/1037م): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الطاهر، (د،ط)، القاهرة، 1908.
- 43- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت 255هـ/868م): البلدان - مستلة من مجلة كلية الآداب -، مطبعة الحكومة، بغداد، 1970.
- 44- (-، -): التبصر بالتجارة، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، (د،ط)، (د، م)، (د،ت).
- 45- (-، -): مجموع رسائل الجاحظ، ج3، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، ط1، بيروت، 1991.
- 46- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت 614هـ/1217م): رحلة ابن جبير، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 47- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد (ت 816هـ/1413م): التعريفات، المطبعة الخيرية، ط1، مصر، 1306.
- 48- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت 331هـ/942م): كتاب الوزراء والكتاب، تح: ابراهيم الأبياري، مصطفى السقا، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1938.
- 49- الجواليقي، أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد (ت 540هـ/1145م): المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: أحمدر محمد شاكر، دار الكتب، مصر، 1969.
- 50- الجوزجاني، أبو عثمان سعيد بن منصور (ت 227هـ/841م): التفسير، ج2، تح: سعد بن عبد الله آل حميد، دار الصمعي، ط1، (د،م)، 1997.
- 51- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1200م): مناقب الامام أحمد، تح: عبد الله بن عبد المحسن الترك، دار هجر، ط2، (د،م)، 1409هـ.
- 52- (-، -): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج1، 5، 6، 7، 8، 9، 11، 14، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1995.

- 53- الحازمي، أبو بكر زين الدين محمد الهمداني (ت 584هـ/1188م): الأماكن ما اتفق لفظه وافترق مسماه، دار اليمامة (د،ط)، دمشق، 1995.
- 54- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت 403هـ/1012م): المستدرک علی الصحیحین، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2002.
- 55- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت 456هـ/1064م): الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج1، مكتبة الخانجي، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 56- الحموي ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626هـ/1228م): المشترك وضعاً والمفترق صقعا، عالم الكتب، ط2، بيروت، 1986.
- 57- (-، -): معجم البلدان، ج1، 2، 3، 4، 5، 6، 8، دار صادر، (د،ط)، بيروت، 1987.
- 58-
- 59- الحميري، أبو محمد عبد الملك ابن هشام (ت 218هـ/833م): السيرة النبوية، ج2، تح: مصطفى السقا وآخرون، مكتبة ومطبعة الحلبي، ط2، مصر، 1955.
- 60- الحميري، أحمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/1494م): الروض المعطار في خبر الأقطار، ج1، تح: إحسان عباس، (د،د،ن)، ط1، بيروت، 1975.
- 61- الحميري، نشوان بن سعيد بن سعد (ت 573هـ/1177م): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج1، تح: حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر المعاصر، ط1، بيروت، 1999.
- 62- ابن حوقل، أبي القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 367هـ/977م): المسالك والممالك، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1872.
- 63- (-، -): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (د،ط)، بيروت، 1992.
- 64- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف القرطبي (ت 427هـ/1035م): المقتبس في أخبار الأندلس، تح: عبد الرحمن الحججي، دار الثقافة، (د،ط)، بيروت، (د،ت).

- 65- الخزاعي، علي بن محمد بن أحمد بن موسى (ت 789هـ/1387م): تخرّيج الدلالات السمعية على من كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، تح: احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1985.
- 66- الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد السبتي (ت 388هـ/998م): معالم السنن، ج3، مطبعة محمد راغب، ط1، حلب، 1933.
- 67- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني (ت 776هـ/1374م): أعمال الأعمال في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح: ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، 1956.
- 68- الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ/1070م): تاريخ مدينة السلام، ج16، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، ط1، بيروت، 2001.
- 69- الخلال، أبو بكر بن محمد بن هارون (ت 311هـ/923م): الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تح: يحي مراد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2003.
- 70- الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت 387هـ/997م): مفاتيح العلوم، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1890.
- 71- ابن خردذابة، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300هـ/912م): المسالك والممالك -ويليه نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر-، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1989.
- 72- ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت 808هـ/1405م): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج2، ج3، دار الفكر، (د،ط)، بيروت، 2001.
- 73- (-، -): مقدمة ابن خلدون، ج1، ج2، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط1، دمشق، 2004.

- 74- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت 681هـ/1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج 1، 3، 6، تح: إحسان عباس، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 75- ابن خياط، أبو عمرو بن خليفة الشيباني (ت 240هـ/854م): تاريخ خليفة، تح: أكرم ضياء العمري، دار طيبة، ط2، (د،م)، 1985.
- 76- داماد شيخي زادة، عبد الرحمن الله بن محمد (ت 1078هـ/1667م): مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر ومعه الدر المنتقى، ج1، دار احياء التراث، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 77- أبو داوود، سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأزدي (ت 275هـ/888م): سنن أبي داوود، ج3، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 78- الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ت 247هـ/861م): الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض وردبها وغشوش المدلسين فيها، دار صادر، ط1، بيروت، 1999.
- 79- الدمشقي، أبو بكر بن عبد الله بن محمد (ت 894هـ/1488م): نزهة الأيام في محاسن الشام، المطبعة العربية، (د،ط)، بغداد، 1341.
- 80- ابن أبي الدنيا أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد (ت 281هـ/894م): الإشراف في منازل الأشراف، تح: نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشد، ط1، الرياض، 1990.
- 81- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت 713هـ/1313م): كنز الدرر وجامع الغرر، ج1، تح: بيرند رانكه، (د،ط)، القاهرة، 1902.
- 82- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد (ت 748هـ/1347م): تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، ج2، 7، 12، 21، 26، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، (د،م)، 1989.
- 83- (-، -): تهذيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، م2، تح: غنيم عباس غنيم- مجدي السيد أمين، الفاروق الحديثة للطباعة، ط1، (د،م)، 2004.
- 84- (-، -): دول الإسلام، ج1، تح: حسن إسماعيل مورة، دار صادر، ط1، بيروت، 1999.

- 85- (-، -): رسالة في تحرير الدرهم والدينار، مكتبة الأزهر، رقم 319535.
- 86- (-، -): سير أعلام النبلاء، ج2، 5، 6، 7، 9، 12، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط11، (د،م)، 1996.
- 87- (-، -): حاشية الذهبي سير أعلام النبلاء، ج2، دار الحديث، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 88- الرازي، فخر الدين محمد بن أبي بكر (ت 604هـ/1207م): مختار الصحاح، دار عمار، ط9، الأردن، 2005.
- 89- الرحيبي، عبد العزيز بن محمد الحنفي (ت بعد 1184هـ/1770م): فقه الملوك ومفتاح الرجاج، ج1، تح: أحمد عبيد الكبسي، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1973.
- 90- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت 300هـ/912م): الأعلاق النفيسة ويليه كتاب البلدان لليعقوبي، م7، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1982.
- 91- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن الإشبيلي (ت 379هـ/989م): لحن العوام، تح: رمضان عبد التواب، (د،د،ن)، ط1، (د،م)، 1964.
- 92- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538هـ/1143م): الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج1، المطبعة العامرة، (د،ط)، مصر، 1864.
- 93- السبتي، أبو العباس أحمد بن جعفر العزفي (ت 633هـ/1235م): إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد، دراسة: محمد الشريف، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999.
- 94- السبكي، علي بن عبد الكافي (ت 756هـ/1355م): فتاوي السبكي، ج1، مكتبة القدسي، (د،ط)، القاهرة، 1356هـ.
- 95- السرياني، ميخائيل (ت 596هـ/1199م): تاريخ مار ميخائيل الكبير، ج3، تر: مارغريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، ط1، حلب، 1996.

- 96- ابن سعد البغدادي، محمد بن منيع الزهري (ت 231هـ/845م): الطبقات الكبرى، ج5، 6، 7، 8، تح: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 2001.
- 97- ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن (ت 685هـ/1286م): المغرب في حكي المغرب، ج1، تح: شوقي ضيف، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1955.
- 98- (-، -): بسط الأرض في الطول والعرض، تح: خوان فرنيط خينيس، (د،ط)، (د،م)، (د،ت).
- 99- ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى (ت 685هـ/1286م): كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، ط2، بيروت، 1897.
- 100- السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي (ت ق6هـ/12م): في آداب الحسبة، تح: ليفي بروفنسال، (د،ط)، باريس، 1931.
- 101- ابن سلام، أبي عبيد القاسم (ت 224هـ/838م): الأموال، تح: محمد عمارة، دار الشروق، ط1، بيروت، 1989.
- 102- (-، -): كتاب السلاح، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1985.
- 103- السمرقندي، أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد (ت 373هـ/983م): تنبيه الغافلين في موعظة أحاديث الأنبياء والمرسلين، دار الرائد الغربي، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 104- السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد (ت 911هـ/1505م)، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1419.
- 105- سنبط قنيتو الأربلي، عبدالرحمن (ت 717هـ/1317م): خلاصة الذهب المسبوك، تح: مكّي السيد جاسم، مكتبة المثني، (د،ط)، بغداد، (د،ت).
- 106- ابن سيد الناس، محمد بن محمد اليعمري (ت 734هـ/1333م): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج1، تح: محمد العيد الخضراوي، مكتبة دار التراث، (د،ط)، المدينة، (د،ت).

- 107- ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (ت 429هـ/1037م): القانون في الطب، منشورات مؤسسة المعارف (د،ط)، بيروت، 1986.
- 108- السيوري، جمال الدين المقداد بن عبد الله (ت 826هـ/1422م): كنز العرفان في فقه القرآن، المكتبة المرتضوية، (د،ط)، شيراز، 1384.
- 109- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م): تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2، قطر، 2013.
- 110- (-، -): حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج1، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، (د،م)، 1967.
- 111- (-، -): كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تح: عبد اللطيف السعداني، مطبعة محمد الخامس، (د،ط)، فاس، 1971.
- 112- الشاطبي، أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد (ت 791هـ/1388م): النظم المالية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، مصر، 1996.
- 113- (-، -): الاعتصام، م3، تح: مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة التوحيد، (د،ط)، (د،ت).
- 114- ابن الشحنة، أبي الفضل محمد (ت 890هـ/1485م): الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، 1984.
- 115- ابن شداد، عز الدين أبي عبد الله محمد (ت 613هـ/1216م): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، تح: يحيى زكريا عبادة، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، 1991.
- 116- الشنتريني، أبي الحسن علي ابن بسام (ت 542هـ/1147م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، م1، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، (د،ط)، بيروت، 1997.
- 117- الشوكاني، أحمد بن علي بن محمد (ت 1250هـ/1834م): الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية، تح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، المكتب الإسلامي، ط3، بيروت، 1986.

- 118- الشيباني أحمد بن حنبل بن أسد (ت 241هـ/855م): مسند الإمام بن حنبل، ج 28، تح: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، دمشق، 2001.
- 119- الشيباني محمد بن الحسن (ت 189هـ/804م): المخارج في الحيل، مكتبة الثقافة الدينية، (د،ط)، القاهرة، 1999.
- 120- الشيزري، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر (ت 589هـ/1193م): المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تح: علي عبد الله الموسى، مكتبة المنار، ط1، الأردن، 1987.
- 121- (-، -): نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د،ط)، القاهرة، 1946.
- 122- الصائبي، هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت 448هـ/1056م): رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، بغداد، 1964.
- 123- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد بن أحمد (ت 594هـ/1197م): المن بالإمامة، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسلامي، ط2، بيروت، 1987.
- 124- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ/946م): أدب الكاتب، تح: محمد بهجة الاثري، المطبعة السلفية، القاهرة، بغداد، 1341.
- 125- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت 360هـ/970م): مسند الشاميين، ج 4، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1984.
- 126- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ/922م): تاريخ الرسل والملوك، ج 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10، دار المعارف، ط2، القاهرة، (د،ت).
- 127- (-، -): تفسيره، تح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، (د،ط)، مصر، (د،ت).
- 128- (-، -): المعجم الكبير، ج 22، تح: حمدي عبد المجيد السلفي، (د،ط)، (د،م)، 1985.

- 129- الطرسوسي، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو عمر (ت 401هـ/1010م): من سير الثغور، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، تح: احسان عباسي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1988.
- 130- ابن الطقطقي، أبو جعفر محمد بن علي بن طباطبا (ت 709هـ/1309م): الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، دار القلم العربي، ط1، بيروت، 1997.
- 131- الظاهري، خليل بن شاهين غرس الدين (ت 873هـ/1468م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تص: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، (د،ط)، باريس، 1984.
- 132- ابن عبد الحق، عبد المؤمن البغدادي (ت 739هـ/1338م): مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج3، دار الجيل، ط1، بيروت، 1982.
- 133- ابن عبد الحكم، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت 257هـ/870م): فتوح مصر وأخبارها، (د،د،ن)، (د،ط)، ليدن، 1930.
- 134- ابن عبد الرؤوف، أحمد بن عبد الله (ت 424هـ/1032م): رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، تح: ليفي بروفسنال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (د،ط)، القاهرة، 1955.
- 135- ابن عبد ربه، أبو عمرو أحمد بن محمد (ت 328هـ/940م): العقد الفريد، ج4، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983.
- 136- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس جمال الدين (ت 685هـ/1286م): تاريخ الزمان، تر: إسحاق أرملة، المكتبة الشرقية، (د،ط)، بيروت، 1991.
- 137- ابن عثمان المكناسي، أبو عبد الله محمد (ت 1214هـ/1799م): الإكسير في فكاك الأسير، تح: محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، (د،ط)، الرباط، 1965.
- 138- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت 660هـ/1261م): بغية الطلب في تاريخ حلب، ج1، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، (د،ت).
- 139- (-، -): زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996.

- 140- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505هـ/1111م): إحياء علوم الدين، ج2، دار المعرفة، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 141- الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي (ت 815هـ/1412م): مطالع البدور في منازل السرور، ج1، مطبعة إدارة الوطن، ط1، القاهرة، 1299.
- 142- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت 571هـ/1175م): تاريخ مدينة دمشق، ج1، تح: محي الدين أبي سعيد العمري، دار الفكر، ط1، دمشق، 1998.
- 143- (-، -): تهذيب تاريخ ابن عساكر، ج1، 2، 6، 7، 8، 15، 19، 22، 49، 57، مطبعة روضة الشام، (د،ط)، دمشق، 1329-1332هـ.
- 144- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت 852هـ/1448م): الإصابة في تمييز الصحابة، ج2، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار الكتب العلمية، ط1، مصر، 1907.
- 145- (-، -): بذل الماعون في فضل الطاعون، دار العاصمة، (د،ط)، الرياض، (د،ت).
- 146- (-، -): الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، ج2، دائرة المعارف العثمانية، (د،ط)، حيدر اباد، 1349.
- 147- العمري، أبو العباس شهاب الدين أحمد ابن فضل الله (ت 749هـ/1348م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج3، المجمع الثقافي، ط1، أبو ظبي، 1993.
- 148- الفاسي، أبو زيد عبد الرحمن (ت 1096هـ/1685م): خطة الحسبة، دار الثقافة، ط1، الدار البيضاء، 1984.
- 149- أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت 732هـ/1331م): تقويم البلدان، دار صادر، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 150- (-، -): مختصر تاريخ البشر، تقديم: حسين مؤنس، تح: محمد زينهم محمد عزب، يحيي سيد حسين، دار المعارف، ط1، القاهرة، (د،ت).

- 151- ابن الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد (ت 458هـ/1066م): الأحكام السلطانية، تصحيح: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، 2000.
- 152- (-، -): رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تح: صلاح الدين المنجد، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، 1947.
- 153- الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت 170هـ/786م): العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2002.
- 154- الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة (ت 114هـ/732م): ديوان الفرزدق، شرح وتقديم: علي فاعور، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، 1987.
- 155- الفسوي، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت 277هـ/890م): المعرفة والتاريخ، ج1، تح: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، (د،ت).
- 156- أبو الفضل، عبد الله ابن عبد الظاهر محي الدين (ت 692هـ/1292م): الروض الزاهر في سيرة الملك الطاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1976.
- 157- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد (ت 340هـ/951م): مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1884.
- 158- أبو القاسم، عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الخضرمي (ت 608هـ/1211م): كمامة الزهر وصدفة الدرر، تح: التيجاني سعيد محمود دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، 1971.
- 159- ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/889م): ابن قتيبة الدينوري: الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب، القاهرة، 1960.
- 160- (-، -): الأنواء في مواسم العرب، مجلس دائرة المعارف، الهند، 1956.
- 161- قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن قدامة بن زياد (ت 329هـ/941م): الخراج وصناعة الكتابة، (د،ط)، (د،م)، 1981.

- 162- (-، -): الدواوين من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، تح: مصطفى الحيارى، الجامعة الأردنية، (د،ط)، عمان، (د،ت).
- 163- ابن قدامة، عبد الله بن محمد بن قدامة (ت 620هـ/1223م): المغني، ج9، مكتبة القاهرة، (د،ط)، القاهرة، 1968.
- 164- القرشي، أبو زكريا يحيى بن آدم (ت 203هـ/818م): الخراج، تح: أحمد محمد شاكر، ط2، القاهرة، 1384.
- 165- القرشي، محمد بن عائذ بن عبد الله (ت 233هـ/847م): كتاب الصوائف المستخرج، إعداد سليمان عبد الله السويكت، مكة المكرمة، 2002.
- 166- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 671هـ/1272م): الجامع لأحكام القرآن، ج2، دار الكتب المصرية، ط2، القاهرة، 1935.
- 167- القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد (ت 682هـ/1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، (د،ط)، لندن، 1848.
- 168- (-، -): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تح: فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1951.
- 169- (-، -): وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس، تح: أحمد أييش، (د،د،ن)، ط1، دمشق، 1983.
- 170- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت 820هـ/1417م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج3، المطبعة الأميرية، القاهرة، (د،ط)، 1914.
- 171- ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت 751هـ/1350م): أحكام أهل الذمة، ج1، تح: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1995.
- 172- (-، -): معجم التداوي بالأعشاب والنباتات الطبية، مكتبة التراث الإسلامي، ط2، القاهرة، 1986.

- 173- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت 774هـ/1372م): البداية والنهاية، ج3، تح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط1، (د،م)، 1988.
- 174- ليونهارت راوولف (ت 1005هـ/1596م): رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين سنة 1573م، تر: سليم طه التريكي، دار الحرية للطباعة، (د،ط)، بغداد، 1978.
- 175- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت 273هـ/886م): سنن، ج4، دار إحياء الكتب العربية، (د،ط)، حلب، (د،ت).
- 176- ماركوبولو (ت 725هـ/1324م): رحلات ماركوبولو، ج1، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1995.
- 177- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البغدادي (ت 450هـ/1058م): الأحكام السلطانية، دار الحديث، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 178- (-، -): الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، ج1، تح: علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1994.
- 179- ابن المجيلدي، أحمد بن سعيد (ت 1094هـ/1683م): كتاب التيسير في أحكام التسعير، تح: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (د،ط)، الجزائر، 1970.
- 180- ابن محمد، عبد الله بن عبد الحكم (ت 214هـ/829م): سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، تص: أحمد عبيد، مكتبة وهبة، ط2، دمشق، 1954.
- 181- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن الأصفهاني (ت 421هـ/1030م): الأزمنة والأمكنة، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996.
- 182- المرشدي، حنيف الدين بن عبد الرحمن (ت 460هـ/1067م): رسالة في معرفة القيراط والدينار والدرهم والدانق، مكتبة جامعة الرياض، الرقم 2173.
- 183- المروزي، عبد الله ابن مبارك (ت 181هـ/797م): الجهاد، الدار التونسية، (د،ط)، تونس، 1971.

- 184- المروزي، محمد بن نصر أبو عبد الله (ت 294هـ/906م): السنة، تح: سالم أحمد السلفي، ج1، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت، 1987.
- 185- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ/957م): التنبيه والإشراف، دار صادر، بيروت، (د،ط)، 1893.
- 186- (-، -): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، تح: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2005.
- 187- ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ/1030م): تجارب الأمم وتعاقب الأمم، ج2، 3، دار الكتاب الإسلامي، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 188- مسلم بن الحجاج، أبو الحسين بن مسلم بن ورد (ت 261هـ/875م): الجامع الصحيح، ج5، ج3 منشورات دار الآفاق، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 189- أبو المعالي، محمد بن رافع السلامي تقي الدين (ت 704هـ/1304م): الوفيات والأحداث، ج1، تح: صالح مهدي عباس - اشبار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط1، (د،م)، 1982.
- 190- المعداني أبو علي بن الحسن بن رحال (ت 1140هـ/1727م): كشف القناع عن تضمين الصناعات، تح: محمد أبو الأحناف، دار البشائر الإسلامية، ط1، بيروت، 1996.
- 191- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت 380هـ/990م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ط2، ليدن، 1902.
- 192- (-، -)، البدء والتاريخ، ج3، مكتبة الثقافة الدينية، (د،ط)، مصر، (د،ت).
- 193- المقرئ، أبو العباس تقي الدين بن علي (ت 597هـ/1200م): ثلاث رسائل "النقود القديمة الإسلامية"، مطبعة الجوانب، القسطنطينية، 1298.
- 194- (-، -): الخطط المقرئية، ج1، الساحل الجنوبي، (د،ط)، بيروت، 1978.
- 195- (-، -): السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ق2، تح: محمد زيادة مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1941-1970.

- 196- (-، -): شذور العقود في ذكر النقود، تح: محمد السيد علي بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، ط5، النجف، 1967.
- 197- (-، -): كتاب النقود، مطبعة السعادة، (د،ط)، مصر، (د،ت).
- 198- (-، -): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج3، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1418هـ.
- 199- المناوي، محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين (ت 1031هـ/1621م): النقود والمكايل والموازن، تح: رجاء محمود السامرائي، دار الرشيد، العراق، 1981.
- 200- المنبجي، اغايوس بن قسطنطين (ت ق4هـ/10م): المنتخب من تاريخ المنبجي، تح: عمر بن السلام التدمري، دار المنصور، (د،ط)، طرابلس، 1986.
- 201- ابن منظور، أبو الفضل جمال بن مكرم (ت 711هـ/1311م): مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ج19، دار الفكر، ط1، دمشق، 1984.
- 202- المهلب، الحسن بن أحمد (ت 380هـ/990م): المسالك والممالك أو العزيزي، (د،د،ن)، (د،ط)، (د،م)، (د،ت).
- 203- مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج3، وفيه كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه، تح: مج دغويه، (د،د،ن)، (د،ط)، بريل، 1871.
- 204- النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني (ت 1143هـ/1731م): علم الملاحة في علم الفلاحة، دار الآفاق الحديثة، ط2، بيروت، 1981.
- 205- ابن ناصر الدين، محمد بن عبد الله (ت 842هـ/1438م)، توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ج8، مؤسسة الرسالة، (د،ط)، 1993.
- 206- ناصر خسرو، قبادياني (ت 481هـ/1088م): سفرنامه، تح: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط3، بيروت، 1983.

- 207- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت 990هـ/1582م): كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، إشراف: سعيد عبد الفتاح، تح: هشام عبد العزيز عطا، المكتبة التجارية، (د،ط)، مكة المكرمة، (د،ت).
- 208- النووي، أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف (ت 676هـ/1277م): تهذيب الأسماء واللغات، ج1، 2، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 209- النويري الاسكندراني، محمد بن قاسم بن محمد (ت 775هـ/1374م): الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وصفه الإسكندرية، ج4، 7، تح: أتيين كومب، وعزيز سوربال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، 1968.
- 210- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ/1333م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج6، دار الكتب والوثائق القومية، (د،ط)، القاهرة، 1423.
- 211- النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الشافعي (ت 468هـ/1075م): التفسير البسيط، ج7، تح: لجنة علمية، جامعة بن سعود، ط1، 1430.
- 212- الهرثمي صاحب المأمون، أبو سعيد الشعراني (ت 200هـ/816م): مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية، (د،ط)، مصر، 1964.
- 213- الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر (ت 807هـ/1405م): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج10، تح: محمد ع القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001.
- 214- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد (ت 207هـ/823م): فتوح الشام، ج1، 2، دار الجليل، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 215- (-، -): المغازي، ج1، تح: مارسدن جونز، دار الأعلمي، ط3، بيروت، 1989.
- 216- ابن الوردي، سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أبي الفوارس (ت 749هـ/1348م): تاريخ ابن الوردي، دار الكتب، ج1، ط1، بيروت، 1996.
- 217- (-، -): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، (د،ط)، القاهرة، 1885.

- 218- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد (ت 914هـ/1509م): المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والمغرب، ج7، 8، إشراف: محمد حجي، دار الغرب الاسلامي، (د،ط)، بيروت، 1981.
- 219- ابن وهب، أبو الحسين إسحاق إبراهيم (ت ق10/4م): البرهان في وجوه البيان، تح: جفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 220- اليافعي، عفيف الدين أبي السعادات عبد الله أبو محمد (ت 768هـ/1366م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997.
- 221- يحيى بن عمر، أبي زكريا بن يوسف الكناني (ت 289هـ/901م): أحكام السوق، الطبعة التونسية، (د،ط)، 2012.
- 222- البعقوبي، أبو العباس أحمد بن إسحاق بن جعفر (ت 284هـ/897م): البلدان، مطبعة بريل، (د،ط)، ليدن، 1891.
- 223- (-، -): تاريخ البعقوبي، ج2، 3، مطبعة الغرى، (د،ط)، النجف، 1939.
- 224- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ/798م): الخراج، المكتبة الأزهرية للتراث، ط1، القاهرة، (د،ت).
- ثانيا: المراجع العربية والمعربة
- 1- أبو أسعد الأثري: أثر الجغرافيا في العمل العسكري "مقتطف من كتاب الجغرافية العسكرية، ج1، منبر التوحيد والجهاد، (د،ط)، (د،م)، 2005.
- 2- أبو عبد الله: سيرة عمر بن عبد العزيز، تح: أحمد عبيد، مطبعة الاعتماد، ط2، مصر، 1954.
- 3- أبو عبيدة طه: موجز عن الفتوحات الإسلامية، دار النشر للجامعات، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 4- أحمد إسماعيل علي: تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، دار دمشق، ط3، دمشق، 1994.

- 5- أحمد رمضان أحمد محمد: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، 1977.
- 6- أحمد زماني: النظام العسكري في الإسلام، الدار الإسلامية، ط1، بيروت، 1991.
- 7- آرثر كريستنسين: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، (د،ت).
- 8- أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، تر: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 9- الأسدي خير الدين: أحياء حلب وأسواقها، تح: عبد الفتاح رواس قلعة جي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (د،ط)، دمشق، 1984.
- 10- آشور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، تر: عبد الهادي عيلة، دار قتيبة، دمشق، 1985.
- 11- بدري محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1973.
- 12- بروفنسال ليفي: سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، المطبعة الأميرية، (د،ت)، القاهرة، 1951.
- 13- بطانية محمد ضيف الله: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي، (د،ط)، الأردن، (د،ت).
- 14- بوتشيش ابراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1998.
- 15- تدمري عمر عبد السلام: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ج2، المؤسسة العربية، ط1، بيروت، 1981.
- 16- جبر وديع: معجم النباتات الطبية، دار الجيل، ط1، بيروت، 1987.

- 17- الجبوري أحمد إسماعيل عبد الله: تاريخ الأزمات الاقتصادية الإسلامية، جامعة الموصل، كلية التربية، العراق، (د،م)، (د،ت).
- 18- جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي: مجلس التأويل، تح: محمد باسل عيون السوء، ج2، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2002.
- 19- الجنابي خالد جاسم: تنظيمات الجيش العربي في العصر الأموي، دار الحرية للطباعة، ط2، بغداد، 1986.
- 20- الجنزوري علي عبد السميع: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية، مكتبة الأنجلو المصرية، (د،ط)، القاهرة، 1979.
- 21- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، دار الساقية، ط4، (د،م)، (د،ت).
- 22- جود الله فاطمة: سوريا نبع الحضارة، دار الحصاد، ط1، دمشق، 1999.
- 23- جودفرو ديمومبين موريس: النظم الإسلامية، تر: محمد فيصل السامر، صالح الشماع، مطبعة الزهراء، (د،ط)، بغداد، 2016.
- 24- جوردن ايست: الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة: جمال الدين الدناصوري، دار الحدائث، ط2، بيروت، 1982.
- 25- جيرونيباوم: حضارة الاسلام، تر: عبد العزيز جويد، (د،ط)، الألف كتاب، (د،م)، (د،ت).
- 26- حتي فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج1، دار الثقافة، ط3، بيروت، (د،ت).
- 27- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والدين والثقافي والاجتماعي، ج2، دار الخير، ط14، بيروت، 1992.
- 28- حسنين محمد ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، (د،ط)، القاهرة، 1983.
- 29- خماش نجدت: الشام في صدر الإسلام من الفتح سقط خلافة بني أمية، دار طلاس، ط1، دمشق، 1987.

- 30- خير صفوح: غوطة دمشق «دراسة في الجغرافية الزراعية»، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1966.
- 31- دبور أنور محمود: نظام استغلال الأراضي الزراعية، ج1، دار ثقافة، القاهرة، 1987.
- 32- الدجيلي خولة شاكر: بيت المال نشأته وتطوره من القرن الأول حتى القرن الرابع الهجري، مطبعة وزارة الأوقاف، (د،ط)، بغداد، 1976.
- 33- دحلان ريني: الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، المطبعة الميسرية، (د،ط)، مكة، 1884.
- 34- الدقدوقي وفيق: الجندية في عهد الدولة الأموية، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1985.
- 35- الدوري عبد العزيز: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط3، بيروت، 1995.
- 36- (-، -): تاريخ من صدر الاسلام، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، (د م)، 2007.
- 37- (-، -): العصر العباسي الأول، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1945.
- 38- (-، -): نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية، ع1، دار الاجتهاد، لبنان، 1980.
- 39- (-، -): مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، دار الطليعة، ط1، بيروت، 1969.
- 40- دياب صابر محمد: المسلمون وجهادهم ضد الروم في أرمينية والثغور الجزرية والشامية خلال القرن 4هـ، مكتبة السلام العالمية، (د،ط)، (د،م)، (د،ت).
- 41- دياب كوكب: المعجم المفصل في الأشجار والنباتات في لسان العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2001.
- 42- الراوي ثابت إسماعيل: تاريخ الدولة العربية، خلافة الراشدين والأمويين، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1976.
- 43- رحال عاطف: تاريخ بلاد الشام الاقتصادي في العصر الأموي، دار بيسان، ط2، بيروت، 2000.

- 44- رستم أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج1، دار المكشوف، ط1، بيروت، 1955.
- 45- زكريا أحمد وصفي: الريف السوري، ج1، دار البيان، (د،ط)، دمشق، 1955.
- 46- الزيري: نشب قریش: دار المعارف، ط3، تح: ليفي بروفنسال، القاهرة، (د،ت).
- 47- الزركلي خير الدين: الأعلام، ج5، دار العلم للملايين، ط13، بيروت، 1998.
- 48- الزري حميد ناصر: مفهوم العمل في الاسلام وأثره في التربية الإسلامية، ج5، منشورات دار الثقافة والإعلام الشارقة، (د،ت).
- 49- زعرور ابراهيم: تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري، (د،ط)، دمشق، 1996/1995.
- 50- زكريا أحمد وصفي: جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، دار الفكر، ط2، دمشق، 1984.
- 51- زمني أحمد: النظام العسكري في الإسلام، الدار الإسلامية، ط1، بيروت، 1991.
- 52- زبير محمد: نصوص ووثائق الدولة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية عصر الخلفاء الكبار 132-750/847م، ج2، دار النشر المغربية، (د،ط)، الدر البيضاء، 1985.
- 53- زيادة نقولا: شاميات، رياض الريس للكتب، لندن، 1989.
- 54- زيدان جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د،ت).
- 55- زيدان عبد الكريم: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، مؤسسة الرسالة، (د،ط)، بيروت، 1982.
- 56- سابق السيد: فقه السنة، دار الحديث، ط1، القاهرة، 2004.
- 57- سالم السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا في العصور الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، (د،ط)، مصر، 1986.
- 58- سالم عبد الرحمن أحمد: المسلمون والروم في عصر النبوة، دار الفكر العربي، (د،ط)، القاهرة، 1997.

- 59- سامعي إسماعيل: معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، (د،ط)، الجزائر، (د،ت)، 2007.
- 60- السباعي مصطفى: من روائع حضارتنا، دار الوراق، ط1، الرياض، (د،ت).
- 61- سعيد بن منصور: سنن سعيد بن منصور، ج2، الدار السلفية، ط1، الهند، 1982.
- 62- السماك محمد زاهر سعيد: الجغرافيا السياسية المعاصرة، دار الأمل، ط1، الأردن، 1998.
- 63- سوادى عبد محمد: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989.
- 64- السويكت سليمان بن عبد الله: الحملة الأخيرة على القسطنطينية في العصر الأموي، ج1، الجامعة الإسلامية، (د،ط)، المدينة المنورة، 2004.
- 65- السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، (د،ط)، بيروت، 1982.
- 66- شاكر محمود: موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة، ط1، عمان، 2000.
- 67- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، ج2، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (د،ط) بيروت، 1988.
- 68- شراب محمد: المعالم الأثرية في السنة والسيارة، دار العلم، ط1، بيروت، 1991.
- 69- شعبان أيمن أحمد: ألوان من تاريخ بني حمدان، مطبعة الإخاء، ط1، دمشق، 1996.
- 70- شعبان محمد: صدر الإسلام والدولة الأموية، الأهلية للنشر والتوزيع، (د،ط)، بيروت، 1987.
- 71- شقفة أشرف حسن محمد: الجغرافية السياسية، بحث حول مفاهيم خاصة بالجغرافيا السياسية، جامعة غزة، قسم الجغرافيا، 2010.
- 72- شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، ط1، دمشق، 1994.
- 73- الشيخلي صباح إبراهيم: الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، بحث في التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي، دار الحرية، (د،ط)، (د،ت)، بغداد، 1976.

- 74- صالح عبد العزيز: الشرق الأدنى القديم في مصر والعراق، مكتبة الأنجلو المصرية، (د،ط)، القاهرة، (د،ت).
- 75- الصباغ ليلي: المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، 1973.
- 76- صقر نادية حسني: السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول، المكتبة الفيصلية، ط1، بيروت، 1985.
- 77- الصلابي محمد علي: تاريخ الدولة الأموية، ج1، دار المعرفة، ط2، بيروت، 2008.
- 78- الصوري وليم: الحروب الصليبية، ج1، تر: حسن حبشي، مؤسسة الأهرام، (د،ط)، القاهرة، 1991.
- 79- طقوش سهيل: تاريخ الدولة الأموية، دار النفائس، ط1، بيروت، (د،ت).
- 80- عادل عبد السلام: جغرافية سورية طبيعية بشرية اقتصادية، ج1، (د،ط)، دمشق، 1973.
- 81- عاشور سعيد عبد الفتاح: العصر المماليكي في مصر والشام، ط2، القاهرة، 1976.
- 82- عاشور عبد اللطيف: موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، مكتبة القرآن، (د،ط)، القاهرة، 2000.
- 83- عبادة عبد الفتاح: سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مطبعة الهلال، (د،ط)، مصر، 1913.
- 84- العبادي أحمد مختار، سالم السيد عبد العزيز: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار الأمل، (د،ط)، بيروت، 1972.
- 85- عبد الحكيم محمد صبحي: الوطن العربي أرضه وسكانه وموارده، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، القاهرة، 1979.
- 86- عبد العزيز أبو زيد علا: الدولة الأموية دولة الفتوحات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، القاهرة، 1996.

- 87- عبد الكريم يوسف جودت: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3-4هـ/9-10م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د،ت).
- 88- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، ط5، القاهرة 1976.
- 89- عبد الهادي السيد: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، المكتب الجامعي الحديث، (د،ط)، ليبيا، 2008.
- 90- عثمان فتحي: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج1، الدار القومية، مدريد، 1966.
- 91- العدوي إبراهيم أحمد: الأساطيل العربية في البحر المتوسط، (د،ط)، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1957.
- 92- (-، -): الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية، ط2، القاهرة، 1963.
- 93- العسلي بسام: فن الحرب الإسلامي، ج1، دار الفكر، (د،ط)، بيروت، 1988.
- 94- عصفور أبو المحاسن: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 95- عطوان حسين: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي، دار الجيل، ط1، بيروت، 1987.
- 96- عطية عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، تر: فيليب صابر سيف، دار الثقافة، ط1، القاهرة، 2000.
- 97- عفاف سيد صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شرلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1982.
- 98- العفيفي عبد الحكيم: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، دار أوراق متروية، ط1، بيروت، 2000.

- 99- علي أحمد إسماعيل: تاريخ بلاد الشام، منذ ما قبل الميلاد حتى نهاية العصر الأموي، دار دمشق، ط3، دمشق، 1994.
- 100- علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج2، دار الساقى، ط4، (د،م)، 2004.
- 101- العلي سالم: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، المعارف، بغداد، 1953.
- 102- علي محمود فهمي: التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط 7-10م، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار الوحدة، ط1، بيروت، 1981.
- 103- عمر فوزي فاروق: الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي 41-334هـ، المكتبة العلمية، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 104- عمران محمود سعيد: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة، (د،ط)، بيروت، 2000.
- 105- العمري عبد العزيز بن ابراهيم: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول(صلى الله عليه وسلم)، دار اشيلية للنشر والتوزيع، ط3، الرياض، 2000.
- 106- الغزي، كامل بن حسين: نهر الذهب في تاريخ حلب، ج1، المطبعة المارونية، (د،ط)، حلب، (د،ت).
- 107- غوانمة، يوسف درويش: التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر، ط2، عمان، 1982.
- 108- ف. ويستنفلد: جداول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، تر: عبد المنعم ماجد- عبد المحسن رمضان، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، القاهرة، 1980.
- 109- فازلييف: العرب والروم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، (د،ط)، (د،ت).
- 110- فاطمة قدورة الشامي: الحضارة البيزنطية، دار النهضة العربية، (د،ط)، بيروت، 2002.
- 111- فالترهنتس: المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، روائع مجدلاوي، ط2، عمان، 2001.

- 112- فرقاني محمد: السياسة المالية للخليفة عمر بن عبد العزيز على ضوء رسائله، دار بهاء الدين، (د،ط)، قسنطينة، (د،ت).
- 113- فلهاوزن يوليوس: تاريخ الدولة العربية، تر: عبد الهادي أبي ريده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د،ت).
- 114- فهمي نعيم زكي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1973.
- 115- فؤاد لطفي: خانات بلاد الشام، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2013.
- 116- فوزي فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ج2، دار الرشيد، (د،ط)، بغداد، 1977.
- 117- القصري مصطفى: كتاب الورد، ج2، الدار التونسية، (د،ط)، تونس، 1981.
- 118- كانار ساربوس: نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمداني، جوقل كريونيل، (د،ط)، الجزائر، 1924.
- 119- كاهن كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، تر: بدر الدين قاسم، دار الحقيقة، القاهرة، ط1، القاهرة، 1947.
- 120- الكتاني محمد عبد الحق: نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية، ج1، تح: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، ط2، بيروت، (د،ت).
- 121- كرد علي: خطط الشام، ج1، مكتبة النوري، ط3، دمشق، 1953.
- 122- (-، -): غوطة دمشق، مطبعة الترقى، ط2، دمشق، 1952.
- 123- الكرمللي أنستاس ماري البغدادي: النقود العربية وعلم النميات، المطبعة العصرية، (د،ط)، القاهرة، 1939.
- 124- الكعبي عبد الحكيم: عصر الخلفاء الراشدين، دار أسامة، ط1، عمان، 2003.

- 125- كفاوي عوف محمود: سياسة الانفاق العام في الإسلام وفي الفكر المالي الحديث، مؤسسة شباب الجامعة، (د،ط)، الإسكندرية، (د،ت).
- 126- كمال أحمد عادل: القادسية، دار النفائس، ط1، بيروت، 1973.
- 127- كندور: وج، مناخ القارات، ج1، تر: حسن طه، مطبعة الحكومة، (د،ط)، بغداد، 1967.
- 128- الكيلاني شمس الدين: صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، منشورات وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، (د،ت).
- 129- كين: تطور الزراعة في الشرق الأوسط ترجمة أمين نظيف، مكتبة النهضة المصرية، (د،ط)، القاهرة، 1949.
- 130- لايدوس ايرامارين: مدن اسلامية في العصر المملوكي، تر: علي ماضي، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، (د،ط)، بيروت، 1987.
- 131- لوبيز روبرت: ثورة العصور الوسطى التجارية 950-1350م، تر: محمود أحمد أبو صرة، مراجعة: صلاح الدين حسن السوري، منشورات شركة Elga، (د،ط)، مالطا، 1997.
- 132- لومبارد موريس: الجغرافية التاريخية للعالم الاسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، تر: عبد الرحمان حميدة، دار الفكر، (د،ط)، دمشق، 1979.
- 133- لسترنج كي: بلدان الخلافة الشرقية، تر: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1985.
- 134- (-، -): فلسطين في العهد الاسلامي، تر: محمود عمارة، جمعية عمال المطابع التعاونية، ط1، عمان، 1970.
- 135- المباركفوري: جامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذى، ج4، دار الكتاب العربي، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 136- متز آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة، الدار التونسية للنشر، (د،ط)، تونس، 1986.

- 137- مجموعة مؤلفين: لبنان مباحث علمية واجتماعية، ج2، المطبعة الأدبية، (د،ط)، بيروت، 1334.
- 138- مجموعة من الباحثين: الرقة درة الفرات، مر: سهيل زكار، تق: محمد نجيب السيد أحمد، (د،د،ن)، (د،ط)، الرقة، 1992.
- 139- محمد صبحي عبد الحكيم: الوطن العربي أرضه وسكانه وموارده، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، القاهرة، 1979.
- 140- محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، ج6، دار الفكر، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 141- محمود شيت خطاب: بلاد الروم قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه، دار قتيبة، ط4، بيروت، 1990.
- 142- المزيني أحمد عبد العزيز: الموارد المالية في الإسلام، ذات السلاسل، ط1، الكويت، 1994.
- 143- المصري جميل عبد الله: طرسوس صفحة من جهاد المسلمين في الثغور، م1، الجامعة الإسلامية، ط20، المدينة المنورة، 1988.
- 144- مصطفى شاکر: دولة بني العباس، ج2، وكالة المطبوعات، ط1، الكويت، 1973.
- 145- الملحم محمد بن ناصر: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية في عهد الرشيد 170-193هـ/786-808م، جامعة الإمام محمد بن سعود، (د،ط)، الاحساء، (د،ت).
- 146- المناصير محمد عبد الحفيظ: الجيش في العصر العباسي الأول، دار مجدلاوي، ط1، 2000.
- 147- مهران محمد بيومي: دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، ط2، (د،م)، (د،ت).
- 148- مؤلف مجهول: أخلاقيات المهنة، الفصل2، جامعة الملك سعود، قسم الدراسات الإسلامية، الرياض، 1435-1436.
- 149- مؤلف مجهول: الموسوعة الفقهية الكويتية، ج2، وزارة الآفاق والشؤون الإسلامية، ط2، الكويت، (د،ت).

- 150- مؤلف مجهول: حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تح: يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، ط1، القاهرة، 1994.
- 151- مؤنس حسين: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الاسلام، الزهراء للإعلام العربي، ط1، القاهرة، 1987.
- 152- (-، -): غجر الأندلس، (د،ط)، الشركة العربية للطباعة، (د،م)، (د،ت).
- 153- النبراوي فتيحة: النظم والحضارة الاسلامية، دار الفكر العربي، ط 8، القاهرة، 1997.
- 154- نصح الطاهر: شجرة الزيتون، الأردن، (د،ط)، عمان، 1947.
- 155- نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية، تر: حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ط1، القاهرة، 1950.
- 156- ن. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج1، تر: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية للكتاب، (د،ط)، القاهرة، 1985.
- 157- الهندي إحسان: الحياة العسكرية عند العرب، وزارة الثقافة، (د،ط)، دمشق، 1964.
- 158- هيومارتن جونز أرنولد: مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة: إحسان عباس، دار الشروق، ط1، عمان، 1986.
- 159- واصف بيك أمين: معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، بورسعيد، 1998.
- 160- وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، (د،ط)، الإسكندرية، 1990.
- 161- وفيق بركات: فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي، معهد التراث العلمي العربي، حلب، 1995.
- ثالثا: المراجع الأجنبية

- 1- *Achermann Marsha E: Encyclopedia of world history -600 to1450 ce-fact of file, v2, New York, 2008.*
- 2- *Ashtor, E , A social and Economic History of the near East in the middle age, london,1976.*
- 3- *Ashtor, Eliyahu , levantine sugar industry in the late Middle ages, "A case of technological decline", from the islamic Middle East 700-1900, studies in economic and social history,1981.*
- 4- *Bury-J-B: Ahistory of the eastern Roman Empire, (London Macmillan and co), 1912.*
- 5- *Canard , Marius, Histoire de la dynastie des Hamdanides de jazira et de syrie, TI, Alger, 1951.*
- 6- *Chapot Victor:la frontière de l'Euphrate de pompée à la conquête arabe, paris,1907.*
- 7- *christop hilopolou, Aik, the Byzantine history, Athens, vol 1, 1985*
- 8- *Cohn and Lowis, Population and Revue in the towns of Palestine in the sixteenth cenjury, princeton university press guild ford, New jersy,1987.*
- 9- *Comnena Anna: The Alexiad ,translated by:Elizabeth A S Dawes, Cambridge, Ontario, 2000.*
- 10- *Dussaud René, Topographie Historique de la syrie antique et mé diévale, librairieb orientaliste geuthner, paris, 1927.*
- 11- *FFahd, les corps de métiers au IVI/X siecle à Baghdad, jesho, VIII*
- 12- *Gaudefroy-Demombyses et Platonov, Le monde musulman et Byzantin jusqu'aux croisades(Histoire du Monde, t VII; direction E Cavaignac), 1932.*
- 13- *Grant, christina phelps, The syrian desert, caravans, travel and exploration, London, 1937.*
- 14- *Hebraeus Bar, the chronography of grerory Abu lfaraj (the Son of Aaron), v1, english translation, London, 1932.*
- 15- *Heyd. W,H istoire du ommerce du levant au moyen Age, vol2, Lipzig, 1886,*

- 16- *Le-strange, palestine under the moslem, A description of syria and the haly land from commited of the palestine exploration fund, GTOTO 650-1500 AD, 1890.*
- 17- *Lombard M.a, l'islam dans sa premiere qandeur (vlll.xl)siecle (paris ,1971).*
- 18- *Mantran robert sauvaget jean, réglements ficaux ottomans, les provinces syriennes, institut francais de damas, 1951, v1*
- 19- *Michelle le syrien, Chronique de michel le syrien, 3vols, ed, j,B, chabot (paris 1899- 1905).*
- 20- *Oman, M A, F S A The Byzantine Empire, GP Putnan 's Sons , New York, 1908.*
- 21- *Wright thoma, early travel in palestine, press, new york, 1969.*

رابعاً: الرسائل الجامعية

- 1- آل كمال سليمان: الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها حتى منتصف القرن الثالث الهجري (رسالة ماجستير منشورة)، ج2، جامعة أم القرى، 1998.
- 2- البدرشيني هيام هاشم أحمد: الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في منطقة الثغور الإسلامية الجزرية والشامية في القرن 3هـ/9م (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية.
- 3- برغوث يوسف: لواء حماة في القرن السادس عشر(رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة القاهرة، (د،ت).
- 4- بلمداني نوال: نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين 4-5هـ/10-11م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة وهران، 2014/2011.
- 5- التتر عبد الرحمان نصر هاشم: ولاية الحسبة في العهد العباسي ودورها في حفظ الحياة الاقتصادية والحياة العامة 132-656هـ/ 750-1250م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية غزة، 2015.

- 6- جوعان راشد سعيد ظاهري: الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة القاهرة، (د،ت).
- 7- الحارثي محمد: الثغور البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى العصر المملوكي، جامعة أم القرى، 1422هـ.
- 8- حمودي شيرين سليم: الجزيرة الفراتية منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية خلافة المأمون 132-218هـ/750-833م (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة دمشق، (د،ت).
- 9- حميور سكيينة: ريف المغرب الأوسط في القرنين 5-6هـ/11-12م، دراسة اقتصادية واجتماعية (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة قسنطينة2، 2013/2012.
- 10- الخرايشة سليمان عبد الله: مملكة طرابلس في العهد المملوكي (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1985.
- 11- الرواضية المهدي عيد موسى: جند قنسرين في العصر العباسي حتى قيام الدولة الحمدانية 132-323هـ/749-944م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، الجامعة الأردنية، (د،ت).
- 12- الزغلول جهاد غالب مصطفى: الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1994.
- 13- زويد خالد أحمد سلمي: التجارة في بلاد الشام حتى نهاية العصر العباسي الأول (مذكرة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1992.
- 14- الزهراني ضيف الله يحيى: النفقات وإدارتها في الدولة العباسية 132-334هـ (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة مكة، 1404هـ.
- 15- سليمان بن صالح: الادارة العسكرية في الدولة الإسلامية نشأتها وتطورها حتى منتصف القرن هـ-624م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، م2، جامعة ام القرى، 1992.
- 16- الطراونة جمال عبد السلام علي: الحياة الاقتصادية في شعر العصر العباسي الأول 132-232هـ، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة مؤتة، 2004.

- 17- غرب محمد زينهم محمد: الادارة المركزية للدولة الأموية (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة القاهرة، 1981.
- 18- فالح حسين: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1978.
- 19- فريح حشاش توفيق سلمان: الثغور الشامية في العهد العباسي الأول 132-232هـ/750-547م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية، غزة، 2016.
- 20- القططي أفرح أحمد: الثغور الشامية في العهد الأموي 41-132هـ/661-749م (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة غزة، 2016.
- 21- محاسنة محمد سلامة: الأحوال الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة بغداد، 1986.
- 22- محمد ربة شحاتة: اليهود في بلاد المغربين الأدنى والأوسط في عهد بني زيري 362-535هـ/972-1160م (رسالة دكتوراه غير منشورة)، القاهرة، 2003.
- 23- مقداد ابراهيم زياد إبراهيم: جند قنشرين من الفتح الإسلامي حتى نهاية الدولة حتى نهاية الدولة الأموية 15-132هـ/636-750م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الإسلامية غزة، 2017.
- 24- مكاحلة نهى محمد حسين: الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة اليرموك، العراق، 1992.
- 25- المنفي أحمد ظاهر: بلاد الشام في الجغرافية العربية منذ مطلع الإسلام (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة دمشق، 1990.
- 26- نائل عبد الحميد عبد الرحمان الرقب: أثر الحركات (الفتن والثورات) في جند دمشق على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في العصر العباسي الأول 132-247هـ/750-681م (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، (د،ت).

- 27- نعمان جبران: مملكة حمه في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجامعة الأردنية، 1980.
- خامسا: المجلات والدوريات والموسوعات
- أ- المجلات والدوريات:
- 1- بيطار أمينة: ثغر طرسوس بين عصر هارون الرشيد والاحتلال البيزنطي 170-354هـ/786-965م، مجلة الفيصل، ع242، الرياض، ديسمبر 96/جانفي 97.
- 2- جبوري، أحمد إسماعيل عبد الله: الخراج في الموصل والجزيرة في العصر العباسي، مجلة دراسات موصلية- العدد الخاص-، ع25، العراق، 2009.
- 3- حسن عماد مهدي: وسائل الارواء خلال العصر العباسي من خلال صرر المخطوطات العربية الإسلامية، ج7، مركز بابل للدراسات الحضارية التاريخية، ع2، العراق، 2017.
- 4- خالد يونس الخالدي: الزلازل في بلاد الشام من القرن 1-13هـ/7-19م، م13، مجلة الجامعة الإسلامية، ع1، غزة، يناير 2005.
- 5- الخرابشة ممدوح: النعيمات سلامة: طرق التجارة في بلاد الشام في العصر البيزنطي من القرن الأول إلى القرن السابع الميلادي، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع2، م5، الأردن، 2011.
- 6- الدوري: العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، بحث مقدم لمؤتمر بلاد الشام، الجامعة الأردنية، 1994.
- 7- الدويكات فؤاد عبد الرحيم: الأحوال الزراعية في إقليم الجزيرة الفراتية في العصر الأموي 132-749هـ/41-660م، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع1، م7، الأردن، 2013.
- 8- ذنون طه عبد الواحد: تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي، مجلة المورد، كلية الآداب، جامعة الموصل، ع1، ج17، العراق، 1988.
- 9- الراجحي محمد بن سليمان: جهود العباسيين في بناء المدن الثغرية وتحصينها، مجلة الدرعية، س4، جامعة الامام محمد بن سعود، الرياض، 13 أبريل 2001.

- 10- السرحان علي كامل حمزة: التنظيمات الحرفية في العراق خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة بابل للدراسات الحضارية والإنسانية، ع7، العراق، 2017.
- 11- الشمري نجلاء سويد إبراهيم صالح: المكايل والأوزان الشرعية وما يعاها بالأوزان المعاصرة، مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ع203، م2012، جامعة بغداد، 2013.
- 12- الشويري ظاهر خير الله: الحرفة وتوابعها، مج29، مجلة المقتطف، القاهرة، يناير1904.
- 13- الضمور حاتم: الأسواق في بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ع1، مج3، الأردن، 2009.
- 14- الطائي سناء عبد الله عزيز: اقتصاديات الثغور في القرنين الثالث والرابع للهجرة، مجلة أبحاث كلية التربية الإسلامية، ع3، مج9، جامعة الموصل، العراق، 2010.
- 15- (-، -): أنطاكية مدينة العواصم في القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، مجلة آداب الرافدين، ع60، كلية الآداب، جامعة الموصل، العراق، 2011.
- 16- (-، -): دور المرأة في الثغور والعواصم 132-354هـ، مركز الدراسات الإقليمية، دراسات إقليمية، ع14، مج5، جامعة الموصل، 2009.
- 17- طرخان إبراهيم: الاقطاع الإسلامي أصوله وتطوره، المجلة التاريخية المصرية، ع6، مصر، 1950.
- 18- طه خضر عبيد: الأسرى بين الأمويين والبيزنطيين 41-132هـ/661-750م، مجلة تكريت للعلوم الاقتصادية، مج13، العراق، 2005.
- 19- (-، -): التعبئة العربية الإسلامية في كتاب *the tactica* للإمبراطور البيزنطي ليو السادس 886-912م، مجلة المجمع القلمي، ع1، العراق، 1 فيفري 2000.
- 20- (-، -): سياسة الخلافة العباسية للمحافظة على استقرار أسعار الحنطة في العراق 132-261هـ/749-874م، مج6، مجلة الملوية للدراسات الأثرية والتاريخية، ع16، جامعة سامراء، العراق، 2019.

- 21- (-، -): طرائق فكاك الأسرى المسلمين من الصليبيين 490-690هـ/1097-1291م، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع76، الإمارات، 1 ديسمبر 2011.
- 22- (-، -): واقع البحرية العباسية في شرق البحر المتوسط 132-247هـ/749-861م، مجلة التربية والتعليم، ع18، مج3، جامعة الموصل، العراق، 2011.
- 23- (-، -): واقع المعادن المنطوقة في مشرق الدولة العربية الإسلامية حتى القرن الثالث للهجرة، مجلة المجمع العلمي العراقي، ع3، مج5، العراق، 1426هـ/2005.
- 24- العبيدي صلاح حسين: الملابس والأزياء العسكرية في العصور العربية الإسلامية، مجلة الجيش والسلاح، بغداد، 1980.
- 25- عوض عبد العزيز: نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية 1839-1914، مجلة دراسات تاريخية، ع35، 36، دمشق، 1990.
- 26- العسلي كامل جميل: الطريق من دمشق إلى بيت المقدس في القرن الأول للهجرة، مجلة الكشاف، ع1، الأردن، 1928.
- 27- العش حمد أبو الفرج: آثارنا في الإقليم السوري، دار محطة الحجاز، ط1، دمشق، 1960.
- 28- (-، -): الزجاج السوري، مجلة الحوليات الأثرية، ع1، سوريا، 1966.
- 29- عماد مهدي حسن: وسائل الارواء خلال العصر العباسي من خلال صرر المخطوطات العربية الإسلامي، مركز بابل للدراسات الحضارية التاريخية، ع2، مج7، جامعة بابل، 2017.
- 30- فايزة إسماعيل أكبر: الزط وموقعهم في التاريخ الإسلامي، مجلة العصور، ج1، ع8، الرياض، 1993.
- 31- فتحي عثمان: دولة الإسلام على الحدود بين دولتين وحضارتين، مجلة الأزهر، ع6، مصر، 1964.
- 32- فيض الله حسن سولاف: الحرف والمهن في أسواق بغداد في العصر العباسي، كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية، ع57، جامعة بغداد، 2017.

- 33- كنعان عاصم إسماعيل: نظام حماية الحدود في العصر الأموي، مجلة الفتح، ع32، مصر، 2008.
- 34- محرز محمد جمال: السجاد الإسلامي ومشتقاته في اسبانيا، المجلة التاريخية المصرية، ع11، مصر، 1963.
- 35- محمد العبد الغني عبد الرحمن: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية 40-339هـ/ 660-950م، مجلة حوليات كلية الأدب، ع11، الكويت، 1989، 1990.
- 36- محمد عمر يحيى: التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والإسلامية في عهد الأسرة الأسيوية 98-205هـ/717-820م، بحث مدعم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 2010.
- 37- مرتيني عمر وصفي: الري حول الناعورة وأقنية الري التابعة لها، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب 1983«إسهامات العرب في علم المياه والري»، 1988.
- 38- المريخي سيف شاهين خلف: تجارة العطور وصناعتها عند العرب المسلمين خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة/التاسع والعاشر للميلاد، المجلة المربية للعلوم الإنسانية، ع94، السنة24، الكويت 2006.
- 39- مصطفى نهلة أنيس: الأسواق والمراكز التجارية في شمال الشام والجزيرة خلال العصر العباسي، بحث نشر في المؤتمر الدولي في التاريخ الاقتصادي، جامعة الأزهر، القاهرة، 1998.
- 40- المعاضيدي عبد القادر سلمان: بناء المدن العسكرية، الجيش والسلاح، ع3، بغداد، 1988.
- 41- المعتصم محمد: المدينة الإسلامية وخصائصها، مجلة حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية ع2، قطر، 1982.
- 42- الموس عصام سليمان: الورق وتطور صناعته في العصر العباسي كوسيلة اتصال فاعلة، مجلة جامعة دمشق، ع3 - 4، مج27، دمشق، 2001.

43- نصير بهجت فاضل: الطواعين في صدر الاسلام والدولة الأموية، مجلة جامعة كركوك، العراق، 2011.

44- نقولا زيادة: الطرق التجارية في العصور الوسطى، تاريخ العرب والعالم، ع60/59، س5، بيروت، 1983.

45- نوري علي نادية: نشأة مدينة البصرة وتطورها العمراني في القرن الأول الهجري، مجلة دراسات البصرة، السنة السابعة، ع14، العراق، 2012.

46- Hüseyin Ali, تاريخ مدينة ملطية وعلمائها, *Journal of Academic History And Studies, Volume 2, Issue, 1, (2020)*.

ب- الموسوعات:

1- موسوعة سفير الإعلامية، الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي، ج 11، (د،م)، (د،ت).

2- الخوند مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية ج2، الشركة العالمية للموسوعات، (د،ط)، بيروت، 2002.

3- فؤاد إبراهيم وغيره: موسوعة المعرفة، م8، دار أوراق شرقية، ط1، بيروت، 2000.

سادسا: المعاجم

1- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، ج1، تح: عب الله درويش، الدار المصرية، (د،ط)، مصر، (د،ت).

2- الجوهري أبو نصر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايين، ط4، بيروت، 1987.

3- ابن دريد: جمهرة اللغة، تح: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987.

4- الزبيدي مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج10، دار الهداية، ط1، (د،م)، (د،ت).

5- الزمخشري: أساس البلاغة، مكتبة لبنان، ط1، لبنان، 1996.

6- ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، ج5، تح: إبراهيم الأبياري، ط1، (د،م)، 1971.

7- (-، -): المخصص، ج1، دار الكتب العلمية، (د،ط)، بيروت، (د،ت).

- 8- الشيخ الرضا: معجم متن اللغة، ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1958.
- 9- الطبراني أبو القاسم: المعجم الأوسط، ج8، تح: طارق بن عوض، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، (د،ط)، القاهرة، دار الحرمين، (د،ت).
- 10- ابن عباد: المعجم المحيط في اللغة، ج2، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، ط1، بيروت، 1994.
- 11- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج1، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، ط3، مصر، 1981.
- 12- الفيروز أبادي: القاموس المحيط والقابوس الوسيط في اللغة، ج1، دار العلم، (د،ط)، بيروت، (د،ت).
- 13- القاسمي محمد سعيد: قاموس الصناعات الشامية، تح: ظافر القاسمي، دار طلاس، ط1، (د،م)، 1988.
- 14- المقرئ الفيومي: المصباح المنير، ج1، المطبعة الميمنية، مصر، (د،ت).
- 15- ابن منظور: لسان العرب، ج2، 5، 7، 8، 9، 11، 12، 13، دار صادر، بيروت، (د،ت).
- القواميس:
- 1- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، ط1، القاهرة، 1960.
- 2- جبران مسعود: الرائد، دار العلم للملايين، ط7، 1992.
- 3- زكي بك أحمد: قاموس الجغرافية القديمة، المطبعة الأميرية، ط1، مصر، 1899.
- 4- عمارة محمد: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، ط1، بيروت، 1993.
- 5- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق، ط5، مصر، 2011.
- 6- لويس معلوف: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، ط40، بيروت، 2003.
- سابعاً: المواقع الإلكترونية

- 1- الخليل محمد قاسم: القيساريات السورية،
http :www.marefa.org/(3/5/2012).(17/6/2019)(5:2)
- 2- دياب عز الدين: «دراسة في الحدود السياسية والثقافية والهوية»، موقع أرنتوبوس
3w,arantropos، دمشق، (9أفريل 2009).
- 3- سيف المريخي: العلاقات الاقتصادية بين العرب المسلمين والبيزنطيين في القرنين الثالث والرابع
الهجريين، التاسع والعاشر الميلاديين، (*http://wwdr-saifcom*)، 2011/6/1.
- 16- الطائي سناء عبد الله عزيز: «دور المرأة في الثغور والعواصم 13-354هـ/974-965م (13
أكتوبر 2008)، (*http://3wpulpit-alwatan*)، (19 جوان 2011)، 228ك أ

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
10	12-10	الصف	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجْرَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَلِكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾
10	60	الأنفال	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ءَعَدُّوا لِلّٰهِ وَعَدُوِّكُمْ﴾
10	200	آل عمران	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللّٰهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
10	36	التوبة	﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَآفَّةً وَعَلِمُوا أَنّ اللّٰهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
10	41	التوبة	﴿الْأَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
11	96-95	النساء	﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللّٰهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللّٰهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّٰهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

14	19	التوبة	﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾
87	4	محمد	﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾
88	8	الانسان	﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾
141، 208	245	البقرة	﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأَضعَافًا كَثِيرَةً﴾
142	94	الكهف	﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾
142	72	المؤمنون	﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ﴾
192	5، 4	الأعلى	﴿الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾
199	11	النبا	﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾
199	10	الأعراف	﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾
200، 314	20	المزمل	﴿وَأَخْرُونَ يُضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾
200	10	الجمعة	﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
202	39	طه	﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾
202	41	طه	﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾
204	20	المرسلات	﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾

263	29	النساء	﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾
263	282	البقرة	﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَرَّةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾
263	11-10	الصف	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلُكُمْ عَلَىٰ تَجَرَّةٍ تُنَجِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
263	275	البقرة	﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾
337	1	الأنفال	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾
337	41	الأنفال	﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ﴾
352	29	التوبة	﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾
-355 356	103	التوبة	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾
379	3-1	المطففين	﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾
379	85	هود	﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

379	152	الأنعام	﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۗ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
383	3	المطففين	﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾
387	14	آل عمران	﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	الحديث
11	{ رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سَوِّطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، أَوْ الرُّوحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْعَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا }
11	{ رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأُمنَ الْفَتَانُ }
11، 12	{ كُلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُّ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنَمَّى لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ }
12	{ مَنْ رَابَطَ لَيْلَةً حَارِساً مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أُجْرٍ مَنْ خَلَفَهُ مِمَّنْ صَامَ وَصَلَّى }
12	{ رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُوَافِقَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي أَحَدِ الْمَسْجِدَيْنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وَمَنْ رَابَطَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ رَابَطَ، وَمَنْ رَابَطَ أَرْبَعِينَ يَوْماً فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الرِّبَاطَ }
12	{ يَبْعَثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَقْوَامًا يَمْشُونَ عَلَى الصِّرَاطِ كَهَيْئَةِ الرِّيحِ، لَيْسَ عَلَيْهِمْ حِسَابٌ وَلَا عَذَابٌ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَقْوَامٌ يُدْرِكُهُمْ مَوْتُهُمْ فِي الرِّبَاطِ }
12	{ مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً يُحِيفُ فِيهِ الْمُشْرِكِينَ، وَيُخِيفُونَهُ حَتَّى يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ كُتِبَ لَهُ كَأَجْرِ سَاجِدٍ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَجْرُ قَائِمٍ لَا يَقْعُدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَأَجْرُ صَائِمٍ لَا يَنْفِطِرُ }
12	{ مَنْ مَاتَ مُرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُجْرِي عَلَيْهِ عَمَلُ الصَّائِمِ وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأُمنَ الْفَتَانُ وَيَبْعَثُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِناً مِنَ الْفِرْعِ الْأَكْبَرِ }
12	{ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ، قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا، قَالَ: ثُمَّ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا، قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ }
12	{ عَزْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ حَجَّةً، وَرِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ }

	شَهْرٍ وَقِيَامِهِ {
13	قال شعبي عن تميم الداري: {قلت يا رسول ما رأيت بالروم مدينة مثل مدينة يقال لها أنطاكية، وما رأيت أكثر مطراً منها، فقال: نعم وذلك أن فيها التوراة، وعصا موسى، ورضراض الألواح، ومائدة سليمان في غار من غيراتها، ما من سحابة تشرف عليها من وجه من الوجوه إلا أفرغت ما فيها من البركة من ذلك الوادي، ولا تذهب الأيام والليالي، حتى يسكنها رجل من خلقي يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً}
14	{حِزْسٌ لَيْلَةٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ رَجُلٍ فِي أَهْلِهِ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَنْ سَكْنَى مَكَّةَ وَالْبَيْتِ الْمَقْدَسِ وَالْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ عَلَى نِيَةِ الْعِبَادَةِ وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالسُّكْنِ بِدَمِيَّاطَ، وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَطَرَابَلُسَ، عَلَى نِيَةِ الرِّبَاطِ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ؟}
14	{أَهْلُ الشَّامِ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ إِلَى مُنْتَهَى الْجَزِيرَةِ مُرَابِطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَمَنْ إِحْتَلَّ مَدِينَةً مِنَ الْمَدَائِنِ فَهُوَ فِي رِبَاطٍ وَمَنْ إِحْتَلَّ مِنْهَا نَعْرًا مِنَ الثُّغُورِ فَهُوَ فِي جِهَادٍ}
14	{أَنْتَ عَلَى نَعْرَةٍ مِنْ نَعْرِ الْإِسْلَامِ فَلَا يُؤْتِينَ مِنْ قِبَلِكَ}
141	{مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرُسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَيْهَمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ}
141	{مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ}
142	{الْحَرْجُ بِالْضَمَانِ}
149	{مَنْ أَحَاطَ حَائِطًا عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ لَهُ}
157	{مَنْ إِحْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ، فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيئَهُ وَرَوْتَهُ وَبُولَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}
192	{مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْعَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ عَلَى قَرَارِيطِ مَكَّةَ}
200	{لَا تَقُولُوا هَذَا! فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُكْفِّهَا عَنِ الْمَسْأَلَةِ، وَيَغْنِيهَا عَنِ النَّاسِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى أَبْوَيْنَ ضَعِيفَيْنِ، أَوْ ذَرِيَّةَ ضِعَافٍ، وَيَكْفِيهِمْ فَهُوَ فِي

	سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخرا أو تكاثرا فهو في سبيل الشيطان {
200	{ العامل على صدقة بالحق، كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته {
208	{ ما أكل أحد طعاما قط، خيرا من أن يأكل من عمل يديه {
313، 314	{ مَنْ إِخْتَكَّرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَقَدْ بَرِيَ مِنَ اللَّهِ وَبَرِيَ اللَّهُ مِنْهُ {
314	{ الجالب مرزوق والمختكر ملعون {
355	{ لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ {
381	{ سبحانه الله مداد كلماته {
390	{ إِنَّ الرَّخْصَ وَالْعَلَاءَ بِيَدِ اللَّهِ، لَيْسَ لَنَا أَنْ نُجُوزَ أَمْرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَعِّرُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الرَّزَاقُ {

فهرس الأعلام:

(أ)

ابن أثال: 288

ابن الأثير: 75، 157، 161، 393، 424، 434

ابراهيم بن رسم: 253

أحمد بن الحسن: 253

أحمد بن الخصيب: 400

أحمد بن تيمية: 14

أحمد بن حنبل: 131

أحمد بن سعيد بن سالم: 315

أحمد بن سلم الحلبي: 254

أحمد بن طولون: 74، 316، 394

أحمد بن عبد الملك: 229

أحمد بن نصر: 316

أحمد طاغان: 316

ابن الأخوة: 258

الإدريسي: 63، 187، 299، 302، 305، 330، 331

آدم من أبي إياس: 253

أرشيالد لويس: 114، 279

الأزدي: 320، 391

اسحاق بن مسلم العقيلي: 121

أبو إسحاق الفزاري: 345

الأسدي: 250، 317

أشتور: 265

أشناس التركي: 400

الاصطخري: 32، 36، 54، 161، 187، 188، 190، 273، 278، 279، 280، 284، 285،

324

الأصفهاني: 398

الأفشين: 365، 371

أماجور: 293

الأمين: 93، 101، 108، 123، 124، 350، 363، 364، 368، 374، 390، 391

أنس بن مالك: 12

الأوزاعي: 99

أوغسطة: 80، 268

أوليا جلي: 34، 44

إيان بن معاوية: 122

أيوب التائر: 131

(ب)

بابك الخرمي: 132، 365، 366، 369، 370

باسل الأول: 396

أبو البحتري: 337

البخاري: 15، 141

بسيل الترجمان: 127

بشار بن برد العقيلي: 253

البطال: 89

ابن بطوطة: 34، 182

بغل: 375

أبو بكر بن الأشقر: 254

أبو بكر بن هاني: 252

أبو بكر عبد الله: 316

أبو بكر (رضي الله عنه): 351

البكري: 55، 273

البلاذري: 43، 145، 161، 193، 226، 239، 277، 284، 291، 352، 354، 364، 381،

383

بنان العطار: 253

البوزجاني: 164

بيوري: 62

(ت)

التطيلي: 321، 327

تميم الداري: 13

توماس الصقلي: 131

تيوفيل: 85

(ث)

ثابت بن نصر: 92، 93، 379، 426

الثعالبي: 176، 222، 308

ثمل الخادم: 338

(ج)

الجاحظ: 310، 323، 396

ابن جبير: 34، 176، 188، 239، 264، 289، 291، 298

جستنيان: 61

ابن الجصاص: 311

أم جعفر زبيدة: 267

أبو جعفر المنصور: 25، 26، 28، 80، 97، 98، 99، 106، 113، 119، 122، 132، 140،

145، 212، 257، 267، 343، 62، 366، 374، 387، 390، 397

ابن الجوزي: 75، 365، 369، 391، 393، 425، 426، 43

(ح)

أبو الحارث الفيض: 317

الحارث: 230

حبيب بن مسلمة الفهري: 126، 352

الحجاج بن يوسف: 342، 380

الحسن بن أبي القاسم: 254

الحسن بن قحطبة: 97، 99

الحسين الخادم: 155

أبي حفص الشامي: 145

حكم بن ميمون: 320

حماد عجرد: 253

ابن حمدان: 93

حمودي: 7، 22، 32

ابن حوقل: 32، 36، 188، 189، 190، 271، 273، 279، 283، 284، 285، 301، 302،

305، 306، 324، 330، 335، 339، 349

حميد بن معيوف: 337، 426

حنا تزيمسكس: 118

(خ)

خاقان التركي: 92

خالد بن عبد الله: 374

ابن خردذابة: 53، 273، 275، 281، 284، 299، 321، 327، 349

خزيمة بن خازم التميمي: 100

الخطيب البغدادي: 221، 257، 440

ابن خلكان: 321، 440

أم الخليفة المعتز: 230، 235

أم الخليفة المقتدر: 230

خمارويه: 311، 316

الخوارزمي: 156

(د)

أبو الدرداء (رضي الله عنه): 14

الدمشقي: 207، 312

الدوري: 207، 251

(ر)

الرازي: 238

الراضي: 93، 311

ابن رسته: 36، 54، 87، 411، 442

الرشيد: 6، 26، 28، 36، 61، 81، 85، 89، 92، 93، 99، 100، 107، 111، 119، 123،
127، 140، 141، 155، 169، 187، 212، 222، 229، 252، 268، 273، 301، 310،
337، 338، 339، 346، 350، 352، 355، 363، 364، 365، 367، 368، 369، 370،
379، 380، 397، 398، 399، 400، 424، 425، 426

رؤبة: 134

الريس: 377

(ز)

زيدة: 267، 339

أبو زكريا الطحان: 253

زياد بن أبيه: 108، 343، 387

(س)

أبو سالم النصراني اليعقوبي: 228

سلمان (رضي الله عنه): 11

سليم الخادم: 107

سليمان بن عبد الملك: 24

سليمان بن علي: 122، 155

سليمان عليه السلام: 13

السماك: 8

سهل بن سعد (رضي الله عنه): 11

(ش)

شابو: 43

الشاطبي: 342

ابن الشحنة: 189، 216، 219

ابن شداد: 140

شعبي: 13، 483

شيخ الربوة: 166، 183، 185

الشيرازي: 258

الشيزري: 260، 378، 379، 380، 382، 384، 385

(ص)

صالح العباسي: 119، 377

صالح بن علي: 98، 123، 229، 424

(ط)

طاهر بن الحسين: 123، 124

الطائع: 115، 392

الطبري: 80، 155، 227، 257، 284، 337، 364، 365، 369، 370، 375، 394

الطرسوسي: 134، 341

ابن طولون: 317

(ع)

أبو العباس أحمد بن أبي غالب: 254

أبو العباس السفاح: 106، 115، 120، 155، 362، 366، 374

أبو العباس بن أبي عبد الله: 253

العباس بن زفر: 124

العباس بن المأمون: 119، 365

العباس بن محمد: 119، 121، 212، 365، 424

- عبد العزيز بن مروان: 398
- عبد الله بن طاهر بن الحسين: 124، 155، 361
- عبد الله بن علي: 119، 120، 121، 122، 155، 316
- عبد الله بن قيس: 277
- عبد الله بن محمد السفاح: 374
- عبد المحسن بن محمد: 317
- عبد الملك بن أبي أيجر الكتاني: 228
- عبد الملك بن صالح: 119، 123، 229، 337
- عبد الملك بن مروان: 6، 353
- عبد الوهاب بن إبراهيم: 97
- عبد الوهاب: 330، 331
- ابن العبري: 75، 228
- أبو عبيد ابن سلام: 148، 353، 355، 379، 380
- أبو عبيد الهروي: 381
- أبو عبيدة (رضي الله عنه): 5، 352
- أبو عثمان سعيد القارئ: 253
- عثمان بن ثمامة: 124
- عثمان (رضي الله عنه): 17، 153
- ابن العديم: 21، 34، 102، 134، 166، 187، 188، 213، 253، 298
- العرجي: 319
- ابن عساكر: 147، 152، 294، 295
- أبي عساكر: 292

العكي: 121، 377

علي بن سليمان: 99

علي بن عبد المنعم: 254

ابن عمر (رضي الله عنه): 14

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): 143، 150، 200، 201، 284، 344، 354، 380، 383،

386، 406، 407

عمر بن عبد العزيز: 24، 89، 91، 95، 105، 111، 113، 144، 147، 154، 155، 228،

266، 267، 275، 319، 343، 353، 357، 379، 389

عمر بن فرج الرخجي: 252

عمر بن هبيرة: 374

عمرو بن أحمد الباهلي: 385

عمرو بن الزبير: 320

أبو عمرو عثمان بن محمد: 254

ابن العوام: 164

عياض بن سنان: 93

عياض بن غنم: 125، 383

عيسى بن أبي موسى: 320

عيسى بن علي: 424

(غ)

الغزالي: 207، 258

الغزولي: 183

غياث بن أرزن: 88

(ف)

فتحى عثمان: 114، 335

أبى الفداء: 190

الفرزدق: 5، 384

فضالة بن معاذ بن عبد الله: 320

الفضل بن يحيى اليرمكى: 222

الفضيل بن عياض: 253

ابن الفقيه: 87، 267، 308، 309، 323

الفقيه البغدادى: 255

(ق)

القادر: 115

القاسم بن الرشيد: 92، 119، 426

القاهر بالله: 392

القائم: 26

قدامة: 31، 32، 36، 54، 82، 83، 109، 146، 169، 335، 348، 350، 359، 364

القرطبي: 263، 342

القزويني: 178، 220، 307

قسطوس: 174، 436

القلقشندي: 34، 163، 187، 191، 384

قيصر: 47، 274، 293

(ك)

ابن كثير: 257، 426

(ل)

لمبارد: 265، 310

أبو الليث نصر بن الحسن: 316، 317

لسترنج: 53

ليو الأيسوري: 86، 89، 91

ليو الرابع: 104

ليو: 85

(م)

مالك بن عبد الله الخثعمي: 24

المأمون: 85، 100، 101، 108، 115، 119، 123، 124، 131، 155، 253، 340، 350،

361، 363، 364، 365، 367، 368، 370، 371، 374، 386، 387، 390، 397، 399

الماوردي: 149، 258

المتوكل: 97، 102، 182، 234، 345، 374، 397، 399، 400

المجيلدي: 205

محمد (صلى الله عليه وسلم): 10، 11، 12، 14، 18، 103، 141، 149، 157، 200، 258،

31، 354، 439، 482

محمد بن إبراهيم: 19، 99، 363

محمد بن سليمان: 317، 471

محمد بن علي: 93

محمد بن نوح المضروب: 131

محمد سليمان: 155

مخائيل السرياني: 310

مروان بن أبي حفصة: 92

- مروان بن محمد: 96، 98، 104، 129، 130، 366، 377
- المستعين: 317، 391
- المسعودي: 41، 53، 91، 93، 219، 235، 302، 370، 400
- أبو مسلم الخراساني: 122
- مسلمة بن عبد الملك: 95، 113، 230
- المطيع: 18، 93، 115، 370
- المعتز: 230، 235، 339، 391
- المعتصم: 101، 108، 119، 127، 128، 131، 140، 219، 235، 273، 337، 347،
350، 363، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 399
- المعتضد بالله: 391
- المعداني: 314
- معز الدولة البويهبي: 392
- المعز: 116
- أبي معيط: 226
- أم المقتدر: 339، 365
- المقتدر بالله: 221، 392
- المقدسي: 42، 48، 49، 51، 65، 67، 67، 87، 90، 171، 275، 279، 280، 306، 325،
327، 329، 349، 382، 383
- المقرئبي: 375، 400
- المكتفي: 93
- ابن منظور: 204، 386

المهدي: 26، 80، 84، 93، 98، 99، 100، 106، 111، 119، 257، 277، 312، 343،

352، 362، 364، 367، 368، 369، 374، 424

موسى الهادي: 99، 107، 363، 374

موسى عليه السلام: 202

أم ميخائيل: 93

(ن)

ناصر خسرو: 34، 113، 222، 225، 278، 286، 307

نصر بن شيبث: 123، 132

نقفور: 75، 81، 85، 92، 102، 103، 297، 352، 394

(هـ)

هايد: 301

هرثمة بن أعين: 107

هرقل: 53، 81، 193

هشام بن عبد الملك: 76، 96، 105، 111، 176، 226، 290

(و)

الواثق بالله: 253، 270

الواقدي: 56

أبي الورد: 121

الوليد بن طريف: 123

الوليد بن عبد الملك: 267، 320

الوليد بن يزيد: 96، 113

(ي)

ياقوت: 5، 41، 42، 48، 102، 194، 237، 286

يحي بن خالد البرمكي: 100

يحي بن زكريا: 257

يزيد بن عبد الملك: 96، 320

يزيد بن مزيد: 100

يزيد بن معاوية: 6

يوحنا بن ماسويه: 229

أبو يوسف: 13، 14، 23، 24، 142، 149، 169، 238، 344، 358، 380، 287، 389،

298

يوسف بن عمر: 19

يونس بن كرد بن شهريار: 320

فهرس الأماكن والبلدان:

(أ)

أبدوس: 275

أبروسمان: 275

الأبلة: 277

ابلسنيل: 274

الأثارب: 271، 274، 280، 429

الأحواز: 155

أذربيجان: 48، 52، 53، 123، 302، 346، 347، 349، 501

أذرعاع: 49

أذنة: 33، 36، 42، 45، 61، 62، 63، 98، 99، 101، 102، 113، 114، 189، 274،

279، 280، 285

الأردن: 5، 38، 51، 52، 60، 98، 123، 346، 347، 348، 349، 363

آرزن: 88، 102، 275، 331، 348

أرسناس: 43

أرسوف: 39، 149، 195، 247، 271، 277

أرمينية: 25، 29، 41، 42، 48، 52، 53، 61، 66، 79، 113، 123، 221، 272،

275، 298، 301، 308، 309، 330، 331، 346، 347، 348، 349، 409، 432

أريحا: 49، 174، 183، 246، 307

أزر: 331

الاسكندرونة: 37، 45، 50، 55، 64، 65، 101، 324

الإسكندرية: 14، 55، 91، 279، 435، 452، 463، 466، 483

آسيا الصغرى: 7، 19، 23، 24، 36، 40، 41، 46، 47، 52، 53، 55، 61، 62، 79، 82،

83، 110، 112، 114، 116، 118، 133، 139، 181، 264، 265، 272، 273، 274،

275، 290، 301، 367، 408

آسيا الوسطى: 323

أعزاز: 300

أفامية: 74، 124، 429

إفريقية: 4، 114، 115، 297، 305، 432

اقريطش: 54، 330، 409

آقور: 48، 275، 325، 326

آمانوس: 44، 45، 50، 62، 83، 139، 161، 195

آمد: 41، 65، 71، 79، 102، 113، 275، 325

الأناضول: 44، 216، 251، 290

الأندلس: 54، 87، 114، 257، 278، 308، 328، 330، 332، 333، 409، 432

أنطاكية: 6، 13، 23، 26، 27، 28، 29، 37، 42، 49، 50، 73، 76، 77، 79، 100،

101، 107، 124، 126، 131، 132، 156، 172، 175، 177، 179، 180، 184، 187،

192، 194، 195، 211، 219، 237، 239، 247، 265، 266، 271، 272، 274، 277،

279، 280، 285، 288، 291، 297، 298، 299، 302، 304، 305، 325، 338، 395،

409

أنطالية: 276

أنطرسوس: 38

أنفة: 38

أوروبا: 6، 7، 48، 79، 181، 214، 217، 237، 265، 277، 287، 330

أولاس: 37، 280، 317

أياس: 37، 253

إيليا: 383

(ب)

الباب: 300

بازيدي: 348

بازور: 39

باعبدون: 75

باقردي: 348

بانياس: 37، 49، 146، 173، 174، 195، 280

بشرون: 38

البحر الأحمر: 101، 114، 269، 276، 277، 301

البحر الأدرياتي: 82

البحر الأسود: 52، 272، 276، 298، 302، 331

بحر ايجة: 55

بحر الخزر: 331

بحر الروم: 5، 41، 45، 46، 48، 49، 50، 54، 55، 70، 72، 191، 280

البحر المتوسط: 64، 226

البحر الميت: 51، 52، 63

بحر قزوين: 52، 272

بحيرة أفامية: 74

بحيرة العمق: 194

بحيرة طبرية: 270

البدندن: 47

البذندون: 62، 85، 275، 281

البرانس: 115

برج قلمية: 340، 342

برزويه: 28

برشلونة: 213

بروفانس: 321

بزاعة: 301

بسطة: 61

البطائح: 4، 148

بعلبك: 51، 68، 164، 173، 177، 180، 184، 219، 225، 245، 247، 304، 323،
325

بغداد: 25، 28، 85، 93، 97، 98، 102، 107، 118، 119، 125، 137، 178، 221،
255، 257، 266، 267، 272، 273، 277، 298، 306، 313، 322، 327، 332،
363، 391، 392، 395، 396، 398، 399، 404

بغراس: 27

البقاع: 23، 49، 51

بكاس: 27

بكسراييل: 37

بلاد الخزر: 331

بلاطنس: 37

بلد: 123

بلدة: 37

بلد جاوباس: 75

البلقان: 19

البلوبونيز: 82

بليسة: 275

البند الإيجي : 82

البندقية : 213

بوفا : 27، 96

بياس : 33، 34، 189، 279، 280

بيت المقدس : 14

بيت جبريل : 49

بيت جبرين : 39، 307

بيت لاها : 28

بيروت : 38، 65، 76، 7177، 178، 180، 186، 195، 271، 274، 277، 278، 279،

280، 287، 288، 325

بيسان : 49، 457

(ت)

التبت : 41

تبوك : 49

تدمر : 16، 49، 52، 269

تراقيا : 104

تكريت : 272، 472

تل باشر : 181، 300

تل جبير : 35، 274

تل عبدا: 273

تل كيسان: 38

تيزين: 27

التينات: 37، 126، 189، 225، 279، 301، 306، 324، 328

(ج)

الجايية: 277

جاوباس: 75

جبال القبق: 52

جبال النصيرية: 50

جبال طوروس: 7، 19، 41، 43، 44، 45، 46، 47، 48، 50، 53، 61، 62، 110، 111،

113، 115، 139

جبل الأقرع: 50

جبل اللكام: 44، 45، 83، 126، 171، 279، 352

جبل جرمق: 51

جبل دلوك: 189

جبل سعير: 51

جبل نمرد: 43

جبلة: 37، 77، 146، 215، 271، 274، 288

جبييل: 38، 177، 180، 183، 190، 219، 225، 307

المرجومة: 27، 126، 222، 307

المردقوب: 275، 281

جزيرة ابن عمر: 19، 315

جزيرة ساموس: 82

جزيرة يابس: 54

الجزيرة: 3، 14، 16، 19، 20، 25، 26، 28، 29، 32، 40، 41، 48، 49، 52، 53، 54،

55، 61، 65، 66، 67، 68، 69، 70، 71، 76، 78، 79، 80، 93، 96، 97، 99، 100،

102، 107، 108، 120، 121، 122، 123، 140، 155، 162، 163، 169، 173، 176،

224، 264، 265، 266، 267، 271، 273، 274، 275، 276، 281، 285، 297، 301،

302، 326، 329، 330"، 331، 346، 347، 353، 354، 362، 363، 363، 367، 371،

382، 392، 394، 395، 398، 400، 408

الجزيرة العربية: 16، 176، 227، 264، 275، 408

جك صو: 43

الجماهرية: 37

جنوة: 213

جورجيا: 53

جوسية: 429، 342، 452

الجولان: 51، 52

الجمومة: 37

حارة اليهود: 330

حارم: 179، 238

الحجاز: 23، 101، 107، 115، 183، 276، 277، 297، 307، 308

الحدث: 24، 35، 36، 44، 45، 48، 61، 74، 99، 100، 101، 106، 108، 111، 122،

155، 188، 273، 274، 280، 285، 363، 364، 367، 368، 424

حران: 41، 77، 120، 123، 266

حرمون: 51

الحرمين: 157، 475

حصن الجوزات: 181، 341

حصن الحدث: 44، 48، 99، 100، 101، 106، 111، 112، 155، 188، 273، 276،

274، 280، 285، 363، 367، 368

حصن الصقالبة: 62، 275، 281

حصن النصارى: 277

حصن بلومين: 275

حصن ثابت: 34

حصن سمالو: 111

حصن شاكر: 34

حصن عُجَيف: 34

حصن قلوزية: 36، 366

حصن كَمَخ: 36

حصن ماردین: 163

حصن منصور: 35، 96، 140، 189، 273، 280

حلب: 23، 26، 28، 42، 49، 50، 52، 100، 102، 121، 123، 164، 172، 173،

174، 175، 176، 177، 178، 180، 181، 182، 184، 185، 187، 188، 210، 214،

216، 217، 219، 224، 237، 238، 265، 270، 271، 272، 273، 274، 279، 280،

283، 284، 285، 286، 288، 297، 298، 299، 302، 304، 306، 307، 324، 325،

326، 328، 358، 380، 381، 382، 384، 385، 386، 387، 392، 400

حمص: 5، 6، 37، 49، 51، 76، 77، 104، 123، 173، 176، 177، 184، 195، 216،

219، 274، 279، 280، 283، 294، 300، 304، 325، 341، 346، 347، 348، 349،

363، 381، 383، 384، 385، 429

حصن لؤلؤة: 62، 275، 281

حور: 280

حوران: 51، 52

الحولة: 68

حيفا: 38، 65، 180، 225

(خ)

خان العروس: 294

خراسان: 41، 106، 107، 122، 286، 367

خرسيون: 331، 333، 409، 410

الخروبة: 38

الخصوص: 97، 106، 152، 247

خلاط: 299

خليج أسوس: 61

خليج العقبة: 51، 52، 269

خناصرة: 27، 271، 280

خوارزم: 87

خوزستان: 107

(د)

دابق: 92، 194، 272، 424

دارا: 79، 275

داقين: 271

دانا: 28

درب السلامة: 47، 272، 275

الدرب: 7، 194

الدريساك: 194

دركوش: 28، 177، 179

درولية: 34، 275

دُلوك: 27، 122، 125، 189

دمشق: 4، 5، 38، 49، 76، 98، 118، 120، 123، 173، 174، 176، 177، 178، 182،
183، 187، 214، 222، 245، 264، 274، 278، 279، 280، 283، 287، 292، 294،
295، 297، 304، 305، 307، 320، 332، 346، 347، 348، 349، 363، 382، 385،
387، 393، 394

دمياط: 14

دنوس: 275

دوسر: 271، 274

ديار بكر: 231

ديار ربيعة: 348، 349، 383

ديار مضر: 348، 349

(ذ)

ذي الكلاع: 35

(ر)

رأس العين: 41، 71

رأس الغابة: 275

الرافقة: 98، 337

الران: 53، 302، 330

ريض قونية: 275

الرحبة: 301

الرس: 52

رصافة هشام: 28، 220، 233، 242، 285

رُعبان: 27، 125

رفع: 64، 277، 279

الرقعة: 41، 81، 124، 175، 216، 237، 271، 272، 273، 274، 285، 301، 302،

320، 325، 409

الرملة: 49، 174، 195، 279، 321، 332، 372، 382

الرهوة: 24، 275، 281

رودس: 42، 55

(ز)

الزاب: 4، 49، 70، 120، 366

زبطرة: 35، 42، 44، 61، 96، 98، 101، 108، 155، 189، 231، 273، 280

زندة: 34، 302، 305، 327

الزوزان: 330

(س)

سارس: 61

سجستان: 107، 339

سر من رأى: 41

سردانية: 54

سرمين: 27

سروج: 177، 273

سلفوس: 273

سلوقية: 27، 90، 101، 211، 231، 235

السماوة: 52

سنجار: 71

السند: 223، 277، 322، 430

سوريا: 41، 44، 50، 79، 166، 194، 269، 449

سيس: 33، 46

سيناء: 50، 277

سيواس: 44

(ش)

الشام: 3، 5، 7، 14، 15، 19، 20، 21، 22، 25، 26، 28، 29، 32، 33، 34، 35، 36،
38، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 48، 49، 51، 52، 53، 54، 55، 60، 61، 62، 63، 64،
65، 66، 68، 69، 70، 71، 72، 76، 77، 78، 79، 82، 87، 91، 93، 98، 99، 101،
102، 106، 107، 110، 111، 113، 114، 115، 116، 118، 120، 122، 123، 124،
132، 139، 140، 144، 145، 146، 148، 153، 155، 160، 162، 172، 173، 174،
175، 176، 177، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 189، 191، 194، 212،
213، 215، 219، 224، 225، 226، 228، 230، 237، 239، 241، 247، 251، 264،
265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278،
279، 280، 283، 286، 287، 289، 290، 292، 293، 294، 295، 297، 298، 299

,323 ,322 ,321 ,320 ,316 ,309 ,308 ,307 ,306 ,305 ,304 ,302 ,301 ,300
,339 ,332 ,331 ,330 ,339 ,332 ,331 ,330 ,329 ,328 ,327 ,326 ,325 ,324
,377 ,373 ,369 ,365 ,362 ,358 ,357 ,353 ,351 ,350 ,349 ,347 ,346 ,345
409 ,408 ,402 ,400 ,396 ,392 ,388 ,386 ,384 ,383 ,381 ,379

الشاقة: 58

شبه جزيرة القرم: 331

الشراة: 67

شروان: 53

الشعر: 27

ثُمَّشَاط: 36، 41، 273، 345

شيراز: 4

(ص)

صارون: 51

صفد: 49، 51

الصفصاف: 23، 276، 281، 339، 425، 426

صقلية: 54، 82، 114، 115، 132، 277، 279، 321، 330، 409

صهيون: 37

صور: 38، 51، 174، 211، 212، 214، 219، 237، 247، 270، 274، 277، 278،

279، 280، 286، 287، 304، 30

الصيد: 275

صيدا: 38، 174، 177، 184، 190، 211، 225، 237، 240، 271، 274، 277، 280،
324، 286

(ط)

طاحون الفتحية: 241

طبرية: 184، 222، 270، 279

طرابزون: 79، 276، 297، 298، 302، 305، 331، 333، 409، 410، 432

طرابلس: 14، 38، 42، 132، 168، 174، 175، 177، 179، 180، 181، 182، 183،

195، 210، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 221، 222، 224، 225، 236، 237،

240، 242، 247، 271، 274، 277، 278، 279، 280، 286، 325، 328، 381، 385

طرسوس: 33، 34، 36، 42، 43، 46، 47، 54، 61، 62، 63، 74، 75، 77، 87، 90، 99،

100، 102، 107، 113، 114، 115، 116، 119، 126، 131، 137، 173، 177، 179،

181، 190، 217، 222، 238، 242، 245، 265، 267، 272، 275، 279، 280، 281،

284، 300، 310، 316، 317، 324، 339، 340، 341، 363، 364، 366، 367، 371،

379، 393، 394، 409

طرنده: 35، 105

الطوانة: 47، 425

(ع)

العاصي: 50، 51، 69، 73، 164، 166، 177، 195، 241

عانة: 301

العرابة: 38

العراق: 18، 36، 41، 48، 52، 55، 103، 107، 146، 151، 175، 177، 181، 251،
264، 271، 272، 273، 274، 286، 298، 302، 304، 305، 306، 307، 308، 309،
325، 326، 327، 329، 330، 331، 333، 343، 350، 377، 383، 394، 408، 409

عريسوس: 61

عرقة: 38، 174، 214، 217، 237، 241

العريش: 277

عسقلان:

عقبة بغراس: 372

عكا: 8، 38، 174، 190، 195، 208، 211، 212، 215، 226، 237، 264، 270، 377

العلمين: 275

العليق: 275، 281

عمان: 49، 277

عمريت: 54

العمق: 51، 63

عمورية: 42، 127، 219، 229، 230، 235، 272، 273، 275، 337، 369، 371

عين الأحنات: 71

عين الآس: 71

عين باكالا: 71

عين برغووث: 275

عين حنبوص: 71

عين دارا العين: 71

عين الرومية: 273

عين الرياضية: 71

عين الزاهرية: 71

عين زربي: 33، 61

عين زعورا: 71

عين سودا: 71

عين لصرار: 71

عين نور الدين: 241

عين الطويلة: 71

عين المدورة: 71

عين الهاشمية: 71

(غ)

غزة: 39، 65، 177، 180، 191، 219، 271، 274، 277، 278، 287، 288، 304

الغطاسين: 275

(ف)

فارس: 107، 120، 122، 223، 297، 298، 321، 326

الفرما: 100، 277، 322

الفرنجية: 409

فلسطين: 5، 19، 25، 38، 51، 79، 90، 140، 175، 178، 182، 346، 347، 348،

349، 350، 363

فلوغري: 275

(ق)

قاصرين: 146، 148

قاقون: 39

قالي قلا: 41

قبرص: 42، 54، 55، 82، 116، 222، 307، 309، 329، 337، 409

قبرو: 55

القدس: 49، 442

قرقيسيا: 41، 301

قرية الأصنام: 275

قرية البطريق: 275

قرية الجوز: 275

قرية داريا: 176

القسطنطينية: 9، 19، 23، 25، 47، 79، 80، 82، 85، 87، 89، 91، 110، 111، 114،

115، 119، 128، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 187، 192، 197، 302، 315،

321، 322، 326، 327، 331، 368، 404، 409

قصر بني نازع: 275

قطرغاش: 35، 96، 105

قطيئة: 275

القطيفة: 294

قطينا: 307

القلم: 276، 277، 322، 329

قلعة أبي الحسن: 38

قلعة لؤلؤة: 47

القلمون: 195

قنسرين: 5، 6

قورس: 27، 37، 124، 279، 280

القيروان: 4، 115

قيسارية: 39، 177، 180، 239، 274، 286، 289، 291، 293، 295، 409

قيصرية: 43، 44، 61، 293

قيليقية: 43، 44، 45، 46، 47، 48، 50، 61، 62، 63، 245

(ك)

الكاف: 37، 223، 322

كبادوكيا: 43، 47، 61، 62

الکرد طاغ: 195

كرسل: 38

كركر: 35

الكرم: 275

كرمان: 339، 107

الكرمل: 463، 51

كفريبيا: 367، 113، 100، 99، 34

كفرلاب: 39

كفوتوثا: 275

كلس: 245، 240

الكنائس: 275

الكنيسة السوداء: 367، 274، 42

الكوفة: 395، 274، 240

كوكب: 275

كيسوم: 285، 273، 189، 132، 126، 124، 123، 35

(ل)

اللاذقية: 241، 240، 232، 221، 219، 217، 215، 175، 99، 95، 77، 50، 42، 37

271، 280، 287، 288، 325، 328

لبنان: 225، 195، 185، 184، 178، 177، 161، 132، 68، 67، 66، 51، 50

اللجون: 49

لوييا: 341

ليبيا: 225

(م)

ما بين النهرين: 44، 48، 52، 323

ماردين: 163

المثقب: 34، 95، 96، 105، 271

مخاضة: 275

المخلصة: 277

المدائن: 107

مدينة اللبن: 275

المدينة المنورة: 14

مرتحوان: 27

مرج ابن عامر: 51

مرج الأسقف: 275

مرج عبد الواحد: 144، 155

مرج ناقولية: 275

مرسيليا: 213

مرعش: 32، 35، 36، 43، 44، 61، 63، 96، 98، 100، 104، 106، 188، 273، 274،

280، 281، 285، 300، 366، 409

المرقب: 37، 174، 211

مرقية: 37، 214

المزينة: 273

المسكنين: 275

مسيبي: 330

مصر: 4، 14، 19، 21، 27، 54، 82، 87، 91، 107، 114، 115، 119، 120، 124،
137، 152، 155، 174، 177، 181، 183، 189، 190، 216، 224، 225، 226، 252،
264، 267، 276، 277، 278، 286، 287، 293، 294، 297، 299، 305، 306، 307،
308، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 330، 332، 333، 339، 365، 369،
377، 392، 400، 408، 409

مصياب: 38

المصيصة: 33، 36، 42، 45، 46، 61، 62، 63، 74، 75، 76، 95، 96، 97، 99، 102،
105، 106، 107، 113، 188، 189، 192، 194، 211، 220، 232، 233، 234، 235،
242، 272، 274، 279، 280، 284، 304، 305، 324، 362، 364، 366، 393، 394،
432

المضيف: 275

معرفة النعمان: 181، 299، 429

معرفة مصرين: 27، 177، 429

المغرب: 21، 107، 114، 116، 123، 278، 321، 326، 328، 330، 332، 333، 339،
392، 400، 409

مكة: 13، 14، 137، 192، 267، 277، 288، 329، 384، 400

ملطية: 32، 35، 36، 40، 42، 43، 44، 61، 62، 75، 79، 89، 91، 95، 97، 102، 105،
108، 126، 139، 140، 177، 178، 181، 188، 210، 219، 230، 231، 273، 275،
279، 280، 285، 297، 300، 317، 324، 364، 366، 409، 424، 425

ملوطي: 275

مملكة تدمر: 16

منبج: 6، 27، 28، 29، 41، 167، 176، 179، 180، 185، 187، 189، 210، 217،
218، 229، 247، 266، 271، 272، 274، 279، 280، 284، 298، 299، 302، 304،
305، 307، 324، 409، 432

منطقة الثغور: 7، 15، 28، 29، 56، 59، 63، 64، 69، 74، 94، 120، 126، 127، 131،
152، 157، 194، 209، 215، 230، 274، 289، 304، 321، 324، 336، 388

المنيطرة: 38

مورة: 35

موزار: 34

الموصل: 29، 41، 48، 76، 120، 122، 123، 267، 272، 273، 297، 298، 301، 302،
331، 346، 347، 348، 349، 390، 392، 395

ميفارقين: 42، 71، 102، 275، 301، 348

ميماس: 39

ميناء تنيس: 119

ميناء طرابزون: 276، 305، 331

(ن)

نابلس: 49، 217

الناصرية: 51

النصرية: 195

نصيبين: 41، 122، 275

نهر إبراهيم: 241

نهر أبو علي: 241

نهر الأحساء: 275

النهر الأزرق: 43

النهر الأسود: 44

نهر الأعوج: 69، 241

نهر البردان: 46، 72

نهر بردى: 69، 241

نهر البليخ: 70

نهر الثرثار: 71

نهر الجعجع: 70

نهر جلاب: 71

نهر جيحان: 43، 45، 61، 63، 188، 425

نهر الخابور: 70

نهر دجلة: 19

نهر ديسان: 71

نهر الرد: 71

نر الرس: 54، 53

نهر الساجور: 71، 73

نهر السن: 21

نهر سيحان: 43، 45، 46، 63، 72، 98، 99، 101

نهر عفرين: 72

نهر القباقب: 43، 44

نهر قويق: 167

النهر الكبير: 50

نهر الكر: 52، 53

نهر اللامس: 46، 72، 89، 90، 93، 316، 370، 371

نهر هرقله: 275

نهر يزيد: 166، 167

النهروان: 71

النوبة: 275

(هـ)

الهارونية: 33، 36، 44، 61، 62، 100، 107، 126، 274، 280

الهاليس الأعلى: 43

هرقلة: 47، 62، 81، 85، 273، 275، 309، 352

الهند: 23، 179، 223، 264، 265، 277، 286، 297، 308، 321، 322، 326، 331،

332، 408، 409، 432

(و)

وادي البقاع: 51

وادي الجوز: 275

وادي الريح: 275

واسط: 4

وجدة: 277

(ي)

يافا: 39، 51، 64، 65، 175، 177، 225، 271، 274، 277، 278، 287

اليمن: 107، 224، 276، 277، 290، 297

فهرس القبائل والفرق:

(أ)

الأتراك: 102، 108، 317، 397، 404

الإخشيدون: 115

الأرمن: 34، 52، 53، 83، 102، 126، 299، 331، 341، 371

الأغالبة: 115، 392

الإفرنج: 17، 44، 321

أهل الجزيرة: 32، 108، 121، 354، 362، 366

أهل الذمة: 127، 130، 142، 153، 154، 321، 351، 357

الأوروبيين: 171، 292، 295، 384

الأيوبي: 257، 380

(ب)

البدو: 79

البرامكة: 25، 400

بنو العباس: 13، 18، 21، 25، 29، 40، 43، 53، 95، 97، 102، 105، 111، 115، 118،

120، 121، 122، 155، 253، 267، 279، 285، 350، 374، 371، 375، 403

بنو أمية: 12، 18، 19، 24، 25، 29، 43، 53، 59، 91، 105، 110، 114، 118، 120،

144، 155، 160، 195، 235، 320، 343، 374، 403

بهاء: 353

البولسيين: 83

البيالقة: 83

البيزنطيين: 16، 18، 19، 20، 22، 23، 25، 36، 40، 41، 53، 54، 60، 61، 62، 78،
82، 83، 86، 88، 89، 91، 93، 94، 97، 99، 101، 104، 107، 110، 112، 118،
127، 128، 135، 151، 225، 228، 229، 268، 269، 297، 298، 299، 300، 304،
305، 308، 310، 315، 336، 341، 373

(ت)

تنوخ: 353

(ج)

الجراجمة: 83، 127، 195، 352، 371

الجمهورية الإيطالية: 299

(ح)

الحجازيين: 329

الحمدانيين: 102، 392

(خ)

الخراسانيين: 106

الخرمية: 83

الخنزر: 25

الخلافة الفاطمية: 115

الخوارج: 99

(د)

الدمشقيون: 295

الدولة الحمدانية: 297، 298

(ر)

الراشدون: 18

الرافقة: 98، 337

الروم: 3، 7، 13، 21، 28، 31، 33، 36، 40، 41، 42، 43، 44، 45، 47، 48، 53، 54،
55، 56، 61، 62، 74، 78، 79، 80، 81، 83، 84، 85، 86، 87، 89، 90، 92، 93،
103، 105، 108، 109، 110، 111، 112، 113، 116، 118، 122، 125، 126، 127،
128، 132، 134، 136، 137، 146، 150، 151، 153، 162، 171، 188، 199، 208،
221، 223، 229، 231، 235، 265، 266، 268، 271، 272، 273، 274، 276، 278،
280، 297، 300، 302، 304، 307، 308، 309، 312، 315، 324، 325، 327، 329،
330، 331، 337، 338، 339، 345، 352، 354، 358، 361، 363، 368، 369، 371،
373، 393، 394، 403، 405، 407، 409، 411

الرومان: 17، 53، 79، 266، 268، 269، 270

(ز)

الزط: 128، 131

الزنادقة: 257

الزنج: 307

(س)

الساسانيين: 16

السامانيين: 392

السامرة: 351، 352

السريان: 17، 41، 50، 310

السلاف: 47، 83

(ش)

الشاميين: 299، 331

الشرق الإسلامي: 297، 332

(ص)

الصابئين: 351

الصقالبة: 62، 83، 87، 275، 331

الصينيين: 174، 221، 222

(ط)

الطولونيين: 16، 392

طي: 352

(ع)

العجم: 179، 286

العراقيين: 331

العرب: 21، 24، 41، 44، 45، 46، 47، 49، 52، 62، 79، 82، 89، 110، 142، 144،
146، 147، 154، 174، 184، 201، 219، 221، 228، 231، 268، 275، 305، 320،
323، 327، 345، 354، 357، 373، 380، 384

(غ)

الغرب الأوروبي: 6، 265

الغساسنة: 16

(ف)

الفاطميين: 153

فانوس: 55

الفرس: 19، 41، 43، 79، 128، 135، 235، 312، 365، 375، 376، 391

الفرنجية: 330، 409

(ق)

القبط(الأقباط): 225

قبيلة كلب: 230

قضاة: 225

(ك)

الكلدانيون: 41

(ل)

اللاتين: 53، 381، 383، 387

(م)

المجوس: 130، 183، 351

المسلمين: 4، 7، 11، 12، 13، 14، 15، 17، 18، 19، 21، 23، 25، 40، 41، 42، 43،
44، 47، 48، 50، 53، 54، 60، 61، 62، 74، 75، 78، 79، 81، 82، 83، 85، 86، 88،
89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 97، 102، 104، 106، 108، 109، 110، 111،
114، 115، 116، 118، 125، 126، 127، 128، 129، 131، 136، 138، 139، 140،
143، 144، 145، 146، 148، 151، 153، 154، 155، 156، 157، 161، 169، 171،
186، 190، 199، 222، 226، 228، 229، 263، 266، 267، 268، 279، 284، 288،
296، 297، 300، 302، 304، 305، 308، 310، 315، 318، 319، 320، 322، 326،
327، 330، 331، 336، 338، 342، 344، 345، 351، 354، 357، 370، 371، 373،
393، 394، 402، 403، 405، 406، 411

المسيحيون: 127، 279، 353

المشركين: 4، 10، 12، 14، 92، 336، 351، 482

المصريين: 295

المناذرة: 16

الموالي: 320، 400

(ن)

النبط: 41

النصارى: 47، 112، 124، 127، 130، 277، 301، 318

(ي)

اليهود: 130، 218، 297، 318

اليونان: 17، 53، 86، 229، 294، 37

فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ- أأ	المقدمة
196-1	الباب الأول: جغرافية ثغور الشام والجزيرة والعوامل المؤثرة في نشاطها الاقتصادي
196-2	الفصل الأول: جغرافية ثغور الشام والجزيرة
56-3	المبحث الأول: القصد من الثغور والمصطلحات المرتبطة بها
4-3	1- المقصود بالثغور
9-4	2- مصطلحات مرتبطة بالثغور
15-10	المبحث الثاني: فضائل الثغور والرباط
11-10	1- في القرآن الكريم
13-11	2- في السنة النبوية
15-13	3- في أقوال العلماء والفقهاء
30-16	المبحث الثالث: نشأة الثغور وتطورها
21-17	1- أسباب قيام الثغور
23-21	2- نشأة الثغور وتطورها
30-23	3- نضج فكرة الثغور
25-23	أ- في العصر الأموي
30-25	ب- في العصر العباسي
40-31	المبحث الرابع: تقسيمات الثغور
37-32	1- البرية
40-37	2- البحرية
56-41	المبحث الخامس: جغرافية الثغور والمنطقة المحيطة بها
48-42	1- جغرافية إقليم الثغور

56-48	2- جغرافية المنطقة المحيطة بالثغور
137-58	الفصل الثاني: عوامل نمو النشاط الاقتصادي بإقليم الثغور
77-60	المبحث الأول: الظروف الطبيعية وأثرها على النشاط الاقتصادي
63-60	1- الموقع
66-63	2- المناخ
67-66	أ- الأمطار
68-67	ب- الحرارة
69-68	ج- الرياح
74-69	3- مصادر المياه
71-69	1- الجزيرة
74-71	2- الشام
77-74	4- الكوارث الطبيعية
117-78	المبحث الثاني: إدارة الثغور
94-78	I- طبيعة العلاقة من المسلمين والبيزنطيين
84-78	1- الاتصالات الحربية
82-79	أ- الحملات البرية
80-79	1- معاقل الحدود
82-80	2- فتح القسطنطينية
83-82	ب- الحملات البحرية
84-83	ج- المعارك الداخلية

94-84	2- الاتصالات الدبلوماسية
85-84	أ- المراسلات المكتوبة
86-85	ب- السفارات الشخصية
94-86	ج- الأسرى
90-87	1- معاملة الأسرى في الدولتين
94-90	2- طرق تخليص الأسرى
117-94	II- التنظيم الإداري العسكري
95	1- اهتمام الخلفاء بالثغور
103-95	أ- بناء الثغور وتحصينها
108-103	ب- تدمير الثغور
117-108	2- سياسة الخلفاء في الثغور
112-108	أ- تسير الصوائف والشواتي
112	ب- سياسة النقل والتهجير
113-112	ج- تمصير الثغور
116-113	د- الاهتمام بالأسطول لحماية الثغور البحرية
117-116	هـ- انشاء القواعد البحرية المتقدمة
124-118	المبحث الثالث: السياسية الإسلامية-البيزنطية
119-118	1- تبادل السيطرة على الثغور
120	2- ساحة للصراع الأموي العباسي
122-120	3- ساحة للثورات الأموية
124-122	4- مواطن لثورات الطامعين في الخلافة والخارجين عنها
132-125	المبحث الرابع: العوامل الأمنية

128-125	1- الاستفادة من سكان الثغور في العمل الأمني
128	2- توظيف التجار للعمل الأمني
129-128	3- العيون والجواسيس
130	4- نقاط للاستطلاع المتقدم ومكافحة الجاسوسية
131	5- منفى لمناوئي الحكم
132-131	6- استيعاب ودعم الثائرين على العدو
137-133	المبحث الخامس: الحروب والمعارك
135-133	1- التعبئة العسكرية والتدريب
136-135	2- طريقة تحريك الجيوش من الثغور
136	3- حماية الجبهة الداخلية في الثغور
136-136	4- الحروب النفسية
196-139	الفصل الثالث: الزراعة والنشاط الرعوي
149-139	المبحث الأول: الأراضي الزراعية بمناطق الثغور
141-139	1- الاهتمام بالأرض
149-141	2- أصناف الأرض
145-141	أ- أرض الخراج
146-145	ب- الأرض العشرية
148-146	ج- الصوافي
149-148	د- الأرض الموات
158-150	المبحث الثاني: ملكية الأرض
152-150	1- الإقطاع

156-152	تطور الإقطاع
156-152	الإقطاع بالثغور والسواحل
155-153	أ- في العهد الأموي
156-155	ب- في العهد العباسي
158-156	2- الوقف والأحباس
170-159	المبحث الثالث: تنظيم الري ووسائله
164-160	1- مصادر الري
162-160	أ- مياه الأمطار
163-162	ب- مياه الأنهار
164-163	ج- مياه العيون والينابيع والآبار
168-165	2- أدوات ووسائل الري
166-164	أ- الآلات والأدوات
168-167	ب- القنوات
168	ج- الجسور والقناطر
170-168	3- كرى الأنهار وتنظيم الري
191-171	المبحث الرابع: الإنتاج الزراعي
186-171	I- المحاصيل الزراعية
173-172	1- المحاصيل الغذائية
174-173	2- محاصيل أخرى
182-174	3- الأشجار المثمرة والفواكه
184-182	4- الورد والأزهار

186-184	5- الأعشاب الطبية
191-186	II- حالة الزراعة في مدن الثغور
196-192	المبحث الخامس: الرعي وتربية الماشية
400-197	الباب الثاني: وسائل الإنتاج بثغور الشام والجزيرة
261-199	الفصل الأول: أهم الصناعات والحرف
212-199	المبحث الأول: الصناعات والحرف وعوامل قيامها
204-201	1- مفهوم الحرفة والصناعة
202-201	أ- مفهوم الحرفة
203-202	ب- مفهوم الصناعة
204-203	ج- مفهوم المهنة
205-204	2- العلاقة بين الحرف والمهن والصناعات
208-206	3- أنواع الحرف والصناعات
212-208	4- عوامل قيام الصناعة
209-208	أ- العمل
209	ب- رؤوس الأموال
209	ج- توفر الخبرة الفنية
211-210	د- توفر المواد الأولية الخام
212	هـ- اهتمام الخلفاء بالصناعة
247-213	المبحث الثاني: الصناعات الرئيسية
231-213	I- الصناعات القائمة على الإنتاج النباتي والحيواني
214-213	1- صناعة السكر
215	2- صناعة الزيت

216-215	3- صناعة الصابون
217	4- صناعة النبيذ والخمور
218-217	5- صناعة تجفيف الفواكه
220-218	6- الصناعة النسيجية
221-220	7- صناعة الحصر
222-221	8- صناعة الورق
224-223	9- صناعة العطور
227-224	10- صناعة المراكب والسفن
231-227	11- صناعة الطب والأدوية والتمريض
240-231	II- الصناعات القائمة على التعدين
232-231	1- الصناعة الحديدية
237-233	2- صناعة الأسلحة
237	3- صناعة الزجاج
238-237	4- صناعة النحاس
238	5- صناعة الأواني الفخارية
240-238	6- فن العمارة وصناعة البناء
247-241	المبحث الثالث: الحرف
242-241	1- حرفة طحن الغلال
243-242	2- الصناعة الجلدية
245-244	3- النجارة وأعمال الخشب
245	4- صناعة الحبال

246-245	5- حرفة الصباغة وصناعة الألوان
247-246	6- تربية دودة الحرير
261-248	المبحث الرابع: أوضاع الصناع والحرفيين
248	1- المقصود بالتنظيم الحرفي
250-249	2- تطور التنظيمات الحرفية
252-250	3- التنظيم الهيكلي للأصناف الحرفية
256-252	4- الأوضاع الاجتماعية لأرباب الحرف والصناعات
254-252	أ- التسمي بالحرف والصناعات والانتساب إليها
255-254	ب- التعصب للحرفة والاعتزاز بها
256-255	ج- حقوق الحرفيين
257-256	5- علاقة الدولة بأصحاب الحرف والصناعات
261-258	6- واجبات وصلاحيات متولي الحسبة
259-258	أ- واجبات متولي الحسبة
261-260	ب- صلاحيات المحتسب
333-263	الفصل الثاني: النشاط التجاري بإقليم الثغور
281-264	المبحث الأول: أهمية التجارة في مناطق الثغور
266-264	1- الموقع الجغرافي والأهمية التجارية
280-266	2- المسالك والطرق التجارية
269-266	أ- اهتمام الدولة بالطرق المواصلات والتجارة
272-269	ب- أهمية الطرق الشامية وعوامل قيامها ومخاطرها
280-272	ج- طرق التجارة

275-273	أولاً: الطرق البرية
273	5- الاتصال بين الجزيرة والثغور الجزرية
274-273	6- الاتصال بين الشام والثغور الشامية
274	7- الاتصال بين الجزيرة والشام
275-274	8- الاتصال بين شمالي الشام والجزيرة وبين آسيا الصغرى
275	9- الاتصال بين الجزيرة وأرمينية
280-275	ثانياً: الطرق البحرية
296-282	المبحث الثاني: المنشآت التجارية بمناطق الثغور
290-282	1- الأسواق
293-290	2- الخانات
294-293	3- القيساريات
294	4- الفنادق
296-295	5- الوكالات
303-297	المبحث الثالث: المحطات والمراكز التجارية
309-304	المبحث الرابع: السلع التجارية بإقليم الثغور
309-304	أشهر الصادرات والواردات
307-304	1- السلع المصدرة
309-308	2- السلع المستوردة
333-310	المبحث الخامس: التجار والعلاقات التجارية
323-312	أولاً: التجار
314-312	1- من حيث العمل التجاري

313-312	أ- الركاض
314-313	ب- الخزان
314	ج- المجهز
318-314	2- من حيث المكانة التجارية
316-315	أ- التاجر السلطان
317-316	ب- التاجر الفقيه
318-317	ج- عامة التجار
323-318	3- من حيث العرقيات والأديان
320-318	أ- التاجر المسلم
323-321	ب- التاجر الذمي
333-323	ثانيا: العلاقات التجارية
325-324	1- الشام وثورها
326	2- العراق
328-326	3- الدولة البيزنطية
329-328	4- مصر
329	5- بلاد الحجاز
330-329	6- جزر بحر الشام
331-330	7- أرمينيا
332	8- الهند والصين
333-332	9- المغرب والأندلس

400-335	الفصل الثالث: النظم المالية في الثغور الإسلامية
358-335	المبحث الأول: إيرادات الثغور
344-336	I- الإيرادات المتغيرة
338-336	1- الغنائم
340-339	2- الصدقات والهبات
342-340	3- الموارد الاقتصادية
344-342	4- موارد عامة أخرى
343-342	أ- ضريبة الحرب
343	ب- التركات التي لا وارث لها
344-343	ج- ضرائب المستغلات
344	د- قروض العامة
358-344	II- الإيرادات الاعتيادية
354-344	1- الموارد الرئيسية
350-344	أ- الخراج
354-351	ب- الجزية
358-354	2- الموارد الشرعية
357-354	أ- الزكاة
355	1- الذهب والفضة
356-355	2- المواشي
357-356	3- الزروع والثمار
357	4- أموال التجارة

358-357	ب- العشور (المكوس)
372-359	المبحث الثاني: نفقات الثغور
364-360	1- عطاء الجند وأرزاقهم
366-365	2- الصلات العسكرية
368-366	3- بناء الثغور وتحصينها
370-368	4- تموين الجيش والحملات العسكرية
371-370	5- الفداء وتبادل الأسرى
371	6- أعطيات الأدلاء
372-371	7- نفقات أخرى
377-373	المبحث الثالث: أنواع العملات
388-378	المبحث الرابع: الأوزان والمكاييل والمقاييس
383-378	1- المكاييل
386-384	2- الموازين
388-386	3- المقاييس
400-389	المبحث الخامس: الأسعار ومستوى المعيشة
395-389	1- العوامل المؤثرة في الأسعار
390-389	أ- سياسة الخلافة
392-390	ب- الاضطرابات السياسية والفتن والحروب
395-393	ج- عوارض الطبيعة
398-395	2- الأسعار بين الرخص والغلاء
400-398	3- إجراءات الدولة لمعالجة الأزمات الاقتصادية
412-402	الخاتمة

433-414	الملاحق
478-435	قائمة المصادر والمراجع
547-480	الفهارس
483-480	فهرس الآيات القرآنية
486-484	فهرس الأحاديث النبوية
500-487	فهرس الأعلام
527-501	فهرس الأماكن والبلدان
534-528	فهرس القبائل والفرق
547-535	فهرس المحتويات

الملخص:

لعبت طبيعة المنطقة الحدودية الفاصلة بين العالم الإسلامي والبيزنطي دوراً مهماً في طبيعة العلاقات بينهما، وفي استراتيجية كل طرف تجاه الآخر، وظلت تحظى باهتمام الكثيرين نظراً لأهميتها ودورها الفاعل في أحداث التاريخ الإسلامي، لكونها مسرحاً عسكرياً مهماً خلال الأربعة قرون الهجرية الأولى تتصارع فوقه قوى المسلمين والبيزنطيين، ولم تلبث على حال واحدة لكونها على التخوم، بل كانت في تقدم وتراجع ولم يحتفظ كلا الطرفين بجزء من الأرض احتفاظاً مستداماً، بل كانت السيطرة دائماً للمنتصر، ونظراً لأن منطقة الثغور الإسلامية كانت مختلفة في تكوينها وخصائصها عن المناطق الواقعة خلفها غير المعرضة للخطر، فقد انعكس ذلك على نمط الحياة الاقتصادية.

فلم يكن اختيار المواقع الثغرية اختياراً عشوائياً؛ لأنّ اختيار هذه الأماكن حكمته ظروف كثيرة، لعب العامل الاقتصادي فيها دوراً كبيراً، فغالبية القلاع كانت تتمتع بخصوبة عالية في تربتها، وبخضرة دائمة في أرضها، وبوفرة مياهها سواء من الأنهار أو الأمطار أو البحيرات، وتنوع تضاريسها ومناخاتها، بالإضافة إلى توفر الكثير من المواد الخام اللازمة للصناعة، سواء من المنتجات الزراعية أو الطبيعية، كما أنّ موقعها المميز جعل منها ملتقى تجارياً يربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب. فرغم أن حياة الناس بالمنطقة كانت حربية أكثر منها اقتصادية، وعماد ثروتها القوة لا الصناعة، إلا أنّ إقامة قوات ثابتة تدافع عن تلك المناطق، كان لابد لها من توفر موارد ثابتة للإعاشة، سواء من ناحية المأكل أو المشرب أو التسلح، أو بعبارة أخرى امتلاكها لمصادر الثروة؛ من خلال كسب المال الذي يقوم أساساً على الزراعة والصناعة والتجارة، وقد تأثرت الأوضاع الاقتصادية بالوضع العام للمنطقة التي كان يغلب عليها الطابع العسكري، فقد كانت تدين في بقائها إلى موقعها في تلك المنطقة الوعرة من الحدود، ولعلّ أنّ هذه المناطق قد أثرت في الحياة الاقتصادية بشكل واضح.

Abstract:

The nature of the border area separating the Islamic world and the Byzantine world played an important role in the nature of the relations between them, and in the strategy of each side towards the other, and it continued to gain the attention of many due to its importance and active role in the events of Islamic history, as it was an important military theater during the first four centuries of the Hijra, over which the forces of Muslims and Byzantines struggled , and it didn't remain as it is because it was on the frontier, rather it was in progress and retreat, and neither side retained a part of the land in a sustainable way. Rather, control was always in the hands of the victor, and given that the Islamic border area differed in structure and characteristics from the areas behind it that were not exposed to danger. This was reflected in the economic lifestyle.

The choice of borders was not random; Because the choice of these places was governed by many circumstances, the economic factor played a major role. Most of the castles had a fertile soil, permanent greenery in their land, abundant water, whether from rivers, rain or lakes, and the diversity of their terrain and climates, in addition to the availability of the necessary raw materials for industry, whether from agricultural or natural products, and its special location made it a commercial crossroads linking the East with the West, and the North with the South.

Although the life of the people in the region was more warlike than economic, and the mainstay of its wealth was strength, not industry, the establishment of fixed forces to defend those regions had to provide constant resources to survive, whether in terms of food, drink, or armament, or in other words possessing wealth resources, By earning money that is based mainly on agriculture, industry and trade, and the economic conditions were affected by the general situation of the region, which was dominated by a military. It owed its survival to its location in that rugged region of the borders, and perhaps these areas affected the economic life in a clear way.